رواية

حبيب عبد الرب سروري

دَملان

أبو عبدو البغل

دار الآداب

دَملان

حبيب عبد الرب سروري

دَمــلان

رواية

(الأجزاء الثلاثة)

دار الآداب - بيروت

دَملان

حبيب عبد الرب سروري/روائيّ يمنيّ

الطبعة الأولى عام 2009
ISBN 978-9953-89-075-3

حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّيّ مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير - بناية بيهم
ص.ب. 4123-11
بيروت - لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632(03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

الخيالُ أهمُّ من المعرفة...

ألبيرت آينشتاين

الجزء الأول

شارع دَغْبوس

لِكَمال الدِّين محمد...

الفصل الأول

الأستاذ نجيب

الأستاذ ع.ش.ب. (أو الأستاذ نجيب كما اعتدنا تسميته مجازاً وإن لم تكن ثمّة علاقة بيولوجية ما بين الإسمِ واللقب) يسكنُ أمام شُقَّة الحاج الرُّدَيْني تماماً، في تلك العمارة الصغيرة التي تقع في ركن شارعنا بين «صيدلية سقراط» و«مكتبة المَعرّي».

كنتُ دوماً، كلَّما ضاقت بي الدنيا وداهمني شبح اليأس ودوّامات الضياع، أتوجَّهُ نحو منزل الأستاذ نجيب لأُفرغ أمامه كُلّ همومي وتعاساتي. أصغي لكلماته العذبة وإجاباته العميقة وهي تنسكبُ بإيقاع لذيذ شافٍ، وكأنِّي طفلٌ يصغي لحكايات ليليّة ورديّة تتلوها أمٌّ حنون. فالأستاذ نجيب الذي درَّسني في سنة مُبَكِّرةٍ من سنوات المدرسة الابتدائيَّة، وجعلني في تلك السنة أعشق المدرسة للمرة الأولى والأخيرة في حياتي، هو أستاذي الأبدي، أبي الروحي، وملاذي الوحيد.

عكفتُ عن التوجُّه لمنزله لممارسة هذه المناسك التنقيهيَّة، في هذا الزمن الجديد الذي ازدهرت فيه صناعةُ الهموم، وطفح المنكرُ والفساد، وغابت البركةُ إلا عن سياسات التجويع والقهر واللامساواة. ليس لأنَّ الأستاذ نجيب توغَّلَ في سنِّ التقاعد (فهو ما زال متماسك البنية، بهيّ الطلعة، بشوش الاستقبال، مفتوح الباب...)، بل لأني توغّلتُ أنا في سن الاكتئاب والإحباط النفسي. أو ربما لأنَّ طوفان بؤس وبلايا هذه الأيام لا يمكن تقيؤه في أي متنفس، وإن كان بيت الأستاذ نجيب نفسه، بل حتى لو سكنتُ بمعيَّته وقضّيت ليلي ونهاري أُفرغُ بين جدرانه عواء نفسي الخائرة، وأصبُّ في متونه زخم تأوهاتي اللامتناهية!

عن يوميات اكتئابي النفسي هذا يصعب الحديث كثيراً. طوفان من الغيبوبة يجتاحني منذ ٨ سنين. فجوة مُدلَهمّة داكنة، يكرِّر كلُّ يومٍ فيها الآخر بتطابق شديد. إكتئابٌ عاتٍ تزداد وطأته كل يوم، أظلّ خلاله «مبطوحًا»[١] هامداً خامداً فوق السرير، ليل نهار، كما لو كنت محشوراً في علبة صاردين[٢]. لم أغادر أثناءه المنزل قط. «تَصرْدَنْتُ» تمامًا. انقطعتُ عن الاتصال بالكلِّ منذ أوّل أيامه. بادرتُ بقطع التلفون أيضًا لئلا يتحدَّثَ معي أحد. عمومًا، لم يعد ثمّة أحد يودّ رؤيتي، منذُ أن أجبرتُ أمّي على ترديد هذه العبارة الصماء:

---

١ ـ التوسيح أو الوِسّاح، والبلطَحَة أو التبلْطاح: مترادفات شعبية يمنية، من قاموس غنيّ بِوصف حالة الفتور الذهني، والخمول الجسدي الكامل الطويل على الفراش.

٢ ـ الصاردين: الساردين.

«وجدان مش موجود»! لكلِّ من دقَّ باب منزلنا. هكذا، رفضتُ منذ ٨ سنين رؤية أيٍّ كان، حتى نسيني الجميع تماماً، ولم يتبق هنالك من يتصوّر اليوم أنّني ما زلت حيًّا يتنفّس.

٨ سنوات من «البلْطَحة» على السرير، أمام أُمِّي المسكينة التي تُقَضّي يومها منهمكةً في صناعة البخور العدني، تخلُطه وتطبخه وتعطِّرُه بعشق ومهارة... حسب صيغٍ كيميائيَّة ورثتها عن أُمِّها وأُمّ أمّها... يضمنُ لها ذلك دخلاً ثابتًا وعملاءَ ميسورين، ويضمن لي «قاتًا»(١) يوميًّا رخيصًا ألوكُهُ لوحدي، ومنومات رخيصة تقرّبني يوميًّا أكثر فأكثر من عمق أعماق الهلوسة والجنون.

لم أر منذ ٨ سنين إنسانًا غير تلك الوالدة الحنونة وتجاعيدها المتزايدة. لعلي لم أفلح طوال هذه السنين إلاّ في تنكيد وتدمير حياتها، أو ما تبقى منها. تقول لي دائمًا إنَّني ضربت رقمًا قياسيًّا في «البلْطَحة». لا أظن أنَّها مخطئة. بل أشعر بالفخر إلى حدٍّ ما: على الأقل، هاأنذا قد ضربتُ رقمًا قياسيًّا في شيء ما!

لكنِّي أتساءل لوحدي أحيانًا: أليست هي سببًا في ذلك إلى حدٍّ ما؟ ألم تقفْ حجر عثرة أمام أوّل عشقٍ دقّ بابي؟... المفارقة التي تزعجني قليلاً هي أنّها هي التي قرَّرت أن أُسمّى: «وجدان»، في حين كان والدي يريد أن أُسمى: «محمود»! لعلّها أرادت فقط أن يكون اسمي، وجدان، على نفس إيقاع اسم أبي: قحطان،

---

١ ـ القات: نوعٌ من «العَلَف» يُمارسُ كثيرٌ من أبناء اليمن لَوكَهُ أو «تخزينه» لِساعات طويلة.

لـ «تتقارح»[١] القوافي عندما يناديني الناس: وجدان قحطان. لكنّها لم تدرك يومًا أنّني، لأسباب عدّة هي دون شك أحدها، لا أحمل بشكل جيّد ذلك الاسم! لستُ أبدًا اسمًا على مُسمّى. لا أستحقُّ ذلك الاسم إطلاقًا! لست أكثر من وجدان تحجّرت خلاياه، وجدان من كراتين! وجدان لم تذُقْ شرايينه لذّة الحُبّ يومًا، ولم تضخّ دماؤها على إيقاع هدير الوجد والعشق الذي يشرخ الضلع!...

هذه المرّة، كان الأستاذ نجيب هو نفسه الذي طرق باب منزلنا. أجابت والدتي كما كانت تجيب قبل سنين: «وجدان مش موجود»! قال لها: «أخبريه أنَّ الأستاذ نجيب يبحث عنه، وأظن أنّه سيوافق على الخروج». إستغربتُ كثيراً: لا أتذكَّرُ أنَّه طرق بابنا قبل ذلك! اضطربتُ وفرحتُ لرؤية ابن آدم يبحث عني بعد زمن طويل، لاسيَّما ابن آدم من الفصيلة التي أُقَدِّسُها. لاحظتُ أنَّه مازال بشعرهِ الأبيض الغزير وهيكله الطويل الممشوط، رائع الطلعة، متين البنية، لا يختَلّه وهن ملحوظ. وما هذه التجاعيد الجديدة التي غزتُه مؤخّرًا إلا وشم خفيف يزيده جاذبية، وينسجم مع خصلات شعره البيضاء المستديرة الناعمة ووقار محياه المهيب. لا أدري كيف وجدني، هو، بعد هذا الفراق الطويل. كان مطلعي دون شك بهيجًا كباب معتقل، ومحياي جذّابًا كمقبرة!

بادرني بالقول إن عليّ أن أستعدّ بعد يومين لرحلة طويلة نقوم بها معًا في بلاد بعيدة. لم أستغرب كثيراً، ليس لأنَّ عرق الاستغراب

---

١ ـ يقرح، يتقارح: يتفجَّر.

قد انقطع في جبيني تمامًا خلال سنوات الاكتئاب، بل لأنَّ معايشة الأستاذ نجيب مفعمة دومًا بالمفاجآت التي تصل حدّ الغرائبيَّة. أخذ جواز سفري ليقوم بترتيب هذه الرحلة التي أفهمني أنَّها مجهولة الاتجاه والمدّة. ولم تزدها إلا إثارة وتعقيداً تلك العبارة الوحيدة التي استطعت انتزاعها منه:

ـ سنسافر بعد غد الأربعاء، نحن مدعوّان لحضور حفلة تتويج تشومولونجا التي ستنعقد يوم الخميس، بعد ٨ أيام من السفر!

ثم طلب منِّي سريعًا أن لا أوجِّه له سؤالاً عن أسرار هذه الرحلة قبل انتهاء لقائنا بتشومولونجا!

قلت لنفسي: «لعلَّهُ متأثر بمراسم رحلة النبي موسى مع سيّدنا الخضر الذي طلب من موسى عليه السلام هذا الطلب نفسه». عاهدتُه على ذلك. بل كدتُ أشكره، لأنَّه أعفاني من توجيه الأسئلة، أنا الذي لم أتعلَّم منذ طفولتي إلا سماع الإجابات. لا يتساءل إلاّ من تتوقّد فيه جذوة الحياة وحب المعرفة، وليس أحد كبار أنصاف الموتى مثلي!

الحقُّ أنِّي لم أوافق بتلك السرعة على السفر إلا لأنَّه ينسجم زمنيًّا ونصائح جدّتي نور التي توصي باختيار يوم الأربعاء موعداً لبدء السفر، واختيار الخميس موعداً لبدء المشاريع الهامّة. رحِم الله جدّة شارعنا، الحجة نور، التي ولَّت بين كثيرين ولُّوا أثناء سنوات اعتكافي الكئيب، ووصلتني أخبار خسوفهم أولاً بأوَّل عبر والدتي التي تميل إلى ترديد صيغة: «عَبَرَ فيمن عَبَرْ، رحمهُ اللّه!» الكثيرة الرواج هذه الأيام.

كنتُ أُحبُّها كثيراً، جدّتي نور، وأعجبُ بها بنفس درجة حبّي وإعجابي بالحاج الرُّدَيْني الذي لا أملُّ ترديد عباراته ونظريّاته، والذي يمرّ طيفه في كلّ أحاديثي كما تمرّ صورة هيتشكوك (أو كما تتخلّدُ بالأحرى) في كلّ أفلامه. أتذكَّرُها جدّتي نور بشكل خاص عندما كانت تقول لي بابتسامتها المرحة اللاذعة: «تذكَّرْ كلامي يا بنيّ! جدّتك نور، حِكَمها دُرَرْ»!، وأشعر الآن بالرغبة المفاجئة في تقبيل جبينها، حتّى داخل القبر!

غادرْنا مطار عدن مساء الأربعاء. أخذتُ صحيفةً محليَّةً وزّعتها المُضَيِّفة. مَرَّت أكثر من ٨ سنوات لم أفتح فيها صحيفةً واحدة. بعد الأسطر الأولى، عزفتُ عن مواصلة القراءة. حشرتُ الصحيفة في الجيب الملصق أسفل المقعد المقابل، وأهملتها تمامًا دون ندم. توقّفنا عدّة ساعات في مطار دبي، ثمّ أقلّتنا طائرة أخرى إلى مطار كاتمندو في النيبال.

مطارات، أضواء نيون، أفواج بشرية من كلِّ حدبٍ وصوب، من كلِّ قُطْرٍ أغنية، سواعدُ رقيقة عارية لبَنِيَّةُ اللون، حقائب متزحلقة، أصوات أنثويَّة رخيمة تحملها الميكرفونات، إبتسامات «مُطَعْفَرة»(١)، سلالمُ كهربائيَّة، نهود ممتلئة... عندما ترى كل ذلك بعد أيّام من «التجدُّر» بين ٤ جدران، تشعر بالدَّوْخة والبلادة الشاملة الكاملة اللتين تصلان إلى أقصى نهايات «الْلخَّاج»(٢)، ما بالك إن كنت مثلي

١ - يتطعفر: يفيض أو ينسكب متناثرًا في كلِّ مكان.

٢ - الْلِخَّاج: مزيج من مظاهر التبلُّد والغباء والوهن...

«مُلَخَّجًا» بالفطرة، «مُصَرْدَنًا» منذ ٨ سنوات، مخبولاً بالغريزة، مُدوَّخًا على الدوام!

أيقنتُ، والطائرة تتَّجهُ نحو المشارف الغربيَّة لهضبة التِبْت مقتربة من تخوم الهملايا، أن مفاجآت وغرائب كثيرة تنتظرنا تحت هذه السماء التي تختلف عن سماوات بقية الكرة الأرضيَّة. كانت للسحاب أشكالٌ لم أرها من قبل، وألوان أخرى أكثر نصاعةً ومغناطيسية. بدت لي بعض كتل السحب وكأنَّها تماثيل عملاقة تشبه أحيانًا تماثيل بوذا تعود للحياة بعد أن هدَّمها مرعوشو الطاليبان، وحينًا آخر تبدو كأبي هول جبّار مريع، وتشبه غالبًا جبابرة تلفظُ حممًا من الدخان الأبيض وكأنَّها تنذر بغضب الآلهة. ثم استيقظت قرعات قلبي واستفاقت أعصابي قليلاً حين رأيتُ بعض السحب تأخذ شكل فتاة سامقة تتمدَّدُ عارية فوق وسادة من السحب الوثيرة في أقصى الأفق. لعلها «مانيارا» تلك التي تسكنني دومًا، تلك التي أحلم بها أبدًا!

إلهي، لماذا يحتلُّني هذا الاسم دومًا ويفجِّرُ مُخَيِّلتي ليل نهار؟ لماذا يجتاحني هذا الجسد المتدفق ولا يفارق لاوعيي لحظة واحدة؟ لماذا تعود لي تلك القسمات الحبشيَّة الفاتنة نفسُها، ذلك الجمال الكريم نفسه، تلك العينين الكبيرتين اللامعتين المبتسمتين دومًا نفسيهما، ذلك الثغر الوردي الكثيف الجذّاب نفسه، تلك السمرة النحاسيَّة المنيرة ذات الصفاء المسكر نفسه، تلك الأسنان اللبنيّة المنتظمة نفسها، ذلك الأنف الفخور بديع الدقة نفسه، ذينكما النهدين الطريّين

الدافئين نفسيهما، ذلك الجسد المسبوك من الموسيقى نفسه، ذلك الجسد الرشيق السائل الممتد المنفتح نفسه، تلك الطفولة الأبديَّة التي لا تعرف الحدود والموانع والزيف والكذب والنفاق نفسه؟...

مانيارا، مانيارا، مانيارا...

لا يحملُ لي ذاكرة اسم مانيارا، مع ذلك، غير اسم بحيرة في تنزانيا، مجاورة لقرية أكاتيبو التي ولدتُ فيها من أبوين يمنيين مهاجرين، ثم فارقْتُها في الثامنة من العمر عائداً معهما إلى عَدَن. لا أتذكَّرُ من تلك البحيرة إلا صفاء سماء زرقاء رائعة، ومرابع قردة وأفيال وزرافات محيطة بها، قضّيتُ أجمل أيام عمري أسلو برؤية أنماط وأنظمة حياتها.

لعلّي زرتُ مراراً روضات فوهة بركان نجورو نجورو الساحرة التي لا تبعد عن بحيرة مانيارا كثيراً، والتي كنت أتمتّع برؤية كل حيواناتها من أسود وفهود وفيلة وظباء وغزلان وجواميس وحشية وحمير الزرد (الزبرا) وضباع وزرافات... عشرات آلاف الحيوانات البرِّيَة في محميّة طبيعية ذات جمال لا يُنسى.

لكنّي (وأنا أكمِّل السنة الثامنة من عمري الاكتئابي، وقد تجاوزت اليوم الأربعين من العمر، ونحن نفرغ من الألفية الثانية ونبدأ الألفية الثالثة) أتذكَّرُ اليوم بصعوبة مفازات وسهول سرينجيتي، التي اعتدتم على تسميتها بسافانا أو أدغال أفريقيا، والغنيّة إلى حد التفجّر بأكثر من مليون حيوان برّي... بالرغم من أنَّ قرية مسقط رأسي قريبة

منها. سرينجيتي فردوس ترتع فيه عشرات آلاف الأنواع من الحيوانات والطيور والكواسر والزواحف والحشرات... كم كانت ضخمةً، بحجم مدينة، سفينةُ نوح وهي تحمي من الطوفان كل هذه الآلاف المؤلفة من الأنواع والأصناف اللامتناهية!

لعلّي أتذكّرُ أيضًا بصعوبةٍ أكبر جبال كالمنجارو الأسطوريّة، المجاورة لمنتزهات سرينجيتي وبحيرة مانيارا، والتي سمعتُ أن أرنست همنجواي كتب روايةً رائعة عنْونها: «ثلوج الكالمنجارو». كم تمنّيتُ في صغري أن أرى إشراقة الشمس من بين ثنايا تلك الجبال، أنا الذي طالما سمعتُ أنَّ الشمس لا تشرق بمثل ذلك السناء المتفجّر والتألق الساحر في أيّ مكان آخر... كم حلمتُ مرارًا في كثيرٍ من أيام سنوات اكتئابي أن أقضّي ليلة بداية الألفية الثالثة أحتضنُ مانيارا أحلامي قرب نار دافئة في إحدى قمم تلك الجبال. بعد عشق بحجم ساعات نهاية ألفيّة وبداية أخرى، نستلقي للنوم سويعات قلالاً. ثمّ نصحو على انبجاس أوّل شعاع ذهبيّ لتلك الشمس يأتي إلينا ممزوجًا بأصداء صوتٍ أفريقيٍّ كثيف رخيم صاخب، يصدح من أكمة نائية أو من أعالي شجرة نارجيل، في اللحظة نفسها بالتحديد، بأغنية الأدغال والشروق: «أَكُونَ ماتاتا»... لكن، مع تقدّم سنوات اكتئابي، لم أعد أميّزُ بين الأيام والسنين. وسال من بين أصابعي ذلك اليوم، دون أن أعرف شهرَهُ وسنته، كبقيّة أيام عصر الصاردين.

ذلك هو كل ما يحمل لي اسم مانيارا من ذكريات. لكن لماذا ثمّة ظلٌّ صبيّة ساحرة الجمال، اسمها مانيارا، يلاحقني دومًا ويرقص

في أعماقي ليل نهار؟ أهو وجه قادم من طفولتي المنسيّة، أم من بدء حياتي الحالية، أم من حياة تسبق ميلادي بقرون؟ أهو عشقٌ لم يُمتْ في روح عاشق قضى نحبَهُ قبل دهر وعادت روحُهُ للحياة تتقمّص جسدي من جديد؟...

ما إن غادرنا مطار العاصمة النيبالية فجر الجمعة حتى أخذنا تاكسيًا أمرهُ الأستاذ نجيب بالتوجّه نحو سفوح الهملايا. بحث الأستاذ نجيب (الذي بدا لي بالغ التضلُّعِ بأحوال هذه الديار وعاداتها وكأنَّه زارها من قبل أو درسها بعمق شديد) عن مرافق نيبالي يعرف كلّ أقاليم هذه الجبال وتضاريسها. عاد إليّ برفقة شاب نشيط بالغ الحيوية واللطف، جيّد الإنجليزية وإن كان ذا لهجةٍ تختلف كثيراً عن لهجتي الإنجليزيَّة التنزانيَّة الأصول، اسمه «لُودولاجيري»، اسم إحدى قمم الهملايا الأربع عشرة كما أوضح لنا فيما بعد، أو «لُودُو»، كما صرنا نختزله من قبيل الودّ والاستلطاف.

مثل سكان هذه البقاع، كان للُودو أسنان بيضاء ناصعة. مثلهم، تكسو وجههُ ابتسامة دائمة وهدوء نفسيّ مذهل. لعلّ سرّ ذلك أنهم أقرب سكان الأرض من الشمس، أو ربما لأنَّ حياتهم مفعمة دومًا بأساطير ساحرة تراكمت منذ آلاف السنين...

طلب الأستاذ نجيب من لودو استئجار خمس مطيّات متينة خاليات من الأمراض والجراح. عاد لودو بخمسة حيوانات رأيتها لأوَّل مرّة في حياتي، تسمّى هناك ببقر «الْيَاك».

الْيَـاك حيـوان مُجْـتـر، يسـمّى بالعـربيـة الفطاس أو القـوقـاش أو الحـشـقـاء، كـمـا علمتُ مـن الأسـتـاذ نجـيـب، يـشـبـه الثـور، ذو صـوفٍ طويل، يعيش في هضبة التِبْت وكأنَّه مهيّأٌ فطريًّا للصعود نحو سقف العالم في هذه الجبال الأسطورية التي تبتعد قمّة قممها الأربع عشرة: الإيفرست، نحو تسعة كيلومترات عن سطح البحر!

تأنّى الأستاذ نجيب ولودو بتفصيل وشراء محتاجات رحلتنا من ملابس صوفية تُغطِّي الجسد، من أعلى الرأس حتى أسفل القدم، مثل بذلات روّاد الفضاء، ومن فواكه ولحوم جافّة، وبطّاريات ومصابيح كهربائيَّة، وخيمات وفرشات صوفيَّة، ومعاطف وسراويل إضافيَّة، ومذياع صغير، ووقود لإشعال النار...

وضعنا مؤننا وحقائبنا على ياكين وامتطينا الثلاثة الأخرى. كتمتُ عن رفيقيّ آلام مؤخرتي وانقباض خاصرتي، وبحثتُ عن مقبض ليدي في صوف الياك المنحدر أسفل رقبته يكون ملجأً لي إذا ما فقدتُ توازني.

دوّى لودو: «ياووووووووووووو» ليتحرَّك إثرها الياك الذي يتقدَّم القافلة. طلب الأستاذ نجيب على التوّ من لودو أن تسير القافلة بخطوات هادئة بطيئة. باركتُ كثيراً هذا القرار الحكيم الذي يبدو أنَّه فُصِّل من أجلي وكأنِّي طفل صغير بصحبة أبويه.

أحمد اللّه أنِّي أصعد هذه الجبال الشمّاء فوق ظهر هذه الدّابة المفتولة، لأنَّ أرجلي لم تتعوّد أبداً، في مدينة مطأطئة الرأس

كمدينتي، على ممارسة هواية التسلّق. يرهقني مجرّد الصعود على سُلَّمٍ صغير. أمقتُ تمامًا ممارسة هواية التسلّق كما تمقتُ القطط هواية السباحة، أو كما يمقت معظم ملوك وأمراء ورؤساء بلاد العرب ممارسة هواية القراءة، وإن كانوا جميعًا بقرارات رسميّة روائيين وشعراء وفلاسفة... لا يمنعُ ذلك بعض المثقفين من ماسحي الأحذية (أو بعض ماسحي الأحذية من المثقفين، إذا فضّلتم) من تقبيل أرجل جلالاتهم وفخاماتهم بقصائد عصماء تثير غثيان الشياطين.

بدأ الصعودُ الذي لا أعرف مآله ومبتغاه في هذه الأقاليم الجبليَّة الساحرة لذيذًا مُنْعشًا. تضاعفت نشوته وتخديره كلّما نسيت روتين حياتي القاحلة في الأزقة الغبراء التي عشتُ فيها معظم عمري الذي تجاوز الأربعين سنة، في مدينتي المنكوبة: «عدن»، (أو «عَدَمْ» كما يُفضِّل بعضهم أن تُسمّى وتكون)، عشتُ أوّل ثمان منها في فضاء مانيارا وسهولها الساحرة، وأنهيتُ آخر ثمان منها منفيًّا في علبة صاردين.

في إحدى لحظات توقُّف قافلتنا للاستراحة، استغلّيتُ ابتعاد الأستاذ نجيب عن لودو وعنّي قليلاً، لأسأل لودو عمّا إذا كانت هناك شخصيَّة مرموقة في لجّ هذه الجبال المكشّرة، اسمها تشومولونجا، علّي بذلك أجلي طوبة من أسرار هذه الرحلة التي يأبى الأستاذ نجيب البوح بخفاياها، أو حتى بالخطوط العريضة لبرنامجها. لعلّ استفساري ذلك كان الخيانة الأولى للعهد الذي قطعتهُ مع الأستاذ نجيب... أجابني لودو قائلاً:

ـ تشومولونجا هو الملك الشاب الذي سوف يتقلَّد تاج مملكة دملان بعد بضعة أيام!

ـ مملكة ماذا؟، سألته باستغراب شديد!

ـ مملكة دملان التي نتَّجهُ إليها، أجاب بكل هدوء.

توقّفتُ عن الحديث المباح مع لودو حتّى لا أثير شكّ الأستاذ نجيب الذي لم يكن بعيداً جداًّ عنّا.

لم أسمع عن دملان في حياتي إلا نادراً. كلّ ما أتذكَّرهُ عنها أنَّها مملكة صغيرة مطمورة في هذه المرتفعات السماويَّة العذراء، تتكوَّن من «دمل العليا» و«دمل السفلى»، يعيش قومها في تخلّف سحيق. عاصمتها تلك المدينة الميثولوجيَّة: تَنْكاء، التي اعتاد الناس على تسميتها: تَنْكا، من باب «الدَّلَع»، أو تَنْكا بلاد النَّامس[1]، بتدليل أكثر استفاضة.

إذا ذُكِرت دملان في نهايات أخبار القنوات الإذاعيَّة العالميَّة، مرة كل عدّة سنوات، فذلك لكي يُقال في كل مرّة إن وليّ عهد المملكة قَتل والده واستولى على الحكم في مؤامرة دبّرها كبار كهنة دملان، ثمّ تختفي دملان بعدها عن اهتمامات ويوميات الدنيا. أعترفُ مع ذلك أنَّ بعض تلك المؤامرات تظلّ مضرباً للأمثال. ألم يقل أحد أرباب المافيا الإيطالية يوماً إن «كلَّ ما أنجبتْهُ عقول المافيا الدولية من غدر وتصفيات

---

١ ـ «تنكا بلاد النامس» اسم مدينة خياليَّة في الميثولوجيا الشعبيَّة اليمنيَّة، والنَّامس باللهجة اليمنيَّة تعني البعوض.

تهون أمام ما حصل في مملكة دملان في ١١ أكتوبر ١٩٧٧ و١٣ يناير ١٩٨٦ قبل سجن يأجوج ومأجوج حسب التقويم الدملاني».

عدا ذلك، تُذْكَرُ دملان بإجلال خلال المسابقات الأولومبية لأنَّها تنتزع كُلّ الميداليات دون استثناء، منذ بدء هذه الألعاب، في مسابقات رياضة «التوسيح»(١). كِدْتُ أنسى الأهم: تحافظُ دملان دومًا على موقعها الطليعي في إحصائيَّات الأمم المتحدة السنوية في معدل «وفيَّات الأطفال» بعد الولادة، أهمِّ وأخطر المؤشرات التي تشرحُ لوحدها كل شيء عن سياسة وحياة أي بلد، كما يقول المتخصِّصون.

غير أنِّي هذه المرة لم أسمع عن مؤامرةٍ ما تمَّتْ قبل أسبوع استولى خلالها تشومولونجا على العرش، لسببٍ بسيط: امتنعتُ بشكلٍ نهائي عن قراءة الصحف وسماع الأخبار خلال سنوات اعتكافي في علبة الصاردين.

«كلَّمَا نصعدُ الأعالي، كُلَّمَا نكتشفُ عمق الذات»، قالها الأستاذ نجيب في بداية صعودنا عبر ممرات جبليّة ضيِّقة تسيل في جوانبها شرايين ينابيع رقراقة وممرات سيول، وتحيطها من كلّ مكان أشجار هائلة القامات تنساب جدائلها في جانبي الطريق.

تعرَّفتُ بفضل الأستاذ نجيب ولودو على أشجار متنوِّعة لعلِّي لم أرها في حياتي من قبل، أنا الذي تنحصرُ ثقافتي النباتيَّة الحالية على

---

١ ـ التوسيح أو الوِسَّاح، والبلطَحَة أو التبِلْطاح: مترادفات شعبية يمنية، من قاموس غنّي بِوصفِ حالة الفتور الذهني، والخمول الجسدي الكامل الطويل على الفراش.

شجرة «المُرَيْمِرة» و«البسباس الهَرَرِي». هاأنذا أرى، أشمُّ، وألمسُ أشجار القرنفل والزنجبيل والقرفة والهيل والفلفل والكمون، كلّ مكونات الكاري، وعدد هائل من البهارات الزكيّة. تصعدُ من خياشيمي روائح شبيهة مغموسة في قاع سنوات طفولتي التي عشتها في العوالم الاستوائيَّة. هاأنذا أملأ عينيّ برؤية الأشجار الباسقة والنباتات الاستوائيَّة المفعمة بالاخضرار والتنوُّع. كم تجذب نظري حقول نخيل النارجيل الهائلة الطول! حقول الأناناس، أو «العنانيص» كما نُسمِّيه في عدن، وبشكل خاص تلك الأشجار التي لعلّي لم أرها في حياتي من قبل أو حتّى لم أعرف عنها شيئًا: أقصد كلّ ما أراه هنا أمامي تقريبًا! آه، هل حقًّا لم أرها من قبل؟ أم هي عينها أشجار العوالم الاستوائيَّة التي ترعرعتُ في ظلالها أثناء حياتي التنزانيَّة؟...

مناظر لا تنفكّ عن التنوُّعِ والإدهاش: هضابٌ متباعدةٌ تنمو فوقها حقول الزعفران، مروج من ورودٍ برتقاليَّة وزرقاء لا أعرف اسْمها، شلالاتٌ تأسر النظر، بحيرات كريستاليَّة ساحرة بلون الزمرّد. إلهي، عادت إلى ذهني من أسفل الذاكرة بحيرة مانيارا التنزانيَّة التي ولدتُ على ضفافها...

كلّ خطوة نخطوها تسمح برؤية صخور وذروات جبليّة جديدة تملأ الأفق. فسيفساء أشكال وألوان متجددة تتّحدُ فيها بعبقرية النباتات والمياه والصخور والقمم والعصافير الملوَّنة... آه، كم أنا هنا بعيد عن رياضة «التوسيح» في علبة الصاردين التي مارسْتُها ٨ سنوات! أجزم أن هذه المناظر ستظلّ مطبوعة في مقلتي مادمت حيًّا.

تمنَّيتُ من عمق أعماقي لو كنت جزءاً من هذه المناظر، لو عشت فيها كلّ حياتي . . .

حدَّقْتُ أكثر من مرّة في الأستاذ نجيب الذي قذف بي في هذا العالم الغريب ذي الجمال الوحشيٍّ البديعِ المُذهل: كهلٌ على دابّة في هذه الجبال النائية يبحثُ عن هدف أجهله تمامًا! أيبحثُ عن العمق وهو يصعد الأعالي؟. . . كهلٌ بهيٌّ رفيعُ الجمال كما يلزمني القول، يُسمّيه بعض قوم مدينتنا بـ « المايسترو » وهم يشبّهونه بقائد أوركسترا الأوبرا، وينعتُه آخرون بـ « الجنتلمان » وهم يرون فيه هيئة شيخ إنجليزي وقور في العقد السابع من حياته. بينما أحبّذُ على أولئك وهؤلاء أن أرى في محياه مزيجًا من قسمات فيلسوف إغريقي، وشاعر عربيٍّ ببهاء وعظمة أدونيس!

قضّينا مساء الجمعة في أحد بيوت الضيافة الفندقية المتواجدة في هذه الأعالي. بدأتُ أنسى الإرهاق وآلام الحقو وتصلّب الظهر. كانت ليلةً بعيدة كل البعد عن روتين حياتي الغبارية في مدينتي الترابية البعيدة. بدا لي القمر كبيراً جدًّا، أبيض جدًّا، وقريبًا جدًّا بشكل غير مألوف. النجوم هنا تتغامزُ بينها البين دون توقّف. للظلمة هنا سمك كثيف آسر ونقاء لا يوصف. للرياح صوت آخر يكتنفه السّرُ والتهديد. أحببتُ طيلة حياتي أن أصغي لموسيقى الليل ولإيقاع ظلمته، لكنَّ لليل هنا، في الأدوار الشامخة من الكرة الأرضيَّة، أنغامًا سماوية شديدة الإسكار والسحر.

مشيتُ برفقة الأستاذ نجيب بضع خطوات في الممرّات المجاورة للخان الذي ننام به. للمشي بعد ساعات من الركوب المضني أثرٌ شافٍ وممتع. شعرتُ بصفاء في الذهن، بسعادة مفاجئة، برغبات دفينة تتحرّر بقوّة.

ظلّ لودو يهتمّ بتغذية الدواب وتركِها طليقة في مرعى مجاورٍ للخان. أراه يداعبها بين الحين والآخر. كم هو رقيق مع هذه الحيوانات التي يُجلُّها الناس هنا ويدينون لها بكل المنافع! تهيَّأ لي غالبًا أنّه يلاطفها كثيراً ويتحدَّث معها بلغة تفهمها...

للرياح القادمة من أنكاب بعيدة أصداءُ عواء يرهبني. أكرهُ الرياح عمومًا، ولا أشعر بالثقة، بشكلٍ خاص، أمام هذه الرياح الجبليَّة، لاسيَّما عندما علمتُ من لودو أنَّ جورج مالوري، الرحّالة الإنجليزي ورفيقه أندرو إيرفاين توفّيا في عام ١٩٢٤ بسبب أعاصير الهملايا العاتية، بعد وصولهما المحتمل إلى قمّة الإفرست. يظنّ كثيرون هنا أنَّهما سبقا الرحّالة النيوزلندي إدموند هيلاري ورفيقه النيبالي تنزنج نورجي سربا (اللذَيْنِ دخلا التاريخ كأوّل اثنين وضعا قدميهما فوق رأس العالم في عام ١٩٥٣) لا سيَّما بعد اكتشاف رفات مالوري ورفيقه وبعض أدواتهما اليوم قرب تلك القمّة.

شعرتُ بشيءٍ من القلق وبكثير من الإرهاق الشديد. نمتُ بعمق لا يوصف في أول ليلة من ليالي سفرنا الجبلي الذي لا أعرف غايته.

واصلنا الارتفاع صباح السبت لندخل أصقاعًا يتناثر فيها ثلجٌ ناعم. نصحَنا لودو بارتداء سروال إضافي ندخِلُ نهايته في الحذاء لمنع

الهـواء من التـسـرُّب عـبـر الأرجل. كـان طقسُ ذلك الصبـاح شـديدَ الغرابة: مزيج مـن أشعّة شـمس تحرقُ الوجه ومن نسـمـات ريح ثلجيٍّ قارس. بياض ناصع بدأ يطمُّ كل شيء ويزداد بهاء واكتمالاً مع توغُّلنا العلوي. ثمّ يزداد إعماء وجبروتًا. للثلج لغةٌ لا أفهمها أنا ابن مُدُن الشمس والغبار. للثلج أبواب موصدة أمامي. لا يمكنني أن أتصالح مع الثلج يومًا وإن كنتُ لا أكفّ عن النظر إليه والتسكُّع في رحابه والذهول أمام جماله الساطع. تثلَّج وجهي. صرتُ أراقب الطريق وأُحَلِّلُ احتمال وعورتها بمزيد من القلق. زادت ثقتي بالأستاذ نجيب وإصراره الحكيم على أن تتقدَّم القافلة بخطوات بطيئة ثابتة. لكنّ تساؤلاتي الداخليَّة عن مسار هذه الرحلة وهدفها زادت غليانًا وقلقًا كلّما لاحظت ابتعادنا عن طرق السيّاح والمارة ودخولَنا في أصقاع لم أَعُدْ أرى فيها ابن آدم.

حاولتُ كتمان خوفي. كان الأستاذ نجيب يأمر بالتوقُّف للراحة كلّما بدأ التعب أو الغم يراودني. اقترب المساء عندما أمر أن تَحُطّ مطيّتنا لنصب الخيمة وفرش ملايات الصوف وإشعال نارٍ مجاورة فوق العشب والأعواد الخشبيَّة التي جمّعناها. ظلّ لودو يداعب الياكات الخمسة التي كانت طليقة قرب الخيمة تتغذّى بما تجده من ورقٍ أو أعشاب.

شعرتُ بكثيرٍ من الرهبة والفخر وأنا أدرك أنَّني أتنفَّسُ هنا، قرب نارٍ مدَفِّئة إلى حدٍّ ما في علياء سفوح شامخة تقعُ بين السماء والأرض. خطر ببالي أنَّني بعد يومٍ أو يومين سألمح برمقة عين النصف العلوي من الكرة الأرضيَّة تحت قدميّ! آه، سأرى بأُمِّ عيني كرويةَ الأرض!

بدأ إرهاق السفر يكتسحُ خلاياي شيئًا فشيئًا. ثم عاودت الهواجس والوساوس مداهمتي: أين يذهب بنا الأستاذ نجيب؟ أيّ سرٍّ يختفي تحت شعر رأسه الكثيف الذي تتسلّل أطراف خصلاته البيضاء من غطاء الرأس الصوفي الملصق بهذه البذلة الكوسمونوتيَّة؟ من هو تشومولونجا؟ منذ متى يلتقي الأستاذ نجيب بالملوك والرؤساء؟ ماذا لو كانت هذه الرحلة نزوة كهلٍ لم يعد بكامل حواسِه وعقله؟ ماذا لو كانت هذه الجبال مسكونة بالجنِّ والشياطين؟...

شعرت أنَّ عضلاتي متشدّدة أكثر من البارحة. حاولت المشي وحيداً قرب الخيمة، على ضوء مصباح كهربائي. شعرتُ بمزيد من الخوف والقلق. امتلكتني الرهبة. أطلقت في قرارتي وابلاً من البسملات والتسبيحات قبل أن أحشر نفسي وسط طاقم من الملايات الصوفيَّة. نمتُ للمرة الثانية بعمق ولذة لا توصفان.

صحوت يوم الأحد أكثر نشاطًا ومقدرة على مواصلة رحلتنا العموديَّة في عوالم الثلج والرهبة والخواء. نصحنا لودو أن نلبس المعاطف الصوفيَّة الإضافيَّة. لبسناها وعدنا نواصل عروجنا العلوي في فضاء ثلجيٍّ قارس. اقتنعتُ تمامًا بأهميَّة معاطفنا الإضافيَّة. رفعتُ رأسي لمراقبة ما تحمله الطريق من صخور ونتوءات ومفاجآت.

بدت لي السماء أقلَّ زرقة مما عهدته طوال حياتي. عادت إلى ذهني السنة الوحيدة في المدرسة الابتدائيَّة التي أحببتها. تذكَّرتُ عندما كان الأستاذ نجيب يتحدّث معنا آنذاك عن الحياة والطبيعة بلغة لذيذة مفهومة. تذكَّرتُ عندما شرح لنا أن هذا اللون الأزرق الذي

اعتدنا أن نسمّيه السماء ينتج من احتكاك ضوء الشمس بالغلاف الهوائي المحيط بالكرة الأرضيَّة. ثمّ تنتهي رؤيةُ هذه الزرقة بعد تجاوز الغلاف الجوي الذي يبلغ سمكه عدّة كيلومترات ليس إلا. ضحكتُ يومها كثيراً من أعماقي وسخرتُ من نفسي أنا الذي كنت أعتقد أنَّ هذا اللون الأزرق هو لون شيء ما، سميك جدًّا، مثل صفيحة معدنيّة مستوية، أُسمِّيها السماء، لا تخترقها إلا الجنُّ والملائكة وأرواح الموتى.

بدأتُ أتنفَّسُ بطريقة غير اعتياديَّة. القلب والرئتان تحتاج إلى مزيد من الأوكسجين في هذه المرتفعات السحيقة التي تزداد شحّة الأوكسجين فيها. حاولتُ أن أتنفَّس ملء رئتيّ مرارًا وتكرارًا... شكوتُ للأستاذ نجيب قلقي المفاجئ المتزايد من صعوبة التنفُّس. طمأنني قائلاً إنَّنا سنتوقف عن مواصلة الارتفاع بعد هنيهات قلائل ندخل بعدها في طريقٍ تنحدرُ ببطء نحو فوهة بركان ميّت. فوهة مستويةٍ واسعة، معتدلة البرودة، تموِّلها الرياح بأوكسجين كاف.

كدتُ أسأله كيف تأتّى له أن يعرف كل هذا، لكنِّي تذكّرتُ الوعد الذي قطعته معه. ولأنِّي لا أمتلك روح التساؤل وحُبَّ الفضول النبيلين اللذين امتلكتهما سيِّدنا موسى أمام سيِّدنا الخضر عليهما السلام، فقد رميتُ مشروعَ سؤالي في سلّة مهملات دماغي الذي لم يكن في الواقع، بكلّ تلافيفه ونتوءاته، غير سلَّة مهملات محشورة في جمجمة.

بالفعل، بعد أقلَّ من ساعة ولَجْنا منعطفا حادًّا يحجب ما قطعناه من معابر صاعدة عن معابر قادمة تبدأُ مستويةً ثمّ تهبط ببطء،

لكنَّها حلزونيَّة، ملتوية جدًّا ، غائرة في أدغال جبليَّة نائيَّة لا يمرّ بها إنسٌ ولا جان. صعقتني عُذْرِيَّةُ المكان ومناظره الخلاّبة الفريدة. سرْنا ساعات قلائل وكأنَّنا نرحلُ في كوكب آخر. عاد تنفّسي طبيعيًّا كما كان وإن لم ألمس فعلاً هرولة الانحدار ومخاطره.

ها نحن حقًّا في فوهة جبليَّة مستوية جدًّا تغمرها السهول والغابات، مملوءة من جديد بكلِّ النباتات والأشجار الاستوائيَّة المذهلة، تحاذيها بحيرة ناصعة الزرقة، أشبه ببحيرة مانيارا، أعادت لي ذكريات طفولية امتسَحَتْ من ذهني منذ سنين.

آه، ها هي فوهة نجورو نجورو عينها، أو «كأنَّها هي»، كما قالت ببلاغة هائلة الملكةُ بلقيس عندما رأت قصرها الذي انتزعه أحد الجنِّ من مملكة سبأ وحمله إلى الملك سليمان في القُدس بسرعة فاقت سرعة الضوء! حقًّا، كأنَّها هي فوهة نجورو نجورو، تحيط بها جبال خضراء الهيئة نفسها، تتناثرُ فيها الحيوانات بالكثافة نفسها... كم كنت أعجب في طفولتي بكتل السحب الضخمة «المطعفرة» فوق أنكاب جبال نجورو نجورو كما تتطعفر هنا الآن أمام عينيّ! كم كنت أحدِّقُ في ظلال السحب وهي تتناثر كجزر جميلة على بحيرة مانيارا والمروج الخصبة المحيطة بها كما أراها الآن أمامي! قطيعٌ هائل من الفيلة يتقدَّم نحو الأفق. حشود، أو بالأحرى جيوش، من حمير الزرد المخطط (الزبرا) والبقر الوحشي (الجنو)، أسراب من الغزلان والظباء في كلِّ مكان، كما لو كنتُ قرب مانيارا طفولتي! كواسر ضخمة تتمخطر على قارعة الطريق، لعلّها أنواع نادرة من النسور لا أعرف اسمها، ذات قامات أكبر وأضخم

مما رأيته في الكتب والأنسكلوبيديات، أشكال وأنواع من القردة تنطُّ، تعشقُ وتتمتعُ على قارعة الطريق. كأنَّني هنالك قرب مانيارا، قرب مهد البشريَّة التي عاش فيها منذ ثلاثة ملايين سنة في وادي أولدوفاي: «مهد الإنسانية»، السيد زينجان تروبوس بوساي، أقدم إنسان وُجد هيكله حتّى الآن، أو آدم العلم إذا جاز القول، أقصد جدّ الإنسان الحديث الذي تتخلّد بقايا جمجمته في متحف في نيروبي....

ـ لسنا بعيدين كثيراً عن «باب دملان»! سنبقى هنا هذه الليلة ونواصل السير غداً. أيناسبك ذلك؟ سألني الأستاذ نجيب.

ـ نعم، أجبتُ دون تردّد، لفرحي أوّلاً بقضاء ليلة أشبه بليالي طفولتي النائية في فضاءات تعيد لي شذرات من كينونتي المطمورة، ولعدم عجلتي ثانياً لمعرفة ما ستحمله هذه الرحلة التي بدأتُ أرهبها كثيراً.

انحرفنا قليلاً عن المسار المستقيم الذي يخترق قطر الفوهة ويقودنا نحو «باب دملان». أخذنا طريقاً جانبيَّة عموديَّة قادتنا إلى إحدى أولى المفاجآت التي لن تتوقف خلال هذه الرحلة التي لم تبدأ أساساً بعد: مقصورة زجاجيَّة ترتفع فوق تلٍّ صغير.

ما إن وصلناها حتى خرج يستقبلنا شيخ نيبالي بالغُ الطيبة والحفاوة اسمه يواني باهادور. يبدو أنَّه يعرف جيِّداً الأستاذ نجيب، إن لم يكن صديقاً قديماً له! لم يستغرب مجيئنا، بل لعلّه كان يتوقّع أو ينتظر ذلك.

قادنا إلى غرف هُيِّئتْ لنا مسبقًا، وقاد الياكات إلى إسطبل مجاور للمقصورة فيما كان الأستاذ نجيب يتحدَّث معه عن ذكريات وأشياء عدّة أجهلها.

ثم تناولنا مع يواني عشاء ذلك الأحد الذي لن أنساه. ربما لتناوله قرب الجدران الزجاجيَّة للمقصورة على سفرات جميلة مطرَّزة باليد، مزخرفة بذوق تِبْتِيٍّ رفيع، أو ربما للذَّة حساء الخضار الأرستقراطي (البالاباني) وشراب شعير الهضاب (التشينكغة)، أو ربما لنار المدفأة المجاورة التي كنتُ أحملق في توهّجها بإعجاب، والتي منحتنا كثيراً من الدفء، عدّة شرائح من غنم المروج المشويَّة، وذلك الوهج الأرجواني الذي لا أملّ التمعّن في ارتعاشاته واضطرامه، أو بالأحرى أعشقُ التحديق في شعلاته الشاردة، مفتونًا مخلوب اللّب، وكأنِّي ورثتُ من جدٍّ مجوسيٍّ عاش قبل الإسلام جيناتٍ لم تترمَّد أبداً... لكن، ما لن أنساه قبل وبعد كل شيء، هو الديكور العام والفريد جدًّا لوجبة تناولناها داخل مقصورة زجاجيَّة تتوهّجُ ككوكب قدسي، على أكمة نائية تقعُ في سهول فوهة بركانية تعجُّ بظلمة ليل مُدلهِمّ كثيف. تعجُّ أيضًا بضوار وسباع تحوم في الليل بحثًا عن عشاء هارب.

رأيت ليلتها، فيما رأيته، فهداً صغيراً (من نوع الجيبار كما يقولون بالفرنجية) مُحْتمياً أو ربما نائمًا، فوق شجرة الصفصاف الضخمة المجاورة للمقصورة، يفاجئه من الخلف فهد آخر (من نوع الليوبار) يلتهمه أمامي. مسكينة فهود الجيبار! ها هي اليوم على وشك الانقراض من المعمورة كما عرفت. تدفع ضريبة نومها الطويل

في الليل عندما تجوب بقية السباع والوحوش بحثًا عن فريسة تصطادها. تلتهمُ أطفالَها بلذّة مميَّزة الأسودُ والضباعُ... حتّى أولاد عمّها فهود الليوبار تفترسها بضراوة كما رأيت بأم عينيي. لعلّها أيضًا ضحية سرعتها في العدو التي تفوق سرعة أيّ حيوان آخر وتسبِّبُ لها أحيانًا سكتات قلبيَّة حاسمة. ثمّ إنّها تدفع بلا شك ثمن ممارستها المجامعة بين الإخوة والأخوات وأولاد الخال والعمّ من العائلة نفسها وما ينتجه ذلك من أجيال أكثر ضعفًا مع مرّ الزمن، لا يرحمها مبدأ «الانتقاء الطبيعي»...

شعرتُ بألمٍ غريب عندما شرح لي الأستاذ نجيب والسيد يواني باهادور تراجيديا انقراض فهود الجيبار من سطح الأرض، وهم يشاهدون مثلي موت طفل الجيبار بين أنياب الليوبار فوق جذع الشجرة المقابلة لمقصورتنا الزجاجية. أتذكّرُ تمامًا ما قاله الأستاذ نجيب حينها:

- نسبة «وفيّات الأطفال» بين فهود الجيبار تفوق كل حيوانات الدنيا، بما فيها الإنسان بكل شعوبه، بما فيه الشعب اليمني!

قبل أن يهامسني، بعيداً عن مسمَع السيد يواني باهادور:

- يُضرب بفهد الجيبار المثل في الكسل وكثرة النوم. قال العرب قديمًا: «أَنْوَمُ من فهد»، أو«أَثْقَلُ من فهد». فهد الجيبار «يُوسِّح» أكثر من أبو يمن! ينام أكثر منّك!

عادت إلى ذاكرتي سريعًا الصحيفة اليمنيَّة الرسميّة التي قرأتها داخل الطائرة ونحن نغادر عدن، بعد انقطاع ثماني سنوات عن

القراءة، والتي قال فيها صحفيّ مُظَفّر «إن شعوب العالم تحسدُ اليمن على إنجازاتها!» شعرتُ بالاستغراب الشديد: لا أعرف دولةً في العالم يمكنها أن تحسد بلداً نسبةُ وفيّات أطفاله بذلك العلو... أما الآن وقد عرفتُ مأساة الجيبار فيلزمني أن أعتدل في أحكامي المتطرِّفة، وأقول بمزيد من الدقة: عدا مملكة فهود الجيبار، لا أعرفُ دولةً في العالم يمكنها أن تحسد اليمن...

بعد حوالى ساعة من عشائنا اللذيذ، بدأتُ أشعرُ بخمول مفاجئ. استرخيت على أريكة مجاورة لطاولة المائدة التي ظلّ الأستاذ نجيب والسيد يواني باهادور يتحدَّثان حولها بتفاعل متواصل، فيما صعد لودو للنوم في غرفته.

بعد أن غفوْتُ هنيهات لا تتجاوز العشر دقائق، استيقظتُ على رؤية ستَّة عشر أسداً تحوم حول المقصورة، وتحملقُ في ثلاثتنا وكأنَّها تماثيل راسخة، لا تفصلنا عنها غير بضعة أمتار. تطوف أحياناً حول مقصورتنا لكنَّها ثابتة غالباً، أو ممدَّدة على الأرض، شاخصة أبصارها بجمود لا يتخلّله إلا تثاؤب بين الحين والآخر. تُحدِّقُ فينا كما لو كنّا حيوانات داخل قفص في حديقة حيوانات. لعلّنا كنّا تماماً كذلك، وكانوا هم الزائرين. ممتعٌ أن يكون العالم بالمقلوب بين فترة وأخرى! أو بالأحرى، لا أتمنَّى، إن كان لي أن أتمنَّى، إلا أن يكون العالم دائماً بالمقلوب، ليمتلئ عدلاً وصدقًا وحبًا ومساواة وسعادة...

هكذا نمتُ تلك الليلة بشكل غير أليف جداً: مسترخيًا على أريكة فاخرة داخل مقصورة زجاجيَّة تشعّ سناءً، وسط قممٍ جبليَّة

يغمرها ليلٌ حالك، لا يفصلني غير حاجز زجاجي وبضعة أمتار تعدّ بأصابع اليد عن أشداق ستة عشر أسداً.

في الصباح الباكر من يوم الإثنين واصلنا رحلتنا دون ركوب الياكات هذه المرّة. أخرج يواني من جاراج المقصورة سيارة لاندروفر (صالون) ذات سقف قابل للفتح، أعطى مفاتيحها للودو. لم أوجّه سؤالاً عن سبب ترك الياكات والاحتماء بتلك السيارة، ليس لأنّي لم أرد أن أنكث بعهدي مع الأستاذ نجيب، بل لأنّه لم يكن صعبًا لمن رأى شدق ليوبار يلتهم جيباراً أمامه أن يدرك أنّه من الأفضل الاحتماء قليلاً أثناء عبور هذه الأدغال الضارية.

وصلنا من جديد إلى قطر الفوهة حيث تمرُّ الطريق المستوية المستقيمة التي تتوجهُ نحو دملان، والتي انحرفنا عنها البارحة باتجاه المقصورة. واصلنا التقدُّم فيها. بدأ قلقي يزداد بصمت، لأنّي لا أدري ماذا ينتظرنا في «باب دملان». ثم ارتفع قلقي عندما توقّفت السيارة أمام مفترق طريقين يؤديان إلى جبلين هائلين. طريق على اليسار، تشير إليها لافتة كبيرة بكلمتين:

مغارة (خطر)

وطريق على اليمين، تشير إليها لافتة كبيرة بكلمتين:

مملكة دملان (خطر)

سألتُ لودو أن يحدّثني عن تلك المغارة. قال:

ـ لا يوجد مكان في الدنيا أغرب من هذه المغارة. لم أسمع أن أحداً دخلها يوماً، ولا أعرف إنساناً يزمع الاقتراب منها. كثير من مخاوف ومعتقدات أهل هذه البلاد تكمن في هذه المغارة. شخصيًّا، لا يتأرجح إيماني إلاَّ في اثنين من هذه المعتقدات.

طلبتُ منه دون أن أستطيع إخفاء انقباضي وإثارتي أن يُحدّثني عنهما. قال:

ـ ثمّة من يقول، واللّه أعلم، إنّها تؤدي إلى برزخٍ من سبك الحديد يختفي خلفه قوم يأجوج ومأجوج. وثمّة من يقول إنّها «مقبرة الفيَلة» التي تتوارث الأجيال الحديث عنها ولم يرها أحد. يعرف أبناء بلدكم دون شك أنَّه يقال دوماً إنَّ الفيل قبل وفاته بقليل يبتعد وحيداً متّجهاً نحو مكانٍ مجهول لم يعثر عليه أحد، يسمَّى في المخيّلة الشعبيَّة: مقبرة الفيلة. لعلّه هنا داخل تلك المغارة...

لم يخطر ببالي بالطبع مغامرة الدخول من باب تلك المغارة. ربما كان ذلك سيمنح لاتجاه حياتي بُعْداً بطوليًّا يبدّد ضحالتها المزرية. نظر الأستاذ نجيب طويلاً إلى هذه المغارة التي يبدو أنَّه يعرف الكثير عنها ولا يريد أن يقول بصددها كلمةً واحدة... كما لو كان له موعد قريب معها.

أخذتْ سيارتنا طريق اليمين المتَّجه نحو «باب دملان». وصلنا بعد أقل من ساعة مغارةً كبيرة مغلقة بباب فولاذيٍّ مزخرف. طرق لودو الباب طرقاتٍ تُشبِه طرقات شفرة سريّة. فتح الباب كوكبة من

رجال مدجّجين بالرشّاشات ومدافع الأربيجي والجنابي والقنابل والحقائب الدبلوماسيَّة... «لا ينقص كل واحد منهم إلا «صحن الديش»، (صحن استقبال القنوات الفضائيَّة)، فوق رأسه ليكون كامل الأوصاف، من عيال آخر موضة، «يقْرَح قَرِيْح»، كما كان يقول أحد معارفي عند رؤية عينات بشريَّة من ذلك الطراز نفسه تعبر شارع المُعلاّ الرئيس.

كاد قلبي يسقط في جوانحي وأنا أرى هذا الحشد المسلَّح الذي لا يشعُّ منه أدنى لطفٍ وكياسة، لولا ابتسامة الأستاذ نجيب ولودو وهما يتنفّسان الصعداء ويقولان بصوت واحد وبلغتين مختلفتين: «آه، وصلنا مملكة دملان!».

سلّم الأستاذ نجيب جوازات سفرنا التي نظر لها حشد العسكر نظرات جانبيَّة لا تخلو من التمتمة والريبة. أسرع الأستاذ نجيب بإخراج دعوة رسميّة غيَّرت سلوك العسكر، وأغلقت باب الإجراءات والأسئلة والإجابات الطويلة والتفتيش الدقيق الذي أمتعضُ منه كثيراً. بعد تشاور جانبي بين الحرس ترجم لودو هذه العبارة الدملانيَّة التي التقطتها بكل مقاطعها ولم أستطع نسيانها؟: «كولونياتا»، أي: «يُسمح الدخول!».

سلّم الأستاذ نجيب مائتي دولار دملاني لضابط الحرس ليأخذ منها خمسين دولاراً دملانيًّا مقابل فيزة كلٍّ واحد منّا، وليعيد للأستاذ نجيب ورقة خمسين دولاراً.

الفصل الثاني

تَنْكاء

نفق جبليٌّ من بضعة كيلومترات لا غير يفصل باب دملان عن العاصمة التاريخيَّة: تنكاء، «تنكا» كما اعتاد الناس تسميتها شعبيًّا، أو «تنكا بلاد النَّامس» كما يقولون بإسهاب أكثر إثارة وغنجًا. لعلي كنت محظوظًا إلى حدٍّ ما: من لم تعصره الرغبة لزيارة هذه المدينة الميثولوجيَّة ومعرفة أسرار تلك التسميات؟

هاأنذا أعبرُ نفقًا هملاييًا طويلاً ينفتح على جبال شامخة جديدة تنتصّ عليها تنكاء الشهيرة، الحلم الذي لم يستطع الوصول إليه سندبادات البرار والبحار، ويئس من بلوغِه وفتحه الإسكندر المقدوني هو نفسه، الذي اعترف بذلك وهو يلفظ آخر حسراته قبل الموت، حسب رواية جدّتي نور رحمها اللّه ووهبها أجمل مقصورات جنّاته.

ما إن لاحت عاصمة دملان من بعيد، حتى جوّلتُ نظري في مرتفعاتها الشامخة وطراز معمارها الدملاني المتميّز الذي قرأتُ عنه كثيراً في صباي. سقط قلبي إعجاباً بهذه الجنَّة المتبوئة عروش القمم، والمطمورة في أقصى الكرة الأرضيَّة.

على التو، سألتُ الأستاذ نجيب أن يعيرني الكتاب السياحي الذي رأيته بحوزته عن مملكة دملان. أخرج كتابين، سلّمني أحدهما. رمقتُ الآخر، كان مجموعةً قصصيّةً سميكة الغلاف، حلوة الإخراج، بعنوان: «يحدث في تنكا بلاد النامس» للأديبة أروى عبده عثمان التي فازت بالمركز الأول، كما يقول الغلاف، في جائزة... لم أجد الوقت الكافي لقراءة اسم الجائزة المشار إليها في أسفل غلاف ذلك الكتاب الذي أعادهُ الأستاذ نجيب من جديد إلى حقيبته الظهريَّة.

تصفَّحتُ الكتاب السياحي عن مملكة دملان. قرأت في بدايته أن «أهلها يتكلمون اللغة الدملانيَّة باللهجة نفسها منذ عصر الجاهليَّة. لم يختلطوا بأهل الحاضرة بمناكحة أو مجامعة أو مساكنة أو مصاهرة»... سألت الأستاذ نجيب عمّا يعنيه عصر الجاهلية هنا. كان سؤالاً ثقافيًّا بحتًا لا ينكث العهد الذي قطعته معه. أجاب أنَّ عصر الجاهلية بالنسبة للدملانيين هو عصر يأجوج ومأجوج كما يبدو، وإن لم توجد قطيعة إبستومولوجيَّة بين العصرين.

ـ قطيعة إيش يا أستاذ، قاطعته بصوت دوّت وامتطّت فيه كثيراً كلمة «إيش»، أنا الذي أفزّ عندما أسمع كلمة «مُحنّنةً مُطنّنةً» كهذه

الكلمة المرعبة التي سقطت على مسمعي «كجلمود صخر حطّهُ السّيلُ من علِ»، كما قال امرؤ القيس.

ـ عفواً، قطيعة معرفيّة، أعني بذلك...

ثم دخل الأستاذ نجيب في دوّامات تعريفات وشروحات فلسفيَّة لم أصغ لها ولو بشكل سطحيّ. فضّلتُ أن أواصل قراءة الكتاب السياحي على هذه المحاضرات الفلسفيَّة المرعبة التي تتطلّب لفهمها «ترهيطاً ذهنيًا»[١] كما يقول أولاد حارتي، والتي دوّخت وتدوّخ بي دوماً.

عرفتُ من الكتاب السياحي أنَّ عاصمة دملان تقع في «دَمْل العليا»، واسمها التاريخي هو «قرية الزرائب». أما اسمها الحديث الذي أُطلق عليها منذ دخول علبة الزيت المعدنيَّة، «التَنَكْ»، لقرية الزرائب فهو تَنْكاء، أو تَنْكا من باب التبسيط والدلع كما يعرف الجميع.

يقول الكتاب السياحي إنّ «التَنْك» هو اسم شعبيّ للعلبة المعدنية المغلقة كُلّية التي تُستخدم أساساً لحفظ عدّة لترات من الزيت. يضيف الكتاب: «قاعدتا التنك السفلى والعلوية سطحان مربعان، وأوجهه الجانبيَّة الأربعة متوازية مستطيلات مُسطّحة». وحول استخداماته الأخرى يقول الكتاب: «عند تَصَدُّئه يُشقُّ التنكُ عرضيًّا من وسطه، ويستخدمُ نصفُه الأسفل في المرحاض البدائي: «النُقْرة»، لاحتواء الغائط، الذي يسمّى في مملكة دملان: «الدَّمْل».»

١ ـ الترهيط: ممارسة العادة السرّية.

أما عن مدلول كلمة الزريبة فلا يقول الكتاب أكثر من تحصيل حاصلٍ يعرفه القاصي والداني: «يُطلقُ اسم الزريبة على مساحات تُجَمَّعُ فيها الغنم والأبقار لتناول العلف»... لا أظن أنَّ من يسكن قرب «زريبة كباش السيلة»، الواقعة على مشارف شارع دغبوس، يحتاج لمثل هذا التعريف.

كدتُ أقول بدلاً من «زريبة كباش السيلة»: «منتدى كباش السيلة»، على حدِّ تعبير الأستاذ نجيب الذي جُنّ جنونه عندما زاد استهلاك القات في اليمن، وتعمّمت مجالسه الشعبيَّة (التي كان يسمِّيها «زرائب القات») واجتاحت البلد منذ بدايات التسعينات (قبل بدء سني اكتئابي النفسي بقليل)، وأُطلقَ عليها مؤخراً اسم جديد، جليل وفخور جداًّ: «منتديات القات». كان الأستاذ نجيب يقول:

- كيف يتجرأون إطلاق كلمة المنتدى (التي تترجم كلمة «فوروم» اللاتينية، أي منابر «الأوجرا» الإغريقيَّة السامية) على مجالس هلوساتهم؟ كيف يسمحون لأنفسهم بذلك...؟

ولأنَّ صرخات الأستاذ نجيب وصحبه من مناهضي القات كانت صرخات «مُغَنِّي جنب أصنج» كما يقول المثل الشعبي، فقد كان عزاؤهم أن أطلقوا، من باب احترام مبدأ «التماثل الهندسي»، اسم «منتدى كباش السيلة» بدلاً من «زريبة كباش السيلة» مقابل قبولهم بالتسمية الشعبيَّة: «منتديات القات» بدلاً من «زرائب القات»... أضحكني حينها أنَّهم كانوا يقولون إنَّ عدم تسمية زرائب الكباش

بالمنتديات هي الأخرى، هو ضَربٌ من العنصرية ضدّ فصيلة الكباش... أغلقتُ في ذهني ملف هذه التعريفات الأكاديميَّة والجدل السوفسطائي الذي يدوِّخُ بي دومًا، وواصلتُ قراءة الكتاب السياحي لأعرف منه أنَّ دملان تعيش هذه السنة ما يسمّى ثمّة بـ «عام الأقتموم». سألت أستاذي:

ـ ما هو الأقتموم؟

ـ نوع من التبغ الدملاني الذي يطحن ويمزج بمساحيق دملانيَّة لا نعرف منها إلا الخشخاش. يضع أهل دملان قليلاً من مسحوق الأقتموم في أحد أطراف الخد، بين الشفة السفلى والفك، يمتصّونه ببطء...

أخرج من جيبه ورقة الخمسين دولارًا دملانيَّة التي استرجعها من ضابط الجوازات، وأراني على أحد وجهيها صورة ورقة نبات الأقتموم، الرمز الوطني للمملكة. دخلنا حينها أول شوارع عاصمة دملان...

لم أُصدِّق أنَّني هنا في تنكا الأسطوريَّة، تلك المدينة الفريدة والنادرة الجمال التي تتحدَّث عنها الكتب والأساطير. رأيت منذ مدخلها رجالاً مقرفصين فوق صخور جبالها المتداخلة، وكأنَّهم جزء من تلك الصخور، يمتّصون الأقتموم في سدرٍ عميق وخدرٍ لذيذ. سألت الأستاذ نجيب قبل أن أقلب ورقة الخمسين دولارًا لرؤية وجهها الآخر.

ـ وما هو «عام الأقتموم»؟

ـ أحد أعوام البروج الدملانيَّة. يوافق تقريبًا «عام الثعبان» الذي يتبع «عام التنّين» في بروج الصين. يفتي كهنة دملان أنَّ على

الدملانيين في عام الأقتموم أن يضاعفوا من امتصاصهم له، وأن يتناولوه في مختلف مناحي ومحافظات المملكة بما فيها تلك المحافظات التي لم تعرفه يومًا، لكي يتمّ بذلك طردُ الجنِّ والأرواح الشريرة التي تضاعفت مؤامراتها فوق سماء دملان خلال ذلك العام!

حدّقتُ كثيرًا في تنكاويي دملان المستلقين في ظلال تلك الصخور الفاتنة ملاحظًا قبح أسنانهم الزرقاء اللون بفعل آثار الأقتموم. تصوّرتُ أنّني لو تناولتُ قليلاً من الأقتموم في تلك القمم المسكرة الجمال فإنّني سأنهض على حين غرّة، سأرفع يديّ نحو السماء كما لو كنت هرقل نفسه وهو يحمل السماء على كتفيه. ثمّ سأُدوِّي الصرخة الطرزانية المشهورة: «آه هاهاها آه هاهاها آه هاهاها» قبل أن أتجشّأ جشأة لا تحترم هذا الفضاء الشفّاف الجميل، أهوي بعدها من قمّتي وأنام يومين متتاليين تنتابني فيهما أحلام تشبه أحلام المجانين.

نظرتُ إلى الوجه الآخر من الورقة النقديّة الدملانيَّة لأرى صورة بَعوضٍ بحجم صرصور صغير، يسمّونه: النَّامس. لم يدعني الأستاذ نجيب أصيغ سؤالي. قال:

- إنَّه الرمز الثاني لدملان! النامس الدملاني بعوض من النوع «العَرِز»، أزيزُهُ قويٌّ جدًّا، قَرْصهُ عميق حاد، مُهيِّجٌ سريع للجلد والدم، لا تفيدُ ضده أقراص عقاقير النيفاكين ولا البالودرين ولا حتّى اللاريام... يطير غالبًا فوق سماء تنكا بأفواج يمكنها أن تُشكِّل مظلّةً تحجب الشمس عن الأرض. سترى أفواجًا كتلك بين الحين والآخر.

واصل الأستاذ نجيب:

ـ اعلم أوّلاً أن النّامس هنا حشرة مقدّسة، كما أفتى كهنة دملان! ثمّة أصناف مختلفة من النّامس في هذه الديار. تنكا، أو بُطون ملوكها وشيوخها وكهنتها ومسؤوليها مصنع للنّامس بكلّ أنواعه وأحجامه كما يقولون في هذه الديار...

توقّف الأستاذ نجيب مؤشراً إلى عمارة مجاورة يعلوها العلم الوطني لمملكة دملان. بدت عليه صورة ملك، بجانبه نقشٌ لرمز المملكة: عشبُ أقتموم يميلُ دائريًّا بشكل هلاليٍّ تتوسّطُهُ حشرةُ نامس. ثمّة لوحةٌ تشكيليّةٌ كبيرةٌ مجاورة للعلَم عليها الملكُ نفسه يبتسم متجشئًا نامسًا من أكبر العيارات، يُحيّي شعبهُ الحبيب بيد، ويحمل باليد الأخرى غصن الأقتموم.

ـ لعله تشومولونجا، أو أبوه، قلت لنفسي!

جاء الردّ غير مباشرٍ من لودو الذي قال مخاطبًا الأستاذ نجيب:

ـ غُيِّرتْ كلّ أعلام المملكة بسرعة خياليَّة. استُبدلت بين عشيّة وضحاها صورة القتيل بالقاتل، صورة الأب بالإبن، للاستعداد لاحتفال التتويج يوم الخميس القادم الذي يصادف أهم الأعياد السنويَّة في دملان: عيد النامس!

حامت في رأسي أسئلة كثيرة، كتمتُها لأفي بعهدي مع الأستاذ نجيب! أو بالأصح هربتْ كلّها منّي بلمحة برق، وأنا أرى سحابةً كثيفة تقترب من سيّارتنا.

يا للهول! ليست سحابة مارقة! إنَّه سربٌ هائل من النامس الدملاني:

١٨ مليون نامس! هييييييييييييي

كل نامس ينطح نامس، حيّا؟!؟

كل نامس يدعس نامس، هيّا؟!؟(١)

كل نامس يركب نامس، حيّا؟!؟

كل نامس يلهف نامس، هيّا؟!... ؟(٢)

كما تقول أغنية «رُوْك» دملانيَّة صاخبة شهيرة عرفتُها فيما بعد وأعجبتُ بشكل هائل بروعة وجمال الفنّانة الدملانيَّة الشابّة الموهوبة التي كانت تُغنّيها.

أغلق لودو تمامًا كلَّ نوافذ السيارة بانتظار أن يبتعد سرب النامس، فيما ظللتُ أُحدِّق بذهول فيما يُشبه بحيرة دخان هائل تملأ الفضاء.

تقدَّمت سيارتنا في اتّجاهِ وسط تنكا بعد أن ابتعدت عنّا سحابةُ النَّامس بما فيه الكفاية. واصلتُ قراءة الكتاب السياحي من حيث توقّفت. يؤكّد الكتاب ما ألاحظه بأم عينيي، قائلاً: «يقبع رجال دملان فوق صخورها وكأنَّهم جزء ثابت من تلك الصخور. وإذا

١ ـ يدعس: يدوس، يدهس.

٢ ـ يلهف: يلطش.

تحرَّك أحدهم قليلاً بين سفوحها وكهوفها فذلك للبحث، كما يقولون، عن كنوز تختبئ هنالك منذ عصر الملكة بلقيس»!

استنجدتُ بلودو. رجوته أن يفسِّر لي كلَّ غموض هذه العبارة. أجاب:

ـ يقول التنكاويون، واللَّه أعلم، إنَّ عصابة من الجن اعترضت الجنيّ الذي حمل قصر ملكة سبأ إلى النبي سليمان، وأخفت العصابة ما نهبتهُ من المجوهرات والعطورات المسروقة في بعض كهوف جبال دملان!

استغربتُ أولاً كيف يعرف الدملانيون، هنا في هذه الأصقاع البعيدة عن أراضي الإسلام، مملكة سبأ وقصة الجنيّ الذي حمل قصر الملكة بلقيس من سبأ إلى القُدس، قبل أن يغمض الملك سليمان عينيه، سابقًا بذلك الجني الآخر الذي اقترح أن يأتي بالقصر من سبأ «قبل أن يقوم الملك من مقامه»... وما حصل بعد ذلك عندما أوصى الملك سليمان بسبك مجرى للماء ممرّد من قوارير أمام مدخل القصر المسروق لتوريط الملكة بلقيس كي تكشف عن ساقيها اللتين ظنَّ بعضهم أنَّهما ساقا بقرة... إلى آخر تلك القصة الغرائبيَّة المثيرة العجيبة.

لم يُغيِّر مجرى ذهولي بعد ذلك إلا أسئلة الأستاذ نجيب الذي قال:

ـ هل أعاد الجنيّ القصر بعدها إلى سبأ؟ هل تركه في القدس في مكان ما بين المسجد الأقصى وكنيسة القيامة؟ لا أعرف! يلزم استفسار

ذلك الجنيّ نفسه إن أمكن، بدلاً من تسمية «معبد المقا» السبأي في مأرب بـ«قصر الملكة بلقيس»، بهذا الشكل المثير للضحك.

لم يتغيَّر أستاذي قيد أنملة! هكذا كان دومًا منذ أن درَّسني في المدرسة الابتدائيَّة! يفتح ألف سؤال وسؤال حول كل ما تعوَّدنا أن نمرطه دون تردّد، من قصص وأخبار ومعلومات وأساطير...

لم أتابع بعد ذلك كلمة من تساؤلاته وتحليلاته. أكره الأسئلة: هكذا علَّموني في هذا البلد أن أكون. أستطيع أن أجُبّ بكلّ سعادة بحراً من الإجابات، متناقضة أو غير متناقضة، أصدِّقها كلَّها بلمحة بصر، دون أدنى شكّ أو تمحيص. لكن الأسئلة ترهقني، تزعجني، تتعبني، تؤرقني...

اقتربنا من أول شوارع مركز المدينة. زلزالٌ هزّني في تلك اللحظة بالذات وأنا أرى فتيات تنكاء يسرن على فطرتهن دون حجاب أو شراشف، فاتنات لذيذات، عصافير ساحرات، يحفظن ويواصلن طفولة الأرض كما خلقها اللّه منذ فجر البشريَّة.

أسرعت أبحث في الكتاب السياحي عن الصفحات التي تتحدَّث عن الدملانيَّات عامة والتنكاويات خاصة. لم يقل الكتاب جديداً وهو يتحدَّث عن جمالهن ورشاقتهن... لكنِّي عرفت منه أشياء ومعلومات كثيرة.

عرفتُ أولاً أنَّ نساء دملان هنّ وحدهنّ صانعات كلّ شيء في دملان: في حين يُقضّي الرجلُ يومهُ في لوك الأقتموم أو البحث عن

الكنز الذي سرقه الجن وأخفوه في جبال دملان، تُقضّي المرأةُ يومها تحرثُ الأرض وتزرع، تبحثُ عن الماء، تشيّدُ المنازل والقصور، تجمعُ الحطب وترعى الماشية، تربّي الأطفال، تفتلُ خيوط صوف «البولو» لحياكة الملابس، تغسل وتطحن وتعدّ مسحوق الأقتموم لزوجها، تطبخُ وتنظّف، تشتغلُ في إدارات المملكة وكل مرافق خدماتها!

كنت أظنّ أنَّ قبائل «الماساي»، التي تعيش على هذا المنوال نفسه منذ قرون بعيدة، والمتواجدة في جنوب كينيا وشمال تنزانيا حيث ولدت، تمارس وحدها ذلك النمط من الحياة. تكاد تقتصر مهمة رجل الماسايي فيها على اختيار موقع بناء قرية محصَّنة له ولنسائه وأطفاله، فيما يقمن هن بما تبقى من العمل: بناء القرية والبحث عن الغذاء وتربية الأطفال وصناعة العقود والأسورة...

لعلّ تنكا أشبه بقرية ماساي كبيرة بحجم وطن، تقوم فيها المرأة بعمل كلّ شيء. غير أنَّ الكتاب السياحي يقول أيضًا: «لا تشتغل المرأة في الجيش والشرطة والمرافق العسكريَّة». لم يكن ذلك شديد الغرابة والإذهال: لا «يحدثُ في تنكا بلاد النامس» فقط كما يقول عنوان كتاب الأستاذة أروى عبده عثمان الذي رأيته بحوزة الأستاذ نجيب، والذي استحوذني كلّية عندما قرأته بعد ذلك، بل يحدث في أكثر الدول تقدُّمًا. لكنّه يضيف: «لا تمارس المرأة مهمة التدريس أيضًا». ليس ذلك لأنَّ الرجل يقوم بمهمة التدريس في مملكة دملان كما كنت أظنّ عند قراءتي لتلك العبارة، بل لأنَّه لا توجد ثمّة مدارس في دملان، كما تقول السطور اللاحقة من الكتاب السياحي.

لا توجد فيها دور نشر أو مؤسسات ثقافيَّة، كما فهمتُ أيضًا. عفواً، بعد قراءة متفحِّصة للصفحات اللاحقة عرفت أنَّ ثمة مؤسسة ثقافيَّة واحدة اسمها: «مؤسسة ناتارين الثقافيَّة» تمارس نشاطها الثقافي في الدهاليز، كلّ أعضائها نساء، وترأسها سيّدة تُدعى ناتارين، مثقَّفة كبيرة ومحبوبة جدًّا وسط نساء دملان!

وصلت سيّارتنا أمام باب منزل كبير. أمر الأستاذ نجيب لودو بالتوقُّف وحطِّ الركب أمامه. كانت الساعة تقترب من الثامنة مساء. شكر الأستاذ نجيب لودو على حسن مرافقته لنا، منحهُ مبلغًا أسعد لودو كثيراً كما يبدو. تواعدنا بحرارة...

طرق الأستاذ نجيب باب المنزل. فتحتهُ امرأة دملانيَّة جميلةُ الوجه، ممتلئةٌ قليلاً لكنَّها متناسقة التركيب بشكل بديعٍ جدًّا، يفتح مرآها النفس والروح والجسد. ناداها الأستاذ نجيب باسمها: عنانيص، مما أثبت لي معرفتهما السابقة ببعضهما، أو بالأحرى معرفتهما القويَّة كما لاحظت بعد ذلك بقليل، إن لم أقل إنَّ ثمة أواصر أكثر عمقًا وقوّة. زادت حيرتي من أسرار هذه الرحلة، وأيقنتُ من بعض منعطفات حديثهما وقلق نظراتهما أنَّ شيئًا خطيراً يعتمل في الظلّ.

رافقتنا السيدة عنانيص إلى غرفتين متجاورتين بعد أن أمرت بعض العاملات في المنزل بحمل أمتعتنا إلى تلك الغرف، وأمرت أخريات بتجهيز العشاء.

ارتاح كلٌّ منّا في غرفته قليلاً. اغتسلتُ قبل التوجُّه إلى غرفةٍ كبيرة في الدور الأرضي من المنزل لتناول وجبة العشاء بصحبة السيّدة

عنانيص والأستاذ نجيب. كانت وجبة لذيذة جداً تكوّنت من «شفوت» و«كبسة» و«بنت الصحن»[١]، تناولتُها بنهم ملحوظ. كنت أرمقُ بين لقمة وأخرى السيّدة عنانيص والأستاذ نجيب. أيقنتُ من عمق معرفتهما ببعض ومدى انسجامهما: كلاهما شغوف في حديثه، مهذب الأسلوب، جذاب المحيا... يكنُّ للآخر احتراماً وتقديراً عميقاً، ويتحدّث معه برقّةٍ ناعمة.

تداخلت في رأسي أسئلة متقاطعة متعامدة: كيف وصلت هذه الطبخات اليمنيَّة إلى هذه البطاح النائيَّة؟ كيف ومتى تكوَّنت هذه الصداقة الحميمة بين أستاذي وهذه السيدة الدملانيَّة ذات الوجه الباسم الجذّاب؟ لماذا لا أستطيع توجيه أسئلة تساعدني على فهم أسبابِ هذه الرحلة التي يبدو أنَّ ألغازها المذهلة جداً لم تبدأ بعد...

كانت حاجتي للنوم كبيرة، أو بالأحرى حاجتي لتصفية حساب ما بيني وبين نفسي. تمنَّيتُ أمسيةً سعيدةً لهذا الثنائي الغارق في البوح الرقيق والمناجاة الدافئة. شكرتُ السيدة عنانيص على هذه الوجبة اللذيذة مرّة أخرى، واتجهتُ لغرفتي.

لم أنم. لم تكن الأسئلة الجديدة التي تؤجّجها رحلتنا هذه سبب ذلك. احتلّتني كلّيةً في الحقيقة صورُ الدملانيات اللواتي رأيتهن منذ صباح هذا اليوم، يزهون بسفورهن وطراوتهن وجمالهن

---

١ ـ الشفوت، الكبسة، بنت الصحن: وجبات يمنية. الـ«سَلْتَة»: وجبة صنعانية (مزيجٌ حرٌّ من مأكولات متنوعة).

الفطري وطاقاتهن الهائلة وسهولة الحديث وإياهن... عادت إلى ذاكرتي سنوات حياتي الأولى في تنزانيا وما قرأته وعرفته بعد ذلك: تعيش المرأة هنالك، مسلمةً أو مسيحيَّة، دون شراشف أو حجاب، تعمل وتنتج، تشتغل بكل طاقاتها، ترقص وتتمخطر بحُرِّية... دون أن ينبش ذلك أمراضًا كتلك التي نراها في الغرب والشرق معًا. أقصدُ: دون أن تتحوَّل المرأة إلى مادّة تجارية لشياطين الغرب يُباع ويُلصق تعرِّيها في أكثر من مكان، أو دون أن تُقمع وتُرجم وتُهمّش وتُداس وتُنفى في سجون وشراشف وتحريمات شياطين الشرق...

يا لها من ليلة مرتعشة مضطربة! عاد إلى سطح تفكيري، عنيفًا كزوبعة، موضوع واحد كنتُ واثقًا أنَّني قد دفنته إلى الأبد. لعلّه جوهر ومحور حياتي وسبب معظم ما أعيشه من شقاء وويلات وآلام: المرأة والحب، أو لأقل على الأحرى اللامرأة واللاحب، أقصدُ جفاف حياتي من المرأة والحبّ كما أشتهيهما.

كنت أعتقد منذ سنين، بعد كلّ ما حصل لي في حياتي وما سأرويه لكم لاحقًا، أنَّ قلبي لن يدقَّ بعد الآن أمام أي امرأة، وأنَّ خلايا العشق في وجداني قد تخثَّرت واندثرت منذ أمد... وما مانيارا تلك، مانيارا التي تحدَّثتُ عنها، تلك التي تنْتَصّ عليّ في وحدتي بين الآن والآخر، إلا شيطان يسكن لاوعيي الدفين، يستيقظُ ويعربد بين رفات خلايا عشق أتربت وعجّت أطلالها بالعناكب والديدان.

لكن لماذا ارتعش قلبي أمام الدملانيات مرارًا منذ صباح هذا اليوم؟ لماذا سمعتُ ضرباته تضخ دمًا طريًّا دافئًا؟ لماذا كرّرتُ في أقبية

سريرتي، طوال هذا اليوم، هذه الآية الكريمة: «قل من يُحيي العظام وهي رميم؟» لماذا قلتُ لنفسي عندما رأيت السيدة عنانيص: «إسمٌ على مسمّى! واللّه إنّها تأتكل»!: عبارة كتلك التي لم أعد أقولها منذ دهر، منذ أن حَرَّمتُ على نفسي الإعجاب بالمرأة، أيّة امرأة، أو مجرّد التفكير بها، إن لم أغدُ مسكونًا بكراهيتها إلى حدٍّ ما... أنا الذي حلمتُ طويلاً في صباي أن أعيش قصّة حبٍّ رومانسيّة عنيفة مع أميرة ساحرة! أنا الذي صمّمتُ في صباي أن أعيش حياةً كلّها عشق، أن أختار معبودتي وتختارني بعد صداقة ومعاشرة طويلة ترمي بكلينا مباشرة في أتون عشق لا يرحم، أن أحترق في حبّها وأن تحترق في حبّي، أن يكون كلّ شيء في الدنيا، كل موضوع أو إنسان أو عمل أو موعد أو مكان... عداها، هلاميًّا، أثيريًّا، تافهًا، ذا قيمة مؤقتة جدًّا. إلهي، كم حلمتُ في صباي أن أعشق بجنون، لتلك الدرجة التي لا أفكّر فيها ليل نهار إلا في المعشوقة! حلمتُ وحلمتُ أشياء كثيرة في حياتي. أيّ عيب في ذلك؟ لعن اللّه العادات والمحرمات والتقاليد التي أغلقت عليّ قصور الحب وحدائقه ورمتْني بعنف في مستنقع الحرمان والانهيار.

أعرف اليوم بعد سنوات «تَصَرْدُني» الطويلة أن العشق والاكتئاب النفسي يتشابهان كثيراً. كلاهما غيبوبة ليس إلاّ. غير أنّ الاكتئاب النفسي غيبوبة قبيحة قاتمة قاتلة تغرسُ رأسك في الوحل في كل لحظة، بينما العشق غيبوبة حالمة لذيذة سعيدة تهبُك الحياة الحقّة وتسمو بك بين المجرّات. باختصار شديد: العشق غيبوبة على بساط من ريح، والاكتئاب غيبوبة على بساط من جمر!

صحوتُ فجر الثلثاء الباكر على دقّاتٍ تقرعُ باب غرفتي. جاء الأستاذ نجيب لإصحائي كما ظن. لم أنم في الواقع، أو نمتُ بالأحرى نومًا ممتلئًا بالفجوات والاضطرابات. تركتُ سريري على التو. اغتسلتُ واعتنيتُ بمظهري كما لم أعتن به منذ زمن.

نزلتُ لتناولِ الفطور في غرفة عشاء البارحة نفسها مع الوجهين المشرقين نفسيهما اللذين أنارا ليلة البارحة. تكوّنَ الفطور من ١) صفائح الخبزِ «الرطب» على طريقةِ مطاعم «المخبازة» اليمنيَّة، ٢) فطائر «المُقَصْقَص» شديدة الثخن والامتلاء على الطريقة التنزانيَّة (كما كنت أتناولها في طفولتي، وليس على الطريقة اليمنيَّة اللذيذة أيضًا، وإن كان مقصقصُها أقلَّ ثخنًا وامتلاءً) ، ٣) صحنٍ من «عسل البغية» الدوعني الفاخر (كيف يصلُ هذا العسل الأسطوري إلى هذه الأصقاع؟ تساءلتُ مجدداً)، ٤) صحنٍ من زيت الزيتون «القَرِح»، ٥) وشاهي عدني بالحليب والجوز والهيل بطعم شاهي نفسه مقهى «زربية السيلة» الشهير...

ما أعذب غمس لقمة خبز الرطب في صحن العسل الدوعني وفي صحن زيت الزيتون، في الآن نفسه! مزيجٌ لذيذ متجانس. ما أحلى اختتام وجبة كهذه بمقصقصٍ كثيفِ اللب، معتدل السكر كمقصقص سلطنة زنجبار المجاورة لتنجنيقا طفولتي، اللتين اتّحدَتا في تنزانيا اليوم كما تعرفون!

ثم غادرت المنزل بمعية الأستاذ نجيب مشيًا على الأقدام، بعد أن ترك، أسعدهُ اللّه، قبلة رقيقة على فم عنانيص أيقظت خلايا جديدة في

قلبي، قائلاً: «إلى اللقاء في المؤسسة!» ثمّ تحرَّكنا باتجاه ضواحي تنكا كما بدا لي. كان أستاذي يعرف الطريق وكأنَّه عاش هنا ردحًا من الزمن!

ما أجمل صباح تنكا! طقس معتدل لذيذ في ارتفاعات استوائيَّة عالية. طرق وارفة الظلّ، أشجار سامقة في كل مكان، أزقَّة نائية هادئة جميلة، ضباب جميل يكسو هامة المدينة كتاج هائل. وحدهن النساء يخرجن للعمل هنا في هذا الصباح الباكر! يبتسمن ويصبِّحْنَ بالخير كلّ المارة. ما أطراهن، إلهي، ما أطراهن! آه، لو كنتُ أعرف أنَّ تنكا مدينة حقيقيَّة، تعيش نساؤها بهذه البساطة والطيبة والعذرية لهرعتُ للعيش هنا منذ زمن، ولما «تَصَرْدَنتُ» منذ ٨ سنوات، ولما أحرقتُ سِني حياتي كما أحرقتُها في أتون المنع والتحريم والفراغ العاطفي القاحل.

واصلنا السير من زقاق إلى زقاق حتى وصلنا باب بيت صغير دقه الأستاذ نجيب دقات متتالية تشبه دقّات شفرة سرّية! فتحت لنا الباب حارسة دملانيَّة ابتسمت للأستاذ نجيب وكأنَّها هي الأخرى تعرفُه من زمن.

قادتنا نحو ردهة ثم أخرى ذات أبواب ثلاثة. فتحت أوسطهم. أدّى مباشرة إلى سُلّم حلزوني تحت أرضي نقلنا إلى صالة ضخمة جدًّا، أنيقة، مُرَتّبة، تتوسَّطها طاولة اجتماعات وكراسٍ جميلة من خشب السنديان الفاخر. عليها في الوسط كوز زجاجي جميل الصنع، مملوء بالماء البارد المخمّر بالهيل، إبريق شاي تفوح منه رائحة النعناع، وكؤوس كريستالية رفيعة جذّابة.

يبدو في نهاية الصالة مكتب سنديان واسع، حدّقتُ طويلاً في تطريزه الفارسي الجميل، وفي أدوات حمل أقلامه وملفاته، المنقوشة بمزيج من تصميمات هندسيّة فارسيّة دقيقة وأرابيسك بارعة، يتّحدُ فيه اللون الأزرق بالوردي، الأخضر بالذهبي، بذوق وابتكار رائعين. خلف المكتب تفترش مكتبة جداريّة هائلة، عامرة، مشحونة بكتب أنسكلوبيديّة مهيبة، تشبه الكتب التي تُوضع في الجدار الخلفي أثناء المقابلات التلفزيونيّة مع بعض الرؤساء والملوك، مع فارق بسيط: الكتب التي أراها أمامي خلف المكتب هي كتب حقيقيّة، مملوءة بأوراق حقيقيّة، عليها أحرف وكلمات وأسطر حقيقيّة، وليست مجرد أغلفة جلديّة ديكورية جميلة بلا متون، تخلو من أي ورقة تمامًا كتلك التي ترتصّ خلف بعض الرؤساء والملوك أثناء المقابلات التلفزيونيّة.

على جدران الصالة الجانبيّة، تنفتح عِدّة أبواب كبيرة تفضي لقاعات وغرف اجتماعات... أول ما أذهلني هو أنَّ كل الغرف والقاعات تعجّ بنساء فقط، جميعهن يتحدّثن لغتي نفسها، وباللهجة اليمنيّة نفسها...

تركني الأستاذ نجيب أتنقّل من غرفة إلى أخرى، فيما توجه هو إلى قاعة اجتماعات في إحدى الغرف الجانبيّة المُطلّة على المكتبة. أخرج دفترًا وبدأ يشخطط بعض الأحرف بانتظار أن يصل بقية المجتمعين، فيما قرّرتُ التجوُّل في كل الغرف والقاعات لوحدي. تأكّدتُ مما لاحظته منذ البداية: لا يوجدُ، عدا الأستاذ نجيب وأنا،

رجل وسط هذه المنملة المملوءة بحشد من نساء جميلات شغوفات، منهمكات في اجتماعات ولقاءات وتحضيرات لم أستوعب منها شيئًا. قلتُ لنفسي:

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون! أنا الذي حُرمتُ طول حياتي تقريبًا من النساء كما أشتهيهنّ، هاأنذا أترندعُ في حظيرة حور عين فاتنات منفتحات مشرقات كما أشتهيهنّ تمامًا! هاأنذا «أتَشَعْشَعُ» في «مجال من الموجات الكهرومغناطيسيَّة» الأنثويَّة «المؤيّنة» سرعة «تردُّدها» آلاف الميجاهيرتزات! خلاياي ترتجف، تتفاعل، تذوب في بحر عجاج من هذه الموجات الأنثوية المتلاطمة، أنا الذي عشتُ كلّ هذا العمر في صحراء داكنة لا يصلها شعاع حبّ أو موجة أُنْثى.

اللعنة! ما الذي أعاد إلى ذاكرتي دروس الكهرومغناطيسيَّة التي تعلَّمتُها عندما ذهبت (بعد خدمة عسكريّة طويلة) لدراسة الفيزياء في فرنسا التي حصدتُ فيها آخر هزائمي العاطفيَّة والدراسيَّة والحياتيَّة، قبل أن أعود لليمن ومنها إلى أحضان علبة الصاردين... اللعنة! ما الذي أعاد لي ذكريات الخدمة العسكريَّة اليوم هنا في قلب تنكا بعد أن نسيتُ تلك السنين العجاف التي أهلكتني قلبًا وقالبًا؟ ما الذي يجعلني أرغب في أن أبوح لكم بتفاصيل كلّ هذه السنين النكدة المظلمة؟...

في كل صالة، ابتسامات وتحيّات أنثويَّة تغمرني وتطهرني، أنا الذي أعيش جوعًا دهريًا للّفتات الأنثويَّة الرقيقة! اجتماعات كثيرة. نساء يتحدَّثن ببطء ودقّة، أخريات يرسمن على السبورات خرائط

وطرقًا. مهندسات إضاءة وصوت يُوجِّهن أضواء مختلفة الكثافة على شاشات متباعدة. مداخلات صوتيَّة تأتي من مكرفونات مخفيَّة توحي بالتخطيط والتهيئة للحظة كبرى، تنذر بشيء ذي أهمية قُصوى...

إلهي، أين أنا؟ من هُنَّ كلّ هؤلاء النساء؟ ماذا يعتمل في هذه القاعات؟... تراكمت الأسئلة المضنية التي سأصُبّها صبًّا على مسمع الأستاذ نجيب، يوم الخميس القادم، بعد يومين فقط من الآن، حسب الاتفاقية المبرمة بيننا. غير أنّي استنتجت لوحدي، دون الحاجة لإجابة أحد، أنَّني في «مؤسسة ثقافيَّة». لم يكن ذلك في غاية الصعوبة: ألم يقل الأستاذ نجيب شيئًا من هذا النوع وهو يُودِع قبلةً رقيقة على ثغر عنانيصه اللذيذة؟ بل لعلّي في «مؤسسة ناتارين الثقافيَّة» التي قرأتُ حولها فقرةً عابرة في الكتاب السياحي.

كنتُ بالفعل في تلك المؤسسة الثقافيَّة التي تحدَّث عنها الأستاذ نجيب مع السيدة عنانيص، لأنَّ الأخيرة وصلت على التو واتّجهت إلى قاعة الاجتماعات نفسها التي كان الأستاذ نجيب جالسًا فيها يكتب شيئًا ما.

توجَّهتُ بعدها بلحظات إلى تلك القاعة نفسها. كانت القاعةُ ممتلئة تمامًا. في مقدمة طاولة الاجتماعات امرأةٌ تتّجه نحوها كل الأنظار، في غاية البهاء والجمال إن لم أقل: لا يضاهي جمالها جمالٌ أبدًا، تُكمل مداخلة لم أحضر غير عباراتها الأخيرة. لعلها السيدة ناتارين نفسها كما أتكهّن، بل هي نفسها كما استنتجتُ من حديث

جانبي سمعته قريبًا منّي. تجلس على يمينها السيدة عنانيص والأستاذ نجيب، وعلى يسارها امرأتان لا تقلان لمعانًا وتألقًا عن عنانيص. تمتلئُ القاعة بفتيات في ريعان الشباب، وبنساء من كلِّ الأعمار يُفكّرن ويتناقشن هنا وهناك...

لم يلتصق في ذهني مما تبقى من محاضرة السيدة ناتارين التي تدير الاجتماع، أو عقله المحرّك كما بدا لي، إلا عبارة تتحدَّثُ عن ضرورة «إحداث تغيير اجتماعي جذري على إيقاعِ أسطورة تحرِّك الجماهير!».

«كلام كبير، كبير جدًّا»!، قلتُ لنفسي أنا الذي تُكسِّر رأسي أصغر المشاريع، مثل تغيير مصباح كهربائي «حارق» في المطبخ منذ سنتين، أو ردم المستنقع الصغير المواجه لباب منزلنا منذ ٥ سنين والذي نسمِّيه جميعًا مع ذلك «مصنع النامس»، أو ترتيب وتنظيف مكتبتي التي أكَلَتها الأتربة و«القرَضَة» منذ أكثر من ٨ سنين... ما بالكم بمشاريع من هذا العيار! لعلي أتذكر أنَّ السيدة ناتارين بررت أطروحتها قائلة بأنّ «كلَّ الحركات الاجتماعيَّة والثورات الدينيَّة أطلقت عباراتها الأولى على إيقاع حلمٍ أو أسطورة، وبدأت تغييراتها الاجتماعيَّة رويداً رويداً في أطرٍ تنسجم مع ثقافة الناس عشية التغيير، ومع ما يتوقون إليه».

ثم انتقل الاجتماع إلى عرض فيلم يشبه سيناريو انقلاب عسكري أو شيء من هذا القبيل.

يبدأ الفيلم بما يشبه احتفالاً عسكريًّا. ثمة رئيس جمهورية أو ملك أو سلطان (لا أدري إن كان ثمّة فرق جاد بين هذه المناصب) واقف فوق منصة ضخمة يُحيِّي مواكبَ عسكريَّة متتابعة تسير تحت أقدامه. جموع شعبيَّة هائلة تراقب العرض العسكري. شاشات ضخمة مُوزَّعة في كل أرجاء ساحة العروض تنقل للحاضرين بشكل مباشر تفاصيل العرض، تتوقّفُ طويلاً على منظر القائد وهو يُحيّي جنودَه، تجسِّمُ حجم السيجار الضخم الذي يتناوله، تتبؤر على قبعة الكاوبوي التي يرتديها...

ثم تبدأ اللحظة الحاسمة. تُطْفأُ كلُّ الأضواء في ساحة العرض في لمحة بصر. بعد ثوانٍ قليلة بدت لي طويلة جدًّا، تعود الأضواء من جديد. لكنَّها تحطّ في مكانٍ آخر بعيدٍ عن منصة الملك وكبار ضيوفه. تتركَّزُ كلّها على وجهٍ آخر في الجانب المقابل للمنصة تمامًا، في مكان مرموق بين حشود المشاهدين للحفل. كل شاشات ساحة العروض تمتلئ بذلك الوجه الآخر الذي تلتهمه كل الكاميرات...

إلهي، من أرى في قلب كل الشاشات؟ وجه أنثوي أليف أعرفهُ عن ظهر قلب. وجه سكن معظم سني حياتي ولم يفارقني قط في سنوات اكتئابي الطوال. وجهُ فتاة في ريعان الشباب، ذات جمال قاتل أعرفُه كما أعرفُ نفسي، ترتدي فانيلةً حريريَّة خفيفة بيضاء تُجلي بكرم ذراعيها الرقيقين وصدرها الخصب. ها هي كاملة على الشاشة:

مانيارا، مانيارا، مانيارا...

مانيارا ببريق عينيها الواسعتين وابتسامة ثغرِها الورديّ الناعم.

جسدٌ من موسيقى، يسيل عليه حرير يزهو وهو يتوحَّد مع تماوج ورشاقة ودفء ذلك الجسد.

إنّها هي! إلهي، لم تكن يومًا بنت مخيلتي إذن!

ها هي تنطق أولى الكلمات أمام مسمعي...

ها هي... ها هي... ها هي...

لم أعد أسمع كلمة، لم أعد أرى شيئًا على الشاشة: سقطتُ مغشيًّا من الذهول عند رؤية مانيارا أحلامي تتحرَّكُ بقامتها الباسقة ونظارتها السحريَّة وجمالها الدافق، تنطق أمامي بصوتها العذب وعينيها الواسعتين ذوات البريق الناعس...

لا أستطيع أن أحكي لكم ما دار في صالة الاجتماعات بعد ذلك حتّى لحظة استفاقتي من الغيبوبة في منزل السيدة عنانيص، بجانبها وبجانب الأستاذ نجيب.

قبل أن أواصل سردي لهذه الرحلة التي ستبدأُ كلّ غرائبها وعجائبها المذهلة بعد استفاقتي تحديدًا، عليّ أن أعود إلى الخلف، لأحفر في أعماق الذاكرة، لأُحَدِّثكم قبل كل شيء عن طفولتي ولحظاتها المهمّة، لأُجلي لكم أولاً من أنا حقًّا ومن هي مانيارا، لأزيل اللثام عن أسباب ما حلّ بي في ذلك الاجتماع ولماذا غُشي عليّ حينها...

قبل أن أستمر في الحديث عن مجريات هذه الرحلة المذهلة في مملكة دملان وعن تفاصيل ما دار في حفلة تتويج تشومولونجا، عليّ أن أحدِّثكم عن شارع دغبوس وسينما شيناز، عن سوسن، عن جعفر الدملاني والخدمة العسكريَّة، عن سانت مالو، عن بنات الجن، عن علبة الصاردين...

قبل أن أسرد لكم تفاصيل وأسرار أحداث يوم «عيد النامس»، عليَّ أن أبوح لكم أشياء كثيرة عن الحبِّ والشجن واللوعة والوَجد والحرمان...

الفصل الثالث

شارع دَغْبُوس

لا أتذكَّرُ كثيراً تفاصيل طفولتي في تنزانيا التي غادرناها نحو اليمن وأنا في الثامنة من العمر. لعلّ والديّ، اللذين انتظراني كثيراً ولم يتمكَّنا من إنجاب غيري، صرفا الغالي والنفيس لحفلة « سابع » ميلادي، « ثامنه »، « تاسعه » و« عاشره » . . . لإغراقي بالهدايا الصغيرة اليوميَّة، لي شخصيًّا، أو عبري لكل الإخوة والأخوات الذين لم يستطيعا إنجابهم. ولم يستطيعا قبل كل شيء إخفاء تعاسات وآلام حرمانهما من ذلك.

ما أزعجَ أن تكون وحيد والديك! كان عليّ أن أملأ فراغ والدتي الذي لا يستطيع إملاءه طابور كامل من الأطفال كانت تحلم ليليًّا بإنجابه. كان عليّ أن أكون قريبًا من عينيها اللتين التصقتا بحركاتي وسكناتي أكثر من رقيب وعتيد. وفي الوقت نفسه، كان عليّ أن أكون دومًا قرب

والدي الذي أصبح مؤذن مسجد «دَغْبوس» في أطراف الشيخ عثمان غداة هجرتنا من قريتنا التنزانيَّة. آه، كم كان يزعج والدتي أن يأخذني أبي معه دومًا إلى المسجد ويطلب منِّي البقاء هناك بصحبته وقتًا طويلاً! مسكينة والدتي، لا حول لها ولا قوة في هذه الحالة! كم كان يمعضها أن أتنفَّس نفسًا واحداً دون أن تكون قربي لتطمئن على انتظام شهيقه وزفيره، على درجة حرارته وعافيته وسلامته!

أعرف كل مَرْمَرِ (بلاط) مسجد دغبوس، كلّ أعمدته، كلّ حنفيَّاته، كلّ مراوحه الكهربائيَّة، كلّ مصاحف قرآنه المُهْداة أو المسروقة. أعرف طعم «الفيمتو» والحلاوة الآتيين من كل عائلة عملت «درسًا»[١] فيه لفقيد لها. أعرف طراوة مرْمره قبل صلاة الفجر، حلاوة الاسترخاء والنوم قليلاً وقت القيلولة في بعض أركانه أسفل مروحة كهربائيَّة...

أعشقُ مسجد دغبوس لأنَّني صلَّيتُ فيه كثيرًا، تمرَّغتُ فيه كثيراً، «تبلطحتُ» فيه كثيرًا، خطبتُ فيه كثيرًا، ابتهلتُ فيه كثيرًا، دعوتُ فيه كثيراً وإن لم يستجب الحيّ القيوم لمعظم دعواتي... أعرف كل مجانين مسجد دغبوس، أعرف أشكال جنونهم، طرق مشيهم وحديثهم، تطوّر حالاتهم. أعرف كل شحّاتيه، كل روّاده الخاشعين بحقّ والأقل خشوعًا، الذين يذوبون ابتهالاً للباري والذين يرتادونه لسرقة الصنادل والأحذية... وبشكلٍ خاص أعرفُ إمامه: الحاج

١ - مأتم ديني يستمر ٣ أيام بعد صلاة العشاء! يُكَرَّسُ لقراءة القرآن والدعاء على روح الميّت.

عبدالله مسعود البيضاني الذي كان ظلُّه ثقيلاً على والدي، إن لم يغدُ هاجسه الوحيد! صارا مع مرّ الزمن يكرهان بعضهما بشكل لا يطاق.

من مسجد دغبوس إذن، عليّ أن أبدأ: منه تنبعُ أساسًا أولى سلسلة ذكريات طفولتي التي يبدأ سيلُها منتظمًا متسلسلاً منذ سكنت عائلتنا في عدن. من دهاليز ذلك المسجد بالتحديد عليّ أن أبدأ، وعلى وجه الخصوص من الحرب الطاحنة التي كانت تضطرم فيه بصمت بين الحاج البيضاني ووالدي. كان لكلٍّ منهما بين روّاد وشحّاتي مسجد دغبوس أنصاره ومشجّعوه. عداء صامت ازداد بينهما مع مرِّ الزمن وأضحى هاجسهما الوحيد. راقبتُ ذلك طويلاً بصمت، أو سمعته جهراً بكل فتنه ومؤامراته و«بعسساته»، عند اختلاء والدي بأنصاره الذين يلعب بعضهم، كما لاحظتُ، على حبلين.

الحقّ أنَّ إمام المسجد صار مع مرّ السنين عجوزاً خرفًا شديد الشكِّ والارتياب بشكل مرضيّ. ولم يكف والدي، بعد سنين طوال من الأذان وغسل الموتى ورشّ رُوّاد المسجد بماء الورد وتوزيع «الشُّقُر»(١) أثناء «دروس» المآتم الجنائزيَّة، من الطموح المكشوف للاستيلاء على منبر المسجد.

كان والدي ينتظر بفارغ الصبر وفاة الحاج البيضاني ليستولي على زمام منبر مسجد دغبوس، وكان الحاج البيضاني ينتظر بفارغ

---

١ ـ الشُّقُر، ورد الفلّ: نباتات عبقة الرائحة تشتهرُ مدينةُ لَحج المجاورة لِعدن بإنتاج أنواع راقية منها.

الصبر انتهاء النظام الاشتراكي في الجنوب، ويشهد بأمّ عينيه حلّ «الاتحاد العام لنقابات مؤذني مساجد اليمن الديمقراطي» (أو «نقابات عُمّال مساجد اليمن الديمقراطي»، إذا لم تخطئ ذاكرتي الخائرة هي أيضًا) الذي كان والدي يدفع اشتراكاته بانتظام لها من ناحية و«للمنظمة القاعديَّة الجغرافيَّة لعمّال مساجد مركز الشيخ عثمان والمنصورة ودارسعد» من ناحية أخرى.

بدأتْ مشاكل حياتي، التي أتجرَّع اليوم مراراتها المتخثّرة، عند وفاة الحاج البيضاني. استولى والدي على مقاليد المنبر وصار إمام المسجد بفضل قرارات وتوصيات المؤتمر العام الثالث لاتحاد نقابات مؤذني الجمهورية، التي أوصت بتعيين المؤذّنين «ذوي الأصول الطبقيَّة المعدومة» خلفاء لأئمة المساجد بعد وفاتهم.

كان أنصار الحاج البيضاني، رحمه اللّه، ينظرون لوالدي بارتياب وكأنَّه هو الذي اغتال الإمام الراحل، رغم وفاة المغفور له، كما علمت لاحقًا، بمرض نادر: سرطان الخصيتين.

بدأتْ المشاكل الحقَّة تخنق والدي عندما كان عليه أن يلقي خطبة الجمعة. أعترفُ أنَّه كان لوالدي صوت جهوري جميل، بل ربما كان أفضل مؤذّني عدن دون شك. من لا يتذكر أذان صباحي عيدي الفطر والأضحى اللذين كان والدي يصدح ويترنّم في أدائهما بموهبة تستحوذ خشوع الجميع؟ غير أنَّه لم يكن قادرًا جدًّا على كتابة خطبة جمعة على غرار خطب الشيخين الباحميش والبيحاني الشهيرة. لم

يكن له أدنى مقدرة على الإسهاب في التحدّث أو الكتابة في علوم الفقه والسُنّة كبعض تلاميذ العلاّمة الشيخ قاسم[1] مثل الشيخين عبد الرحمن الشرماني وعبد الرب السروري... إذا استطاع والدي التحدُّث في الفقه فذلك لا يمكنه أن يخرج من دائرة نواقض الوضوء وشروط التيمّم، وكأنَّه «حَنَب» عند دراسته للفقه في باب «نواقض الوضوء وشروط التيمّم». تمحورت خطب أسابيعه الأولى حول هذين الموضوعين. عجَّت بالشرح الدقيق لكلّ تفاصيل ما ينقض الوضوء من بول وضرط وغائط وحيض ونفاس ومناكحة ومجامعة وملامسة... وتبحرت في الخوض في علوم طرائق التيمّم. تحوَّلت أحيانًا إلى ما يشبه دروسًا في البيولوجيا النظريَّة. لم ينقصه إلا أن يحضر كومةً صغيرة من تراب الشارع ويبدأ تطبيقاته العمليَّة فوق المنبر. أصغى له الناس في البداية وإن كان يكرِّر معارف رضعوها مع «مصّاصات» طفولتهم. ثم أرادوا سريعًا أن يُغيِّر الإمام الجديد من أسطوانته، لكنَّه لم يستطع!

عندما بدأ التأفّف جليًّا جدًّا لجأ والدي إلى الكتب الجامعة لألبومات جاهزة من خطب الجمعة (نصوص خُطب كُتبت في أوائل

---

١ ـ الشيخ قاسم، أحد كبار علماء الفقه في النصف الأول من القرن العشرين في عدن. درّس نخبة من علماء وشيوخ اليمن في زبيد وفي عدن. هو والد المناضلَين الطيّبَين الرقيقَين المثقّفَين: عبد الباري ونور الدين قاسم، اللذين كانا من مؤسسي الجبهة القومية بجانب قحطان الشعبي وفيصل عبد اللطيف الشعبي وسيف الضالعي... كان عبد الباري من قادة العمل الفدائي في عَدَن، وسُجِنَ نور الدين في سجون الاحتلال الإنجليزي أثناء الكفاح المسلّح. قُتِلا معًا غدرًا في جريمة طائرة الدبلوماسيين البشعة التي دبّرتها القيادة السياسية آنذاك.

قرون عصر الانحطاط، كما يبدو). لكنّها كانت صعبة الفهم والمتابعة، متْخمةً بالنمط السجعي من العيار الثقيل الذي لا تضاهي قوافي السرد فيه إلا قوافي التنخير الجماعي الذي أضحى يموسق خطب جمعة مسجد دغبوس منذ أن تقلّد والدي منبره.

لمحتُ على والدي أثناء إحدى الخطب جبالاً من الحزن وهو يرى تصحُّر مسجد دغبوس ولجوء معظم روّاده التاريخيين إلى المساجد المجاورة. حقًّا، ما أتعس أن تكون خطيب جمعة في مسجد فارغ! أو في مسجدٍ كان خطيبُه الراحل، عدوُّك اللدود، يرتجل خطبهُ بتلقائيَّة ورقراقة ويملأ الصفوف الخلفيّة من المسجد دون أدنى جهد أو تحضير.

ذات مساء خميس، رأيت أبي جالسًا على سريره في المنزل وحيداً منهمرَ الدمع، لا يعرف ما الذي سيقوله يوم غد في خطاب الجمعة. كم يحزّ في النفس وكم يخدش القلب أن ترى دمعًا على عيني رجل، ناهيك إن كان ذاك الرجل هو والدك الحبيب نفسه!

الرجل لا يبكي، كما تعلَّمناه منذ الطفولة. لا ينطبق ذلك على المرأة في مجتمعنا، لأنَّ المرأة تبكي كل يوم، بدموع أو بلا دموع. المرأة التي لا يسيل دمعها في واقعنا هي امرأةٌ أفرغت يومًا ما آخر قطرة من محيط دمعها، لتتوحَّد كلّيةً مع البؤس والأسى، ولتهبَ للحزن ملكوت قلبها، تُعرِّشه لا شريك له، واحداً أحداً على مجرى ومرسى حياتها.

كنتُ حينها في الرابعة عشرة من العمر. إلا أنّني كنت أملك من والدي هيبة وجلال صوته. وبفضل حافظتي السريعة كنت

أستطيعُ أن أُردِّد غيبًا معظم خطب جمعات الإمام البيضاني، التي لم تكن في الحقيقة أكثر من صِيَغٍ تتّسعُ لعشر خطب لا غير، يمزجها ويبدّل مواضع فقراتها و« سكاريب » وصلها، يُنظّم تكرارها ويعيد إخراجها الجمعة تلو الأخرى، السنة تلو الأخرى، بمهارة وخبرة عاليتين.

« شخطتُ » في أقل من ساعة على خمسة أوراق خطبة جمعة حامية الوطيس استخدمتُ فيها أكثر صيغِ الحاج البيضاني إذابةً للقلب، وقرأتُها أمام والدي الذي لم يُصدِّق عينيه، ثم أعدتُ سردها أمام مسمعه عن ظهر قلب بدقّة واحدة، لأُذيبَ فؤاده وأعيد لشفتيه كلّ الابتسامات التي فارقتهما منذ أمد. اقترحتُ له أن أقوم بإلقائها أنا نفسي يوم الغد بحجّة وعكة صحية مفاجئة داهمته. وافق سعيداً مذهولاً، وشعرتُ أنَّ نظراته تحتضنني بقوّة وتقبّلني بفخر وامتنان!

تذكّرتُ، وقد رأيت السعادة ترقصُ في محياه، أنَّ غداً الجمعة هو يوم هام في تاريخ مدينتنا. يوم ينتظرُهُ كلّ شباب وأولاد شوارعنا منذ أسابيع، لسبب ليس له أدنى علاقة بخطبة جمعة. كانت في الحقيقة الجمعة التي سيبدأ فيها عرض فيلم « أبي فوق الشجرة » الذي ملأت إعلانات دعاياته الأركان، ولم يعُد كلّ أولاد شوارعنا وشبابها، المحرومين من الحب أو حتّى من الابتسامات الأنثويَّة الرقيقة، قادرين على مزيد من انتظار عصر ذلك اليوم الذي سيشاهدون فيه بأُمِّ أعينهم التسع والتسعين القبلة الغرامية الملتهبة التي تتبادلها نادية لطفي وعبد الحليم حافظ... كما تقول كل التباشير والإعلانات المحفِّزة على

الصراع والمضاربة لضمان نصف مقعد في سينما بلقيس التي تعرضُ الفيلم.

كنت مثلهم أنتظرُ الفيلم بفارغ الصبر. إلا أنّه كان عليّ منذ صباح ذلك اليوم أن ألبس جلاّبيَّة وعمامة إمامٍ سيمتطي منبر مسجد دغبوس، وستملأ نبرات صوته فضاء المدينة وتهزّ ركن الشارع.

شعرتُ وأنا ألبس القميص صباح الجمعة أنَّني لن أتجرأ عصر ذلك اليوم الموعود على مرافقة أبناء شارعنا لمشاهدة ذلك الفيلم الذي انتظرته مثلهم كثيراً. كان بديهيًّا أنَّ صعودي لدرجات المنبر السبع يعني أنَّني أضعتُ التسع والتسعين قبلة التي أسالت «لُجاج» (لُعاب) أكثر من شاب في شوارعنا.

صعدتُ المنبر مع ذلك بكل فخر وثقة. ألقيتُ خطبتي بكل جهورية صوتي ونَضَارَتِه، دون تردّد أو ارتعاش. كان نجاحًا منقطع النظير. انهمرَتْ دموع الحاضرين ولم يتحدَّثوا طوال الأسبوع إلا عن تلك الخطبة. طلب كثيرون منّي على التوّ مواصلة إلقاء الخطب في الجمع القادمة. لعلّهم بذلك سمحوا أو طلبوا بالأحرى أن يظلّ والدي مريضًا إلى أجلٍ غير مسمّى، وإن لم تداهمه في الحقيقة أدنى وعكة. زاد نجاحي مع تمرّس عودي وانتشرت في كل أرجاء أحيائنا سمعةُ ذلك الخطيب البليغ الموهوب الصغير العمر. لم يعد المسجد مكتظًّا من جديد فقط كما كان في أوج عصر الإمام البيضاني، بل توغلت هامات الراكعين في الخلاء المحاذي للمسجد، وفي البقعة المجاورة «لمنتدى اليابلي» أيضًا، حتّى تخوم «زُرَيْبةٍ» صغيرة على مشارف

زرائب السيلة... روّاد جدد بدأوا يؤمّون المسجد يوم صلاة الجمعة، يجيئ بعضهم من مدينة لَحَج التي تبعد بضع عشرات كيلومترات عن عَدَن، وبعض آخر من «جولد مور»، الحيّ العدنيّ الأكثر بعداً عن الشيخ عثمان، لا لشيء آخر كما عرفتُ غير سماع خطبي...

عليّ أن أعترف: فرحتُ كثيراً بنجاحي وبشعبيتي وسط شيوخ وأطفال وبعض شباب شوارعنا. وجدتُ لذّةً ما في أن أكون مثار حديثهم. لكنّي وجدتُ نفسي ممتعضًا أكثر فأكثر بأن أكون ملزمًا بارتداء جلابية وعمامة الخطيب طوال اليوم، في حين كانت الموضة في الأزياء الرجوليَّة حينذاك تميل إلى ارتداء قمصان شديدة البرقعة صارخة الألوان، وسراويل الشارلستون الضيّقة جدًّا في الأعلى، والشديدة الاتساع في الأسفل. أما موضة الفتيات العدنيَّة آنذاك فقد كانت ـ صدّقوا أو لا تصدّقوا ـ الميني‌جوب!

لم تتسرَّب الغيرةُ لوالدي بالطبع، بل تجلّت أساريره. بدأ شاربه يميل إلى الانعطاف علواً، على نمط شارب «عماشه عكاشه» في المسلسل المصري المعروف بذلك الاسم آنذاك... ولم يتورّع في أن يطلب من بعض شحاتي وروّاد المسجد المقربين إليه أن يردّدوا على مسمع الملأ: «إن هذا الشبل من ذاك الأسد»...

لم يشعر والدي بأدنى امتعاض في أن يُطلق عليّ الجميع لقب «الإمام»! إلا أنّني بدأتُ أشعر يومًا بعد يوم بثقل ذلك اللقب الذي ترنّ فيه نغمات السخريَّة عندما يطلقه شباب وأولاد بسنّي! حقًّا، كنت أشعر بالمرارة في أعماقي عندما كان زملاء صفّي يُردِّدون: «جاء

الإمـام»، «راح الإمام»، «فين الإمـام»؟... أغـاظني بشـدّة أنّه لـم يعـد ثمّة كثيـرون يتذكّرون أنَّ لي اسمًا محدَّدًا جـديرًا بالاحترام: «وجدان» بدأ، يا للمصيبة!، يختفي من ذاكرة الجميع لصالح الاسم الجديد. غير أنَّ ما آلمني حقًّا هو أن أُدرِك أن الاسمين متنافران كثيرًا، يجذبان ويثيران زبائن متناقضة الميول مختلفة الأصناف: في حين كان اسم «وجدان» جديرًا بأن يفتح شهيّة بعض مراهقات شارعنا، كان اسم «الإمام» جذّابًا لعجائز الحيّ بشكل خاص ولا يمكنه إلا إثارة نفور المراهقات بكلّ تأكيد.

لذلك، لم أُضِعْ موعد فيلم «أبي فوق الشجرة» فقط بل أَضعتُ موعدي مع الغزل والغرام بمجرد انتشار تسميتي الجديدة. عدا والدي، لا أعرف من تسرُّه تسميتي هذه! صار هو الإمام أبا الإمام. صار المنبرُ مملكته العائليَّة دون منافس. زاد غروره قليلاً. ربما لعبتُ دورًا حاسمًا في إسعاده كثيرًا حينها. لعلّي ثبّتُّ فعلاً أبي فوق المنبر، لكنّي أضعتُ تمامًا «أبي فوق الشجرة»، إذا جاز القول. أضعْتُ كلّ نادية لطفي افتراضية بين بنات شارعنا.

صار مؤلمًا لي بشكل يزداد قوة أن ألاحظ أنَّ مراهقات شارعنا يَمِلْنَ كثيرًا إلى «فَوْشات» شَعْرِ إلفيس برسلي وأحمد رمزي أكثر من عمامات الأئمة، وأنَّني أثيرُ بقميصي وعمامتي هَمسَهُنَّ و«مُخَافستهُنَّ» الساخرة أكثر من أن أثير نظراتهن الغنجة.

ربما كان لصالحي حينها أن ينسى الجميع أنَّني أملك أكثر الأسماء المرشَّحة لغزل الجنس الرقيق: «وجدان»، لاسيَّما بنات شارعنا

اللواتي كنّ يشترطن آنذاك اسمًا ناعمًا لفارس أحلامهن الذي ربما لو امتلك بهاء طلعة تشي جيفارا وذكاء آينشتاين ولباقة فرانسوا ميتران، وكان اسمه طارش أو برتوش أو يحيى أو عبد ربه أو دحباش أو مُكْرِد... لأثار نفورهن قطعًا. لعلّهُ كان لصالحي فعلاً أن يجهلن اسمي الأصلي لأنهنّ ما كُنّ ليتوانين لحظة، إذا عرفن اسمي الحقيقي، من الانفجار من الضحك أمامي ومن تطحيس عبارات على طراز: «عجائب آخر زمان: إمَامْ واسمه وجدان»!، بل ربما ما كُنّ ليتوقّفن عن تأليف وإخراج أكثر النكات والتعليقات سخرية وجرحًا.

لم أُضِعْ «أبي فوق الشجرة» فحسب، بل أَضَعْتُ كلَّ أفلام سينما بلقيس وشيناز نهائيًّا. أضعتُ «أحلام الملوك» لأنتوني كُوِين في سينما شيناز، الذي كنت أُجَدِّم أظافري عندما أسمع بعض زملائي في المدرسة يحكون تفاصيله.

لكنّي أضعتُ قبل وبعد كل شيء أعظم أفلام بداية السبعينات التي مَرَّت في عدن (يوم كانت تمرُّ بسينماتها أفلام حقيقيَّة) الذي لعب دور بطولته باقةٌ من الممثِّلين الفرنسيين الذين كنت أعجب بهم أشدّ إعجاب (مثل ايف مونتان، جون لويي ترانتينيان، وشارل دينير الذي لا أدري لماذا أُعجب به شخصيًّا بشكل مميَّز ويكاد لا يعرف اسمه أحد!) وأخرجَهُ كوستا جافراس الذي أُعجبُ به كثيرًا، وأعترف مع ذلك أنِّي كنت طوال سنين أخلط، لسبب أجهله، بين شخصيّته والكاتب والروائي الكبير جبرييل ماركيز، موحِّدًا بينهما تمامًا!

أقصدُ، كما عرفتم بالتأكيد، فيلم: Z. لأقُلْها أوّلاً من باب العرفان والوفاء: أدينُ للأستاذ نجيب بعدوى إعجابي بكوستا جافراس. كما أُدينُ له أيضًا بعدوى إعجابي اللامحدود بالمخرج الأيطالي إتور سكولا، صاحب «البال» و«كان عشقُنا كبيرا جدًّا»...

نعم، أضعتُ فيلم: Z! من لم يتذكّر تلك اللافتات الضخمة التي عمّت عدن للإعلان عن ذلك الفيلم؟ آه، كم كنت أحترق ندمًا وأنتفخ فخرًا في الوقت نفسه وأنا أرى لافتة عالية تتجاوز العشرين مترًا، تربط مسجد النور بعمارة المقطري في الشيخ عثمان، وهي تعلن عن الفيلم الغربي الذي خرج حديثًا ومُنع في كل الدول العربيَّة الأخرى!...

غير أنِّي لم أُضع كل شيء وأنا ألبس عمامة الإمام. لم أُضع مثلاً علاقتي بجدّات شارعنا. توثّقت علاقتي بهنّ بشكل لا يُصدّق! صِرْنَ في حياتي كلَّ ما تعنيه بالنسبة لي المرأة و«الجنس اللطيف» وإن كنتُ أكرهُ عادة هذه التسمية الرجوليَّة الركيكة. كم أحبّ كثيرًا جدّات شارعنا! كم كنت دومًا طفلهنّ المدلّل أولاً وأخيرًا، ومرجعهنّ الوحيد أيضًا منذ تبوئي منبر مسجد دغبوس! لن أنسى مثلا قصّة الفتوى التي طلبتها منّي جدّتي سعادة التي كانت تناهز الثمانين من العمر، لا ترى إلا بصعوبة ولا تسمع إطلاقًا. عاشت وحيدة دون زوج طول حياتها في منزل أحد أهلها القريب من منزلنا. لا أتذكّر أنَّني رأيتها في حياتي لحظة واحدة خارج السجّادة. صلوات الوتر والضحى وكلّ السُنن والنوافل القبليَّة والبعديَّة، ونوافل السُنن، وسُنن النوافل، بكلّ

مقاماتها ودرجات حسناتها... تشكّل جزءاً ضئيلاً من مجموعِ الركعات التي تهبها جدّتنا سعادة لربّ العالمين يوميًّا. قضّت حياتها في الصلاة والصوم والعبادة وإسقاء الأطفال وتغذية الجياع والدعاء للمساكين... كنّا نراقبها بعطف وإعجاب. كنّا نعتقد أيضًا أنّها حَظيت بنزول أحد الملائكة عليها في إحدى ليالي القدر ليطلب منها ما تريد أن يحقّقه الرحمن لها. ولأنّها «جُداديّة»، ساذجة جدًّا، لم تطلب شيئًا حسب معظم روايات أبناء شارعنا. أو طلبت كنزًا مازال مخفيًّا في مكانٍ ما حسب رواية أقليّة تسيل لعابهم لمجرّد الحديث عن ذلك الكنز الذي لن يظهر إلا بعد وفاتها كما يضيفون.

ها هي جدّتي سعادة تلملم نفسها ذات مساء في منتصف الليل، تغادر بيتها هي التي لا تغادره إلا في الحروب الأهليّة، تهرع نحو منزلنا بكَوْمةِ جسدها الهزيل الشائب الذي يتأرجح يساراً ويميناً في كلّ خطوة، تدقّ الباب بقوة، تقبّلني بحرارة، تحتضنني طويلاً.

حاولت أن أفهم ما حلّ بها فعلاً ولماذا تسيل من عينيها أدمع حرّى بهذا الانهيار، وفي هذه الساعة المتأخرة من الليل. سألتني مرتجفة قلقة:

ـ هل تصحّ الصلاة إذا كان «الدِّرْعُ»(١) ملبوسًا بالمقلوب؟

لم تتّجه نحو والدي لاستفسارِه، رغم تخصُّصه بكل ما يبطل الوضوء والصلاة. في أذهنِ الجميع كنتُ الإمام والمفتي وليس والدي! عرفتُ من بين نشيج الدمع أنّها تسألني سؤالاً نجم عما قاله لها أحد

١ ـ الدِّرْع هو اسم الثوب النسائي العدني الخفيف الذي ترتديه المرأة في المنزل.

أبناء حارتنا الذي استخدم دون شك أقصى نبرات صوته وحركات يديه وأصابعه ليقول لها:

ـ يا جدّه حرام عليك! أنت تصلّي دائمًا و« درعك » مقلوب! هذا ما يصحش! عليك بقضاء كل صلواتك منذ البداية إذا أردت فعلاً دخول الجنّة!

هكذا، أوحى لها بأنَّ كلّ صلواتها باطلة لأنَّها تلبس دائمًا ثوبها بالمقلوب، دون أن يخطر بباله أنَّها يمكن أن تصاب بسكتة قلبيَّة، مضيفًا أيضًا أنَّ عليها الآن أن تقضي كلّ صلواتها الفائتة دفعة واحدة. لا أدري لماذا لم تُصب جدّتي سعادة فعلاً بالسكتة القلبيَّة هي التي تفوقني في سرعة تصديق كلّ شيء تسمعه...

جفَّفتُ دموعها بمنديلي، قبَّلتُ وجنتيها مقسمًا لها أنَّ ذلك الولد شقيٌّ مشهور لا يعرف شيئًا في الفقه، وأنَّه قال ذلك من قبيل اللهو والتسلّي مع أصحابه في الشارع، وأنَّ الصلاة ولقاء الرب أسمى من شكليات الملبس وقشور المظهر، ولا يوجدُ كتاب فقه واحد تحدّث يومًا عن الثوب المقلوب في أبواب نواقض الوضوء ومبطلات الصلاة.

ـ وإلاَّ لا يا أباه؟ أضفتُ مُوجِّهًا الحديث لوالدي لأتركه يتبختر قليلاً في أصقاع مملكته الفقهيَّة الأثيرة التي أُقرّ له بالنبوغ في معرفة كل أحوالها، وأترك له بولاء وعرفان حقّ التفرُّد في التعرُّش عليها...

توقّفتُ عن أداء خطب الجمعة بعد حوالى سنتين، وأنا في السادسة عشرة من العمر. ليس لأنَّ أسلوب والدي الإنشائي قد تحسَّن

خلالها أو أنَّه استوعب فصولاً أخرى في الفقه خارج نواقض الوضوء وشروط التيمم، بل لأنَّ خُطبة الجمعة صارت تُكتبُ في وزارة الأوقاف مباشرة بأسلوب ولغة لا يختلفان كثيراً عن أسلوب ولغة تقارير المنظمات القاعدية للتنظيم السياسي الموحّد آنذاك أو صحيفة ١٤ أكتوبر، ثم تُسلَّم مساء الخميس أو صباح الجمعة لخطباء المساجد.

ولأنِّي لا أمتلك صوتًا أفضل من صوت والدي فقد كان طبيعيًّا أن يعاود حضرته ممارسة وظيفته بعد إجازة سنتين من المنبر. كان أفضل منِّي في أدائها لا سيَّما أنَّني سئمت لبس الجلابيَّة التي لم تُسبِّب لي نفور الفتيات فحسب، بل مراقبة ومضايقة الجواسيس و«حمران العيون» الذين كانوا يطلقون اسم «الكهنوت» على كلّ من يرتدي ثيابًا كتلك، بكلِّ ما تُبَشِّرهُ تلك الكلمة من عواقب تعيسة على حامليها في ظل نظام سياسي «اشتراكي علمي» من العيار الثقيل، وإن كانت «الاشتراكيَّة العلميَّة» بريئة جداً من مساوئ ذلك النظام القبلي الذي تآكلت قياداته الأمِّية في مجازر وتصفيات لا أوّل لها ولا آخر...

كانت فترةً صعبةً دون شك تلك التي هبط فيها البدو من الريف إلى المدينة لـ«تثوير» كل شيء كما كانوا يقولون. كانوا يهتمُّون حينها بشكل خاص بمراقبة موضات لباسنا وطرق حياتنا. من لا يتذكَّر عنفوان مسيرات تلك الأيام، وشعارات:

زَرْزَرَ السروالْ وطَوَّلْ بِشعْره،

ما درينا هو صبي أم صبيّه!

ما نُبا « خُنْفُس » ولا « شارلستون »،

والجماهير تحمل البندقيه!

التي لم تكن في الحقيقة موجّهة ضدي بحكم قِصرِ شعري وملابسي الدينية؟... من لا يتذكّر أيضًا أغاني:

مكسبْ وراء مكسبْ، إنجازْ وراء إنجازْ،

وانت يارجعي بانحرِّقكْ بالجاز!

التي كنت أشعر أنَّها تمسّني شخصيًّا بسبب ملابسي الرجعيّة؟

كانت فترةً صعبةً جدًّا دون شك، لكنَّها كانت تعِجُّ بالآمال والطموحات، كانت مع كل ذلك أحلى وأهون بكثير من فترة هذه الأيام التي نَفَتْني بشكل مباشر في علبة صاردين! أقصد فترة هذه الأيام التي جاء فيها بدوٌ آخرون لـ « تثوير » كلّ شيء أيضًا، غير أنَّ تثويرهم ليس عبر فرض شريعة « الثورة الحمراء » مثل سلفهم، بل عبر فرض شريعة « الثور الأسود »، رمز عاداتهم القبليَّة وأعرافهم الآتية من ظلمات القرون السحيقة، والتي صار « الثور » خاتمَ سليمانها بدلاً من « الثورة ». به وحده تنتهي كلّ الأحكام، تبدأ كلّ المشاريع، وتحلّ كل الخلافات والصراعات...

رغم توقُّفي عن أداء خطبة الجمعة ولبس جلابيَّة الإمام ظلّ اسم « الإمام » يطاردني. التصق بي مثل كل ألقاب شوارعنا التي تلتصق بالفرد حتى مماته. لعلّ والدتي وحدها كانت فخورة بذلك الاسم:

ظلّت تُكرِّرُ الحديث عن أمجادي في المسجد لكلّ معارفها وكأنَّها تخشى أن تنسى العائلات تلك التسمية. أما والدي فربما أمسى مثلي، على غير ما كان عليه في السابق، ممتعضًا من ذلك الاسم، لسبب آخر تمامًا: لعله أراد وقد استعاد منبره أن لا ينسى الناس أنَّه هو وحده، لا شريك له، إمام المسجد وخطيبه الأريب.

حاولتُ، بعد التخلُّص من العمامة والجلاّبيَّة، أن أُعصرن ملابسي بخياطة سراويلي لدى خيّاطٍ أثيوبيّ ماهر في حيّ التواهي، وبشراء القمصان الفرنسيَّة الجميلة الغالية من معرض «مادموزيل دي باريس» خلف جولة حيّ كريتر، الذي توقّف عن البيع بعدها عندما مُنِعَ الاستيرادُ على تجّار القطاع الخاص، وصارت ثمّة بذلة واحدة عسكريَّة فقط لشعب كامل، يتم شراء قماشهما (مع حرية اختيار أحد اللونين: الكاكي أو الأزرق) من دكان مؤسسة القطاع العام.

لجأتُ للموضة عبثًا. مازلتُ في نظر الجميع «الإمام»، وما زال الاسم متشبّثًا بي، لا يتزحزح من أفواههم! يلاحقني حيثما ولّيْت. لم أستطع رغم قمصاني الفرنسيَّة الراقيَّة أن أنتزع ابتسامةً رقيقةً واحدة، أو نصف نظرة أنثويَّة غنجة مشجِّعة. لا أدري كيف يلزمُ التحدُّثُ مع الفتيات! آه، لو كنتُ قد رُزِقتُ أُختًا واحدة لتعلَّمتُ كيف يتحدَّثُ المرء مع ذلك الجنس الذي أموتُ حبًا وإعجابًا به، وأموتُ مع ذلك اشتهاءً له وحرمانًا من دِفْئه ورقّته! أو لو تأخر ميلادي قليلاً كيما ألحق بسنوات «التعليم المختلط» (أحد أجمل مكاسب ما كانت تسمّي

«مرحلة الثورة الوطنيَّة الديموقراطيَّة»، والذي تمّ إلغاؤه اليوم في عصر مرحلة «الثور») وأنال حظَّ الامتزاج بأرقى الأجناس الذي أعبدهُ، أعبدهُ، وأعبدُه... دون أن أنال مع ذلك حظّ ملامسة إحدى عناصره الرقيقة أو إملاء أُذْني بالتحدُّث معها، أو حتّى بتبادل نصف عبارة عذبة وإياها. أعترفُ أنَّني كنت أحسدُ جيل سنوات التعليم المختلط. كم كنت أحسد مثلاً أحد جيراني، الذي كان يصغرني قليلاً فقط، عندما كنتُ أراهُ يذهبُ بكلّ بساطة بحثًا عن دفتر جغرافيا أو تاريخ في منزل طالبة في الصف نفسه، دون أن يثير ذلك حينها فضيحةً تستدعي أن يستلّ أب جنبيته، أو يطالب بذبح «ثور» للتكفير عن تلك الفضيحة، وإن لم تكن ثمّة جنبيات أو أثوار في عدن تلك الأيام.

مع بداية الثامنة عشرة من عمري، مثل معظم أصحابي ومعارفي، انخرطتُ، كما كنّا نقول، بالعمل الشبابي والسياسي والنضالي، على أنغام أغنية «سمة العصر هو انهيار معسكر الأمبرياليَّة وانتصار معسكر الاشتراكيَّة وفي طليعته الاتحاد السوفيتي»، وعلى مواعيد سحق عروش البترودولار وتوزيع الثروات للشعوب. طبعًا، لم يخطر في بالي حينها أنَّ كبار نجوم هذه الشعارات من حكامنا سيتحوَّلون، كما هم عليه اليوم، إلى كبار مُقَبّلي أرجل ملوك وأمراء البترودولار وشيوخ «عصر الثور»...

رغم انخراطي ونشاطاتي المتنوعة والمخلصة، ظللتُ في أعين الجميع: الإمام... برَّزتُ كثيرًا في العمل السياسي والحزبي، بشكل مذهل: حفظتُ سريعًا كل ما قرأته من «خبابير» حول الموقف

الاشـتـراكي العلمي من الشـقـاق الصـيني ـ السـوفـيـتي في الحـركـة الشـيـوعـيَّـة العـالميَّـة، حـول الموقف الاشـتـراكي العـلمي من الـتـجـربة الاشتراكيَّة في يوغسلافيا، حول الجسر السريع الذي يحمل مباشرة من عصر ما قبل الرأسماليَّة إلى عصر الاشتراكيَّة (أو «خاتم عبدالفتاح إسماعيل» كما صرتُ أسمّيه اليوم): «مرحلة الثورة الوطنيَّة الديمقراطيَّة»...

مثل والدي الذي لا يستطيعُ الحديث في شيء آخر غير نواقض الوضوء، لم أعد قادراً على الحديث والإسهاب في موضوع آخر غير الشقاق الصيني ـ السوفيتي في الحركة الشيوعيَّة العالميَّة، والتجربة الاشتراكيَّة في يوغسلافيا، و«خاتم عبدالفتاح إسماعيل».

عندما أسترجعُ اليوم كلّ ذلك أشعر بفظاعة المهزلة، فالاتّحاد السوفيتي تجندل كقصرٍ من ورق، والتجربة الاشتراكيَّة اليوغسلافيَّة أنجبت، قبل انهيارها أيضاً، مجازر وجرائم إنسانيَّة لا تضاهي بشاعتها إلا جرائم النازيَّة، وخاتم عبدالفتاح إسماعيل حملنا، في نهاية المطاف، إلى «مرحلة الثور»: أرقى مراحل الفساد والقبليّة والتخلُّف.

لم يكن صعبًا، إذا كنتَ سريع الحفظ، الانتقال من إمام مسجد إلى إمام منظمة قاعديَّة. لكنَّ المنظمة القاعديَّة في مدرستي الثانوية تأسّست، يا للأسف، قبل التعليم المختلط وكانت خالية من الفتيات، مشحونة «بحمران العيون» الذين لم تكن الرِّقّةُ والرومانسيَّة دينَهم ولا ديدنَهم. في كلّ الأحوال، ورغم كل ذلك، لم يُسمّني أحدٌ في منظمة قاعدية: الرفيق، أو السكرتير... ظلّ اسمي دومًا: الإمام، إلا

في محاضر اجتماعات المنظَّمات القاعديَّة التي كنتُ أكتبها أنا نفسي، وأقضّي ساعات مقرفة طويلة في ترجمة مداخلاتها ولهجاتها، في فهم شفراتها وبواطنها، في الغرقِ في لجٍّ عبثها وجنونها، وفي إعادة صياغتها وكتابتها أو اختراعها كليّة إذا استدعى الأمر...

تجاوزتُ العشرين من العمر لم أسمع فيه صوتًا أُنثويًّا يناجيني. لم يعرف مسمعي غير صوت أمي التي صارت تراقب حركاتي وسكناتي أكثر من قبل. تلاحقني بنظرها خوفًا من شيء أجهله. لعلّها كانت تريد أن تتأكَّد أنَّني دومًا ذلك «الإمام» الدائم التي تفخر به، الذي صعد المنبر ودوّى خُطْبتهُ في الرابعة عشرة من العمر، وليس مثل زوجها الذي لم يصعد المنبر إلا بفضل الاشتراكات النقابيَّة والحزبيَّة ووفاة الإمام الراحل الذي مازالت تصلُ إلى مسمعها تُهَم مؤامرات زوجها في قتْله!

تحاصرني بنظراتها كلّما جاءت للمنزل أي جارة أو فتاة أو امرأة باستثناء جدّات شارعنا، تأمرهنّ بالتستّر، تطلق كلمة «عيب» في كل الاتجاهات، تطلب منّي الابتعاد سريعًا، تلومني إن تأخَّرتُ عن ذلك قليلاً، وتُجَرِّمُ كل حركاتي ونظراتي حينها، تنعتها بـ«مش تمام» في تلك الأثناء...

كانت تُصِرّ كما أعتقد أن أظلّ محرومًا من أيّ قصة غرام أنثويّة، من أي لمسة أنثويّة، بل حتى من أي حديث مع ثغر ناعم... لم تكن والدتي، هي، متخصِّصةً في علوم نواقض الوضوء، بل كان مربط فرسها الفقهي هو ما أسميه باب «كرَّمَ اللّه وجهه»: كم شرحت لي من وحي

اجتهاداتها الفقهيَّة العجيبة أنّ من « كرّم الله وجهه » هو من عاش نقيًّا لم ينظر في وجه امرأة باستثناء أمّه وأخواته، طاهرًا لم ينظر يومًا لجسده بين أسفل البطن والركبة (أو عورته كما كانت تفضّل القول)... كان صعبًا بحدٍّ ذاته أن أهضم تسمية « الإمام »، أما درجة « كرَّم الله وجهه » فكنتُ معفيًّا منها مبدئيًا لسبب بسيط: ممارسة العادة السريّة بكل أصنافها وطقوسها ومذاهبها ونوافلها ومدارسها لم تكن من العلوم الخفيّة على أبناء الرابعة عشرة في كلّ شوارعنا...

تجاوزتُ العشرين من العمر دون أن أتشرنق، بل حتّى دون أن أُقبّل وجنة فتاة. عاطفتي تصرخُ جوعها وتصحُّرها أكثر من أي وقت مضى! لعلّي، بعد مشاهدة فيلم غربي في سينما شيناز، أثّر عليّ كلّية، صرتُ ضحيّة ذلك الفيلم الذي أقسمتُ بعده، أن لا أتشرنق دون علاقة عِشقٍ تُفتِّتُ أضلاعي، وأن لا ألجأ أبدًا إلى الطريقين التقليديين والوحيدين للتشرنق في واقع الحرمان الذي نعيشه: السيسبان[١] أو طلب يد فتاة لا تعرفُها ولم ترها من قبل!... فكرة الدعارة مثل فكرة شراء زوجة لم أَمُتْ في حبِّها قبل الزواج أضحتا بعد ذلك الفيلم الذي استحوذني قلبًا وقالبًا تثيران تقيؤي بالدرجة نفسها.

لكن كيف يمكنني أن أعرض لفتاة مشروع صداقة ومعاشرة طويلة قبل الزواج في واقع كواقعنا؟ كيف يمكن أن يتحقّق حلمٌ طوباويٌّ كهذا في واقع يولدُ طفلُهُ في أحضان القضبان والسلاسل؟

١ ـ السيسبان،منطقة في ضواحي الشيخ عثمان، كانت مشهورة بمنازل الدعارة.

يترعرعُ ذكرُه مفصولاً عن أنثاه. بينهما برزخ لا يبغيان. بينهما تنّينٌ بحجم الكرة الأرضيَّة. لرؤوسه أسماء كثيرة: التحريم، المنع، العادات، التقاليد، الشرف، العيب، الجن، الشياطين، حبّ الامتلاك، العبودية، القمع...

ماذا أعمل حقًّا وأنا لا أعرف كيف أتحدَّثُ مع فتاة بشكل طبيعي، دون أن أرتجف وأُحمرّ وأُصفرّ وأُزرّق، دون أن أتلعثم، دون أن ألفظ أمامها كل معارفي العلمية والأدبيَّة والتاريخيَّة والسياسيَّة بدقيقة واحدة، ابتداءً مما تبقّى في ذاكرتي من تفاصيل نظام الحياة السياسيَّة والاجتماعيَّة والدينيَّة أيام الهرمسيَّة في القرن الرابع الميلادي، إلى مرابط فرسي الحديثة والتي لم أعد أعرف التجوّل في حديثي خارج نطاقها: قضايا الشقاق في الحركة الشيوعيَّة العالميَّة، والموقف الطبقي من التجربة اليوغسلافية، وخاتم عبدالفتاح إسماعيل...

أشعر أحيانًا أنَّه من الأفضل أن لا تُحبَّني فتاة: سأغمرها بطوفان عشقي، بطوفان أحاديثي، سأُضحكُها ليل نهار، سأُدلِّلُها بأحلى الكلمات، بأحلى الورود، بأحلى القبلات... سأحرقُها بنيران عواطفي المكبوتة، سأعبدُها، سأُكبّرُ وأُسَبْحنُ لها، سأحني هامتي أمامها، سأحملُ لها فطورها المفضَّل إلى السرير، سأُقبّلُ أرجلَها، «سأقرمطُها»، سأتنشقُها دون توقّف، «سأُعظْمِمُها»، سأعشقُها بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن كلِّ أصدقائي المحرومين، سأسدِّدُ ديونهم اليوميَّة لبنوك الحرمان عبر مضاعفة عشقي لها، سأعشقُها بالنيابة عن كل المحرومين

من العشقِ في الأرض أو في الكواكب الأخرى... ستعيشُ المسكينة في عاصفة غرامٍ تُحرقُ، تمحقُ، وتدمِّر...

إلهي، كم أقدّس المرأة وأعتبرها جنسًا أرقى من الرجل! انظروا كيف تذوب ساعات حياتنا، نحن الرجال، في أتون القات والضياع والكسل، لا تُهمُّنا غالبًا إلا سلالم الجاه والمناصب، وكيف يحملن هُنّ على أكتافهن أعباء المنزل والمدرسة، معاناة الإنجاب وآلام الأطفال، العلاج والغذاء والتربية... وكلّ المهام اليوميّة بما فيها مؤانستنا، تخفيف أحزاننا، وهدهدتنا قبل النوم. عليهنّ أيضًا أن يكنّ جميلات رقيقات نشيطات طائعات... أن يكنّ البنت والأم، المعشوقة والعاهرة، العبدة والسيِّدة... كم تُشبه حياةُ الرجل والمرأة في واقعنا حياة الأسد واللبوة! تذهبُ الثانية للاصطياد ويستلم الأول الفريسة جاهزة، ويسمّى هو مع ذلك بكلّ التسميات التعظيمية... أُبرِّرُ تلك التسميات في عالم الحيوانات، ربما لأنَّ الأسد، مثل ذكور بعض الحيوانات الأخرى، أجمل من أُنْثاه: الديك أزهى من الدجاجة، الظبي أبهى طلعةً من الظبية... لكن في حياة بني البشر، المرأة وحدها تمتلك ذلك الجمال والعذوبة والفتنة التي تصرع القلب... أليست الجنّةُ تحت أقدامها؟ أليس «ما تريدُه المرأةُ يريدُه الرب!»، كما تقول عبارةٌ مأثورة سمعتها في بلاد الفرنج...

إلهي، كم أُقدّسُ المرأة وأعتبرها وحدها الأمل والمخرج من مأساة الحياة الظالمة المغلقة الكئيبة التي قُدِّر لمجتمعنا أن يحياها! كم أعتقدُ

بصدق أنَّ هذا المجتمع المريض الموبوء الخامل لن ينهض يومًا إلا عندما تدقُّ ساعة « ثورة النساء »، ويبدأ عصر سيادتهن! . . .

من الأفضل حقًّا للمرأة أن أظلّ بعيداً عنها حتى لا أغرقها إعجابًا وعبادة وعشقًا. لكن عليّ أن أدفع ثمن ذلك: هاأنذا أتقلَّبُ فوق سريري عند النوم يوميًّا، يصرخ حرماني ويُدَوِّي ملء رأسي كل ليلة. يغيب النوم عنّي معظم الوقت. أشعر بمزيد من التصحّر والحرمان . . .

أحاول أن أستعيد ذكريات حصيلة خُمس قرن من الحياة العاطفية: قحطٌ تتخلَّلُهُ أحلامٌ ومآسٍ. حُبَّان في جعبتي: حبٌّ طفولي أضحى يأخذ حجمًا هائلاً وأسطوريًّا في رأسي، يسكنني بضراوة، يعود أبدًا من عالمٍ خارج العالم، يحيا دومًا في أضلعي، يكتسحني كُلّية . . . وحبٌّ شبابيٌّ عارم جُزّ رأسه قبل أن يشرئب، في مقصلة واقعنا الذي لا يرحم! إليكم حكايتي هذين الحُبّين.

عاد إلى ذاكرتي أوّلُ ذينكما الحُبّين، يومًا ما بشكل مفاجئ، بعد أن كدتُ أنساهُ تمامًا. كان ذلك في المدرسة الابتدائيَّة في قرية مولدي في تنزانيا.

كنتُ في الصفِّ الأول، في السابعة من العمر. كانت هي في الصف نفسه أيضًا. لا أذكر اسمها، لا أذكر محياها . . . فلأُسمِّها اصطلاحًا: مانيارا . . . كُنّا نتّجهُ معًا بسرّية وقت الاستراحة نحو شجرة ضخمة في أطراف ساحة ملعب المدرسة. نختفي عن الأنظار. نُقبِّلُ بعضًا بكل براءة طفلين يجدان لذّةً ما في ذلك العناق العذري، أو ربما

تأسرهما رغبةٌ ما في لوك الشوينجم نفسه في الوقت نفسه، أو يحاولان تقليد فيلم ما يتَّحدُ فيه عاشقان بقبلة رقيقة...

لعلّ تفصيل عناق طفولي كهذا سوف ينساه سريعًا بالتأكيد من امتلأت حياتُه العاطفيَّة، سوف يختفي تمامًا من ذاكرة كل من يعيش حياةً غراميَّة طبيعيَّة. لكن، هل قُدِّر لي أن يكون ذلك هو أهم ما تطفح به ذاكرتي العشقيَّة، أهمّ ما في جعبتي الغراميَّة من أثقال، كل ما سأقدِّمُهُ ليوم الحساب أمام آلهة الجمال والحب العذريّ؟ هل يُعقلُ أن لا تعود تلك الحورية للحياة بجانبي وقد صرت اليوم مسكونًا بانتظارها، أم أنِّي أطاردُ بانتظارها ظلَّ عنكبوت؟ ألم أرها أخيراً بأمّ عيني في «مؤسسة ناتارين الثقافية» في شريط ذلك الفيلم الذي فقدتُ وعيي عندما تركّزت كل أضوائه عليها، مانيارا كلّ أحلامي، مانيارتي الأبديَّة؟...

تسلّحُوا بالصبر: لم يحن بعد وقت إزاحة اللثام عن أسرار ذلك الشريط، وعن سرد تفاصيل ما دار في «يوم النامس». يلزمني أوّلاً أن أواصل تعرية ذاتي ورسم كلّ دهاليزها ومخابئها وأقبيتها الخفيّة.

أمّا عن ذلك العشق الشبابي العارم الذي اغتيل في المهد: سوسن الرائعة أبداً، حفيدة الحجّة سلمى، فتلك قصّة طويلةٌ جدًّا، حزينة جدًّا، ومضحكة جدًّا في الوقت نفسه. لم ولن تندمل آثار مخالبها في جوارحي، لأنّها قَولَبت شخصيّتي بشكلٍ جذريّ!

آه، كدتُ أنسى أن أحكي لكم أوّلاً ذلك الفيلم الغربي الذي شاهدته في سينما شيناز والذي لم ولن أنساه. لأَبْدأْ به أوّلاً قبل أن أتلو لكم بعدها سورة سوسن.

لا أتذكّرُ عنوانه، أذكر فقط أنَّ كلمة: «مفقودة» كانت في مكان ما في ذلك العنوان. لا أتذكّر إن كان إنجليزيًّا أو فرنسيًّا، وإن كنتُ أرجِّح أنَّه فرنسي. لا أتذكّرُ أسماء ممثّليه أيضًا، لعلهم ليسوا نجومًا مشهورين...

بطلُ الفيلم في العشرين من العمر، شرقيُّ الملامح. أتذكّرُه وهو يمشي حاملاً حقيبةً زرقاء صغيرة على الظهر، ينظر إلى الأمام، طليقًا شامخًا، لا قيد له في الرِّجْل ولا دَيْنَ عليه لأحد. لعلّه إيراني الأصل، وصل للتعليم في فرنسا وعاش في مدينة سانت مالو الفرنسيَّة التي ذهبتُ أنا أيضًا للدراسة فيها بعد الخدمة العسكريَّة، كما سأخبركم فيما بعد، والتي قَطَفْتُ فيها كلّ أنواع الفشل والإخفاقات، قبل عودتي النهائيَّة لليمن واعتكافي في علبة الصاردين.

كان طويل القامة، رشيقًا بهيَّ المحيا، وسيمًا جدًّا، أبيض البشرة أسود الشعر، يساريًّا متمرِّدًا، ذا ثقافة لا محدودة. كان اسمه في الطفولة: مراد اللّه السيد عبد المنّان الرصفاني. ثم «شمر» الاسم في مراحل عدّة من حياته إلى مراد السيّد عبد المنان الرصفاني، ثمّ إلى مراد عبد المنان الرصفاني، ثمّ إلى مراد عبد المنان، وأخيراً، قبل وصوله إلى فرنسا وبداية حياته الجديدة، توّقف اسمه عند مراد المنان.

بطلة الفيلم فرنسيَّة، من بنات المدن البحريّة المطلَّة على المحيط الأطلسي. إسمها ماريان. مثله تعجُّ رغبةً ببدء حياة جديدة، بعيداً عن أبويها وعائلتها، يساريّة تعرفُ معنى التمرُّد والحرية، تحلمُ بأمير أحلام يحملُ لها كلّ ما تجهله من هذا العالم المترامي الأطراف.

رآها ورأته في أوّل درس في الفيزياء في السنة الجامعيَّة الأولى التي بدآها معًا. رمقها بين عشرين فتاة ورمقته بين عشرين ولدًا. مثلَهُ، اقترب والتوى حولها العشرون الآخرون لأنَّها كانت أجمل فتاة في الصف، أكثرهنّ لمعانًا وذكاء وانفتاحًا وثقةً في النفس. كان اقترابُه منها أكثر تميّزًا لأنَّه كان أوسمهم أوّلاً، ثمّ لأنَّه عرف منذ البداية كيف يضحكها ويأسرها كُلِّية. أفضلُ مفتاح للوصول إلى قلب الفتاة هو إضحاكها. أما إذا كُنتَ وسيمًا أيضًا فقد وهبك اللّه مفتاحًا تلين أمامه كل الأبواب...

لإضحاك ماريان لم يتحدّث مراد معها عن الموقف الطبقيّ من قضايا الشقاق الصيني ـ السوفيتي ومن التجربة اليوغسلافيَّة... كما كنتُ أفعلُ عندما وصلتُ إلى سانت مالو. كان «يُفَقِّشُها» ضحكًا باختيار كلماته، بمفاجآت تعليقاته، برقّة طبعه وغريزيّة روحه الفكاهيَّة... أثملها ضحكًا في اللقاءات الأخرى، في الحصص الأخرى... لم تُعط اهتمامًا إلا له لأنَّه عرف كيف يجذبُها، كيف يُفْهِمُها أنَّها محور كل اهتماماته، وكيف يغرقُ ساعات لقائهما بالأنس والحبور والسعادة الخالصة.

قرّبتهما الدراسة والواجبات المشتركة والمأكولات المشتركة في المطعم الجامعي، التي مهّدت الطريق إلى دعوات وجّهها لها في مطاعم المدينة الليليَّة الأكثر رومانسيَّة، إلى تعلُّق مشترك طمّ كلّ شيء، إلى عشق وذوبان وحّدهُما بشكل كامل، إلى حياة مشتركة في غرفة جامعيَّة واحدة، إلى ماض مشترك كلّ يوم فيه بحجم الكرة الأرضيَّة...

قرّرا أن يكون عشقُهما هدف حياتهما الأوّل والأخير. لهُ وحده ينحنيان ويركعان، وليس للعادات والتقاليد ونماذج العشق التقليديَّة والمراسم والمحرّمات... قرّرا أن يُجرِّبا العشق بكلِّ صيغه وألوانه، أن يُعيدا ابتكاره كلّ يوم من جديد، أن يكونا مُدانَيْن بالتجديد اليومي في حديثهما، في رحلاتهما، في عشقهما، في دراستهما... لم يتزوَّجا بالطبع، كانا يسخران من مراسم الزواج كما سخر كبار الصوفيّة من بعض مناسك العبادة. عمَّقا من عشقهما كلّ يوم، واصلا دراستهما معًا دون توقّف. اشتغلا في الصيف ليكسبا نقوداً تؤمِّن لهما مزيداً من السفر والرحلات. طويا العالم... كان لكلّ يوم من حياتهما لونه الخاص، وقعه الخاص، عشقه الخاص، مفاجآته وعبقه...

اشتغلا في مركزي أبحاث. أنجبت ماريان طفلتهما: ليلى، بعد أن عاشا معًا أكثر من ١٥ سنة دون أطفال، كرّساها كلّيةً لهما أولاً وأخيراً، لأسفارهما، للحياة في عوالم مختلفة، لبناء صرح هائل لعشق شاهق. كم أموتُ إعجابًا بأنصاف الأنبياء، أولئك الذين يقاومون التخثّر والموت، يسافرون بنعال الرّيح التي لا تعرف الحدود وجمارك التفتيش، ويَسمُون دومًا فوق فكرة «الوطن» التقليديَّة بمدلولها القبليّ البليد، لا وطن لهم إلا السفر والعالم!

كبرت ليلى وصارت مع مرّ السنين بحجم عشقهما، بجماله وعبقريته، تذهلُ الجميع بألمعيَّتِها المتفجّرة، بسنائها الدائم، بجمالها الباهر، بلطفها ولباقتها وحيويّتها وتواضعها ومواهبها وحبّها للآخرين...

بسحرها الذي صار يتحدّث عنه الجميع بشكل متواصل. أضحت ليلى جوهر ومشعل حياتهما ومثار إعجاب الجميع: أصدقائها في المدرسة الابتدائيَّة والشارع، أمهاتهم وآبائهم، مدرِّسيها، كل المعارف والجيران...

بعد هذه الخلفيّة الطويلة عن حياة بطلي الفيلم، تبدأ قصَّةُ الفيلم الحقيقيَّة: إختفاء ليلى وهي في العاشرة من العمر في حادث اختطاف مفاجئ غريب. يتوقف اهتمامي بالفيلم عندما تبدأ قصّته الرئيسة فعلاً، ليس لأنَّ المُخرج لم يبدع في رسم تراجيديا بطليه، بحثهما الأبدي عنها، كفاحهما وانتظارهما وآمالهما وعذابهما، ومأساة حياتهما التي تمحورت كلّية في غياب تلك «المفقودة».

ذهبت لرؤية ذلك الفيلم عدّة مرات، قبيل أن ألبس عمامة الإمام، لا لأخوض في تفاصيل تلك التراجيديا المرعبة، بل لأعيش إلى الأبد الدقائق الأولى من الفيلم، وأراقب من كل جوارحي قصة حبّ ماريان ومراد، بداية عشقهما، تأجُّجه، ديمومته...

سكنتني بعض مناظر ذلك الفيلم منذ رؤيته وما زالت محفورة في دماغي: منظرُ مُراد وهو يمشي محيطًا ماريان بذراعه وسط شارع فرنسيٍّ طويل، يحدِّقان معًا بنمط واتساق البنايات، بمحتويات المعارض... يتوقّفان لشُرب شيء ما في رصيف مقهى، يضحكان كثيراً، يواصلان المشي بخطًى خفيفة، يُقبِّلان بعضهما بكل حرّية متى شاءا وكيفما شاءا. بين خطاهما وقُبلهما انسجام إيقاعيّ لذيذ، وفي أعينهما ونظراتهما لبعضهما شهوات لا تذبل، تزداد تفجُّرًا مع تقدُّم

الزمن. يظلان واقفين أحيانًا وقتًا طويلاً غارقَيْن في حديث ونقاش مثير، قبل أن يواصلا سيرهما...

انحفر في ذاكرتي أيضًا ذلك المنظر الذي حدَّقتُ خلاله طويلاً بعيني مراد. كان حينها وسط اجتماع سنويٍّ لمسؤولي فِرَق الأبحاث في مختبره العلمي التابع للمركز الوطني للأبحاث العلميّة في فرنسا، الذي اشتغل فيه مديراً للأبحاث. يناقشُ الاجتماع ميزانية المختبر، ويوزِّعُ ملايين الفرنكات على الفرق حسب مهارتها في عرض وتبرير مشاريعها واحتياجاتها.

مثل أيّ اجتماع بشريٍّ من هذا النوع، تتفتَّحُ الشهيّات، تزدوجُ الخطوات، ترتفعُ الأصوات، تلتوي الابتسامات، تتوهّجُ الأدمغة، تُبْرِقُ المواعيد، تُحدِّق الأعين في الأعين... كنتُ أنا من خارج الشاشة أُحدِّقُ حينها في عَيْنَي مراد. كأنّه لا يسمع ولا يصغي لما يدور حوله. غائبةٌ عيناه في عالم آخر، يُفَكِّرُ أبدًا في معشوقة تملأ كل فضاءاته، لعلّه يستعيد شريط عشق البارحة أو يفكّرُ في شيء ما لإسعاد معبودته في تلك الليلة، لإذهالها، لمفاجأتها... أقسمُ أنَّه لم يكن مثل الآخرين، كان واضحًا من عينيه أنَّه لا يعطي للنقاش أهميةً كبرى.

حدّقتُ مراراً وتكراراً في عيني مراد خلال ذلك الاجتماع. كان غارقًا في غيبوبة.

أنبلِ الغيبوبات.

قلتُ لنفسي: كم هي سخيفة بليدة لا قيمة لها أيّة حياة لا تشبه هذه الحياة؟!

الفصل الرابع

سَوْسَن

في الوجه المقابل لمنزلنا يقع منزلُ الحجّة سلمى. أعرفها جدّتي سلمى منذ أول يوم سكنْتُ فيه شارع دَغْبوس في الشيخ عثمان. كانت آنذاك تقترب من الخامسة والخمسين من العمر. تعيش بصحبة ابنتها رجاء، خالتي رجاء كما اعتدتُ تسميتها أيضًا، التي عادت أيامها، مع ابنتها الوحيدة سوسن، للسكنِ من جديد في منزل والدتها. عادت لشارعنا، يلزمني القول، ثكلاء منكوبةً نكداء غداة وفاة زوجها، رحِمَهُ اللّه، بحادث اصطدامِ سيّارة مروّع.

لا أعرفُ خالتي رجاء كثيرًا لأنَّها غادرت «شارع دغبوس» بعد ذلك لزواجٍ آخر، تاركةً ابنتها سوسن تعيش معظم الوقت قرب جدّتها سلمى لمساعدتها في الحياة المنزليَّة.

كنتُ أحبُّها كثيراً جدّتي سلمى، وتربطني بها علاقة قويّة. لا أندم اليوم إلا لأنِّي لم أتحدَّث معها كثيراً عن ماضيها وذكرياتها وطفولتها والمدن التي عاشت فيها. فجدّتي سلمى مخلوقة نادرة أنتجها أب يمنيّ عاش في نجران (التابعة للسعودية منذ ١٩٣٤) وأُمٌّ سوريّة من إنطاكية (التابعة لتركيا منذ نهاية الحرب العالمية الأولى). لعلّي كنتُ دون شكّ سأفهم أشياء أجهلها عن جغرافيا وتاريخ تلك المدن التي عاشت فيها قليلاً أو كثيراً، سأعرفُ أشياء كثيرة عن حياتها، سأستوعبُ قطرةً تكفيني من أسرار مصائر البشر والمدن والشعوب، ومن أسرار مصيري أيضًا.

تكبرني سوسن بأربع سنين فقط وإن كانت قامتها لم تتجاوز يومًا قامتي الباسقة. كانت في عينيّ منذ رأيتُها: واحة شارعنا المتصحّر وجنّتَه الصغيرة، تملأُ شارعنا برداً وسلامًا بطيبتها الدائمة، بابتسامتها الناعسة المنحوتة في قسماتها حتّى وإن غابت عن شفتيها، بعذوبة صوتها وانتظام انسيابه، بدقّة وحلاوة وجهها، وبكرمها في كل شيء... منذ تلك الشوكولاتة اللذيذة التي قدّمتها لي في أول يوم رأيتها فيه عن قرب.

كنتُ أعيش في شارع دغبوس منذ أكثر من عام عندما رأيتها قربي لأوّل مرّة. كان ذلك ذات صباحٍ لم تأت فيه بحثًا عنّي سيارة الميكروباص التي تنقل الأولاد إلى المدارس، ولم تأت فيه سيارة النقل الخاصة بالفتيات بحثًا عنها أيضًا. تصادمت السيارتان قرب شرطة الشيخ عثمان في يوم يتذكّره كثيرون إلى الآن، رغم حدوثه بضعة أشهر قبيل الاستقلال من الاستعمار الإنجليزي. اقترحَ أحد جيراننا وهو خارج للعمل أن ينقلنا معًا لمدرستينا في سيّارته.

أوقف سيّارته أمام مرفق عمله في إحدى الإدارات المجاورة لبلدية الشيخ عثمان، للتوقيع الصباحي في سجل المداومة، تاركًا كلينا في مؤخرة السيّارة بانتظار عودته.

كنتُ في ركن مؤخرة السيارة متصلّبًا كعمود الكهرباء، محتضنًا حقيبتي المدرسية بانقباضٍ شديد، أتقطَّرُ عرقًا لمجرد إدراكي أنَّني وحيد بجانب فتاة. خجلي الغريزي وقوانين الحياة في هذا البلد الجديد الذي حطَطتُ فيه منذ أكثر من عام تُعَلِّم الشاب الانقباض والتلعثم أمام الفتاة وتفرضُهما عليه سريعًا.

لم تكن سوسن من المعدن نفسه إطلاقًا. كان دماغها منبسطًا تُهوِّيه دائمًا نسمات الانفتاح والحرية. كانت تُلَوِّحُ بابتسامتها العذبة مثل أي فتاة لم تُغْمس منذ طفولتها في «تَنَكٍ» من العُقَد والموانع والمحرّمات، تعرف وقد أكملت الثالثة عشرة من العمر أنَّها ستكون جميلة دائمًا بعد أن تحدَّدت معالمُ قسماتها، وتدرك أنَّها ممتعةُ الإِصغاء، تنسكب كلماتها من شفتيها بعفوية ساحرة كنهرٍ من عسل السدر الدوعني من الطراز السلطانيّ النادر.

لم نتحدَّث معًا قبل توقّف السيارة ومغادرة جارنا للتوقيع في سجل الحضور اليومي. لم أتجرَّأ حتى على النظر إليها.

ـ تِشْتِي شوكولاتة؟

ـ لا.

كانت تلك أول كلمة قالتها لي وهي تُخرِج من حقيبتها المدرسيَّة قطعةً مستطيلةً كبيرة من الشوكولاتة قسمتها إلى نصفين متساويين. كانت إجابتي عبوسةً قمطريرةً متجهِّمةً محبطةً مُكفّرة.

ـ بَس، هذه شوكولاته سويسريَّة حلوة جاءت هدية من عمّتي التي كانت في رحلة في...

لم تتوقّف عن الحديث الجذّاب الذي «يتلحَّسُ» من عسليَّته وعذوبته وسحره وانسكابه بانتظامٍ لذيذٍ يأسر القلب، في حين تمتمتُ من جديد، بلا وعي، وبصوت غير مسموع تماماً، اللفظ السابق نفسه:

ـ لا... شكراً.

وضعت بكلّ ثقةٍ وهدوء نصف الشوكولاتة في أحد جيوب حقيبتي المدرسيَّة. لم أتجرَّأ أن أرفض أو أتحرَّك. ظلّ وجهي مبرطماً جنائزيًّا بشكل لا رجعة فيه، في حين رمقتُ على عينيها ابتسامة غنج صغيرة. عاد جارُنا بعد توقيعه في دفتر الحضور ليقودَ كلاً منّا إلى مدرسته، وليتركني عند باب مدرستي ألتهمُ في أوّل رُكنٍ يُبعدني عن الأنظار أجمل وألذَّ وأقدسَ قطعة شوكولاتة ذقتها في حياتي!

توطّدتْ علاقة عائلتينا بعد الحرب الأهليَّة الأولى بين الجبهة القوميَّة وجبهة التحرير. قضّينا بعض أيام تلك الحرب، نحن وعائلتان مجاورتان، مكشوحين بين كراسي وسُرر غرف منزلنا الذي لم يكن بعيداً عن عمارة مرموقة متاخمة لشارع دغبوس، كان يسيطر عليها التنظيم الشعبي التابع لجبهة التحرير، ويقصفُها هجومٌ متواصل بالرشاشات الآلية والبازوكا لمُقاتلي الجبهة القوميَّة... كُنّا مزدحمين

في غرفتين صغيرتين، نرتجفُ هلعًا من احتمال سقوط قذيفة تائهة على منزلنا. نتقاسم الخبز والماء. بالطبع، لم تكن إيقاعات الرشاشات المدويّة المتواصلة فضاءً رومانسيًّا لتبادل الشوكولاتة.

لا يظلّ اليوم ما أتذكَّره من تلك الساعات العصيبة التي عشناها معًا منفصلين تمامًا، موزّعين بين غرفة للنساء وغرفة للرجال، غير ذكريات الصلاة الجماعيَّة، والدعاء المتواصل، وحضن أمي الذي أحاط بي معظم الوقت ومنحني ما تيسّر من الهدوء والطمأنينة...

في السنوات التي تلت تلك الحرب، كانت والدتي ترسل أحد أطفال الشارع لسؤال جدّتي سلمى عمّا تحتاجه من سوق الخضروات والفواكه كلَّما أرادت أن تبعثني لشراء بعض احتياجاتنا من السوق، أثناء غياب والدي. لكنَّها كانت تُصِرّ، من باب «الحشمة والشرف» كما كانت تقول، أن لا أدخل منزل جدّتي سلمى لسؤالها عمّا تحتاجه أنا نفسي، إلا إذا كانت سوسن خارجةً، أو في منزل أمِّها الجديد الذي تعيش فيه منذ زواجها الثاني.

كنتُ أدخلُ منزلَ جدّتي سلمى بشكل شبه يوميّ، عند غياب سوسن، أسألُها عمّا تحتاجه، أصغي لهمومها وأحاديثها، أجدُ لذّةً كبيرة في التفاعل معها. ربما لأنَّها كانت، بخلاف معظم جدّات شارعنا: واسعة التجارب والمعارف بحكم أسفارها، تقرأ وتكتب دون خلل، ناهيك أنَّ ملبسها ونظّاراتها واختيار كلماتها وحُسْنَ أخلاقها وحميميَّة صوتها كانوا وحدهم مبررات إضافيّة لإطالة الحديث معها... توَطَّدت علاقتي بها كثيرًا وكنتُ غالبًا موضع ثقتها في كل شيء إن لم أكن أكثر من ابنٍ لها.

صارت سوسن تُقضّي معظم أيامها في منزل أُمّها الجديد بعيداً عن حارتنا. كانت معدودةً تلك الأيام التي صادف مجيئُها لمنزل جدّتها تواجدي فيه، أو خروجي منه. غير أنّها أيام كان قلبي أثناءها يرتعش كثيراً. كان قلبي يرتجف أمام تلك الفتاة الأنيقة باستمرار، التي تتألّقُ أنوثتها يومًا بعد يوم، تعيشُ دومًا على سجيّتها، تسيلُ عذوبتها، تتحدّث، تسير وتضحك دون زيفٍ أو تصنّعٍ أو عُقَد. تلك التي منحتني يومًا قطعة شوكولاتة أستعيد طعمها في ذاكرتي ألف مرّة ومرّة يوميًّا منذ ذلك الصباح الخالد. تلك التي كانت تمنحني، كلّما صادفتني في منزل جدّتها، ابتساماتٍ دافقة ونظرات مملوءة بالودّ والحنان أرتعشُ لمجرد ذكراها. تلك التي فتحت معي أكثر من مرّة بداية دردشات اقتضبْتُها سريعًا أنا وحدي لخجلي الفاحش، ولتراكب كلماتي أثناءها بشكل مضحك. لا أتجرأُ على التفكير بردِّ فعل والدتي أمام اختلاج مشاعري حينها. كانت ستعتبرُها دون شك فحشًا وخيانة...

لعلّ، لحسن حظي، أنَّ سوسن تزوَّجت وغابت عن الأنظار عندما بلغت الثامنة عشرة من العمر قُبَيْل أن أصبح خطيب الجمعة وأنا أبلغ الرابعة عشرة من العمر ليس إلا. أحمد اللّه أنَّها لم ترني حينها أعبرُ شارعنا لابساً عمامة الإمام، مُتَّجهًا نحو منبر المسجد! حتمًا كنتُ سأضيع كلّ الابتسامات الناعمة التي كانت تهديني بكل لطف ورقّة.

صرتُ، بعد زواج سوسن، أزورُ يوميًّا جدّتي سلمى التي ازداد احتياجها لي مع تقدّم عمرها، ومع اختفاء السلع الاستهلاكيَّة في

سبعينيات جنوب اليمن. ومع مرور الأيام، صارت عائلتي من ناحية، وأنا شخصيًّا أقرب أقربائها وعونها الوحيد.

عندما بلغتُ الخامسة عشرة من العمر، سافرت جدّتي سلمى لإنطاكية عدة أشهر لزيارة أقربائها الذين يعيشون هنالك، لا سيَّما أختًا لها على فراش الموت. تركت مفتاح منزلها في بيتنا، و«أمَّنَتْني» «السبع الأمانات» على تفقُّده وزيارته يوميًّا، وترك ضوئه مفتوحًا في المساء، والنوم فيه أحيانًا أثناء غيابها، خوفًا من أن يظنّ الناس أنَّه منزل غير مسكون، ويثير بذلك شهيّة «قانون تأميم المساكن» الذي كانت ترتعد أمامه كلّ الفرائص.

شعرتُ بالفرح والفخر وأنا أمتلك مفتاح بيتٍ أدخلُه لوحدي بين اليوم والآخر، أتركُ مصباحه مفتوحًا في المساء وقتًا طويلاً كما طلبت جدّتي سلمى، أُقَضّي فيه أحيانًا بضع ساعات لترتيب أشياء صغيرة، أختلقُ سببًا أو آخر للذهاب إليه، أُماطِلُ خلالها بالبقاء قدر ما أستطيع... تظلّ والدتي أثناء ذلك تراقبُ باب جدّتي على أحرّ من الجمر، وكأنَّها خائفة من شيء ما.

أحببتُ كثيراً ذلك المنزل. شعرتُ فيه بالهدوء والسلام أكثر من منزلنا. أحببتُ أولاً ترتيب غُرفه وبعض آثاثه وتُحفه الصغيرة التي جاءت من مدن مختلفة. أحببتُ تهويته واعتدال حرارته وموقعه الذي يمنحه ظلاً أوفر من منزلنا. لكنّي أحببتُ فيه شيئًا واحداً بشكل لا يوصف: صورةً حائطية كنتُ أنظر إليها بخشوع وعشق طوال ساعات بقائي في ذلك المنزل.

أحبّ عمومًا رومانسيَّة الصور الحائطيَّة ذات اللونين الأبيض والأسود فقط. أجدُ فيها نعومةً ورقّةً تجذبني. تُذكّرني بحسناوات العشرينيات، بنجوم السينما الإيطالية في النصف الأول من القرن العشرين... لكنَّ الصورة الحائطيَّة لسوسن التي تُتَوِّجُ جدار غرفتها في الدور الأوّل كانت صورة حالمة فاتنة بشكل خيالي، ذات جمالٍ هائل يُجَنّنني، يقتلني...

كنتُ أنزلها من الحائط بكلّ عناية، ألامسها برقَّة، أملّسها، أقبّلها، أحتضنها... دون توقّف. أحدّق فيها وأناجيها وقتًا طويلاً. أشاهدُ التلفزيون أحيانًا وأنا أملّس عليها بلاوعي كما تُملّسُ طفلة صغيرة على قطّتها الحبيبة. صرتُ أحفظ تفاصيل خلاياها، أرسمها دون توقّف، أعيد طبعها في كلّ خلايا دماغي كـ «ميسمٍ» أبدي... أشكرها بلاوعي على منحي تلك الشوكولاتة التي لم أتجرَّأ حينها نبس أدنى ابتسامة شكر، أشكرها على ابتساماتها المكرّرة التي لا أُبدي أمامها إلاّ انقباضًا وحشيًّا لا يلين...

وهبتُ تلك الصورة أجمل ساعاتي. أحببتُ الوَحْدَةَ في ظلالها، صرتُ غيوراً إذا نظر إليها أحد. ناجيتُها دون تلعثم، ارتجلتُ أمامها خطبًا وقصائد غزليَّة أكثر حميميَّة من خطب جمعاتي السالفة. صرّحت أمامها كلّ امتناني وشغفي وإعجابي ولوعتي... كان كل شيء في غاية الروعة لو لم يكن حديثُنا مونولوجات ومناجاتنا بصوت واحد، وقُبَلُنا من طرفٍ واحد، ولذلك أحاديّة الجانب.

عند عودة جدّتي سلمى من رحلتها، كانت صحَّتها أشدَّ هشاشة وأقلّ استقراراً. صارت تحتاج لي أكثر من قبل، أو بالأحرى

أبو عبدو البغل

تحتاج لمتفرّغٍ يخدمها ويسكن معها. بحث لها والدي عن نفر يقوم بالمهمّة. كان اختياره لشاب يقترب من السادسة عشرة مثلي، جاء مثل كثيرين إلى عدن هاربًا مما كنّا نُسمّيه «شمال الشمال»: أكثر المناطق معاناة من قهر حياةٍ لا تختلف بؤسًا وفقرًا وتخلُّفًا عن أيام الإمام أحمد، أقصد عن أيام الجاهليَّة، والعصر الحجري أيضًا. وعن أيامنا هذه بكلِّ تأكيد.

كان لطيفًا يحبّ اللهو واللعب، يُسكرنا ضحكًا بعباراته الساخرة من كل شيء، بلهجته المتميِّزة المرحة، بأسلوبه المسرحي وبحركاته البهلوانيَّة المتْقنة التي سأدفع ثمنها غاليًا غاليًا غاليًا...

إسمه: جعفر الدملاني! قد تكون مصادفة بحتة، قليلة أو كثيرة الأهمية، أن يكون اسم المنطقة التي هرب منها: «دملان»، واسم القرية التي ذاق فيها الأمرّين: «قرية الزرائب»، وإن صار اسمها المتداول في تلك المنطقة: «تَنْكا»، على غرار «تَنْكا»: اسم السجن الخاص التابع لشيخ المنطقة، الذي اعتاد الناس أن يُسمّوه كذلك لظُلمته التي تُشبه ظلمة «التَنَكْ»، ولفَتْحته الصغيرة في سقف غرفة حجريّة مغلقة الجوانب تُشبهُ «التَنَك» تمامًا، لا يدخلها، عدا السجناء الذين يُرْمَوْنَ من الفتحة، إلا النامس الذي يصلها أفواجًا من مستنقع أثريٍّ خالد مجاور للسجن.

صار جعفر صديقًا لي يعرف كيف يمنحُني الابتسامة الدائمة بهزله الذي لا يتوقّف. كان يهتمّ كما ينبغي بكل احتياجات ومستلزمات جدّتي سلمى، يؤدِّي مهامه على أكمل وجه. يلزم القول إنَّه لم يكن صعبًا جدًّا الإيفاء بحاجات كهلةٍ تأكل قليلاً جداً، تُقَضّي

جزءاً كبيراً من يومها نائمة أو مسترخية، ناهيك أنَّ جدّتي سلمى سيّدة مُهذّبة في حديثها وتعاملها مع الآخرين، تمتلك مبالغ كافية تبقَّت لها من حياة سابقة في مدن لا نعرفها، تدفع لجعفر منها مبلغًا شهريًّا كافياً يحسده عليه بقية الخدم... عمومًا، كان وضع جعفر ينسجم كثيراً مع فلسفته في الحياة وحلمه الدائم بكسب كاف مقابل مجهود ضئيل.

بعد نوم جدّتي سلمى في المساء، كنت أجلس أحيانًا مع جعفر في ركن الشارع، أو في «الحوش»، السور المجاور لمنزلها، نتحدَّث ونضحك، نتبادل الذكريات والتعليقات الساخرة... يعرف جعفر تقليد كلّ شيء بمهارة. يُلوِّنُ صوته، يُقلِّد البشر والحيوانات معًا، يتبختَرُ في المشي أو «يتبرطع»، يلطم وركهُ أو مؤخرته في حركات هزليّة مُسلّية جدًّا، يعرف الانتقال سريعًا من دور حصانٍ هائج إلى سلحفة لا تتحرَّك... وبشكلٍ خاص، كان يجيد تقليد كلّ مراهقي شارعنا، كلّ فتياته وفتيانه، كلّ عُقّاله ومخبوليه...

صرتُ أيضًا أعرف بما فيه الكفاية طبيعة الحياة في قريته الضائعة في أنكاب جبل مجهول، بمختلف عاداتها وتقاليدها، أعرف ذكرياته الصغيرة وكلّ تطلعاته وآماله...

أكثر ما أذهلني هو أنَّه كان يختلف تمامًا عن الشباب القادمين نحو عدن هربًا من الفقر والتخلُّف والمرض والشيوخ وسجونهم الخاصة، ومن كلّ بؤس تلك المناطق التي مازالت تتخثَّر في زمنٍ يُشبه زمن ما قبل التاريخ. لم يكن جعفر مثلهم يصبو لمحو أميّته سريعًا في مدارس عدن التي كانت جيِّدة المستوى آنذاك، لم يكن طموحًا مثل كثيرين

منهم للحصول على منحة دراسيَّة علميَّة، أو سياسيَّة في إحدى المدارس الإيديولوجيَّة لأحد الأحزاب الشيوعيَّة في المنظومة الاشتراكيَّة، يعودُ بعدها ليكرِّر بكلّ بلادة، ككلّ زملائه في الدراسة، ما تعلَّمهُ هناك عن الدور القيادي لحزب الطبقة العاملة، عن «سمة العصر»، عن مخاطر اليمين الانتهازي واليسار الطفولي، عن انتهازية تشي جيفارا، وعن أمراض البرجوازيّة الصغيرة...

كان جعفر كسولاً جداًّ، لا يحبّ المعرفة والتعليم، لا يحبّ تحريك دماغه إلا لتأليف النكت المضحكة جداًّ، لخلق التعليق والهزل. حُلْمُه في الحياة، كما كرَّرَهُ لي ألف مرة، هو أن يصير شيخًا كبيراً غنيًّا جداًّ، أن يتزوَّج على سُنّة اللّه ورسوله أربع صبيّات «كل واحدة أصغر من الثانية»، كما كان يقول، وأن يمتلك قصراً كبيرًا مملوءاً بالخدم والحشم، يصحو كلّ يومٍ في وقت متأخِّر من النهار، يُحضِرُ له خَدَمُه الفطور على التوّ ليتناوله فوق السرير، يغتسل بعدها في مسبحه الرخامي الوثير، يتناول بعد ذلك مأدبة غداءٍ دسمٍ تتزاحم فوق صحونها أضلاعُ رضائع غائرةٌ في حساء «المَرق»، أكتافُ أثوار ثخينة مُحنَّدة، وفخوذُ عجول متناثرة مُفتّتة في صوصة «العَقدة»... قبل أن يبدأ طقوس مجالس القات مع صحبه من كبار الشيوخ والأغنياء في ديوان قصره المفروش بالقطائف الغالية التي تُغَطِّيها في المساء، بعد انتهاء مجلس القات، طبقة كثيفة من أعشاب بقايا القات المرميّة، قيمةُ كل فتات عشبٍ مرميٍّ منها تساوي راتِبَهُ الشهريّ الذي تمنحه إياه جدّتي سلمى.

لعلّ تعلّقي، أو حاجتي بالأحرى، لجعفر الدملاني كانت قويّةً خلال سنة الخدمة العسكريَّة التي بدأتُها في العشرين من العمر. لا أجدُ رغبةً في الحديث عن تلك السنة أو مجرّد تذكّرها. يبدو لي في كلّ الأحوال أنّني وُلدتُ في برجٍ تعيس: لو تأخر ميلادي قليلاً لكنت من أبناء جيل التعليم المختلط، ولو تقدَّم قليلاً لكنت من أبناء الأجيال التي لم تحي سنوات الخدمة العسكريَّة المقرفة.

عموماً، كانت سنةُ الخدمة العسكريَّة، أو سنتا الخدمة العسكريَّة بالتحديد لأسباب سأشرحُها بعد قليل، مُدَمِّرةً لي نفسيًّا وعصبيًّا. كلّ أحلامي في الحياة والحبّ انسحقت كلّية في تلك السنة واستُبدلت بواقع مضرّج بالتذمُّر والعبث والجنون. أدَّيتُ خدمتي العسكريَّة في أحد المعسكرات القريبة من «مدينة الشعب» و«البُرَيْقَه» في خلاءٍ شبه صحراوي شاسع خارج عدن.

كنّا نغادر المعسكر كلّ خميس بضع ساعات فقط تُسمّى إجازة الأسبوع، أعودُ خلالها لشارعنا مثقلاً بالإرهاق والقهر. تستقبلني فيها والدتي كما لو جئتُ من أستراليا بعد غياب دهر. أرتاحُ قليلاً في المنزل بعد أن أغتسل طويلاً من أدران وقاذورات وغبار أسبوعٍ مرهقٍ نتن. أرتمي بعدها على «صَرَحَةٍ» في ركن الشارع، أو في «حوش» منزل جدّتي سلمى مسترخيًا، نصف نائم، أتمتّعُ بجمود ذلك الشارع وخدره الأبدي.

لا أتنفَّسُ الصعداء قليلاً إلا عندما يبدأ جعفر الدملاني ما كنتُ أسمِّيه «التقرير الأسبوعي» يستعرض فيه ما دار في حارتنا من أشياء

صغيرة خلال غيابي. يبدأُ من أوّل منزلٍ في ركن الحارة، ثمّ يتقدَّم منزلاً منزلاً، لا يترك عجوزًا أو عجوزة، شابًا أو شابة، طفلاً أو طفلة... دون أن يعجنَه في قالب سخريته وتعليقاته الفكاهيّة الحادّة.

بمسرحيةٍ وبهلوانيَّةٍ وإبداع، كان جعفر يُقَلِّدُ حركات الجميع، أصوات الجميع، طُرقَ مشيهم وحديثهم، يسخر من كل شيء، لا يفوته تفصيلٌ أو حدث. كنت أتمتَّعُ خلال تلك اللحظات بالعودة إلى المهد، بمتابعة أخبار الشارع إن جاز تسميتُها أخباراً، بتمجيد العبث الذي صار ينخر حياتنا، بالتنفُّس من أنْتَنِ الرئات: رئة «الحشوش»، أي ثرثرة الهمز واللمز، التي صارت الرئة الوحيدة التي نستطيع التنفّس منها في زمن الرقابة والمخبرين والخنق والسحق والتصفيات.

من جانبي كنت أتقيأ أمام جعفر يوميّات الخدمة العسكريَّة. أحكي له كيف نصحو في الفجر على صراخ المسجلة التي تستهلّ اليوم بالأغاني والشعارات الثوريَّة، وتختتمه بسلسلة من المحاضرات الأيديولوجيَّة. نغتسلُ قبل الساعة السابعة في بركة قذرة، نتناول فطور «الروتي» و«الفاصوليا» الذي لا يسمنُ ولا يغني من جوع، نلبسُ البذلات العسكريَّة الثقيلة النتنة، نملأ «الزمزميات» بالماء استعداداً للتدريب العسكري في العراء، ثم نرتصّ في الطابور الصباحي ونبدأ طقوس الصراخ اليومي بشعارات حمل السلاح من أجل الدفاع عن الثورة اليمنيَّة (الذي تُرْجِمَ في الواقع بحمل السلاح من أجل خوض الحروب الأهلية والغدر والمجازر؟)...

لعلّ ساعة الطابور الصباحي كانت بالنسبة لي أسوأ ساعات الخدمة. ليس لأنّي لا أحبّ طقوس الشعارات والغناء والصراخ المشترك، بل العكس. أحبّها تمامًا مثلما أحبّ صلاة الجماعة والموالد والمظاهرات والرقص الجماعي. أحبّ حقًّا كل أنواع المناسك والربشة الجماعية... أُفرِغُ فيها شيئًا ما ثقيلاً على نفسي، «أَتَنفَّهُ» فيها دومًا، يحميني جَمْعها من بقايا قلق وخوف أزليّ من أشباح ووحوش لامرئيّة ترقص في أقبية لاوعينا الدفين، نتوارث الرعب منها جميعًا، منذ أن كان أجدادنا الأوائل يبحثون قبل ملايين السنين عن قوتهم، دون سلاح أو عتاد، في عراء الطبيعة، بين أعاصيرها ووحوشها العملاقة الضارية.

كرهتُ ساعة الطابور الصباحي لأنَّ أحد المسؤولين العسكريّين كان يُنَكِّدُ على حياتي خلالها أشدّ تنكيد. كان يتّهمُني بعدم ترديد الشعارات أثناءها، رغم أن شفاهي كانت ترتفع وتنخفض، «تتشامق وتتلامق»، وتتحرَّك في كلّ اتجاه. كنت أصرخُ ملء حنجرتي فعلاً. كان يُصرّ أنَّني أحرِّك شفاهي زيفًا، دون إخراج صوت ما. وعندما يقترب منِّي إلى حدّ الملامسة ويسمعني أجلجل بآيات «يا علي ناصر ويا بِنْ رُبَيّع، يا أمين اللجنة المركزية! ما نُبا خائن ولا خطّ رجعي، والجماهير كلُّها ماركسيَّة!»، يُصرّ أنَّني لا أطلقُ عنان صوتي إلا عندما يقترب منِّي لمراقبتي. رآني يومًا مُشحِّبًا من ترديد الشعارات بحقّ. تنحنحتُ حينها ثلاث مرّات أمامه دون أن يغادرني الشحب لأُثبِت له تلف حنجرتي من ترديد الشعارات... أَصَرّ مع ذلك أنَّ سبب شحبي هو ثرثرتي الصاخبة الزائدة مع زملائي ليلة البارحة، وليس سببه ترديدي الثوري الصادق للشعارات الصباحيَّة.

ظلّ سببُ تركيزه عليّ يؤرقني فعلاً رغم صفاء «سيرتي الذاتيَّة» النضاليَّة والحزبيَّة، وامتلائها بنسخ وتبييض وكتابة ما يساوي ثلاثة كتب ضخمة من المحاضر، أقصدُ أكثر من سبعين محضراً للاجتماعات الحزبيَّة الأسبوعيَّة في آخر سنتي المدرسة الثانوية، التي كانت تدوم غالبًا من الثالثة عصرًا حتى منتصف الليل، والتي امتلأت بخليط سوريالي عجيب يمتزج في أحاديثه التشنُّج والقلق والأحلام الطوباويَّة والآمال الساذجة والخوف والصدق والقبليَّة والمناورات والوصوليَّة والطِّيبة والانتهازيَّة والتطرُّف والبراءة والعنف والإخلاص والحذر والجهل والنفاق والرغبة الحقّة في التغيير...

طلبتُ من أحد أصدقائي في المعسكر، الذي كان موهوبًا في علاقاته الجماعيَّة ومقدراته على استقصاء مكنونات نفوس البشر، أن يفسِّر لي لماذا كان ذلك المسؤول «مُنَمِّراً» عليّ بتشبُّثٍ قاطع، يرمقُني وحدي في الطابور الصباحي دون توقّف، إن لم يجثم قربي بثقل ظلّه المرعب.

لا أدري كيف استطاع زميلي إهداء مشروبٍ كحولي للقائد العسكري تناولهُ وإياه في ساعة متأخِّرة من الليل في خلاء المعسكر بعيداً عن الأعين الساهرة، تعانقا فيه مائة مرّة وتصادقا خلاله إلى حدّ ما بعد الأخوة... عندما عاد صديقي أخبرني أنَّ كتب محاضري الثلاثة لن تشفع لي أمام ذلك القائد، بل حتّى لو كان ورائي مائة كتاب من المحاضر. سألتُه سريعًا سبب ذلك. أجاب: «قال المسؤول إنَّك كهنوتٌ، يعرفك من أيام ما كنت تلبس قميص الإمام. أنت انتهازي مندسّ خطير على الثورة، من أبناء الثورة المضادّة..».

بعد الثامنة صباحًا، نبدأ الجري، حمل السلاح وتجهيز الذخيرة الحيّة، التدريبات القتاليَّة، تنظيف الدبابات والمدرّعات، إطلاق الرشاشات أو المدافع الحيّة كلٌّ حسب تخصُّصه... نعودُ بعدها، وقد شَوَتْنَا الشمس بقطران «يُكَلْسِنُ» العظم، وامتزج الغبار المتصاعد من كل مكان بعرقنا المدرار. نعودُ جياعًا ظمآنين نحو أفران المعسكر لتناول وجبة الغداء.

للحصول على صحن الغذاء، كنَّا نتوجَّه نحو مطبخ المعسكر مشيًا فوق لوحٍ خشبيٍّ طويلٍ ضيِّق يطفو فوق مستنقعٍ قذر يحوي كل مخلّفات وقاذورات وغائط المعسكر. كان منظر ورائحة ذلك المستنقع يسدّان نفسَ كل جائع. لحسن حظي لم أسقط من فوق ذلك اللوح غير مرّات قليلة كان معظمها سقوطًا جماعيًّا.

من نافذة عالية صغيرة كان الطبّاخُ يمدّ لنا صحنًا من الرز الصيني الرديء وخضروات من المعلّبات البلغاريَّة الشهيرة التي لا تقلّ رداءةً عن ذلك الرز. لحسن حظّنا جميعًا أنَّ عبور ذلك اللوح الضيِّق يعتقل عواء أيّة شهيَّة، بل يمحقها تمامًا.

نعود بعد الظهيرة إلى ساعات التدريب وتصفية العتاد والجري، والسماع إلى المحاضرات الأيديولوجيَّة. ننام في الليل قليلاً إذا لم نصحو في وسطِه على نواقيس استنفار عسكريّ لحربٍ وشيكة متوقّعة. نرتدي ملابسنا العسكريَّة من جديد خلال ثوانٍ، نحمل العتاد، نجري صوب سيارات المعسكر التي تحملنا نحو شواطئ البُرَيقَة. ننبطح بمعدّاتنا على تلك الشواطئ الساحرة للتصدي لهجوم أمبريالي - صهيوني - رجعيّ منتظر.

كنت أراقب الأفق بحذرٍ شديد، أتلو في أعماقي سورة الفاتحة والكرسي و«إذا جاء نصر اللّه والفتح»... ثم عندما أشعر أنَّنا لن نتأخر عن العودة إلى المعسكر، كنتُ أحدِّقُ بِولَهٍ في رقّة ودفء الجزر والشواطىء المحيطة، أذوبُ في سناء أشعّة القمر وهي تغسلُ أهداب البحر، وأتوحَّدُ برهافة خاشعة مع تلك الشواطئ التي خلقها اللّه قبل كل شيء للاسترخاء والمناجاة والعشق.

في أكثر من استنفار كنّا نتوجَّه إلى جبلٍ قريبٍ من شواطىء عمران وقُمم المحاذية للبُرَيقَة، كُلَّما أُبلغت غرفة القيادة بأن أحداً رأى فوق سفوح ذلك الجبل نارًا أو ضوءًا ما. تُفسِّرُ قيادة المعسكر ذلك سريعًا بأنَّه حشدٌ من المرتزقة ينوي الهجوم الليليّ المباغت. كان سكان تلك المناطق الساحليَّة قبل الثورة يفسّرون أي نارٍ على سفح الجبل بأنَّها موضعُ التقاء نفرٍ من الجِنّ تمارس مناكحاتها الجماعيَّة.

عند صفير الاستنفار، نرتدي من جديد بذلاتنا العسكريَّة الثقيلة، ونهرول بسياراتنا صوب الجبل، نحيط به من كلّ اتجاه، ونغسله بوابل من القذائف المدفعيَّة ورصاص الآليات... تنتهي تلك المعركة غالبًا بصعود قائد المعسكر إلى أعلى الجبل وعودته حاملاً «قراطيس لَبَنْ»، (عُلَب الحليب)، استولى عليها بعد هروب فلول المرتزقة... نُصفِّقُ حينها ونغرِّدُ على إيقاع الرقص الجماعي وشعارات انتصار الثورة وهزيمة «العدو الطبقي»، نهرعُ بعدها عائدين إلى المعسكر وقد أيقَنّا بفضل قراطيس اللبن أنَّ الجبل كان مأوى لحثالات المرتزقة، وأنَّنا دافعنا عن الثورة اليمنيَّة من العدو الطبقي الغاشم.

نتوجَّه بعد ذلك للنوم، إذا لم يحن موعد الفجر وبدء المسجّلات بتلاوة ما تيسّر من الشعارات الثوريَّة والمحاضرات الأيديولوجيَّة.

عن تلك المحاضرات الأيديولوجيَّة يمكنني أن أتحدَّث كثيراً. ألطفُها محاضرات قائد المعسكر الذي كُنّا نتلذّذُ بـ «الكركسة» به بشقاوة. أمتعُ فقراتنا التقليديَّة في هذا المجال هي أن نكرِّر أمامه إعجابنا الهائل بإحدى محاضراته التي سرد فيها قصّةً من سيرته الذاتية، قبل أن نتوسَّل له إعادة سردها، دون أن يشعر لطيبته وسذاجته وبدائيته بشيءٍ من السخريّة الشقيَّة من قبلنا. كنَّا نرجوه يوميًّا أن يحكي من جديد تلك القصّة نفسها، ونتصنَّع، على طريقة جعفر الدملاني البهلوانيَّة، ذهولنا وإعجابنا الهائل بمغزاها العميق و«أبعادها الطبقيَّة»، كما كنّا نقول. كان البعضُ يدقُّ براحة يده على جبينه ليُوهم القائد بفرط ذهوله من تلك القصّة، وكان البعضُ الآخر يردِّد بصوت مسرحيّ: «والله إنّها قصّة تختّت بالعقل!»، أما آخرون فكانوا يتوجَّهون مباشرة لتقبيل هامة القائد للتعبير عن إعجابهم العميق الصارخ.

أذكر أن أوّل مرّةٍ سرد فيها القائد تلك القصّة كانت أثناء إحدى محاضراته التي أراد فيها أن يقارن بين «حياة الشعب قبل وبعد الثورة»، انطلاقًا من تجربة حياته الخاصة. قال:

ـ عندما كنّا فلاحين في القرية قبل الثورة، كان لزوجتي ثوب واحد فقط ترتديه عامًا كاملاً. كانت تحرثُ وترعى وتحلب وتبحث عن الماء والعلف طوال اليوم. في ذلك الزمن البغيض، كنت أطلب من زوجتي، قبل أن تجلس فوق حجرٍ للاستراحة لدقائق قليلة فقط، أن

ترفع ثوبها عن مؤخرتها لئلا يبلى سريعًا بالاحتكاك وملامسة الحجر، ليدوم هكذا أطول وقتٍ ممكن. أما في عهد الثورة فقد تغيّر كل شيء. تصوّروا، عندما ذهبتُ مؤخّرًا مع زوجتي للإجازة في إثيوبيا، زوجتي هذه التي كنت أطلب منها لفقرنا المدقع قبل الثورة أن تعرّي مؤخّرتها عندما تجلس فوق الحجارة والصخور الساخنة، أصبحت هي نفسها توزّع أمامي نقوداً تتصدّق بها على الفقراء الإثيوبيين...

ثم يدقّ بيديه على الطاولة ويدوي:

ـ هذا هو الفرق في حياة الشعب قبل وبعد الثورة!

عند هذه العبارة بالذات كنا ننطُّ من كل حدب وصوب لتقبيل جبينه، أو للترنح إعجابًا بقصّته، وللغناء المملوء بالشجن والحنان لشعارات «باندافع عن الثورة اليمنيَّة! بالروح والدم! بإرادة ثورية...» يفتل القائد شاربه حينذاك، ينتفخ قليلاً وترقص في محياه ابتسامة زهو وكبرياء لا يتّسعُ لها المعسكر، ولا كلّ وزارة الدفاع...

كنتُ أُضْحِكُ جعفر الدملاني كثيراً عندما أحكي له قصةً كهذه. ما كان يثيره فيها حقًّا هو سلوكنا التمثيلي الذي ينتمي لمدرسته المسرحيّة الماجنة نفسها. أما عندما كنتُ أحكي له محاضرة وزير كبير جاء للمعسكر، دون أن أُخفي تذمُّري اللامحدود من مدلول تلك المحاضرة، فكان لجعفر حينها سلوك مختلف تمامًا.

كان ذلك الوزيرُ يُحبّ في محاضراته ترديد حِكَمٍ عبقريّة من طراز: «عندما أرى قبر جندي أركع لتقبيل ذلك القبر، أما عندما أرى قبر مثقّف أُبوِّل فوق ذلك القبر»! كنت أرى في عينيّ جعفر الدملاني

بريق إعجاب بتلك العبارة. لم أجد حينها تفسيراً لذلك البريق. أما اليوم، ونحن نُنهي ألفيّة ونبدأ أخرى، وقد أضحى جعفر ذلك الشيخ الذي حلم أبداً أن يكونه، وتلك الشخصيَّة القبليَّة العسكريَّة المرموقة التي سأحدِّثكم عنها لاحقاً، فقد أمسيتُ أفهم تماماً أسرار ذلك البريق الذي كان يرقص في عينَي جعفر. صرتُ أستوعب بوضوح كامل عدم مقدرته حينها على إخفاء إعجابه بالحكمة الألمعيَّة لذلك الوزير.

ما أغرب الحياة! لم أكن أتوقَّع آنذاك أنَّ جعفر الدملاني سيغادر شارعنا، سيسافر لصنعاء، سيبدأ حياة جديدة، ثم سيعود في منتصف التسعينيات، بعد أقل من عشرين سنة من غيابه كما سأحدثكم عن كل ذلك لاحقاً، ليكون من جديد في قلب الشارع... أليس هو اليوم أيضاً أحد أبرز أسباب اكتئابي النفسي واعتكافي في علبة الصاردين؟

لعل قلبي اليوم مملوءٌ «بالدود والعقارب السود» كما يقول المثل الشعبي، وأنا أستجرُّ محاضرات كهذه. تهاجمني ذكريات من كلِّ حدب وصوب. أتذكَّرُ أن أحد مثقفينا البارزين أسمى ذلك الوزير: «دكتور الدكاتره» بعد موته في مؤامرة غدر حاكها بدو آخرون! مؤامرة ركع قادة المافيا الدوليَّة إعجاباً ببشاعتها وتعبيراً عن عجزهم عن محاكاتها. لكنِّي، عندما أستعيد تلك الذكريات المُرة اليوم، أقول: ربما كان صريحاً في مشاعره على الأقل، ذلك العسكريّ الشجاع! ألا يُفضّلُ عساكر وشيوخ قبائل اليوم الحاكمة، الذين لا يزيدون ثقافةً عنه ولا يميلون إلى تقديس المثقَّفين أكثر منه، البول فوق بعض المثقفين أحياناً عندما يتركون لهؤلاء مهمّات التطبيل اليومي لأنظمتهم،

وترديد قصائد المدح لجلالاتهم، وتوزيع الجوائز والميداليّات بالنيابة عنهم، ولعب دور الواجهات المدنيّة التي تغلّفُ تخلُّف وهمجيّة أنظمتهم؟... كلّ ذلك مقابل وَعْدهم بوزارات ومناصب حكوميّة.

باختصارٍ شديد، كانت سنةً في غاية الكآبة. تحوّل شعاري في الحياة: «الحياة عشق» الذي يصدَحُ في أصقاع أعماقي دومًا وأبدًا، إلى «الحياة عسكرة». نَحفتُ، فقدتُ أكثر من عشرة كيلوجرامات في تلك السنة التي صرتُ خلالها هيكلاً عظميًّا متحرِّكًا.

للتخفيف عن مآسينا في تلك الأيام، لم نكن نملك غير السخرية والضحك المتشنِّج. كنَّا نلوكُ النكتة، نحتفلُ بالعبث، ونتنفَّس بسرد جنون يوميّات خانقة مرتعشة... لذلك، كانت اللحظات التي أقضّيها في نهاية قيلولة كل خميس بجانب جعفر، أحكي له خلالها يوميَّات العسكرة و«أتفَحْرَر» من الضحك عند سرده الحُرّ ليوميَّات الشارع، هي ملاذي اللذيذ ومتعتي الحقّة.

في يوم ما قبل نهاية سنة الخدمة، وجدتُ جعفر، على غير عادته، منقلب المزاج، شديد الجدّيّة، كئيبًا لا رغبة له في المرح أو الحديث. لم يتأنَّ عند سؤالي أن يكشف لي أسرار ذلك. أباح لي:

ـ أشعرُ أنَّني سأضطرّ لمغادرة العمل في منزل الحجّة سلمى!

ـ لماذا؟، سألته مستغربًا.

ـ عرفتُ من الحجّة أنَّ ابنة ابنتها على وشكّ الطلاق من زوجها وستأتي قريبًا للعيش مع الحجّة.

لم ندردش كثيراً ذلك الخميس، أو بالأحرى كان الحديث مونولوجًا ظلّ جعفر خلاله شارد الذهن قليل الحضور.

عند عودتي أثناء ساعات قيلولة الخميس التالي، وجدتُ جعفر مسترخيًا، أو بالأصحّ نائمًا على سريرٍ وُضِعَ خلال أسبوع غيابي في حوش المنزل. أدركتُ أنَّ ثمّة شيئًا جديداً طرأ أو على وشك الوقوع. لم أوقظ جعفر من نومه. دخلتُ كعادتي لأُسلِّم على جدتي سلمى، أو لـ «أبوسَ يدها»، كما اعتدتُ القول. كانت هي الأخرى في نومٍ عميق. عُدتُ لمنزلنا. خرجتُ بعد أقلّ من ساعة وقد لاحظتُ جعفر متململاً على سريره. سألتُه على التوّ عن سبب وجود السرير في الحوش، أجاب:

ـ وصلت «البُنَيّة» قبل يومين. تُعاني حاليًا من اكتئاب نفسي، ولا تُغادر غُرفتها. مُنِعتُ منذ وصولها من دخول المنزل، إلا للتنظيف والطباخة. صرتُ أنام في الحوش. أخشى أن تقوم «البُنَيّة» بمهام المنزل كليّة عند الانتهاء من مرض اكتئابها وعزلتها الكاملة. يتهيَّأ لي أنَّهم سوف يطردونني قريبًا من الشغل!

عدتُ لمنزلنا دون أن أطيل الحديث مع جعفر. تلخبطتُ ذلك اليوم، شعرتُ بالربشة التي لا تساويها ربشة. سوسن، تلك التي مازال لُعابِي ممتزجًا بشوكولاتتها السويسريَّة المُسْكِرَة، تلك التي مازالت عيناي مُكَحَّلتين بمنظر وجهها وهو يبتسم لي ويغمرني بالسعادة الحقّة الهائلة، وإن كنتُ «أبرْطِم» بلا وعي حينها وأردِّد في أعماقي، في الوقت نفسه، أغنية المطر العدنيّة الشهيرة: «يا رب زِيدُه!...» تلك التي مازال قلبي يخفق من نسمات رقَّتها المنسكبة باتجاهي،

ودردشاتها معي وإن كنت حينها أتلوّن بكلّ ألوان قوس قزح... سوسن ذات الوجه الجميل المشرق الذي ملأ ضياؤه الناعم فضاء طفولتي القاتم، تلك التي عشقتُ صورتها الحائطيَّة وتوحَّدتُ معها في أجمل لحظات تلك السنين... ها هي تسكن من جديد في شارعنا، على بعد أمتار قليلة من منزلي!

عادت ذكرياتها قويةً في دماغي... أيَّة فتاةٍ عداها نظرت إليّ أكثر من مرة بكلّ اهتمامٍ ورقّة وإن كنتُ أطأطئ رأسي حينها كقروية خجولة؟ أيّة فتاةٍ غيرها صافحتني شخصيًّا أكثر من مرة وهي تراني قرب جدّتها سلمى عند مجيئها لزيارتها، ثمّ توقَّفت واقتربت منّي لتُوجِّهَ لي أكثر من عبارة، أكثر من سؤال عنّي وعن البيت والمدرسة؟... إلهي، من يعرف تفاصيل وَجْهِ سوسن أكثر منّي، أنا الذي قضَّيتُ ساعات طوالاً أرسم صورتها الحائطيَّة عن ظهر قلب، أخزنُها في كلِّ تلافيف ذاكرتي، أستعيدها مراراً وتكراراً، أتغزَّل بها، أنظم لها القصائد تلو القصائد، أُقبِّلها، أناجيها، أملِّسها، أرسمها كلّ يوم على الورق وتراب الشارع؟...

لم أعد للمعسكر ذلك المساء. بدأت سلسلة تغيباتي رغم أنَّني كنتُ على عتبة الحادية والعشرين من العمر، لا تفصلُني إلا أسابيع قليلة عن موعد إنهاء الخدمة. تغيُّباتٌ ستتكرَّرُ بعد مجيء سوسن، ستكونُ عقوبتها أكثر من نصف سنة من الخدمة العسكريَّة الإضافيَّة، أي سنةً إضافيَّة جديدة، ضائعة من عمري، في انتظار المنحة الدراسيَّة للخارج. سامحني اللّه! قُلتُ: «ضائعة من عمري» كما لو لم تضع

بقيّة سنوات عمري كخيوط دخان في أعاصير الإخفاقات العاتية، كما لو لم تتلاشَ تمامًا كـ « بولٍ في سائلة »، كما يقول مثلنا الشعبي...

تمارضتُ، تغيَّبتُ اليوم تلو الآخر عن المعسكر. قضَّيتُ أيامي « مُبلْطحًا » فوق سرير غرفتي المجاور لنافذة تُطلُّ على الشارع، أراقبُ باب منزل جدّتي سلمى علّي أرى سوسن تخرجُ منه أو تفتحُه لسبب أو لآخر. عبثًا. أراقبُ نافذة المنزل علّي أرى سوسن تُحاذيها أو تنظرُ من خلالها. عبثًا. مثل أبناء شوارعنا، اعتدتُ أن أُقضّي ساعات طويلة من عمري أراقب أبوابًا موصدة، نوافذ موصدة...

استغربت والدتي من سلوكي. قلقت بشكلٍ لا يوصف. لم تترك طبيبًا أو « وليًّا » أو « سيّدًا » أو « شيخًا » أو « حُبابة »... لم تتوقف عن الدعاء. ذبحتْ، نذرتْ الـ « موالد » والصدقات. أحاطتني بمجامر البخور التي أحرقتْ فيها أوراقًا مُكلْفتة، مُعبَّأة بالبخور والطلاسم. كنتُ أسمعها تُردِّد، بين لفحات البخور التي تخنقني، أورادًا لطرد الجن، ذات سجع مريع. تبدأ تلك التعاويذ غالبًا بهذه الفاتحة: « حَبْسٌ حابسٌ، حجرٌ يابسٌ، ليلٌ دامسٌ، وشهابٌ قابسٌ... » لا أدري إن كانت تلك الأوراد والتعاويذ ترهب الجنّ فعلاً، أما أنا فكانت ترهبني حقًّا، كما لو كانت ألفاظها آتيةً من قواميس الجن والشياطين.

أتقلّبُ فوق السرير، أُصوِّبُ نظراتي نحو ذلك المنزل، نحو الحوش المحيط به، نحو الغنم التي تمرّ قُربه، نحو الأطفال الذين يلعبون « الفتاتير » على تخومه، نحو الغربان التي ترتكز فوق سقفه أو « تُنَقْمِمُ » فُتاتَ أشياء صغيرة قُرب برميل نفاياته... لا شيء يدلّ على

أنَّ سوسن في المنزل. وحدهُ جعفر يخرج ويدخل بين الآونة والأخرى لقضاء حاجةٍ أو أخرى، ويُقضّي لياليه نائمًا في الحوش.

لم يُثِر انتباهي إلا دفتر سميك رأيتُه ذات ظهيرة مرميًّا قرب برميل نفايات ذلك المنزل. لا أدري لماذا شعرتُ أنَّ موقع ذلك الدفتر قُرب برميل النفايات غير طبيعي! هل أضاعَهُ أحد؟ هل سقط سهواً من كيس مهملات رُمِيَت في البرميل؟... شعرتُ برغبةٍ عاصفةٍ في أخذ ذلك الدفتر وتصفُّحه.

هبطتُ من سريري. شعرتُ بدوخةٍ هائلة في الرأس. خفتُ أن يأخذ أحد ذلك الدفتر قبل وصولي إليه. اقتربتُ من أمّي قائلاً إنّي أشعرُ بقليل من التحسُّن وأريدُ أن أتحرَّك قليلاً قرب المنزل. أضفتُ أيضًا، مثيراً عدم رضاها وامتعاضها الجليّ، أنَّ عليّ أن أحاول في المساء العودة للمعسكر حتّى لا تُسجَّلَ ضدّي عقوبات تمدِّدُ من خدمتي العسكريَّة. خرجتُ، مشيتُ ببطء قرب باب منزلنا. مازال الدفتر في محلّه. لم أقترب كثيراً منه لأنَّ عَيْنَي والدتي، المختبئتين وراء فتحة صغيرة في نافذة المنزل، كانتا تتابعان خطواتي واتجاه نظراتي، تُحاصرانني من الرأس إلى أخمص القدمين.

عُدت للمنزل. قلتُ لوالدتي إنّني أشعر بالتحسُّن، وإنّي أنوي فعلاً العودة للمعسكر تلك الليلة لأنهي الخدمة العسكريَّة في موعدها قبل أن تنهال عليَّ العقوبات الصارمة. انتظرتُ أن تدخل والدتي المطبخ لإنهاء إعداد وجبة الغذاء. تسلَّلتُ حينها من الباب بسريّة.

اتّجهتُ نحو برميل النفايات، لقطتُ الدفتر بكلّ سرعة، حشرتُه داخل قميصي أسفل حزام البنطلون.

صعدتُ لغرفتي. بدأتُ بتصفُّحِه سريعًا. شعرتُ بنوعٍ من الرهبة وأنا أرى صفحاته تعجّ من الغلاف إلى الغلاف بكتابة قلم حبر أزرق دقيق الخط، قليل الشخاطيط. الأسطرُ التي مشّطتُها سريعًا كانت قويّة الوقع والمعنى، ذات انتظام موسيقي لذيذ. أيقنتُ أنّ الدفتر موجودٌ خطأً قرب برميل النفايات، لأنَّ دفترًا مكتظًّا بكتابة رصينة صارمة كهذه لا يُرمى عادةً بهذه الطريقة.

قلتُ لنفسي: ربما وجدهُ جعفر، الذي لا يعرف القراءة والكتابة، في مكان ما في منزل جدّتي سلمى، ورماهُ قرب برميل النفايات جاهلاً أهمِّيته. لكنِّي، لسبب لا أستطيع شرحه، كنتُ أخشى قراءة الدفتر، أجهلُ إن كان يحقّ لي قراءته أم لا. أغلقتُه سريعًا، وأخفيتُه بين كتب مكتبتي.

لا أدري لماذا شعرتُ بعدها برغبة بالعودة للمعسكر في ذلك المساء، مُخفيًا بين أمتعتي دفترًا أجهل ماذا أعمل به. لم أعُد في الأخير، انتظرتُ الخميس التالي. لم أتجرأ خلال الأيام التالية على قراءة النصّ بشكلٍ جادٍّ متواصل، وإن كانت بدايته جارفة حقًّا. ظننتُ أوّلاً أنّه شيء ما يُشبه الرواية، لأنَّ اسم الراوية: «حياة» كان مجهولاً بالنسبة لي. بدأتُ بقراءته بتجرّدٍ كامل وفصل صارم بين الراوية: «حياة» والكاتب، كما علّمنا الأستاذ نجيب في المدرسة. ثمّ افترضتُ أن النصّ مزيجٌ حرٌّ من الخيال والسيرة الذاتية لأنَّ حياة «حياة» في الصفحات الأولى تُشبه كثيرًا

حياة سوسن قبل زواجها، كما أعرفها. ناهيك أنّ «حياة» سردت أحداثًا معروفة مرّت فعلاً في شارعنا دون أدنى فذلكة أدبيّة.

بعد ذلك تتحوّلُ الكتابة إلى يوميّات مؤرَّخة تنقل بشكل فوتوغرافي مذكرات «حياة»، لا سيما بداية وتطوُّر قصة حُبّها، بأسلوب يَقِلّ طابعه الأدبي أكثر فأكثر مع تفرقُعِ وتحطُّم ذلك الحب وانقلابه إلى حقد متأجّج. يغلبُ الكتابة حينها طابع المذكّرات الشخصيَّة العنيفة. كنتُ مشدوداً للقراءة أحاول قدر ما أستطيع إيهام نفسي بأنَّ عليّ أن أقرأ كل ذلك بتجريد، وأن لا أربط أبداً بين «حياة» وسوسن، وكأنَّني أقرأ قصّةً أو رواية، كما علَّمني الأستاذ نجيب. كنتُ أقفزُ أحيانًا بعض الصفحات، وأنُطّ كثيرًا من الفقرات، وأقرأُ بشكل مُتَقَّب عمداً كلَّما ولجتُ فقرات حميميَّة.

أوهمتُ وأقنعتُ نفسي أن تصفُّحي هذا عابر جدًّا، وليس قراءة تلصُّصيّةٍ داعرة. ثمّ قرّرتُ فعلاً أن أتوقّف سريعًا عن القراءة عندما ذكرتْ «حياة» اسمًا أعرفه. إسم زوجها. أي زوج سوسن، الطيّار المعروف جدًّا في شوارعنا بسبب انحدار عائلته من هذه الشوارع وإن صار يسكن بعيداً عنها في فيلةٍ واسعة في خورمكسر. يبدو أنَّها كرهَتهُ بكلّ ما تملك من طاقات كراهية، وهي تنسى أو تتناسى في الفصول العنيفة من مذكّراتها مواصلة تمويه اسمه المستعار الذي كانت تستعمله في بداية النصّ، من فرط كراهيتها له... أيقنتُ أنّني أجرمتُ في مواصلة قراءتي وأنا أكتشفُ سرّ تلك الكراهية وسرّ طلاق «حياة» من ذلك «الوغد الحقير» كما تسمّيه.

فقد النصّ في هذه الصفحات جمال بدايته الأدبيَّة. لم تعد للأسماء أغلفة ولا للأفعال ستائر. لم «تُملَّس» العبارات أو تُنَمّق أو تُعَدْ صياغتها قبل نسخها في الدفتر كعبارات بداية النصّ. تحوَّل النصّ حينها إلى أحرف دامية تخرج من قواميس جراح الحقد السوداء، وكلمات تكحّلت أهدابها بقطران الفوسفات...

أُبرِّرُ موقف سوسن تمامًا: شعرت المسكينة بجنبيةٍ تطعنُها في الظهر عندما سمِعت زوجها يتحدّث يومًا مع أحد زملائه، في المنزل، عمّا قام به البارحة بعد تخزين القات مع بعض رفاق مجلس قاته، ظانًّا أنَّ سوسن بعيدة في المطبخ، لا تسمع شيئًا مما يقوله.

زُلْزِلت الأرضُ زلزالها تحت قدمَي «حياة» وانشقّ القمر، وهي تسمَعُ حبيب عمرها وزوجها الذي لم تكف عن مدحه والفخر به في الصفحات الأولى من النصّ، ضاحكًا فخوراً، يتمتمُ لزميله ما يبدو أشبه بعادةٍ يمارسونها بين الفينة والأخرى: يذهبون معًا إلى الخلاء الترابي خارج المدينة، «الخبت»، لـ«تفسيخ» أثر القات، كما يقولون، بتناول الفوتكا والبيرة... قبل أن يطاردوا بسياراتهم، وهم في قمّة العربدة، بنات «الأخدام»[١] الصغيرات لاغتصابهن جنسيًّا في خلاء الخبوت.

١ ـ من أصول شرق أفريقية، يشكّل «الأخدام» أكثر الشرائح الاجتماعيَّة اليمنيَّة بؤسًا. يشتغلون عادة بتنظيف المجاري والزبالات والطرقات. يعيشون غالبًا في حضيض البؤس والحرمان، في مساكن بدائيَّة، على هامش المدن، وفي تخوم الخلاءات الترابية القاحلة (الخبوت).

شعرتُ بالندم كمن ارتكب جُرمًا وأنا أدركُ أنَّني توغّلتُ بعيداً في قراءتي للدفتر. كان عليّ أن أتوقّف على التوّ. حاولتُ عبثًا أن أُبرِّر مواصلتي للقراءة، مُعلِّلاً ذلك بشدّة جاذبية أسلوب سوسن التي لا تخونها الكلمات عندما تتحدَّث، كما أعرف ذلك من زمان، وعندما تكتب أيضًا، كما اكتشفت ذلك لأوّل مرّة. تنسكب الكلمات انسكابًا من ثغرها العذب، ومن قلمها أيضًا، بقوّةٍ ودقّةٍ وصدق.

أخفيت الدفتر في مكانٍ أمين. عُدت الخميس التالي للمعسكر بعد غياب ثلاثة أسابيع. أُحيلت قضيّةُ غيابي إلى لجنةٍ خاصة قرَّرت عدم قبول عذري، وأوصتْ بإضافة شهرين آخرين لفترة خدمتي العسكريَّة.

كان كلُّ ذلك قليل الأهميّة بالنسبة لي إذا ما قورن بارتباكي أمام النصّ الذي قرأتُ شذرات منه، لا سيّما تفاصيل ذلك السرِّ الخاص بسوسن. أنَّبتُ ضميري كثيراً على ذلك. أرّقتني أسئلةٌ من طراز: ماذا أعملُ بذلك الدفتر؟ أأعيدهُ لسوسن؟ كيف أعيدُه؟ أليس جرمًا أن يظلّ بحوزتي أكثر من أسبوع؟ ماذا لو كانت سوسن تبحث عنه ليل نهار؟ ماذا لو شعرت بالخوف من كشفِ أسرارها الشخصيَّة وتفشّيها على مسمع الملأ؟...

شعرتُ بإرهاق شديد كما لو كنتُ مريضًا فعلاً. مرّ ذلك الأسبوع في المعسكر مُضطربًا ثقيلاً كئيبًا خانقًا لا نهاية له، بكيتُ وحيداً في إحدى لياليه بنشيج مكتوم. ذاب ما تَسرَّب من نشيجي في أتون صرير التنخير الجماعي لرفاقي في عنبر النوم، وخرير المروحات الكهربائيَّة، وثرثرات فرقة الحراسة والرقابة المرابضة خارج العنبر، وأغاني الميكرفونات التي كانت تصدح حينها بشعار رومانسيٍّ رقيق:

عادت الأرض بالقوة وبالانتفاضات

عنف بالعنف لولا العنف الإقطاع ما مات

ولولا بالعنف مازالت جميع الحُثالات

ولولا بالعنف ما العالم تفجّر بثورات؟...

رغم تمجيده وتأليهه للعنف، كان لذلك الشعار لحنُ مولدٍ دينيٍّ رومانسيٍّ رقيق أعرفُه كما أعرفُ كلّ تواشيح الموالد الدينيَّة منذ نعومة أظافري. لعن اللّه الكسل!: لا أدري لماذا لم تَبذل شعارات تلك الأيام مجهوداً في إبداع ألحانها الخاصة، بدلاً من استيلائها على ألحان لا تنسجم مع مدلولات كلماتها... آه، هكذا كان ومازال منطق حياتنا! أو لامنطقها، على الأرجح. لا أدري!... ألم يُلخّص الحاج الرديني غرابة منطق حياتنا بأحد أبياته الخالدة؟ مَنْ مِنْ أبناء شوارعنا لا يعرف قصيدة الحاج الرديني الشعبيَّة الشهيرة والبالغة العمق والتي يبدأ مطلعها بِـ: «حياتُنا عِراب صَرُور، عِراب صَرُور؟!».

لا أدري لماذا أطلق تواترُ كلمة «العنف» (خمس مرات في بَيتَي ذلك الشعار، ناهيك عن القوّة والانتفاضات والحثالات وتفجّر الثورات...) في رأسي وابلاً من الكوابيس الليليَّة العنيفة، تعاقب فيها كابوسُ العُنف الذي تعانيه صبيّات «أخدام» الخبوت، بالعُنف الذي تعانيه سوسن، بالعُنف الذي أعانيه، بالعُنف الذي نعانيه يوميًّا، من أبد الآبدين...

انتظرتُ نهاية ذلك الأسبوع بفارغ الصبر لإعادة الدفتر الجريح لِـ... سوسن؟!

الفصل الخامس

أبيض، أبيض، حالي كما العسل!

قرّرتُ، الخميس التالي، الذهاب لـ «أبوسُ يد» جدّتي سلمى. ما شجّعني هو أنّ غرفة سوسن تقعُ في الدور الأول، وغرفة جدّتي سلمى في مدخل الباب الأرضي مباشرة. أيقنتُ أنَّه لا يوجد أدنى أمل، إذا جاز التعبير، في رؤية سوسن التي تُقَضّي كل يومها في غرفتها غارقةً في معمعان الاكتئاب النفسي. فأنا، كما تتصوَّرون بكلّ تأكيد، لا أحتملُ الصدمات. لا سيّما صدمة أن أرى أمامي وجهًا رَسمتُه في خيالي كلّ لحظة، عانَقتُه افتراضيًّا دون توقّف، ولم أرهُ مع ذلك منذ سنين.

رغم ثقتي في أنّي لن أرى سوسن، كنت أرتجفُ هلعًا من احتمال الحديث معها. طرقتُ الباب، ثم دخلته كعادتي مباشرة.

كنتُ متوتراً جداًّ. كانت جدّتي سلمى نصف نائمة. لاحظتُ أنَّها ازدادت تعباً وشيخوخة منذ آخر حديثٍ لي معها، قبل عودة حفيدتها سوسن. قبّلتني وردّدت صيغاً وأدعيةً كثيرة بالصحّة والسعادة والنجاح والتوفيق لي ولأُمَّةِ محمّد أجمعين.

- وجدتُ دفتراً قُرب بابِك، الأسبوع الماضي! أظنّ أن أحداً أضاعَهُ.

لم تفهم كلمةً ممّا قُلْتُه. لعلّها لم تسمعني تماماً لتراخي سمعها مع تقدُّم سنِّها. أو لسرعة لفظي لتلك العبارة التي ردَّدتُها في رأسي منذ عدّة أيام. أو ربّما لمهامستي بها بارتباكٍ وعدم وضوح.

- هاه، إيش تقول يا ابني؟

كرَّرتُ العبارة نفسها بصوتٍ أكبر وأوضح.

- واللّه يا ابني صرتُ صنجاء لا أسمعك، قالت وهي تحاول النهوض قليلاً بغية الاقتراب منّي.

ساعدتُها على الاستناد على أريكة السرير والاتّكاء بوسادتين وضَعتُهما أسفل ساعِدها. هكذا تُفَضِّلُ جدّتي سلمى عادةً الحديث معي. أعدتُ للمرّة الثالثة ترديد العبارة نفسها بصوت عالٍ جداًّ هذه المرّة. كان عليّ هكذا أن أُردِّدها جهراً ثلاث مرات، وسِرّاً ألف مرّة خلال ليالي المعسكر، لأكتشف أنَّها عبارة رعناء ذات دبلوماسيّة من النوع الأهبل.

يدٌ تأتي من خلفي تسحبُ الدفتر بعنف.

التفتُّ خلفي بشكلٍ لا شعوري. عينان سوداوان كبيرتان، شعرٌ فاحمٌ سائلٌ حتّى الورك، بشرةٌ ورديّة، إلهي، كم أعرفُ تفاصيل خلاياها. ما كان جديداً فعلاً هو تانكما الحلقتان السوداوان المحيطتان بالعينين: وَصمتانِ جليّتان لأرقٍ وألمٍ صارخ (أعرفُ أسبابه، سامحني الله!، بشكلٍ تلصُّصيٍّ مُشينٍ).

نظراتُ مصلوبةٍ تصبّ فوقي، لا تُخفِي اتِّهامها لي بجريمة سرقة الدفتر وقراءته. كانت المصلوبةُ في أوج غيظها تنظرُ إليّ بغضب كما لو اغتصبتُ، أنا أيضًا مثل زوجها السابق، شيئًا ما. كما لو انتهكتُ عرض مذكّراتها الحميميَّة وأسرارها الدفينة.

ها هي أمامي! بعد أكثر من عشر سنين من تلك الشوكولاتة الخالدة المذاق، وبعد أقل من أربع سنين من زواجها ومغادرتها لشارعنا. لم يُكسِبها الزمان إلا جمالاً متزايداً، أنوثةً عارمة، وطعنةً غادرةً في الظهر. قلتُ، مُطأطئ الرأس:

ـ لم أسرِقه، وجدتُه قبل أيام قرب برميل النفايات المجاور لمنزلكم.

كانت تلك، يا لتعاستي، أول عبارةٍ أُحيِّي بها هذه الفتاة التي افتتحَت أوّلَ أحاديثها معي قبل حوالى اثنتي عشرة سنة بـ « تشتي شوكولاتة ». غير أنِّي لم أتلعثم هذه المرّة بشكلٍ ملحوظ إن لم أكن فصيحًا جدًّا بشكلٍ غير اعتيادي. أضفتُ:

ـ جعفر لا يعرف القراءة والكتابة، ربما رماهُ دون أن يعرف أهمّيته!

جنّي، أيّ حمارٍ أنا! لم أُفكِّر أنّ ما قلتُه يكشفُ أنّني أعرفُ أهميّة ذلك الدفتر! ثمّ كيف تجرَّأتُ على اتّهام جعفر بهذه البساطة، أيحقٌّ لي ذلك؟ من رمى الدفتر عداهُ، إذن؟... لعلّي لم أكن مجحفًا بحقِّه لتلك الدرجة: كان يجدر أن أقول: «جعفر يكرهُ القراءة والكتابة، لا يحبّ الدفاتر والكتب، هو الذي رماهُ بكلّ تأكيد»...

ـ لماذا لم تُعِدهُ فوراً؟ بأي حقٍّ قرأتَه؟ لماذا قرأتَه دون إذن؟...

ـ لم أقرأهُ، أجبتُ بكلّ تلعثُم! أقسِمُ أنّي لم أقرأه...

شعرتُ باحتقار الذات لأنّي كنت أكذبُ أمام سوسن، ولأنّي أكره الكذب من كلِّ أعماقي، أحتقرُ الكاذبين، كما لو لم أكن ابن هذه الأرض التي تُعلِّم الإنسان الكذب يوميًّا لـ «يُخارج نفسه»، لـ «يُناضل» كهؤلاء السياسيِّين المتفرِّغين، بأعداد خياليّة تقارب أعداد «نامس» تنكا، للعمل الحزبي والسياسي وقيادة بلد من أفقر وأتعس وأفسد بلدان الدنيا. هؤلاء السياسيِّين الذين يُغيِّرون معاطفهم دون خجل، الذين يهربون من العمل والإنتاج في تخصُّصاتهم ومهنهم الأصليَّة «للنضال» في رأس السلطة، هؤلاء الحُكَّام الذين لم يفلحوا في شيء غير الكذب علينا وتمريغنا في الوحل يوميًّا نحن «مساكينَ الله»... لكن، هل أنا فعلاً ابن هذه الأرض أم ابن ربوع تخوم مانيارا التي لم أعد أذكر منها اليوم شيئًا؟

أقسمُ لكم، لم أكذب أبداً قبل ذلك! لو كنتُ أجيد كذب هذه البلاد، ما كنتُ سأسكنُ اليوم في علبة الصاردين منذ ٨ سنين... وَيْحي! هاأنذا أكذب الآن أمام سوسن، هاأنذا أنتمي أخيراً لأرض آبائي وأجدادي. إنَّه يوم حفلة تعميدي، كما يقول المسيحيون. غير أن كذبي واضحٌ جليٌّ كعين الشمس! كَذبُ إنسان صادق: ألم أتحدَّث مع سوسن عن أهمِّية الدفتر قبل لحظات؟ يا لبلادتي، كيف ستصدِّق أنِّي لم أقرأ نصَّها إذن؟

ـ أُقسِمُ بأنِّي لم أقرأه، أقسمُ بأنِّي توقّفتُ في البداية!، أضفتُ مواصلاً كذبي وتلعثمي.

ـ لماذا توقّفت؟ أين توقّفت؟ قالت بحدّة.

ـ الأسلوب في غاية الجمال، الأسطر الأولى جذابةٌ جدًّا، لكن لا أدري لماذا توقّفت!

ـ كُلُّكم من النوع نفسه، كذّابون، بلا أخلاق، «كلا...».

فقدتْ أعصابها وإن لم تُنهِ شتمها القاسي، أجهشتْ بالبكاء وابتعدتْ نحو الباب...

بكيتُ أيضًا في داخلي كثيراً على إيقاع نشيجها الكثيف. كان بوُدِّي أن أحتضنها لأمسح دمعها وأغسلها قُبَلاً كما غسلتُ صورتها الحائطيَّة مراراً. لم أحتضنها، لم أقفزْ لأُهدِّئ من روعها... يَحدُثُ ذلك في أفلام السينما كثيراً. أما في واقع شوارعنا فلا مجال للقُبَل، لا مجال للُّطفِ والرقّة «عُنف، بالعُنف، لولا العُنف...» كما يقول

ذلك الشعار. أليست «الرجولةُ عنف» كما تُعلِّمُنا ثقافتنا الشعبيَّة كلّ يوم؟

لم تفهمْ جدّتي سلمى شيئًا من ذلك الحديث المعجون بالرَّبشة، المُختَّمِ بالدموع. لملمتُ نفسي للخروج السريع من المنزل، مُضرَّجًا بالألم والأسى وبعدم استيعاب ما يدور حولي... خطوتُ بكلٍّ هدوء وإحباط نحو الباب، فتحتُه للخروج. سمعتُ صوت سوسن وقد تمالكت نفسها قليلاً تقول:

-إذا لم تقرأهُ حقًّا وتريد مواصلة ذلك، فسأدعوك يومًا وسأقرأ لك بعض صفحاته أنا نفسي!

غادرتُ المنزل. انتظرتُ بفارغ الصبر موعد العودة للمعسكر لأفرّ من الشارع، لأستعيد في ذهني شريط ما حصل، لأستوعبه إن كان لي أن أستوعبه، ولأُكرِّر آخر النبرات التي التصقت في مسمعي: «إذا لم تقرأه حقًّا وتريد مواصلة ذلك، فسأدعوك يومًا وسأقرأ لك بعض صفحاته أنا نفسي»!

لم يكن الأسبوع التالي في المعسكر سيئًا جدًّا. كانت محاضراته واستنفاراته وتدريباته فسحةً أشعرتني بنوع من السكينة، وأبعدتني عن دوّامة ذلك الخميس المُكَهرَب. عشتُ خلاله إغماءً ما، خليطًا عجيبًا من الربشةِ والأسى والفرح. كنتُ منتعشًا كثيرًا، أردِّد: «رأيتُها، رأيتُها، رأيتُها»، على إيقاع «وجدتُها، وجدتُها، وجدتُها» لأرخميدس. لا أستطيع أن أصف أبدًا كم هزَّت رؤيتها بل كم زلزلت

وفجّرت كلّ كآبة روتين حياتي اليوميَّة. غمرت «موجات مجالها المغناطيسي الأنثويّ» قفارَ عاطفتي القاحلة، اجتاحتها، اكتسحتها كلّية...

على غير عادتي، لم أُدمِّر نفسي تعذيبًا وأنا أستعيد أصداء ادّعائي الكاذب أمام سوسن بعدم قراءة نصِّها. لعلّها غفرت كلّ ذنوبي، ما تقدَّم منها وما تأخَّر، وهي تقول: «إذا لم تقرأهُ حقًّا وتريدُ مواصلة ذلك، فسأدعوك يومًا وسأقرأُ لك بعض صفحاته أنا نفسي»!

لم يحتلّ دماغي طوال ذلك الأسبوع إلا شريط رؤيتها عصر ذلك الخميس، موشَّحةً بالألم، حزينةً كأيقونة، بالغة الجاذبية والبهاء كما أعرفُها دومًا. استولت على مسمعي طوال ذلك الأسبوع عبارة: «...فسأدعوك يومًا وسأقرأ لك بعض صفحاته أنا نفسي!»، مغنطسَتْني من أقصى الرأس إلى أخمص القدمين.

بفارغ الصبر، انتظرتُ منذ بدء ذلك الأسبوع لحظة انتهائه، لأعود من جديد إلى فردوس شارع دغبوس. غادرتُ الخميس التالي المعسكر مهرولاً نحو ذلك الشارع الذي اشتقتُ له فعلاً. إغتسلتُ كما لم أغتسل من قبل. لبستُ أفضل ملابسي واعتنيتُ بمظهري على أكمل وجه. لا أذكرُ إطلاقًا أنّي بذلتُ يومًا قُصارى جهدي في التهندم والتألُّق، كمثل ذلك اليوم. كنتُ حينها إنسانًا آخر. صرتُ إنسانًا آخر. وُلِدتُ من جديد بعد أن وجَّهت سوسن لي آخر كلماتها:

«... فسأدعوك يومًا وسأقرأ لك بعض صفحاته أنا نفسي!».

عليّ أن أعترف لكم بما حصل لي : وُلِدتُ فعلاً من جديد.

لعلّي اعترفتُ لكم بلغة الدبلوماسيين لا غير.

لكن، كيف أعترف لكم بما يختلج في جوارحي جهرًا، وأنا أشعر بالخجل سِرًّا أمام الأشياء الصغيرة، أمام الحبر والورق، أمام نفسي، أمام الأشباح والأخيلة، أمام الجنّ والعفاريت، أمام السراب والعدم...؟

يلزمني أن أعترف لكم مع ذلك، يلزم أن أتجرًّأ أمامكم وأقولها، أردتُ أم أبيت، دفعةً واحدة: صرتُ...

صرتُ...

صرتُ عاشقًا!

خرجتُ من المنزل في اتجاه ركن الشارع، مشتعل النشاط، مبتسم المحيا، أعانقُ الجميع كما لو عدتُ من سفرٍ طويل. أمازح الأطفال، أداعبُ رؤوسهم آليًّا بلمسة وديّة على شعر الرأس... ذهبتُ أتحدَّثُ مع كلّ بائعي ركن الشارع، أسائلُ كلّ الأصدقاء عن أخبارهم، أبرمجُ المشاريع مع القاصي والداني. أنتقلُ بين ركن الشارع ومنزلنا، بين منزلنا وركن الشارع، دون توقّف، إلا لحديث حميم مع صديق، أو تعليق مقتضب مع جار أو عابر سبيل.

كانت والدتي تراقبني باستغراب شديد. لم أعد ذلك المساء للمعسكر. أثرتُ غضبها وقلقها الكبيرين لأنَّها كانت تعي تمامًا ما تعنيه عقوبات الغياب من المعسكر. ما كان جديداً ومربكًا لها بشكل

جليّ هو أنّي لم أكن مريضًا أو متمارضًا، بل العكس تمامًا... كانت تحملقُ فيَّ علّها تستَشفُّ وتميِّزُ أي نوعٍ من الجنِّ يركبُني هذه الأيام. لوالدتي في معرفة عائلات وسلالات وصنوف الجنّ وبنات الصبيان صاع وباع. نظريّاتها في هذا العلم عديدة متخمة، متشعِّبة، كما سأتحدثُ عنه بعيداً.

نمتُ ذلك المساء سعيداً جدًّا. واصلتُ، الغد وبعد الغد وأيامًا لاحقة أخرى، ذلك النمط نفسَه من الاعتناء بالمظهر والتألُّق والتسكُّع السعيد.

زاد قلقُ أُمّي بشكل مكشوف وهي تراني اليوم تلو الآخر أطير كعصفور من باب المنزل إلى ركن الشارع، أوزِّعُ حبّي وابتساماتي على الجميع، أحاذي خلال رحلة المائة متر التي تفصل بابنا عن رُكنِ الشارع منزل جدّتي سلمى، ألعبُ مع الأطفال، أُعينُ الشيوخ في البحث عن احتياجاتهم من بقالات الشارع، أتحدَّثُ بشغفٍ مع الجميع عن الشقاق الصيني ـ السوفيتي، والموقف من التجربة اليوغسلافيَّة، و«خاتم عبد الفتّاح إسماعيل»، وعن دور «أشيد» أيضًا، الاحتياطي النشط لحزب الطبقة العاملة... في حين كان عليّ أن أكون مرابطًا في المعسكر.

عندما أستعيدُ ذكرى تلك الأيام، وأنا أعيشُ اليوم اكتئابي النفسي في علبة الصاردين، أشعر أنّنا جميعًا، أبناء هذا المجتمع المسكين، محرومون أوّلاً من الحب، قبل حرماننا من الأكل والشرب النظيف، والتعليم، والقانون، والتكنولوجيا، والعلاج، وانتهاء سلطة القبائل، والتطوُّر، والحياة الهادئة الكريمة، والرخاء والرفاهيه، وبقيّة

أولويات وضروريات حياة البشر الأخرى! انظروا حولكم: المحرومون من العشق يملأون الشوارع والسقوف والأركان ومجالس القات والأسواق والمنازل والمكاتب والطرقات... يصرخون جوعهم للعشق في كلّ مكان، في كلّ لحظة. لا أعرفُ حولي حُبًّا حقيقيًّا واحداً لم يتحوَّل بين عشيّة وضحاها إلى كراهية وحقد وعداء. هل كان إذن حبًّا حقيقيًّا؟

لا أدري إن كانت المرأة في مجتمعنا ناقصة عقل ودين حقًّا، لكنَّها ناقصةُ حبٍّ وعشق. أقصدُ أنّها محرومة من الحبِّ والعشق لها ككائنٍ حرٍّ متكامل، لا كأُنثى ليس إلاّ. أمّا الرجل في مجتمعنا فهو زايدُ قات و«تبلطاح» لا غير.

إلهي كم كنتُ سعيداً تلك الأيام، جريئًا أيضًا. حتى الخجل انقشع عنّي، كما تهيَّأ لي. لعلّهُ كفاني أن تقول لي سوسن:

«... فسأدعوك يومًا وسأقرأ لك بعض صفحاته أنا نفسي!» لتستيقظ كلّ خلايا الحبّ في وجداني، لترتفع مدنًا وقصوراً ومنتزهات، لترقُص في مرابعها حوريّات الحبِّ والجمال والحرّية...

ـ «البُنَيَّة» تُريدك تُجمِّل لها!، قالها جعفر لي في إحدى تلك الليالي التي كنتُ فيها سعيداً عاشقًا ولهانًا.

استبدلتُ سريعًا «جيم» كلمة «تُجمِّل» بالقاف، كما تقتضيه كثيرٌ من لهجات اليمن والجزيرة العربية عمومًا، لتأخذ العبارة بذلك معنىً أخر: «البُنَيّة تريدك تُقمِّل لها!»، أي تُخْرج «القَمل» من رأسها. واصلتُ ترجمة عبارة جعفر من وحي معرفتي به وبثقافته

وبأسلوبه الفكاهيٍّ الذي يثيرُ أحيانًا تقيؤ الجنِّ والعفاريت: رآها دون شكّ في غاية جمالها، فارشةً شلاّلَ شعرها الناعم المنسكب حتى أسفل الظهر. جُنَّ جنونه، لخوفه قبل كلّ شيء من خروجها من دوّامة الكآبة النفسيَّة واستعدادها لأداء المهام المنزليَّة، وما يعنيه ذلك في نظره من عدم جدوى بقائه للخدمة في ذلك المنزل. قالت لهُ:

ـ اذهب، لو سمحت، وقُل لوجدان مهامسًا إيَّاه يجي أقرأ له!

حاولتُ تحليل عبارة جعفر وسط ذهول وارتباك طمَّاني كُلِّية: «أقرأ له!» لا محلّ لها من الإعراب في قاموس جعفر: المرأة لا «تفعل» في قاموس جعفر الثقافي، بل «يُفعَلُ بها». تحوَّلت عبارةُ سوسن في مسمع جعفر لاشعوريًّا إلى:

ـ اذهب، لو سمحت، وقُل لوجدان مهامسا إيَّاه يجي يقرأ لي!

عفوًا، «يقرأ» ليست من الكلمات المعروفة في القاموس اللغوي لجعفر. لعلَّهُ، في غمرة انبهاره بجمال شعر سوسن، سمعها كما لو قالت: «يقمِّل». لا سيَّما أنَّه لا يمكن له أن يتصوَّر شعرًا بلا قَمْل. إن لم أقل إنَّه متأكِّدٌ في قرارته أنَّ «نسبة عدد قَمْل أيِّ شعر تتناسب طرديًّا مع كمِّيته»، وإن كان غير قادر على صياغة نظريّته هذه بهذه الطريقة التي تتطلّب على الأقل دراسة مفهوم «النسبة الطرديّة» في المدرسة الإعداديَّة... إذن، في آخر الحساب، ترجم جعفر عبارة سوسن بهذه الطريقة:

ـ «البُنيَّة» تريدك تُجمِّل لها!

لعنةُ اللّه عليه! حتّى العبارات الرومانسيَّة العذبة الرقيقة يمرِّرُها في منشور أسلوبه الفكاهي النتن لتخرج منه مضرّجةً بالقمل و« البرص » و« الدَّمل » و« الصنافير »... حمدتُ ربّي مع ذلك: لحُسن حظّي أن والدتي لم تكن قريبةً منّا وهو « يَبْتَرِع » مُردِّدًا: « البُنَيّة تريدك تُجمِّل لها! » بدل أن يهامسني بصوتٍ هادئ، كما طلبت منه سوسن.

حمدتُ ربّي مجدَّدًا: لو كانت والدتي قريبةً منّا لاتهمتهُ هو وسوسن! طلبتُ من جعفر الكتمان حتى لا يثير سوءَ الفهم، شارحًا له أنَّ « البُنَيَّة » تريد أن تقرأ لي نصًّا لا غير.

- يرحم والديك! مَوْ هذي « تقرأ لي »، « تقرأ لي »... « قرقروا » رأسك! البُنَيّة تشاء « قِمّال ». تعرف « تُقمِّل » وإلا ساعلِّمك؟ اللّه يرضى عليك، قُلْ لها: الخدّام حق جدّتك معه دكتوراه بـ « القِمّال »...

هدأتُ قدر ما أستطيع تهيُّجه ورغبته الغريزية باستثارة الضحك. شرحتُ له بكلِّ ثقة، مُقسمًا برأسي وبرأسي الوالدين، أنَّ « البُنَيّة » كتبت نصًّا ممتازًا قرأتُ جزءًا منه، وأنَّها وعدتني بأن تقرأ لي شذرات مما تبقى...

توجهتُ نحو منزل جدَّتي سلمى على أجنحة الملائكة. كان قلبي يدقُّ فرحًا. لم أكن هذه المرة قلقًا أو خجولاً. إلهي، يبدو أنَّه يكفي أن تقول لي فتاة: « فسأدعوك يومًا وسأقرأ لك بعض صفحاته أنا نفسي! » لأقتلب رأسًا على عقب، لأُخلق من جديد!

دخلتُ المنزل، «بُسْتُ يَدَ» جدّتي سلمى، عطَّرتني بدعواتها كالعادة. تحدَّثتُ معها قليلاً...

كأسٌ من «الفيمتو» المثلّج يقترب منّي على «سيسرٍ» تحملُهُ سوسن. كانت في قمّة جمالها، ترتدي «درعًا» عدنيًّا لازوردي اللون، تتخلَّله نقوشٌ منحنياتٍ دقيقة سوداء توحي بغصون أزهارٍ صغيرة. شعرها طليقٌ في أقصى سلاسته وتألُّق خصلاته. رائحة عطريّة مفعمة بالفلّ اللحجيّ تعبقُ منها قويًّا. إبتسامةٌ رقيقةٌ تفترشُ على شفتيها المكحَّلتين بأحمر شفاه خفيف طازج، دقيقِ النقش والتصميم، من ماركة فاخرة. صافحتني، وحيَّتني بكلّ ثقةٍ وعذوبة.

عاد خجلي وقلقي لقواعدهما سالمين. الحقّ أنِّي لم أُصمَّم بيولوجيًّا لمواجهة هذا الجمال الفاتن من العيار الثقيل. تُبْهرُني أيّة كتكوتةٍ معتدلة الجمال متوسِّطة التألُّق، أما هذه المتوقِّدة أنوثةً وسحرًا فليست من مقامي.

دعتني بكلّ ثقةٍ لغرفتها لقراءة الدفتر. لم تر جدّتي سلمى أي شيءٍ غير طبيعيٍّ في الأمر. ليس لأنَّها تعتبِرُني «من البيت» كما كانت تقول فحسب، بل لأنَّها لم تكن مثل بقيّة جدّات شارعنا. لم تُبْلَ بفيروسات التحريم والعُقَد والمنع والوساويس الشيطانيَّة والنوايا الخبيثة. لا أدري في أي كوكبٍ وُلِدت وترعرعت، رحمها الله ومنحها أرغد جنانه!

صعدتُ مع سوسن. أُقْسمُ أنِّي كنت أتطهَّرُ من أدران الحرمان والكآبة مع كلّ خطوة بجانبها، مع كلّ نفس. وصلتُ غرفتها التي طالما

استرخيتُ على سريرها وداعبتُ فوقهُ صورتها الحائطيَّة عند سفر جدَّتها إلى أنطاكيّة. جلستُ على طرفٍ من سريرها، مُطأطئ الرأس. تصلَّبت قدماي وتجمَّدتا في موقعهما نفسه على أرض الغرفة. جلست سوسن القرفصاء في الركن الآخر من السرير، مُحنيةً أرجلها أسفل جسدها، مُسندةً ظهرها على جدار الغرفة الورديّ اللون. يلامسها على اليسار دولابٌ خشبيّ متين، بُنّيُّ اللون مزخرف بـ «موتيفات» هنديّة فولكلوريَّة، من النوع الكلاسيكي الراقي.

المروحةُ الكهربائيَّة البيضاء كانت معتدلة التهوية، هادئة الصوت على عكس معظم مروحات منازل الشارع. عاد خجلي جامحًا، جامحًا.

- وجدتُ ألبُومَ صُور قديمة من أيام الطفولة، أتريد رؤيته أوّلاً؟

- نعم، قلتُها كثيفةً صريحة، على غير عادتي!

أخذت ألبُومًا كان بجوارها على السرير يحوي صوراً قديمة لأعياد ميلادها أو لصديقات لها، بعضهُنّ من بنات الشارع. تذكّرتهنّ وإن لم أعُد أراهُنّ منذ زمن. صورٌ أخرى لرحلات مدرسيَّة. نزهات في بستان الكمسري، بساتين الحسيني، الصهاريج... صورٌ جماعيةٌ في ركن الشارع...

أرتني سوسن صورتين كنتُ عليهما وأنا لم أتجاوز العاشرة. كانت تُعلّقُ كثيراً أمام صور أعزِّ صديقاتها، تُعرِّفُ بهنَّ بتأنٍّ وتفصيل. إحداهُنّ، في غاية الجمال أيضًا، توفّيت قبيل أشهر في الهند، من

سرطان في الثدي. رأيتُ دمعتين تُبَلِّلان عيني سوسن. تأثَّرتُ حقًّا، تؤلمني رؤية مظاهر الحزن والدموع، لا أحتملها. لكن حزن سوسن كان حادًّا جدًّا في نفسي، عشتُهُ مثلها، كما لو كنتُ أعرف من زمان صديقتها الراحلة، كما لو تربطني بها علاقة حميميَّة أيضًا، كما لو فقدتها فجأة، إلى الأبد.

أرتني صوراً قديمة لوالدتها وجدّتها. صور المرحوم والدها الذي قضى نحبه في حادث اصطدام سيّارة قبل ثلاث عشرة سنة، قبيل وصول عائلتنا لشارع دغبوس وأنا في الثامنة من العمر. لم أكن أُحدِّق في الصور بذلك التركيز الذي كنتُ أظهرُه علنًا. كنت أهيم بعيداً، قريبًا، أشبه بمسطول. أستنشقُ روائح تسكرني. أسرقُ نظرات في أهدابها الناعسة الطويلة وعينيها الواسعتين الساحرتين... أوووه سوسن، لو تدرين كم رسمتُ أهدابك وعينيك في ذاكرتي وعلى الورق وتراب الشارع، ألف مرّة ومرّة...

نتبادلُ أحيانًا ذكريات ثلاث عشرة سنة في شارع دغبوس، نُؤلِّهُ راحليه الطيبين، نُشيْطنُ أشقياءه المارقين، نُعظِّمُ ذكرياته الصغيرة، نعيدُ خلق سيرته الذاتيّة التي تزداد ذبولاً يومًا بعد يوم، نُفجِّرها رغم ذلك متعةً وسعادةً وغناءً وغرائبيَّة.

ـ من هنا تبدأُ نصوص صحيفتي الشخصيَّة!، قالتها وهي تُريني صوراً لها في السادسة عشرة من العمر. بدأتُ في كتابة هذه الصحيفة في هذه السن. سأقرأُ لك بعضًا منها الآن. كنتُ قبل ذلك أكتبُ

الشعر أحيانًا. أودّ أن أبدأ لك بسرد قليلٍ منه، لا سيَّما أنَّك تحبّ الشِّعر كما أعرف.

قرأت لي بصوت شجيّ قليلاً من شعر طفولتها. وجدتُه جميلاً، ناعمًا، أخّاذًا كأهدابها الرقيقة. تساءلتُ سرًّا في ركنٍ خفيٍّ من دهاليز سريرتي: «هل سأُقبِّلُ يومًا هذه الأهداب؟»...

لم يتبقّ الآن في ذاكرتي من شعر طفولة سوسن إلا قليلاً من الأبيات، من طراز:

فلعلّ وعسى رغم أنياب الأسى
يعانقُ الصباح عالم الجراح
فيحوّلُ الألم بسمةً ونغم...

أعرفُ اليوم، وأنا أستعيد هذه الأبيات، أنَّ الحياة أرادت لسوسن، لي، ولشارعنا مصيراً معاكسًا تمامًا لإيقاع هذه الأبيات الباسمة المتفائلة.

اختفى ما تبقّى من خجلي تمامًا. عبَّرتُ لسوسن عن إعجابي القوي والصادق بأبياتها الجميلة. بدأتُ بالحديث معها حول ما يعجبني من الشِّعر. انطلق لساني وأنا أرتّلُ لها غيبًا كلّ المعلّقات التي أحفظها عن ظهر قلب، قصيدة «هذا الذي تعرف البطحاء وطأتهُ» التي ارتجلها الفرزدق ارتجالا مُذهلاً، قصيدة «ألا في سبيل المجد ما أنا فاعلُ»؟لأبي العلاء المعرّي الذي أموت إعجابًا فيه... وأدونيس، أدونيس الخالد الذي أُدينُ لجمال أحرُفه بأحلى سعاداتي.

كنتُ جليَّ النطق رائق السرد وكأنّي ألقي خطب جمعات طفولتي في مسجد دغبوس. ظللتُ هكذا «أشخُط» شعراً بلسان «إختَرشَتْ» كلَّ عُقَده. ثمّ قرأتُ لها قصائد قديمة كنت أنظمها في الصغر وأنشرها في مجلة «أخبار المصافي»، قبل أن أوقف نظم الشّعر، وأفجّر كلّ طاقاتي ومواهبي وملكاتي في الحديث عن الموقف الاشتراكي العلميّ من التجربة اليوغسلافيَّة...

كانت تُصغي لي بكلّ اهتمام. لعلّها كانت تحتاج لسماع صوت آدميّ بعد أسابيع من الانعزال والكآبة. وكنتُ أرفد جداول الشّعر، أصبّها صبًّا، أكيلها كيلاً... لعلّي كنت بحاجة للنطق والتعبير أمام أُذنٍ رقيقةٍ تسمعني بعد عمرٍ من الصمت والجفاف والحرمان.

بعد هذه المقبّلات الشّعريّة اللذيذة التي كدنا ننسى خلالها نصوص صحيفتها الحميمية، قلتُ بالحرف الواحد، أنا الذي اعتبرتُ نفسي خجولاً يومًا ما:

ـ سأتوقّف عن سرد الشعر، أحبُّ أن أراك تقرأين شذرات من صحيفتك، كما وعدتني!

يا للروعة! انفتح لساني تمامًا، انفتح، انفتح...

ـ سأُعِدّ كأسين من الشاي أولاً، ثمّ سأبدأ القراءة، ردَّت وهي تتوجَّهُ نحو المطبخ..

غابت عشر دقائق بقيتُ فيها وحيدًا، أُحدِّقُ في كلّ تفاصيل غرفتها التي قضُيتُ فيها أجمل ساعات الخلوة والاسترخاء والمناجاة

عند سفر جدّتها إلى أنطاكية، أعيدُ التحديق في تلك الصورة الحائطيَّة التي عشقتها كثيراً، وغِرتُ من نظر الآخرين لها... تلوتُ في قرارتي سورة الفاتحة والكرسي وبداية سورةِ «إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا».

كنتُ مبتهجًا، بل غير مُصدِّق تمامًا أنِّي أجلسُ هذه المرّة في غرفتها، بقربها، في ظلالها، أتحدَّثُ معها دون خجل. عادت بالشاي وقطعتين من الشوكولاتة، من ذلك النوع نفسه الذي أهدتني إياه في طفولتنا!

ـ من أين حصلت عليها هذه المرّة؟، سألتُها مُذكِّرًا إيَّاها بالشوكولاتة التي وضعَتها في جيب حقيبتي المدرسيَّة أثناء الطفولة، مستغربًا كيف حصلت عليها في هذه الأيام التي مُنِع السفر فيها للخارج واختفت فيها أهمّ السلع الضرورية. ثمّ أضفتُ: «مازال طعم تلك الشوكولاتة في فمي؟!»...

قلتها أنا نفسي، هل تصدّقونني؟... ردَّت دون أن تخفي ابتسامةً واعدة:

ـ أموتُ في هذا النوع من الشوكولاتة السويسريَّة منذ الطفولة، كما لاحظتَ. حصلتُ عليها هذه المرّة من صديقةٍ قديمة تدرس في بودابست، اشترتهُ لي في ترانزيت مطار الكويت، على طريق عودتها لقضاء عطلة الصيف في عدن.

شكرتُها «بأثرٍ رجعي» على قطعة الشوكولاتة التي أهدتني إيَّاها في الطفولة. ضحكت قليلاً من شكري «بأثر رجعي». تناولنا

الشـاي. بدأت بقراءة أولى صـفحـات مذكـراتها الحـميـميَّة بصوتٍ منشرحٍ جليّ ناعم. كـانت غارقةً في القـراءة، عيناها وكلُّ جوارحـهـا مـشـدودة لـتلك الأسطر التي تـرجـمـت فـيـهـا بأسلوب شيِّق أرهف مشاعرها، قبل أن تـصُبَّ في خاتمتـهـا، دون «ترشيح» أو إعـادة خلق أدبيّ، حمّى غيظها وحقدها من طعنات زوج غادر.

كان بإمكاني، وهي تتجوَّلُ بين صفحاتها، أن أحدِّق في وجهها وجسدها مثلما أشتهي، لأنَّها لم تكن تنظر نحوي. لم أَحْرِم نفسي من تلك المتعة. كنتُ في قمّة سعادتي. لم تغمرني سعادةٌ كتلك منذ وُلِدت. تمنّيتُ وهي تقرأ أن أُبلِّلها بِقُبَلي التي مازالت بصمات بعضها مُتشبِّثةً على زجاج صورتها الحائطيَّة. حدَّقتُ في أهدابها وعينيها وهي تقرأ. في جمال خدَّيها وثغرها الناعم. في أنفها العبقريّ الذي امتلكتني فجأةً رغبةٌ عارمة في الاقتراب منه وتنفُّس أنفاسه... كنت أحتضنُ صوتها، أستنشقُه، ألتهمُه فعلاً وإن لم أكن أصغي بحقٍّ لمدلول كلماتها وكلّ أحداث مذكراتها.

حشدٌ من نساء ورجال وأطفال يفتحُ باب المنزل في تلك اللحظة، يكتسحُ غرفتنا في لمحة بصر، رأيتُ في طليعتهم والدتي. انهالت مصطلحات: «يا قحبة، ياشرموطة...» من شيوخ وأطفال الشارع. بعضهم تجرَّأ أيضًا بصفعِها والبصق في وجهها.

كنت أسمعُ كلَّ ما لا يخطر على بال أثناء ذلك الخليط الكابوسي من الصراخ والشتم، وانتهاك حُرمة منزل جدّتي سلمى:

« دعتهُ الوسخة »، « راودتهُ عن نفسه »، « اغتصبته »، « قميصُه قُدّ من دُبُر » (وإن كنتُ ألبس بنطلونًا من أجمل بنطلوناتي التي كان يُفَصِّلها لي خياطي الأثيوبي الماهر) . . . انهالت أقذرُ التسميات عليها « بالكوارج » .

يا للمصيبة! جاءت سوسن بحثًا عن الهدوء والسكينة في ركن مطمور من منزل جدّتها، لتمحوَ من رأسها ذكريات حياة تعيسة مع « وغد حقير » طلبت الطلاق منه على الفور. جاءت لتتقيَّأ بقايا ذكراه نهائيًّا في هذا الركن الآمن . . . لم تَجرِ الرياحُ كما اشتهت تمامًا : ها هي تُنسفُ وتُدمَّرُ في هذا الملجأ الآمن نفسه، تتحوَّلُ في لمحة بصر إلى « قحبةٍ شرموطة »، إلى ما لا يقلُّ عن : « مغتصِبة »، كما سمّتها والدتي ! لعلّ هذه الكلمة بالذات جرحت سوسن أكثر من غيرها . . .

خرجتُ من المنزل نحو غرفتي مضرَّجًا بالعار والاحتقار، مطأطئ الرأس، أجدُ طريقي بصعوبة وسط حشد متراكم خارج باب منزل جدّتي سلمى أيضًا . اللعنة! لم يترك جعفر، كما يبدو، منزلاً في شارعنا دون أن « يُبَقبِق » فيه : « الإمام » جَمَّل « للبُنَيَّة ! » أو تعليقات أكثر جموحًا . كان لا يخشى عاقبة تعريضه لأنّه يعرف أنَّه سيغادر منزل جدّتي سلمى بين عشيّة وضحاها . لا سيَّما أنّهُ لاحظ أنَّ سوسن بدأت تغادرُ غرفتها، تتحرّكُ قليلاً، تتنفَّسُ، تكتبُ، تتحدَّثُ مع جدّتها وبعض جيرانها، تبدو أقلّ انقباضًا . . .

هذه خاتمة قصّة حبٍّ لم يبدأ بعد . كلّ شيءٍ في مجتمعنا ينتهي قبل أن يبدأ . لكلّ شيء دومًا خاتمة مرعبة .

ظلّ ذلك اللقاءُ الجريحُ مع سوسن هوس أيامي وكابوسها الدائم حتّى موعد ذهابي للدراسة في فرنسا. لم تندمل آثار مخالبه اليوم وأنا أتجاوز الأربعين من العمر. ستظلُّ محفورةً في نظراتي للحياة، في نحيبي وعدميّتي الدائمين، في إدماني بصاحب «فيا موتُ زرْ إنَّ الحياة ذميمةٌ...»، أبي العلاء المُعرّي.

أكرهُ تذكُّر تلك الفترة التي تلت لقائي بسوسن وحتى سفري لفرنسا. محَوتُها من ذاكرتي. أكرَهُ التحدّث عنها إجمالاً أو التسكُّع في تفاصيل بعض عواقبها. كانت قاتلةً فعلاً. بليّة البلايا. كارثة العمر. راودني فيها طيفُ رغبة الاستقالة من هذه الدنيا أكثر من مرّة.

كرهتُ من يومها شارعنا الذي صارت نظرات سكانه لي تستثير حقدي وكلّ غيظي. كرهتُهُ من كلّ قلبي، حتى يومنا هذا. سأكرهُهُ، أشعرُ، حتى الموت. لم أعُدْ أحلمُ بشيءٍ أكثر من الهروب منه ومن إشاعات وأقاويل وهمز ولمز سكانه التي كنتُ فيها القاتل والقتيل في الآن نفسه.

كنتُ ضحيّةً في أعين جدّات الشارع، اللواتي تتلخّص أطروحاتهن بـ «جرّتهُ لحبائلها، الفاجرة، لعنها اللّه!».

أثرتُ حسد وغيرة بعض فتيان الشارع. بارك لي بعضهم على «النعمة» التي حظيتُ بها. جزَمَ آخرون أنّني لم «أُبَيِّض وجوههم» و«لم أعمل اللازم». وتحوَّل ذهابي لمنزل جدّتي سلمى في أعين آخرين إلى فيلم إباحيّ كنتُ فيه ذلك المارد الذي انْقذفَت طاقاته المكبوتة مرّات عديدة جداًّ، بعدد قبلات فيلم «أبي فوق الشجرة»...

توقّفت حياة سوسن هي الأخرى بشكلٍ أبشع وأغرب وأشدّ تراجيدية. حاولت منذ الغد اللجوء لبعض السفارات الأجنبيَّة بحثًا عن فيزة لمغادرة البلد. احتُجِزت إثر ذلك بسبب قانون «صيانة الوطن» الذي خرج طريًّا طازجًا حينها من جعبة القيادة السياسيَّة، في أحلك أيام الرعب والحذر والقمع والإرهاب والتصفيات الجسديَّة المتواترة. لا يعرف أحدٌ حتى يومنا هذا أيّ مصيرٍ حلّ بسوسن.

غادر جعفر، لا سامحه اللّه، منزل جدتي سلمى في ذلك اليوم نفسه عائداً إلى صنعاء. توفّيت جدتي سلمى بعد أشهر قلائل. خلا منزلُها إلا من خالتي رجاء، ابنتها الوحيدة، التي كانت تواظبُ في البداية على السكن أحيانًا أو المجيء بانتظام، حتى لا يُعتبر المنزلُ مهجوراً ويؤمَّم على الفور...

مدَّدت خدمتي العسكريَّة خمسة أشهر إضافيَّة عقابًا على تغيُّبي خلال ذينكما الأسبوعين. وجدتُ نفسي بعدها أبدأُ سنةً عسكريّةً أخرى مع دُفعة عسكريَّة جديدة، أُعيدُ يوميًّا التدريبات نفسها وأسمعُ المحاضرات نفسها... كنتُ مع ذلك أكرهُ الرجوع للمنزل يوم الخميس. فضّلتُ البقاء في جهنّم المعسكر لئلا أرى ذلك الشارع، تلك الأوجه، ذلك المنزل... تجرَّعتُ كلَّ ويلات المعسكر برضى وقناعة وسرور. أنهيتُ الخدمة العسكريَّة جُثّةً هامدة. بلا أملٍ أو رغبةٍ في الحياة. كنت أكرهُ أيامها كلّ شيء، ألعنُ كلّ شيء. كلُّ يوم كان يُصليني عذابًا، يمرّ طويلاً خانقًا قاتلاً كعقوبة سجنٍ مؤبّد...

في إحدى لحظات اليأس الكبرى التي تلت الخدمة العسكريَّة تذكَّرتُ المدرسة الابتدائيَّة والأستاذ نجيب. كم أحببتُ الحياة أيَّامها، كم أحببتُ المدرسة. كان هو الإنسان الوحيد الذي يُشجِّعني، يسمعني، يحُثُّني على الكتابة، يقرأني بشغف، يُساعدني على التساؤل والتفكير. كان يحبّني حقًّا. كنت أرى الدنيا حينها من زاوية مترعة بالأمل، تُطلُّ على عالم مشرق مفتوح الآفاق. زاوية تختلف تمامًا عن زاوية أيامي الداكنة هذه التي تُشبهُ فتحات السجون الخاصّة لشيخ قرية الزرائب التي وُلِد فيها جعفر، لا سامحهما اللّه.

ذهبتُ لمنزلِ الأستاذ نجيب هيكلاً يحملُ على كاهلهِ كلَّ مرارات الدنيا. ذُهِل لرؤية هيئتي بعد الخدمة العسكريَّة. أفهمُ اليوم تمامًا لماذا لا ينسى كلٌّ من رأوني آنذاك كم كنتُ حينها أضمحلُّ جسديّا بهرولةٍ تُقلق الجميع.

احتضنني الأستاذ نجيب، استقبلني بحفاوة، أعدّ لي الشاي هو نفسه. شرحتُ له كلّ معاناتي. قال لي: عليك بالسفر دون تأخر. سألني:

ـ أين تريد أن تواصل دراستك؟

ـ في ألمانيا الشرقية أو فرنسا؟

ـ أيًّا منهما تُفضِّل؟

ـ فرنسا، أجبتُ.

ـ لماذا؟

ـ أحبُّ كثيراً منظر الغروب!

ـ عفواً؟

ـ نعم! أعشقُ منظر الغروب! أريد أن أعيش هناك وأرى بأُمِّ عيني غروب عصر الرأسماليَّة، التي توشك على الأفول والزوال الكامل بفضل قانون «سمة العصر». أما المعسكر الاشتراكي، فأمامي العمر، كلّ العمر، للانبهار من توهُّجه، وإثلاج صدري برؤية انتصاراته، والحياة فيه والتسكّع في جنانه...

أجابني إجابة غير واضحة. لم أكن قادراً حينها على استشفاف عمقها. قال:

ـ ربما سيأتي ذلك اليوم الذي تستعيد فيه ذكرى سؤالي هذا وجوابك. ستكتبُه في عملٍ أدبيّ ما، من يدري؟ ربّما ستضحكُ يومها كثيراً مما قلتهُ!

عمل الأستاذ نجيب المستحيل. توجَّه إلى إدارة التربية والتعليم في خورمكسر، قابل الرجل الطيِّب الرائع، ذي الامتلاء الجسدي المتناسق، الذي كان يلوك «التُمْبُل»[1] طوال اليوم، الأستاذ «عبد العزيز إبراهيم» ومساعده النحيف، المرح دوماً، والذي نسيتُ اسمه.

١ ـ التُمبُلْ، تسمية عدنيّة لـ «البان ماسالا» الهنديّ الشهير: خليطٌ من بعض البهارات والتوابل، كـ «الفوفل» والهيل واليانسون (الشّمر) والقرنفل ومسحوق النارجيل... ملفوفٌ في ورقة نباتيّة معطّرة، يتناولهُ كثيرٌ من شباب عدن، يلوكونه كالشوينجم، على الطريقة الهنديّة.

استطاع الأستاذ نجيب أن يدُسَّني ضمن مرشحي عام ١٩٧٨ للسفرِ للدراسة في فرنسا . . .

استغلَّ كثيراً مقامه التربوي وصفاء « سيرتي الذاتية » على الصعيد الحزبي، رغم أنَّ درجاتي في الثانوية كانت ركيكةً بالمقارنة بمن يذهبون عادة هنالك، وبمميزات بعضهم الدراسيَّة، لا سيَّما أحدَ سكان الشوارع المجاورة، الذي سافر قبلي لفرنسا بسنتين والذي كان يدرس معي في الصفِّ نفسه في المدرسة الإعداديَّة . لم أره كثيراً بعد المدرسة الإعدادية لأنَّه « قفز » سنة دراسيَّة كُنَّا فيها في نفس الصَّف . إلتقيتُ به في فرنسا، توطّدت علاقاتنا وحدث لنا ما حدث، وما سأحدثكم عنه لاحقًا . لن أذكر اسمه هنا من باب الوفاء له لأنَّه، كما أعرفه جيِّدًا، لا يحبُّ ذلك كثيراً . فلأُسَمِّه اقتضاباً : ح.ع.س .

يبدو أنَّ الأستاذ نجيب، كلّلَ اللهُ كلَّ أيامه بالسعادة والخير والعافية والهناء والرَّاحة، عبَّأَ ملفّي في إدارة التربية والتعليم على أكمل وجه . قُبِلتُ للدراسة في فرنسا . رافقني في عملِ كلِّ إجراءات الهجرة والجوازات التي كانت كابوسًا من أتعسِ كوابيس السبعينيات والثمانينيات في عدن . ضَمِنَ لي في إدارة الجوازات . نقلني بسيّارته إلى إدارة التلقيح بالتواهي . قضّيتُ وإيّاه خلالها يومًا ممتعًا تغذَّينا فيه في « السيلرس كلوب »، نادي البحّارة، الذي كان ما كان أيام العزّ، وصار ما صار بعد حروب البدو وفي عصور سلطات القبائل .

ودّعني ليلة السفر في ركن الشارع أمام منزله. بكيتُ من كلِّ قلبي يومها، وقبّلتُه وأنا أشعر بالحزن الكبير لفراقه. لم أستطع، ولن أستطع ما حييت، أن أُعبّر له عن قليلٍ من امتناني بما قام به لأجلي...

غادرتُ عدن مودِّعًا حشدًا من الأعين الدامعة في طليعتها أعين أبي وأمي. لم أغفر لوالدتي اتهاماتها لسوسن وعباراتها الجارحة، لكنّي ودّعتُها بحزنٍ عميقٍ صادق. ودّعتُ أبي أيضًا بكثيرٍ من الحزن والقلق على صحّته.

توجّهت طائرة الداكوتا إلى جيبوتي.

مكثتُ في جيبوتي يومًا كاملاً. نزلتُ في فندق يقع في وسط المدينة، يرتادُه غالبًا ركابُ الترانزيت. عند استرخائي قليلاً في غرفة ذلك الفندق، بدأ قلبي يدقُّ بانتظار موعد إقلاع الجامبوجيت في الثانية عشرة ليلاً بالتحديد، من ذلكم اليوم الخالد: الأحد، الرابع والعشرين من سبتمبر ١٩٧٨.

لا أدري لأي برج من أبراج مملكة دملان تنتمي تلك السنة. لعلّه «بُرج الثور»، إذْ لم تحمل لي تلك السنةُ النعيم الذي كنت أبحث عنه. أو لعلّي لم أتبع نصائح جدّتي نور التي أوصتني أن لا أسافر إلا أيام الأربعاء! يبدو لي أنّه لو كان ذلك اليوم أربعاء، لما صار لي ما صار في بلاد الفرنج.

سأختصرُ الحديث أيضًا عن جيبوتي. لأنّني لم أكن أشعر فيها أنّني سافرتُ فعلاً من شارع دغبوس، وأنّني على أبواب فرنسا. لم

أُصدِّق يومها أنّني أبتعدت حقًّا عن جحيم ذلك الشارع. عادت لي بقوّة دوامةُ كارثةِ لقاء سوسن، أَضفت عليها الوحدةُ مزيداً من المأساويّة والأسى الراسخين. لعلّ لحظات خلوتي في جيبوتي كانت مواتيةً أكثر من قبل لاسترجاع فيلم المأساة أولاً بأول، ولتفجُّر طوفان الآلام من جديد.

تجوَّلتُ في الشوارع الرئيسة في جيبوتي. بدت لي في الدقائق الأولى أشبه بحيّ خورمكسر. ثمّ بدت لي أقلَّ خرابًا، أفضل، وأنظف بكثير. مقاهٍ من نمطٍ أوروبيٍّ فرنسي لا تشبه مقاهينا. كانت جيبوتي حينها أشبه بهونج كونج مصغّرة. بائعاتُ هوى صوماليات وأثيوبيات في كلّ مكان. سينمات، جنود فرنسيّون أو شباب في خدمة عسكريَّة. صيفٌ أبشعُ من صيف عدن. صدّقوني! ثمة مدنٌ في هذه الدنيا تخنقُ المرء في الصيف أكثر من عدن...

تجوَّلتُ وحيداً. رمقتُ وجه شابٍّ يمنيٍّ بسِنّي أظنُّ أنّه كان يعيش في حيِّ «القلُّوعة» عندما كان صغيراً. عرفني وعرفته. حيَّاني وحيَّيتهُ، تعانقنا بحرارة. لا أدري إن كُنّا سنتبادلُ حتى السلام العابر لو تقابلنا في عدن، لأنّ معرفتنا كانت سطحيّةً جدًّا، «معرفة نظر» في أفضل الأحوال. أخذني لمقهًى أوروبيّ راقٍ جميل. شربنا عصائر مُتنوِّعة. اقترح عليّ أن آخذ لغرفتي في الفندق، مقابل حفنة بسيطة من الدولارات، شابةً أثيوبيَّةً صغيرة كانت جالسة في ركن قليل الإضاءة في ذلك المقهى نفسه، رشيقة جدًّا، ذات جمال «يتقرمط»

وكبرياء متميّزة لا تتواجد لدى شابّات المتعة في تلك المقاهي. لعلّ سرّ كبريائها يكمنُ في جمالها الذي يُتوسَّلُ لهُ، ولا يتوسّلُ لأحد.

رفضتُ. تذكّرتُ قسمي عندما شاهدتُ فيلم «... المفقودة» في سينما شيناز. أشعرُ بالندم اليوم: ربما كان عليّ أن أقبَل، لأتخلَّصَ سريعًا من عذريّتي الخالدة التي أختَنِقُ تحت تخثُّرِها وأنا في الأربعينات من العمر، لأُمزِّق غشاء بكارتي الذي يعتقلني كسجون شيوخ دملان، لأرفض وأتمرَّد على حرماني الذي مازلتُ أُجرجرُ أثقاله إلى الآن. أتساءلُ اليوم: لو قبلتُ يومذاك عرض «صاحب القلوعة»، هل كنتُ سأبدأ لقائي مع تلك الحسناء الحبشيّة، وهي تنثال تحتي في السرير كأفعى، بالحديث عن الموقف الاشتراكي العلمي من الشقاق في الحركة الشيوعيَّة العالميّة؟

ويحي! فتاةٌ انسبكت رشاقةً كتلك الهيفاء الصغيرة كانت ستدخلني التاريخ حتمًا من أَرقٍّ أبوابه. جمالٌ عبقريٌّ كذلك الجمال كان سيمتصُّ تعاساتي القديمة، سيغسِلُ جسدي برحيقِه الطريّ، سيَروي غليلي، سيفتحُ طريقي، سيشرحُ صدري، سيحلُّ عُقَدَ لساني... عذوبةٌ رقيقةٌ كتلك كانت دون شكٍّ ستبرهنُ صحَّة الحكمة العدنيّة الشهيرة: «من طَعَم الحالي دَنْدَل شفايفه!»، كانت ستجعلُ كلّ منابت جسدي «تَتدندَلُ» ليل نهار...

عدتُ للفندق استعدادًا للحظة دخول التاريخ حقًّا. في الثانية عشرة مساء بالتحديد، «لا زايد ولا ناقص»، كما نقول. بدا لي ذلك

الفندق منذ وصلتُهُ قصرًا رائعًا. لم أرَ يومًا في حياتي العدنيّة عمارةً جميلةً مُهيبةً نظيفةً مثله. أُعجبتُ بتصميمه وبهائه كلَّ إعجاب. ما سيذهلني حقًّا («هذه هي فرنسا! كما يقولون) هو أنّني عند عودتي من فرنسا بعد عامٍ فقط لقضاء أول إجازة صيف في عدن، سأسكُنُ في ذلك الفندق نفسه الذي سيظلُّ كما تركتُهُ دون تغيُّر، بالمستوى نفسه والإدارة والنظام. سأراهُ حينها أشبه بمقبرة! سألاحظُ شروخًا وتصدُّعاتٍ في جدرانه لم ألاحظها من قبل، سألوم مستوى نظافته، سأستصغرُ مقتنيات ترفيه غُرفه... وسأتساءلُ بكلِّ قوّة واستغراب: ماذا أعملُ هنا؟ كيف رأيتُهُ يومذاك أشبه بقصر؟...

لكن بعد مغادرتي عدن في نهاية الصيف للعودة إلى فرنسا، سأقضي يوم ترانزيت آخر في جيبوتي، في ذلك الفندق نفسه الذي سيظلُّ مرّةً أخرى كما تركتهُ دون تغيُّر، بالمستوى نفسه والإدارة والنظام. بعد إجازة شهر فقط في عدن، سيعودُ له مرةً ثانية («هذه هي اليمن!»، كما يجدر القول) طابعه الأرستقراطي. سأعجبُ من جديد بنظافته المتميّزة، بخلوٍّ جدرانه تمامًا من الشروخ والحشرات، بروعة ترتيبه وبحبوحته، وإعجاز جماله المعماري.

الحادية عشرة مساءً، تجمّعنا في صالة الانتظار المُطلّةِ على فناء ساحة المطار. تربضُ في وسط الساحة، أمام باب خروج الصالة، طائرةُ جامبوجيت عملاقة مهيبة، محاطةٌ بهالةٍ من الأضواء.

يتوافدُ نحو الصالة المسافرون المُقلعون من جيبوتي ورُكّابُ الترانزيت المتوافدون من أكثر من بلد. تجثمُ كل الأبصار على باب

الخروج المؤدي للطائرة. قلتُ لنفسي وأنا أُحملقُ، عبر زجاج باب الخروج، في الطائرة الضخمة المغلّفة بأضواء الكشّافات: «بعد ساعةٍ بالتحديد سأدخلُ التاريخ!».

الحادية عشرة والنصف مساءً، بدأ الطابور يتشكَّلُ أمام باب الخروج، إثر نداء صوتٍ أنثوي ناعم من ميكروفون المطار. انتفضتُ من مكاني مسعوراً لأكون في البداية. لعلّي نسيتُ حينها شارع دغبوس، شعرتُ أنّي أبدأ عصراً جديداً من عمري، أدخلُ التاريخ!

سربٌ من فتيات أوروبيات يدخُلن من الباب المجاور لباب خروجنا، يرطنَّ الفرنسيَّة أو الألمانيَّة، اللتين كنت أجهلهما، بأصوات متداخلة يختلط فيها النقاش الجاد، باللغو الصيفيّ، بالتعليقات المرحة، بالضحك الصاخب. سواعد وأكتاف بيضاء عارية تُضفِي عليها قشطة برونز الصيف جاذبيةً وإغراءً أكثر تأجيجًا. شورتات تعلو «أصماح» رشيقة. فانيلات مقتضبة خفيفة. أجسام تفيض تماوجًا وطراوة، لا تعرف الانقباض والانكفاء والتيبُّس والتجلّط... لعلَّهنَّ فوجٌ من السائحات اللواتي نزلن في جيبوتي لتغيير الطائرة والسفر إلى شواطئ كالدونيا الجديدة الفرنسيَّة القريبة من أستراليا، كما عرفت ذلك فيما بعد.

صوتٌ قويٌّ يرجُّ صالة المطار، يُقلِّدُ أصوات بائعي «البقل» المتجوِّلين في عزّ ظهيرة عدن، قبيل موعد وجبة الغذاء:

أبيض، أبيض، حالي كما العسل!

أُمّ الجن! أعـرفُ هـذا الصـوت! إلهي مـاذا يعـمـل هنا؟ أين يسافر؟ . . .

نظرتُ خلفي بحركة بطيئة حذرة. علَّهُ ليس ذلك الصوت الذي خطر ببالي. كلا، كان ذلك الصوت نفسه الذي أخشاه. كان هو جعفر الدملاني بلحمه ودمه، مستقيماً في الطابور نفسه المتّجه لباريس.

لم أعُضّه، كما كان ينبغي أن أفعل، بعد الكوارث التي تركها في شارعنا عشية سفره! كان يجدر أن أغرس أنيابي في رقبته، أن أنهال عليه لكماً وركلاً وعضّاً وبصقاً . . . بعد أن دمّر حياة سوسن وحياتي.

رآني، ضحك بحفاوة بالغة، وحيّاني من بعيد، ثم هرول في اتجاهي لاحتضاني وتقبيلي والبقاء في موقعي المتقدّم في الطابور. حيّيتُه بالطريقة نفسها. كدتُ أنسى خلال ثوان كلّ الآلام التي تجرّعتُها بسببه.

ـ أنت ذاهب لفرنسا أيضاً؟ سألني.

ـ نعم!

ـ يا خير رفيق!، الحمد للّه الذي جمعنا على الخير، وأعاد لقاءنا من جديد بعد هذا الفراق الطويل.

ـ . . .

ـ ماذا ستعمل في فرنسا؟

ـ لديّ منحة دراسيَّة في الفيزياء، وأنت؟

ـ أنا أيضًا لديّ منحة عسكريّة!

ـ في أي مدينة ستسكن؟ سألتُه بحذر.

ـ في مدينة «نِيْس»!، وأنت؟، سألني.

ـ لا أعرف بعد!

ـ أحلّفك بالعيش والملح حقًّنا: لازم تجي تتعلّم بالمدينة نفسها حقي، نتوانس سواء. وبعده، أنت ترطن إنجليزي مضبوط. شاحتاجلك للترجمة مع عيال الفرنص. الحمد للّه الذي جمعنا. هااااااه، إِسمع ياخبير، هذي أمانه! ماتقولش «كيني ميني» مثلما تُخَبِّروا يا عيال عدن: أنا وأنت مع بعض، حياة وإلا موت بهذي البلاد. نطلع القمر وإلا ننزل فتوت...

ثم غمز لي (على الطريقة العدنيّة) مُضيفًا:

ـ هااااااااااه، شوف، شِيْقَعْ هناك «قِمَّال» من صدق، طريق طريق...

بدأ الطابور في التحرُّك نحو الجامبوجيت المتأهبة للإقلاع. الساعة تقترب من منتصف الليل تحديداً. كان سيكون لهذه اللحظات التي نعبرُ فيها فناء ساحة المطار مشيًا على الأقدام، بين أضواء باهرة التصميم، وقمر مكتمل ناصع... كان سيكون لها وقع آخر وروعة خالدة، لولا طالعُ الشؤم الذي فاجأني بغريم يعانقني بحرارة، تزدوج خطواتُه بخطواتي، مصيرهُ بمصيري... تذكّرتُ جدّتي نور (التي

توفّيت، أسكنها الله فسيح جنّاته، خلال سنوات اكتئابي في علبة الصاردين): موعدُ سفري لم يكن مناسبًا حسب نظريّاتها الصائبة التي تُوصي دائمًا بالسفر يوم الأربعاء.

كان مقعدي في الطائرة بعيداً نسبيًّا عن مقعد جعفر. أخرجتُ الكتاب الذي أهدتهُ القنصليّة الفرنسيّة لكل مبعوث. عنوانه، إذا لم تَخُنّي ذاكرتي: «أسافرُ لفرنسا». يشرحُ الكتاب بإسهاب طبيعة الحياة في فرنسا وجغرافيتها ونظامها الجامعي...

بدأتُ بالبحث عن موقع «نِيْس» في خارطة فرنسا: جنوب الشرق، على البحر الأبيض المتوسط.

بحثتُ في مدن شمال الغرب، الأكثر بُعداً عن نيس، المدن الجامعيّة التي لا توجد بها أية كُلّيات عسكريّة أو شيء ما له علاقة ببرنامج مجيء جعفر لفرنسا. وجدتُ مدينةً اسمها: «سانت مالو» في أقصى شمال الغرب، على بحر المانش في شمال المحيط الأطلسي. لم أكن أعرفها من قبل. لم أسمع قطّ عنها من قبل. تصفّحتُ صوراً من تلك المدينة. رأيتُها تشبه كثيراً مدينة ذلك الفيلم الذي شاهدته قبيل الرابعة عشرة من عمري في سينما شيناز. فيلم «... المفقودة». تذكّرتُ بطليْ ذلك الفيلم: ماريان ومراد. ألم أخترهُما منذ ذلك اليوم نموذجًا لي في الحياة؟

قلتُ لنفسي: «سأختارُ سانت مالو مدينةً لدراستي. سأكونُ فيها قريبًا من باريس. لي الشمال والغيوم والرياح والبرد، وله الجنوب

والشمس والدفء والبحر الأبيض المتوسط والسواعد العارية... مش مشكلة، سأكون هنا بعيداً عن بحر وشمس الجنوب. لكنّي سأكون بعيداً، قبل كلّ شيء، عن جعفر»!.

ردَّدتُ في كلّ زوايا رأسي طوال الرحلة «لا بدّ من سانت مالو وإن طال السفر»!

فرنسا، ١ مايو ٢٠٠٢

٢١ يوليو ٢٠٠٢

الجزء الثاني

سانت مالو

لجمال أحمد حيدره...

الفصل الأول

فيشي

طائرةُ الجامبوجيت تقلعُ من جيبوتي عدة دقائق بعد منتصف الليل. أخّرتُ عقارب ساعتي الـ «سيكو» ساعتين لأحيا مُقدَّمًا في الزمن الفرنسي، ثم قدّمتُها خمس دقائق لأكون دائمًا أمام الحدث. قلتُ لنفسي: كفى التأخُّر والعودة مُثخنًا بالهزائم والمواعيد الضائعة! كفى الوصول بعد رحيل آخر قطار! لأَكُنْ في فرنسا دومًا في المقدمة! هيلا هيلا هوب، هيلا هيلا هوب...

يصعبُ عليّ أن أنسى قرار تقديم عقارب الساعة خمس دقائق، ليس لأنَّه كان أوّل إجراءٍ أتخذُه لبدء حياتي الجديدة، بل لأنّه، كما ستعرفون قريبًا، كلّفني كثيرًا: لكمةً في الفكّ أطاحت بأحد أنيابي، وشرخًا في الفؤاد أحمله كوشم انتماءٍ أبديٍّ لقبيلة التعساء والمنكوبين.

لأقُلها منذ البداية مرّةً واحدة دون تكرار: لست هنا بصدد سرد تفاصيل يوميات حياتي في فرنسا. سأبوحُ لكم فقط بسلسلة الأحداث التي أودت بي إلى ما صِرتُهُ اليوم. أقصد: سأرصفُ أمامكم بالتزام وانتقاء ودقّة ذلك الخط المستقيم من اللعنات والانكسارات والخرائب، والسعادات الصغيرة أيضًا، الذي قاد حياتي حتّى «علبة الصاردين»، قبل أن أفضي لكم تفاصيل ما تبقّي من تلك الرحلة الغريبة لمملكة «دملان» بمعِيّة الأستاذ نجيب، وما حدث خلالها من عجائب وغرائب في «يوم النامس»، وما أدراك ما يوم النامس.

تحلّوا بالصبر واربطوا أحزمتكم جيِّداً: ما زلتم بعيدين عن أسرار ذلك اليوم! ثمّة أشياء كثيرة عن الوجد واللوعة، عن المرأة والعشق، عن القُبَل والعناق، عن اللهفة والشهوة... أريد مهامستكم بها أوّلاً.

ربطتُ، أنا، حزام مقعدي جيِّداً قبل إقلاع الجامبوجيت. تفرّستُ من جديد في ساعتي التي اشتريتها البارحة من مطار عدن، والتي قدَّمتُها خمس دقائق على توقيت فرنسا. أدرتُ «سكروب» تعبئتها إلى أقصى نهايته كما لو كنت أملأُ بذلك خزّان بنزين طاقاتي حتى العنق، قبل بدء رحلة سفر طويل.

استعدتُ في ذهني لحظات عناق كل من جاؤوا لتوديعي في مطار عدن، استعدتُ أحداث يوم الترانزيت في جيبوتي، مفاجأة لقاء جعفر الدملاني في المطار قبل هنيهات... رمقتُ جعفر الذي كان قاعداً في مكانٍ غير بعيد في الطائرة نفسها، والذي لم يَكفّ عن القيام من مقعده والتلويح لي بالسلام والتحيات وكأنَّه يريد التأكُّد في

كل لحظة أنني لم أفارقه، كما لو كنت أنوي بشكلٍ جاد النطّ من إحدى نوافذ الطائرة. ردّدتُ في سريرتي كُلَّما لمحتُهُ تعاويذ: «حبسٌ حابسٌ، حجرٌ يابسٌ، ليلٌ دامسٌ، وشهابٌ قابسٌ...» التي كانت والدتي تُردِّدها لطرد الجنّ والشياطين، وإن لم أنطق: «شهاب قابس» بصوتٍ مبين، خوفًا من أن يداعب طائرتنا شهاب أفريقيٌّ قابس يحيلها إلى رذاذ من رماد.

الجامبوجيت، في عيوني التي ألِفَت كمودَ أيام عدن الشاحبة، كانت عالماً بحدٍّ ذاته، شديد التألق والجاذبية. مضيفات السبعينيات كنّ باهرات حقًّا، مختارات وفق شروط عديدة، لذيذات جدًّا في الغالب، حسناوات أحيانًا... قبل دمقرطة مهنة المضيفات وتركها لمن هبّ ودبّ من متوسطات الجمال.

وجبة «إير فرانس» كانت بمستوى سمعة المطبخ الفرنسي الذي يعترف الجميع بعبقريته: ١) Foie Gras Truffé، كبد البط المسمّن المغمور بالفطر الدرني ٢) Ris de Veau، لوزة العجل ٣) قطعة جبن روكفور ٤) Marquise de Chocolat، ماركيزة شوكولاتة. بالإضافة إلى نبيذ بوردو (حسب الطلب)، وشمبانيا الأرملة كليكو (حسب الطلب)...

التهمتُ كلَّ شيء ببطء وشراهة ونشوة هائلة في الآن نفسه. لم يجبرني على مغادرة انهماكي بتذوّق كل ذرَّةٍ من ذرّات أطباقي إلا عبور جعفر قربي مهرولاً نحو دورة مياه الطائرة، يسعلُ «مشترغًا» من ابتلاع شيءٍ ما... قبل أن يعود بعد دقائق شارحًا لي أنَّه في غمرة

التهامه مثلي لمأكولات لم يرها أو يسمع عنها من قبل، ابتلع محتوى كيسٍ صغير يُشبه أكياس قطع الشوكولاتة، ظانًّا أنَّه نوعٌ من رقائق الحلوى أو نمطٌ من الشطائر الخفيفة التي يكتشفها لأَوّل مرة، والذي كان في الواقع منديلاً ورقيًّا أبيض مُعطَّرًا. ربّتُّ على كتفه، طمأنتُه وهدّأته، ثم انفجرت ضحكًا كادت تتشقّقُ من شدَّته صفائحُ الطائرة، ونسيتُ نصف تعاساتي.

لم أنم طوال الليل إلا قليلاً. كنتُ أُحدِّقُ في وجوه المسافرات والمضيفات، في كُتيّبات الطائرة وصُحُفها، أضعُ السمّاعة لمتابعة نتف من فيلم فرنسي مضحك يُعرض على شاشة الطائرة، أستعيد منظر جعفر وهو يبتلع المنديل الأبيض الصغير مبتدئًا رحلته بدايةً مرهفةً تليق بمستواه...

عندما لاح الفجر كانت الطائرة تعبر جبال الألب المكسوة برديف من الثلج الأبيض، قبل أن تحطّ في الصباح الباكر في مطار أورلي بجنوب باريس.

توجَّهتُ بحثًا عن الحقائب عبر رواق كهربائي طويل يتخلّلُ معارض ومقاهي وأسواقًا تجارية أنيقة. شعرتُ أنَّ جعفر يلتصق بكلّ حركاتي وسكناتي. انفتح الباب الأول في بداية الرواق أوتوماتيكيًّا. تقدَّمنا باتجاه قاعات الحقائب. انفتح الباب الثاني أوتوماتيكيًّا. الثالث أيضًا. كان الانفتاح الأوتوماتيكي غير أليفٍ بالنسبة لنا، إن لم يكن مثيرًا أيضًا.

كنتُ أحدِّقُ في كلِّ شيءٍ مخبولاً. جدرانٌ زجاجيَّة متألِّقة. أضواءٌ ناعمة. ليس ثمّة شرخ أو خلل أو اعوجاج في شيءٍ ما. ذوق رفيع يغمر كل شيء. رشيقات آسرات بمعاطف أنيقة يمشين بخطوات واثقة مستعجلة سريعة، برؤوس مرفوعة. وجوه بيضاء. آه، ها هو ذلك اللون الأبيض الذي دوّى جعفر عند رؤيته في مطار جيبوتي: «أبيض أبيض، حالي كما العسل!»، والذي نشهقُ جميعًا أمامه! وإن كنت شخصيًّا لا أميلُ كثيرًا للبياض المُتطرِّف: بياض الطباشير وحبّات الأسبرين. أهواهُ معتدلاً، إن لم أقل مائلاً لاسمرار الحبشيَّات والحضرميّات والعدنيَّات، اسمرار المدن البحريِّة الحارّة... اغفروا لي هذا النوع الطفيف من الزندقة إذا أزعجكم أن أستعرض أمامكم أذواقي في الألوان النسائيَّة، أنا الذي لم أعرف بعدُ كوع العشق من بُوعِه، بل لم أستنشق وجهًا أنثويًا واحدًا أيًّا كان لونه أو شكله أو وطنه...

أحدِّق في كل شيء كالمجنون. بشرٌ ينتظر بشرًا. بشر يمشي بعجلةٍ أو يتوقّفُ بين الحين والآخر لتبادل القُبَل. «حيّا وسهلاً»!، قلتُ بصوتٍ عفويٍّ شبه جهوري وأنا أرى قبلات دافئة على «الشفايف» في وضح النهار. دون رقيب ولا عتيد. لا أحد ينتظر انقطاع الكهرباء لدسِّ قُبلة «خلسة المختلس». ربما كانوا مضطرِّين لذلك لأنَّ الكهرباء لا تنقطع أبدًا في هذه البلدان. لا أصدّق عينيَّ: قُبَلٌ جامحة طويلة تُشبهُ قُبلَ السينما، تحت الشمس بكل حرّية! تساءلتُ: كم نحتاج من الوقت لنمارس القُبَل في وضح النهار؟

زاد تهيُّجُ جعفر وهو يرى النساء والرجال يخطون في كل اتجاه، يتعانقون في كل مكان. توقّف عن دفع عربة حمل الحقائب. وضع يده على بطنه ورفع الأخرى قليلاً. بدأ «يبترع»، يرقص على الطريقة الصنعانية، وهو يغنّي: «جيشنا يا جيشنا، جيشنا يا ذا البطل! أنت قد حرَّرتنا، بنضالٍ وعمل...» حاولتُ تهدئتهُ قائلاً له إنَّ ثمّة مسؤولة فرنسيَّة من منظمة مِنَح المبعوثين (الكروس) التابعة لوزارة التربية والتعليم الفرنسيَّة تنتظرنا خلف الباب المقابل حاملةً اسمَينا على ورقة بيضاء كبيرة.

لم ينفتح باب الخروج أوتوماتيكيًّا كالأبواب السابقة. سمعتُ جعفر يصرخ متذمِّرًا:

ـ قبَّحهُ اللّه من باب، لا ينفتح لوحده! واللّه إنَّه باب بلا حياء، عادُه يشاء من يفتحه...

ها هو جعفر، بعد بابين أو ثلاثة انفتحا أوتوماتيكيًّا، لا يطيق الأبواب التي يلزم فتحها باليد. مازال رفيقي العزيز كما عرفته دومًا: يفضّل الأشياء التي تهبط من السماء دونما أدنى كدٍّ أو مجهود.

حيّتنا امرأة طويلة لطيفة تتحدَّثُ الإنجليزيَّة بنبرة فرنسيَّة تثير السخرية. تمنَّت أن نكون قد قضّينا رحلة سعيدة، وأن تكون إقامتنا في فرنسا مترعة بالسعادة والنجاحات... قبل أن تعطي كلاً منّا تذكرة قطار: جعفر لمدينة بيزانسون في شرق فرنسا حيث سيدرس اللغة الفرنسية لمدة سنة قبل ذهابه لمدينة: نيس لدورته العسكريَّة، وأنا لمدينة

فيشي في وسط فرنسا حيث سأدرس اللغة قبل بدء الدراسة العليا في أي مدينةٍ فرنسية أريدها (هامستُ نفسي: سانت مالو، سانت مالو...).

قادتنا بعد ذلك نحو تاكسيين على الرصيف المجاور لباب المطار طلبت من سائقيهما أن يقودا كلاً منا إلى محطّة القطارات التي تؤدي إلى مدينته. جعفر، نحو «محطة قطارات الشرق»، وأنا نحو «محطة قطارات ليون».

تنفّستُ الصعداء وأنا أفارق جعفر وإن حَسِرتُ رغم ذلك على فراقه. تبدّدت سريعًا حسراتي التي تُشبِهُ حسرات الرأفة البليدة وأنا ألتقط أصداء شظايا صرخاتٍ تلعلعُ من نافذةِ التاكسي:

ـ كلِّم الحجّة، قل لها: راجعي نفسك، ميقعش الخبر! كيف سيحكي صاحبي مع النصارى وهو لايعرف يرطن كلمة من حقّهم؟ قل لها: عَقلك بِدَرَمك(١) يا بنت الحرام! لكن، لا تقلق يا ابن العم، حرام طلاق سوف اتبعك حيث ما كنت... كم يوم إلا وأنا عندك، رجلي برجلك... طلِّع كتلي الشاهي حال ما توصل وسوّي لي واحد شاهي «سلالي» وأنا سألحقك بسرعة...

تحرَّك التاكسي في اتجاه قلب باريس في فضاءٍ مُعفّرٍ بسحاب ورديٍّ ثقيل جاثم. كانت تغمرني الفرحةُ وأنا أُحدِّق في هذا الفضاء الصباحيِّ البارد، المخضلِّ بالندى، الذي يكرهه الناس هنا لفرط رؤيتهم له، والذي نذوب إعجابًا به لندرته في ديارنا القاحلة. قادني سائق

١ ـ الدَّرم: عرقوب أو كوعُ الرِّجْل.

التاكسي نحو محطة قطارات ضخمة مهيبة، بعد أن عبرنا بعض معالم باريس وشوارعها التي كنت أشعر بفرح ونشوة جارفين وأنا أشاهدها بأم عَيْني. مزيج مسكر من الذهول والإعجاب العارم اجتاحني وأنا أرى من بعيد برج إيفل، الشانزليزيه، مونمارت، نهر السين، الحي اللاتيني، نوتردام، مونبرناس... قبل توقُّف التاكسي عند «محطة قطارات ليون». أشار لي السائق بموقع بوابة القطار الذي يلزمني أخذه، قبل أن يتركني مع حقائبي عند السلّم الكهربائي المؤدي للمحطّة.

لم أر محطة قطار قبل اليوم. اليمن بلدٌ بدون قطارات. بدون أشياء كثيرة. بدون معظم أشياء الحياة اليوميّة المتداولة، بدونها كلّها تقريبًا. زاد اندهاشي وأنا أرى الناس يسيرون كالنمل، يتوافدون من كل مكان. يضمُّون بعضهم أثناء السير، يتعانقون متى أرادوا وكيفما أرادوا دون أن ينظر أحدٌ لأحد.

القطار فضاء لطيف يبعث على السكينة والاسترخاء بألوانه الورديّة الفاتحة، بنظافته اللامعة، وتصميمه الفني الحديث الجذّاب. هاهو، بانسيابٍ ناعم لا يتخلله ارتجاجٌ أو أدنى ضجيج، يعبرُ طريقًا ساحرًا رهيب الخضرة. أشجار مهذَّبة باسقة متنوعة، مستقيمة بانتظام دقيق، تملأ الأرض. أكمات، غابات، مزارع تملأ الأفق. أنهار وجداول تتلو أنهارًا وجداول. عشرات الأنهار والجداول الكبيرة تعبر هذا البلد من طرفه إلى طرفه. لا توجد مدينةٌ كبيرة أو صغيرة لا تتخلّلها الأنهار والجداول. ينبوعُ الصور التي تسيل عبر النافذة المجاورة لمقعدي مُترعٌ بالاخضرار، مُطرّزٌ بِسَواق وشلاّلات تتفجّرُ في كل مكان.

مرّ القطارُ قرب مصنع سيارات شاسع خارج باريس. آلاف السيارات الجديدة تخرجُ مرتصةً على عربات كهربائيَّة في طريقها للشحن. ارتجف قلبي خشوعًا وأنا أمرّ قرب المصنع، كما يرتجف قلب مؤمن يمرّ قرب دياره المقدّسة. نبض في رأسي عرقُ البروليتاريا والصراع الطبقي. أحنيتُ هامتي أمام الهيكل البروليتاري المقدَّس بمعامله وورشاته التي تبدو مهيبةً حديثةً من بعيد، بطبقته العاملة قبل كل شيء: «صانعة التاريخ، حافرة قبر الرأسماليَّة». لم أكن بحاجة أن يذكّرني أحد ما تكرره صحفنا ليل نهار بأنّ «سمة العصر» هي أفول الرأسمالية وانتصار الاشتراكيَّة. كنتُ منتظرًا بفارغ الصبر لحظة الأفول. جئتُ هنا لرؤيتها أنا الذي أموت إعجابًا برؤية منظر الغروب. ساورني شيء من الابتهاج والفخر وأنا أشعرُ أنَّني سأعيش حقًّا لحظات انهيار الرأسماليَّة... ردَّدتُ في نفسي بنوع من الغرور: سأحكي لهم في عدن يومًا ما أنَّني شاهدتُ نهاية الرأسماليَّة بأم عيني!

عبر القطار نهر اللوار الذي ينساب قرب جيد خارطة فرنسا ذات الشكل السداسي، فاصلاً جزأها العلوي الأكثر بردًا والذي يضمُّ باريس ومدن الشمال، عن جزئها السفلي الذي يضم فيشي القابعة في الخاصرة، والذي ينتهي بمدن البحر الأبيض المتوسط المضطجعة تحت سماء تشبه سماء «سلالم الشرق». تُذهِلُ النظر على جانبي الطريق قصورُ منطقة اللوار التي عاش فيها ملوك ونبلاء فرنسا، كاتدرائيَّات وكنائس، حدائق ومنتجعات، قرىً ومدن هادئة هانئة حلوة رغدة...

لا ينقصني في هذا الديكور الساحر إلا حوريّةً صغيرةً أرتمي في أحضانها ليكتمل إحساسي بأنّي أعيش في جنان الفردوس.

وصلتُ فيشي عصراً. استقبلتني هناك سيّدةٌ أخرى من منظمة «الكروس» قادتني لفندقٍ مقابلٍ لمحطّة القطار: سنترال هوتيل، قبل أن تُحدِّد لي موعداً في الغد لِشرحِ كلٍّ ما يلزمني معرفته لبدء حياتي الجديدة.

سنترال هوتيل عمارة جميلة، تقليدية الطراز بشرفاتها ذات الزخارف الحديديّة الفولكلوريَّة، وبنوافذها المُسنَّمة، وتصميمها الانتقائي الذي يمزج بحريّة أنماطاً وفنوناً مختلفة، ككثير من فنادق فيشي...

صاحب الفندق، رجل شاهق، ذكّرني كثيراً بـ «المستر بيتر»، الهنديّ الأصل، رغم بياض الأول وسمرة الثاني. مثلُ «المستر بيتر» (والدُ صديقي العزيز: سامي مستر بيتر، الذي عاش في ركن شارعٍ مجاورٍ لشارع دغبوس في عدن حتى الاستقلال قبل هروبه منها ككثير من أبنائها وعائلاتها العريقة، أو ككثيرٍ من أبنائها وسكّانها ذوي الأصول الكومنويلثية)، مثلُه، كانت لصاحب الهوتيل بُنيةٌ رائعة، وجه سينمائي جذّاب، وغليون تدخين لا يفارق فمه.

إبنة صاحب الهوتيل شابة في السابعة عشرة من العمر، ذات جسد ممشوق، وشعر ذهبيٍّ يسيل حتى الورك، ووجه سندريلاويٍّ ناعم... ترتدي بنطلون جينس أزرق، وفانيلا بيضاء خفيفة تجلي

رشاقة مفاصلها وعذوبة انحناءاتها... جمالٌ فتّاك أربكني ساعة وصولي للهوتيل كـ «صفعةٍ» مفاجئة في الوجه لم أصحُ من شدّة بغتتها حتى يومنا هذا. كانت حينها تلعب مع كلبها: ساموِيل، من فصيلة اللابرادور، قرب مدخل الهوتيل. كان ساموِيل لا يتوقّف عن الاحتكاك والتدلُّك بها والقفز نحو أحضانها. يسلو كثيرًا بِعَضٍّ أعلى ساقها وأسفل خاصرتها. يركّز أكثر ما يركز على تكوُّراتها الجميلة... قلتُ لنفسي: لعلّهُ كلبٌ من كلاب ألف ليلة وليلة التي كانت بشرًا قبل أن تُمسخ. ربّما كان مثلي يضطرم لهفةً لفتاةٍ رقيقةٍ تُحبّه وتُؤانسه، لجسدٍ تسيل أنوثته بهذا السخاء والانهمار... لعلّي في خضمّ جوعي الجسدي لم أكن سأرفض أن أُمسخ أنا أيضًا شريطة حصولي على وثيقةٍ رسميّة موقّعة تضمنُ لي أن أحيا إلى الأبد في أحضان فاتنةٍ بذلك الجمال القاتل.

لو تحدَّثتُ عن الأيام الأولى التي تلت وصولي فيشي لملأتُ كتابًا كاملاً. ليس ذلك قصدي، كما تعلمون. لأذهب عموديًّا نحو الهدف: سرد ما أودى بي إلى «علبة الصاردين». لذلك لن أطيل الحديث عن فيشي: مدينةٌ كرنفاليَّةٌ أرستقراطيَّةٌ ساحرة. لن أطيل الحديث عن سنة اللغة: سنة سياحيّة لا ينساها المرء إذا عاشها في مدينةٍ كفيشي وفي معهدٍ حديثٍ راقٍ كـ «الكافيلام» يأتيه الناس من كل أرجاء الدنيا للسياحة اللغوية الوجيزة، أو لعامٍ كاملٍ من السياحة اللغوية مثلي. لا امتحان ثمّة ولا تقارير تقويميَّة. سنة مشبَّعة بالرحلات والبرامج الثقافية الرائعة لتعلُّمِ اللغة. طرق تربوية حديثة ممتعة تمتزج

فيها برامج معامل الصوت والفيديو، بتعلُّم اللغة عبر الأغاني والحوار، بنشاطات ناد ترفيهيٍّ عامر متألق دائمًا... آه، لو كانت الحياةُ سلسلةً من سنوات لغات ننتقلُ فيها من بلد إلى بلد، من كافيلام إلى كافيلام، من حضن إلى حضن... دون امتحانات أو تقارير تقويميَّة!

لا أبالغ إذا قلت إنَّني أحببت فيشي من كل جوارحي، أسميتها حال وصولي لها: أمي الثانية، (بعد عدن) بكل ما في هذه التسمية من أحاسيس صادقة تؤجّجُها كثيرًا، يلزمُ القول، مغالاةُ لغتنا الفضفاضة التقليديَّة. وهبتني سعادة لم تهبني مثلها مدينة في حياتي... تعرَّفتُ فيها على أصدقاء أعزاء من كل أرجاء المعمورة، توحَّدتُ فيها سريعًا مع أنماط حياةٍ مختلفة، مع جمالِ الطبيعة، مع الثقافة والفن، مع الرحلات والمطابخ المتنوِّعة، مع اللغة الفرنسيَّة التي عشقتُها بحقّ، ومع أنبل ضروريات الحياة: الحُرِّية... صرتُ طوال بقائي في فرنسا، أحِنُّ لفيشي دائمًا. لتبديد حنيني كنتُ أسافر لها سنويًّا لأداء ما أسميته: مناسك الحج.

منذُ بدئي الدراسة في الكافيلام رسمتُ لنفسي برنامجًا محدَّدًا: يلزمني أن أنسى ظمأي للمرأة والحب ثلاثة أشهر فقط، أدرس فيها اللغة بكل تفانٍ وتركيز، حتّى مساء ٣١ ديسمبر. بعدها، أبدأُ أوّل قبلاتي: قُبلة رأس السنة، أودع فيها حياتي القاحلة، قَبلَ أن أبدأ حياةً جديدة كلّها عشقٌ وقُبَل. أعوِّضُ فيها كلَّ ثواني حرماني، كلَّ ثواني حرمان أعزّ أصدقائي، كلَّ ثواني حرمانكم إن كنتم من «أممية المحرومين»، وكلَّ ثواني حرمان كلِّ «مقاطيع» الكرة الأرضيَّة.

الفصل الثاني
غسيلُ رأس السنة

٣١ ديسمبر ١٩٧٨، الساعة الرابعة عصراً.

اتّجهتُ نحو صالون كوافير في قلب فيشي حاملاً فوق رأسي قُبّةً من الشعر «المُعَطوَر» الملفوف المتداخل. لم يلمس شعري مقصُّ حلاقٍ منذُ وصولي لفرنسا. لعلّي انتقمتُ بأثرٍ رجعي من تعسُّف والدي الذي كان يُصرُّ، بعد أن صار إمام مسجد دغبوس خصوصاً، أن يكون شعري قصيراً جداًّ، شعر إمامٍ ابن إمام. غير أنَّه انتقام سهلٌ جداًّ، تمرّدٌ أرستقراطيٌ لا يسمنُ أو يغني من جوع. لأنَّ والدي لم يكن قربي حتى أُعلِن أنَّني قطعت معه حبل السُّرّة، «دفنتُه» كما يقول فرويد، لأَبني شخصيَّتي المستقلة! أبداً، لم أتمرَّد يومًا، لم أرفض شيئًا، لذلك صرتُ اليوم إمّعةً بامتياز، لا صوت لي ولا رائحة. صفراً على الشمال. أقلَّ من لا شيء.

صالون الحلاقة يشبه سفينةً فضائيَّة ضخمة بتصميمه الخارجي وديكوره الداخلي. شكلُه الهندسي سُداسيٌّ الأضلاع، جدرانه زجاجيَّة ذات ألوان بنفسجيَّة أو زرقاء هادئة. إضاءتُه حديثة تنسجم مع ألوانه الناعمة. أغنية جو داسان الحالمة جدًّا: «اون ايرا»، «سنرحل» (أو «الصيف الهندي»، حسب عنوانها الرسمي) التي سمعتها عند دخولي الصالون والتي تعلَّمتُها حديثًا في الكافيلام أذكت انطباعي بأني في سفينة فضائيَّة على وشك الإقلاع. يعجُّ الصالون بالمرايا المتقابلة، وبصُور أوجه الغانيات ونجوم السينما ذوي التسريحات الحديثة والموديلات المتنوعة.

ثمّة زوايا لغسل الشعر قبل الحلاقة تتولاها فتيات من المتدربات أو المتخصِّصات، وزوايا لقص وتسريح الشعر يتولاها حلاقون رجال وإن كان معظمهم متأنثين جدًّا في حركاتهم وسلوكهم وحديثهم. معظمهم طوال، نحاف، شقرُ الشعر، أنيقون جدًّا كعارضي أزياء وإن كانوا ذوي ميول نسائيَّة ملحوظة في ألوان ملابسهم، رخويو الصوت والجسد والحركة. ذكَّروني بمهنة طبَّاخي المخادر (حفلات الزواج) والدوابية (كُواة الملابس) في ستّينيات عدن الذين كان كثير منهم ملحوظي التأنث والخنثعة.

صالون الحلاقة أشبه بمنملة. الجميع منهمكٌ في الرتوش الأخيرة لمظهره استعدادًا لحفلات رأس السنة بعد ساعات قلائل. ساعةُ صالون الحلاقة هي ساعةُ ثرثرة مقدَّسة للجميع: النساء يبقبقن مع حلاّقيهن، يفضين أمامهم حكايات وهموم يوميَّاتهن وكأنَّهن يفضين مشاعرهن

المكتومة على أريكة طبيب نفسيّ. الرجالُ يدخلون مع حلاّقيهم غالبًا في أحاديث مُطوَّلة أكثر ارتباطًا بآخر أخبار كرة القدم وكرة الرجبي...

الفتاة التي تقبعُ في مكتب الاستقبال قادتني نحو زاوية غسل الشعر، بعد أن ساعدتني في لبسِ قميص طويل أسود ناعم، يُشبهُ قمصان الكومينو اليابانيَّة الطويلة، يحمي الملابس من رفات الشعر المقصوص. سلَّمتني لشابَّةٍ في العشرين من العمر، كارولين، عرفتُ أنَّها من طالبات المدارس المهنيَّة، تبدأُ دورتها التدريبيَّة اللازمة للحصول على شهادتها المهنيَّة للعمل في صالون حلاقة.

كارولين، المتدرِّبة الصغيرة، جميلة شقراء، شعرُها مصفوف على نمط شبابيّ جذّاب، عيناها زرقاوان، أحمرُ شفايفها فاقع يُذكي أرجوانيتهُ وجهها اللبنيّ الناعم، فانيلتُها السوداء تجلي عذوبة ساعديها الرقيقين العاريين. يبدو عليها شيء من الارتباك.

بصوت رقيق دعتني للجلوس على مقعد وثير وسط خمسة مقاعد، تقعُ خلفها خمس حنفيات صغيرة لغسل الشعر. استقامت خلفي، جذبت رأسي بكلّ رِقّة باتجاه حوض الحنفيَّة وبدأت بمعادلة زراري الماء الساخن والبارد. داهمني فجأة نوع كثيف من الاسترخاء، وشعور بأنَّني داخل سفينة فضائيَّة حقيقيَّة توشك على الإقلاع.

سألتني برقّة:

ـ هل يناسبك الماء بدرجة الحرارة هذه؟

قلتُ لنفسي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! هذه الكتكوتة الصغيرة ستغسل شعري حقًّا، شعري هذا الذي لم يعرف غير «الجَعْث» و«النَّتع» و«الرَّدع» في مضرابات الشارع! شعري هذا الذي لم يعرف في الطفولة غير العَجن في زيت «سليط النارجيل» الثخين الخام عنيف الرائحة استعداداً لتصفيته من القمل، شعري هذا الذي لم يعرف غير الجزر في «مُشطِ القمل» الذي كان يحرثُه حرثًا... أذكرُهُ مُشطَ القمل الأسود، متزاحم الأسنان! كان مروِّعًا حقًّا. كنتُ أزعق لمجرّد رؤياه. لعلَّهُ كان بالفعل مذبحةً للقملِ تجرفُها جرفًا، لكنَّه كان مع ذلك آلةً صالحةً لتعذيب الأطفال في سجون الفاشية.

قلتُ لنفسي: كلّ شيءٍ يناسبني حتى الماء الذي يسلخ الجلد مادامت زرقاء العينين هذه هي التي ستغسله. لم أجبها مع ذلك لأنَّني كنت مرتبكًا.

- هل تُفضِّل الماء أكثر برودة أو أكثر حرارة مما هو عليه؟ ردَّدت بصوت أكثر وضوحًا ورقّة.

- هو جيِّد هكذا، قلتُ بكلماتٍ متراكبة، وبفرنسيٍّة بداية الشهر الرابع وإن حقَّقت فرنسيَّتي بالفعل تقدُّمًا أذهل الجميع حينها بفضل الكافيلام أوّلاً، وبفضل حُبِّي العارم لممارستها ودراستها منذ وصولي لفرنسا.

بدأت كارولين تُمرِّرُ أصابعها في شعري، تدلكه بماء الحنفيَّة الذي كان ينسكبُ باعتدال وسط جمجمتي المنحنية قليلاً نحو

الحوض في الخلف، والمُحاطة براحتَي يديها الناعمتين، أراحَهما اللّه يوم لا راحة إلا راحته.

استعدتُ في قرارتي ذكريات حلاّقي: الحاج إسماعيل الذي كان من عصبة والدي أثناء صراعاته مع الإمام البيضاني، والذي كان والدي يأمرني دوماً بالحلاقة في صالونه القريب من شارع دغبوس.

كان قصيراً نحيفاً ذا صوتٍ جهوري أجش لا يتوقف هديره. كان أفلخ بشكل ملحوظ، سريعَ المشي واسعَ الخطوات، طويلَ الأنف ذا أسنان نصفها ذهبيَّة. يُكنِّسُ وجههُ النحيف الضيّق سربٌ من ثقوب صغيرةٍ تركها عليه مرضُ الجدري في صباه. لم يتغيَّر شيءٌ في هيئته وصالونه منذ طفولتي غير استبداله تدخين سجائر الروثمان بسجائر ردفان بعد الاستقلال. حتّى مرآة صالونه التي كانت مشروخة منذ فجر السبعينيات ظلّت كذلك دون تغيير. ظلّ هو أيضاً طيّباً ورِعاً مستقيم الخُلق، تقيًّا يحترمه الجميع.

إلا أنَّ ما يهمني قبل كل شيء هو أنَّه كان خشناً جدًّا، الحاجّ إسماعيل. شديد الراديكاليَّة. مكينةُ حلاقته التي تشبه حرف اللام ألف: «لا»، كانت تحرث شعري بثوانٍ، تقشره قشراً، مما كان يبهج كثيراً والدي الذي كانت تربطه بالحاج إسماعيل علاقةٌ وتحالفٌ سرِّيان وثيقان. أذكر أنَّ الحاج إسماعيل ظلّ من عصبة والدي الأكثر إخلاصاً طوال سلسلة حروبه ضدّ الإمام البيضاني، وظلّ من أكثر مصلّي مسجد دغبوس مداومةً عندما استولى والدي على منبره وبدأ يلقي

خُطبَ جمعته التي تمحورت حول نواقض الوضوء، والتي تَهارب منها معظم روّاد المسجد.

لم تنفعني حتى محاولة رشوة الحاج إسماعيل بإهدائه عُلَبًا من سجائر ردفان: لم أكسب بذلك غير ميليمترات ميكروسكوبيّة من الشّعر لم تُغيِّر شيئًا من هيئتي كجنديٍّ نموذجيٍّ في خدمةٍ عسكريّة دائمة.

لم تكن أيامًا سعيدةً غدواتُ أيام حلاقات صباي. «هل وضع الحاج إسماعيل» مطيبةً «على رأسك قصّ كل ما تجاوزها؟»، هكذا كان يسألني البعض بسخرية. دون الحديث عن صفعات خلف الرقبة بعد قصِّ الشعر، حسب تقاليد شوارعنا، والمصحوبة عادةً بكلمة التهنئة: «نعيمًا!» التي كنتُ أشعرُ بالتقزُّزِ عند سماعها. ناهيك أن قوّة تلك الصفعات، في طقوس زملائي في الشارع والمدرسة، كانت تتناسب طرديًّا مع كميّة الشعر المحلوق.

أغمضتُ عينيَّ في حين كانت كارولين تدلكُ شعري. تدلُكُه برقّة، تصبُّ الشامبو الأول، تُملِّسه في كل مكان، في مقدِّمة الرأس وخلفه، بين مساماته، على الجانبين، في ضواحي الأذن... تُحرِّكُ رأسي بنعومة في اتجاه الحوض، تُثبِّتُ المنشفة الصغيرة التي وضعتها حول رقبتي لمنع تسرُّب المياه إلى ثيابي...

فجأة بدأتُ أضحكُ بتوتر. حاولتُ سريعًا وأدَ الرغبة في الضحك. لم أستطع: نوعٌ من الضحك الهيستيري الذي لا يمكن

إيقافُه أو كتمه أو السيطرةُ عليه. لتطويق نوبة ضحكي العارمة حاولتُ عضّ شفايفي، قرصتُ يدي بعنف وحدَّة... لم أستطع حتى مغالطة رغبتي في الضحك بإثارة الألم. لفتت نوبةُ ضحكي انتباه جيراني في زاوية الغسل، ورغبة استطلاع كل الحلاّقين والمحلوقين... مسكينةٌ كارولين! كانت تريد أن تثير إعجاب مدير الصالون بمقدراتها المهنيّة لتجدَ وظيفةً في صالونه الممتاز، وإذا بها تثير استغراب الجميع ونظراتهم المتشكِّكة. رغم شعوري بحرجها، لم أستطع إيقاف نزيف ضحكي، كما لو أنَّ عِرقًا ما انقطع في شدقي...

حاولت أصابعُها تهدئتي وهي تلامسُ جلد رأسي، تدلّكُه برقّة، «تُكبِّسُ» له كما أحسستُ، تتوغّلُ فيه... عبثًا! كل النقاط العصبيَّة في رأسي جائعة، مستَنفرة، شديدة الحساسيّة. مجرّدُ لمسها بهذا الشكل يفجِّرُ في جمجمتي مطبّات هوائيَّة، إنتفاضات فلاحيَّة، ثورات شعبيَّة، ربشة عارمة. صفحًا كارولين! كلّ خلايا جمجمتي مناطق مُلَغّمة، غير آلفةٍ على الرقّة. ثم لا أدري آنستي العزيزة إن كان ضحكًا ما يعتملُ في جوفي، أم ضجيجَ شياطين جائعة هائجة لا تطيقُ اللمسات الملائكيَّة الناعمة؟

كان ثمّة صوت سرّيّ يصرخُ بين أمواج ضحكي العارمة: أوووووه كارولين، «قَمِّلِي» لي، اغرسي أظافرك الحمراء الجميلة في مساماتي، اغرسي فيها أصابعك الرهيفة الناعمة... داعبي جلد رأسي، ناوِشيه، دَلِّليه، دلِّليه، دلِّليه، توغّلي في أدغال شعري، اعجنيه

كصلصال بين أصابعك المطاطية، «مَرِّخيه»، هَسهِسِيه، حومي في كلّ أرجائه... مُسّي أذني بأصابعك الرقيقة، اسقي رأسي الجاف برُضاب أصابعك الناعمة، رتّبيه، «فحسسيه»، نوِّميه، خدّريه... ثمّ قلت لنفسي: مادامت الحلاقة تمليساً هنا، فسآتي للحلاقة كل يوم.

بدأت المسكينة الجولة الثانية من الشامبو بعد أن غسلت كليّةً آثار الجولة الأولى. عاودتني موجةُ ضحكٍ أفتكُ من الأولى إثر مونولوجي مع نفسي وقراري بالمجيء هنا للحلاقة كل يوم. أثرتُ انتباه ومراقبة الجميع هذه المرة وهمسهم ولمسهم. تركَّزت النظرات علينا نحن الإثنين معًا بشكل مستاء مكشوف.

شعرتُ أنَّ كارولين كانت تنوي أن تبكي من فشل أول شامبو لها، فيما كنت أخاف أن تتفجَّر رئتاي من عنفوان الضحك وعدم توقّفه لسبب بسيط: لم أُصدِّق أنَّ ساعداً رقيقًا أبيض عاريًا يداعب شعري.

أمام تحديق الجميع، رافقتني صاحبة مكتب الاستقبال نحو كابينة أحد الحلاقين الذي بدأ يعرضُ عليّ موديلات حلاقة اخترتُ أبسطها وأكثرها تقليديَّة. كنتُ مُدوَّخًا، حزينًا لمجرَّد الشعور بأنَّ كارولين توجَّهت نحو دورة مياه صالة الغسل تبكي من فشلها المهني ومن عدم استيعابها أسباب ضحكي. لعلّها كانت تتساءل إن كانت عنيفةً أو رعناء غير ماهرة في غسلها لشعري...

بدأ حلاّقي يبحث عبثًا عن مواضيع نتحدَّثُ فيها. كمعظم سكان فيشي، كان يجيد الحديث بتأنٍّ وإفصاح وبكلمات بسيطة

يفهمها طلاب الكافيلام الذين يعرفهم الجميع من سيمائهم بكل سهولة. بدأ بالحديث عن مباريات الأسبوع، عن عروض مكاتب السياحة لإجازات الشتاء في جزر المارتينيك، نيوزلاند، النرويج، مراكش، تونس... عبثًا، كنتُ مخبولاً بالفعل، إن لم تتناوبني من جديد شظايا نوبات ضحك لمجرّد استعادتي شريط ما حصل لشعر رأسي قبل دقائق...

ثم بدأ يختار موضوعًا يتحدَّثُ فيه بحميميَّة ويقحمني فيه قسرًا: تدمُّرُ حاملة البترول الضخمة: أموكوكاديس الذي وقع قبل أشهر على سواحل الفينيستير في شمال غرب فرنسا (حيث يتعانق المانش بالأطلسي). بدأتُ أصغي له باهتمام أكبر لأنَّ سانت مالو، المدينة التي أصبو للدراسة فيها، ليست بعيدة من تلك المنطقة. تحدَّث عن رواسب المازوت التي تُلطِّخُ أحد أجمل شواطئ فرنسا، القريبة من مسقط رأسه ومسكن والديه. كان هناك قبل فترة، لمس بأم عينيه خلالها آثار «المدّ الأسود» كما قال. شاهد آلاف الأصداف والطحالب والأحياء البحرية الميّتة. شاهد العصافير المُعفَّرة بالمازوت. غسل أجنحة بعضها بيديه، نظّف عينيه من المازوت، قالها بنبرات رقيقة وعينين حزينتين. وصف ذلك بـ «هيروشيما بحريّة». ثمّ سألني: هل تعرف أنَّ الشُّعب المرجانيَّة ستختفي من البحار والمحيطات بعد أقلّ من أربعين سنة، بسبب جبال نفايات المدن والمصانع التي يصبُّها الإنسان يوميًّا في البحار والمحيطات؟

لم أفهم سؤاله بسبب جهلي لكلمة «كورال»: الشعبة المرجانيَّة. حاول جاهداً شرح ذلك، عبثًا. كتب لي الكلمة على ورقة، قبل مغادرتي صالون الحلاقة مكروبًا لا أعرف ما حلّ بي.

خفَّف من كربتي قليلاً أن أرمي بكلّ ثقلي في معمعان الشارع.

الفصل الثالث

قُبْلةُ رأس السنة

الشارعُ خليّةُ نحل. البشرُ في دوّامة ساعات المشتريات الأخيرة. صفوفُ طواقم وتشكيلات مصابيح النيون والأضواء التقليديّة التي وُضِعَت منذ بداية ديسمبر لتُطرِّزَ الشوارع والمعارض والسقوف وواجهات المنازل خلال أعياد الكريسمس ورأس السنة، كانت في أوج تألُّقها. لوائح الإعلانات الإلكترونيّة تتعاقب فيها صور قنينات الشمبانيا، السيجار، أقلام الحبر، قنينات العطر الفاخر... حسناوات الدعايات يغتصبن بجمالهن الطافح القلوب الرهيفة للمحرومين من العشق مثلي...

«إذا أردت أن تنجح في علاقة مع فتاة في الشارع فينبغي أن تكون هيئتُك هادئةً، مرحةً، مندفعةً نحوها تجرُّها برقّة وهي تشعرُ

بذلك »، كما يقول لي أصدقائي الراشدون في علم الغزل. كنتُ فاشلاً قبل التنفيذ: كان وجهي وأنا أنغمسُ في الشارع مَنجماً من الربشة والأسى لما حصل لي في صالون الكوافير، ناهيك أنّي أرتجفُ دوماً أمام الجميلات، أنظر لهن بعيون اللهفة التي تخلو كثيراً من الهدوء والجينتلمانية.

أناسُ الشارع يتحوّلون من هذه الساعة حتى صباح الغد أكثر طيبة وأناقة ولطفاً ورقّة من العادة. إبتساماتهم « تتطعفر » أكثر من المألوف، إن كان مألوفاً أن يبتسم الناس كثيراً في هذه العوالم المبرطمة. كلٌّ يفسح المجال للآخر ويطلب منه الإذن بالعبور بملاطفة تتجاوز حدود المعتاد، يزداد عندها استعمال الشيوخ الأثرياء، الكثيرين في هذه المدينة، للصيغة الشهيرة: « أبري فو »، « بعدكم »، عند الدخول لأي باب، مع مظاهر أكثر كياسة من بقيّة الأيام...

للكُلِّ برامجه وطقوسه، فيما أنا وحيدٌ غريبٌ أجهل ما يعنيه رأس السنة وما تحمله الليلة من مفاجآت. لا أدري كيف أقضي نهاية العصر وبداية المساء بانتظار الليل الذي قرّرتُ أن أقضيه في مرقصٍ شبابيٍّ، أعيشُ فيه لحظة دقّة ساعة منتصف الليل، حين يقول كل إنسان للآخر: « بون أنّيه »، « عام سعيد »! متبادلاً معه، إن كان من الجنس الآخر، قبلةً على كل خدّ. إلهي، كم أنتظر هاتين القبلتين على أحرّ من الجمر منذ وصولي لفرنسا قبل ما يقرب من مائة يوم!

قرّرتُ، بانتظار الليل، أن أذهب للسينما علّي أهدّئَ أعصابي، وأهرب من ذكريات صالون الحلاقة ومن شعوري بالضياع في هذه

الساعات التي كان الشارع فيها مكهربًا على غير عادته. توجَّهتُ نحو مجمع سينمات. دخلتُ أُولاهنّ دون أن أشاهد حتى لوحة إعلان الفيلم. كان هدفي أن أنسى الساعات الماضية، أن أقتل الساعات الحاضرة، وأن أستعجل اقتراب ساعة منتصف الليل.

كنتُ وحيداً في صالة السينما! لم أكنْ يومًا ما في صالة سينما فارغة كهذه. لعلّ الرقم القياسي الذي أتذكره هو يوم كنا ذات مرّةٍ خمسةً لا غير في سينما شيناز. كان ذلك في سبعينيات عدن، أثناء «أسبوع الفيلم السوفيتي» الذي ذهبتُ لمشاهدة أحَد أفلامه مع رفيقين من المنظمة القاعديَّة، في آخر سنوات الثانوية العامة التي كنت أذهبُ خلالها كثيراً للسينما دون علم والديّ.

بدأ الفيلم الذي يُعرَضُ لي وحدي. كان اسمه غريبًا: «قشعريرة الهلع». لم يبدأ بداية مُسلِّية: طريقةُ إضاءته، أشكالُ ممثّليه وهيئاتُهم وملابسُهم، ألوانُ الغُرف، ديكور المنازل وحركة الكاميرا منذ بداية الفيلم... لم تكن تُلبِّي حاجة من يبحث عن نسيان هموم اليوم، ومسحها كُلّيةً بإسفنجة الضحك والمرح. لم تمرّ دقائق منذ بدء الفيلم إلاّ وقد زعقتُ زعقةً ملأت الصالة وأنا أرى وجهًا تنتزعهُ يدٌّ من الخلف، تصدمهُ بقوّة مرعبة في زاوية ركن طاولة، تُفجِّرُ في وسطه ينبوع دمٍ يملأ الشاشة... لم أكن مُعداًّ بسيكولوجيا لهذا النوع من العنف، أنا الذي كان يرتعش قلبي عند بدء باب «النقد والنقد الذاتي» في اجتماعات المنظَّمات القاعديَّة، قبل أن يصل إلى أقصى

خفقانه عندما «تتخارت» الانتقادات في كلّ الاتجاهات، خوفًا من أن تَمُسَّني شظية نقدٍ طائشة... هربتُ جريًا من السينما. كان «قشعريرة الهلع» إذن إسمًا على مسمًّى. لم أسمع قبل ذلك أنَّ ثمّة أفلامًا تُصنَّفُ بـ«أفلام الرعب»، ولا أتصوَّرُ أنَّ ثمَّة إنسانًا طبيعيّ التركيب الذهني، بكامل حواسه، يهوى مشاهدة مثل هذه الأفلام. تساءلتُ إن لم أكن أحيا في مدينة ساديّين مجانين!

هدأتُ قليلاً عند رؤية الشارع. كان أكثر ازدحامًا إلا أنَّه كان ملجأً جيِّدًا للهروب من الخوف. توغَّلتُ في حشوده وأفواجه ليَبتلع رجفتي من كابوس ما رأيته على الشاشة. كان بودّي أن أصافح كل إنسان فيه لأُبدِّد قلقي. مشيتُ قليلاً، حاولتُ أن أستعيد جأشي وما تيسَّر من الهدوء النفسي لأستقبل هذا المساء الذي بدأت تزغردُ تباشيرُه وتشتعلُ تشكيلاتُ أنواره الخاصة بعيد رأس السنة. فجأة، صرختُ بلا وعي وسط الشارع صرخةً تُشبه صرختي أثناء الفيلم! ماذا حصل هذه المرّة؟

لم تمطر السماء فئرانًا أو ثعابين أمامي! ما حصل هو التالي: لمس كتفي من الخلف أحَدٌ الناس وسط الزحمة، لا غير. ما زالت أعصابي إذن يقظة متوترة من أثر الفيلم، خائفة من أيّة مفاجأة أو اصطدام.

قرّرتُ العودة لشُقَّتي الصغيرة القريبة من مبنى الكافيلام، كي أهدأ قليلاً. اشتريتُ علبة تونة وقطعة رغيف. كانت شهيَّتي مغلقةً بعد كلّ ما حصل لي. لم أطق تصوُّر أنَّني سأتناول العشاء وحيدًا في

حين يستعدّ العالم حولي لأفضل المآدب في أجواء مشحونة بالبذخ والبهجة والأنس والحميميَّة. توقّفتُ في طريق عودتي للشّقة عند مقهى مجاور للكافيلام لم أجد من معارفي فيه إلا سُودانيًّا لطيفًا جالسًا على كرسيه المعتاد الذي يصلُهُ كل ليلة في وقتٍ متأخِّر. استغربتُ أنَّه كان في بدء المغرب سكرانَ حتى العظم كما يكونه عادةً في آخر الليل. جلستُ معه لأهدأ قليلاً قبل العودة للشقّة والتأهب لقضاء ليلتي الليلاء في المرقص.

أثلج صدري عندما قال لي إنَّ شعري مقصوص بشكل جميل، ورفع من معنوياتي بشكل لا يوصف عندما قال لي إنَّني أمتلك كل الصفات: وسيمٌ جدًّا، ذكيٌّ، طيّبٌ، وَفِيّ... وإنَّني سأحرقُ هذه المدينة بالتأكيد، وإنَّ الجميلات كلهنّ سيسقطن في جيبي قريبًا... استعدتُ جأشي قليلاً بعد هذه العبارات التي لم تضايقني بالتأكيد، وإن كنتُ قد سمعتها من قبل في حين ظلَّ جيبي فارغًا أبدًا، يصرخ عوزَه و«طفرهُ» الشديد أكثر من أي وقتٍ مضى.

ساورني شيءٌ من الريبة لمجرد افتراضي أنَّ صديقي السوداني محرومٌ مثلي، يغازلني ربما بهذا المدح الكثيف في هذا اليوم بالذات، لشيءٍ ما في نفس يعقوب... ودّعتُهُ باستعجال على أصداء عبارة «ما ناقص إلا هذا!» التي تسلّلَت إلى دماغي وأنا أكيل تشكُّكاتي وافتراضاتي حول أسرار تغزّل صديقي السوداني بي، وحول طبيعة نواياه، دون أن أبوح له ببرنامج سهرتي.

العاشرة مساءً.

أخذتُ تاكسيًا باتجاه مرقص شبابيّ هادئ مشهور خارج المدينة سمعتُ عنه كثيراً من أصدقاء الكافيلام. الليلُ شديد التألّق. الشوارع مغسولةٌ حقًّا بالجمال والرِّقة والقُبل والأضواء الجذّابة أكثر من أيّة ليلة أخرى. الناس يسيرون أزواجًا أو مجاميع نحو المطاعم التي تنظِّمُ سهرات خاصة، نحو الكاباريهات والحفلات الموسيقيَّة، نحو حفلات منازل الأصدقاء... الكلّ في غاية احتفاليّته وأناقته. ثمّة انسجام يجذب النظر بين ألوان المعاطف الشتويَّة، والأحذية، والفساتين الأنيقة أو الاستعراضيّة، ونمط التسريحات والماكياج... الشبابُ يُغنّي ويضحكُ في الطرقات، يحملُ قنينات الشمبانيا لتفجيرها في منتصف الليل. تساءلت: لماذا لا يتفجَّرُ la joie de vivre، «فرح الحياة» كما يقولون هنا، في هذه البلدان الغنيّة إلا ليلةً وحيدةً في السنة، في حين يتفجَّرُ في بلدان الفقراء كل يوم، كل ساعة، كل لحظة؟ لماذا لا تعرف الشعوبُ الغنيّة إلا إنتاج السلعة والبضاعة، فيما ننتج، نحن الفقراء، العلاقات الاجتماعيَّة الدائمة والسعادة اليوميَّة؟...

تجاوزنا المدينة. مررنا ببحيرة «الأليبه» المجاورة التي تفصل فيشي عن الغابة التي يقع فيها المرقص. عرفت من سائق التاكسي أنَّ ألعابًا نارية ستملأ سماء البحيرة بعد منتصف الليل سيتَّجهُ نحوها الجميع. قلتُ لنفسي: سأتّجهُ أنا أيضًا نحو البحيرة بعد أن أكون قد تمنَّيتُ سنةً سعيدة وقبَّلتُ كل فتيات المرقص. وضعتُ يدي في جيبي آملاً أن

يتّسع لكل جميلات فيشي! أجبتُ عبرَ الأثير، مخاطبًا بأثرٍ رجعيّ صديقي السوداني الذي تنبأ بسقوط كل الفاتنات في جيبي: «من حَلقَكَ إلى ربِّك!».

في زاوية غائرة من دماغي تردَّدت أصداءُ أغنية محمد عبدالوهاب: «دقّت ساعة العمل...» ذُهلتُ عندما قال لي سائق التاكسي إنَّه سمع في الراديو أنَّ أكثر من ستمائة ألف إنسان يتوجّهون حاليًا نحو قوس النصر في الشانزليزيه في باريس لمشاهدة الألعاب النارية هنالك. قلتُ لنفسي: ربما يلزمني ستمائة ألف قُبلة لأتطهَّر تمامًا من حرماني.

شعرتُ في الدقائق الأولى بكثير من الرهبة: المرقصُ في غاية الجمال والتناسق. تصميمٌ رائعٌ مملوءٌ بالمرايا ومكبِّرات الصوت وأجهزة تسليط وتداخل البقع الضوئيَّة الإلكترونيَّة. في أطرافه حاناتٌ لتناول المشروبات والمأكولات الخفيفة. ساحةُ الرقص تشتعل في قلبه كتاجٍ متوهج. شبابٌ وشابات يضحكون، يرقصون بحرية، تلمع من أعينهم الرغبة القوية في تفجير طاقاتهم في الرقص والضحك والطرب، في جوٍّ مغمور بالموسيقى والمتعة والحميمية. كان واضحًا تمامًا أنَّ روائح ثورة مايو ٦٨ الفرنسيَّة ما زالت، بعد عشر سنوات، تعبقُ في أنوف الشباب وتشحنُ أحاديثهم بهاجس الانعتاق والحب والحرية، وتملأُ سلوكَهم بالرغبة في تغيير الحياة ونسج العلاقات الإنسانيّة الدافئة.

ما إن مرَّت دقائق الرهبة التي تلت دخولي المرقص، إلا وأنا أشعرُ بالرجفة، أنظرُ بعيون اللهفة المحمومة لكل الجميلات... لجأتُ للرقص

لأهدئ من رجفتي واضطرابي. كنت أحبُّ الرقص بفضل المرقص المتاخم لسينما شيناز في عَدَن الذي كنتُ أذهب إليه سرًّا مع صديقين في المنظمة القاعدية، في بعض ليالي الثانوية العامة، دون أن يسمع والداي بذلك من قريب أو بعيد. كانا واثقَين أنَّني أُقضّي تلك الليالي مع بعض زملائي غارقين في المذاكرة والتحضير للامتحانات.

كنتُ حينها أكثر رشاقة مما أنا عليه الآن في «علبة الصاردين»، أكثر وسامة بالتأكيد، وكنتُ أجيدُ الرقص كما كان يقول لي أصدقائي وإن كنت متأكِّدًا أنَّني أرقصُ «الرُوك» على إيقاعٍ أقرب لإيقاع رقص «الشَّرْح» اللحجّي منه إلى إيقاع موسيقى الروك الصاخبة. عمومًا، أرقص كل شيء على إيقاع الشرح اللحجي: الهتافات الشعبيَّة، الموالد الدينيَّة، «نشيد الأممية»، رقص «السلو» الهادئ، أغنية «وان ترا ميرا» الكوبية. حتى رقصة الفالس: الدانوب الأزرق الجميل، أرقُصها شرحًا!

لم يكن بالطبع للرشاقة وحسن الرقص جدوى في مرقص شيناز، لأنَّ المرقص كان قاعةً صغيرة لا تُستنشقُ فيه رائحةُ أنثى. كان صالةً مشحونةً بتسعين رجُلاً من «حمران العيون»، على رأس كل واحد منهم قُبّةُ شعرٍ أكبرُ من شعر أنجيلا ديفيز، وفي وجه كل واحد منهم أنفٌ منفوف، وشارب ملفوف...

كانت القاعةُ صغيرةً جدًّا. رائحةُ العرق تملأ الصالة. كل واحدٍ منّا يلكم الآخر، «يَردعُ» الآخر، يركله، و«يدهفُه»... كنَّا في رقصنا الجماعي المرعوش نشبه موضوع كلمات أغنية ملكة الروك التنكاويَّة

الجميلة التي ذُبتُ إعجابًا بها عندما شاهدتها، في أول أيام رحلتي لمملكة دملان مع الأستاذ نجيب، وهي تُغنّي مفتتحةً مهرجانات «عيد النامس»:

١٨ مليون نامس؟!؟ هييييييييييييي

كل نامس ينطح نامس، حيّا!

كل نامس يدعس نامس، هيّا!

كل نامس يركب نامس، حيّا!

كل نامس يلهف نامس، هيّا!...

في ركنٍ مظلم من مرقص شيناز كانت ثمّة طاولةٌ لبيع البيرة التي كانت تُشربُ ساخنةً في آخر الليل حين يزدادُ «الدَّهف» و«الرَّدع»، لا سيما عندما كانت فرقة نجوم الغناء الحبشيَّة تعزف أغنية الموسم: «جَداويْ يَاويْ يَاويْ، جَداويْ!» أو حين يتوجَّهُ كلّ راقصٍ لجارهِ مُحرِّكًا بشكلٍ تساؤلي سبّابة يده اليمنى على كلمات أغنية فكريّة نخبويّة، رفيعة المستوى الفنّي والبلاغي:

ليش ليش يا جاره، ماتُردّي الزياره؟

زعلانه إنت علينا، وإلا إيش في يا جاره؟

أتذكّرُ بحنين تلك الأيام رغم مآسيها، وألعن هذه الأيام التي أمسينا نرقص فيها مع القحط والجوع وفواتير الماء والتلفون والكهرباء...

عموماً، ثمّة فرقٌ بين مرقص مملوء بتسعين أنفاً منفوفاً وشارباً ملفوفاً كمرقص شيناز، وآخر مملوء بتسعين نهداً متماوجاً طريًّا كهذا المرقص الذي تتفجّر فيه طاقاتي رقصاً كما لم تتفجّر يوماً من قبل. هاأنذا «أشرَح» على أغاني كلود فرانسوا: «ألكساندري ألكساندرا»، بينك فلويد: «موني»، البيتلز: «ياستردي»، رولين ستون: «ساتسفكشن»، وإن كنت أرقصُ الأخيرة مستقيماً في حين يميلُ البقية إلى ما يُشبه الرقص الجالس... غير أنَّ ثراء هذا الكون وغناء تنوُّعه كما صمّمهُ الباري تتجلّى عندما كنت «أشرحُ» على أنغام أغنية السبعينيات: «مابيكور» لفرقة بوني اييم الشهيرة...

رقصتُ على كلّ الأغاني، رقصتُ على أجنحة ملائكة. لكنّي كنت أرقصُ قبل وبعد كل شيء على أغنية واحدة غائبة: «دقّت ساعة العمل»... قلتُ لنفسي: بعد أقلّ من ساعة سأحيّيهن كلّهن متمنياً للجميع «بون أنيه»، سنة سعيدة. بدأتُ «أُنمِّرُ» على إحداهنّ، شعرتُ أنَّ قلبي سينخلع من مكانه عندما رأيتها.

كانت جزائريَّة ـ فرنسيَّة، تمتزج على وجهها معالم أهل جبال القبائل الجزائريين، بأعينهم ذات الألوان الفاتحة، بقسمات وجوههم ذات الجمال الوحشي المتميز، وبشدّة سواد شعرهم وتناثر خصلاته الدائريَّة... كان لها عينا سوسن نفسهما، أهدابها نفسها التي تشبه أهداب عرائس الأطفال... تضاعف جمالُها بفضل ازدواجه بجمال عرقها الفرنسي الذي عصرها رشاقة وأضفى عليها دقة ورقّة في

الملامح. فركتُ يديّ. قلتُ لنفسي: «طريقُ المليون قُبلة يبدأ بقُبلة واحدة». ما أهمّ البداية! ما أهمَّ أوّل قبلة! بها سينفتح طريقي، سينشرح صدري، ستُحلُّ عُقدُ لساني، سيفقهُ قولي، بها سأبدأ حياةً كلّها قُبَلٌ ومناجاة.

الساعة الحادية عشرة والنصف. قرّرتُ أن أبدأ، بعد نصف ساعة من الآن، أولى قبلاتي بتلك الحورية التي اخترتُها لفتحِ شريطِ القُبَل. كم هي فاتنة حقًّا! القبلةُ معها تسوى مليار قبلة، قلتُ لنفسي. من يدري، ربما «سأدحشُ شفايفها»، دون تَعمُّد!

الساعة الحادية عشرة وخمس وخمسين دقيقة. قلبي سيخرجُ فعلاً من بين أضلعي. ذئابُ قرن من الجوع لخَدِّ أُنثى تُكشِّرُ أنيابها في نظراتي. حاولتُ أن أكون في حلبة الرقص أقرب ما يمكن من مُختارتي، وإن لم يخلُ جوارها من أكثر من صديق لها لا سيَّما عدد من الفرنسيات، جزائريٌّ وفرنسيون يبدون جميعًا من الشُّلّة نفسها.

الساعة الثانية عشرة مساء! وثبتُ كالأسد باتجاه مُختارتي. نسيتُ أنَّ ساعتي «السيكو» التي اشتريتها في مطار عدن مقدّمة خمسة دقائق! ربما كانت وثبتي أقرب في نظر الآخرين إلى الاغتصاب منه إلى القُبلة الرقيقة. لا سيما في نظر الشاب الجزائري الذي عرفتُ أنَّه صديقها الحميم. عرفتُ أيضًا أنَّه مفتولُ العضلات، دمُهُ العربي شديدُ الحرارة.

بلمحة بصر، لكزني في العنق وشتمني بالعربية شتيمةً بذيئة لاحظتُ فيها ما لا يقلُّ عن ثلاثة أخطاء لغوية ونحويّة، ثمّ لكمني

لكمةً واحدةً فقط وجدتُ نفسي إثرها مرميًا قرب باب المرقص. ما لم أعرفهُ إلى الآن هو لماذا لم أخسر غير سِنّةٍ واحدة فقط إثر تلك اللكمة القاضية. لحسن حظّي أنّه لم يكن مثل شعب جزائر هذه الأيام الذي يحملُ كل واحدٍ من أبنائه ساطوراً للاحتماء الذاتي بسبب شدّة خوفهم من مفاجآت الإرهابيين الذين لا يتركون بطن حامل دون بقرها ولا رأس عجوز دون ذبحه.

خيطُ دمٍ كان يسيلُ قرب ثغري عندما استيقظتُ على صوت يملأ الميكرفون، يُدوِّي بثلاثة أرقام في عدٍّ تنازلي: تروا، دو، آن. ثلاثه، اثنان، واحد.

الساعة الثانية عشرة تمامًا إذن! توجَّه كلٌّ إنسان للآخر ليتمنَّى له سنةً جديدة سعيدة. تبادل الشبابُ والشابات قبلتين على الخدّين، في لحظات مملوءة بالصفاء والودِّ والمحبة، كنتُ خلالها منهمكًا بالبحث عن سنّتي الضائعة قرب باب المرقص.

لعنتُ اللحظة التي قدّمتُ فيها ساعتي، وأنا أغادر جيبوتي، خمس دقائق كلّفتني ما كلّفتني. أعدتُ عقارب الساعة عشر دقائق للخلف، لتكون مؤخِّرةً خمس دقائق دائمًا. أيقنتُ حينها أنّني وُلدت لأُضيِّع موعد آخر قطار، حتى وإن قدّمتُ ساعتي لتلافي ذلك.

أيقنتُ أنّني ملاكُ النهايات الحزينة.

الفصل الرابع
كوعُ المرأة

قضيتُ صباح اليوم الأول من العام الجديد أضمِّدُ فمي الذي هدأت أوجاعه قليلاً رغم الزلزال الذي خلع إحدى أسنانه. أما جراحُ فؤادي فهي ترفضُ دومًا أن تتبلسم. كما لو خيَّم الأسى إلى الأبد في هذا الثقب الذي كان يسكنهُ نابِيَ المخلوع.

دقاتٌ عنيفةٌ على باب غرفتي تفاجئني عند بدء الظهيرة! توجهتُ سريعًا أفتحه.

ـ وأخيرًا والحمد لله التقينا يا ابن العم بعد فراق طويل! طلبتُ من أصحاب «الكروس» تغيير مدينة دراسة اللغة. وأصرَّيتُ على المجيء لفيشي من أجلك. وافقوا ابتداء من هذا اليوم. شوف كيف صاحبك لا ينسى الأصدقاء الأعزاء! هاه، فين الشاهي «السَّلالي» الذي قلت لك تُطلِّعه على النار؟

لم يكن الزائر ذلك الفتى المغمور الذي عاش بعضًا من الزمن في شارع دغبوس والذي نسيتُ ملامحه الغابرة. صار بدينًا خلال أشهر، يرتدي سروال جينز عريضًا وقميصًا مملوءًا بالأزهار على غرار قمصان أبناء جزر الكاريبي، يحملُ نظّارةً شمسية سوداء مثل نجوم السينما. تنتصبُ على رأسه قبعة قطنيّة بيضاء مثل قبّعات السيّاح الأوربيين الصيفيين من الفئات العاملة الأقل ثقافة عليها اسم ماركة RICARD، شراب كحول اليانسون العمّالي. يحمل كاميرا معلّقةً على الصدر، ويلبس، على نمط موضة السبعينيات اليمنيّة، أحذية مصريّة عالية النعل (أبو دبابة)، تُقلّل كثيرًا من قُصرِ قامته... مازال وجهه جذّابًا كما عرفته على الدوام، بلونه الجبليّ الفاتح، بشاربه وأسنانه المنتظمة البيضاء، بعينيه اللامعتين ذات النظرات الساخرة... مازال أيضًا «قبيليًّا» حتى مخّ العظم، فهلويًّا «يتبرطع» أثناء الحديث والحركة. مازال أيضًا يعرف كيف يجعلني «أتفحررُ» من الضحك...

- تفضل! قلتُ بحرارة، أو بمرارة يجدر القول، كيف عرفت عنوان سكني؟

- عِبْر سفارة الجنوب. ماذا حصل لفمك؟ لماذا هناك ثقبٌ بين أسنانك؟

- ...

وضعَ حقائبهُ وسط الشُّقة، صنعتُ له شايًا ومكثتُ أصغي لانطباعاته الأولى عن الحياة في فرنسا.

بدأ من النهاية، من رحلته من مدينة بيزانسون لفيشي. قال لي إنَّه كان جالسًا في عربة قطار فيها «بضاعة مليح» (يقصد: فتاة جميلة)، «من المُزرِّقات» (يقصدُ: ذات عينين زرقاوين)، «ضرعُها يروي شارع» (يقصدُ: ممتلئة النهدين)...

سأكونُ كاذبًا إن قلتُ إنَّني لم أكن أضحكُ من تعليقات ووصف جعفر، لأنَّني شعرتُ أثناء ضحكي بوجع حادٍّ مفاجئ في الفكِّ من أثر لكمة البارحة. عمومًا، منذ عدن لم أتوقف يومًا عن الضحك من بهلوانيَّة جعفر وطريقة تعبيره. ربما لأنَّه يعرف حقًّا كيف يسكرني ضحكًا. أو ربما لأن كل شيءٍ يضحكني على هذه المعمورة، لا سيَّما تعاساتي وحرماني. أكثرُ ما كان يثير ضحكي في جعفر هو لغته: بلاغة التوريات الرهيفة والاستعارات المكنيّة الرفيعة لم تكن من صفاته وتخصُّصاته الشخصيّة الأكثر تفرُّدًا. سيظهرُ مع ذلك بعد سنين (عندما يصير جعفر شيخًا كبيرًا وقائدًا عسكريًّا مرموقًا) مثقفون سينعتونه بـ «دكتور الدكاترة» وسيطنبون في الحديث عن بلاغة أسلوبه «السهل الممتنع»...

كنتُ أضحك كثيرًا وهو يسترسلُ في سرد انطباعاته عن الحياة الفرنسية، لكنِّي كنت أتساءل قبل كل شيء: كيف سأعيش الآن في هذه المدينة التي هبط فيها من أخشاه وأتحاشاه؟

دعوته تلك الليلة للنوم في شقّتي. لم أكن بحاجة لعزومته لأنَّه يعرف كيف يعزم نفسه على الدوام، ولأنَّ أول يناير يوم عطلة رسميّة تتحوّلُ فيه المدينة إلى صحراء قاحلة.

قلت سأترك له سريري، وسأنام على السرير الصغير القريب من المطبخ، والذي لم أنم عليه من قبل ولا أعرف ما جدواه في هذه الشقّة. كان صعبًا أن لا أكون غير ذلك: تعوَّدتُ أن أُقدِّم للضيف أفضل ما أملك.

نام على السرير الوثير، فيما لم أستطع النوم على السرير الصغير الذي تكالبت بعض الأسلاك المعدنيّة المهترئة في وسطه وتحوّلت إلى نتوء بارز توغّل وسط ظهري كعظمة في الحنجرة، أو كلكمة دائمة انضافت للَكمة البارحة. حاولت مراراً أن أفاوض متن السرير باحثًا عن موضع للنوم أحتالُ به على ذلك النتوء. عبثًا. لا أملكُ هيكلاً غضروفيًّا أو جسمًا شوينجميًا يسمحُ لي بالالتواء عليه أو بالانكماش بجواره.

صحا جعفر في اليوم التالي متألق المحيا، متجدِّد الوحي والبلاغة، وصحوت أحمل ورمًا داخليًّا في ظهري يسامرُ ورم فمي ويناجيه في مأتمه الدائم. توجَّهنا معًا للكافيلام. لم أستطع في المساء التالي أو فيما بعده أن أطلب من جعفر البحث عن سكنٍ منفصل. كان يجدُ كلَّ يومٍ عذراً جديداً لعدم توجُّهه للبحث عن سكن. لم أطرُده لأنِّي لا أعرف التمرُّد كما قلت سابقًا، ولا أعرف حتى الدفاع عن أبسط حقوقي. لم يُعِد لي حتّى سريري المريح. إلتصق به ولم يتزحزح منه تاركًا لي ذلك السرير الذي ظلّ إلى اليوم كابوسًا مؤلمًا في ذاكرتي.

ربما كنتُ قبلها في طريقي لأنسى فضيحة جعفر التي فبركها في منزل سوسن يوم مغادرته شارع دغبوس. ربما كنت في طريقي

لاتّخاذه أنيسًا أُحبُّ مسامرته والضحك وإيَّاه أحيانًا أكثر من أي مخلوق على هذه الأرض، ربما كنت سأُعيِّنهُ أعزَّ وأقرب أصدقائي في فيشي... غير أنَّ تشعبُطهُ الأناني بسريري وعدم تناوبنا عليه دوريًّا على الأقل، جعلني أكرهُهُ إلى الأبد، هذا إذا كنتُ أعرفُ حقًّا أن أكره إنسانًا إلى الأبد.

ربما ينسى الإنسانُ أشياء كثيرة في حياته، لكنَّه لا ينسى سريرًا يتوسطهُ نتوءٌ مؤلم نام فوقه مجبرًا بمرارة. لا سيَّما إذا تمّ ذلك في عقر داره، وإن ظلّ هو وحدهُ يدفعُ إيجار شقّةٍ يسكنُ بها ضيفٌ دائمٌ يحتلُّ سريره. لا ينسى أيضًا دموعًا سريّةً كانت تسيلُ داخله في بعض تلك الليالي التي تحوَّل فيها النوم إلى عذاب. لم أطرده من شُقّتي مع كلّ ذلك! كم أُشبِهُ بسلوكي هذا مدينةً بعيدة اسمها عدن، تفتحُ دومًا أبوابها للغريب الذي يلاحظُ من أول نظرة كم هي طيبةٌ وثيرة. طيِّبةٌ ووثيرةٌ جدًّا إلى درجة أنَّه لا يحبُّ بعد ذلك المشي إلا ممتطيًا على أكتافها.

ما أثارني دومًا في شخصية جعفر هو أنَّه عندما يصلُ مدينةً جديدة يتميّز سريعًا عن الآخرين من أقرانه، مثل تميُّزِهِ عن الذين هربوا من أوضاع الشمال المزرية عند لجوئه إلى عدن، وعدم بحثه مثلهم عن التعليم فيها أو الحصول على منحة دراسيَّة للخارج، تميّز في فرنسا أيضًا عنّا جميعًا بشيئين على الأقل.

أوّلهما هو أنَّه بعد أكثر من ثلاثة أشهر ما زال لا ينطقُ كلمةً فرنسيَّةً واحدة تستحق الذكر. لا تدخلُ رأسه أيُّ كلمةٍ مهما حاول

التقاطها وتذكُّرها. لا يحب بتاتًا سماع الفرنسية في الصباح الباكر. لا يقبلُ سماع كلمة فرنسيَّة واحدة قبل أن يشرب فنجان شاي العصر ويبدأ بعد ذلك بـ «تفتيح شرايينه» كما يقول ببعض المشروبات التي «تُجلِّس عقلهُ» كما يقول أيضًا.

لن أنسى غضبه ذات يوم، بلهجته اليمنيّة المحليّة على عجوزة فرنسية قابلتهُ على سُلّمِ عمارتنا وسألته سؤالاً يبدأ بـ: «كاسكوسيه...»، «ما هو...».

- يرحم والديك يا حجّة! خلّينا نطلب اللّه من الصبح! اتكلمي عربي، مَوْ هذا: «كاسكوسييه، كاسكوسييه...» من صبح الله! عاد في عقل في هذه البلاد وإلا لا؟

قبل أن يصيحَ باتجاه باب «شُقَّتنا» يخاطبني بصوت عال اخترق باب الشُّقّة المغلق:

- باللّهّ قل لها ياعزّي كم يكسر رأسي أن يتحدَّث معي أحد بالعجمي على الريق.

أن يكون دماغه متحجِّرًا جداً أمام اللغات فذلك ليس بنادر. ثمّة في الواقع أكثر من إنسان من النوع نفسه، بعضهم عباقرةٌ مرموقون. غير أنَّ ميزتهُ الثانية علينا معشر الطلاب من أقرانه كانت أكثر تفرُّدًا: لم يكن يفكِّرُ بالصداقة مع فتاة، ناهيك عن الحديث عن علاقة رقيقة. كان يقول: هذه «نساسيع»[١]، مش كلام رجال.

١ - نساسيع: ترّهات، أشياء صغيرة دون أيّة أهمية.

للفتاة، في قيم جعفر ومبادئه الجوهرية، سعرٌ مثلُ البضاعة: إما سعرٌ رخيص إن كان لمجامعة ليلة، أو سعرٌ ثمين إن كان لنكاح عُمرٍ تتحوَّلُ بفضله المجامعة مجانية مدى الحياة الزوجيَّة. قال لي أكثر من مرّة:

ـ أنا قبيلي يا خبير، من النوع الأصلي. عندي كل شيء بحسابه. أعرفُ سعر المرأة من رؤية درمِها[1]. أعرفُ البضاعة المليح والبضاعة البطّال من الدّرم.

لم أكن أعرف أن لكوع رِجْل المرأة، عرقوبها، كلَّ هذه الأهميّة إلا بفضل جعفر: هو موضعُ عقلها، مؤشرُ ثمنها، موقعُ جمالها... لذلك كنتُ أحيانًا أستفزُّ شهوات صديقي العزيز عندما أقول له إنَّني رأيت فتاة في الشارع «درَمها» مليح.

عند وصوله لفيشي شرع بالتعرُّف على أماكن وجود المومسات والمقارنة بين الأسعار. «البضاعة المليح»، حسب دراسته وتحليله الدقيقين، توجد في شوارع المومسات في مدينة كبيرة مجاورة لفيشي: كليرمون، أما في فيشي الأرستقراطيَّة فالبضاعة غالية ونادرة، وتريد من المرء «حُبّ ومحبابة» ودلع كثير، على غير حال بضاعة كليرمون: بضاعة رخيصة ومضمونة و«قَطْف خَبَر»، بضاعة «شُور وقُول» كما كان يقول...

تغيّر نمط حياتي كليًّا منذ مجيء ضيفي الدائم. فقدت الأمل الذي كان يوهجُ حياتي في الشهور السابقة. كرهتُ شُقّتي التي لم

١ ـ الدَّرَم: عرقوب أو كوعُ الرِّجْل.

تَعد شقّتي. صرتُ أعود إليها متأخِّراً جداً في الليل. لجأتُ كثيراً للثقافة والتعليم الكثيف للهروب من ضعفي وهزائمي وانكساراتي. أعترفُ مع ذلك أنَّ ثمّة سعادةً ما جنيتها من هذا النمط الجديد من الحياة: حضرتُ كلّ الفعاليات الثقافيَّة اليوميَّة للكافيلام وناديه، كلّ الرحلات المنظّمة لزيارة المدن والأرياف، كلّ المهرجانات الموسيقيَّة والمسرحية والفولكلوريَّة... بدأتُ أقرأُ الصحف والمجلات وأتهجّى الكتب الأدبيَّة وأتابع الأخبار والجدل السياسي والثقافي يوميًّا.

كنت أتناول وجباتي يوميًّا في مطاعم المدينة بفضل بطاقة الكافيلام التي تسمح بذلك بسعر مُخفّض مدعوم، ولم أستوعب لحظةً واحدة كيف لا يستغلّ الآخرون هذا «الحظّ التاريخي» وكيف يفضلون الطباخة في المنزل، لا سيَّما جعفر.

كان فخوراً باكتشافه معلبات عليها صور دجاج تباعُ بأرخص الأسعار، كما لاحظ. ظلّ يطبخها عدّة أسابيع يوميًّا، مُخفيًا سرّ اكتشافه على الجميع لينعم به وحده، قبل أن يدرك أنَّها معلباتٌ لتغذية الدجاج وليست معلباتُ دجاج كما ظنّ!

قال لي ببراءة: واللّه غرّتني يا ابن العم صورةُ الدجاجة الملصقة على العلبة. لم أكن أتصوَّر أنَّ عقول «أهل الكتاب» وصلت إلى حماقة صناعة معلبات لتغذية الدجاج والكلاب والقطط.

أراني ذلك النوع من المعلبات، ذات ليلة عدتُ فيها متأخِّراً كعادتي. سكرتُ حينها ضحكًا وصفحتُ عن نصف مصائبه وفضائحه.

قال لي: بعد هذه الأسابيع التي ربطتني فيها مع الدجاج علاقة «عيش وملح»، أخشى أن «أتدجدج» (يقصد: أن أتحوَّلَ إلى دجاجة). ثم كان «يُكتكت»: كوت كوت كوت... وسط الليل ليوهمني بتدجدجه أثناء النوم. أو ليضحكني بالأحرى. كنتُ والحق يقال أضحكُ كطفلٍ وأعفو عن بعض نصف ما تبقّى من فضائحه ومصائبه التي لم أسامحه عنها بعد. يستعيدُ أيضًا ذكريات اسم قريته في دملان: «قرية الزرائب»، ويقول ضاحكًا: واللّه يا صاحبي بعد أن صار بيني وبين الدجاج عيش وملح، أشعر أنَّني صرتُ بجدارة ابن «قرية الزرائب». كنتُ أسكرُ عمومًا من الضحك عندما كنت أصغي له يسخر من هفواته، لأنَّني كنتُ مثله أيضًا أسخر بولعٍ لا ينضب من تعاساتي وهفواتي.

فيما يتعلّق بي، كنتُ سعيداً بقضاء سنة كاملة أتناول فيها الوجبات الفرنسيَّة التي أموتُ في حبّها في مطاعم المدينة. لم ينقصني إلا أن أتناول العشاء في مطعم رومانسيٍّ في فيشي «رأسًا برأس» (كما يقولون بعبارة فرنسيَّة رقيقة أترجمها هنا ترجمةً حرفيّة من باب اللهو) مع فتاة أحلامي. لأقُل بالأحرى: لم أتناول العشاء معها «وجهًا لوجه» بثنائية حميميَّة تتعانقُ فيها أعينُنا دون توقّف، «واحِدان» كما تقولُ الأديبة الرائعة هدى العطّاس، في ركن خفيفِ الضوء، يتوسَّطُنا شمعدان من الطراز «الريترو»، يحملُ شمعتين تطلقان معًا أشعةً ممتزجةً هادئة... كنتُ أخلقُ في مخيِّلتي تلك الأمسيات الرومانسية، أعيشها معها ثانيةً ثانية.

كانت حينها أمامي بفساتين ساتان خفيفة رقيقة، أختارُ ألوانها أنا وحدي. أختارُ مواضع فراغاتها وغيابها عن الساعدين وأعلى

الصدر كما أشتهي. أناغمُ سيولة حريرها مع تماوج جسد فتاة أحلامي، مع سيولة شعرها وبريق نظراتها.

عندما يحرمني الواقع مما أهفو له لا تبخل به عليّ أخيلتي واستيهاماتي: لم أترك مطعمًا رومانسيًّا دون أن أدعو معشوقتي الافتراضية لتناول العشاء الذي كنت أنسجُ سيناريو حواره كما يحلو لي، وحيث ما أهوى: على بحيرة الأليبه، في كل المطاعم المتناثرة على منتزهات وحدائق مترامية الأطراف شيِّدت للاستحمام والنزهة والعلاج والراحة. لعلّي لم أقل لكم حتّى الآن إن فيشي مدينةٌ شهيرةٌ بينابيعها ومياهها المعدنية التي يلجأ لها كثيرون من كل أنحاء الدنيا لجودة حماماتها المعدنية الحارة ومراكزها الشهيرة المتخصِّصة في العلاج الطبيعي وإِعادة النقاهة والتحسين والتجميل... في «التكبيس والتمليس» الذي يريح الذهن والروح والجسد. مدينة مطاعم رومانسية شهيرة أيضًا. مدينة لراحة الأثرياء قبل كل شيء.

تناولت أكثر من عشاء رومانسي مع معشوقتي الافتراضية في أحياء فيشي الأكثر بورجوارية أيضًا. ألبستُها أثناءها أفخر الفساتين، عطَّرتُها بأعبق العطور. غرقتُ خلالها في عينيها المبللتين ببريق الرغبة، المملوءتين بكلمات لا تُنطق...

أبو عبدو البغل

كنت أمارسُ مع نفسي أحيانًا «النقد الذاتي» لاختيار هذا النوع من المطاعم التي لا تلائم قناعاتي الفكريَّة البروليتاريَّة ومواقفي العملية المعادية للرأسماليَّة. عبثًا! أموتُ حُبًّا رغمًا عنّي في المطاعم والشوارع الأرستقراطية، أُفضِّلُها دومًا للعشاء والتسكُّع... لكنِّي أفضِّل بما لا

يقاس الرفيقات البروليتاريات للمسيرات الاحتجاجيَّة والمظاهرات السياسيَّة. أما السرير فلا أحجزُهُ إلا للبرجوازيات الصغيرات الجميلات جداًّ فقط، المثقّفات منهنّ على وجه الخصوص. أفضِّلهنّ وحدهنّ لتلك المهمة، لأنهنّ يذهبن دومًا إلى أقصى حدود العشق، يعرفن كيف يحملنني بعبقرية كلماتهن المتجدّدة إلى أطراف فضاءات اللذّة. أسقطُ صريعًا أمام سحر كلماتهن لا سيّما عند مهامستهن لي في الأذن بتفاصيل ما يدور في الطبقات السفلى من رغباتهن، بمقترحات تنويعات مواضع العشق وأنغامه. وحدهنّ يعرفن بكلماتهنّ كيف يُشعلنَ جنوني، كيف يفجّرن مياه شهواتي الجوفيّة... صفحًا، اعذروني إن كانت أخيلتي مدججةً بنظريات غريبة، وإن كنتُ خلال عشقي الافتراضي غنجًا، انتقائيًّا، خائنًا لأولويات «الانحدار والانتماء الطبقي» بشكل خاص، ولأُسس وأركان الصراع الطبقي بشكلٍ عام، وإن لم تعذروني فاعلموا أنَّني لا أعذر نفسي أنا أيضًا، لأنَّني أكيل النقد الذاتي الصارم لأخيلتها الفائضة، لنزواتها المارقة، لميولها البورجوارية الصغيرة، لِتَطَرُّفِ استيهاماتها وتوغّلاتها البعيدة.

الكافيلام أيضا صار ملجأً جميلاً للهروب من شُقَّتي. كنتُ أحبّ فيه كثيراً تجدُّدَ طلاّبه. معظمهم يأتون هنا للدورات القصيرة. وجوهٌ تأتي وأخرى تبتعد. لا يمرُّ أسبوعٌ دون أن يتجدَّد طلبةُ كلِّ صف. لعلّ أجمل أيّام دراساتي في الكافيلام كانت خلال شهري مارس وأبريل. وجدتُ نفسي في صفٍّ دراسيٍّ بجانب مناضلٍ شيوعيٍّ أسباني، خوان (هرب من سجون فرانكو وصار لاجئًا سياسيًّا في

فرنسا) وماركسيٌّ إيراني، رِفعَت، ذي ثقافة فلسفيَّة وتاريخيَّة واسعة. كان الأول قصيرًا ممتلئًا عليه طلعة قشطاليّة جليّة. وكان الثاني طويلاً رشيقًا بهيّ الطلعة كأميرٍ فارسيٍّ من أمراء ألف ليلة وليلة. في الصف نفسه شبابٌ من ألمانيا الغربية وبعض دول غرب أوروبا المجاورة. كُنّا، ثلاثتنا، ندخل في نقاش حامي الوطيس معهم حول أهم مواضيع الصحف وأحداث اليوم، طوال الساعات الدراسية المكرّسة لتعلُّم اللغة عبر الحوار الجماعي.

يتّجه النقاش غالبًا، بوعي أو بلا وعي، نحو مواضيع المقارنة بين الحياة في العالمين الاشتراكي والرأسمالي. يتحوَّلُ الصف خلالها إلى برلمان، أو إلى ساحة حرب عصابات. مُدرّسُ الكافيلام الفرنسي ذو الميول اليساريّة يتحوّل في أكثر الحالات إلى «مُفارع»، لا سيما عندما ينعتوننا بالستالينيَّة وعندما نتّهمُهم بالتبعية للاستخبارات الأميركيَّة. ثمّ يتحوّلُ الجدل إلى عراك بلا مُفارع عندما يتحدَّثون عن عدم وجود الحريّة في المعسكر الاشتراكي، ويسخرون من سور برلين... ندوِّخُ بهم حينها بالحديث عن جرائم الاستعمار وحرب فيتنام، عن مذابح بينوشيه في تشيلي...

الحقّ أنّنا كنّا «نُعكّرُ» بهم في السياسة: خُوان يتبطرق في الحديث عن أوضاع الشغيلة في الغرب وهمومهم ومعاناتهم. رِفعت «يتبحبح» في الحديث عن «سمة العصر» وحركة التاريخ، وأنا أتحوَّل إلى ناطق رسميٍّ باسم تطلُّعات العالم الثالث، وخبيرٍ مُنظِّرٍ في تجربة بناء الجسور السريعة جدًّا جدًّا التي تربط مراحل ما قبل الرأسمالية

بالاشتراكية، أقصد «مرحلة الثورة الوطنيَّة الديموقراطيَّة». دون أن أنسى عند اللزوم الخوض في الموضوعين الأثيرين الآخرين: الموقف الطبقي من الصراع الصيني ـ السوفيتي، والتجربة الاشتراكيَّة اليوغسلافيَّة.

غير أنَّ النقاش يتحوَّل إلى مونولوج بينهم لا غير عندما يخرج الحديث عن مواضيع السياسة. لا نملك كلمةً نقولها عندما تتوغّلُ مواضيع النقاش في قضايا مثل: تلوّثِ البيئة، التركيب النفسي للإنسان ورغباته الدفينة واستيهاماته الحميمة، مناهج وآثار الدعاية، جديد الموسيقى والسينما... يصولون ويجولون في أفكار وتفاصيل نجهلها كليّةً إن لم نغدُ صمًّا بكمًا عميًا فهُم لا يفقهون...

كان خُوان ورفعت مناضلين صادقين رائعين حقًّا تربطني بهما علاقة عميقة. كلاهما حاولا أن يعرفا كل شيء عن اليمن وتاريخ الثورة اليمنيَّة. خوان، في كل غداء نتناوله سويًّا، كان يسجِّلُ كلّ ما أقولُ له: حفظ عن ظهر قلب كلّ تواريخ الانقلابات الرجعية والخطوات التصحيحيَّة، الحركات اليساريَّة الطفوليَّة الفوضويَّة واليمينيَّة الرجعيَّة الانتهازيَّة، كل تواريخ «الانتفاضات الفلاحيَّة» في جنوب اليمن، تاريخ أشيد ومنظمة الطلائع واتحاد الفلاّحين اليمنيين الديمقراطيين، أسماء كل القادة الأميِّين ونصف الأميِّين الذين حكموا اليمن شماله وجنوبه... بدوره، لم يُقصِّر بأخذي في سيارته ليطوف بي في كل المدن المجاورة، ليريني فيها: خلايا الشيوعيين الأسبان ونقاشاتهم الثورية، اجتماعاتهم، نضالاتهم، أوضاع الشغيلة الأسبانيَّة والطبقة العاملة الفرنسيَّة... حضرتُ وإيّاه فقط لحظات حميميَّة متنوّعة لا سيَّما

ولادة طفلته الأولى في مستشفى أطفال في مدينةٍ مجاورة لفيشي. كنت أوّل من هنأ زوجته المناضلة الأسبانيّة ماريا بطفلتهما سيلفيان.

أما رِفعت فكان شغوفًا جدًّا في التاريخ القديم. وأنا لا أعرف أشياء كثيرة عن تاريخ اليمن القديم الذي يسألني عنه. عندما حدَّثته عن الملكة بلقيس، قال لي إنَّه يسألني عن التاريخ لا عن الأساطير. قلت لنفسي: رِفعت هو الآخر استخبارات أميركيَّة! قبل أن أعرف، بعد سنين من ذلك، أنَّه لا يوجد مؤرخٌ واحد، دوليٌّ أو يمني، لا يعتبر ذلك الاسم خارج مجال الأساطير...

للهروب من شقّتي كان هناك قبل وبعد كلّ شيء: إيمانويل، بوهيمي أرجنتيني رائع وصديق حميم جدًّا. كان نحيفًا، لطيف القسمات طويل الشعر، لا تطيبُ له الحياة عادةً إلا في أحضان الشارع. معًا كنّا نطوف المدينة كلّ ليلة بدراجته النارية، «نغلقُ كل المقاهي» في آخر الليل، كما كنّا نقول، أقصد نظلّ في كلّ مقهى حتّى لحظات انغلاقه، كما لو كان ذلك واجبًا دينيًّا علينا، قبل التوجُّه إلى مقهى آخر.

كنتُ أطوي وإياه فيشي كما كنتُ أطوي شوارع عدن وكثبان ضواحيها، بتلك السعادة الطفوليَّة اللذيذة نفسها التي لا تضاهيها سعادة. أعودُ بعدها للنوم في سريري الصغير، أرتمي جثّةً هامدة إذا استطعتُ نسيان نتوءاته وعدم سماع نخير جعفر، أو تنفُّس بقايا روائح معلبات دجاجه الأثيرة.

في الربيع عشتُ حبًّا حقيقيًّا عارمًا في فيشي!

الفصل الخامس
شيطانُ النهايات المشينة

حضرتُ في الربيع مهرجانًا دوليًّا للرقص الفلكلوري الشعبي في مدينة قريبة لفيشي. نُقلت للمستشفى، من وسط المهرجان، على أثر ألمٍ مفاجئ في أسفل البطن. وصلتُ إلى قسم الحالات المستعجلة في المستشفى المركزي لفيشي في وضع خطير. كنتُ «سعيداً» مع ذلك، إذا جاز القول، لأنَّني سأشرحُ بالفرنسيَّة أنا نفسي ما أشعرُ به، وسأترجمُ اسم مرضي الذي كنتُ متأكِّداً منه: «لُو دُوَا سُوبْلِيمَنْتير»، «الأصبع الزايدة». كنتُ مسروراً بترجمتي هذه. لم أكن أعرف بعدُ أنَّها انفجرت بشكلٍ مفاجئٍ غريب، ولو لم أُنقل سريعًا إلى المستشفى حينها لكنتُ اليوم في علِّيين وحَسُنَ أولئك رفيقًا.

حشدٌ من الأطباء والممرضات. طلبةُ الكافيلام الذين تركوا المهرجان ورافقوني إلى المستشفى كانوا يحيطون ويهتمّون بي كثيراً.

ـ أين تتألـم، ما بك؟ سألني أحد الأطباء.

ـ لُو دُوَا سُوبْلِيمَنْتِير، لُو دُوَا سُوبْلِيمَنْتِير، أنا متأكِّد من ذلك...

علامات استفهام على كلّ الأوجه، لا أحد يفهم ما أقصده. مع ذلك كنتُ متحذلقًا أكثر من أي وقتٍ مضى، واثقًا أنِّي نطقتُ الكلمتين بكل فصاحة ورغبة في إثارة الإعجاب (إلهي، حتى في سرير الموت كنتُ أريد إثارة الإعجاب!). كرّرتُ:

ـ لُو دُوَا سُوبْلِيمَنْتِير، لُو دُوَا سُوبْلِيمَنْتِير، أنا متأكِّد...

زاد الاستغراب الجماعي، والنظرات التي تحزرني كما لو لم أكن طبيعيًّا.

أشرتُ بسبَّابتي نحو أسفل البطن، صائحًا بأعلى صوتي بفرنسية شبهِ غاضبة: لُو دُوَا سُوبْلِيمَنْتِير. يعالجُ بسهولة في كل مكان في العالم، حتّى في اليمن!

زاد الاستغراب من حالتي العقليَّة، وشعرتُ بأنَّ الجميع ينظرُ إليّ نظرةً واجمةً كما لو قلت عبارة بذيئة وأنا أؤشر لأسفل بطني وأتحدَّثُ في الوقت نفسه عن إصبعٍ زائدة!

سمعتُ ضحكةً بين الحشد من وجهٍ لا أراه. ثمّ رأيته ذلك الوجهَ الملائكي لأنَّه اخترق الدائرة المحيطة بي عندما سمعني أُشخِّصُ مرضي، ورأى وجوم الجميع حولي. لم يكن وجهًا يُنسى ذلك الوجه الملائكي الضاحك.

كتمت بقايا ضحكتها. قالت لي باللهجة اللبنانيَّة مباشرة، وبصوت سلسبيل زلال عذب سال على إيقاعه فؤادي:

ـ لا يُسمُّوها هنا: الصبع الزائدة. لها اسمٌ من أصلٍ لاتيني: ايباندسيت، مجهولُ المدلول للمستمع بشكل عام. لا علاقة له بالصبع في كلّ الأحوال.

حدَّقت فيها رغم أوجاعي، دون أن أصدِّق عينيّ وأذنيّ حقًّا، كما لو كنتُ فعلاً أمام نبيٍّ منتظر منذ ألف قرن. كانت ذات جمالٍ اقتلع قلبي. عرفتُ فيما بعد أنَّها ممّرضةٌ لبنانيَّة ـ فرنسيَّة في الثانية والعشرين من العمر، أنهت كليّة التمريض هذا العام، وهي حاليًا في نهاية سنتها المهنيّة الأولى.

ابتسمت لي بكل عذوبة، أحاطتني برقَّةٍ لم أكن أحلم بها، واهتمت بي بشكلٍ شخصيٍّ متواصل.

سارت الأشياء بعد ذلك بعجل. قُرِّر أن تُعمل لي عمليةٌ على التوّ. كان الملاكُ الحارس الصغير بجانبي. ساعدني في كل شيء. لم يتوقف عن الحديث والتفاعل معي، كما لو كنتُ أعيش أحد أحلامي. لأن فتيات أحلامي، هُنَّ أيضًا، لا يتوقفن لحظةً عن الحديث والتفاعل معي خلال أخيلتي ومناجاتي الافتراضيَّة.

اسمها: تغريد. لا أستطيعُ وصف جمالها لأنَّه لا يوصف.

لا أستطيع وصف صوتها، وإن أدركتُ عند سماعه أنَّ ثمّة في طبلة أذني نقاطًا عصبيّةً حسّاسةً جدًّا للصوت العذب تشعرُ بمتعة

ولذّة هائلتين عندما تلمسُها نبراتٌ رقيقةٌ سائلة. ثمّة دومًا لذّةٌ بيولوجيةٌ تبلِّلُ طبلة الأذن، يزدادُ فيضها في حالتي لأنَّ مخازن لذّتي مازالت عذراء طافحة...

بعد ساعات قلائل كنتُ جاهزًا لأبدأ التبنيج. غسلتني تغريد بابتساماتها، وتهدئتها، وملاطفتها...

قبل التبنيج مباشرة، وضعت تغريدُ ملابسي الشخصيَّة في دولاب غرفتي. قلتُ لها: لو سمحت أريد قميصي، ثمّة شيءٌ أريدُ استخلاصه منه.

أحضرته. أخرجتُ قطعة شوينجم كانت في جيبه. قلت:

ـ اسمحي لي بإهدائه لك. من يدري ربما لا أستيقظُ بعد ذلك...

ـ شكراً، ستستيقظ بالتأكيد! لكنِّي لن ألوكه، ردَّت. ثمّ أردفت:

ـ سأضعهُ هنا في القلب!

وضعتهُ في جيب قميصها الأبيض، الجيب المتأرجح فوق نهدها الأيسر، على حافة القلب مباشرة.

عشقتُها من تلك اللحظة مباشرة. أقصدُ من تلك الثانية التي استعملت فيها «الإسم الأعظم»: القَلْب. هذه الكلمة التي تصرعني بالكلمة القاضية. بدأ التبنيجُ بعد ذلك سريعًا. غِبتُ عن الوعي في

لمحة بصر، لم تسمع تغريدُ خلالها ردّي الذي تَمْتمتُهُ في طيّات الإغفاء:

ـ أنا أفدي قلبك!...

لو لم أصحُ من التبنيج لمُتُّ عاشقًا. أتمنى اليوم، وأنا في «علبة الصاردين» لو لم أصح من ذلك التبنيج. لأنّني سافرتُ خلاله فعلاً على بساطٍ سحريٍّ في فضاءات ترفل بالسعادة والعشق الجارف.

صحوتُ من التبنيج. خيطٌ ملصقٌ في الجهة اليمنى من خاصرتي يمنعني من الحركة.

بحثتُ بنظراتي عن تغريد. لم تكن في الصالة. لعلّ دوامها اليومي سيبدأ بعد ساعات. عبثًا. انتظرتها صباح اليوم التالي. لم أرها. هل كانت حلمًا؟ مجرَّد طيفٍ في أخيلة مريض؟ أو ظلٌّ عابرٍ في لحظة تبنيج؟...

لم أرها. تذكَّرتُ الأحداث التي علّمتني الكلمة الفرنسيَّة: الإيبانديسيت. كيف تعلّمتُ هذه الكلمة إن لم تكن تلك الأحداث حقيقة؟ هل ما حدث لي هو تبنيجٌ فعلاً أم استبدال أرواح، وُضِعَ خلالهُ في جسدي روحُ شخصٍ آخر له حياةٌ أخرى وتاريخٌ آخر؟

سألتُ ممرِّضة النوبة التي كانت متقدِّمةً في السن، حيويةً وطيِّبةً جداً:

ـ ما معنى كلمة: الإيبانديسيت؟

أشارت مبتسمةً في اتجاه الضماد الملصق بخاصرتي، وكأنّ «المعنى في خاصرة الشاعر»، إذا جاز القول. الكلمةُ موجودةٌ إذن في القاموس: لم أحلم إذن. طلبتُ منها إحضار قميصي الموجود في الدولاب المجاور لأتأكَّد من غياب شوينجمي، وأثق بأنّني لم أكن أحلم إطلاقًا. أحضرته، لم يكن ثمّة شوينجم. تمتمتُ أمام الممرضة التي لم تفهم كلمة مما كنت أرطنه بالعربيّة: لم أحلم إذن! لم أحلم إذن!

ثمّ عدتُ لهرطقتي قائلاً: ربما لم يكن ثمّة شوينجم في جيبي إلا في الحلم، وربما قابلتُ أنا وحدي كلمة الإيباندیسیت يومًا ما قبل أسابيع، في كتاب أو درس أو صحيفة.

عاد إليّ الأمل حين قلتُ لنفسي: لم أخترع اسم تغريد الذي يحتلّني منذ صحوتي. من أين جاء هذا الاسم إذن؟... عليَّ أن أسأل قبل أن أجنّ هذا السؤال:

- أين تغريد؟ سألتُ الممرِّضة.

- في إجازة! اتَّصلت تطمئنُّ على صحتك بعد العملية مباشرة وأخبرناها أنك على ما يرام.

لم أُصدِّق ذلك. هل ما زلتُ أحلم؟ فتاةٌ تتصلُ تلفونيًّا، تسألُ عنّي، تنصُّ هديّتي الرمزيّة على ضفاف قلبها... تضاعف ولعي. صرتُ أنتظرها كلّ يوم، وكل لحظة. لم تَعد بعد من إجازتها كما يبدو. قُرِّر أن أغادر المستشفى بعد أسبوع من العملية. غادرتهُ. لكنّي عُدت يوميًّا لأتسكّع عند بابه قبل بدء كل نوبة، علّي أرى سيارة تغريد تصلُ إلى محطّة سيارات المستشفى.

ذهبتُ كلّ يومٍ للعلاج في المستشفى مُخترعًا أمراضًا لم يسمع عنها أحد: أشعرُ أحيانًا بنملٍ في الخنصر يقفز إلى البنصر قبل أن «يحنبَ» في نقطةٍ ما بين الكتف والعنق، أشعر بذباب يئزّ داخل العين، أشعرُ بمزيجٍ من «الضريب واللاصي» اللذين وجدتُ صعوبةً بترجمتهما إلى الفرنسيَّة... لم أر تغريد في كل مرّة رغم أني تنقَّلتُ في المستشفى من قسمٍ إلى قسم...

ثمّ بعد شهرٍ كامل من عمليتي رأيتُها تصِلُ المستشفى على سيارة رونو ٥، بجانب شابٍّ يقودُ السيارة. تخرج منها، تودِّعُهُ بقُبلة على الشفايف قرب النافذة...

أمَّ الصبيان! هي مزوّجةٌ أو مرتبطةٌ إذن. حاولتُ الاختفاء لكنَّها لمحتني. أشارت لي من بعيد بحفاوةٍ ملحوظة. أوقفت بإشارة يد سيارة رفيقها الذي كان يحاولُ الاستدارة وطلبت منه النزول.

جاءا معًا نحوي.

ـ هو وجدان الذي حدّثتُك عنه خلال الإجازة، قالت لرفيقها. ثمّ توجّهت نحوي: سمعتُ أنَّك بخير، قالت لي. أقدِّم لك زوجي: بُطرس. سنكون سعداء لو زرتنا بعد أيام ورأيت طفلنا: سامي.

غادرتُ المستشفى. عدتُ نحو الكافيلام أحمل هزيمتي الجديدة كنعشٍ ثقيل.

الحبُّ سراب.

لا مكان لي في قارة الحب.

ولدتُ لأصل خمس دقائق بعد موعد الحب. ولدتُ لأُضيِّع موعد آخر قطار.

كنتُ أبكي في داخلي. تألّمتُ جهراً أمام صديقي الإيراني رِفعَت. قلتُ له:

ـ اللعنة! لا أفهم شيئًا! لماذا قالت لي إذن: «سأضعهُ على القلب؟» عندما ناولتها قطعة الشوينجم!

ردّ: الممرضات طيِّبات رقيقات جدًّا في هذا المستشفى بشكل خاص، كما لاحظتُ أنا أيضًا. ثم أضاف بماركسيته التي تُورِّم لي أحيانًا بالخصيتين:

ـ لعلّها تعيشُ ظروفًا موضوعيةً وذاتيةً رقيقةً جدًّا: الحياةُ الرقيقة تعلِّمُ السلوك الرقيق، والحياة القاسية تعلِّمُ السلوك القاسي. بكل اختصار، لا أظنُّ أنَّ ظروفها الموضوعيَّة والذاتيَّة مملوءة بـ«الجلافة» والغلاظة والوحشيّة.

ديالكتيك خالص!

و.ه.م.ط.ا: وهو المطلوب إثباته، كما كانت تختتمُ براهينُ نظريات مناهج رياضيات القرون الوسطى.

العلَّةُ فيّ إذن: أُذني، مثلُ خليَّات رأسي التي ارتجفتُ عندما لامستها أصابع كارولين، غير آلفةٍ على الرقّة. تصرعها الكلمات الرقيقة، تدوِّخ بها على التو.

حتى جعفر شعر أنَّني أُعاني انتكاسةً واكتئابًا حادّين. سألني عمّا حصل. شرحتُ له. ردّ: «ألم أقل لك إن قصص الحب والمحبابة نساسيع وكلام فارغ لا غير؟، إذا أردت فعلاً أن تطعم بضاعة مليح من صدق، فسآخذك معي لكليرمون، أنا نفسي. حرام طلاق لو طعمتها مرّة واحدة، المرّة الثانية سوف تتشعبط بنفسك في ظهر القطار المسافر لكليرمون. استحي على نفسك يا ابن العم، أنا أجيت من طرف الدنيا أوانسك، وأنت رافض تجي معي لكليرمون!».

كان مجرّدُ الحديث عن موضوع المومسات يثيرُ فيَّ رغبة التقيؤ. كنتُ بسلوكي هذا أستثيرُ غضب وعناد جعفر، وأجعلُه يردُّ بحدّة:

- ستأتي على كلامي وإلا أنا لستُ رجلاً: ستجلس طوال حياتك «تُرهِّط»، وسترجع من فرنسا معك دكتوراه بالترهيط...

مرت الأسابيع الأخيرة من سنة اللغة في فيشي حامضةً جدًّا، مملوءةً بالمرارات بعد انتكاسة أملي بحب تغريد. بدأ الاستعداد للسنة الجامعيَّة القادمة. كلانا سيغادر فيشي. جعفر يلحّ عليّ أن أذهب معه لنيس لأدرس هناك. أخبرته أنَّني سأدرس في باريس، دون إشعاره أنَّني حال وصولي لها سأهربُ منها بأوّل قطار إلى سانت مالو التي لا يستطيع التحويل إليها لخُلُوِّها من أي دراسة تشبه دراسة دورته العسكريّة. كان يردُّ أحيانًا: سأضطرُّ إلى التحويل لباريس لئلا أتركك وحدك هناك. الجماعة رحمة يا ابن العم والمخُوّة بالدنيا!

صرت أنتظر نهاية سنة اللغة بقرفٍ وبطءٍ قاتلَين، رغم أنَّ اقتراب الصيف أحاط فيشي بهالةٍ جديدةٍ من الجَمال والحيوية: كثيرٌ من السيّاح، مجموعاتٌ طلابيَّة وشبابيَّة جديدة تضخُّ في شرايين الكافيلام، كرنفال فيشي السنوي، برامج رياضيَّة وفنيَّة وثقافيَّة كثيرة... كنتُ مع ذلك متشائمًا من كلِّ شيء، لا أَمل لي إلا في مدينة جديدة بلا جعفر.

تغيَّر سلوك جعفر معي في الأيام الأخيرة من فيشي بشكل ملحوظ. صار أقلّ فهلوة وبهلوانيَّة، أكثر مراقبة لحركاتي وسكناتي، لحالتي النفسيَّة... أكثر أدبًا وكياسة. قلتُ: ربما عقل صاحبي! ربّما وصل سنّ الرشد أخيراً. «من الأفضل أن يكون ذلك متأخِّرًا على أن لا يكون أبدًا»، كما تقول حكمةٌ فرنسيَّة. ربما أراد أيضًا أن يترك لديَّ انطباعات جيدة حتى أقبل الدراسة في مدينته نفسها وأواصل ترجمة اللغة الفرنسيَّة له، لأنَّهُ ما زال ثمّة «برزخٌ لا يبغيان» بينه وبين تعلُّم الفرنسيَّة. أو ربما قُبِل هذه المرّة دعائي الليلي: «اللهم أجعل خير أيّامنا خواتمها».

كنتُ وحيدًا في الشُّقة قبل يومٍ أو يومين من مغادرة فيشي. كنتُ مسترخيًا على أريكة الشقّة، مستلذًّا بوحدتي دون جعفر في هذه اللحظات المغربيّة التي يندر أن أكون أثناءها في الشُّقة، سعيدًا بالانتهاء من تجهيز كلِّ حقائبي، مستعدًّا لبدء حياةٍ جديدة في مدينة جديدة، بعيدًا عن جعفر... لعلي كنت أحاول حينها أن أنسى

وحدتي وبؤسي العاطفي عندما تسلَّلت أصابعي بحركة ميكانيكيَّة قلقة يمارسها كل إنسان طبيعيٍّ يلزمهُ إطفاء حرائق أعضائه الحميمة...

وجهٌ يخرج من تحت سريري، يقول لي:

ـ هاه، ألم أقل لك إنَّك سترجع بدكتوراه بالترهيط من فرنسا!

لم أكن وحيداً، اللعنة! كان مختبئًا ينتظرُ بتلصُّصية ودهاء هذه اللحظة منذ أيّام مثّل فيها دور القدّيس ليَصلَ إلى مقصده. لم يتغيَّر إذن، مازال هوسُه: صُنعَ النهايات الفضائحيَّة. ها هو يثيرُ كراهيتي وتقيؤي من جديد معيداً لي ذكريات آخر أيامه في منزل سوسن في شارع دغبوس، وفضيحته المشينة التي دفعت سوسن ثمنها غاليًا.

يعتبرُ هذه النهايات نوعًا من خفّة الدم ودليل روحٍ فكاهيّةٍ وحسٍّ لطيف...

غادرتُ فيشي اليوم الثاني. كانت آخر عباراته:

ـ لا تقلق يا ابن العم، حرام طلاق سأجي أوانسك لباريس!

الفصل السادس

شارع المخا

سبتمبر ١٩٧٩

سانت مالو مدينةٌ جذّابةٌ تضطجع على « شواطئ الزمرد »، في أطراف شمال غرب فرنسا. تواجه شواطئ الغرب القصيّة: شواطئ كندا وأميركا. أمامها في الجزء الآخر من الأطلسي مدينة كيبك الكنديّة التي بُنيت لتكون مرآتها وتوأمها الجمالي في « العالم الجديد ».

سانت مالو مدينة وُلدت في البحر، من البحر وإلى البحر. منها انطلقت سفن قراصنة القرون العتيدة، مكتشفي كندا، محاربي البحار، وتُجّار الطرق البحرية البعيدة. مدينةٌ بناها قبل عشرة قرون قراصنة، للاحتماء من قراصنة: أحاطوها بأسوار ومتاريس ومعاقل

وقلاع محصّنة صعبة المنال، في فضاء محاط بصخور وأجراف بحريّة كاسرة، مترعة بجمال وحشيٍّ يأسر النظر.

هي اليوم مدينةٌ ساحليَّةٌ رقيقةٌ متألِّقة، تعيش من البحر، على البحر وللبحر. مدينةُ حمامات بحريَّة (تالاسوتيرابي)، ميناءٌ عامرٌ مملوءٌ بآلاف سفن النزهات البحرية الأنيقة. تنطلق منها الرياضات والمسابقات البحريَّة الدوليَّة الشهيرة التي تخترق المحيطات: سباق سانت مالو ـ كيبك، سباق طريق الرم (عرق قصب السكر)، ورحلات كبار المغامرين والبوهيميين الذين يطوفون محيطات وبحار الكرة الأرضية بسفن انفرادية!...

ها أنذا في سانت مالو أهربُ من كوكب الجنوب والشرق القاحل الذي لم يحمل لي إلا الحرمان والجفاف، نحو كوكب المدن الناظرة باتجاه الشمال والغرب. هاأنذا أسكنُ بين عناصري الأوليَّة: أعانقُ البحر كلّ يوم، أسيرُ ساعات طويلة على شواطئه الرمليَّة وصخوره الجبلية، أغتسل بنسماته وعواصفه الشديدة. هاأنذا في مدينة مفتوحة على المحيط، على المطر المتواصل، على الغيوم اليوميَّة، على العواصف البحريَّة. أعيش بين أحفاد مُهاجري وقراصنة شمال أوروبا. أحفاد بشرٍ يولدون ويموتون في الصقيع، لهم لون الصقيع وبرودته، لهم صمت الصقيع ورتابته، يتحدَّثون قليلاً ويعملون كثيراً...

ما إن حططتُ رحالي في بداية صيف ١٩٧٩ حتى بدأتُ أزورُ المدن المجاورة لسانت مالو، في منطقة «البروتان» نفسها. كانت غالباً

سدمًا بحريّة لها علاقة جذريّة جوهريّة بالمحيط. أناسها طيّبون متواضعون كثيراً.

أمام سانت مالو مباشرة، مدينة: دينار. تختلف عن سانت مالو وتتكامل معها كثيراً. محطّةُ راحةٍ نموذجيّة. أسسها أرستقراطيون في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. تضمُّ اليوم أكثر من ٨٠٠ قصر وفيلة هائلة. ٤٠٠ منها قصور تاريخيَّة. كم كنتُ أُحبّ ممرّاتها الطويلة المحاذية للبحر، المنحوتة فوق صخور ضارية. كم كنت أحبُّ أن أسير عليها، من ميناء سفن النزهات إلى ساحل الأكلوز، أتنفَّسُ بعمق، أخفُّ كثيراً، أشعرُ دومًا أنّي أفرغُ فيها شيئًا من همومي ومتاعبي.

على اليمين من سانت مالو، في نهاية منطقة البروتان وبداية منطقة النورماندي، تقع جزيرة سانت ميشيل، إن كان يجوز لي أن أسمّيَها جزيرة. عندما تراها من بعيد، تبدو لك أشبهَ بجبلٍ ينتصبُ وسط محيطٍ من الرمل. جبلٌ يعلوهُ بناءٌ ضخم، هو مزيجٌ من صومعة وقلعة وكاتدرائيَّة. مونت سانت ميشيل معجزةٌ معماريَّة حقًّا. هي إحدى مدن التراث العالمي التابعة لليونسكو والأكثر جاذبية للسيّاح. لعلّها أقربُ للجزيرة في فترة المدّ، وأقربُ إلى الواحة في فترة الجزر. غير أنّي لم أكن أحبّ أبدًا أن أمكث فيها طويلاً، لأنَّها مدينةٌ صغيرةٌ غارقةٌ بالسيّاح طوال أيام السنة، وأنا، حيث ما كنتُ، أشعر بالاختناق أمام سيول الأجساد المحتشدة.

في الجنوب من سانت مالو: سانت نازير، مدينةٌ تواجهُ المحيط الأطلسي. ميناءُ اصطياد رائع أحبّه بشكل خاص. ميناءٌ لبناء أكبر البواخر السياحيّة في العالم أيضًا. تنطلقُ منه الرحلات الكبرى نحو أميركا غالبًا.

في اتجاه وسط منطقة البروتان، بعيداً عن البحر، تقعُ مدينة رِن. عاصمةُ المنطقة. هي، لا أعرفُ لماذا، لم أحبّها كثيراً. ربّما لأنَّها، مثل أيّة مدينة كبيرة، يعبُرها دومًا سيلٌ هادرٌ من الأجساد الذي يُنهكني دومًا أن أجد نفسي منغمسًا فيها ليل نهار. أو ربما لأنَّ رِن بعيدةٌ نسبيًّا عن البحر، وأنا أشعرُ بنوعٍ من الاختناق إذا ما سكنتُ طويلاً بعيداً عن البحر. هو وحدَهُ صديقي الأبدي. ملجأي ومآلي.

تحاشيتُ السكن في رِن رغم أنَّ معظم كُليّات ومباني جامعة البروتان تقعُ فيها، وإن تناثرت بعضها في مدنٍ مجاورة لرِنْ كسانت مالو. كانت رِنْ مع ذلك مدينة ناسٍ طيّبين، لا تخلو من شوارع أثريّة، ومقاه شبابيَّة حيّة. لم أُحبَّها مع ذلك، كنتُ أُفضِّلُ الذهاب إليها غالبًا في الباص أو في القطار، أو في سيّارات الأصدقاء، والعودة إلى سانت مالو بأسرع وقت ممكن. تحاشيتُ العيش فيها قدر ما أستطيع، وإن سكنتُ في حيّها الجامعي مضطرًّا مرّتين. غادرتها في كلّ مرّة سريعًا من أجل العودة لسانت مالو.

هكذا قرّرتُ من البدء أن أحيا قرب البحر، أن أتنفّس البحر، أن ألتحف البحر، أن أُحدِّق دومًا في الأمواج العاتية، أن أُصاهر الصخور، أن أنظر باتّجاه المحيط، اتّجاه الغرب والشمال...

وداعًا إذن فيشي. وداعًا عالمي القديم. عفواً، لعلّي أستعجلُ وداع عالمي القديم. لأنّي لم أحطّ رحالي في سانت مالو إلا وقد اكتشفتُ أن فيها شارعًا له اسم مدينة يمنيّة!

هل تعرفون مدينةً غربيةً يحملُ أحد شوارعها اسم عدن أو صنعاء أو تعز أو المكلا أو الحديدة؟ شخصيًّا، لا أعرف مدينة واحدة عُمِّد أحد شوارعها باسمٍ كهذا! أعرفُ بالمقابل أنَّه لا أحد تقريبًا من أبناء هذه العوالم قد سمع يومًا اسم اليمن. غير أنَّ ثمّة شارعًا في سانت مالو يحملُ اسم مدينةٍ يمنيّة: شارع المخا! للاحتفاء بانطلاقة حملة تجارية من سانت مالو في ١٧١٤ توجّهت نحو ميناء المخا للبحث عن بُنّ اليمن. ظلّ من يومها اسم المخا (موكا) اسمًا ميثولوجيًّا في أذهان كثيرين، يوحي لهم باسم ميناء غابر، كان معبَرًا شهيراً هامًا عرف العالم بفضله زهرة البن.

المخا اليوم مدينة تشبهني كثيراً: مجثمُ حُطامٍ وخرائب. مدينةُ أطلال ماض كان زاهرًا مزدهرًا يومًا ما. مدينةُ منازل مُهدّمة توحي أشلاءُ أبوابها أنَّها كانت شديدة الجمال يومًا ما، مدينةٌ متخمةٌ بحطام سفن متناثرة هنا وهناك كأنَّها صُمِّمت لفيلم يُصَوِّرُ نهاية العالم. مدينةُ أطفال يعصرهم الجوع والفراغ والحرمان. مدينةُ شباب بلا مستقبل أو أمل... لا شيء في المخا اليوم ليس له طلعة الأنقاض والخرائب. ربما لذلك كنتُ أهوى التسكّع في شارع المخا بسانت مالو، وكأنِّي أجِدُ في اسمه إيقاعات أليفة لأُذن لا تتوحَّدُ إلا مع إيقاعات القحط والخرائب.

أتذكّرُ أول محاضرة في الكليّة كما يتذكّرُ المرء أوّلَ قُبلة، أوّلَ عناق... وإن كان من الأحرى بي أن أقول أوّلَ لكمةٍ على الوجه، أوّلَ صفعةٍ مؤلمة، أوّلَ هزيمة... لأنَّ لَسعَ هذه الرموز أكثر إيحاء لقلمي من إيحاء ذاكرة القُبَل. كنتُ مشحونًا بالأمل وأنا أدخلُ قاعةً مملوءةً بمائتي طالبة وطالب. قلتُ لنفسي قبل دخول القاعة بثوانٍ: ستبدأُ حياتي من هنا، من هذه اللحظة.

كانت محاضرةً في الرياضيات، أهمّ وأصعب مواد سنتي الدراسة العامة السابقة للتخصص، والمتضمنة أيضًا الفيزياء والكيمياء والإلكترونيات والميكانيكا. لا يهمّ كلّ ذلك كثيرًا لأنَّني لم أصغ لكلمةٍ في المحاضرة. تذكَّرتُ لحظة بداية تعارف نموذجيّ في الحياة: ماريان ومراد، أبطال فيلم «... المفقودة»، اللذين قنصا بعضهما في أول محاضرةٍ في الفيزياء، في أول سنةٍ دراسيّة لهما. زادني ذلك حماسًا ودفعًا في أن أبحثَ عن ماريانتي أنا أيضًا.

انهمكتُ بسبر القاعة من الطرف إلى الطرف، أعبرُها بنظرات متفحّصة، أعدُّ فاتناتها، أُصنِّفهن، أرتّبهنّ حسب أولويات مقاييسي ورغباتي... لم يكنّ أكثر من عدد أصابع اليد. لم أكن حينها أؤمنُ حقًّا إلاّ بالجمال الظاهري، جمال القسمات. لم أكن منافقًا لأتحدَّث عن الجمال الداخلي وما إلى ذلك من الأكذوبات التي يبدأ الإنسان إيهام نفسه بها عندما يفقد الأمل بفتاة أحلام من فصيلة خارقات الجمال اللواتي يصرعن القلب عند رؤيتهن لأول مرّة.

المشكلة الكبرى أنَّ الطريق إلى صفوة الجميلات المثقّفات في الوقت نفسه، مملوء بالأقفال والحواجز والعراقيل. يندر أن تجد حسناء لم ترتبط حياتها بعد. هكذا كان حالُ أهمّ جميلات القاعة وإن كان عدد من يمكنهن أن يفتحن قلوبهن في أول أيّام الدراسة أكثر نسبيًّا من أيّ وقتٍ آخر. تزداد صعوبة إسقاط قلوب نخبة الجميلات في هذه الديار لتصل إلى حد المستحيل، لأن الفتاة لا تُشترى هنا بمهر أو بأفيال مطرّزة بالذهب، لا تحتاجُكَ من قريب أو بعيد لشراء غدائها أو تسديد ثمن ملابسها وغرف فنادق إجازاتها، لا تذهب والدتك لطلب يدها وشرائها من والدتها، ناهيك أنها لم تتعوّد من الطفولة على ثقافة الرضوخ والاستسلام في مجتمعٍ ذكوريٍّ بحت...

يلزم لذلك أن تكون أنتَ كما تريدُكَ هي وتهواك: وسيمًا جدًّا، متعدِّد المواهب والملكات، جذّابًا واسع الثقافة والمعارف، مهذّبًا ورقيقًا جدًّا، ذا صاع وباع في الرياضة والموسيقى والفن... يلزمُ أن يكون في طلعتك شيءٌ ما يُفجِّرُ فيها شرارة الحبّ لتختارك بين مرشّحين كثيرين... يلزم أيضًا أن تظلَّ تضرم تلك الشرارة ما حييت. الطريقُ إلى فائقات الجمال عناء وآهات، لا يخلو، كما يعرف القاصي والداني، من السراب والنكسات، من العذاب والمكابدات.

لم أقُصِّر عن الاقتراب منهنّ بثقة، وأن أُلقي بكلِّ ما أمتلكه من سهام لاصطياد أكثرهن عذوبة وجمالاً. كنتُ مغمورًا بالأمل أكثر من أيّ وقتٍ مضى: أشعر أنّني أحيا في عالم جديد، أغسلُ آلامي وأدراني

في أمواج محيطه الهادرة، أنطقُ لغةً أجيدُها وأحبُّها، في مدينة اخترتها أنا نفسي للهروب من بقية الكون... لأجلهنّ كنتُ مستعدًّا للعناء والسهر والتضحيّة، للاحتراق وَجداً ومناجاة، لخوض وعثاء العشق وزمهرير اللوعة، لعُبور القارّات والبحار السبعة، لاختراق الجبال والفيافي، بحثًا عن دموع العنقاء، لأشرب فنجانًا من دموع العنقاء، لأغسل وجهي بسبع قطرات من دموع العنقاء...

غير أنِّي بدأتُ أغازلُ على طريقة شارع دغبوس! التصقتُ بالأولى في طابور المطعم الجامعي. حاولتُ لفت انتباهها على الطريقة الشيخ عثمانيَّة: «ذوقُنا واحد»، وذلك بأن آخذ الأطباق نفسها التي تأخذها في المطعم. أخذتُ المقبّلات نفسها التي أخذَتْها، الوجبة الرئيسة نفسها، النوع من الجبن نفسه، الحلوى النهائيَّة نفسها. اخترتُ القهوة نفسها التي اختارتها رغم أنِّي كنتُ أشتهي فنجان شاي، عدد قطع السكر نفسه... نبذتني بعد ذلك مباشرة لأنّها من رعيلٍ يحبُّ الشخص المتميّز، لا ذلك الذي يسير بعقلية القطيع.

غيَّرتُ استراتيجيتي مع الثانية لأُلوِّح بتميُّزي من أوّل وهلة. حاولتُ تناول القهوة وإياها في كافتيريا الكُلّيّة. طلبت قهوة، طلبتُ شايًا. سألتها النادلة عن عدد قطع السكر التي تبغيها: قطعة أم قطعتين؟ أجابت: قطعة واحدة. سألتني النادلة السؤال نفسه، أجبتُ: اثنتين. ثم أضفتُ طالبًا النادلة أن لا تُحرِّكَ منهن داخل الشاي إلا قطعةً ونصف قطعةٍ فقط، دافعًا تميُّزي إلى أقصاه إن لم أكن بذلك

تجاوزتُ حدود التميّزِ قليلاً. تجاوزته كثيراً كما يبدو: كالنادلة، حزِرت مُختارتي في وجهي لتُخمِّن من أي عالم جاء هذا «المطشوش»، قبل أن أفقدها نهائيًّا أيضًا.

مع الثالثة شعرتُ أنَّني بلغتُ سنّ الرشد. قرّرتُ أن أهاجمها من جبهة أخرى: حاولتُ أن أشعرها باهتمامي القويّ بها لأنَّ ذلك أجدى، أليس كذلك؟ من المغازلة عبر الإيماءات بعدد قطع السكّر الذي لا يفهمه إلا الباطنيون من العُشاق. قلتُ لها إنَّها اختفت منذ شهر. أجابت إنَّها كانت في إجازة. قلتُ لها إنَّها ارتاحت خلال ذلك قليلاً. «إرتحتِ»، المرادفة لـ«سَمنْتِ» في لغة شوارعنا تعني غالبًا: ازددت طراوةً وحلاوة، أما هنا فتعني: فقدت شيئًا من رشاقتك.

ثمّة تطرُّفٌ في العداء للشحوم والبدانة في هذه الديار. قليل من الجرامات الإضافيَّة تؤدِّي إلى كارثة نفسيَّة أحيانًا. لعلّي فيما يتعلّقُ بمُختارتي، التي تجري عدة كيلومترات يوميًّا وتسبح بمهارة لتظلّ رشيقةً هيفاء، أردتُ فقط إثبات مدى تركيزي عليها لأنّها ظلّت، رغم الجرامات الميكروسكوبيَّة التي عادت بها من إجازتها، غصن بانٍ في رشاقتها تسحرُ القلب سحراً. لا أدري لماذا لم تُوجِّه لي اللكمة نفسها التي أطاحت بأحَد أنيابي قبيل عام. لأنَّني كما يبدو «كردفتُ» كردفةً ثقافية حاسمة. جرحتُها حقًّا. رأيتها تُحمرّ وتُصفّر وتُزرِّق... أدركتُ أنيِّ قلتُ أكثر العبارات التي تثيرُ تقزّزها. لذلك أضعتها أيضًا على التو.

مع الرابعة حاولت أن لا أقع في الفخ نفسه. قلت لها ونحن نتناول وجبة الغذاء في المطعم الجامعي إنَّها اختفت منذ شهر. أجابت: إنَّها كانت في إجازة. سألتُ: فين؟ قالت في اليونان. سألتُ: هل زرتِ يوغسلافيا المجاورة لها؟ قالت: لا. استغلّيتُ ذكري المتعمّد ليوغسلافيا لأطلق زمام أحصنتي الأيديولوجية لـ «تتبرطع» وتصول وتجول في شرح الموقف الاشتراكي العلمي من التجربة الاشتراكيَّة اليوغسلافيَّة. بدأت أنظِّرُ وأُنَظِّر محاولاً إثارة إعجابها. طلبت، وأنا في خضمِّ التنظير، من زميلٍ كان بجانبنا أن يناولها قنينة الماء التي كانت قريبةً منه والخاصة بالطاولة التي كنّا نتناول عليها الغذاء معًا في المطعم الجامعي. أخذ «العَرْص» القنينة، ملأَ فنجان ماء مرافقتي بنفسه، قائلاً بنبرة مهذّبة تخلو من الزندقة أو التصنُّع مقولةً أثيرةً من مقولات هذه الديار: «ما تريدهُ المرأة يريده الرب!»...

أضعتُها بسبب يوغسلافيا وكسبها بسبب «ما تريدهُ المرأة يريده الرب!». لاحظتُ بعد شهور أنَّها ارتبطت نهائيًّا به. أقسمتُ حينها أن أمسح اسم يوغسلافيا من فمي، قبل أن تمتسح هي نفسها من الخارطة الدوليَّة بعد عدّة سنين من ذلك، كما عرفت وأنا أعيش في «علبة الصاردين».

لم تمرّ أشهر قليلة منذ بدء الدراسة إلا وقد سقطت كل المعاقل الجماليّة التي كنت «مُنمّرًا» عليها، ولم تعُدْ واحدةٌ من أشدّ جميلات القاعة غير مرتبطة نهائيًّا. عدت لقواعدي مهزومًا متأكّدًا أكثر من أيّ

وقتٍ مضى أن علاقتي بالحرمان هي، كما يقول العساكر، علاقة استراتيجية.

لحسن حظي أنّي، بانتظار العشق الحقيقي الذي سيعصفُ بي قريبًا، والذي سيكون دافقًا فتّاكًا كما أتمناه، سأذوبُ عشقًا بالرياضيات. عشقتُ الرياضيات التي لم آت لدراستها، وكرهتُ الفيزياء التي أتيتُ لأجلها. عشقتُ الرياضيات الحديثة التي كانت مجهولةً في مناهجنا العربية آنذاك. اكتشفتُها هنا لأول مرّة. كان عشقًا من أول نظرة كما يقولون. خُلقَت لي وخلقتُ لها. أحببتُ صفاءها، منطقها، أكسيومتها، تجريدها العقليّ الخالص، نظرياتها وأنماط براهينها.

لعلّي عشقتُ الرياضيات لأنَّني أعشقُ الخيال والحريّة. أعشقُ بناء عوالم جديدة، علاقات جديدة، من فرضيات أخلقُها لوحدي. أعشقُ حقًّا بناء عوالم نظريّة بحتة... بالمقابل، كرهتُ الكيمياء التي بدت لي علمًا لا ينفع إلا لطباخة «الصانونة» (الصوصة). وكرهتُ الفيزياء لأنَّني أكرهُ القياس والتجارب، أُكسِّرُ الأجهزة حال لمسي لها لفرط رعونتي. لأنَّني قبل كلّ شيء أكرهُ الخضوع لقوانين الطبيعة، ألا يكفيني الخضوع لقوانين العادات والتقاليد التي غمست رأسي في صحراء البؤس والحرمان؟

أُفضِّلُ على الفيزياء بما لا يقاس، كما قلتُ قبل قليل، كائنات الرياضيات الذهنيّة البحتة، بعلاقاتها المُجرّدة، بلحظات انبلاج

نظريّاتها، بروعة وكثافة وعبقرية براهينها النظرية المسبوكة بالمنطق، الطافحة بالجمال والتناغم والخيالِ الخلاّق . . .

كنت سعيداً باكتشافي وعشقي للرياضيات التي فتحت لي عشقًا أكبر وأقوى: عشق علمٍ جديد خرج حينها طازجًا من صُلبِ الرياضيات وترائب الفيزياء، (أقصدُ أنبل صفحات الفيزياء): علم الكمبيوتر. غير أنِّي لن أتخصَّص في الرياضيات ولا في الكمبيوتر لأنَّ برنامج منحتي يقضي أن أبدأ بالفيزياء لأتخصَّص في الكهرباء! أو بالأحرى لن أتخصَّص في الرياضيات ولا في الكمبيوتر لأنِّي لا أعرف التمرّد وتحقيق ما أهواه، لا أعرف إلا الاستسلام والرضوخ لحياةٍ برمجها لي غيري.

بفضل علاماتي العالية في الرياضيات نجحتُ في سنة الدراسة الأولى التي تُعتبرُ هنا أكثر السنين تعجيزاً وانتقائيّة. بفضل الرياضيات قبل كلّ شيء وبفضل انسجامي مع الحياة الجامعيَّة أيضًا وتفاعلي القوي وإياها.

صحيحٌ أنِّي كنتُ تعيسًا لأنَّني كنتُ ما أزال لا أتنفَّسُ رائحة أنثى، لكنني حاولت كبت تعاساتي بإحراق طاقاتي في التعلّم، وفي الاندماج الكامل بالحياة الثقافيَّة والفكريَّة والعلميَّة التي لا حدّ لها ولا طرف في هذه البلاد. كان عليّ أن أكتسب أوّلاً ثقافةً تجمعني مع تلك المعشوقة المنتظرة التي لن تتأخَّر فعلاً عن الإطلال عليّ قريبًا في سانت مالو قبل أن تلتهم سريعًا كل خلايا قلبي. ستكونُ فاتنةً

كمملكة فرعونية، سأعاشرُها كثيراً كما حلمتُ دومًا، سأعشقُها بعنفوان هادر كما حلمتُ دومًا، و... ستعشقني هي الأخرى!

قبل مجيئها المنتظر، اندمجتُ في الحياة الاجتماعيَّة والثقافيَّة قلبًا وقالبًا. كنتُ أقرأ كثيرًا من الصحف يوميًّا: اللوموند، ليبراسيون... وبالطبع، صحيفة الحزب الشيوعي الفرنسي: اللومانيتيه. بدأتُ اكتشاف وحبّ الرواية الفرنسيَّة أيضًا. توجَّهتُ للكتب الثقافيَّة بكل أنواعها، بكلّ مثابرة وإعجاب.

الحياة الثقافيَّة والفكريَّة والسياسيَّة في الجامعة كانت غنيّةً جدًّا أيضًا. في المطعم الجامعي والكليّة، في كل مكان، تقابل تجمّعات ومنصّات التيارات الفكريَّة والسياسيَّة التي تخطرُ لك أو لا تخطرُ على البال. كنتُ أتحدّثُ وأناقش الجميع، ابتداءً بكل طوائف اليسار المتطرف بأمياتهم الرابعة والثالثة والنصف، وكل أصناف حالميهم ومجانينهم من ماويين وتروتسكيين وبلاشفة، إلى الاتجاهات الأكثر ليبرالية (التي بدأت في الظهور آنذاك قبل أن تتطور كثيراً بعد سنين قليلة، وإن كنتُ وظللتُ لا أستسيغها أبداً)، مروراً بالشيوعيين، والاشتراكيين، والراديكاليين، والبيئيين، والخضر، والوجوديين، والفلاسفة، والفلاسفة الجدد، والمحافظين والملكيين... دون الحديث عن أتباع كلّ الأديان والمعتقدات الروحيّة واللاهوتيَّة، ومناصري حركات التحرُّر، وفروع كل الأحزاب والنقابات والاتجاهات الفكريَّة الموجودة في العالم الثالث من قومية إلى خُمينيّة إلى متطرِّفة الى رجعيَّة إلى سلطويَّة إلى ثوريَّة...

الحياة الاجتماعيَّة هنا أنسكلوبيديَّة ضخمة بإمكانك أن تقرأ وأن تكتب في أي صفحة من صفحاتها، ولم أُقصرٌ في أن أنهل منها بنهم. ناقشت وتفاعلت وقرأت وتظاهرت وناصرت واستنكرت دون توقّف. كان لي أصدقاءٌ حميمون من كلٍّ حدبٍ وصوب، حالمون مخلصون في الغالب... أحدهم يدقّ باب غرفتي بقوّةٍ في الرابعة فجراً، يوقظني بعنف ليشرح لي أنَّه يعتقدُ أن الثورة البروليتاريَّة العالميَّة ستندلعُ قريباً. وآخر يوقظني في الرابعة فجراً أيضًا ليعلن لي أنَّه مارس عشقَه لأوّل مرّة في حياته قبل دقائق، قائلاً: لم أكن مِهَنيًّا في عِشقِي كما كنتُ أحلمُ أن أكونه، لكنَّني في غاية السعادة.

يبكي فرحًا من سعادته. أبكي أيضًا فرحًا لسعادته، وإن اختلطت بدموعي دمعتان دخيلتان ترثيان كلّ مأساتي وتعاساتي.

الفصل السابع

إيـــزا

أنهيتُ السنة الأولى من الكُليّة أنطُّ فرحًا بعد نجاحي في امتحانات يونيو النهائيَّة. كنت مندمجًا متناغمًا بعمق وقوة مع الكون الذي أحيا فيه. يملأني الأمل هذه المرة في الوصول إلى المعشوقة المنتظرة، وبدء قصّة عشق تتأججُ يومًا بعد يوم، كما أحلمه منذ صباي، منذ فيلم « ... المفقودة » الذي شاهدته في سينما شيناز.

في بداية صيف ١٩٨٠ سكنتُ في الحيِّ الجامعي في غرفة ملتصقة بغرفة فرِيديريك، أو فرِيد كما اعتدنا تسميته: شاب مملوء بالحركة والحماس، ذكيّ مثقف ولبق جدًّا، يترأس فرع الطلاب الشيوعيين في الجامعة. ما كان يذهلني فيه قبل كلِّ شيء هو تواجده في كلِّ مكان في اللحظة نفسها وكأنَّ هناك عشرة فريديريكات

يعيشون في الوقت نفسه. عندما أتوجَّه لبلكونة غرفتي الجامعيَّة أراه في أسفل العمارة أمامي، عندما أصل بهو الكُليّة أو بهو العمارة الجامعيَّة أراه أمامي، عندما أدخل المكتبة العامة، قاعة التلفزيون أو الكافتيريا أراه أيضًا أمامي، أسمعه أيضًا يتحرَّك ويتحدَّث ويغنّي في غرفته كلّما أكون في غرفتي...

توطّدت علاقتي مع خليّتهم في ثوانٍ. كان تعاطفي وتضامني معهم واضحًا كعين الشمس. لم أكن مؤطّرًا في خليّتهم، وإن كنتُ لا أقلّ عن فريديريك تفانيًا وعطاءً لها، ربما لخوفي من كابوس كتابة المحاضر وإن كانت منظماتُ هؤلاء بلا محاضر، صحفُهم بلا ترديد ببغاويٍّ للغة خشبيَّة عقيمة، والانضمام معهم لا يحتاج إلى استمارات حزبية، لا يرتبط بالانحدار أو الانتماء الطبقي أو موضع الولادة. الانضمام معهم رغبة في الأساس، نضال ومتعة أيضًا، تجربة فكريَّة لا غير أحيانًا، ومحاولة لبناء حُلمٍ قبل كل شيء.

أحببتُ خليَّتَهم الحزبيَّة بشكل لا يوصف عندما انضمّت لها قبل نهاية يونيو طالبةٌ تدرس في كليّة الآداب، إيزابل، أو إيزا كما سنسمِّيها فيما بعد: قطعة لوكوم(١)، عينان خضراوان واسعتان، أنف بدقّة وجمال فرعوني، ابتسامة دائمة على فم سيدخل جنان الفردوس من يُقبِّله، صوت نقيّ عسليّ الانسياب يرتجف قلبي أمام نبراته، جسد ممشوط كغصن حقًّا، كتمثال «أضحية النيل» في المتحف الفرعوني،

١ ـ اللوكوم: حلاوة مغربية ليّنة لذيذة.

أو كمملكة مصريّة قديمة. لعلّ نفرتيتي نفسها كانت تتقمّص إيزابل كما كنت أشعر في لحظات هيام حالم.

سقط قلب فريديريك وقلبي معًا حبًّا بإيزابل منذ أوّلِ وهلة. كان قلبي «يختضلُ» في صدري كلّما كانت معنا في النشاطات الطلابيَّة، في مناضد توزيع منشورات الشبيبة الشيوعيَّة، أو في التجمُّعات العامة... بفضل إيزابل، انصهرتُ في أفكار الماركسيَّة وقضايا الشغيلة حتّى مخ العظم. معها، أو في ظلِّها بالأحرى، كان للنضال طعمٌ آخر. كنّا، في المطعم الجامعي، في بهوات الكُلِّيات، في الأمسيات والمحاضرات العامة، ندافعُ بالقوة نفسها، بالسذاجة نفسها، بالحماس نفسه، بالعناد نفسه، عن المُثُل نفسها، عن المشروع نفسه، عن الحلم نفسه.

صرتُ أقرأُ أكثر من قبل، أندمجُ في كل النشاطات الثقافيَّة والفكريَّة والأدبيَّة أكثر من قبل، أتواجدُ في كل الندوات... أسعدُ لحظات حياتي عندما تكون إيزابل في المحيط نفسه، عندما تناقش، تدخل في جدل، تتحدَّث قريبًا منِّي. كنتُ أخاف عليها من أن يتحوّل كلّ من تناقشه عاشقًا لها. لأنَّني لو لم أكن في صفِّها الفكري نفسه منذ زمن، لو كنت يمينيًا، ليبراليًّا، تروتسكيًّا، رجعيًّا، ملكيًّا، قبليًّا، من أحزاب الديمقراطيَّة المسيحيَّة أو الإخوان المسلمين... ورأيتها أمامي تناقشني بتلك العذوبة والصدق والإيمان لأخذتُ بطاقة الحزب من أوّل ثانية ولوهبتُ كلّ ثواني حياتي للمشروع نفسه والمُثُل التي تعزّ عليها وتناضل من أجلها...

ما كان جديداً في حياتي هو أنّي كنتُ أتحدَّثُ معها، أُصغي، أُحدِّق، أُناقش... بطلاقة وحماس، دون خجل أو تردُّد. كنتُ في كل ثانية أتطهّر حقًّا برؤيتها، أحاول أن أشبع عينيّ، اللتين لا ترتويان، بالتحديق في كلّ حركاتها وسكناتها. لم أعد حتى أضيقُ وأتأفف من ندرةِ الشمس في سانت مالو القاتمة: كانت إيزا شمسي الدافئة وضوئي الدائم. كان كلُّ شيء يسيرُ في حياتي كما لو كنتُ أبدأُ ذلك الحبّ الكبير الذي طال انتظاري له، بتلك القوة والتأجج اللذين كنت أحلم بهما. بدأته فعلاً كما كانت تتوق إليه أحلامي.

ما كان خارج برنامج حلمي هو أنَّه كان ثمّة عاشقان اثنان في نفس الآن ومعشوقةٌ واحدة. كانت تتحدَّث مع كلينا بالاهتمام نفسه والدفء، بالاحترام والقوة نفسهما. تعجبُها في كلينا أشياء كثيرة بالمقادير نفسها. تعجبُها في فريديريك حيويَّتهُ الفائقة، لباقتُهُ الأسطوريَّة، تميُّزهُ في الجري والفن التشكيلي الذي كان يهواه ثقافةً ويمارسه بانتظام... كنتُ أحملُها أكثر منه نحو البحار الدافئة، نحو الحلم، نحو ألف ليلة وليلة. تهوى الحديث معي في الشعر والأدب، في الرياضيات أيضًا وإن كانت لا تحبها من قريب أو من بعيد، وتموت في «تهويفاتي» (هَفْواتي): كم كانت سعيدةً مثلاً يوم دَعوْتُها لتناول «زربيان»[١] طبختُهُ لأجلها في غرفتي الجامعيَّة وحرق كُليّة وأنا غارق في الحديث معها. أكلناهُ حارقًا وكنّا سعيدين جدًّا ميّتَين من الضحك...

---

١ ـ الزربيان: وجبة يمنيّة مُشتقّة من صيغة وصفة «البرياني» الهنديّة المعروفة.

كنتُ أتحدَّث معها دومًا بالطلاقة نفسها والحرّية والتناغم الذي عشتُهُ مع سوسن في ذلك اليوم المشؤوم الذي أنهاهُ جعفر بمأساويَّة. كان بإمكاني بكلٍّ بساطة أن أُصرِّحَ لها بالحب! أن «أطلب يدها»، كما يقولون وإن كنت لا أحبّ هذه العبارة كثيرًا. كان بإمكاني أن «أطلبَ قلبها»، كما أفضّلُ القول. بيد أنَّه لم يكن لذلك بدٌّ لأنَّها تعرف ما يختلج في جوانحي: يكفي أن تنظرَ لعينيّ المبلّلتين ببريق العشق لتعرف أنَّني غارق حتى مخِّ العظم بِحُبِّها. لم يُصرِّح لها فريد بالحبِّ للسبب نفسه أيضًا. غير أنَّه لم يُصرِّح أحدُنا لها بحبِّه لأن ذلك كان يعني قبل كل شيء إلغاء الآخر أو عدم الاعتراف بحبِّه بشكلٍ أو بآخر... ربّما كان يكفي أن يُصرِّح أحدنا بحبّه لها لتختار الآخر بكل بساطة لأنَّه يكون قد برهن بصمته وفاءهُ وصفاءهُ واحترامه الصادق لِنَدِّه العزيز.

لم تُميِّز إيزا أحدًا منّا على الآخر، ولم نكره بعضنا، أنا وفريد، مع ذلك. رغم أنَّنا كنّا ذئبين جائعين أمام غزالة واحدة، مرشَّحين اثنين للسفر في سفينة فضائيَّة ذات مقعد واحد، كان واضحًا أيضًا أن معبودتنا تعيشُ في ورطة وجوديّة: لم تَمِل بشكل ملحوظ لأحدنا أكثر من الآخر. أيقنّا من ذلك تمامًا، أنا وغريمي العزيز، خلال عيد لومانيتيه ١٩٨٠ الذي عشناهُ بمعيّتها.

في منتصف سبتمبر كل عام، منذ أكثر من ٨٠ سنة، تُنظِّمُ صحيفة اللومانيتيه عيدًا شهيرًا يستمر ثلاثة أيام يحضره ما يقارب

المليون إنسان أحيانًا. منصات وصالات واسعة تُشيَّدُ خلال أسابيع في خلاء ساحة الكورنف الشاسعة، في ضواحي باريس، لكلِّ الصحف الديمقراطية والتقدُّميَّة في كل بلدان المعمورة، لكلّ فروع الحزب في مؤسسات كلِّ مدن فرنسا، لعدد هائل من المنظمات الديمقراطيَّة والثقافية والفنية، ولنخبة من المدعوِّين من نجوم الثقافة والفن والغناء في العالم.

في كلِّ صالة صحيفة بلد، وفي كلِّ صالةِ فرعِ الحزب في أي مؤسسة: كتب للبيع، منتجات حرفيَّة، ووجبات محليَّة طازجة يطبخها ويُقدِّمها أصحاب الصالة. دون الحديث عن عشرات الندوات الفكريَّة والفنيَّة والموسيقيَّة التي يحييها مدعوّو الحفل من نجوم ثقافية وفنيَّة شهيرة.

غادرتُ سانت مالو بصحبة إيزا وفرِيد، يوم الجمعة التي يبدأ فيها العيد، على باصٍ تحرّك نحو ميدان الكورنف. كنّا في غاية الفرح والمرح ونحن نتبادل الأحاديث والذكريات والنقاشات الجادة. كنت أحدِّق كثيرًا في الطبيعة من وقت لآخر. ليس للأشجار جمال يضاهي جمالها في بداية الخريف الذي سيطلّ خلال أيام. تتنوَّعُ آنذاك ألوان أوراق الشجر، تتمايز وتتشعَّب بشكل يأسر النظر. مليون صنف من الاخضرار، مليون صنف من الاصفرار، مزيجٌ من أوراق ذهبيَّة وأوراق بلون الغسق، أوراق ورديّة فاتحة وأخرى بُنِّية داكنة... أبقار متخمة مسترخية على المروج لا تحسدُ أبقارنا الجائعة. أعمدةُ كهرباء باسقة

أُخفيت أسلاكها الكهربائيَّة لئلا تشوِّه عذرية الطبيعة وجمالها الأوليّ. منازل ريفية أُلصقت على جدرانها أغصان نحيفة طويلة تتشعَّب من جذوع أشجار مجاورة، تتداخل امتداداتها وأوراقها على الجدران كفسيفساء لامنتهية، كنصٍّ حرٍّ يكبر ويتوسّع يوميًّا على صفحة بيضاء...

سأعشقُ طول عمري سبتمبر فرنسا، أجمل الأشهر. تكونُ الطبيعة خلاله في قمَّة نضارتها وجنونها، في أَوج جمالها وشبقها، كما لو تستعدُّ لشهقة اللذّة، آخر لذّاتها، قبل لحظة الاحتضار والوأد في مقبرة الشتاء.

بدأنا حال وصولنا إلى العيد نتسكَّعُ من منصّةٍ إلى منصّة، من مطعمٍ إلى مطعم، من حفلة إلى حفلة... تناولنا وجبة عشاء الجمعة في منصة الأرجنتين. اخترته لأتذوَّق وجبات من تلك التي حدّثني عنها إيمانويل، رفيق تسكعاتي الليلية في فيشي. ثم قضّينا معظم الليل في صالة الشيوعيين السويسريين التي كانت متميّزة النشاط حتى مطلع الفجر. كان أصحابُها شيوخًا من العمال السويسريين، حسنو الهيئة متميزو التألق والوسامة، اعتادوا المجيء إلى هنا من أنحاء سويسريَّة مختلفة، منذ عقود، للقاء السنوي الرفاقي الحميم، للنشاطات الثقافية والفنية والفولكلوريَّة والإعلاميَّة والسياسيَّة المختلفة، وللتفاعل الجماعي والاستمتاع والبهجة قبل كلّ شيء. للسعادة أولاً وأخيراً. لا أدري لماذا ذكّروني كثيراً بالأستاذ نجيب الذي

كـانوا مـثله، ممتلئين بالوقـار وحُـسن الطلعـة، وبالتـألق الشـديد المتجدِّد... ثمّة بشرٌ لا تملُّ ريشة السنين من إذكاء سنائهم يومًا بعد يوم.

بعضهم كان يعزف على الأكورديون «نشيد الأممية» وبعض الأغاني العماليَّة والثوريَّة التقليديَّة، وسط جو حماسيّ حالم، وعواطف كثيفة تشبه كثيراً كثافة العواطف الدينيَّة. إذ لم تكن أطنان العواطف المتفجِّرة حينها تقلُّ عن كمية عواطف جمع من الشيعة قرب ضريحٍ دينيّ، وإن كانت الأغاني التي نردِّدها تتحدَّثُ عن «النضال النهائي» و«الأممية التي ستصير وجه البشريّة»...

اكتشفتُ «نشيد الأممية» لأول مرّة، رغم ترجمته لكلّ لغات الأرض وحفظ كلِّ ثوريي العالم لهُ عن ظهر قلب. كنتُ خجولاً من جهلي. ردَّدتُه بإعجاب لامحدود. لعلّهُ أكثر أسرًا للأذنِ بالفرنسيّة من أيّة لغة أخرى، لأنّ النصَّ فرنسيٌّ أصلاً وتُفقدهُ أيّة ترجمة بعضًا من جماله ووهجه الأوليين بالضرورة. بصدرٍ يختلجُ فيه مزيجٌ من مشاعر الثورة والخشوع الديني، ردّدتُه بكلِّ صوتي، من كلِّ قلبي، رافعًا يديّ بكبرياء وتوحُّد... كانت إيزا بجانبي تُردِّد «نشيد الأممية» بالعواطف نفسها، وفريديريك أيضًا. في تلك الساعة المتأخِّرة من الليل، كان الشيوخ السويسريون وكل زائري المنصة ونحن الثلاثة، نشعر بأحاسيس عارمة تُوحِّدُنا، تُشعِلُ فينا آمالاً كبرى بعالم جديد ينتهي فيه البؤس والفقر والاستغلال والحرمان، نكون نحن طلائعَه وصانعيه.

كنت أُحدِّقُ سرًّا بتلك الملكة المصريَّة التي أسميتها في قرارتي: نفرتيتي، أزدادُ إعجابًا وسعادةً برؤيتها بجانبي تُسبِّحُ في المعبد نفسه في هذا الهزيع الأخير من الليل. لن أنساها رافعةً قبضة يدها عاليًا، تُغنّي نشيد الأمميّة أمامي، بوجه حالم وصدر فخور. لو كنت نحّاتًا لما تباطأتُ ثانية عن تخليد ذلك المنظر الذي يرتعشُ فؤادي كلّما تذكَّرته.

نمنا تلك الليلة بعد إرهاق شديد في صالة فرع «عمال بريد سانت مالو» الذي أعارنا أصحابُه ملايات وزاوية في إحدى غرفِ صالتهم. تناولنا الفطور وإياهم، ثمّ ساعدناهم قليلاً في تجهيز طاولات مطعمهم. تسكَّعنا بعدها في صالات متنوِّعة قبل أن نتوجّهَ لتناول الغذاء في صالة كوبا التي تستقطب كثيرين من زائري العيد. بعضُهم لشُروخها الكوبيَّة الطازجة المتميزة التي تُرافق مع كأس من «البونش» المُنَعْنَع، بعضهم لجمالِ وحلاوة دم الشابات الكوبيات اللواتي يُدِرنَ بعض نشاطات الصالة، والبعض الآخر للجوّ الثوريّ الأميركي اللاتيني الدافئ الأصيل وللوفاء لتشي جيفارا.

كانت مفاجأةً كبيرةً لي أن أكتشف ثمّة منصّة لصحيفة يمنيّة: «الثوري». مكثتُ فيها، مع إيزا وفرِيد، معظم ما تبقى من الظهيرة. وجدتُ كثيرًا من الطلبة اليمنيين، لا سيّما اثنان ستتوطّد علاقتي بهما فيما بعدُ كثيرًا: ١) ح.ع.س. الذي تحدَّثتُ عنه سريعًا سابقًا والذي وصل فرنسا قبلي بسنتين. من مواليد شارع يافا المجاور لشارع دغبوس

بالشيخ عثمان، كان يدرس حينها في مدينة روان المجاورة لباريس. ٢) أ.ف.ب. الذي كان يدرس في أميان، في شمال فرنسا. سأعود للحديث عنهما لأنَّني سأرتبط بهما كثيرًا لا سيَّما في لحظات عويصة من حياتي.

ساهمنا ثلاثتنا، إيزا، فرِيد وأنا، في نشاطات المنصة اليمنيّة. قمتُ مع ح.ع.س. وآخرين في العمل كنادلين نوزِّعُ صحون «الزربيان» في مطعم المنصة. ساهمت إيزا في ركن بيع الأسورة الفضيّة والتحف اليمنيَّة. لم يكن غريبًا أن يرتفع البيع في المنصة بشكل ملحوظ منذ مجيئها. أما فريديريك فقد وجد في أ.ف.ب. نديمًا نموذجيًّا. ظلا يتحدَّثان معًا طويلاً في أحد أركان الصالة، قبل أن يخرجا للتسكُّع الثنائي في منصات مدن فرنسيَّة ودول عديدة، ويعودا آخر الليل شديدي الأنس والطرب بعد أن شربا في كل منصات العيد أنخابًا لانتصار كل ثورات العالم وكل قضاياه العادلة.

قضينا تلك الليلة في منصةِ اليمن في جو موسيقي يمنيّ، ممزوج بالمرح الطفوليّ والأنس والأحاديث التي لا تنتهي. استعدتُ مع ح.ع.س. ذكريات كثيرة تربطنا معًا في الشيخ عثمان. عرفتُ أنَّه جاء مع زوجته ن.ف. إلى فيشي بعد مغادرتي لها نحو سانت مالو بأسبوع. بحث عنّي عبثًا، ولم يعرف أين توجَّهتُ. لم أكن أعرف حينها أنَّه سيظلّ صديقًا دائمًا لي. سيظلُّ يراسلني من فرنسا حتّى وأنا

في «علبة الصاردين». سأعرف عن طريق رسائله كثيراً من أخبار العالم الذي سأنقطع عنه تمامًا، قبل بدء رحلتي نحو مملكة دملان مع الأستاذ نجيب التي سأواصل تفاصيلها المذهلة لاحقًا...

لم نترك خلال ثرثرتنا الليلية في منصة «الثوري» منزلاً من شارع يافا، شارع دغبوس، شارع القدس... دون أن ننتهك حرمته. لم نترك مقهىً من مقاهي الشيخ عثمان دون أن نُقلّب كراسيه في كل الاتجاهات. توقّفنا كثيراً عند سنوات الدراسة التي جمعتنا سويًّا، لا سيَّما تلك السنة الرائعة في المدرسة الابتدائيّة التي درَّسنا فيها الأستاذ نجيب. مثلي، كان ح.ع.س. يكنّ له إعجابًا وعرفانًا هائلين هو أيضًا. تحدَّثنا عنه طويلاً... كُنَّا نثرثرُ ونضحك حتى الثمالة في سعادة طفوليّة جارفة. نستعيدُ ملايين الذكريات، نعيدُ صياغتها ألف مرة ومرّة، كما لو كنّا في أحد أركان شوارع عدن.

في كلِّ الأحوال، ثمة على الأقل علاقة واحدة تربطُ عيد اللومانيتيه بعدن: صديقي ح.ع.س. هو نفسه! لأنَّ ثمة مكانين فقط في هذا العالم يعود صاحبنا فيهما إلى المهد، إلى طفولته، يكون خلالهما في ذروة سعادته وسذاجته وبراءته وفرحه. تلمعُ من عينيه فيهما السعادة الحقيقيَّة التي لا تتوقّف، كما يلحظها الجميع. «ثمة مكانان فقط يكون فيهما كذلك: عدن وعيد اللومانيتيه!» كما تقول زوجة صاحبنا: ن.ف. هي نفسها.

غادرنا الأحد منصة اليمن لنعيش آخر أيام العيد. اشترت إيزا حزامًا فضيًّا يمنيًّا تقليديًا لبسته حتى آخر اليوم. كان صعبًا أن تحمل

فتاةٌ ذلك الحزام إن لم تكن هيفاء، ممشوطة القوام. وكنّا نلاحظ أسى كثير من الزائرات اللواتي يجدن صعوبةً بوضعهِ على خصورهن. كم كان رائعًا على خصر إيزا ذلك الحزام! زادها جاذبيةً وجمالاً وهو يجلي رشاقة خاصرتها وعذوبة وركها. لحسن حظِّها أنَّها كانت تسير مصحوبة بحارسين شخصيين يحميانها من عيون الجن والإنس. زاد تعلُّقي بها بشكل مخيف عندما قالت لي إنها معجبةٌ بالوجبات اليمنية، تحبُّ أجواء علاقاتنا الطفوليّة الحميمة وعمق تفاعلنا، وأنَّها تتمنّى زيارة اليمن، وربما... صمتت قليلاً قبل أن تواصل: «...وربما العيش فيها».

واااااااااااو! طرتُ من الفرح. شعرتُ أنَّني قاب قوسين أو أدنى من الفوز بقلبها لي وحدي. قبل أن ألاحظ آسفًا أنَّها ما زالت حريصة على عدم إبداء تفضيل أحَدنا على الآخر بشكل حاسم وملحوظ... دعوتُ لقلبي بالصبر والقوة لئلا تتشقّق أنسجتِه من ألم الانتظار.

كان يوم الأحد أكثر أيّام العيد زحمةً واحتفاليَّة. الحفلات الموسيقيَّة والثقافيَّة، والندوات الفكريّة في كل مكان. منذ صباحه كانت ممرّاتُ الساحات ومنصات الصالات مملوءةً ببشر من كل حدَب وصوب. شبابٌ كثيرون، وشيوخٌ أيضًا. البعض نام على خيام صغيرة في خلاءات ساحة العيد المهيَّأة لذلك. كُنّا نسيرُ بين مزيج من روائح المشويّات والمقليّات وخليط من أغان بكلّ لُغات الدنيا، وأنغام تتداخلُ فيها موسيقى الجاز، الجيتار، الروك، ومزيج من الألحان العاطفيَّة

والفلكلوريَّة والثوريَّة... رقصات فلكلوريَّة أمام كثير من صالات أفريقيا السوداء، منظمات الأكراد، دُول أميركا الجنوبيَّة... ناهيك عن الرقصات الشعبيَّة لبعض المناطق الفرنسيَّة. لكلِّ ذلك، أعشق فرنسا عيد اللومانيتيه (الإنسانيَّة) من أعماقي. لعلّها تشبه فعلاً تلك الإنسانية التي أحلم بها. إنسانيةً معارِضة، متعدّدة الثقافات، متعددة الأجناس، ترفض الاستغلال والاضطهاد والليبرالية. صرتُ عندما أحلمُ بعالمٍ مثاليٍّ أتوق إليه، أتخايلُ عيد لومانيتيه شاسعًا جدًّا، بحجم الكون.

الفتيان والفتيات يمشون غالبًا مشتبكي الأيدي. كنت أحلمُ أن أشبك أصابع يدي بأصابع يد إيزا لحظةً واحدة. أن أحيط كتفيها بذراعي مثل مراد وماريان في فيلم «... المفقودة». كان حلمًا عنيفًا حادًا. لم أعد أعطي اهتمامًا للندوات السياسيَّة، لصالات لعب عمالقة الشطرنج مع الزائرين، لصالة قراءة الشعر التي كانت مكرَّسة ذلك العام لأراجون... كنت مجنونًا بإيزا، فرحًا من كل أعماقي بالتسكُّع وإياها في هذه الساحات والصالات التي أُحبُّها حقًّا. كان هوسي أن أتوحَّد مع إيزا، أن أشبك أصابعي في أصابعها، أن أضُمّها بين جوانحي ولو ثانيةً واحدة. أن ألمس يدها قليلاً، أن أمُسَّ جلدها مدّة لمحة بصر. أن أستنشق أنفاسها عن قُرب، أن...

أعضاءُ الحزب في كلِّ مكان، على كلِّ الطرق، يبيعون اللومانيتيه، يناقشون الجميع للاستقطاب، لتوقيع المنشورات...

بروفيسورات جامعات على الطرقات يبيعون الصحيفة... أحدهم درّسني العام الماضي. تذكّرته في يوم أول مايو الماضي وهو يبيع وردة الموجييه[1] قرب سوق شعبي في سانت مالو، قبل عودته مسروراً بكسب بعض مئات الفرنكات لدعم ميزانية الحزب... لم أكن متعوِّداً على رؤية هذا النوع من نضال العطاء الذي لا يشبه من قريب أو بعيد ما أعرفه من نضال «الهبَّارين» ونضال «كتاكيت الأحزاب الحاكمة»...

زرتُ يوم الأحد مع إيزا وفرِيد ما تبقّى من منصات شعوب الأرض. رقصنا مساء الأحد في ساحة العروض الكبيرة، غنَّينا مع مئات الآلاف بصوت واحد «نشيد الأمميّة»، حضرنا الألعاب الناريَّة الختاميَّة التي ملأت سماء ليل ساحة الكورنف سناءً ورونقًا... عُدنا آخر الليل إلى سانت مالو في الباص نفسه، وصلناها فجراً.

صرتُ يومها إنسانًا آخر.

صرتُ عاشقًا من عمق أعماقي، كما لم أكنهُ يومًا.

١ - زهرة الموجييه: تظهر في أواخر أبريل، بداية مايو. يقطفُها الشيوعيون (كتقليد عمالي قديم) في يوم واحد مايو، يوم العمّال، ويبيعونها في الطرقات والأسواق، بسعرٍ رمزي لِدعم ميزانية الحزب.

الفصل الثامن

دُرَّة، ميزان

بعد عيد اللومانيتيه مباشرة، بدأت السنة الدراسيّة الثانية أكثر سعادةً وحماسًا ورغبةً في التعليم. لم أستهلّها مثل السنة الماضية مُضرَّجًا بالفجوات والعراقيل التي تركتها في عقلي ومعارفي برامج وطرق التعليم المتخلّفة في اليمن. رمّمتُ كثيرًا من الخرائب. زاد حُبِّي للرياضيات وكرهي للفيزياء. أما مناهج علوم الكمبيوتر التي شملت: الخوارزميات (الجوريثم)، المنطق والاستنتاجات الأتوماتيكيَّة، علم لغات الكمبيوتر وطرائق البرمجة... وما إلى ذلك من مواد علميّة حديثة، فقد صرتُ أعشقُها عشقًا...

إيزا كانت تملأُ قلبي دفئًا وسعادة. تطوَّرت علاقتُنا بشكل ملحوظ بعد عيد اللومانيتيه. صرنا نتحدَّثُ في كل شيء دون تحفظ،

نتناول الوجبات المشتركة في الجامعة في بعض أيام الأسبوع. تفضي لي بيومياتها، بمشاكلها، بكثير مما يدور في خواطرها... تجمعُنا النشاطات المشتركة، نخرجُ معًا للمدينة لشراء ما نحتاجه. غير أنِّي لم ألحظ منها رغم مرور الأسابيع ميلاً قاطعًا لي يشعرني أنَّها قرَّرت تفضيلي على فِريد الذي كانت تبادله أيضًا المشاعر القويَّة نفسها.

أكتوبر، نوفمبر... شهور تكثر فيها النشاطات الدراسيَّة والعامة، تتأسَّسُ فيها المشاريع المختلفة التي تستمر طوال العام. بدأ التحضير أيضًا للانتخابات الرئاسيَّة الفرنسيَّة التي ستتمّ في مايو ١٩٨١، الكلّ في قمة حضوره ونشاطه لا سيّما فِرِيد ونشطاء خليّته.

قرب نهاية نوفمبر وصلت علاقة إيزا بكلينا إلى درجة شديدة الحساسية: لم أعد أطيق ثقل الانتظار. كذلك كان حال فِريد بكل تأكيد. وإيزا دون شكّ، كما كنّا نلحظُه أيضًا. كانت تائهة تشعر بالعجز عن اتخاذ أي قرار، وبعدم المقدرة على تحمُّل ذلك.

بدأتُ أشعر بالأمل كثيرًا عند بداية ديسمبر. قلت لنفسي: ظلمتني الحياة والأقدار طويلاً، وحان موعد تعويضي. تذكَّرتُ بنوع من الرضا والابتهاج العبارة الشهيرة: «يومٌ لك ويومٌ عليك». كانت كلّ الأيام عليَّ ولن يتأخَّر اليوم الذي سيكون لي. لكنَّه سيكون أعظم أيام عمري، سيكون عيد أعيادي، لأنَّ إيزا التي أشعر بسعادة هائلة عندما أراها ستكونُ لي وحدي. لا أفكِّر إلا بها. جعلتني أعشق الحياة. أتفجَّر بفضلها طاقاتٍ ورغبةً بالعطاء والتفاعل مع كل شيء.

يكفيني أن أراها تُحدِّثني، لأصول وأجول في المدينة الجامعيَّة كحصان لا يكلّ.

لكنِّي، لم أعد أطيق أن يظلّ بيننا حاجزٌ ما. لم أعد أطيق واقع علاقتنا هذه. صحيحٌ أنِّي كنت أحلم في الصغر بمعاشرةِ فتاةِ أحلامي طويلاً قبل توحُّدنا، أما الآن فقد صرت أمقت المعاشرة التي تطول كثيراً. صرت أموت لهفةً للحظة بداية توحُّدنا. هل تستوعبون ما يعنيه أن تكون إيزا لي وحدي، طول العمر؟ هل تستوعبون ما يعنيه أن تكون خارقة جمال وعذوبة ورقّة مثل إيزا لكم وحدكم، طول العمر؟ هل تستوعبون ما يعنيه أن يكون كلُّ يوم من أيام السنة «يوم الحب»، يوم «سانت فالنتان»[1] كما يقولون هنا؟... صرتُ أيضاً أثقُ أنَّ الشقاء لن يجد له مكاناً قربي بعد الآن. رثيتُه، لأني سأفقدهُ إلى الأبد في ظلِّ إيزا!... بيد أنِّي كنتُ أشعرُ بمسٍّ من الكهرباء عندما أتذكَّرُ أنَّ ثمة مرشَّحاً آخر لقلبِها، ممحوناً باللهفة نفسها، مسكوناً بالأمل نفسه. ثمّ أستعيدُ في ذاكرتي اللحظات التي شعرتُ فيها تمييزاً طفيفاً من إيزا لصالحي، أُمطمطه في كلِّ الاتجاهات، أضربُ كميَّتهُ بمليون في ذاكرتي لأرفع من معنوياتي وآمالي... أضاعفُ من آمالي بشكل خاص عندما أتذكّرُ عيد اللومانيتيه وما قالته إيزا عن اليمن «... وربما أعيشُ فيها!» أزغرد في أعماقي: «واااااااو، باقي لها دهفة وبَسْ!»

---

١ ـ يوم سانت فالنتان، هو يوم الحبّ الدولي الذي يُحتَفلُ به في ١٤ فبراير من كلّ سنة.

أسألُ نفسي أحياناً: من سيفضِّل رب الكعبة، مُدلَّلاً من أبناء الدول الرأسمالية، أو مسحوقًا من أبناء العالم الثالث؟ ألم يَحرمنا، هو العادل البارئ المصوّرُ له الأسماء الحسنى، نحن أبناء العالم الثالث كثيراً؟ ألن يُعوِّضنا الآن عزّ وجل!... بدأت خلفياتي الإيمانيَّة القويَّة تشحنني بالأمل في بدايات ديسمبر، لا سيّما وأنَّني لاحظتُ مثل فرِيد أنَّ شيئًا يعتمل في قرارة إيزا وأنَّها بين عشيّة وضحاها ستتّخذ قرارًا نهائيًّا باختيار أميرِ أحلامها... عدت لأداء صلاتَي الضحى والوتر اللتين لم أؤدِّهما منذ زمن طويل، لأضاعف من حسناتي ولأتقرّب من الباري كيما يستجيب لدعواتي... ربّما كان عليّ بدل ذلك أن أمارس صلاة الاستسقاء التي لم أؤدِّها يومًا. لا أقصد صلاة الاستسقاء التقليديَّة، لأنَّني في شمال غرب فرنسا أعيش في ديكتاتوريَّة أمطار وغيوم لا تتوقّف، يلزم فيها ممارسة صلاة الاستجفاف إذا جاز القول. بل أقصد بالطبع صلاة استسقاء غيثي الذي طال انتظاره: إيزا.

في منتصف ديسمبر بالتحديد غابت إيزا عن أنظارنا. بدأت عطلة نهاية السنة في حدود العشرين من ديسمبر وهي غائبة عنّا. المدينةُ من جديد في قمَّة عنفوانها وتألّقها كفيشي قبل عامين. الأضواء، الإعلانات، الاحتفالات في كل مكان. إلا أنَّها كانت كئيبةً مظلمةً حقًّا هذه المرّة بسبب غياب إيزا. ارتبكنا كثيرًا فرِيد وأنا دون أن نفهم ما حصل لفتاة أحلامنا ولماذا غابت عنّا دون إشعار.

اتّصلنا معا بمنزل عائلتها في مدينة سانت نازير واثقين أنَّها ستُقَضّي الكريسمس هنالك. كانت هناك فعلاً، إلا أنَّها كانت ترفضُ

أن ترد. تترك فقط عبارةً صغيرةً موجّهةً لنا، يردِّدُها أحد أفراد أسرتها، مفادها أنَّ إيزابل ستعود للسكن الجامعي خلال أيام قلائل.

لم نفهم شيئًا أنا وصديقي اللدود. كُنّا شديدَي القلق، مرتبكين حقًّا. لتبديدِ جنونه، غالى فريد من نشاطاته العامّة وحضورهِ في كلِّ مكان، ونقاشاته التي لا تتوقّف... هكذا يبتلعون مشاكل حياتهم في هذه البلدان: بالعمل الجنوني الذي ينسيهم قليلاً من شدائد الحياة ومصائبها. دخل أيضًا في صراعات طائشة حامية الوطيس مع اليسار المتطرِّف وما أدراك ما اليسار المتطرِّف، مع الاشتراكيين واليمين أكثر من عادته. كان جليَّ النرفزة مع الكل، قلَّ كثيراً تحمُّله للآخرين، في حين زاد التصاقُه بهم وثقلُه عليهم...

أما أنا، عندما تتكالبُ عليَّ مشاكل الحياة وآلامها، أحاول، مثل كلّ يمنيٍّ يحترم نفسه، تبديد آلامي بـ... الهروب أسفل ملايات السرير. لم أغادر غرفتي وسريري. ظللتُ أغوصُ في طقوس «الوسّاح» و«التبلطاح» التقليديَّة. لم ينتشلني من متاهاتي أحيانًا إلا غريمي الحميم هو نفسه: كان يعزمني للتسكُّع الليليِّ أحيانًا في حانات المدينة. نتقيّأُ خلال سويعات بعضًا من آلامنا وانتظاراتنا، نرثي مأساتنا دون أن نتحدَّث عنها، وندرك أنَّ لا أحد منّا يستطيع مساعدة الآخر إلا باستقالته الشخصيّة من الكرة الأرضيّة. القرارُ وحده بيد معشوقتنا المشتركة التي غابت عن ناظرينا. ثم أعود بعد ذلك لغرفتي الجامعيَّة لأواصل طقوس «توسيحي» و«بلطحتي» الانتحاريتين...

عذاب حقيقيٌّ هو ذلك الذي يُدينُك بأن تُقضّي كلَّ يومك في السرير تُردِّد: لعلها اختارتهُ! بالمثل، كان فرِيد يدقُّ باب غرفتي وكأنَّه يريدُ فقط أن يطمئن أنَّها لم تتَّصل بي لتعلن لي أنَّها اختارتني... كان ينتزعني من سريري أيضًا لنتوجَّه نحو ضفاف البحر. كلانا، اليدانِ في جيبَي المعطف، نجوبُ المدينة في المساء، ننطلقُ غالبًا من حديقة الكازينو حيث يرتفع تمثال الكاتب الرومانسي شاتوبريان، نمرُّ أسفل باب سانت فانسان، نحاذي أسوار المدينة الأثريّة، بابها الكبير، نعبرُ أبوابها القديمة، نهيمُ في الميناء القديم، ثمّ نسيرُ طويلاً في شواطئ سانت سرفان، نملأ آذاننا بإيقاع الأمواج العاتية، في درجة حرارة لا تتجاوز الثلاث درجات أحيانًا، نرتعشُ من شِدَّةِ برودةِ نهايات ديسمبر الليلية، تلسعُنا ريح ثلجيَّة قارسة تُجبرنا في الغالب أن نعود إلى الخلف... كُنَّا نسيرُ أيضًا على مشارف دينار المجاورة، من «الساحل الكبير» حتى ساحل سانت إينوجات، أمامنا مناظر خلابة تبدأ من سانت مالو يمينًا حتّى ساحل فريهيل يسارًا، نسير طويلاً على تلك الطريق الصخريّة المحاذية تمامًا للبحر والتي أشتاق لها اليوم وأنا أتخثّرُ في «علبة الصاردين»، نرتعدُ بردًا على إيقاعات رياحٍ وأمواج عاصفة تتلاطم على الأجراف البحريّة... لا نذكرُ اسم إيزا وإن كانت تكتسحُ تفكيرنا دون توقّف. كنّا نرثي أنفسنا بصمت، نبكي قدرنا بلا وعي، ويعرف كُلٌّ منَّا أنَّ مصيبته مازالت تكمن، أكثر من أيّ وقت مضى، في هذا النديمِ الذي يسير بجانبه.

سأكذبُ إن لم أقل إنَّني لم أكن أتمنّى اختفاء غريمي، أو لم أكن أحلم أن تبتلعه أم الصبيان! لعلّه كان مسكونًا تمامًا بالنوع نفسه من الخواطر والأمنيات الرقيقة وإن لم يلجأْ هو لمصطلحات أم صبيانيَّة، لأنَّ كلمة «أم الصبيان»، أو حتى «الجنّ»، لا توجدُ في القاموس اللغوي الفرنسي. يولدُ الطفل، يكبرُ ويموتُ جاهلاً مفهومَ الجنِّ تمامًا! لا توجد حتّى كلمةٌ لغويّةٌ في قاموسه تسمحُ له بإعطاء ذلك المفهوم دلالةً عامّةً ما، فكيف له أن يستوعب خصوصيّات قبائل العفاريت والماردين والشياطين، ومزاج السيّدة أمّ الصبيان؟...

أرثي كثيرًا بشرَ هذه الديار، يجهلون تواجد الجنِّ تمامًا رغم أنَّ هؤلاء يسكنون كلّ مكان: الكهوف، المنازل، البشر، السُّرر، الجدران، الصحراء، السماء، أعماق البحار، الخرائب والقصور... ناهيك أنَّ عدد هؤلاء يفوق بمليارات مميَرة عدد البشر، كما تُعلّمنا ثقافةُ الجنِّ، ثقافتُنا الغنيّة. الجنّ اكتشاف شرقيٌّ خالص. الجنُّ كائنات شرقيّة عنصريّة فخورة بشرقيّتها. ربما لأنَّ الجنَّ لا تحبُّ السكن في هذه العوالم الشماليّة الباردة. لعلّها تُفضِّل الجنوب بكلّ بساطة. تُفضِّل المدن التي تقتلي في زمهرير الشمس، وإن كنتُ أجهل تمامًا كم هي درجة الحرارة المفضّلة لدى الجن.

كم أشتاقُ الآن للجنّ! كم أشتاق لأوطان الجنّ! أشعر بالوحشة والغربة دونهم في هذه الديار... كم أحتاجُ لهم الآن ليساعدوني في الاستئثار بإيزا، ليحملوها لي في طيّات الغسق، كما حمل العفريت دهنش بن شمهرور والجنّية ميمونة بنت الدمرياط (أحد ملوك الجن

المشهورين)، الأميرة بدور (ابنة الملك الغيور، صاحب الجزائر والسبعة القصور) إلى البرجِ الذي سُجِنَ فيه الأمير قمر الدين ابن الملك شاه زمان... في إحدى أروع قصص ألف ليلة وليلة.

في بدءِ عصر يوم ٣١ ديسمبر طرقت باب غرفتي يدان رقيقتان. طرقتا أيضًا في اللحظة نفسها باب جاري. كانت على صاحبتِهما معالم إرهاق شديد وألم واضح. حلقتان سوداوان تحيطان عينيها من أثر السهر اليوميّ. لم نكن وحدنا فقط، أنا وغريمي، موشومَيْنِ بضناء السهر. كانت إيزا تعيشُ النوع نفسه من «الليالي البيضاء»، كما يقولون هنا. طلبت منّا النزول إلى الكافتيريا حيث ستنتظرنا هنالك.

نزلنا على التو، مذهولين قلقين خائفين جدًّا. جلسنا على كرسيين مقابلين لها. طلبنا قهوةً قبل أن نصغي لما ستقوله الحبيبة الغائبة. كانت تحيدُ ناظريها عنا، تنقلُ حدقتي عينيها سريعًا من شرق الكافتيريا إلى غربِها دون أن تتجرَّأ على النظر إلى أعيننا، أو حتى لنا قليلاً. قالت مخفيةً دموعًا تحاول الانهمار:

- أرجو أن تساعداني! لديّ مشكلةٌ كبيرة جدًّا. ثمة قرارٌ حاسمٌ عليَّ أن أتخذه الآن!

كان صمتًا مرعبًا. حتى فرِيد الذي لا تنقصه الكلمات لسرعة بديهته ولباقته كان أخرس مثلي. أضافت:

ـ أحبُّ اثنين! عملتُ المستحيل لأنتظر ريثما يميل قلبي لأحدهما أكثر من الآخر لكنّي لم أستطع. كان بإمكاني القرار لو انتهيتُ بتفضيل أحدهما ولو قليلاً جدًّا على الآخر. يبدو أنَّ ما أعيشه هو حالةٌ نادرة جدًّا تقع مرّةً واحدة في مليار قصّة حب كما يقولون. يظلُّ خلالها كلٌّ من المعشوقين يمتلكُ نصف خلايا القلب بالضبط، دون أن يخسر كروموزومًا واحداً. قد يبدو هذا الوضع نادراً جدًّا، مستحيلاً ربما. لكن هذه هي الحقيقة، هذا ما جرى لي... أُكرِّرُ: لستُ ساديّةً، لستُ ضعيفة الإرادة، لكنَّ هذه مشاعري الحقيقية بكلّ سيرياليتها، بكل أثقالها. لا أدري ما العمل، أشعر أنّي على حافة الجنون. ليال طويلة لم أنم خلالها. أشعر بالعذاب والألم لأنّني لا أستطيع القرار. لا أستطيع أن أتصوّر عذاب أحدهما أو حقده إذا عشتُ مع الآخر... أريدُ أن تساعداني بالخروج من المعضلة، وباتخاذ قرار الحسم في هذه اللحظة.

لم نعرف ما نقول، ضاعت الكلمات تمامًا. لم نتجرأ حتى النظر إليها... خيَّمَ عليَّ فجأة خوفٌ أزرق مما ينتظرني. أضافت:

ـ أريد أن أختار أحدهما، وأن يظلّ الآخر صديقًا أبديًّا لا يتألم أو يحقد على الآخرين... هذا ما أُصرُّ عليه. لذا أبحث الآن عن حلٍّ لاختيار أحدهما. وأبحث عن عهدٍ بأن يظلّ الثاني صديقًا أثيرًا أبديًّا.

لم ننبس كلمة. كنّا مثل طفلين يشعران بالخجل، بما يشبه الذنب، أو بمزيجٍ غريبٍ من مشاعر قلقة يصعبُ وصفها. لعلّنا كُنّا،

ثلاثتنا، أطفالاً دائمِين بأحاسيسنا العارية البريئة، بنوايانا التي تخلو من الدسائس والغدر والكراهية. لكنّها، سامحها اللّه، وضعتنا في ورطة وعذاب.

كنَّا حينها نتناولُ القهوة على طاولة في ركن الكافتيريا، نُحدِّقُ صوب فناجيننا أكثر من أن نتبادل النظرات والابتسامات. نمرُّ بأتعس اللحظات، نعاني أبشعَ أنواع القلق... نُدرك تمامًا ما يلي: تنتظرُ أحدنا جنّةٌ وتنتظرُ الآخر نار.

سألت:

- هل لديكما فكرة تساعدني على الحسم؟

لم يكن صعبًا تقديم مقترحٍ على التو من شخصٍ مثلي له ثقافة «الدُّرّة ميزان»، من جيل «الدُّرّة ميزان»، ويحسم كل اختيارات حياته عندما لا يعرف الاختيار بطريقة «الدرّة ميزان». لكن كان عليَّ أولاً أن أشرح لهما شكل وجهي القطعة النقديّة المعدنيّة: «العانة» (التي أرادت المخيّلة الشعبيَّة لها هذا الاسم المجازيّ الذي لا يخلو من الهوس البيولوجي) والتي كنَّا نستخدمها أثناء طفولتي لحسم القرارات بالاحتكام إلى الحظ بواسطتها: يختارُ أحد الطرفين اللذين يختلفان أو يتنافسان على شيءٍ ما وجه «الدُّرّة» ويختار الآخرُ وجه «الميزان». يأتي حكمٌ آخر ليضع العانة على إبهامه، ثم يدفع الإبهام سريعًا إلى الأعلى لتنطلق على إثرها العانة في سلسلة من الدوران حول نفسها، قبل أن تقع على الأرض على أحد وجهيها، يكون الفائز من اختار

ذلك الوجه. كنتُ ألجأ كثيرًا لـ «الدرّة ميزان» لأحسم كل شيء، عندما لا أدري هل ألعب أو لا ألعب، هل أقرأ أو لا أقرأ، هل أعمل أو لا أعمل، عندما أريد أن أستشفّ الغيب، أو أتنبأ بمصير ما، أو أفترض ما يدور في نوايا الآخرين...

كنتُ داهيةً بالفعل بمقترحي هذا: ألم أعش دومًا سلسلةً من الإخفاقات وحانت لحظة النجاح هذه المرّة؟ ألم تكن «كلّ الأيام عليّ» وحان «يومٌ يكون لي» هذه المرّة؟ ألا يستحقّ معذبو العالم الثالث أن يكون الحظ بجانبهم مرةً واحدة ليفوزوا على هؤلاء المتخمين بالحظِّ منذ ولادتهم؟... قلتُ لنفسي: سيساعدُ عزَّ وجلَّ العالم الثالث هذه المرّة، إن شاء اللّه. كان مقترحي تكتيكًا حكيمًا جدًّا كما بدا لي.

افتتحت لساني على التو! كنتُ أنا صاحب المقترح. قلتُ:

ـ دُقّي درَّة ميزان!

تردّد فريد. تململ، قال إنَّ القرارات الهامة لا تُحلُّ بهذه الطريقة الساذجة. سألتُه إن كان لديه حلٌّ آخر. لم يجب وإن تمتم لي أنَّه يشعر بالخيبة والفشل الذريع مسبقًا. لامني على اللجوء إلى «حرافة» من حرافات علوم وأسرار الشرق التي أنا أخبر منه بها، كما قال.

لم يكن ثمّة فعلاً حلٌّ آخر كما يبدو. أصرت إيزا أن لا نلجأ لهذا الحل إلا إذا تعهّد كلٌّ منّا، بوعد عهد وشرف، أنّه سيقبل النتيجة بروحٍ رياضيَّة، وسيظلّ صديقًا وفيًّا للآخرين كما نحن الآن.

تعهّدتُ الأوّل. كان فرِيد متريّثًا جدًّا، متردّدًا أيضًا، فاقدًا روح المبادرة التي لا تنقصة عادة. تعهّدَ بعدي وإن لم يخل تعهُّدهُ من ترديد عدم استيعابه للوصول إلى هذه الحالة، واللجوء إلى حلٍّ غير عقلاني، وكأنَّه يترك لنفسهِ باب طعن وعودة إلى حلبة الترشيح إذا كان هو الخاسر. بدا على إيزا الارتياح الكامل. كانت تعرفُ أنَّنا سنحترم عهدَينا. تشعرُ ربما أنَّها تخلَّصت من أثقلِ أوزارِ حياتها. أما نحن فقد وصل ثقلُ أوزار قلقنا إلى أقصى درجاته.

اتفقنا أن نستعمل قطعة خمسة فرنكات بدلاً من العانة، وأن نختار « ماريان والوردة » بدلاً من « الدرّة والميزان ». لأنَّ أحد أوجه عملة الخمسة فرنكات عليه نقشٌ مُشتقٌ من لوحة ماريان، رمز فرنسا، منذ الثورة الفرنسيَّة، والوجه الآخر عليه نقشٌ لباقة ورد. اخترتُ بلاوعيٍ: وجه ماريان بجسدها الفاتن، بشعرها المسافر وبخطوتها الملائكيَّة. لعلّ اسم « ماريان »، في فيلم « ... المفقودة »، الذي توهّجَ كبرقٍ في دماغي، هو الذي دفعني لذلك الاختيار. أطلق فيَّ ذلك الاسم أنبل وأعظم أحلام طفولتي. ملأني أملاً بالحياة التي أتلهف شوقًا لها. دندنتُ في أحد أقبية سريرتي: « سأنالُها ماريانتي أنا أيضًا، بعد دهر من الانتظار! ».

خاطبتُ إيزا، بحماسي الذي ازداد تفجُّره: يالله، دُقّي الآن!

رفضت، أو تردّدت بالأحرى. لا تريدُ أن تكون حركة إبهامها سببًا في نكد أحدنا رغم ميثاق الشرف الذي تعهّدناه. اقترحت أن يكون الحكمُ أوّل طالب يدخل قاعة الكافتيريا.

يستحيل أن أنسى ثواني لحظات الانتظار التي مرّت خانقة ثقيلة. مستقبلُ حياة كاملة يتقرّر في لحة «دقّة دُرّة ميزان»! لا أظن أنّ ثمة لحظة تشبه هذه اللحظة في شدَّة خطورتها، في شدَّة طفولتها، في شدَّة براءتها، في شدَّة همجيّتها، في شدَّة... أتساءل: من أي كوكب جاءت هذه الفتاة لتجعلنا نعيش هذه اللحظات التراجيديَّة العصيبة؟ لماذا لم «تدُقّ» هي وحدها «دُرّة ميزان» في غرفتها ذات مساء، قبل شهر أو شهرين، قبل أن تصل علاقتنا إلى هذه الحالة السيرياليَّة؟... أليس القرار الذي سيُتَّخذ في أقصى الخطورة؟ ألا يتركُ ضياعُ معشوقة العمر لِشاب يقترب من الخامسة والعشرين من العمر مثلي، حطامًا في النفس وجراحًا في القلب تشبه جراح فقدان طفلٍ لأمِّه وهو في الخامسة من العمر؟ ماذا لو خسرتُها؟...

لم تكن إلا دقائق قلائل، تلاحقت بطيئةً بطيئةً في عقارب ساعتي البسيكولوجيَّة، حتى دخل القاعة سنغاليٌّ وديع ذو قامة باسقة: دمْبَا، يملأ بهوات العمارة الجامعية ضحكًا عند إطلاله. يسمِّيه كثيرٌ من الزملاء «دي دون مون فريرا!»، «اسمع يا أخي!»، لأنَّه يستهلّ بهذه الجملة الفرنسيّة معظم فقرات أحاديثه، ويلفظها بلهجة سنغالية مدوّية مميّزة.

خلال تلك الدقائق، كنتُ صامتًا أردِّد في محراب سريرتي بكلّ تركيزٍ وخشوعٍ وتوسّل آيات الكرسي، تليها سورة الفاتحة، المعوّذتين: الناس والفلق، ثمّ سورة الإخلاص التي ردَّدتُها حسب الأصول ثلاث مرّات...

توجَّهتُ نحو صديقي دِمْبا بقطعة الخمسة فرنكات، شارحًا له كيف يطلقها، ثم يعودُ إلينا بالوجه الذي يقع على الأرض. استنكر بصوت جهور أمام الجميع، بفرنسية ينطقها بلهجة سنغالية كنتُ أسلو أحيانًا بتقليدها أمامه بكلٍّ ودّ:

ـ دي دون مون فريرا... لا نحب نحن الأفارقة أن تُعطى لنا دروس في كل شيء، خاصة في العلوم التي نحن أول من اخترعناها! أنسيتَ أن أفريقيا هي «مهد البشرية»؟ قضَيتُ كل حياتي أمارسُ هذه اللعبة في ضواحي داكار. الأفارقة يمارسونها بالحجار، بـ«العظمة ذات الأوجه الأربعة» منذ فجر التاريخ...

وضع قطعة الخمسة فرنكات بين راحتي يديه. قلّبَها يسارًا ويمينًا مرات عديدة بين راحتي يديه المنغلقتين، ليختار بالصدفة أحد وجهيها الذي سيبدأ منه انطلاقها. قال:

ـ دي دون مون فريرا لا ينسى الفائز أن يترك لي ١٠ في المائة من الربح، حسب الأصول!

قاطعتهُ سريعًا! قلتُ: ليس هناك ربحٌ ماليّ.

ـ موافقٌ جدًّا! ١٠ في المائة ممّا يكسبه الفائز مهما كان ربحه!

أوقفتُ فذلكاته التقليديَّة. شعرتُ بالعار كما لو انتهك عرضي. كنتُ أثقُ مقدّمًا بفوزي! كنت عجولاً أيضًا. قلتُ له إنّني سأدفعُ له ثمن كأس القهوة لا غير!

عدتُ أدراجي إلى المنضدة. تركتُ قدري بيدِ دمْبا. نفث بالقطعة النقدية عاليًا. استقبلها مطبقًا عليها راحتي يديه كفخٍّ ينقبض على رأس فأر. جاء إلينا بخطوات نصف راقصة مغلقًا الوجه الفائز بين راحتي يديه، مردِّدًا على طريقة أغنية بوب مارلي: «ستاند ألون». لم يحرِّك راحة يده قبل أن يُكمل مقطعًا طويلاً من الأغنية، وكأنَّه يتعمّد تدمير أعصابي وهلاكي.

أبعد راحة يده العليا بحركة أفقيّة مهنيّة لا تخلو من المسرحيّة وحبّ إثارة القلق.

لا أحد من ثلاثتنا أظهر أدنى ابتسامة. كان صمتًا مُهذَّبًا خيَّم على ثلاثتنا في الوقت نفسه، وإن لمعت وامتلأت عينا كلٍّ منا، حسب موقعه من الإعراب، بمشاعر تراوح بين الألم والفرح، بين الرثاء والتباريك... كان بين ثلاثتنا بالطبع سعيدٌ إلى أقصى حدود السعادة، وحزينٌ إلى أقصى حدود الحزن.

اقترحا أن نُقضِّي ثلاثتُنا رأس السنة في أحد المطاعم البحرية الذي ينظِّمُ سهرةً موسيقيةً عربيَّة. اعتذرتُ قائلاً إنَّني، قبيل أن تأتي إيزا بدقائق، استلمتُ تلفونًا من صديق الشارع ح.ع.س. الذي دعاني لقضاء رأس السنة مع عائلته وبعض أصدقائه، ووعدتُه بالوصول إليه في بداية المساء. كان ذلك غير صحيح بالطبع، لكنَّه كان عذرًا أنيقًا قُبِلَ منهما دون نقاش، وإن لاحظتُ عليهما حسرات مخلصة صادقة كثيفة، أعرف تمامًا عمقها ونقاءها وقوّتها. حسرات ممزوجة بشيء ما

يشبه الرأفة لا أحبّه كثيراً. إن لم أقل أكرهه كثيراً. لأنّي أكرهُ أكثر ما أكره أن ينظر إليّ إنسانٌ يومًا بأعين الرأفة. لعلّي متخمٌ بالعيوب والسلبيات دون شك، لكني أمتلكُ إيجابيةً واحدةً على الأقل: لا أحتاجُ لرأفة أحد.

غادرتُ فعلاً سانت مالو تلك الليلة. كان اتجاهي... فيشي!

الفصل التاسع

أبو عَيْنَها

حال وصولي فيشي، أخذتُ غرفةً في السنترال هوتيل. استعدتُ ثانيةً ثانية ذكريات وصولي إليه قبل أقلَّ من سنتين ونصف. كنتُ، وأنا في غمرة التذكّر، أشبهَ بكهلٍ يهوي في دوّامة لولبيَّة من الحسرات والأشواق والحنين. أضحيتُ فعلاً، في تلك السنّ المبكرة جدًّا، شيخًا امتلأَت روحهُ بالتجاعيد، ولم يَعُد لهُ من ملاذ غير الشجن والذكريات.

تغيَّرت كثيراً خلال أقلَّ من سنتين تلك التي أسميتها «مدينة المهد». لم أجد فيها طالبًا ممن كانوا يدرسون معي. الكلّ غادرها لجامعة أو لدورة تدريبيَّة... لم يَعُدْ فيها من تجمعني معه ذكريات ما إلا بائعو المكاتب ومُدرِّسات الكافيلام ونادلات المطاعم، وشبحُ جزائريٍّ أُصبِّحهُ بالخير كلّ يومٍ عندما أنظِّفُ أسناني بمعجون الكولجيت.

قضَيتُ تلك الليلة تعيسًا مرهقًا، أتسكّعُ وحيدًا في الحانات والشوارع التي كنتُ أطوفها قبل حوالى عامٍ ونصف مع رفيق تسكّعاتي الليليّة، الأرجنتيني الأثير: إيمانويل. لقضاء سهرةِ رأس السنة، لم أفكّر بالطبع بالتوجّه إلى ذلك المرقص الذي تخلّدَ ذكراه في فمي. خفتُ أيضًا أن أرى أمامي، في أحد شوارع فيشي، جعفر الذي ضاعت عنّي أخباره والحمد للّه، منذ ترك فيشي. تساءلتُ: ماذا لو أراهُ الآن أمامي مع جزائريٍّ المرقص لتكتملَ سعادتي؟

توجّهتُ للمقهى المجاور للكافيلام لأعيش فيه دقّات ساعة رأس السنة. جلستُ فيه وحيدًا في ركنٍ قصيٍّ، أشربُ نخب احتفالي بهزيمتي الجديدة. كرّرتُ لنفسي: ربّما وُلِدتُ تحت نجمٍ سيِّئ أو في برجٍ كئيب، أو ربما كنتُ طالع نَحسٍ لأنَّ إبليس اللعين مرّ أثناء لحظة ولادتي، أو ربما ثمّة شيطانٌ يختفي داخل السحاب، يراقبُ يدًا عادلةً تلعبُ فوق السحاب لعبة الـ «دُرّة ميزان» لتقرِّر مصائر البشر. لعلّ ذلك الشيطان الرجيم يندسُّ قرب مسار العانة وهي تدور حول نفسها. يتسلّى كثيرًا بحرف وجهها الفائز عن موضعه إذا أوشك أن يكون لصالحي.

عادت إليّ تلك الليلة ذكرياتُ سوسن بشكل خاص. سوسن: آخر حبّ لم ولن يُقتلع من فؤادي. لم تولد هي الأخرى في برج حسنِ الطالع. عادت إليّ ذكريات بنت شارع دغبوس، بعينيها الواسعتين ذات الأهداب العرائسيّة الحالمة، بشعرها السائل حتى الورك، بجمال ابتسامتها ونعومة خدّيها، بدرعها اللازورديّ اللون، بصورتها الحائطيّة المنتصبة أبدًا في بهوِ دماغي، بدفتر يوميّاتها الحزينة، بكلِّ آلامها

ومصائبها... كما لو لم تكفني آلامي ومصائبي. أو كما لو كنتُ أحتاج أن أشعر أنَّ ثمّة على هذه المعمورة من هو أكثر بؤسًا منّي... تساءلتُ: أين هي؟ كيف تعيش؟... بعثتُ لها، في أيّ سجن كانت، أخلص دعواتي وأحرّ أشواقي وأرقّ مشاعري.

حملقتُ في أشكال بشر المقهى وثرثرتهم لأغادر قليلاً دوّامات نكدي. دقّت ساعةُ منتصفِ الليل. شاهدتُ من بعيد تحيّات وعناق وقُبَل القابعين معي في المقهى نفسه كما يشاهد المرء فيلمًا على الشاشة. لم أعد عضواً في هذه الدنيا، صرتُ مشاهداً لها ليس إلا. تساءلتُ حينها: ماذا عملتُ من جريمة لتختلف الهدايا التي أستلمها في يوم رأس السنة عن هدايا بقية البشر: نابًا مقلوعًا، عشقًا مقلوعًا، أملاً مقلوعًا...

في تلك الليلة، كما سأُدرِكُ فيما بعد، صمّم فريد وإيزا طفلهما الأول، كما يبدو. أسمياهُ: وجدان. أتمنّى لهُ حظًّا أفضل من حظّي.

بعد لحظات من بدء عامٍ جديد، أنهيتُ آخر قطرات كأسي. بدأتُ أعطِّفُ همومي وتنهّداتي قبيل مغادرة المقهى والعودة إلى الفندق. أيقنتُ وأنا في مسكِ ختامِ استنتاجاتي وتحليلاتي لآخر هزائمي أن لقب: «ملاك النهايات الحزينة» فُصِّلَ من أجلي أفضل تفصيل.

ما إن غادرت باب المقهى حتّى فوجئتُ بمنظرٍ لم يكن له أن يخطرَ من قريبٍ أو بعيد على بالي أو على مُخيِّلتي في أخصب لحظات توهُّجِها. لم يكن ذلك المنظر في الحقيقة مفاجأةً تقليديَّة على

الإطلاق. لأنَّ إمكانيّة رؤيته في ذلك المكان وفي ذلك الزمان، كانت تخرجُ تمامًا عن دائرة كلّ الاحتمالات مهما تضاءلت الكميّة الرياضيَّة لإمكانيَّة حدوثها.

كان على الطريق المقابل لباب المقهى عاشقان متعانقان بحرارة في قبلة ترفضُ أن تنتهي. قامةُ العاشقة تفوقُ قامة العاشق برأسٍ كامل. كانت طويلةً ممتلئة الجسد بانسجام وتناسق، فاقعة البياض، سلسة الأعضاء، كثيرة الماكياج، مهنيَّة الغنج والأناقة. اقتربتُ من الثنائي الغارق في العناق كي أتأكد أنَّني لا أحلم، وأن من أراهُ مغموراً في جسد معشوقته ليس صديقًا قديمًا أعرفه شخصيًّا أكثر من أي إنسان آخر في هذا البلد، أو ربما أكثر من أي إنسان آخر على هذه المعمورة. كنتُ أريد أن أتأكَّد فقط أنَّه ليس ذلك الذي سعدتُ بالهروب منه أكثر من سنة ونصف.

كلا! كان هو عينُه: جعفر الدملاني، أكثر أوروبيةً من أي وقت مضى، أكثر لمعانًا وتألقًا ونجوميَّة. رمقني قبل أن أطلق رجليَّ للريح وأهرب نحو أقرب رأس جبل أو خندق أو «ضاحية» أو هاوية. ترك معشوقتَه وجاء نحوي يغرقني عناقًا وقُبَلاً كنتُ أحرص أن تختلف عن تلك القبل التي كان يصبُّها صبًّا قبل قليل.

ـ لا أُصدِّق عينيّ، بحثتُ عنك في كل مكان، أين اختفيت يا جبان؟ ولماذا لم تسأل عنِّي أو تأت لِنيس؟

ـ ...

ثمّ سألتُه: ماذا تعملُ هنا؟

ـ هذه قصة طويلة، تعال نشرب أولاً نخب السنة الجديدة. وأنت ماذا تعمل هنا؟

ـ مُجرّد زيارة... كيف اللغة الفرنسيَّة الآن، وكيف الحياة في نِيس؟، سألته.

ـ واللَّه اللغة الفرنسيَّة، ما زالت مثلما تركتك وأسوأ قليلاً. بيني وبينها سدّ مسدود وعفاريت الأخدود. ربما هناك دعوةُ حاسد لئيم فرَّقت بيني وبينها إلى الأبد. أو ربّما أن الفرنصاويين لا يفهمون الفرنسيَّة. لأنّ هناك شيئًا واحداً من اثنين: إما أنا لا أتكلَّم الفرنسيَّة بشكل جيِّد أو أن الفرنصاويين لا يفهمون اللغة الفرنسيَّة بشكل جيّد. حتى اللغة الأكاديميَّة لا يفهمونها أولاد الحرام. لأنَّ أخاك صار أكاديميًّا هذه الأيام. واللَّه إنَّ الفرنصاويين عجب في عجب: حتى عندما أُشكِّل حروفي (يقصد: عندما ألفظها كما لو كان عليها التشكيل النحويّ العربي) وأنا أرطن بالطريقة الأكاديميَّة من أجل أن يفهموني، لا أحد يفهمني. العجم سيظلون عجمًا إلى يوم القيامة، صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يفقهون. لكنِّي الآن صرتُ أرطنُ لغة روسيَّة من أحسن ما يمكن!

ـ عفواً...

ثم نطق بالروسيَّة كلماتٍ موجَّهةً لتلك التي كانت تُلَملِمُه في أحضانها قبل قليل، قبل أن يقول لي: هذه تاتيانا، زوجتي بالرضاعة!

كدتُ أنفجر ضحكًا أمام وجهيهما بعد سماع مصطلحه الأخير، لكنِّي تمكنتُ من السيطرة على نفسي. نظرتُ لها. لم تكن

ممن أسمِّيهنّ حسناوات إطلاقًا. كانت أقرب لذلك النمط الذي يلهبُ شهوة هواة المجلات الإباحيَّة. واصل جعفر معرِّفًا بها:

ـ أسلمت البنيّة على يدي وصار اسمها الآن: حفصة. تعال إلى المقهى وسأحكي لك كل هذه الخبابير. بس فين البنيّة حقّك، وإلا مكانك تُحضِّر دكتوراه بالترهيط؟

ـ . . .

توجّهنا نحو الطاولة نفسها التي كنتُ فيها قبيل دقائق. بدأ من قصّة حفصة. عرفتُ أنَّه كان زبونًا وفيًّا دائمًا لها في كليرمون عندما كان في آخر أيامه في فيشي. انسجما كثيراً كما يبدو. كثيراً جدًّا. عاد لها من نِيْس أكثر من مرة. لا أدري إن كان حينها «يتشعبط» في ظهر القطار حسب مصطلحه. أحبَّتهُ بقوَّة كما عرفتُ لأنَّها كانت واثقةً جداً أنَّه يحبُّها.

تحدَّثتُ معها مباشرة. كانت تنطق الفرنسيَّة بلهجة سلافيَّة ثخينة. كانت طيّبةً، مرهفة الحسّ، مثقَّفةً إلى حدّ ما، ذات فلسفة حياتيّة غريبة متميِّزة جدًّا. قالت لي بهدوء باهر وبكلمات فصيحة جميلة الاختيار:

ـ هربتُ من روسيا قبل حوالى سنتين بمعجزة. قصةٌ طويلة لست مستعدَّة لحكايتها الآن. كمعظم سكّان روسيا، لم أطق الحياة فيها إطلاقًا. كنت أحلم بالهروب منها منذ الصغر. حال وصولي لكليرمون وأنا في العشرين من العمر، عملتُ سكرتيرةً في مكتب سياحيّ،

لأستثمر معرفتي الجيِّدة للّغة الإنجليزيَّة. مللتُ عملي سريعًا: لم أطق النهوض صباح كلّ يوم للعمل كآلة، والعودة في المساء نصف ميّتة، مقابل راتب لا يكفيني للحياة التي أحلم بها. بدأتُ عملي كمومسة، تعملُ لحسابها الشخصي، عن رغبة واختيار. كنتُ أحبُّ عملي وأراهُ حينها وسيلةً إنسانيّةً لتخفيف آلام المحرومين، أو لكَبْح جماح كثيرين عن ممارسة العنف والاغتصاب الذي يتركه الكبت والرغبات المقموعة. تيسَّرت حالتي الماليَّة سريعًا لأنَّ جسدي كما يبدو يناسب ذوق الكثيرين. بدا لي أنَّني سأمارسُ طويلاً هذه المهنة التي لم تكن سهلةً مع كل ذلك لأنَّ ثمّة أنواعًا بشريَّةً لم تكن في منتهى الرقَّة والإنسانيَّة. بعضهم طائشون كثيرًا، وبعضهم لن تُحَلَّ مشاكلهم حتى لو انطبقت السماء على الأرض. ظننتُ أنَّني سأمارس تلك المهنة، مع كلِّ ذلك، عشرين سنةً على الأقل، حتى الأربعين من العمر. عندها سأعشقُ آخر زبون لي وسأبدأُ معه حياة سعيدة في فيلة بحريّة في جنوب فرنسا، أو في جزيرة نائية. سيكون لنا طفلٌ أو طفلان. سنعيش سعداء بفضل ما سأكون قد ادخرته خلال عشرين سنة. غير أنَّ كلّ برنامج حياتي تغيَّر منذ بدء عملي: تعرَّفتُ على جعفر قبل أن يُكمل سنة دراسته في فيشي، في أوّل شهور وصولي. عرفتُ أنَّه يُحبّني حقًّا عندما عاد إليّ من مدينته البعيدة: نيس، أكثر من مرة، في أسابيع متتالية. صرّح لي بعشقه وأقسم أنَّه لا يمكنه مفارقتي حتّى لو انطبقت السماء على الأرض. كنتُ أحدِّثه حينها بالروسيَّة لأنَّني لم أكن أتكلَّم الفرنسيَّة حينها، التقطها في حين مازال يعاني صعوبات في الفرنسيَّة إلى اليوم.

بعد قسمهِ الغليظ وثقتي بحُبِّه لي، توقّفتُ كليّةً بعد أشهر قليلة عن ممارسة تلك المهنة. كان جعفر آخر زبونٍ لي وأوّل معشوقٍ لي في حياتي. أحبّه ويحبّني بشكل لا تتصوَّره. نحن سعداء جدًّا.

كنت مذهولاً وأنا أصغي لها تحكي سيرتها بكلّ شفافيّة وثقة وكبرياء. لم أتوقّع من «بائعة متعة» سابقة أن تكون بهذه الثقة بالنفس والجرأة والصفاء والإتقان في اختيار الكلمات (وإن كانت تميل إلى تكرار صيغة: «لو انطبقت السماء على الأرض» التي تعلّمتها كما يبدو من لغة جعفر). كنتُ أُترجم لجعفر بعض ما تقوله حفصة وإن لم يكن يعطي أدنى اهتمامٍ لسردها. كنتُ وحدي أصغي لكل ذلك بإحراجٍ وقلقٍ وتعقيد، أجدُ صعوبةً في استيعاب كلّ ذلك، في حين كان جعفر «مُطنطنًا» في ذروة سعادته وهدوئه وفخره، لا تنقصهُ إلا نارجيلة يمنيَّة، مداعة، وتبغ من طراز «فخفخينا» لتكتمل هيئته الباشويَّة وأبهته السلطانيَّة.

عرفتُ أيضًا أنَّها وجدت بعد ذلك عملاً جديداً جيِّداً في فندق سياحيّ هام في كليرمون. استأجرت إثرهُ شقّةً وثيرةً لهما. يأتي جعفر لزيارتها أسبوعيًّا يومين أو ثلاثة أيام. تُغدقهُ حُبًّا ومالاً وعشقًا كما لم يحلم به من قبل. أسلمت أيضًا لتكون عند ذوقهِ ورغباتهِ. قالت لي إنَّ جعفر أسماها: حفصة بعد إسلامها. (أو هفسة، كما نَطَقَتها). سألتني ماذا يعني ذلك الإسم. قلتُ: لا أعرف. سألتني إن كان جميلاً. قلت: جميلٌ جدًّا، يُجنّن! قالت لي إنَّها عرفت من جعفر أنَّ أهل قرية الزرائب هم أفضل وأشجع ناس في اليمن، ومن أفضل قبيلة

يمنيّة. أضافت أنّها تعرفني أيضًا من خلال جعفر الذي حدّثها عنّي منذ البداية...

كان يمكنني أن أتصوّر حياة جعفر منذ أن فارقتُه قبل سنة ونصف، انطلاقًا من أكثر من سيناريو، أو حسب أكثر من فرضية. غير أنّي كنتُ غير قادر أبدًا أن أتصوّرها على ترانيم هذه التنغيمة. حقًّا: «الحياةُ عجائب!»، كما كانت تردِّدُ دومًا جدّتي نور رحمها الله وأسكنها أوسع جنانه.

ـ والدراسة، كيف الدراسة في نِيْس؟، سألتُ جعفر مباشرة.

ـ الدراسة: والُو، (قالها بالمغربية!) ثمّ أضاف مترجمًا: الدراسة: ولا يحزنون يا ابن العم... ما سَبَرتْش لا من قريب ولا من بعيد. لكن لا يهمّ! اليمن محتاجة لي! وسأغادرُ فرنسا نحو أرض الوطن هذا الأسبوع. لكن أمانتك لا تقل للحجّة حقّي هذا الخبر إذا أردت أن لا تنتحر المسكينة. هذا الخبر بيني وبينك فقط، وأنت صديق عزيز وأمين تكتم السر وترحم الضعفاء والنساء والأيتام.

لاحظتُ، ونحن نتبادلُ أحاديثنا وأخبارنا بكلّ ودّية، أنَّ ثمة تغيُّرات كثيرة طرأت على جعفر منذ أن فارقته. صار يهتمُّ كثيراً بالسياسة. كان تجرُّده الكامل عنها خلال سنة اللغة، كما كنتُ أتوهَّم، وجهلُهُ الكامل لطقوسها ومصطلحاتها، كما كنتُ أظن، هو أكثر ما كان يعجبني ويُسلّيني فيه خلال شهور سكننا المشترك. كنتُ ألهو كثيرًا عندما كنتُ أستفزُّه ببعض المصطلحات، حتّى وإن كنتُ

استعملها أحيانًا من باب العبث، لمجرّد رغبتي في سماع ردّه. كنتُ أقول له مثلاً:

ـ يا جعفر، اسكت يا أخي، أنت برجماتي جدًّا!

كنتُ أنفجرُ ضحكًا عندما يقفزُ أمامي وكأنَّه يبحث عن جنبيته. يصرخ:

ـ أنا أبو جعفر، أنا ابن دملان! ها ما قلت؟ هذه شتيمة وإلا مدح وإلا ماه؟ أستغفر اللّه يا خبير! لو كُنتَ حاليًا معي في دملان، لكُنتُ أرغمتك أن تذبح لي ثورًا لتُكفِّر عمّا قلتهُ.

أما الآن فها هو نفسه يستعمل مصطلحات كبيرة لأول مرّة مثل: الثوابت اليمنيّة، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، شعبنا القبلي الأصيل، الإرهاب والخطر الشيوعي، أمن الوطن واستقراره، الأمة الإسلاميَّة... يستعملُ أيضًا كلمات جديدة لم أسمعها في فمه من قبل: إرهاصات، أكاديميَّة، ليبراليَّة، ماركسيَّة...

ـ ماذا حصل لك؟ من فين جبت كلّ هذه الكلمات؟ سألتُه.

ـ تغيَّرت الدنيا يا ابن العم. أخوك دخل داخل السياسة. ما تنفع في اليمن إلا السياسة. من يدري سيجيء اليوم الذي سأكون فيه شيخًا كبيرًا، أو زعيمًا كبيرًا، أو رئيسًا كبيرًا، أو إمامًا كبيرًا. من يدري، سأصير أميرًا أو أميرالاً أو الإثنين معًا: الأمير الأميرال جعفر الدملاني، هاه كيف تشوف؟

ـ اشرح لي أنا عند اللّه وعندك، لا أفهم شيئًا، قلتُ له.

ـ واللّه لن تفهم شيئًا ممّا سأقولُه، شرحتُ لك أم لم أشرح لك. لكنّي سأوضّح لك لأنَّك صاحبي من صدق، وإن كنتُ، واللّه العظيم، أعرفُ أنَّك لن تفهم منه شيئًا. صلِّ على النبي واسمع ما سأقوله: لا ينجح في هذه الدنيا إلاّ من يفهم أنَّ الحياة مزحة كبيرة، ويعرف كيف يُقَلِّب يده ويتلاءم معها. لهذا أنصحك إذا أردتَ أن تنجح في الحياة أن تتعلَّم تُقلِّب يدّك ولا تتقنفز بالمبادئ حقِّك كما أعرفك. هذه نصيحة أخ يحبّك! أفهم أنَّ الحياة صفطة كبيرة يا ابن العم! بل كذبة كبيرة أيضًا. منذ أول يوم بدأت فيها الحياة على الأرض كانت كذبة، عندما أراد سيدنا آدم وأمنا حواء عليهما السلام مغالطة أرحم الراحمين بأكل التفاحة بالخفاء. الدنيا بدأت مغالطة. أما السياسة يا قُرّة عيني فهي أم الصفطات. السياسة حقّكم وحقّنا في الشمال والجنوب كُلّها بالهواء سواء: لعبة في لعبة. أنت يا ابن العم حمار كبير منذ أن عرفتك، لم تفهم ولن تفهم من هذا شيئًا. لكن هذه هي الحقيقة وستأتي عليها. السياسة عندنا وعندكم في الشمال والجنوب، مثل الذي يركل الكرة باتجاه المرمى وهو مغمّض العينين: عندما يدخل الإنسان في السياسة في اليمن يُغمضون على عيونه، ويخلونه يركل الكرة. إمّا دخلت الكرة داخل المرمى وفاز. وإما خرجت بَرّع المرمى وخسر. هذه هي السياسة في اليمن لا غير. لكن بيني وبينك، مُغمِّض أو مُفَتِّح، أنا أشمّ موقع المرمى بالفطرة، وأعرف كيف أُدخل الكرة المرمى بطريقتي الخاصة.

ثمّ أضاف عبارة أخيرة:

ـ اسمع يا ابن العم، لو طلع أخوك مسؤولاً كبيرًا في هذه البلاد، أعرف أنَّك ستقول: «هذه أكبر مزحة في التاريخ»! هي ستكون فعلاً أكبر مزحة في التاريخ. لكن هذه هي الحياة: ضحكة في ضحكة. لكن، أعِدك وعد رجال: يمكن أن تعتمد عليّ إذا احتجت لشيء. الذي بيننا من عيش وملح وأُخوّة كبيرٌ جدًّا يا ابن العم. ولن أنساك أبدًا وأنت سترى كلام الرجال. واللّه حتى لو طلعتُ رئيسًا لأميركا سأختارك تشتغل عندي رئيس وزراء، أو وزير، أو الناطق الرسمي باسمي لأنَّه كلامك حالي يفتح النفس. وأنت ولد على نواياك تسمع الكلام، لا تعرف تقول: لا، ومسكين وصالح ومطيع... لكن مشكلتك أنَّك مغمور كثيراً جدًّا، ولا تحب الأضواء والمناصب والمسؤولين، ولن تعرِّي يومًا مؤخرتك من أجل منصب كبير، وإلا لطلّعتك إلى السماء.

لم أفهم بالفعل كلمة مما كان يقوله. كنتُ أتساءل إن لم يكن أكثر «طنطنةً» من عادته في هذه الليلة الاحتفاليَّة الكبرى. كنتُ أسخرُ منه في أعماقي إلى أقصى حدود السخريَّة، كعادتي. سألتُه مع ذلك:

ـ لماذا استدعوك إذن؟ ولماذا لا تواصل الدراسة؟

ـ اليمن محتاجة لي، قلتُ لك. نداء الوطن فوق كلّ نداء!

أشفق عليّ لأنَّني لم أكن أعرف كيف أردُّ عليه. كنتُ محتاجًا فعلاً إلى توضيح أكثر. قال:

ـ الأيام هذه أيام خيرات في قرية الزرائب. معي ضلوع كبار من القرية نفسها. وأبناء قريتي هذه الأيام طلعوا الثُّريّا في الإدارة

والعسكرة والسياسة والاقتصاد والعلم، وهم يعرفونني تمامًا ويعرفون شطارتي. قالوا إنَّ هناك مهامَّ جديدة أمام الوطن، وقالوا ما لها إلا أبو عينها: جعفر. لهذا سأنزل اليمن لأنَّ دعوة الوطن فوق كلّ دعوة... الآن بطِّل الأسئلة الكثيرة. وتعلّم كيف تُقلِّب يدك وإلا ستظل طارش مطروش وخُرم مهموش.

لم يكن درسًا في علوم الأخلاق والسلوك السياسي ذلك الذي لقَّنني إيّاه جعفر. أو ربما كان درسًا كثيفًا حقيقيًّا مملوءاً بالعمق والصدق والصراحة. لكنَّه كان بعيداً جداًّ عن درس صفات «المناضل الثوري» كما تعلَّمتهُ في الصفحات الأولى من النظام الداخلي للتنظيم السياسي الموحّد: «الصدق، الصراحة، نكران الذات، التفاني، الإخلاص، السهر على مصالح الشعب...» إلى آخر قائمة الصفات التي تنافسُ في عددِها عدد صفات الذات العليا. لكنّه أيضا كان قريبًا جداًّ مما حصل ويحصل من مآسٍ على واقع الحياة السياسيَّة اليمنيَّة صنعها ويصنعُها «المناضلون الثوريون» و«القوى الرجعيّة» كتفًا بكتف. عمومًا، لم أفهم حينها كلمةً مما كان يقوله جعفر وإن لم يكن يتحدَّثُ حينها بالفرنسيَّة. شعرتُ بعد ذلك بالرغبة للعودة للفندق والنوم في غرفتي بعد إرهاق يومٍ لا يُنسى.

خاطرةٌ صغيرةٌ دقَّت حينها على رأسي «كجلمود صخرٍ حطّه السيلُ من علِ»: لو دارت قطعةُ الخمسة فرنكات، التي أطلقها قبيل سويعات صديقي السنغالي دِمبا، دورةً واحدةً أكثر أو أقل، لكنتُ حينها في أحضان معبودتي: إيزا، ولما كنتُ هنا أنصتُ لمحاضرة

فلسفيّة راقية عن العمل السياسي اليمني في هذه الساعة المتأخِّرة من الليل. تنهّدتُ على أصداء هذه الخاطرة تنهُّدةً انفطرت لها قلوب ملائكة الأرض والسماء.

استأذنتُ للذهاب للفندق. كان لحفصة وجعفر غرفةٌ في فندق غير بعيد يُقضّيان فيه ليلة رأس السنة. تواعدنا باللقاء صباح الغد في محطة القطار قبل أن يتوجَّه كُلٌّ واحدٍ منّا إلى مدينته.

عندما وصلتُ صباح الغد كان جعفر على وشك الإقلاع. ودَّعني بحميميَّة. هامسني في أذني: إلى اللقاء قريبًا في اليمن، قبل أن يضيف: أنا قبيلي يا ابن العم، كلامي صدق وكلام رجال، إذا احتاجيت أي شيء لا تستحي...

ثمّ ودَّع حفصة. دثَّرتهُ بجسدها بكلّ رقّة. ترك على شفتيها قبلةً عاصفة. لعلها كانت أكثر عنفًا من عادته لأنّها كانت آخر قبلة يتركها على ثغرها، أو لأنّها كانت طريقته في التعبير عن رثائه لمعشوقةٍ لا تعرفُ أنَّها لن تراه بعد ذلك أبداً...

لعلَّ آخر عبارة قالها لها بالروسية: «إلى اللقاء يا حياتي السبت القادم!»، ثمّ توجَّه إلى باب العربة. دخلها بعد أن استدار نحونا مُحيِّينا بعينيه اللامعتين وبابتسامته الطفوليّة الملائكيَّة.

كانت حفصة تودِّعه بعينين مضمّختين بامتنان وعرفان من وجد أخيرًا معنًى لحياته. نظراتُها تُشعٌّ سعادةً وعشقًا. لعلّها بدأت تحنّ من تلك اللحظة للسبت القادم، بكلّ صبابة ولوعة عاشقة اكتشفت أخيراً كم هو رائعٌ أن يسقط الإنسان فجأةً أسير الحبِّ الجارف.

الفصل العاشر

كان عِشقًا طفيفًا جدًّا

وصلتُ سانت مالو في مساءٍ غائم. رذاذ ميكروسكوبي يهطل كـ «غوبةٍ»[1] مائيةٍ دائمة، يجعلُك، مثل بشر هذه الديار، تمتعضُ من الغيوم وتمقتُ المطر إلى الأبد. إيزا وفريد بدآ شهر عسلهما، أو سنة عسلِهما، إن لم أقل عمر عسلهما. أما أنا فقد بدأتُ حينها سنّ التقاعد. بدأت أعبُرُ «درب القيامة» أو «درب الصليب»، كما يقولون هنا. بدأت أهوي في سنين مارقة، سالت كخيط ماء هارب بين أصابع مرتجفة. سنواتٌ عجافٌ تدحرجتُ خلالها منحدراً نحو هاوية.

هذا إذا أسميت تيماء: هاوية. تيماء تلك التي ستكون خلال خمس سنوات تقريبًا ولعي وهوسي، لوعتي وتباريحي... قبل أن

١ ـ الغوبة: تسمية شعبية للريحِ الممتلئة بالغبار.

أراها حقًّا في نهايات يناير ١٩٨٦ (الذي لم يكن مع ذلك شهرًا رومانسيًّا!) أتوحَّدُ خلاله معها روحًا وجسدًا (صدِّقوا أو لا تصدِّقوا!)، تكونُ لي وأكونُ لها، نحيا بعده معًا عاشقَين مُسْرِفَين في عشقهما وفخورين بذلك، منغلقين على بعضهما ليل نهار في غرفةٍ واحدة. تيماء: أكبر، أقوى، أفتك، وأغرب عشقٍ في الدنيا. جنوني العبقري الرائع. تلك التي ستنقسم حياتي بفضلها إلى ما قبل وما بعد تيماء.

لم أعد أرى إيزا و فريد، منذ عودتي من فيشي، إلا متعانقين دومًا في سيرِهما، على رواق العمارات أو في الشارع، في مطاعم الجامعة أو في المدينة... كانا يستضيفانني في غرفتهما للعشاء غالبًا وإن لم يعد للقاءاتنا، في أحاسيسي العميقة، نكهة طفوليّة تشبه نكهاتها السابقة. كنتُ مع ذلك أحافظ قدر ما أستطيع على تقاليد علاقتنا وطقوسها اليوميَّة، وإن كانت نظراتي لإيزا تخبِّئُ حسرات مكتومةً كثيفة، تشبه حسرات النظرة الأخيرة لذلك السلطان المخلوع الذي ودّع غرناطة إلى الأبد، ذات فجرٍ قاتمٍ من عام ١٤٩٢، قرب صخرة جبليّة شهيرة. حسراتٌ خلَّدتها أقلامُ المؤرخين والروائيين بتعميدها: آخر حسرات الأندلسيِّ المسلم.

طلبت إيزا وفريد تغيير سكنهما منذ بداية يناير لينتقلا للعيش في الشقق الخاصة بأزواج الطلبة (متزوجين رسميين كانوا أو غير متزوجين). غادرا عمارتي في بداية فبراير، ليسكنها بدلاً منهما:

برنار، طالبٌ تعيسٌ إنسانيًّا، قبيحٌ فيزيائيًا، طامةٌ من طامات ليبراليّي الثمانينيات، وثعلبٌ من ثعالب زمنِ اقتصاد السوق والبورصة. لم أكن شديد الحظ: كان بليداً وتعيسًا جدًّا ذلك الذي سكن في غرفة جاري القديم.

بعد تغييرِ سكنِهما لم أعد أرى إيزا وفريد إلا نادراً. كلّما رأيت إيزا كنتُ أشعرُ باختلاج وحشرجة متميّزة في القلب، أيقنتُ أنَّهما لن يفارقاني وإن صرتُ رفاتًا في القبر. أمّا فريد فكنتُ أراهُ بشكل خاص عندما يهرع نحو غرفتي، بين أسبوع وآخر، يرجوني توزيع منشور ما في صالات الجامعة بدلاً منه، مُدَّعيًا أن لديه امتحانًا هامًّا في عصر ذلك اليوم. كثُرت امتحاناته، قلَّ نشاطه، وزاد توزيعي للمنشورات. أفهمه تمامًا مع ذلك، لأنَّني لو كنتُ في محلِّه لنسيتُ كلّ شيء، لطلّقتُ العلم والثقافة والسياسة والرحلات والأسفار، ولاعتبرتُ إيزا منظمتي القاعديَّة ولجنتي المركزيَّة ومكتبي السياسي، نقابتي وناديَّ الثقافي، مختبري ومكتبتي، ملكتي ومملكتي، معبدي ومعبودتي... لو كنتُ محلَّهُ لمارستُ كلَّ نشاطاتي العلميَّة والثقافيَّة والفكريَّة والاجتماعيَّة في أحضانها لا غير.

زاد غياب فريد وإيزا عن النشاطات العامة خلال الأشهر اللاحقة، لا سيَّما عند قرب موعد الانتخابات الرئاسيَّة في مايو ١٩٨١ . كنتُ أتفجَّر حينها حماسًا لحملة جورج مارشيه الانتخابيَّة، وأساهمُ بدعمها بكلِّ ما أملك. امتلأت تلك الانتخابات بكلّ جدلها

الفكري والسياسي وحماسها وعواطفها بذكريات قويّة لن أنساها. انتهت أيضًا بوصولِ اليسار إلى السلطة.

أتذكَّرُ بشكل خاص حدثًا استعدتُه وتأملتُه منذ ذلك اليوم مليون مرّة. كان ذلك يوم مجيء جورج مارشيه لإلقاء محاضرة في منطقة سانت مالو قبيل الانتخابات. جاء فريد بعجلٍ إلى غرفتي عصر ذلك اليوم يطلب منّي توزيع منشور في أحد شوارع المدينة الرئيسة، لأنَّ لديه امتحانًا هامًّا أيضًا.

هرعتُ مع كراديس المناشير نحو ذلك الشارع وكأنّي أذهبُ لتنفيذ تكليف عسكريّ. وقفتُ في ركنِهِ ولفظتُ مئات المرات صيغ: «فضلاً أيُّها السيّد، فضلاً أيتها السيّدة...» حتى لم يتبق لي إلا منشور واحد عطَّفتهُ ودلفتهُ في جيب سروالي. عدتُ للسكن الجامعي. بعد العشاء في المطعم الجامعي، توجَّهتُ كعادتي لرؤية أخبار الثامنة مساءً في صالة التلفزيون، ثمّ النشرة الجويّة التي تليها. كانت لحظات نشرةِ الطقس الجويّ لحظات تأفُّفٍ تقليديَّة نمارسُ خلالها ضجرنا من هذه السماء الملفوفة بالعبايات والشراشف، وسخَطَنا من بصْقها المتواصلِ فوق رؤوسنا. ثمّ توجَّهتُ لغرفتي.

قبل أن أبدأ سهرتي الغراميَّة كعادتي مع علوم الرياضيات والكمبيوتر، تذكَّرتُ المنشور الذي تركته في جيبي. أخرجتُه للقراءة. لم أصدِّق عينيي: كان شتمًا جامحًا عارمًا لجيسكار ديستان، رئيس فرنسا، ولسياسته وبرنامجه الانتخابي... لم ينقصهُ إلا أن «يُعَرْعِر»

لجيسكار. شعرتُ بنوعٍ من الصدمة وأنا أتخايلُ أستراليًّا أو صوماليًّا يسكنُ اليمن ويستلمُ منحةً دراسيةً من الحكومة اليمنيَّة، يوزِّعُ منشوراً عند «باب اليمن» أو شارع المعلا الرئيس يسبُّ رئيس البلد الذي يسكنه ويستلم منحةً ماليَّة من حكومته. تساءلتُ: ماذا كان سيُعملُ به هنالك؟... في حين يبدو بديهيًّا هنا أنَّه لا فرق بين موّزعِ منشورٍ عربيٍّ أو عجميٍّ إلا في اسم الحزب الذي يحملهُ ذلك المنشور. ناهيك أنَّ تعريض أي رئيسٍ هنا شيءٌ لا يُثيرُ انتباه أحد. لذلك، كنّا غالبًا، معشر الطلبة القادمين من دول العالم الثالث غير الديمقراطيَّة، لا نُقصِّرُ في ممارسة التعريض اليوميِّ بحقّ رؤساء هذه الديار، في حين لا نعرف غير تفخيم رؤسائنا الأعزّاء الذين كنّا نعرفُ جميعًا مع ذلك كم هي ملطّخةٌ بالدماء أيديهم، ونسخرُ دومًا في قرارتنا من همجيّتهم وفرطِ جهلِهم بشكل عام، ومن فواحش الأخطاء اللغويَّة التي يرتكبونها بشكل خاص. كي نُخفِّف من كُربنا، كُنَّا «نتنقّهُ» بالسخريّة من رؤساء هذه الديار. كنّا نُشبهُ كثيراً في سلوكنا هذا بطل مسرحية: «زوجة الخبّاز» الشهيرة، الذي كانت زوجته، التي تصغرهُ عددًا كبيرًا من السنين، تخونُه ولا يتجرأ أن يقول لها شيئًا، في حين يشتمُ دومًا قطّة منزله، عندما تغيب عن المنزل، بأقسى العبارات المُدوِّية: أين ذهبت المومسة، الوسخة، التي تترك منزلها لممارسة الدعارة؟...

منذ عودتي للدراسةِ بعد إجازة رأس السنة وفقدي الأبدي لإيزا كانت دروسُ الرياضيات والكمبيوتر ملجأي وملاذي من مأساتي.

بفضلها، قضَيتُ لياليّ وأيامي أتمتّعُ في حلِّ التمارين المتنوعة الأكثر فأكثر تعقيداً، وأتلذّذُ في تصميم وكتابة برامج الكمبيوتر الأكثر فأكثر أناقةً وتعبيريَّة. وهبتُ للرياضيات والكمبيوتر حينها أجمل لحظات صفاءِ عقلي وتركيزي، أجمل خطوط يدي، أجمل دفاتري وأقلامي. تنوّعت دفاترُ «أنطولوجيا» أجملِ التمارين التي حللتُها، أجملِ برامج الكمبيوتر التي كتبتُها. كنتُ مثابراً، صابراً، مرضيًّا في حرصي على بلوغها الكمال والجمال والإتقان التام. في حين كانت دفاتر الفيزياء التي جئتُ لأتخصَّص فيها أشبه بـ «خرابيش دجاج»، أما الكيمياء فلم أحرص، بكلّ تأكيد، على أن يكون لها دفتر.

كان عليّ حينها أن أُقدِّم طلبًا رسميًّا لِـ «الداخل» لتغيير تخصُّصي كيما أبدأ في العام التالي عمل ليسانس في علوم الرياضيات والكمبيوتر بدلاً من الفيزياء. لم أتجرأ على طلب ذلك، ودفعتُ قيمة جُبني غاليًا غاليًا غاليًا. لم أرد أن أُزعج م.ط: المجلس الطلابي اليمني في فرنسا، س.م.ط: سكرتارية المجلس الطلابي، ل.ح: اللجنة الحزبيَّة، س.ل.ح: سكرتارية اللجنة الحزبيَّة. لم أرد أن أُزعج وزارة التربية والتعليم ووزارة التخطيط في عدن، لم أرد أن «أُخربط» الخطّة الخمسية، أن أُربك مستقبل التخطيط في الدول النامية، أن أُؤثر سلبًا على مستقبل الاتجاه الاشتراكي في العالم، وربما نظام وحركة الكرة الأرضية وتوازنها الكهرومغناطيسي مع بقية كواكب ونجوم الكون...

لم أتجرأ أن أشرح لمسؤولٍ تعليمي أنَّ العالم بدأ دخول عصر جديد اسمهُ «زمن المعلومات»، بدأت تباشيرُه حينها في بداية الثمانينيات. أُطلِق عليه ذلك الاسم، على غرار «زمن الكاتدرائيات» الذي أُطلق على تلك القرون العتيقة التي قضّى خلالها بشرٌ هذه الديار، من نحّاتين وعمال ومهندسين وبنائين وتشكيليين، كلَّ وقتهم في تشييد كاتدرائيّات عملاقة في كلِّ المدن. تساءلتُ: كيف لذلك المسؤول الأغر أن يقبلَ طلب تغيير دراستي لعلمٍ لم يسمع عنه، هو الذي لا يقبل عادةً مثل ذلك الطلب لعلمٍ سمع عنه. حقًّا، لم أرد يومًا أن أزعج أحداً، لذلك قضَيتُ كلَّ حياتي أزعج نفسي.

لم أتجرَّأ حتى أن أُسجِّل في قسم الرياضيات والكمبيوتر دون طلب إِذن من «الداخل»، في هذا البلد الذي يُسجِّل فيه المرء ما يشاء حيث يشاء. كان ذلك إجراءً سهلاً جدًّا، معقولاً جدًّا، سيقومُ به من قبيل الحذر والتبصّر أي إنسان طبيعيٍّ في موضعي، قائلاً لنفسه: «سأضعهم في الداخل أمام الواقع، وعندما يكتشفون ذلك سيكونون قد عرفوا كم كنتُ مبرّزًا في علوم تنسجم مع بنيتي ورغباتي. سيمدحون حينها اختياري وقراري الفردي، من يدري!» لم أقُم بذلك لأنَّني، بكلمات قليلة، لم أكن إنسانًا طبيعيًّا، كما أدركتم وكما يلزم أن أقولها مرارًا وتكرارًا.

لم أتجرَّأ باختصارٍ شديد أن أحيا حسب ميولي ورغباتي وقدراتي، لذلك أستحق بجدارة أن أحيا كما أنا عليه اليوم: مُداسًا

مُهانًا مطحونًا في علبة الصاردين. لم أتجرَّأ على الوفاء لتلك العلوم التي منحتني المتعة والحبّ، ووهبتني مفاتيح الأمل، لا سيَّما وأنَّني نجحتُ بفضلها نجاحًا باهرًا في نهاية السنة الثانية، قبل بدء مسلسل الفشل والإخفاقات بعد الالتحاق بليسانس الفيزياء اللعين.

أتذكَّرُ اليوم بحسرةٍ لا تساوها حسرة كم شعرتُ أنَّني إنسانٌ آخر عندما بدأت أتوغَّلُ في دراسة علوم الكمبيوتر في السنة الثانية. امتلأ رأسي حينها أحلامًا متأجِّجة ومشاريع جامحة كانت ستأسرُ لبّي وستفجِّرُ كل طاقاتي، كانت ستحلّ أيضًا نصف مشاكل الكون.

كنتُ أحلمُ مثلاً في تلك السنة الثانية بكتابة برنامج كمبيوتر أبرمجُ فيه كل قواعد علم النحو، ليتمكّنَ من إعراب أيّ نصّ يقدَّمُ إليه، لا سيّما القرآن الكريم. كنتُ بذلك سأساعد والدي على حلِّ مشاكله هو الذي كان يخطئُ أحيانًا في تشكيل بعض آيات القرآن الكريم، عندما يتأمّ بصفوف مسجد دغبوس. كان لا يميِّزُ كثيرًا بين الفاعل والمفعول، بين «إن وأخواتها» و«كان وأخواتها»، وكلّما أراد أن يشطح قليلاً يصرفُ كل ممنوع من الصرف. كنت أحلمُ بكتابة برنامجٍ كمبيوتر أستخدم فيه أحدث الطرق التربويَّة ليعلِّمه دروسًا أخرى في الفقهِ تسمحُ له، عند حديثه مع رواد المسجد، بالتطرُّق لمواضيع فقهيّة تتجاوز نواقض الوضوء وشروط التيمّم. كنتُ أحلم أن أكتب برنامج كمبيوتر يستطيع استنتاج بحر الشِّعر الخليليّ لأيٍّ قصيدة عموديّة تُقدَّمُ له، لأحُلَّ بذلك مشاكل أحد أصدقائي في عدن الذي «نَتَّع»

كلَّ شعر رأسه في مرحلة الدراسة الثانوية لاستحالة فهمه كيف يُستنتج بحرُ القصيدة العموديَّة . . .

كنت أحلمُ، لسعادتي الشخصيَّة الخالصة، بكتابة برنامج كمبيوتر يؤلّفُ لي روايات خياليَّة. لم أكن أعشق شيئًا في الدنيا أكثر من روايات الخيال، ولم يكن لي يومًا حلمٌ أنبل من حلم كتابة برنامج كمبيوتر يبتكرُ ويروي قصصًا خياليَّة. كان حلمًا ساميًا لا يرقى له حلم أن أقضّي يومي أقرأُ، بوله وشغف وقلق وشعور دائم بالمفاجآت، روايات أدبيَّة متجدِّدة ينتجها برنامج كمبيوتر أنا الذي كتبته.

وضعتُ كلَّ أحلامي في حقيبة كبيرة رميتُها ضربةً واحدةً في مزبلة عندما التحقتُ بليسانس الفيزياء. إلهي، كم كنتُ حينها انهزاميًّا، انكساريًّا بشكل مرضيّ عشيّة التحاقي فيه. كنتُ، عندما أنوي ليلتها أن أُغيّرَ رأيي في آخر لحظة وأسجل في الرياضيات والكمبيوتر، أردِّدُ: « à quoi bon ? ، ما الفائدة؟ » كما لو أنَّ الشيطان الرجيم المختبئ بين السحب، والمتخصِّصَ بِقطع طريق الحظ والاختيارات الجميلة عنّي، كان سيتدخلُ بطريقةٍ أو بأخرى ليرغمني قسرًا بالتسجيل في ليسانس الفيزياء.

عندما التحقتُ في الفيزياء بدأتُ أكرهُ الدراسةَ والحياة معًا. أمرُّ الامتحانات الدراسيَّة « بالدهفة »، إن لم أُعد بعض السنين. أعيشُ بلا مشروع. أنامُ حتى العصر. صارت نافذةُ غرفتي الجامعيَّة تضيءُ حتى مطلع الفجر. يُسمّيها بعض زملائي: « لجان الدفاع الشعبي »، لأنَّها

كانت مفتوحةً مثل « لجان الدفاع الشعبي » في السبعينيات، حتى الفجر. كان يلتقي في غرفتي كلُّ الفاشلين. كانت ناديًا لضحايا « درّة ميزان » القدر. ملجأً للبائسين والمعدومين من أبناء العالم الثالث بشكل خاص. تمرّ الساعات الطويلة فيها مثل هلوسات مجالس القات، بلا قات. ليس هناك غير أباريق الشاي على جهاز التسخين الكهربائي. « كتلي » يطلع و« كتلي » ينزل، كما يقولون. همز ولمز و« حشوش » لا يرحم، يسقط صريعين تحت أسواطِه، ١) ملوكُ ورؤساءُ دُول العرب ودمويّو السياسة اليمنية الذين تألقوا وازدادت شهرتهم هنا بحَوْك المؤامرات والاقتتال الهمجي والغدر، ٢) صحفُنا ومجلاتُنا التي تثيرُ التقيؤ، ٣) شعراءُ السبعينيات الذين كنا نتسلى من قبيل السخرية بكتابة قصائد غامضة مثل قصائدهم، نرسلها للنشر، وتُنشرُ فعلاً . . . كنتُ مع ذلك أدافع بشراسة عن أحدهم الذي لم يرحمهُ أحد : الشاعر الرائع جداً شوقي شفيق الذي يسكن على بُعدِ خطوتين من منزلنا في شارع دغبوس . . .

بدأتُ حينها فعلاً سنيّ العجاف. حتى معشوقات السنين العجاف كُنَّ عجافًا أيضًا. ففي عصر انحطاطي لم أعد أبحثُ، أو أتجرأُ أن أبحث، عن الاقتراب من الحسناوات. يا للهزيمة، تخلّصت من شرط الجمال الخارجي في اختيار فتيات أحلامي!

عندما يبدأُ المرء بالتنازل عن هذا الشرط ويُنَظِّرُ في « الجمال الداخلي » وفي محاسن « عشق القباح » وحُبِّهنَّ الوفي، عندما يتحدَّثُ عن أكثر المفاهيم نفاقًا : « الجمال الداخلي » الذي يُعوِّضُ نقص الجمال

الخارجي، عندما يتحدّثُ عن «جمال الرقّة» كبديل لـ «جمال القسمات»... فاقرأوا عليه الفاتحة!

معشوقاتُ السنين العجاف لم يكنّ ملائكة كسوسن، تغريد، إيزا... بِكُلِّ جمالهن وبساطتهن وصفائهن... كنَّ «مخربطات»، «مدقدقات»، «مشقدفات» مثلي. غير جميلات جداً أيضاً. تحوَّلتُ أمامهن إلى شهريار بلا شهرزاد. بلا زوجات لليليّات يتعاقبن على الفراش. أرفضُهنّ سريعاً إذا ما تعكّر مزاجي من إحداهنّ، في حين كنتُ بحاجةٍ حقيقيّة لهُنّ ولعواطفهنّ ولدفئهنّ اليومي...

مع إحداهنّ م. تطوَّرت علاقتنا بشكل سريع وقوي. توقَّفت العلاقة يوم دعتني لزيارتها في مدينتها البعيدة. كان ذلك الموعدُ مفتاحاً لـ «نقلة نوعية» في علاقتنا، حسب تعبير شديد التداول آنذاك. وصلتُ محطَّة القطار. لم تكن م. في انتظاري على الرصيف وأنا أهبطُ القطار. هبطتُ، نظرتُ يساراً، يميناً. دقيقةً، دقيقتين، لا أحد. عدتُ للقطار دون مزيد من الانتظار، واصلتُ رحلته نحو مدينة أخرى، لأنَّني لم أتصوَّر عاشقاً حقيقيًّا يمكنُه إضاعة ثانية من منظر معشوقِهِ وهو يقبل نحوه هابطاً من باب عربة قطار. في كل لقاءات أيّةِ معشوقةٍ افتراضية في مخيّلتي، كنتُ أعطي لتلك اللحظات مكانةً قُدسيّةً كبرى. أهبط من غرفتي مشياً نحو محطة القطار في وسط المدينة، قبل مجيء معشوقتي بزمن، بعد أن أكون، منذ الفجر، في ذروة استعدادي وتأهبي الجسدي وانتظاري. أحملُ آلة تصوير لأُخلِّد

إطلالتها ثانيةً ثانية. كنتُ أعطي للحظةِ رؤيتِها في باب العربة أهميتها الخاصة، لانحنائها قليلاً استعداداً للخروج من باب العربة موقعها الخاص، لهبوطها كلّ درجة من درجات عربة القطار موقعه الخاص، لأوّل نظرة لها نحوي، لأوّل ابتسامة، لأوّل خطوة على الرصيف موقعه الخاص. كنت أحدِّقُ كثيراً بظلال المكان وأضوائه، بإيقاعات حركاته وسكناته... أقسمُ أنَّه لم يعشق يومًا من لم يمارس بصوفيّة طقوس لحظة الانتظار، ومن لم يؤدِّ بخشوع صلوات ما قبل اللقاء بمعشوق يأتي إليه من سفرٍ بعيد.

توقّفت علاقتي بـ م. إثر ذلك اللقاء المفقود. لم أودَّ أن أعرف سبب عدم رؤيتها في محطة القطار. أرسلتُ لها هذه العبارة كمسك ختامٍ لعلاقتنا: «كان عشقًا طفيفًا جدًّا...».

مع أخرى س. بدأتُ علاقةً جميلة، تطورت سريعًا وكان لها مستقبلٌ واعد. انتظرتُ س. ذات صباح. جاءت حسب الوعد. لاحظتُ على أسنانها شيئًا من خبز الفطور أو ما يشبه ذلك. ركَّزتُ على أسنانها خلال حديثنا، شعرتُ أنَّها لا تغسل أسنانها كل صباح بمعجون الأسنان أو لم تغسلها هذه المرّة على الأقل. لم أستطع أن أتصور حياتي مرتبطةً بِفتاة لا تغسل أسنانها باهتمام. لم تعرف المسكينة لماذا تغيَّرتُ منذ ذلك اليوم وخلقتُ حاجزًا نهائيًّا بيننا.

د. كانت رائعةً جميلة المحيا. غير أنَّها كانت كسولةً جدًّا، ثخينةً جدًّا. كنتُ أشعر أنَّني غير قادر على الإحاطة بخاصرتها كليّةً

مهما فتحتُ يديّ على مصراعيهما. تمنّيتُ حقًّا أن تُخفِّف من وزنها بشكلٍ جاد. حاولتُ أن أضرب لها المثل بزيادة وزني حوالى سبعة كيلوجرامات لأتخلّص من نحفي الشديد ولأردم شيئًا من الهوة التي تفصل بين وزنينا. بدل أن تحاول هي الأخرى ردم شيء من تلك الهوّة بتخفيف وزنها، أضافت لهُ ما لا يقلُّ عن سبعة كيلوجرامات في فترة وجيزةٍ جدًّا. لن أغفر لها أبدًا هذه السبعة كيلوجرامات!

ق. كانت، هي، مصنع مشاكل. لا تستطيع أن تحيا دون مشاكل. ترى كلّ إنسان وكلّ علاقة عبر منشور المشاكل. أسئلتها مشاكل. حركاتها مشاكل. كلامها مشاكل. إتجاه حدقتيها مشاكل... تجيدُ الفتنة لأنَّها حُبِكت من مشاكل. أوقفتُ علاقتي معها على التو قائلاً لها إنَّها لا تصلح أن تكون عاشقة، تصلحُ فقط أن تكون عضوة مكتب سياسي في أي حزب يمنيٍّ حاكم.

ك. المسكينة كانت طفولتُها «مشعبكةً» جدًّا، مشحونةً بمرارات، بعنف واغتصابات... لا تستطيعُ مسحها من ذاكرتها وطريقةِ حياتها. الحياةُ معها نظرةٌ دائمةٌ للخلف، توقّفٌ أبديٌّ عند زمنٍ قديم. كان بِوُدِّي مساعدتها إن لم أكن حطامًا أنا الآخر. أوقفتُ علاقتي معها معتذرًا لها قائلاً إنَّها تحتاج لطبيب نفسي أكثر من احتياجها لعاشق.

ب. كانت متخصِّصةً بالعلاقات مع بشرٍ «مُدقدقٍ» مثلي. متخصّصةً بخلاص البائسين من حرمانهم. ب. كانت لجنة إنقاذ

دوليّ. تاريخها حافلٌ بالعلاقات الإنقاذيَّة. كانت «رأفتها المسيحيَّة»، كما يقولون هنا، كبيرةً جداًّ. لم تكن جميلةً أيضًا من قريبٍ أو بعيد. توقّفت علاقتي بها منذ أن عرفتُ فلسفة حياتها الإنقاذيَّة وتاريخها النضالي. لأنَّني، وإن كنت أعرفُ أن الحياة بلا توحّدٍ جسديّ عذاب، فإنَّني أثق أن التوحُّدَ الجسدي دون حبٍّ مأساة حقًّا. سامحوني: مازلتُ أثق أن الحبّ هو شرارة الالتحام التي تضيءُ التوحُّد الجسديّ وتؤجّجُه، أنا الذي كنتُ حينها أتقدَّم نحو نهاية العقد الثالث من العمر ولم ينفع جهازي التناسلي إلا لممارسة وظيفة البول فقط...

مع المسكينةِ جداًّ ج. وصلت علاقتنا إلى ذروتِها. صار التوحُّدُ نتيجةً حتميّةً طبيعيةً نتوق لها قويًّا. غير أن ج. كانت كلَّ ما لا أريده قبل بدء ذلك التوحُّد. فجأةً أخفت وجهها تحت عباءة، بكت بقوّة، ردَّدت وسط عويلها: أثقُ بك، افعل ما تشاء، افعل ما تشاء...

ليعذرني الشيطان! عطَّفتُ جسدي، لعنتُ اللحظة التي تعرَّفتُ خلالها عليها، وتركتُها مُخفيةً وجهها تحت الملاية إلى الأبد. لأنّ من سأعشقُها يلزمُها أن تكون عكس ذلك تمامًا. يلزمُها أن تتألق، تتوهج، تسافر خلال العشق. تحيا بلا ملايات. تحتفلُ بالحواس. تبحثُ عن اكتشاف عوالم جديدة. لا تحيا العشق خجلاً أو مأتمًا، وإنما عطاءً، فرحًا، سعادةً وعبادة...

ينبغي أن تكون مثل تيماء تمامًا.

الفصل الحادي عشر
تيماء

عندما بدأتُ تحضير الدكتوراه في الفيزياء، في سبتمبر ١٩٨٥، كنتُ كئيبًا، مُحطَّمًا، منغلق الآفاق. بدأتُ موضوع بحث لا أُحبّه، في مجالٍ لا أُحبّه، في مختبر لا أُحبّه، في مدينة لا أُحبّها... كنت أعيش وحيدًا، دون خِلٍّ أو نديم، طائرًا مقصوص الجناحين، روحًا منعزلةً تمارس الحبَّ مع نفسها لا غير. مملكةً من رماد.

انحصرت علاقتي مع الآخرين بضروريات العمل ومستلزمات العيش، ليس إلاّ. فقدتُ طعم حبِّ المعرفة. كنت أغيب كثيرًا عن المختبر، لا تربطني علاقةُ صداقة حقيقيَّة مع زملائي. لم يعد لي في كلّ فرنسا غير صديقين حقيقيين اثنين، أ.ف.ب، و ح.ع.س، وُلدا في مدينة طفولتي: عدن، ويسكنان في مدينتين فرنسيتين بعيدتين نسبيًّا. تعوّدنا أن نلتقي في مدينة أحدنا مرةً كلّ شهر تقريبًا، كانت

هي وحدها وسيلتي لاصطياد الضجر، للإفضاء بمعاناتي، للّهوِ والثرثرة المستعين، والغرق اللولبي في عالم الطفولة. كانت تلك اللقاءات تُجمِّلُ الحياة في عينيّ قليلاً، تُؤنسنُ بشرها، وتعيدُ لي ما تيسَّر من حُبِّها الضائع. سأتحدَّث بعد قليل عن طقوس حياتنا الغريبة وعن لقاءاتنا البوهيميَّة المثيرة.

لم يكن ملجأي الحقيقي اليومي للهروب السعيد من قحط أيامي المعتمة غير روايات الخيال. أمتعُ لحظاتي هي عندما أجد نفسي في مكتبة «الفناك» الضخمة في سانت مالو، في قسم الـ FICTION، الخيال. كنتُ أحبّ الروايات منذ سنين. غير أنَّها غدت ضرورةً منذ سنوات قحطي. أضحت ملاذي من ديكتاتوريَّة الواقع الذي لم يحمل لي غير الانكسارات والهزائم. صارت ماء حياتي، أفيوني الزُلال. دوائي اليومي. انفتحت بفضلها كلُّ أبواب خيالي. تفرقعت في فضائها حدودُ وقيودُ الواقع ومعاييرُه التعيسة التي تخنق الحياة وتكبّلُ الأشياء. تعلَّمتُ بفضلها كيف أحيا داخل حلم. كيف أعيشُ الفانتازيا مغامرةً واقعيَّة. كيف أخلق عوالم شاهقةً ملموسة من فرضيّاتٍ مجرّدة.

هكذا أنا: أحبُّ الخيال، أكرهُ الواقع! الواقعُ ضحلٌ، محدّدٌ، وحيد. الخيالُ موكبٌ ينساب نحو اللانهاية. الواقعُ جمركٌ يوقفُ الكلمة، سجنٌ للفكرة. الخيالُ عالمٌ بلا جمارك، بلا جدران أو نهايات.

ما أسعد كاتب رواية الخيال! هو ربٌّ روايته، يخلق شخوصه كيفما يشاء، يُحدِّدُ مستقبلهم كيفما يشاء، يبني عوالمهم، أنماط

سلوكهم، يختارُ موعد ولادتِهم وموتِهم... كيفما يشاء. كاتبُ رواية الخيال يخلقُ الواقع من دماغه، فيما كاتب رواية الواقع لا يختلفُ كثيراً عن مُسجِّل المحاضر (التي يعلمُ الباري كم أكرهُ كتابتها). يحتاج أن يرى الواقع أمام عينيه قبل أن يكتب روايته. لا يستطيعُ خلقه من دماغه، لأن دماغهُ مُكبَّلٌ بسلاسل، إن لم يكن فارغ الدماغ بكلِّ بساطة...

قضيت لياليّ وأيامي أقرأُ روايات الخيال بنهم. أعادت لي كثيراً من سعادتي المفقودة. جعلتني أمارسُ التجريد الذي حُرمتُ منه بحرماني من دراسة الرياضيات والكمبيوتر. جعلتني أهرب من تعسُّف الحياة واضطراباتها وعواصفها. أقرأُها خلال ساعات لا تنتهي. ثمّ، عندما أشعر بالإرهاق والانهيار، أنامُ شبه ميّت، سكران من السعادة. أواصلُ خلال نومي خلق ما توقّفتُ عندهُ أثناء قراءتي، أواصلُ كتابة الرواية في أحلامي، أقارنُ بينها وبين صيغة الكاتب، أحيا مع شخوصها، أتمثّلُهم، أحادثُهم، أتفاعلُ معهم...

تعلّمتُ منها قبل كلّ شيء كيف أخلقُ فتيات أحلامي كما أشتهي، لا كيفما يُمليه الواقعُ اللعين. تعلّمتُ كيف أرحلُ نحوهُنّ بأجنحة الخيال، كيف أعيشُ وإيّاهُنّ في عوالم افتراضية أصمّمُها كما يحلو لي.

بفضل الروايات، وجدتُ فتاة أحلامي. خلقتُها من صلصالِ الحلم، صمّمتُها خلال سنواتي العجاف، أعدتُ خلقها يوماً بعد يوم، شهراً بعد شهر، سنةً بعد سنة. تخمّرت في وجداني ببطء خلال

خمس سنوات، أعدتُ تشكيلها كما أعشق وأشتهي... قبل أن أعيش معها حقًّا في «أرض الواقع»، كما تقولون. نعم! قبل أن أعيش معها حقًّا، هنا، في غرفتي هذه نفسها، كما سترون!

فكّرتُ في البدء طويلاً في تسميتها. احترتُ كثيراً: هند، ريم، أم تيماء؟ كان صعباً أن أختار اسمها بين هذه الأسماء الثلاثة التي أُحبّها.

لم أُردها أن تكون باسم زوجة أبي سفيان، هند، رغم جمالها الميثولوجي الشهير، شعرِها الذهبي الذي يموجُ قرب خاصرتها، شخصيَّتها اللامعة... لسبب بسيط: أردتُ أن أُبعدَ معشوقتي عن عالم الملك والسياسة والسلطة الذي أكرههُ حقًّا. لم أُردها أيضاً: ريم، بسبب قصيدة أحمد شوقي التي تبدأُ بـ:

ريمٌ على القاع بين البان والعلم أحلَّ سفك دمي في الأشهر الحرم

التي خلط فيها أميرُ شعراء عصر الانحطاط، رحمهُ اللّه، بين مفهوم الشعر من ناحية، ومفهومي الفقه والجغرافيا من ناحية أخرى.

أردتُها أن تكون باسمٍ متميّزٍ نادرٍ مثلها: تيماء.

اسمُ قرية تقعُ في شمال الجزيرة العربيَّة، بين البحر الأحمر والربع الخالي، بين الشام واليمن. أردتُهُ أن يكون هكذا على وزن: صحراء، ممتدَّ اللفظ كامتداد الصحراء، كموسيقى حركةِ الأبل وتموُّج الهودج. أردتُ أن يمتزج في اسمها ضياءُ البادية، صفاءُ سمائها، لونُها الأمغر، وامتدادُها البطيء.

تيماء، تربةٌ وماء.

كحواء تنبثقُ من ضلع آدم، أخرجتُ تيماء من ضلع مخيّلتي. تبرعمت وترعرعت في أديم أحلامي واستيهاماتي. صارت مع مرّ الأيام والسنين مأواي وملاذي. أحضانُها وطني. عيناها محرابي. جسدُها مسقط رأسي.

كشجرةٍ تنمو فوق قبر، صنعتُها لتخرجني من فراغ حياتي. صنعتُها كما أعشق تمامًا لا كما يعشق الواقع. ساحرة طرف كما أحب. يكفي أن أنظر قليلاً لعينيها الواسعتين الحالمتين، لأسافر بعيداً، لأهيم على تخوم اللذة، لأتفجّر طاقات لا حدود لها. ثغرُها يزهو وسط قسمات وجهها الساحرة، يحتلُّ موقعًا عبقريًّا خطيرًا في وجهها الفاتن. شفتاها مرسومتان بإبداع، عذبتا الورديّة، لبابهما رطبٌ رقيق، مترعٌ غدِق. أسنانها لبنيّةٌ ناصعة، رائعة الانتظام والسبك. كنتُ أرحم نفسي وأنا أتشاطرُ رغباتِها بين التحديق في ثغر تيماء أو في عينيها، إن لم أقل في كلّ قسمات وجهها الدقيقة العبقرية.

منحتُها جمالاً جذريًّا. صمّمتُ وجهها كما أشتهي تمامًا. منحتُه سناءً وسحرًا صرت أنا نفسي ضحيّتهما حقًّا. مزجتُ فيه كثيراً من قسمات سوسن وإيزا، وقسمات فاتنة مجهولة ترتع ظلالها في لاوعيي الدفين: مانيارا. كان لها أنف إيزا، أهداب وخدّا سوسن. كان لها ثغر مانيارا وعيناها... صمّمت جسدها رشيقًا ممشوقًا كجسد إيزا، دافئًا بديع المنحنيات لأتفجّر جنونًا عند رؤيته. عبيرُ فلٍّ دائمٍ

يضوعُ من صدر تيماء الدافئ. نكهةُ هيلٍ طريٍّ تمتزجُ أبدًا في رُضابها العذب.

بنيتُ طوابق روحها كما أهوى تمامًا:

في دور روحها الأول صحراءُ شاسعة، حبٌّ للامتداد، للقوافل والهوادج والأطلال. تيماء تسكرُ إعجابًا من لون الأرض، من زرقة السماء المتوقّدة ضياءً وصفاء.

في دور روحها الثاني بحرٌ لا نهائيّ، حبٌّ للأعماق. تيماء تذوب إعجابًا من اصطخاب الأمواج، تعشقُ الغوص في عمق اليمّ، تغتسلُ في طيّاته من متاعب الحياة وأدرانها، تخرجُ منه كلّ مرّة صافيةً نقيّةً كأنّها وُلدت من جديد.

في دورها الثالث قممٌ وأعالٍ. تيماء تشهقُ إعجابًا أمام الأعالي، تهوى الصعود والتسلُّق. كم رأيتها في أحلامي محتضنةً رأس صخرةٍ عمودية في علياء جبل شاهق يفصلها عن الأرض عدّة كيلومترات!

صنعتُ ترسبات دورِها التحت أرضي: من الضوءِ والحريّة. خلقتُها رقيقةً لأُقبِّلها دومًا. أردتُها بركانيةً انفعاليةً تفاعليَّة لأحيا في تجدّدٍ دائمٍ معها: تؤمنُ بالجنّ عندما نتوغّلُ في أفياء الشرق، ولا تؤمن إلا بالعلم والمادة عندما نهيمُ في عواصم الغرب. «يُزرِبُها ديمها» أمام أصداء «طلع البدر علينا» عندما تسمعها ونحن نطوف كثبان جزيرة العرب، وترفعُ ساعدها بحماسٍ وخشوع عندما تغني «نشيد الأممية» في عيد اللومانيتيه. تحبُّ ممارسة عشق «خلسة المختلس» في كثبان

عدن، ويطيبُ لها كثيراً أن أقبِّلها بين الفينة والفينة في كلِّ شوارعِ باريس. تيماء شهيّةٌ وحشيّةٌ عندما نمارس العشق في البراري والأدغال، رقيقةٌ كقطعة موسيقى كلاسيكيَّة عندما نتناولُ العشاء في مطعمٍ رومانسي. تتحوّلُ فجأةً إلى محافظة رجعيّة عندما نجوبُ شوارع الرياض، وتصولُ في اكتشاف علوم «الكاماسوترا» الهنديّة عندما نسكنُ فندقًا في عاصمة الرومانسيَّة: فينيز، التي لا أطيقُ اسمها العربي: البندقية.

أعشقُ رؤية تيماء وهي تتأقلم مع ديكورات المطاعم بذوقٍ فنّيٍّ رقيق. أعشقها في مطعمٍ أفغاني بفستان من حرير الكشمير يجلي ثراء نهديها. أعشقها بفانيلة خفيفة تداعبُ أطراف نهديها في عشاء على الشموع في شرفة مطعم بحريّ في ليل صيف قائظ. أعشقُها وهي تختلف معي، ونحن نتقاسم البيتزا في مطعمٍ إيطالي، حول مرشَّحي انتخابات الرئاسة القادمة. يتحوَّلُ العشاء إلى «مدجافة»، عراك، نغادرُ فيه المطعم من بابين مختلفين قبل أن نتوحَّد على السرير كعاشقين يمارسان عشقهما لأول مرّة.

تيماء تهوى الكلمات، تعشقُ ممارسة العشق ببطءٍ قدسي. هي وحدَها نموذجي العشقيّ بامتياز.

هكذا خلقتُ تيماء. ملأتُ صفحاتي رسمًا لها، طلَّقتُ الفيزياء والعلم والجامعة والثقافة والناس والدنيا لأحيا معها، في ظلِّها، لأذوب نظرًا في وجهها الناعم، لأستنشق جسدها الدافئ ونهديها الرطبين... آه، جسدُها هذا، جسدُها الذي بنيتهُ خليّةً خليّة منذ

خمس سنوات، رفدتُه من أروع صفحات الروايات التي قرأتُها، من أجمل قسمات معشوقاتي اللواتي فقدتهن إلى الأبد، من أجمل حِبرِ خيالي الذي بدأ يتدفقُ، يتدفقُ، يتدفق...

وجدتُ صعوبةً ما بعدها صعوبة في تصميمِ أجملِ بداية لعشقنا. كانت أمامي بدايتان أحبُّهُما بالمستوى نفسه، إلا أنّهما متباعدتان تمامًا في الزمان والمكان، تؤدِّيان إلى حُبَّينِ متغايرين كليّة. تدور البدايةُ الأولى في غياهب المنع والمحرّمات، تنطلق منه كبركان هائجِ الجمالِ شديدِ القوّة. وتسبحُ البدايةُ الثانية في بحار الحرّية، تحيا العصر الراهن في أسمى وأعبق إنجازاته.

لأبدأ من أولى البدايتين.

بدأ تعارفُنا، تيماء وأنا، في ضواحي مدينة يحومُ فيها «المطاوعة» والمليشيا والحرس الخاص وكلُّ أنواع العسكر. مدينةٍ تشبه ألف مدينة: تيماء، الوهط، تَعِز، صلالة، عدن، الشِّحر، المخا، سوس، مكناس، الموصل، قطيفة، العقبة، طرابلس، الإسماعيليَّة... وقع قلبانا عشقًا من أوَّلِ نظرة. كان عشقًا مفترسًا يمنعُ من التفكير بغير المعشوقة ثانيةً واحدة. عشقًا شرقيًّا صوفيًّا فتّاكًا. بيد أنَّ في تلك المدينة يستحيل اللقاء بالمعشوقة في وضح النهار. الحبُّ في تلك المدينة نوعٌ من العمل السرِّي. كان علينا إذن أن نسرق لحظات شاردةً في أقصى الكثبان النائية المحيطة بالمدينة، في أبعد أفيائها وحقولها، نتبادل خلالها أحرفًا مغلَّفةً مرتعشةً مشحونةً بمشاعر هادرة، نتبادلُ نظرات ملتويةً تختبئُ خلفها عواصف من الرغبة والشوق الذي يمزّق

الأضلاع. كان علينا الصبرُ والعذابُ واللوعةُ والأرقُ والآلام... كان علينا الموتُ احتراقًا مع عبورِ الزمن المتجمِّدِ في تلك المدينة البطيئة، مع إيقاعه الجنائزيِّ القاتل...

ثمّ كان لنا أن نُصمِّمَ لقاءنا الذي حلمنا به كثيرًا على إيقاع أبيات شعرٍ أموتُ إعجابًا بها، إن لم أعتبرها أجمل ما أحبُّهُ من الشعر قاطبة:

جاءت مُعذِّبتي في غيهب الغسق كأنَّها الكوكبُ الدُّرِّيُّ في الأفق

فقلتُ نوّرتني يا خير زائرةٍ أما خشيت من الحرّاس في الطرق؟

فجاوبتني ودمعُ العين يسبقها: من يركب البحر لا يخشى من الغرق!

أتعرفون لماذا أموتُ إعجابًا بهذه الأبيات؟ ليس بسبب «كأنَّها الكوكب الدُّرِّيُّ...» لأنّني لا أحبُّ أبيات الشعر التي تلجأُ لوصف البشر بالشمس والقمر والكواكب الدُّرِّية... جرَّم هذه البلاغة التفخيميَّة قبلي أدباء كبار في قرون عتيقة، وإن ظلّ هنالك أدباء وكتّاب معاصرون يلوكونها لوكًا.

السبب هو: ما يتبع تلك الأبيات، ما تتمخّضُ عنه وتُخفيه، ما لم تقُلْهُ أحرفُها، ما على القارئ أن يستنتجه وحده! أقصد كلَّ الأخيلة التي ستدور في رأسه وهو يتساءلُ: ماذا سيحدث بعد ذلك بين الشاعر ومعذِّبتِه التي لا تخشى المطاوعة والمليشيا والحرس الخاص؟ ماذا سيحدثُ بينهما بعد مجيء تلك المعشوقة لبيتِ عاشقِها في غيهب الغسق؟... لن يَقضيَ ذانكما العاشقان ما تبقّى من ليلتهما في الحديث عن سعر

كيلو الطماطم في السوق أو عن أضحوكات الانتخابات المحليّة أو عن آخرِ السياسيين الذي قلبوا معاطفهم... ستكونُ ليلةً ليلاء من العشقِ الحقيقي الذي لا يستحقُّه من لم يتمرد يومًا، من لم يكسر حواجز العادات والتقاليد والموانع الصماء. نعم، سيذهبان إلى أطراف العشق، إلى نهاياته. إلهي، كم يستحقَّان ذلك! إنهما بعشقِهِما الشجاع، بتحدِّيهما وتمرُّدهما، يعيشان إنسانيتهما حقًّا، بجدارة!

هكذا اخترتُ سيناريو بداية عشقنا: جاءتني مليحتي ذات الخمار الأسود في غيهب الغسق، لم تخش من الحُرَّاس في الطرق، دقّت باب غرفتي في قلب الليل. ثمّ بدأ كلُّ شيءٍ بعد أن ردَّت، فديتُ ثغرها البديع: من يركب البحر لا يخشى من الغرق!...

أما البداية الثانية فكانت مختلفةً تمامًا، أُحبّها بالدرجة نفسها مع ذلك. بدأ تعارفُنا في مدينةٍ أوروبيّة تشبه فينّا، برشلونة، فرانكفورت، موسكو، روما، أكسفورد، بروكسل، براغ، هلسنكي، فرانكفورت... لنقل: سانت مالو، من باب التبسيط. كانت تيماء طالبةً في الجامعة، تعيشُ مثلي في سكن جامعي يبعدُ آلاف الكيلومترات عن عائلتها، حرَّةً طليقةً بلا رقيب أو عتيد.

تعارَفْنا في رواق عمارة جامعيَّة، أو في مطعمٍ جامعي، لا يُهمّ. دعوتُها ذات يوم في الخامسةِ عصرًا، لتناولِ قهوة في مقهى شبابي جميل صاخب وسط الحيّ الجامعي. تكرّر لقاؤنا كلّ يوم تقريبًا في الركن نفسه من المقهى نفسه، في الوقت نفسه، أمام المدِّ الشبابي الحالم نفسه. كنّا نتحدَّثُ طويلاً عن تفاصيل يومياتنا الدراسيَّة

والحياتيَّة. عن كل الأشياء الصغيرة: أشكال الشباب والشابات القابعين في المقهى نفسه، نزوات الطقس الجوي، الامتحانات، المدرِّسين، أسعار الأشياء، مدن ولادتنا، عاداتنا، ميولنا الصغيرة... يزداد تعلُّق كلٍّ منّا يومًا بعد يوم بكلمات الآخر الأثيرة، بقهقهاته ونظراته ومواضيعه، بلقاءاتنا هذه التي أضحت ضرورةً يوميّة. تزداد رغبة كلٍّ واحد منّا في إثارة إعجاب الآخر. صرنا نخرج أيضًا للمشي معًا، نطوف المدينة لشراء محتاجاتنا اليومية معًا، نتبادل الهدايا الصغيرة، نتبادل الدعوات لتناول العشاء في المطاعم الليليَّة الرومانسيَّة. كانت عواطفنا تنمو في كلّ لقاء، لتتحوَّل إلى حبّ يكبرُ يومًا بعد يوم، يكبرُ يكبرُ يكبر... ليصيرَ عشقًا عارمًا يدمِّر كلَّ شيء. لم يقل أحدُنا للآخر تلك الكلمة التي أنهكها كثر استعمالها الكاذب: أحبك. كنّا بلا وعي شبه خائفَين من تقزيم حُبّنا بلفظ تلك الكلمة التقليديَّة.

دون وعي أيضًا قبّلتُها ذات يوم في نهاية أحد لقاءاتنا المسائيَّة في المقهى نفسه، قبلةً واحدةً مرتبكةً، غير مبرمجة، في مكان ما من وجهها، على هامش خدّها، أو قرب عنقها، أو بينهما، لا أدري.

ابتسمت ابتسامةً لا تقلُّ صدقًا عن براءة وصدق تلك القبلة، كانت تخفي فرحًا عارمًا وكأنَّها تنتظرُ تلك القبلة منذ دهر. شجَّعتني ابتسامتها على البوح بفكرة خطرت ببالي في تلك اللحظة، دون إعداد مسبق: أن نتوجَّه معًا لباريس في الغد لقضاء عدّة أيامٍ معًا، نسكنُ خلالها في فندقٍ في الحيّ اللاتيني. وافقت بالفرح الطفوليِّ نفسه الذي كان يرقصُ في نبرات دعوتي لها لقضاء أيّامٍ عسليّةٍ في باريس.

عدنا كلٌّ إلى غرفته لإعداد حقيبة رحلته لأيَّام عسل قرّرناها دون سابق تخطيط، بكلِّ حريّة. وصلنا باريس في الغد عصراً بعد رحلة قطاريّة أشبهُ برحلة رومانسيَّة على بساط الريح. استأجرنا فندقًا في الحيّ اللاتيني، في عاصمة الثقافة والفن. تناولنا أفضل عشاء ذقناه في حياتِنا، في مطعم رومانسي يُليِّنُ القلوب الأكثر خشونة، فما بالكم بِقلبي عاشقين قرّرا إلهابهما بنارٍ بطيئة قبل تفجيرهما بعنف.

عُدنا لغرفتنا في الفندق لنمارس حتَّى الصباح ذلك العشق الكثيف نفسه الذي مارسه عاشقا «غيهب الغسق»، في تلك المدينة الملوَّثة بالعسكر... وإن كان عشقنا يرقص هنا في وضح النهار، في مدينة هيئة أركان العشق، في مدينة الحبِّ والحريّة.

تمنَّيتُ أن أفتتح حياتي مع تيماء بإحدى هاتين البدايتين. لم أعرف كيف أُفضِّلُ إحداهما على الأخرى، لا سيّما أنَّ اختيار إحداهما يعني إلغاء الأخرى تمامًا.

لم ينقصني إلا رؤية تيماء فقط! تيماء التي طال انتظاري لها، صار قاتلاً. إلهي، كيف لي أن أراها؟ كيف لي أن ألمسها؟ أين هي؟... أريدها أمامي عاريةً كالواقع، متفجِّرةً كينبوع. صرتُ أبحثُ عنها نصف مجنون، أتوسَّلُها بالتجلِّي، بالحضور...

سأجِدُها قريبًا، سأراها، ستجيءُ حقًّا، هي نفسها كما حلمتُ بها، كما رسمتها في خيالي.

سأراها، سأجدُها قريبًا، قريبًا جدًّا، بفضل صديقيّ: ح.ع.س. و أ.ف.ب. بفضل منظّمتي القاعديّة الحبيبة!

الفصل الثاني عشر
ترموست الشاي

« شلّتُنا » الثلاثيَّة، أو منظمتنا القاعديَّة: م.ق. كما نهوى تسميتها بكلّ ودّ، تتكون من أمين عام، نُسمّيه « الرئيس » أو « العاقل »، من وليّ عهد، ومن عضوِ منظمة قاعديَّة. حسب نظامها الداخلي، تتعاقبُ هذه المناصب الفخريَّة على ثلاثتنا بشكلٍ دائري: بين عشية وضحاها يتحوَّلُ عضوها القاعديّ إلى وليٍّ للعهد، ووليُّ عهدها إلى رئيس، ورئيسُها إلى عضوٍ قاعديٍّ بسيط. منظمتُنا القاعدية غريبةُ البنية كما يبدو من أوَّل وهلة لأنَّها تجمعُ بين منصبي الأمين العام ووليّ العهد. غريبةُ الماهية أيضًا لأنَّها تحبُّ أن تُطلق على نفسها: « م.ق. الأنس والطرب، من دخلها اخترب! ».

كانت حقًّا مرتع أُنسٍ ولهوٍ وطرب. رئيسها الأثير: أ.ف.ب. جذوةُ إمتاع دائم. إذا أردتُ تلخيصه بكلمتين فسأقول إنَّه ولدٌ « يومه

عِيدُه». أو كلُّ أيامِهِ أعياد. يعرف كيف يفجِّر ينابيع السلوى والمتعة في أديم كلِّ ثانية. دماغُه مهيأٌ بيولوجيًّا لذلك. لا يحقُدُ أو يكرَهُ أحداً. تبتعدُ عنه الهموم ومنغِّصات الحياة كما تبتعدُ الخفافيش عن ضوء الشمس. تعرفُ كلُّ خلاياه الدماغيَّة كيف تهيِّئُ نفسها لهدفٍ واحد: البحث عن المتعة والضحك والطرب. تكفي رؤية «العاقل» وهو يمارس طقوس «الكيرم»(١). تكفي رؤيته وهو يرشُّ مسحوق «البوتر» على مُربَّع «الكيرم» الخشبي، يهيئُ «الأستريجل»، يختارُ كاستات الموسيقى التي تنسجمُ مع المباراة... لتعرفوا أنَّ رئيسنا لا يحبُّ التعامل مع الحدث ببساطة أبداً، يحتفلُ بالتفاصيل، ويهوى الذهاب إلى أقصى أعماق الأشياء...

لا يشعرُ بالاستقرار إلا عندما يرخي عنان سرعة سيارته «الجولف» على إحدى الطرق الفرنسيَّة السريعة، لا شيء أمامه غير الأفق وطريقٍ طويل. ننتقلُ بمعيَّته من مدينةٍ إلى مدينة، من ضاحيةٍ إلى ضاحية، من قريةٍ إلى قرية، من مطعمٍ إلى مطعم. نسافرُ من كاست موسيقى إلى كاست موسيقى... نعود فجر الغد في سيارة تتقدَّمُ زجزاجيًّا، بأعين تخلط بين اليمين واليسار، تقرأُ علامات الطريق بالمقلوب... نعودُ إلى منازلنا سالمين مع كل ذلك، لأن أمهاتنا في عدن

أبو عبدو البغل

---

١ ـ الكَيْرَم: لعبة «البيليارد الهندي»، تُلعبُ على مُربّع خشبيّ، تتوسطُه قطعٌ خشبيَّة دائرية بلونين. يستخدم كل لاعب قطعة دائرية متميزة، الاستريجل، يزلقها بخنصره وبنصره بهدف إسقاط قطَعه الخشبيَّة في إحدى الفجوات الأربع المتواجدة في زوايا مُربّع الكَيْرَم.

يقصفن في ذلك الوقت ثكنات السماء بأرتال متواصلة من الأدعية والتسابيح والنذور والقرابين، هي بكلٍّ تأكيد دروعنا ومتاريسنا ومروحيّاتنا ومدرّعاتنا التي تحمينا من كل بلاء أو مكروه أو هاوية.

لن أبوح هنا بيوميات م.ق. ولا بكلٍّ طقوسها ومذكّراتها، لئلا أحيد عن هدفي: سرد أحداث حياتي الكبرى التي قادتني لعلبةِ الصاردين. يلزمني كتبٌ كاملةٌ إذا جازفتُ بكتابة سيرة حياة منظمتي القاعدية الحبيبة. سأكتفي بالقول إنَّها كانت ملاذي الرائع. متنفسي الوحيد. عالمي الصغير الذي ساهمتُ في تشييده لبنةً لبنة.

لتعليقات وسخرية ونقاشات م.ق. لغةٌ خاصةٌ تطوّرت يومًا بعد يوم، سنةً بعد سنة، ترسَّخت مداميكُها وأعمدتُها في معامل وورشات الثرثرة والمغامرات والجدل والبوهيميَّة والشجون... باختصار شديد، كانت م.ق. واحةً جميلةً في صحراء سنواتي العجاف، سعادةً عابرةً في فراغ حياتي الحزين.

كانت م.ق. أيضًا الوعاء الذي أفضي فيه آلامي وعذاباتي، وأحلامي أيضًا. طالما سردتُ أمام أ.ف.ب، و ح.ع.س. أسى حرماني من الفتاة التي أحلمُ بها، طالما تقيَّأتُ كراهيتي لدراسة الفيزياء التي صرتُ أمقتُها فعلاً منذ بدئي تحضير الدكتوراه في سبتمبر ١٩٨٥. طالما ردَّدتُ أمامهما، في غمرة بوحي، حُلمي بكوكب آخر يختلف عن هذا الكوكب. كوكبٌ نموذجيٌّ يكون فيه العشقُ ممارسةً بيولوجيَّةً دائمة مثل الشرب والغذاء والتنفس. يقضي فيه المرء ١٠٪ من وقته

للعمل، ١٠٪ للنوم والراحة والتعليم، ١٠٪ لقراءة الروايات وكتابة الشعر، و٧٠٪ للعشق... كنتُ أصرخ أمامهما: «كلمة: «أحبك»، أرهقها الاستعمال، كرَّرها البشرُ ملايين المرّات معظمها «من فوق اللسان»... ماذا عملتُ من جريمة لئلا أنطقها أنا الذي أُقدِّسُها كلّ تقديس؟...».

لإذكاء آهاتي، كان أحدُهما يضعُ على مُسجّلةِ السيّارة، بساديَّة أخويّة إذا جاز القول، إحدى الأغنيتين الرائعتين اللتين أصغيتُ لهما آلاف المرات، وعصرتْني أمام مكابداتهما أفتكُ اللوعات. أقصدُ أغنية المرشدي:

يا نجم يا سامر، سامِرْ فوق «المصلَّه»
كل من مَعُه محبوب وأنا لِيَ الله!

أو أغنية فيروز:

يا ليلُ: الصبُّ متى غدُهُ؟
أقيامُ الساعة موعدُهُ؟

أما الآخر فكان يهنئني قائلاً إن المحرومين هم أفضل من يتكلّمون عن الحب، هم أفضل الشعراء الجوّالين، التروبادوريين... وإنَّهم يتكلّمون عن الحبِّ أفضل مليون مرة من أولئك الذين لا يملكون من الحبِّ إلا اسمه! أشكرهُ كثيراً على هذا الوسام الذي كنتُ أُفضِّلُ أن لا أتقلّدهُ أبداً.

في هذه السنوات العجاف التي تلقّمتُ فيها الفيزياء قسراً، كانت مرارتي من عدم دراسة علوم الكمبيوتر والرياضيّات تستيقظُ في كلِّ زيارةٍ أقوم بها لمدينة ح.ع.س. كان صاحبي قد بدأ عمل الدكتوراه في علوم الكمبيوتر. لعلّ تلك السنوات كانت من أحلى سنوات حياته الدراسيَّة، كما أظنّ، و من أسوأ سنوات حياتي بكلِّ تأكيد.

لم تكن كمبيوترات نهايات النصف الأول من الثمانينيات بفحولةِ وبساطةِ وجبروتِ كمبيوترات اليوم. لم يكن ثمّة ما يشبهُ أنترنيت اليوم إلا في أحلام الباحثين العلميين. غير أنَّ الباحثين في «مختبرات علوم الكمبيوتر» في الجامعات ومراكز الأبحاث كانوا يعيشون حينها العصر الذهبيّ من حياتهم العلميَّة، إذا أسميتُ سنوات التكوين في أيّ عهد: العصر الذهبي، على غرار تسمية سنوات الوحي وعهد الخلافة في التاريخ الإسلامي بالعصر الذهبي. أقصدُ بسنوات التكوين السنوات البدائيَّة الأولى لأيَّة مرحلة، التي تكون الحياةُ خلالها مترعةً بالحلم والأمل، بالإرادة القويَّة، بالعشوائيَّة الجميلة، بالمشاريع المختلفة المتنافسة، بالآفاق المنفتحة، بالشعور بتحوُّل الحلمِ إلى مشروع، إلى حقيقة... قبل أن تتقنّن الأشياءُ وتكثر إشارات «ممنوع المرور»، وتأخذ الحياةُ تصاميم وتخطيطات نهائيَّة ومجرىً لا رجعة فيه، ويصير شعارُها وديانتُها: الفحوى الاقتصاديَّة، المردود المالي، الصحيح سياسيًّا، الثوابت... حقًّا، لفترة التكوين في أيّ عهد حلاوةٌ خاصةٌ دومًا لأنَّها ترسمُ ملامح الآتي، لأنَّها تشبه موقع الأساس في العمارة، موقع الطفولة في العمر.

كانت مختبرات علوم الكمبيوتر قليلةً حينها وكانت لباحثي تلك الفترة ظروف غير اعتياديَّة، كما شاهدتُ بأمّ عينيّ، سمحت لهم كثيراً من التجريب والبحث والحرّيّة. كانت لهم أجهزةٌ تربطهم من منازلهم بكمبيوترات كبيرة في مدن وبلدان بعيدة. كان ذلك نادراً ومُكلِّفًا جدًّا حينها. كنتُ أرى صاحبي يبدأُ يومه منذ السابعة مساءً، يرتبطُ غالبًا من منزله، في وسط روان، بكمبيوتر هائل في مدينة بوردو في جنوب فرنسا هيأَهُ «المركز القومي للأبحاث التطبيقيَّة» لبعض الباحثين في عموم فرنسا. كنتُ أراهم يلتقون فيه عبر شاشات منازلهم، ينسجون بشكل حرفيٍّ ما يشبه «متصفحات أنترنيت» اليوم، يبنون بأيديهم منتديات للحوار والدردشة، «كُونتنوا»، دون استخدام أنظمة جاهزة لذلك مثل اليوم، يتبادلون الرسائل الإلكترونيَّة التي لم تكن شعبيَّةً بعد، يخلقون لغات كمبيوتريَّةً جديدة، أنظمةً جديدة، دون هوس المردود المالي والمصلحة الاقتصاديَّة التي طغت على مشاريع اليوم... كان همُّهم أتمتة الحلم، أنسنة الآلة، استخدام الكمبيوتر في كلّ مجالات العلم والفكر والثقافة، البحث العلميّ لغاية البحث العلمي أوّلاً وأخيراً، إنتاج المعارف من أجل أعين العلم وليس من أجل أرقام «مجموع المبيعات» والجدوى الاقتصاديَّة. غايةٌ ساميةٌ ذكّرتني بسموٍّ مدارس: الفنٌ للفن، أقصد الفنّ الحقيقي الذي يضع مصلحة الفن فوق كلّ شيء.

كنتُ أراهم يمارسون الجدل العلمي الدائم، يفتحُ كلٌّ واحد منهم أعماله وتجاربه أمام مرأى الجميع للقراءة والاستعمال والنقد،

يبنون معًا المشاريع الحرّة المشتركة، الأعمال الجماعيَّة، يبحثون معًا عن أطر لنقلِ تلك الأجواء التي يتقاسمونها مع باحثين آخرين في أوروبا وأميركا واليابان، للحياةِ العامّة. كان جوًّا مشبعًا بالحماس، باللهفة، بالحرية... من تجربته وحاجاته وتقاليد حُرِّيته وُلِد أنترنيت اليوم.

لن أنسى طوال حياتي تلك السنوات التي راقبت فيها طقوس حياةِ من كنت أسمّيهم: «دائرة شعراء منتصف الليل». كنتُ أراهم يسكرون سعادة وهم يبحرون قرب شواطئ جديدة يطأُها الإنسانُ لأوَّل مرة. شعرت أنَّهم يعيشون لحظات لن تتكرَّر. وكانت كما عرفتُ من صاحبي فعلاً لحظاتٍ لن تتكرَّر.

كنت أراقبُ تلك الحياة بذهول وحسرة. بحسرة من أضاعها لأنَّه لم يتمرَّد قليلاً، إذا قبِلنا أن نسمي تغيير التخصُّص الدراسي الجامعي تمرّدًا! ثمّ كنتُ أستغلُّ ليالي بقائي بمنزل صاحبي بالحديث معه حول أهمِّ أحلامي الضائعة: كتابة برنامج كمبيوتر ينتجُ روايات أدبيَّة! كان صاحبي يُحِبّ الأدب مثلي، إلا أنَّه كان «مُجمِّداً» نفسه أدبيًّا حينها لانهماكه بعيش ساعات المخاض المدهشة لـ«المغامرة الإلكترونيَّة»، إن لم أقل بالغرق فيها منذ بزوغ أولى أضواء فجرها الجميل.

عندما عبَّرتُ له عن حلمي في كتابة برنامج لإنتاج روايات أدبيَّة، ضحك صاحبنا وقال لي إنَّه حلمٌ طوباوي بحت. أضاف: بإمكانك أن تحلم بامتلاك سفينة مثل «التيتانيك» الأسبوع القادم،

بإمكانك أن تحلم بعمل بحث علميٍّ يحسب عدد جزيئات وذرّات الكون... بإمكانك أن تحلم ما أردت، لكن ثمّة أشياء مستحيلة المنال في أزمنةٍ وأمكنةٍ محدَّدة، وثمّة أشياء مستحيلة المنال (بالمعنى الرياضيّ للكلمة) في كلّ زمانٍ ومكان.

أجبتُ قائلاً: حلمٌ طوباوي أم لا، هو مخرجي للهروب من حياتي التي صارت مقرفةً، خانقةً، بلا أمل أو مشروع.

بعد نقاشٍ طويل عرفتُ أنَّ الأبحاث في علم «الذكاء الاصطناعي» مازالت في طورها الجنيني. لمحاكاة ذكاء الإنسان كمبيوتريًّا يتطلّبُ أولاً أن يكشف الإنسانُ كثيرًا من أسرارِ ملكوتِ الذكاء وقُدس أقداسه: المخ! (وإن كنتُ أفضّلُ، على هذه الكلمة التي استعملها صاحبي، الكلمة المرادفة: الدماغ). نعم، الدماغ: معقل الذكاء والتفكير والخيال والحدس والشعور والأحاسيس... معقل الحبّ أيضًا وإن اعتدنا حشر الحُبّ مجازًا بين شفطات وضخّات أذيني وبطيني القلب وشرايينه وأوردته.

عرفتُ من صاحبي أنّه يلزمُ أوّلاً أن تتقدّم الأبحاث المشتركة لـ«علماء الروح» وميكانيكا الذهن، أقصدُ: البيولوجيين والنوروبيولوجيين، وسيكولوجيي الجهاز العصبي، وفيزيولوجيي الجهاز العصبي، وسيكولوجيي الذهن. ليسوا وحدهم فقط، بل الأنثروبيولوجيين وعلماء الاجتماع أيضًا...

شعرتُ بكثيرٍ من الخيبة: مازال أمام العلم عقود كثيرة قبل أن يُضيئ كلَّ غرف الدماغ ومخابئه، قبل أن يُعرّي كلّ مساحاته الحسّية، قبل أن يُحدِّد مقرّات اللغة والإدراك والتعلُّم والحدس، كلّ مناطق الشعور من خوف وفرحٍ وربشةٍ وألم... قبل أن يكشف شبكات خلاياه العصبيَّة وطرق تفاعلاتها المتنوِّعة واتصالاتها الفيزيولوجيَّة وهي تُنتج الفكرة، الحسَّ، الحدس، العاطفة...

أفرحني صاحبي مع ذلك قليلاً عندما قال لي:

صحيحٌ أنَّ التفكير بحدِّ ذاته «سيرورةٌ» بالمعنى الكمبيوتري للكلمة، يمكن محاكاتها كمبيوتريًّا، أقصدُ: يمكن البرمجة الكمبيوترية لـ «الإشارات» التي تتبادلها شبكات الخلايا الدماغية أثناء عمليّة التفكير. لا تكمنُ الصعوبة هنا في نمذجة وبرمجة تلك الإشارات كمبيوتريًّا، بل تكمنُ في أنَّ طرق إنتاج تلك الإشارات مازالت في معظمها مجهولة، وما زالت أنظمةُ عمل شبكات الخلايا الدماغيَّة وتفاعلاتها الديناميكيَّة غامضةً تحتاج إلى بحوث علميّة مرهقةٍ طويلة لفكِّ أسرارها ومعرفة أنماطها وطلاسمها وميكانيكها...

شعرتُ باليأس رغم ذلك، أنا الذي كانت أنبل أحلامي أن أرى، في حياتي هذه وليس في حياة مستقبليَّة أخرى، «الظواهر الروحيّة» مسبوكةً في عناقيد الميكروبروسيسورات، مُبرمجةً رقميًّا في حنايا السيليسيوم... أن أرى يومًا برامج كمبيوتر تحاكي الذهن، تنتجُ ذكاءً اصطناعيًّا، شعورًا اصطناعيًّا، سعادةً اصطناعيَّة، ألمًا اصطناعيًّا، حُبًّا اصطناعيًّا.

إلهي، كم أحلمُ أن أشاهد برنامج كمبيوتر في جوف رجلٍ آليٍّ مُدجّجٍ بميكروبروسيسورات من الخلايا العصبيَّة الاصطناعيَّة، يجعلُه يحيا كإنسان، تختلجُ مشاعره، يشتاق، يعشق، يشعر بالشهوة والفرح والخوف والألم، يؤلِّفُ، يكتبُ، يمارسُ التجريد العلمي، يبدعُ، يخترع!... لستُ ساديًّا قط، لكني أحلمُ أن أرى إنسانًا آليًّا يبكي! أعرفُ أنِّي سأبكي حينها من عمق أعماقي لآلامِه، سأتقطَّرُ رثاءً وأسىً من أحزانه.

كنتُ أُردِّدُ بسريّة قُصوى أحتفظُ بها لي وحدي: من يدري، ربّما قُدِّر لي أن ترتبط حياتي بفتاة أحلام آليّة، تعشقُني عشقًا رقميًّا أعتى وأفتك من العشق الطينيّ الذي اعتاده بنو البشر؟... غير أنَّ حديث صاحبي قطع عليّ الأمل سريعًا، وعلّمني أنَّني لستُ «ملاك النهايات الأليمة» فقط، بل «فارس الأحلام المستحيلة» أيضًا.

أعترفُ مع ذلك أنَّ شرارة أملٍ وحبٍّ استطلاع جارف هزّتني عندما قال لي:

- أعرف برنامج كمبيوتر، إسمه: «شهرزاد»، وضعتهُ مجموعة باحثين شباب، يُشبهُ إلى حدٍّ ما ذلك الذي تحلمُ بتصميمه. هدفُه فرعونيّ: إنتاج قصص اصطناعيَّة كتلك التي تهفو لإنتاجها كمبيوتريًّا. محصّلتهُ العمليَّة: ميكروسكوبيَّة، محدودةٌ جدًّا جدًّا. عمومًا لم يدّعِ مؤلفو ذلك البرنامج أنَّه أكثر من خطوةٍ صغيرةٍ على طريق الألف كيلومتر.

ثمّ أضاف: في ظلّ الجهلِ العلميّ لمعظم جغرافيا الدماغ وميكانيكا تفاعلات واتصالات قبائل وعشائر وتجمُّعات خلاياه العصبيَّة، ما يقدِّمهُ ذلك البرنامج بعيدٌ كلّ البعد عمَّا تحلمُ به: لا يصنعُ سيناريو الأحداث لوحده، لا يخلقُ الشخوص وينسجُ تطوُّرات علاقاتهم لوحده، برنامجٌ ثرثارٌ جدًّا، يوجِّهُ ألف سؤال وسؤال، يحتاج أن يضُخَّهُ مستخدمهُ باستمرار بكثيرٍ من المواد الخام: قصصٌ أوليَّة، تجارب حياتيَّة، أحداث وذكريات متنوِّعة. يحتاجُ أن يحقنَهُ المستخدم بالأحلام والاستيهامات، أن يُغذِّيه بالرؤى والمشاريع... سيلزمُكَ أن تجيب على أسئلة كثيرة يوجِّهها لك ذلك البرنامج عندما لا يعرفُ كيف يواصلُ عملاً إبداعيًّا، عندما يجهلُ كيف يخلقُ فرضيَّاته، عندما يحتارُ كيف يحسم بين عدَّة خيارات... قال لي: ستملُّ سريعًا استعمال شهرزاد، لأنَّه برنامجٌ ثرثارٌ جدًّا، مبادراتُه قليلة ومحدودة واستجواباته لا تُعدّ ولا تُحصى.

لم أردّ عليه. شعرتُ بفرح داخليٍّ كبير، سمعتُ قهقهاتِ تباشير تعربدُ في أقبية روحي المغبّرة، القاتمة، المُغلَّفة بسياج كثيف من خيوط العنكبوت... ثمّ قلتُ لنفسي: ويحي، لستُ أنا من كتبَ ذلك البرنامج كما كنتُ أحلمُ! ثمّ أوقفتُ لومي الذاتي مهامسًا نفسي: من لا يستطيعُ أن يتمرّد قليلاً ليس جديرًا بحلم نبيل كهذا... كنتُ سعيدًا الآن أنَّ آخر حقّق حلمي. ردَّدتُ في أوج سعادتي المفاجئة: «لا بدّ من شهرزاد وإن طال السفر!».

منذ سبتمبر ١٩٨٥ الذي بدأتُ فيه سنوات الدكتوراه الكئيبة، وبعد عودة كثير من الزملاء من إجازة صيفهم في عدن، تغيّرت أشياءُ كثيرة في حياتنا. وصلتنا أنباءٌ سيئةٌ جداً عن يمن يعيشُ في قِدْرٍ بخاريٍّ مضغوط، على شفا انفجار كبير. تغيّرت طقوسُ م.ق.، زادت وتيرةُ لقاءاتنا ونقاشاتنا، قلّت مغامراتنا، وصارت أحاديثنا مشدودةً بالخوف، معجونةً بالفجيعة. يمرُّ كلُّ يومٍ مُثقلاً بالترقُّب والقلق. نتابع الأحداث بغشاوةٍ كاملة. تَصِلُنا أخبارٌ عصيّةٌ على الفهم تماماً. كان ثمّة مع ذلك سؤالٌ وحيدٌ واضحٌ كعين الشمس نردِّده دوماً ونحن نعُدُّ الرؤساء والمسؤولين والمواطنين الذين اُغتيلوا أو سُحقوا أو عُذِّبوا في السجون والحروب، أو سمِّموا في الدورات التعليميَّة: ألا تكفيهم كل هذه المجازر؟

ثمّ سمعنا التالي:

في صباحٍ يناريٍّ عدنيٍّ جميل كان هناك اجتماعٌ دوريٌّ لِقدسِ أقداس الدولة: المكتب السياسي. قبل بدء الاجتماع، دخلت كعادتها وصيفةٌ طيّبةٌ تحملُ ترموست شاي القائد الكبير، لتضعهُ كعادتها أمام مقعده، قبل مجيء فخامته لطاولة الاجتماع المهيبة. القائدُ الكبيرُ لن يتأخَّر إذن. كان كلُّ شيءٍ طبيعيًّا كما يبدو. بدأ الحاضرون كعادتهم لحظات الانتظار الأخيرة للقائد الكبير الذي سيفتتحُ الاجتماع.

ما كان مُخالفًا قليلاً للعادة هو أنَّ القائد الكبير كان قد هرب منذ الفجر مع حاشيته وأعوانه بعيداً عن عدن، وأنَّ حارسًا من حرسه دخل إلى قاعة الاجتماع، بعد خروج الوصيفة، لـ...

لـ . . .

لـ . . . يُطلق عيار رشّاشه الآلي على ظهورِ الجلوس.

حفلةٌ تنكريّةٌ قذرةٌ دامية!

توالت في الوقت نفسه اغتيالاتٌ ومجازر قامت بها عصبة «ترموست الشاي» ضدّ خصومهم. بدأت بعد ذلك حربٌ أهليةٌ شنيعة. انتهت بانتقامات ومجازر قام بها الخصوم المنتصرون، سقط خلالها بشرٌ كثيرون في غاية الوداعة والطيبة، قُتلوا عُزّلاً في الغالب، أو لمجرَّدِ أنَّ مساقط رؤوسهم هي مناطق عُصبة «ترموست الشاي». جرائم جبانة بمستوى سفالة جريمة ترموست الشاي والمجازر التي رافقتها نفسها.

هكذا، بدأت تلك الحرب «ضفعةً» كبيرة، وانتهت «ضفعةً» كبيرة. عرَّت بينهما الوجه القبليَّ القبيح لنظام سياسيٍّ تشدَّق بأحدث وأنبل الأفكار التقدميَّة والمبادئ السامية قبل أن يُمرِّغ شعباً كاملاً في وحل حربه وجحيم عواقبها. قبل أن يغتال إلى الأبد أحلام وتطلُّعات كثيرٍ من الأبرياء والمخلصين الذين تفتَّحت ثقافتهم ومداركهم على ما رضعوه خلال الأمسيات الفكريَّة المكرَّسة لصفات «المناضل الثوري»: الصدق، الصفاء الثوري، النقاء الثوري، التفاني في العمل، التواضع، السهر على مصالح الشعب . . . إلى آخر القائمةِ التي يُنافسُ عددُها عدد صفات الذات الإلهيَّة. قلتُ قبل قليل: قبل أن يغتال إلى الأبد أحلامَ وتطلعات . . . وفي حنايا روحي أصداء دعاءٍ مكتومٍ، لا أتجرأُ

على البوح به، يتوسَّلُ بأن تنبعث يومًا من رمادِها كالعنقاء تلك الأحلامُ والتطلُّعات، لأنَّها وحدها أملُ هذا البلد المستنزف المُحتضر.

ما لن يغادر ذهني يومًا من ذكريات تلك الحرب هو بدايتُها، شرارتُها الأولى: ترموست الشاي! هكذا، لم يكن ترموست الشاي إلا فخًّا، وسيلةً لـ «مغافلة» وتضليل المجتمعين.

لا أظنُّ أنَّ ثمّة في القاموس كلمةً أشدَّ سفالة وجُبنًا من كلمة: الغدر. وكانت مسرحيةُ «ترموست الشاي» غدرًا من الطراز الرفيع.

تساءلتُ مليون مرّة: كيف تخطرُ في بال إنسان هذه الأفكار الشيطانية، هذه الفخاخ الجهنمِيَّة؟ من أين جاء صاحب هذه الفكرة؟ في أي عصر وُلد وفي أي عصابة ترعرع؟... مازلتُ حتى آخر أيّامي في علبة الصاردين أزعقُ كلَّما أشاهدُ ترموست شاي. صرت مصابًا بعقدة «ترموست الشاي». لا أستطيع وصف حجم الخرائب النفسيَّة التي تركها ذلك الحدثُ في نفسي عندما سمعتهُ يوم ١٣ يناير ١٩٨٦. أحتاج لقرون كي تندمل أوجاعه. أحتاجُ بالتأكيد لزيارة طبيب نفساني للتخفيف من حدَّته. ويحتاج كلُّ يمنيٍّ عاش ذلك الحدث وهو في سنِّ الرشد إلى طبيب نفساني لمعالجة تلك الشروخ التي تُهشِّمُ لاوعينا الجماعي المتداعي.

لعلّنا مازلنا حتى اليوم «مُصلمخين»، لأنَّ ثمة في مكان ما في نفسيَّة كلِّ واحدٍ منّا غرفة مظلمة، تتوسَّطها منضدةٌ كبيرة، عليها ترموستٌ مملوءٌ بالدم.

أعـرف أنَّ ١٣ يناير لم تكـن أوّل مـؤامـرات الغـدر في تـاريخ السلطات السياسيَّة. كان ثمة في غياهب تاريخ الإمبراطورية الرومانيَّة فخاخٌ من العيّنة نفسها من الغدر السياسي. غير أنَّ مثل هذه الفخاخ لم تعد تحاكُ، خارج اليمن، في العصر الحديث (منذ مذبحة القلعة التي حاكها محمد علي للمماليك) إلا في اجتماعات قادة عصابات المافيا لا غير. أما في اليمن فما زالت الذاكرة الجمعيَّة مضرّجةً بمسرحية ١١ أكتوبر ١٩٧٧ التي أطاحت بنواة الحداثة وغرست وجه اليمن في وحل القبيلة...

تذكَّرت فجأةً جعفر الدملاني في آخر لقاء لي به أمام باب مقهى الكافيلام مع صديقته الروسيَّة تاتيانا، أو حفصة. استرجعتُ في ذهني محاضرتهُ التي ألقاها عليَّ حينها بعد منتصف ليلِ ذلك اليوم الحزين الذي هربتُ فيه إلى فيشي بعد أن فقدتُ إيزا إلى الأبد. كم كنتُ أسخرُ حينها من محاضرة جعفر، التي أشهدُ اليوم كم كانت قريبةً من الحقيقة! لأنّ من ألقاها كان فيلسوفًا ذا صاعٍ وباعٍ في علوم ترموستات الشاي. صدق أبو عينها، العقيد جعفر الدملاني!

في أولى أيام تلك الحرب توجَّهتُ إلى منزل صاحبي: ح.ع.س. لن أسردَ كيف عشنا ليلتها أخبار تلك الحرب. لا أمتلكُ الجرأة على نبش تلك الذكريات لأنَّها لم تندمل بعد. أو بالأحرى لأنَّها لن تندمل يومًا، كما يلزمني القول. توجَّهتُ ليلتها لمنزله لسبب وحيد: أبحثُ عن شهرزاد! وحدها ستنسيني هذا الحلم المرعب، هذا الكابوس المخيف الذي يعذّبني أبداً.

طلبتُ منه برنامج شهرزاد. أعاد عليّ أسطوانته القديمة قائلاً: ستملُّ شهرزاد، سترهقُك أسئلةً، لغةُ مخاطبتها الكمبيوتريَّة مملوءةٌ بالقيود... أجبتُ: كلّما ستكونُ ثرثارة كلّما سأُحبُّها أكثر. أريدها. أريدها. أريد أن تقصفني أسئلة، أن تغمرني استفسارات، أريد أن أُجنّ، أريد أن أنسى كلّ شيء...

شحن لي ١٥ قرصًا تحوي برنامج شهرزاد. غادرتُ منزله بها متَّجهًا نحو غرفتي في سانت مالو.

الفصل الثالث عشر
شهرزاد

ما إنْ وصلتُ مع شهرزاد إلى غرفتي في سانت مالو حتى أغلقتُ جيّداً ستائر نوافذِها، بابها، شُرفتها التي تُطلُّ من الدور الخامس على غابة جميلة لا تفصل أشجار صنوبرها الباسقة عن عمارتنا إلاّ بضعةُ أمتار.

قلتُ لنفسي: في بساطِ شهرزاد سأهربُ من روع ما يحدث في عدن، من قرف حياتي في فرنسا، من ضنك هزائمي الدراسيَّة والإنسانيَّة المتراكبة. بها ستنفتحُ لي أبوابُ الفردوس، أبوابُ تيماء. بواسطتها سأُحقِّقُ أكبر أحلامي، أعظم مغامراتي، عشقي الأبدي: تيماء. بها سأخلقُ تيماء، سأرى تيماء، سأستنشقُها، سأواصلُ قصّة عشقي معها... بها سأخرجُ من جحيم حياتي التي صارت، بعد حرب ترموست الشاي، تهوي نحو الدرك الأسفل من النار.

فوجئتُ بخيبة قاضية عندما أدخلتُ أوّل أقراصِ شهرزاد في كمبيوتري الشخصي الذي كان، رحمه الله، من نوع «ميكرال»: فصيلةٌ عفّى عليها الزمن آنذاك، فكيف الآن؟... لعلّ أفضل ما كنت أستطيع عمله مع ميكرالي العتيق هو أن آخذ صورةً تذكاريَّة بجانبه، أبيعها اليوم لمتحف آثار بمبلغ كبير، لأنّ سلالة كمبيوترات الميكرال صارت اليوم تثيرُ شهيّة علماء الحفريات مثل سلالة الدناصير.

لم أُصب بإحباط مع ذلك. كان لديَّ مشروعٌ يحفِّزُني، يضرمُ إرادتي، يملأُني نشاطًا وحماسًا. وكان لديّ من المال ما يكفيني لشراء أحدث كمبيوتر شخصيٍّ حينها.

الحقّ أنَّه لم ينقصني المال طوال بقائي في فرنسا. ليس بسبب مبلغ المنحة التي كانت كافيةً بحدٍّ ذاتها، بل لأنِّي لم أتوان عن العملِ الصيفيّ وغير الصيفيّ طوال سنوات حياتي في فرنسا. بدأتُ ذلك منذ أوَّلِ إجازة صيف في سانت مالو، اشتغلتُ خلالها شهرًا ونصفًا في شركة بناء، منحتني مبلغًا لا بأس به. غير أنَّ مصدر ثرائي، إن كان لي أن أُسمِّيهُ ثراءً، أينع بحقّ يوم رَدَدْتُ على عرضٍ لتصحيح أوراق امتحانات الرياضيات، رأيتُه على مدخل شركة للتدريس بالمراسلة اسمها: إدُوكاتِل.

كان ساعي البريد يترك لي في صندوق رسائلي في مدخل العمارة، في الصبح الباكر، ظرفًا فيه رزمة أوراق امتحانات لمنتسبين لمدارس مهنيّة متوسطة، كثيرٌ منهم من دول فرانكفونيَّة أو موظفون

فرنسيون يبحثون عن إعادة تأهيل. يعودُ في الغد ليأخذ من الصندوق نفسه الرزمة المُصحَّحة تاركًا رزمةً جديدة...

لم أكن أُصحِّحُ إلا عدداً ضئيلاً من أوراق الامتحانات في السنوات الأولى، لعدم حاجتي الحقيقية لراتب أدوكاتل، اللهم إلا للذهاب إلى المطاعم الفاخرة أحيانًا: مرضٌ مستأصلٌ منذ سنوات الإعدادية في عدن التي طُفتُ كلّ مطاعمها ومخابزها، لا سيّما مطعمها الذي ملّ نادلوه من رؤيتي: المطعم الصيني، تشينج سينج، المنتصب على مدخل شارع المعلا الرئيس.

لم يكن في البدء مُقرفًا أن أُصحِّحَ يوميًّا ما تيسّر من أوراق امتحانات بشرٍ لا أعرفه ولن أراه يومًا. طلابٌ من الكونغو ولبنان، من السنغال وساحل العاج، من قرى ومدن فرنسيَّة كثيرة... كنتُ أتخيَّلُ أحيانًا أوجه أولئك المنتسبين، أتعاطفُ رغمًا عنّي مع أوراق الفتيات، مع إيقاع رقّة خطوطهن، كنتُ أرسم وجوههنّ في مخيّلتي قدر ما أستطيع... لعلّي دخلتُ عالم العلاقات مع الكائنات الافتراضيَّة منذ تصحيح أوراق امتحانات بشر تعوَّدتُ أن أتمثَّلهم وأكوِّنهم في خيالي كما يحلو لي، وإن لم أرهم يومًا ما أمامي. عالم وهميٌّ مفتوح غني واسع، أغنى بما لا يُحدّ من عالم الواقع البالغ التحديد والفقر والضحالة!

لكنّي منذ بدء دراستي للفيزياء وخلال السنوات العجاف صرتُ أمقتُ تصحيح الامتحانات الذي أضحى، مثل السنوات

العجاف نفسها، وقتًا مهدورًا رتيبًا بالغ القرفِ والتعاسة. غير أنّي بدأت مع ذلك أُصحِّح عددًا أكبر من أوراق الامتحانات، لخوفي من شبح انقطاع المنحة بعد تواتر عثراتي الدراسيَّة، أو بسبب احتياجاتِ نزهات ومغامرات م.ق. التي كانت تُحبُّ قضاء ليال جامحة تخلو من التقشّف والزهد.

أمّا عند عودتي من منزل ح.ع.س. حاملاً مفتاح الجنّة: شهرزاد، وبعد رؤية ميكرالي عاجزًا عن فتحِ أقراصها، اتصلتُ على التوّ بشركة أدوكاتل لتبعث لي أكبر عددٍ ممكن من الأوراق للتصحيح، كيما أشتري أحدث وأمتن كمبيوتر شخصي، بأوسعِ وأنبضِ ذاكرة حيّة، وبأفضل وأكبر شاشة أرى فيها تيماء تغمرُ حياتي دفئًا وعشقًا وسلامًا.

قضيت أسابيع طويلة أُصحِّح في غرفة منعزلة محصّنة، ألهثُ وأرشحُ، أتعذّبُ في كلّ ورقة، أستميتُ وأستميت... قبل أن أتوجَّه لشراء الكمبيوتر الذي أحلمُ به، بكلّ حاشيته وزبائنه الرقميّة من سكانير وطابعة وملحقات متعدِّدة الوسائط. كان ماكينتوشًا من آخر صرخة، يفتحُ مرآهُ الأمل والبهجة. كان، رغم غلائه الفاحش آنذاك، قربانًا صغيرًا أضعهُ على أقدام معبودتي، تيماء.

كانت خيبتي رادعةً هذه المرّة عندما شغّلتُ القرص الأول لأرى بأمّ عيني أن شهرزاد لم يكن برنامجًا مُعدًّا لأن يستعمله آخرون. لا توجد فيه أيّة شروحات لطريقة تشغيله، لبُنيته وملفّاته. لا يمتلكُ

«واجهةً تفاعليةً» تسهِّل استخدامه. كان جليًّا مع ذلك، من العدد الخيالي من صفحات برمجياته ومن بعض الملاحظات المنسوخة هنا وهناك، أنه عملٌ ألمعيٌّ خارقٌ يحملُ في طيّاته أسرارًا ونتائج مذهلة، غير أنه عملٌ منغلقٌ، صمَّمتهُ وكتبتهُ عصبةٌ من الباحثين الذين لا يُهمُّهم إلا متعة تحقيق أحلامهم ونزواتهم الفكريَّة، ولذّة التجسيد الكمبيوتري لرغباتهم الجامحة، دون بذلِ أدنى مجهود لشرح طريقة استخدام عصارات سنوات مجهودهم للآخر، للمستخدم البسيط مثلي. عصبةٌ من «شعراء منتصف الليل» كما أسميتُهم.

كدتُ أشعر بأسوأ خيبة. لم ينقطع أملي مع ذلك لأسباب أجهلها. حاولتُ قدر ما أستطيع أن أستوعب الخطوط العريضة لبُنية شهرزاد دون الدخول في تفاصيلها التي بدت لي عويصةً مبهمة، وكأنّها كُتبت بلغة سريانيَّة أجهلُها شكلاً ومعنى. لاحظتُ وأنا أُقلِّبُ ملفات برامج شهرزاد يمينًا ويسارًا أن بُنيتَها تتكوَّنُ من ثلاث وحدات أساسية من البرمجيات المتداخلة:

الوحدة الأولى، دماغُ شهرزاد وعمودها الفقري كما بدت لي، تحوي مجموعة برمجيّات تدخل في حوار تفاعليٍّ مع المستخدِم، تستوقفه وتناقشه، وتستخرجُ من ألفاظه «شبكة معان ومدلولات»، بالمعنى التقنيِّ للعبارة، تترجمُ بواسطتها ما تقصدُه تلك الألفاظ. تقترحُ هذه الوحدة للمستخدِم أفكارًا كثيرة حول الشخوص الرئيسة التي يزمعُ توظيفها في روايته. تستشفُّ خلال ذلك الحوار المؤشرات

والملامح الجوهريَّة للشخوص، تحولها إلى قيم لـ «متغيّرات رمزيَّة» تستخدمُها بعد ذلك في إنتاج النصّ.

بجانب الوحدة المركزيَّة لشهرزاد ثمّة وحدةٌ ثانية، لسانُ شهرزاد إذا جاز القول، اسمها: «الغلاف اللغوي». هدفها خلقُ النصِّ الروائي. تحيكُ هذه الوحدة وتصيغُ نصَّها متّكئةً من ناحية على نتائج حوار الوحدة السابقة وعلى قِيَم «متغيّراتها الرمزيَّة»، ومن ناحية أخرى على ترسيمات ونماذج وإكليشات وبهارات لغويّة، دُجِّجت بها شهرزاد مسبقًا كي تستعملها لحبك النصِّ الأدبي النهائي، لتعطيرِه وتنميقه. نصٌّ أدبيٌّ شحيحٌ مع ذلك يلزمني القول، بحاجةٍ إلى إغناء غير منقطع من المستخدِم.

أما الوحدة الثالثة لشهرزاد فهي الوحدة الجرافيكيَّة، أو أصابع شهرزاد إذا جاز القول. تطمحُ هذه الوحدة لرسم الرواية وتصويرها بمساعدة المستخدِم. لم يكمل مخترعو شهرزاد هذه الوحدة، ووعدوا أنهم سيضيفونها في نسخة مستقبليَّة مطوّرة اسمها: شهرزاد ٢، يطمحون من خلالها إلى إنتاج «عمل أدبيٍّ متعدّد الوسائط» حسب تعبيرهم! «كلام خطيرٌ، خطيرٌ جدًّا!»، قلتُ لنفسي أنا الذي استفزّني وأرهبني مصطلح «الإنتاج الأوتوماتيكي للعمل الأدبي»، فما بالكم بـ «الإنتاج الأوتوماتيكي للعمل الأدبيّ متعدّد الوسائط»! ثمّ تساءلت إن لم تكن كلّ هذه المشاريع، التي لم يكن يُعقلُ مجرّد الحلم بها قبل سنين قليلة، من علامات الساعة!

كان مؤلمًا لي حقًّا أن تقتصر معرفتي ببنية شهرزاد، أو بعلوم تشريحها إذا جاز القولُ أيضًا، على هذه المعلومات الهلاميَّة جدًّا. كنتُ بعيداً كلّ البعد عن سبرِ أغوارها. كنتُ كمن يقفُ أمام «مغارة علي بابا» جاهلاً صيغة «افتح الباب يا سمسم» التي تسمحُ بفتحِها. أو كمن يمتلكُ في بنصرهِ خاتم سليمان جاهلاً أن عليه أن يُدلكه فقط لتنفتح لهُ أبواب المستحيل. أيقنتُ مع ذلك أنَّه كي أتغلغل في أعماق شهرزاد عليّ أن أقرأ برامجها الكمبيوتريَّة سطراً سطراً، وأن أتعلّم وأتعمَّق في لغتي الكمبيوتر الراقيتين جدًّا: ليسب وبرولُوج التي كُتِبَت شهرزاد بهما.

هكذا وجدتُ نفسي مضطرًّا لدراسةِ لُغتَي كمبيوتر لم أتعلّمهما في السنتين الأولَيَيْن من الجامعة. لعلّه لم يكن اضطراراً بالمعنى الحرفيّ للكلمة لأنَّني وجدتُ نفسي فجأةً في مرابع أُحبّها بالفطرة، وجدتُ نفسي أمام ديار عشقٍ قديم خُنتُه بِجُبن عندما لم ألتحق في ليسانس الرياضيات والكمبيوتر.

هكذا قضيتُ أشهرًا كاملة بعيداً عن الزملاء والأصدقاء، أستلمُ رسائل من مختبر الجامعة تسأل عني ولا أردُّ عليها إن لم أردّ عليها بأعذار واهية، أُصحِّحُ أوراق امتحانات أدوكاتل وأُقضّي معظم وقتي أتعلّمُ لوحدي لُغتَي لِيسب وبرولوج.

تقدَّمتُ كثيرًا، تمتَّعتُ كثيراً، ولعنتُ كثيرًا تلك اللحظة الجبانة التي لم أُسجِّل فيها في ليسانس الكمبيوتر. كانتا لُغتين راقيتين فعلاً،

مقدراتهما التعبيريَّة لا تُقارن من قريب أو بعيد بمقدرات لغات الكمبيوتر التقليديَّة التي تعلّمناها في سنوات الجامعة الأولى: فورتران، باسكال، سي... ويحي، ها أنا أتعرَّفُ عليهما متأخِّراً عدّة سنوات عن الموعد المطلوب! ألستُ أبداً رجل المواعيد الضائعة؟ كانتا فعلاً أرقى ما وصل إليه علم «الذكاء الصناعي» في مجال لغات الكمبيوتر. ليسب: لغةٌ واسعةٌ أنيقة، شديدةُ التعبيرية، نموذجُها الرياضي متينٌ وجذّاب. برولوج: لغةٌ «تصريحيَّة»، كما يقولون، تُصرِّح فيها ما تعرفه من معلومات ومعارف بلغة تشبه لغة تخاطب البشر، وفي قلبها «ماكينة استنتاج منطقي» تعفيك من إعطاء تفاصيل وطريقة الحلِّ بلغة كمبيوتريَّة بدائيَّة مُرهقة، على غرار اللغات التقليدية التي درسناها في السنوات الأولى من الجامعة.

اشتريت كتباً علّمتني تينكما اللغتين. لم أندم إلا على زمني المفقود. برمجتُ وبرمجتُ كل ما يخطر على بالي من أمثلة، تقدَّمتُ سريعاً لأنَّني كنتُ أسرحُ وأمرحُ في أراض أهواها بالغريزة. تمكَّنتُ أخيراً من القراءة السريعة نسبيًّا لبرامج صاغها غيري بتينك اللغتين. هكذا، بعد أكثر من سنةٍ انعزلتُ فيها عن الدنيا تقريباً، شعرتُ أخيراً بأنَّني قادرٌ على فكِّ بعض رموز شهرزاد والتفاعل معها.

بدأت أُدخل تعريفي لتيماء، أبرمجُها، أخلقُها بلغة «تصريحيّة» تفهمُها شهرزاد، أجبتُ على أسئلتها، راقبتُها وهي تُحوِّلُ وصفي لتيماء، لبهائِها وجمالِها وعذوبتِها، إلى قيم لـ«مؤشرات ومتغيّرات رمزيَّة». ثم أردت على التو أن أُحقِّق أنبل وأعظم أحلامي:

أن تواصل شهرزاد خلق رواية عشقي لتيماء، أن تكتبها أمامي، أن أقرأها بولهٍ وإثارة، وأن أشاهد أحداث الرواية على الشاشة بأم عيني.

استهلَّيتُ حواري مع شهرزاد بتقديم نموذج عشقي الأول الذي أردتُ أن تُواصلهُ وحدها: نموذج «جاءت معذّبتي في غيهب الغسق...» بعد حوار طويل معها كان ردُّها قاطعاً: «محاولةٌ فاشلة! لا أستطيعُ مواصلة رواية تبدأُ بهذا الشكل»...

سألتها: لماذا؟ أجابت: «المطاوعة، المليشيا، الحرس الخاص...» ثمّ اختتمت ردَّها كما يلي: «أعتذرُ تمامًا، أجهلُ كُلّيةً مواصلة رواية أدبيّةٍ تحيا وتنمو في الدهاليز!».

هكذا عطّفتُ خائبًا مشروع عشقي لتيماء على إيقاع «جاءت مُعذّبتي في غيهب الغسق...»، لأنَّ شهرزاد لا تعرفُ مواصلة رواية تختبئُ داخل أنفاق العمل السرّي، أو تدورُ بين أسلاك شائكة من المنع والتكفير والمحرّمات. ودّعتُ بداية عشق «غيهب الغسق» بأسف بالغ. كانت بدايةً حالمةً جدًّا مع ذلك، رومانسيَّةً كما أشتهي، مبدعة التمرّد...

لم تتبقّ لي إلا البداية الثانية، بداية ذلك العشق الراقص تحت الشمس، العشق الذي تبرعم في المقهى الجامعي الشبابي الصاخب! برمجتُ شهرزاد بقصّة ولعي بتيماء منذ أوّل لقاءاتنا في ذلك المقهى، وحتّى بدء أيام العسل في الحيّ اللاتيني. برمجتُها كما يلزم لتنطلق وحدها من تلك النقطة، من حيث توقّفت، ولتواصل ما تبقّى من الرواية وحدها!

بدأت شهرزاد فعلاً منذ وصولنا باريس، على هذه الشاكلة: توقّفنا لشُرب كأسٍ في مقهى «بركلي» في بداية شارع ماتينيون الملتصق بنهاية الشانزليزيه. مقهىً يفتحُ النفوس المغلقة، فما بالكم بنفوس لها أبوابٌ مفتوحةٌ بحجم الحياة. توجَّهنا بعد ذلك إلى الحيّ اللاتيني. كم أبدعت شهرزاد باختيار فندق لنا في قلبه النابض، في سانت جرمان! على يسارنا حيّ دي بوسي والأوديون، وعلى يميننا ميدان سارتر ـ دوبوفوار وشارع أبولينيير. على خطوتين من فندقنا باتجاهِ اليمين، كاتدرالية سانت جرمان ومقاهي «دو ماجو» و«دو فلور» اللتان ماتزالان، منذ أن كان يرتادهما ليليًّا سارتر، سيمون دو بوفوار، كامو، أبولينيير وأكبر مبدعي فرنسا، ماتزالان إحدى قلاع باريس الثقافة والفن.

كم أصابت شهرزاد في اختيارها! لا أدري إن كانت ثمة نظريةٌ علميّةٌ تنصُّ على أنَّ «كتلة العشق المتفجّرة في مكان ما تتناسب طرديًّا مع متوسط مجموع الكثافات الثقافيّة لكلٍّ سنتيمتر مُربّع فيه»، لكنّي، إن وجدت تلك النظرّية، سأكونُ من أوّلِ المؤمنين بصوابِها ودقّتها.

عدنا من الحيّ اللاتيني إلى سانت مالو إنسانين آخرين تمامًا، سكنّا في الغرفة الجامعيَّة نفسها، حصلْنا على أعمال في الصيف سمحت لنا بالسفر إلى كلٍّ أرجاءِ الأرض، واصلنا الدراسة دون كلل إلى أن أصبحت باحثًا علميًّا مرموقًا، وتيماء أستاذةً جامعيةً متميّزة.

كم كانت شهرزاد رائعةً عند وصفها رحلتنا الرومانسيَّة إلى أجمل عجائب الدنيا السبع: تاج محل، في مدينة أجرا الهنديّة، أو عند سردِها لتفاصيلِ ليلتِنا الرومانسية جداً، العبقرية جدًّا، والغالية جدًّا في فندق «تاج محل» الميثولوجي في بومبي، في الجناح الملكي الأسطوري نفسه الذي سكنته الملكة فكتوريا في أعلى أدوار ذلك الفندق، حيث لا ترى أمام عينيك إلا عرض المحيط الهندي الذي يبدأُ بقوس «باب الهند»!... ثمة حيثُ انطلق الكابتن هينز وعساكرُه لاحتلال عدن في ١٨٣٩.

استمرَّت شهرزاد تروي على الوتيرة نفسها. كنتُ في البداية مُنجرفًا مشدوهًا قبل أن أشعر بما يشبه الصدمة: لا جديد في الحقيقة في روايتها! هاأنذا أقرأُ فيها نسخةً شبيهةً بفيلم «... المفقودة» الذي رأيته في سينما شيناز في طفولتي. بطلا روايتها لا يختلفان كثيراً عن ماريان ومُراد منّان، نموذجيَّ في الحياة، حُلمي الوجوديّ الذي أحتفلُ كلّ يوم بعجزي عن تحقيقه!

شعرتُ بالقرف! ليس ذلك ما كنت أبحثُ عنه إطلاقًا: شهرزاد أسيرةُ أفكاري، أسيرةُ حلمي! أريدُها أن تتحرَّر منّي تمامًا، أن تُطلِق لخيالها العنان، أن تكون مصنع أحلام وخيالات وإبداع. أريدُ روايةً جديدةً تنضحُ خيالاً ودهشة. أريد أحداثًا مثيرة، نصًّا مختلفًا يربكني، يصرعني...

توجَّهتُ إلى منزل صاحبي ح.ع.س. في مدينة روان، في أواخر ١٩٨٨ إذا لم تخنِّي ذاكرتي، بعد زمن من حصولي منه على

شهرزاد. سألني باستغراب عن أسباب انقطاع أخباري، وعدم تواصلي مع الجميع، وعما أعملهُ حاليًا. لم أخبرهُ أنَّ منحتي انقطعت قبيل أشهر، وأنَّني توقّفتُ كلّيةً عن بحث الدكتوراه. لم أقل له إنَّني منذ لقائنا الأخير أسكنُ في صومعة، أُقضّي فيها لياليّ وأيامي في حضرة شهرزاد، أروي لها ألف قصّة وقصّة عن بنت خيالي وملكة أحلامي: تيماء.

أجبتُ على أسئلته بهلامية وتهرُّب شعر جرّاءهما أنَّني بوضعٍ غير طبيعي إطلاقًا. لم أكن أصغي له وهو يحاول مساعدتي. ثمّ ما جدوى مساعدتي، في الحقيقة؟... من يحلمُ بمساعدةِ عاشقِ الخراب؟ في كلِّ الأحوال، لم آتِ بحثًا عن غوث من أحد. لم أجئهُ إلا لأشكو من خيبتي من ضحالة نصٍّ شهرزاد الذي ترجم بشكل شبه آليٍّ نموذجًا موجودًا في رأسي، دون مفاجآت أو دهشة أو تجديد. في كلِّ الأحوال، لم أكن أنوي البقاء طويلاً في منزله بعد أن أعرف منه كيف أوجِّه شهرزاد نحو مغامرةٍ أدبيّةٍ أخرى، نحو نصٍّ آخر، نحو رواية حقيقيَّة...

عرفتُ منه أشياء كثيرة جديدة لا علاقة لها بشهرزاد: توسّعت م.ق. منذ غيابي عنها. صار نجمُها الجديد شابًّا لا أعرفه: ف.م، من أبناء المنصورة، شعلة مفاجآت ومغامرات وأنس ومتعة. تضمُّ أيضًا شابًّا مغربيًا: تيمور، لطيفٌ وغريبُ الأطوار جدًّا... عرفت أيضًا أنَّ ح.ع.س. مرّ قبل حوالى سنتين، في بداية ١٩٨٧، في الدكتوراه وصار محاضرًا في الجامعة.

سألني فجأة عن رأيي ببرنامج شهرزاد. أجبتُ إجابةً غير واضحة، دون أن أستغلّ ذكرها لطرح أسئلتي التي جئتُ من سانت مالو لأجلها. قال لي بعد ذلك: «بالمناسبة، برنامج شهرزاد ٢ جاهزٌ الآن بوحدته الجرافيكيَّة!» ثمّ أضاف أنَّه سيعطيني نسخةً منه إذا أردتُ. أجبتُ: أُريدها حالاً! نسخها لي. لم تمر غير دقائق بعد ذلك إلاّ وقد اعتذرتُ عن عدم مقدرتي على البقاء معه لأسباب اختلقتُها من العدم. لاحظ غموض أزمتي وتشعّبَها، دون أن يستطيع إقحامي في الحديث عنها والتفريغ من معاناتي. كان يشعرُ بألمٍ عميق تجاهي، يرثيني دون إجلاء ذلك. كنتُ أرثيه أيضًا وهو يرثيني، لسبب بسيط: من يرثي عاشق الخراب؟... ودّعتهُ سريعًا وعُدت أدراجي جريًا لسانت مالو أحملُ في حقيبتي شهرزاد ٢ مضطجعةً على عدد لا بأس به من س.د. رومات الكمبيوتر.

تصفَّحتُ وحدة الجرافيك حال وصولي تمامًا. كانت هائلة الحجم. في مركزِها «قاعدةُ بيانات» تحوي صوراً، نماذج فوتوجرافيَّة، طوبات أفلام، مقاطع متعددة الوسائط... يمكن استخدامها، تحويرها، إعادةُ رسمها وتغييرها يدويًّا، أو عبر تغيير قِيَمِ «المؤشرات والمتغيّرات الرمزيَّة» الخاصة بها، للحصولِ على صورة أو مقطع فيلم جديدين. يمكن أيضًا إغناؤها بإضافة عددٍ غير محدودٍ من الصور وطوبات الأفلام الجديدة.

قضّيتُ أشهرًا طويلة أُبحرُ في عالم الجرافيك، أُعدِّلُ يدويًّا أكثر من وجه بتغيير ملامح هيئته في الشاشة مباشرة، أو عبر التلاعب في

قِيَم «مؤشراته ومتغيراته الرمزيّة» لأُقرّبهُ من سيماءِ تيماء كما رسمتُها في مخيّلتي منذ سنين. لم يضقْ ذرعي، كنت صبوراً وأنا أُصمّمُ تيمائي خليّةً خليّة، أغيّرُها ألف مرة ومرّة لأقترب من هيئتها النهائية، تلك التي تنتصُّ عليّ منذ الأزل في الساعات المتأخرة من الليل أو في وسط النهار، تلك التي ترتجفُ أمام رؤيتها كلّ خلايا دماغي.

أدخلتُ أيضًا صورتي بالسكانير. ثمّ تصفَّحتُ كلَّ الصور والطوبات الفيلميَّة الموجودة في «قاعدة بيانات» وحدة الجرافيك لأدركَ أن تكوين فيلم يصورٍّ ما كتبته شهرزاد ليس بالأمر الهيّن، إن لم يكن مشروعًا فرعونيًّا يحتاجُ لفريق هائل وتجهيزات لا متناهية. لم تثبط عزيمتي مع ذلك. لم أكف عن شراء س.د. رومات أفلام متنوّعة لأستخرج منها مقاطع طوبات جديدة أضيفُها للوحدة الجرافيكيَّة، ثمَّ أحورِّها، لتكون بذلك مادةً خامةً للفِيلم الذي سيصورُّ سيناريو عشقي لتيماء كما تحكيها رواية شهرزاد.

كان مجهوداً مرعبًا لانهائيًّا سهرت خلاله الليالي والأيام الطوال، وانقطعتُ تمامًا عن كلّ أخبار الكون. مجهوداً خياليًّا حقًّا دام أكثر من سنتين سقطَ خلالهما سور برلين، توحَّدت أثناءها اليمن وألمانيا، تغيَّرت فيهما خريطة الكرة الأرضيَّة... وأنا منهمكٌ بكلِّ جوارحي بتعديل رسومات، بإدخال طوبات فيلميَّة جديدة، لأرى ما كتبته شهرزاد يسيلُ أمام ناظري فيلمًا يملأُ الشاشة، بطلاهُ تيماء وأنا.

ثم كان عليّ أن أشتري شاشةً تملأُ الجدار لأملأ عينيّ برؤية ذلك الفيلم، لأنغمر فيه، لأندمج فيه، لأحياهُ كما لو كان واقعيًّا. اشتريتها

تلك الشاشة بمبلغ صحّحتُ مقابله أوراق امتحانات فيلق من المنتسبين الفرانكفونيين. صحّحتُها ليل نهار أشعث الهيئة مُنهك الروح والبدن، بصبر وأناة لا حدّ لهما، بعزيمة لم أتصوّر نفسي قادراً على امتلاكها يومًا ما.

رأيته ذلك الفيلم وهو يملأُ الشاشة الجديدة. رأيتُ نفسي بحجمي الطبيعي، بجانب تيماء، في ظلالها، معها، أُحقِّقُ أمام عينيّ كلّ ما لم أحقِّقه في الواقع. كنتُ شديد البهجة والسعادة وأنا أرى صِنْويَ الإلكتروني يترندعُ في بطاح الأرض، يجوبُها مع تيمائِهِ من الطرف إلى الطرف، يتناولُ وإيّاها ألذّ المآدب، أجمل الكوكتيلات. يسبحان في بحار الكون السبعة، ينغمرُ وإياها في الشلالات والسيول، ثمّ يتقلّبُ في أحضانها الشذيّة آخر الليل سكرانَ من السعادة.

كنت أغمض عينيّ عندما يبدأُ عناقهما. أبعدُ ناظري عن الشاشة. ألمٌ غريبٌ يكتسحُ مفاصلي في تلك اللحظة بالذات. حزنٌ من أغرب وأشقى الأحزان. لعلّه حزنُ السعادات الاصطناعيَّة. أما عندما كنت أرى صِنْويَ الإلكتروني يمارس العشق في كلِّ الاتجاهات وكأنّهُ مُكلّفٌ بإعداد تقرير عن العشق المقارن، أو دراسة عن تنويعات الكاماسوترا من وجهة نظر رياضيّة، فكنت أشعر بما يشبه الإغماء الكثيف الذي لا أصحو منه إلا بعد أيّام طويلة.

بعد كلِّ ذلك المجهود الخيالي في إخراج هذا الفيلم، عادت لي من جديد الخيبة المريرة نفسها التي توجَّهتُ لمنزل صديقي ح.ع.س.

آخر مرّة في أواخر ١٩٨٨ للحديثِ عنها. لا جديدَ في ذلك الفيلم أصلاً! ضاعتْ أكثرُ من سنتين جديدتين من عمري هباءً منثوراً. أيٌّ فيلم هو هذا الذي أنهكتُ نفسي بإخراجه؟ أليس صيغةً أُخرى من بداية فيلم « ... المفقودة » الذي يسكنُني كهوس دائم منذ الطفولة. عاودتني تلك الرغبات العنيفة نفسها التي سكنتني قبل زيارتي الأخيرة لصاحبي ح.ع.س، قبل سنتين: أريدُ رواية حقيقيّة لا أعرفها مسبقًا، أريد أن أُفاجأ، أن أحزنَ وأسعد، أن يطحنني الشوقُ والقلقُ والانتظار... أريدُ أن أُحرِّر شهرزاد منِّي، أريدُها أن تخلق رواية من مخيِّلتها لا من مخيِّلتي، أريدُ رواية حقيقيّة من خارج دماغي أكتشفها لأوّل مرة!

الفصل الرابع عشر

نسرين

كانت ليلةً من ليالي يناير ١٩٩٢ الشتويّة عندما توجّهتُ، أجرُّ نفسي جرًّا، إلى منزل ح.ع.س. دون إشعارٍ مسبق. صرت أمتعض من رؤية البشر، أتجنّبهم قدر ما أستطيع. عرفتُ من زوجته حال وصولي أنَّه مع أ.ف.ب، ف.م، وتيمور المغربي في المطعم الجزائري: النجمة الذهبيَّة، في وسط روان. تذكَّرتُ ذلك المطعم الذي كانت م.ق. تعقدُ فيه أخطرَ اجتماعاتها الممتعة. انقطعتُ عنه منذ تَصوْمعي مثلما انقطعتُ عن كلِّ عاداتي القديمة.

كانت أكبر مفاجأة لهم أن يروني جميعًا أمامهم بعد دهرٍ من الغياب، وفي هيئة شعثاء غبراء تثيرُ الشفقة. حرصوا كما لاحظتُ على إخفاء شفقتهم لمعرفتهم بكراهيتي لذلك. اكتشفتُ أشياء كثيرة حدثَتْ منذ آخر لقاءاتنا: مرّ ح.ع.س. عصر ذلك اليوم أطروحة

الدكتوراه الثانية الخاصة بـ «التأهيل لقيادة الأبحاث العلميَّة»، وهاهم في م.ق. يحتفلون بذلك. تعرَّفتُ أيضًا على ف.م، جذوة م.ق، الذي أراهُ لأوَّلِ مرّة. كان فعلاً كما وصفهُ ح.ع.س: شبكةُ مفاجآت ومغامرات ومتعة.

تعرَّفتُ أيضًا على تيمور المغربي. كان غريب الأطوار بشكل لا يخطرُ على بال. عرفتُ من أصدقائي أنَّه كان بخلافهم يعيشُ وحيداً مثلي، بلا رفيقة عمر، وإن كان، هو، زير نساء بالمعنى الكامل للكلمة. يُقضّي يومه اصطياداً لحمّالات الصدر حتى منتصف الليل، يعودُ بعدها وحيداً لغُرفته، يمارسُ مناسك الوضوء ويقضي صلوات الفروض الخمسة وكلّ السُّنن القبليَّة والبعديَّة، يؤدِّي أيضًا صلاة الوتر حاضرةً كاملةً شاملة... ليغفر اللّه ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر، قبل أن ينام ويستيقظ للعودة لأداء طقوس البارحة نفسها.

توجَّهنا إلى منزله بعد العشاء لمواصلةِ السهرة. شعرتُ بالرهبة والخوف عندما ألقيتُ نظرةً على محتويات مكتبته. معظمُ كتبه تتعلَّقُ بالجنِّ والعفاريت والشياطين. ذُهلتُ حقًّا. لم أنبس بكلمة. كنتُ قد نسيتُ الجنّ في فرنسا. لم أسمع كلمة «الجنّ»، لم أر كتابًا عن الجُن منذ حطّت رجلاي في مطار أورلي في سبتمبر ١٩٧٨، ولم أكُن أتوقّعُ وجود هذه الكتب في فرنسا، لا سيّما في منزل شاب يشعُّ تحضُّراً وحداثةً ومدنيّة. لم يكن جنّيًا تيمور، كان ملاكًا شديد الطيبة.

أثارتني مكتبةُ تيمور وشخصيّتُه إلى أقصى حدود الإثارة. لعلّهُ لاحظ عودتي مرارًا لأرمق عناوين تلك الكتب مستغربًا من شدّة لاهوتيّتها ولاعقلانيّتها اللامحدودة. الكتابُ المفتوحُ على منضدةِ مكتبتِه كان بعنوان: «حوار صحفي مع الجنيّة المسلمة زعفران كنجور»...

اقترب مني ليقول لي:

ـ لعلّك لا تؤمن بالجن؟

ـ نسيتهم منذ زمن... رددتُ له.

ـ كنتُ لا أؤمن بهم تمامًا. كنتُ أيضًا وحيدًا مثلك دهرًا طويلاً، قبل أن أكتشف أنَّه قُدِّرَ لي أن لا أناكح إلا بنات الجن. تعرَّفتُ على أوَّل جنيّة مسلمة بجسد بني آدم في ضواحي مدينة فاس. ثمّ انفتح لي طريقُ الحبّ والملذّات. كلُّ الحسناوات اللواتي أخرجُ معهن يوميًّا الآن هنّ، صدِّق أو لا تصدِّق، جنيّاتٌ مسلماتٌ متجنِّساتٌ بأجسام بشر!

أثار سخريَّتي العميقة تمامًا. سألتُهُ:

ـ ماذا تعمل من دراسة؟

ـ فيزياء، أجاب.

شعرت بسخريّة أشدّ من قبل. رثيتُ م.ق «التي تدهور مستواها بعد انقطاعي عنها»، كما قلتُ لنفسي في لحظة تعليق

داخلي مشجّع لم أعُد أغازلُ به نفسي منذ سنين. غير أنّ بعض الأسئلة لمستني كصدمة كهربائيَّة قويّة مفاجئة: ماذا لو كان كلامه صحيحاً؟ ماذا لو قُدِّر لي أنا أيضًا إلاّ أن أُناكح بنات الجنّ؟ ألم أُحرَم من بنات الإنس لهذا السبب بالذات، منذ أن وكَّل القدرُ جعفر الدملاني لإنهاء علاقتي بسوسن، مروراً بإشارة «الدُّرّة ميزان» القدريّة التي أنهت علاقتي بإيزابل، حتى كلّ إخفاقات علاقاتي بفتيات السنين العجاف؟... لماذا قاطعتُ م.ق؟ لماذا لم أتعرّف على تيمور من قبل؟... ثمّ قطعتُ دابر هذه التساؤلات المحيّرة بكلٍّ ما تبقّى في دماغي من عقلانيَّة ومنطق.

حاولتُ استغلال لحظة اختلاءٍ ب ح.ع.س. لأطرح عليه السؤال الرئيس الذي جئت من سانت مالو من أجله: كيف أوجِّهُ شهرزاد لكتابة نصٍّ أكثر حرّية وإذهالاً؟

قلتُ له إنّ شهرزاد كتبت نصًّا مسدوداً، فقير النموذج، بلا آفاق... ردّ عليَّ مُكرِّراً ما قالَه أوّل مرّةٍ تحدَّثنا فيه عن شهرزاد: «عليك أن تملأها بمواد خامة من الأحداث والقصص، أن تشحنها بالأحلام والاستيهامات، أن تغدقها بنماذج بشريَّة وأمكنة كثيرة...». شعرتُ بالأسى لإغفالي ذلك منذ سنين، لنسيانه تمامًا. لعلّي أضعتُ تلك السنين كعادتي بكلٍّ بساطة. يبدو لي أنَّني جبلتُ على أن لا أُعير لضياع السنين أدنى اهتمام، إن لم أكن مُكلّفًا من القدر بإضاعتها عبثًا.

ثمّ قال لي: أما إذا أردتَ حقًّا مفاجآت في بُنيةِ النصِّ النهائي وأسلوب سرده، فلا يكفي برمجتها على مستوى «النموذج»، Model، بل عليك برمجتها على مستوى «ماوراء النموذج»، Meta-Model!

كان كمن يرمي فوق رأسي كيس رملٍ من فوق عمارة.

ـ ما وراء النموذج؟ تساءلتُ فاغر الفاه والعينين معًا، قبل أن يدخل في شروحات كثيرة، جوهريَّة جدًّا، لا أحبّ إرهاق أدمغتكم بها!

عدت لسانت مالو كالبرق، هائجًا متجدِّد الطاقة، متأكِّدًا أخيرًا أنَّ موعدي مع الحلم سيبدأُ الآن. بدأتُ بضخِّ كل ما أمتلكه من مواد خامة لشهرزاد. حفرتُ كثيرًا في قاع ذاكرتي، في قاع ذاكرة مدينتي: عدن، فتّشتُ عن كلِّ صغيرة وكبيرة هزّت مشاعري يومًا لأضيفها إلى «قاعدة بيانات» المواد الخامة الأدبيَّة التي ستستلهمُها شهرزاد في صياغة ما تبقّى من روايتها.

بدأتُ بالمسرح الذي ستدورُ فيه روايتُها. حدَّثتُها كثيرًا عن شواطئ جولدمور في عدن. رسمتُها لها مترًا مترًا. حدّثتُها كثيرًا عن شاطئ خليج الفيل. عن منتجعهِ الصغير الذي أُحبّهُ كثيرًا. عن صخرة «خرطوم الفيل» قرب «النادي اليمني»، وعن الأكمةِ الصغيرة المجاورة التي تفصلُ جبلين صغيرين، لتُؤدّي إلى «ساحل العشّاق».

آه ساحل العشاق الأسطوري! حدّثتُها كيف كنتُ في صغري أموتُ إعجابًا بمشاهدة غروب الشمس قرب ذلك الشاطئ، أُحدِّقُ

باتجاه جبال البريقة المضطجعة قرب الأفق... كنتُ أُشاهد في نفس تلك اللحظة بإعجابٍ لا يَقِلُّ قُدسيّة، أزواج العشّاق وهم يُطِلُّون من تلك الأكمة، عائدين اثنينِ اثنين من ساحل العشاق بعد فُسحاتٍ رومانسيةِ على ذلك الشاطئ الساحر.

لم تفارق ذاكرتي لحظةً واحدة مناظر عودة ثنائيّ العُشّاق عند الغروب، مشتبكي الأيدي بخطىً خفيفة حالمة، في ذلك الزمن البريء، شديد السعادة، التي كانت المرأةُ تسيرُ فيه دون عبايات أو قيود، تلتحفُ نسمات العصر الرقيقة المنعشة، رافعةَ الرأسِ، طليقة الجسد، عارية الساعد، أنيقة الملبس، بهيَّة الطلعة...

حدَّثتُ شهرزاد كثيراً عن ميناء صِيرة بالتأكيد، عن «ساحل معاشيق» القريب من قلعتِها، عن ذلك الزمنِ الذي كانت السواحل فيه خيمات للعشق، تحملُ كلمة «العشق» ومشتقّاتها من عشّاق ومعاشيق... في نخاع أسمائها بجدارة. حدَّثتُها عن ساحل أبين، عن شواطئ البريقة الخلاّبة أبداً، عن ساحل الغدير الذي كنّا نُقضي أجمل الأوقات في الأعياد في أرجائه، نصعدُ جبلهُ الصغير، أو نلعبُ قرب ضريح وليِّه المبارك (الذي اقتلعت جرّارات المتطرِّفين الإسلاميين قَبرَهُ العريق بهمجيِّة، ونكَّلت بِرُفات جسده بوحشيّة، في هذا الزمن الفاسد الذي لا يرحمُ حيًّا أو ميّتًا)... حدَّثتُها عن المطعم الصيني، تشينج سينج، عن «جولة خورمكسر»، عن سينما شيناز الرابضة فيها، في قلب عدن تماماً، تلك السينما التي كانت في طفولتي شعلةً من نور،

مُطرّزةً بالضوء لبنةً لبنة، تعلوها بعُرض سقفها تقريبًا، كلمةٌ شاسعةٌ منحوتةٌ بخطٍّ متماوج مرفرف من المعدن السميك المسبوك: شيناز، كلمةٌ تنتصُّ على هامة السينما كتاجٍ هائل، تُشعُّ في المساء نيونًا فضيًّا يملأ السماء... قبل أن يُستبدلَ ذلك التاجُ غداة الاستقلال بلوحة صغيرة مستطيلة، في غاية القبح، مكتوب عليها بخطٍّ لا يُقرأ: سينما ٢٦ سبتمبر. قلتُ لشهرزاد: لم يكن عبقريًّا جدًّا ذلك الذي غَيَّر الاسم باسمٍ جديد لا أعرفُ ما علاقتهُ بتلك السينما. كم أسخرُ اليوم وأنا أرى تلك اللوحة المستطيلة التي صارت من فرط وسخها مُدخّنةً سوداء! نعم، كم يعصرني الحزنُ وأنا أرى كلّ سينما شيناز وقد تقزّمت اليوم، و«اتغطلمطلست»، وأظلمت تماما...

بعد أن أتخمتُ شهرزاد بالحديث عن المكان وشجون المكان، قرّرتُ أن أغوص في أعماقي لأبوح بتركيبات طبقاتها السفلى لشهرزاد. أحداثُ حياتي، كلُّ ما هزّ مشاعري يومًا ما، صببتهُ لها صبًّا. لم أترك لحظةً ارتجف فيها قلبي دون أن أصفها لشهرزاد. لم أترك شهقةً أمام ابنة آدم تفتحُ النفس دون أن أهمسها لشهرزاد.

كنتُ سعيداً وأنا أحكي لشهرزاد نتفًا من حياة طفولتي، وشذرات من سيرات بشر من صلب الواقع، بشرٌ حقيقيون. كم ظمئتُ حقًّا للواقع بعد أن عشتُ كلّ هذه السنوات مع بنات الخيال! هكذا، أردتُ أن أستجير بالواقع للهروب من طفح الخيال، مثلما استجرتُ منذ سنين بالخيال للهروب من جفاف الواقع. صرتُ غريبًا

حقًّا: زادت حاجتي للخيال وللهروب من الخيال معًا، ألجأُ إلى حياة افتراضيَّة أهربُ بها من حياتي الواقعيَّة، وإلى حياة واقعيَّة أهربُ بها من حياتي الافتراضيَّة.

لم أُخف عن شهرزاد إلا إنسانةً واحدة: سوسن! جرحٌ أرفضُ لمسه. ألمٌ شديدُ الوطأة كي أسردهُ أمام أحد. حتى صديقةُ سوسن، تلك التي توفّيت بمرض سرطان الثدي وحزنتُ على وفاتها دون أن أراها يومًا، تحدّثتُ عنها أمام شهرزاد. أتذكَّرُ كم أُعجبتُ بجمالها عندما أرتني سوسنُ صورتها في ذلك اليوم القدريّ الذي لم أر سوسن بعده. لكنِّي لم أنبس حرفًا عن سوسن نفسها لشهرزاد...

في غمرة مناجاتي وبوحي لشهرزاد بقائمة ارتعاشات قلبي، بذكريات سعاداته وأحزانه... عادت إلى ذهني صورةُ فتاة من لحم ودم، مشيتُ معها عشر دقائق فقط على طريقٍ رمليّ. عشر دقائق ليس إلا! صعد اسمها فجأة من أسفل الذاكرة: نسرين. طفت دقائقها العشر على ذاكرتي مثل جسم يطفو فوق البحر الميّت، مثل سمكة سحريّةٍ تصعدُ من قاع عشق ميّت.

كانت ممشوقةً جميلةً جدًّا عندما رافقتُها في ذلك المساء، عِبْرَ الكثبان الرمليَّة التي كانت تفصلُ حيّ الشيخ عثمان عن حيّ المنصورة، إثر اجتماع موسّع في مركز التنظيم السياسي الموحّد بالمنصورة. كانت خفيفة الظلِّ زكيّة الرائحة. تحملُ اسمها على أعبق وجه. لها عينان واسعتان، يكفي أن تنظرا نحوي لأرتجف من فرط

جمالهما. كنتُ حينها أنتظرُ موعد الرحيل إلى فرنسا بعد أن أنهيتُ الخدمة العسكريَّة. عبرنا الخلاء الرملي خلال تلك العشر الدقائق. عشر دقائق لا غير، تحت القمر، مشيًا على الأقدام، بين النسمات المنعشة لذلك الخلاء الذي اختفى اليوم عن الوجود، بعد أن كان ملاذ المدينة من نفسها، ومرفأها الليليّ الساحر.

عدتُ إلى منزلنا تلك الليلة على أجنحة الملائكة. غير أنَّ تلك الدقائق العشر، برجفاتها، بتمتماتها، بأحاديثها المرتعشة، ظلَّت منطبعةً في ذاكرتي أبدًا. فصّلتُها ثانيةً ثانية لشهرزاد. فصّلتُ لها خطوات نسرين تحت القمر، عبقها، وجهها المبتسم الحالم، بشرتها النقية وهي تتلألأُ بنعومة المكسوَّة بأشعَّة القمر الفضيَّة. ثمّ، بعد أسابيع من تلك الليلة، غادرتُ اليمن نحو فرنسا، وهي إلى بولندا لدراسة الفنون التشكيليَّة.

ربما كنتُ سأنسى بعض تفاصيل تلك العشر الدقائق في خِضَمِّ حياتي الفرنسيّة، لولا أنَّني قرأتُ مقابلةً مع نسرين في مجلّة ثقافيَّة يمنيّة يومًا في منزل رئيسنا المبجّل: أ.ف.ب، في إحدى لقاءات م.ق. في مدينة أميان. رأيتُ في تلك المقابلة نفسها نماذج من لوحات نسرين، جذبتني بقوّةٍ وذهول. عرفتُ من خلال تلك المقابلة أنَّ لها مرسمًا في التواهي على البحر مباشرة. حدَّثني أ.ف.ب. عن نسرين قليلاً، لأنَّه يعرفُ عن كثب عائلتها التي تسكن قريبًا من منزل عائلته في حيّ المُعلا. أخبرني أنَّها تزوَّجت من طالب كان يدرسُ معها في

بولندا. أضحى غيوراً من شخصيَّتِها المرموقةِ المحترمة وحضورها الفنّيّ المتميّز الذي أدانه بالخسوف الدائم. لجأ لإركاعها الذي لم يكن صعباً في مجتمعٍ ذكوريٍّ كمجتمعنا. فشل أيضًا لأنّها لا تركعُ لأحد. لجأت للطلاق بعد أن صار زوجُها متطرِّفًا شديد السلفيّة والانغلاق والتحجّر.

فصَّلتُ كلَّ ذلك لشهرزاد. وصفتُ لها طويلاً تلك المغمورة في طيِّ النسيان، الصاعدة من ذكريات عشر دقائق حقيقية في ذهنِ بائس مسحوق. أدخلتُها في بهو «قاعدة بيانات» شهرزاد. نصَّبتها في المركز. كنتُ بحاجة لهذه الحوريّة المنسلخةِ من ضلع الواقع. كان قلبي وأنسجتي تحتاج لفتاة من أديمِ الواقع، بلون الواقع وبرائحة براريه وأعشابه، تُخفِّفُ عنّي شدّة وطأة الخيال الذي أضحيت بخارًا يتلاشى في أجوائه الساخنة.

ثم تلعثمتُ أمام شهرزاد وأنا أسردُ لها نسرين: إلهي، ألست أخونُ بذلك تيماء، ملكتي ومملكتي، رفيقة الآلام والسنين العجاف؟ كيف لي أن أخون ليالينا في الحيِّ اللاتيني وفي تاج محل التي شاهدتها بأمِّ عينيّ على هذه الشاشة الجداريّة الضخمة؟ كيف أتجرأُ بإقحام نسرين في حياتي التي امتلأت وطفحت بتيماء؟ كيف أتجرأُ، وأنا أروي نسرين لشهرزاد، بالتعبيرِ عن الندم من عدم الذهاب إلى مرسمها في التواهي، لطلب يدها على التو! ألم أقُل لشهرزاد وأنا أتحدَّثُ عن نسرين: «تكفيني معاشرتُها خلال تلك العشر الدقائق لا

غير! كفاني مثاليةً وطوباويةً أنا الذي قضّيتُ حياتي أتوسّلُ الحبَّ قبل الزواج، أهفو لهُ بكلِّ جوارحي! كلَّفني ذلك ما كلَّفني! عشر دقائق لا غير تكفيني الآن لطلب اليد!». . . ويحي، ألستُ أطعنُ تيماء في الظهر وأنا أصرخُ أمام شهرزاد متحدِّثًا عن نسرين: «أحبّها، أحبّها!؟» ألستُ أخونُ تيماء بذلك الحب؟. . . أيُّ خيانةٍ في الأمر؟ أليست تيماء افتراضية بحتة؟. . .

غرقتُ بلا وعي في دوّامة عشق ازدواجي وغيرة مُركّبة. تتقاسمني معشوقةٌ افتراضيَّة، وابنةُ واقع لم أرها غير عشر دقائق مطويّة في زمن تبخَّر تمامًا من ذاكرتي! فجأةً، عاد إلى ذهني، في ضوضاء انشطاراتي، منظرٌ جوهريٌّ مغمورٌ في أوّل سنوات الطفولة، محفورٌ في لاوعيي، في مركزِ ذاكرتي، رأيتهُ عندما كنتُ أحيا في مسقط رأسي: قرية أكاتيبو، قرب بحيرة مانيارا في تنزانيا. . . . حدّثتهُ بكلِّ تفاصيله لشهرزاد:

كنتُ ألعب مع طفلين من القرية وراء شجرة نارجيل ضخمة قرب بحيرة مانيارا. سيّارتا لاندروفر تأتيان في اللحظة نفسها. نزلت من الأولى شابّةٌ في منتصف العشرينيات، خلعت سمّاعات كانت تحيطُ بأذنيها وتدلُّ على أنَّها تعمل هنا باحثةً في علوم الحيوانات، ترصدُ، تُحصي وتُراقب حركتهم وتنقُّلهم وحياتَهم. أما الثانية، بالعمرِ نفسه أيضًا، فكانت بيطريةً كما يبدو من إشارات سيّارتها. اختفيتُ مع صاحبيَّ ونحن نراقبهما من خلف شجرة النارجيل. كانتا

تُشعّان سعادةً وحيويةً وبهجة. تبرقُ من أعينهما سعادةٌ جليّة، لعلّ مصدرها عملُهما المتنقّلُ الحرُّ وسط الطبيعة المتفجّرة الجمال، في فضاء سرينجيتي العبق، تحت شمسه الكريمة، وبين مروجه وحيواناته وينابيعه وبحيراته.

تحدّثتا بضع دقائق، ثمّ نظرتا يساراً ويميناً لتفحُّص خُلّو المكان من البشر. تأكّدتا من أنَّ لا أحد في الأفق. خلعتا فانيلاتيهما عاريتي الساعد، شورتيهما الكاكيّين القصيرين، قفزتا للسباحة كما خلقهن الله، حوريّات يضحكن ويمرحن، يملأْن البحيرة والأفق وسماء مانيارا حبوراً وعشقاً للحياة. ثمّ خرجتا من البحيرة، جفّفتا ولبستا ثيابهن، وعادتا لسيارتيهما كلٌّ في اتجاهها تواصلُ عملها السعيد بين ممالك الطيور والحيوانات التي تسرح وتمرح في هذه الجنان منذ ملايين السنين.

إلهي، كم كانتا ذاتي جمال قاتل! إحداهنّ بيضاءُ كصفحة كتاب وإنْ مال وجهُها وساعداها وأجزاءُ جسدها المتعرِّضة للشمس للون النحاس. الأخرى عسليّة اللون، وإن مالت الأجزاء نفسها من جسدها للون الشوكولاتة. كم كانتا متكاملتين، ساحرتين في تكامُلهما، قطعتين من السعادة الحقيقيَّة والجمال الطازج! لماذا لم أنس أبداً ذلك المنظر؟ لماذا أراهُ اليوم في سانت مالو بكُلِّ تفاصيله وجزيئاته كما لو كنتُ مختبئاً في اللحظة نفسها وراء شجرة السنديان، قرب البحيرة؟ لماذا يراودني دوماً ويأسرني على الدوام؟...

لعلّ ذلك المنظر عينهُ يفسِّر وحده حلماً غريباً هزّني ذات ليلة لا أستطيع تحديد تاريخها بالضبط. كان في مركز ذلك الحلم المذهل مراد منّان، بطلُ فيلم «... المفقودة»، أو بالأحرى تشعُّباتُ عاطفته إذا جاز لي القول. «تشعبَكت» عواطفه في حلمي. حدَّثتُ شهرزاد بذلك الحلم الغريب حقًّا. قلتُ لها:

حلمتُ ذات ليلةٍ أن عشقًا موازيًا تفجَّر في حنايا مُراد منّان، بجانب عشقه الأسطوريِّ الأزليِّ لماريان: تلك التي تعرَّف عليها في أوّل محاضرة للفيزياء في الجامعة، وبدأ معها حياةً كلُّ يومٍ فيها «بحجم الكرة الأرضيَّة». حلمتُ في تلك الليلة بأنَّ لمراد عشقًا آخر اسمه: شيرين، شاعرة شابّة من أصفهان تعرّف عليها في إحدى رحلاته الأخيرة لإيران. ها هو مراد يسقطُ في حلمي صريع عشق توأم لعشقه الكبير، يعيشُ تراجيديا العشق الثنائي، يتخبَّطُ بين فرنسيّة منشغلة بالعلم والتكنولوجيا، وإيرانيةٍ غارقةٍ بالأدب والشِّعر.

قلتُ لشهرزاد: أزمةُ مراد لا محالة منها! قدَرٌ لا مفرَّ منه، قدرٌ منطقيٌّ رياضيّ أكادُ أقول، لأنَّ مراد منحوتٌ من ثقافتين: ثقافته الإيرانيَّة وثقافته الفرنسيَّة. «لا ثقافة بدون معشوقة من بنات تلك الثقافة! أليس كذلك؟»، كما يقول فيلسوفي الأثير الحاج الرديني.

حكيتُ كلَّ ذلك لشهرزاد. تساءلتُ أمامها: لماذا أقحمتُ في حلمي مُراد بعشقَيْن، بعاطفة مزدوجة، بتمزّق تراجيدي، أنا الذي لم أذُق حُبًّا واحداً قطّ؟ سؤالٌ غريبٌ مزعج. حاولتُ أن أجيب عليه، دون أن أكون متأكّداً تماماً من صحّة إجابتي مع ذلك. قلت لشهرزاد:

مراد مخلوقٌ مصنوعٌ من الضوء! للضوءِ ازدواجيَّةٌ تكامليَّةٌ تُفسِّر أسراره: الضوء فوتون وموجة! الضوء مادّة ولامادّة! ماهيتهُ الفوتونيّة ـ المادّيّة تفسِّر كثيراً من أسرارِه، وماهيته الموجيّة ـ اللامادّيَّة تُفسِّر أسراره الأخرى. الضوء مزيج ربّانيٌّ من الثنائيات المتعارضة. الضوءُ ازدواجيّة فيزيائية مُقدّسة. «الضوءُ ظلُّ الله»، كما قال أحدُهم. أما أنا فلستُ مصنوعًا من الضوء مثل مراد. أنا مخلوق منسوج من الظلمات.

لعلّي بعد تذكُّر منظر بحيرة مانيارا والفتاتين اللتين سبحتا فيها، استعدتُ كثيراً من ذكريات حياتي المطمورة في ربوع سرينجيتي، قُرب بحيرة مانيارا. لعلّي استعدتُ حينها، أعظم ما استعدتُ، ذكريات المدرسة الابتدائيَّة في تنزانيا. ذكرياتُ تلك القُبلِ البريئةِ التي كنتُ أتبادلُها مع طفلة بسنّي خلفَ شجرة ضخمة في أطرافِ ساحةِ المدرسة. ظلَّت أبدًا في لاوعيي، في قاع فؤادي، تلك الفتاة. لم أعد أذكرُ اسمها، وإن سمَّيتُها اصطلاحًا منذ ذلك اليوم: مانيارا. ألم أهب لتيماء كلَّ ما أتذكّرهُ من ملامحِ تلك الطفلة، مانيارا؟ أليست تيماءُ نسخةً من مانيارا كما أتصورّها في سنِّ الشباب؟... مانيارا، مانيارا، مانيارا... هي الحقُّ وحده، هي قبلةُ الطفولةِ الأولى التي ما زلتُ أتمضمضُ رضابها إلى اليوم، هي كلُّ ما تبقّى لي من أطلال سعادة صادقة، من زمن سعيد. هي وحدها التي تكتسحُ لاوعيي وإن أسميت تجليّاتها تيماء حينًا، ومانيارا حينًا آخر...

حـدَّثتُ شهـرزاد عن ذلك الزمن اللـذيذ الذي عشـتـهُ في تلك الربوع التنزانيَّة الطيّبة الرغدة، مسقط رأسي. التهمني الشجن والشوق لكلِّ السعادات الصغيرة والذكريات الجميلة الصاعدة من ذلك الزمن، زمن المهـد. هاأنذا في غـرفـتي المعـزولة عن الدنيـا، فـي أطراف سـانـت مالو، أحلمُ بعودة شريط الماضي حيًّا أمام عينيّ. يؤلمني اختفاء مانيارا من وجـودي. يؤلمنـي، هل تُصـدِّقـون؟ اختـفـاءُ أيِّ صـديقٍ أو معـروف. آسفٌ حـتى أنَّه لـم يَعُـد فـي الأرض دناصـيـرُ ووحـوشٌ بـحـجـم مـدن. أليست الأرضُ أقلَّ اكتمالاً بعد اختفائهـم!

اشتقتُ لك مانيارا...

ثـم أوقفتُ سيل سردي لشهرزاد. أردتُها، بعد أن منحتُها أثمن ما أملكُ من مواد خامة، أن تواصل الآن رواية حُبِّي لتيـمـاء من حيث توقَّفت. آن لهـا أن تحفرَ في قاع الدهشة. ثمّ تـذكَّرتُ مـا قـاله صـاحبي ح.ع.س. عن «ما وراء النـمـذجـة». يلـزمني ذلك أولاً للحصـولِ على نصٍّ أكثر إبداعًا وألمعية، كـما قال. تذكَّرتُه ح.ع.س. عندما قال لي إنَّ أحد أهمِّ ما يُميِّزُ لغات الكـمـبيوتـر الراقية جدًّا، عن اللغات التـقـليديَّة، هو إمكانيـة برمجتـهـا على مـسـتـوى «مـا وراء النموذج». أي بـرمـجـة «نماذج تصـنـعُ النـمـاذج». على غـرار مـفـهـوم «مـا وراء المعـارف»، أي «المعارف التي تصنع المعارف».

لـم يكـن سهلاً أن أخوض في هذه الأفياء التي أجهلُ جغرافيتها. لـم أتعلَّمها يومًا. برمجتُها مع ذلك قدر ما أستطيع. نمذجتُ وبرمجتُ

بواسطتها مفهوم «الدهشة الأدبيَّة»، مفهومي «الحرّية» و«الإبداع». نمذجتُ وبرمجتُ طرائق خلط المواد الخامة التي رفدتُها بعشوائيَّة في دلتا شهرزاد، مبادئ إعادة تركيبها الحُرّ، سبُل إعادة خلقها حسب مزاج شهرزاد، كما يحلو لها وليس كما يحلو لي... برمجتُها هكذا لتقطع وشائجها بي، لتقُصّ حبل السرّة الذي يوثقُها برغباتي، لِتكتب روايتها مستقلّةً عن ترسيمات ذهني، متحرِّرةً عن تصوّراتي الأليفة، لتولِّي وجهها شطر البحث والخلق والتجديد.

قطعتُ عنها أبويَّتي. أعتقتها، صارت حرّةً طليقةً مستقلّةً كما أعشقُ وأهوى. تذكّرتُ أبا العلاء المعرّي الذي قال: «هذا جناهُ أبي عليّ، وما جنيتُ على أحد!».

ثمّ اشتغلت ماكينتُها الأدبيةُ ـ الكمبيوتريَّة. قلَّبت موادي الخامة في كلِّ الاتجاهات بكلِّ حريّةٍ واستقلال، طحنتها، عجنتها، خلطتها، غربلتها، ركّبتها، مسحتها، طوّرتها، عدَّلتها... استلهمت منها ما أرادت ورمت في مزبلتها ما أرادت، لتواصل رواية حياتي وحياة تيماء بعد أن تركتنا نشتغلُ في البحث العلميِّ والتدريس الجامعي، ونجوب الدنيا في سعادة لا متناهية.

كتبتْ بالحرف الواحد النصَّ التالي الذي شاهدته بحذافيره على شاشتي الجدارية... هاكم ذلك النصّ. قبل قراءته أسألكم الدعوة الصالحة لي، فأنا أحتاجها حقًّا.

الفصل الخامس عشر

ساحلُ العُشّاق

كتبت شهرزادُ النصّ التالي :

في البدءِ كانت الرسالة . كتبتُ رسالتي لِنسرين ذات مساء، في مكتبي الواسع في مختبر « تحويل المعادن والفلزّات » التابع « للمركز القومي للأبحاث العلميَّة » الذي صرتُ مدير أبحاث مرموقًا فيه . أرسلت رسالتي بالفاكس إلى مرسم نسرين بحيٍّ التواهي . لم أُحدِّث تيماء عن تلك الرسالة البريئة الصادقة . كانت منهمكةً بإعداد محاضرات مادة جديدة لطلاب الماجستير في الجامعة . ناهيك أنَّ ثقة تيماء بي أكبر من أن تحتاج لأن أبوح لها برسالة كهذه .

عبّرتُ في رسالتي عن إعجابي العارم بجمال لوحاتها التجريديَّة التي شاهدتُها في المجلات الثقافيَّة . كانت تنسجمُ تمامًا مع أذواقي

الفنيّة وعشقي للتجريد الرياضيّ. ذكَّرتُها في ذيل الفاكس بتلك الدقائق العشر اليتيمة التي بدأت عند خروجنا من مقرِّ التنظيم السياسي الموحّد باتجاه مصنع الغزل والنسيج، ثمَّ تواصلت على الخلاء الرملي، «الخبت»، الذي يفصلُ حيَّ المنصورة عن حيِّ الشيخ عثمان، قبلَ أن تنتهي حال اقترابنا من أعين البشر عند بداية أوّل شارع في الشيخ عثمان يؤدي إلى شارعها.

كان ردُّها مقتضبًا مُهذّبًا، شكرتني فيه على مشاعري الطيِّبة تجاه أعمالها الفنّية. ثم أضافت عبارةً مكثّفةً جدًّا عن تلك الدقائق العشر قائلة: «أتذكَّرُها دقيقةً دقيقة».

تواصلت فاكساتنا بانتظام. كانت في البدء مدفوعةً برغبة في التعبير عن مشاعر جيّاشة بالاحترام العميق للآخر، بالرغبة بإسعاده لا غير. ثمّ زاد استرسالُها، صفاؤها، والرغبة الثنائية في ديمومتها. صارت سريعًا موضعًا للحوارِ، للشجنِ، للتفاعل. آه، التفاعل! كم أُقدِّسُ كثيراً هذه الكلمة وأهوى إيصالها إلى أطراف نهاياتها! ثمّ توالت فاكساتنا بمزيد من الانتظام الذي وصل إلى حدّ الإسراف أحيانًا خلال الأشهر اللاحقة، تشعَّبت وتعمَّقت مواضيعها، صار لها طقوسها، لغتها الخاصّة، كلماتها الأثيرة، ونكهتها العبقة المتميّزة.

عند بدء تلك الفاكسات، كانت تربطني في المختبر مشاريعُ أبحاث مشتركة مع فريق باحثين في شركة «نايبون ستيل» اليابانيّة، المعادن اليابانيَّة، تسمحُ لي بالتنقُّل بين سانت مالو وطوكيو أكثر من مرّةٍ كلّ عام. كنتُ في كلِّ مرةٍ أنزلُ للترانزيت في كوالالامبور أو في

منتصف الطريق بين فرنسا واليابان. قرّرتُ عند بدء تلكم الرسائل أن أتوقّف هذه المرّة في عدن، لأزور مرسم نسرين وأصافح يدها.

كان ضربًا من الألعاب البهلوانيَّة أن أُحوِّل ترانزيتي ليمرَّ بعدن بدلاً من كوالالامبور. ساعات الترانزيت السبع في عاصمة ماليزيا تحوَّلت إلى سبعة أيام، بسبب قلّة الرحلات لليمن، بسبب النزول الإجباري في صنعاء التي صارت منذ أشهر فقط عاصمة اليمن الموحّد: أرض ميعادنا الذي انتظرناه طويلاً... حسنًا، هبطت في مطار عدن، ومنه إلى «فندق عدن»، لأعيش في مدينة طفولتي يوميَ ترانزيت، لم أكن أسعى من خلالهما إلا لشيءٍ واحد: مصافحة يد نسرين. كنت أشعر بشيءٍ يشبه الدعابة أو الهزل في أن تكون عدن مدينةَ ترانزيتي. ثمّة في الحقيقة خلل جوهري في الوجود عندما تتحوّلُ المدينةُ التي يدقُّ قلبك على إيقاع ضخِّ شرايينها، المدينة التي تسكن حويصلاتك الهوائيَّة، خلاياك العصبيَّة، شُعيراتك الدمويّة، غدّتك الدرقيّة... أن تتحوّلَ إلى مجرّد محطة ترانزيت.

«لا تظلّ مطبوعةً في الذاكرة حتى يوم الحشر إلا رجفةُ اللقاء الأوّل بمحبوبة العمر...» كما قال حكيمي الأوّل، الحاج الرديني أطال الله عمره. إذا كانت قوّةُ العلاقة بإنسانةِ تقاسُ برجفةِ اللقاء الأوّل فقد كسبت نسرين نصيب الأسد. ما إن وصلت فندق عدن حتى اغتسلتُ طويلاً، لبستُ أجمل قميص احتفظت به لهذه المناسبة منذ شهور، أخذتُ حقيبة ظهري الصغيرة، ووضعتُ فيها علبةً ورديّةً مهنيّة التغليف، مملوءةً بقنينات الماكياج والعطورات النسائيَّة الفاخرة جدًّا

التي اشتريتها في مطار شارل ديجول. ثمّ هرعتُ نحو التواهي، باتجاه مرسم نسرين التي كنتُ قد اتصلْتُ بها من صنعاء حال وصولي.

(لاحظت، وأنا أقرأُ شهرزاد وهي تواصل روايتها بهذا الاتجاه وعلى هذا الإيقاع، أنَّها تثيرُ في نفسي أرهف النقاط الحسّاسة وهي تُضيف لروايتها هذا البعد الجديد الرائع: نسرين. استحوذتني تمامًا. أصغيتُ لها وراقبتُ الشاشة بكلّ جوارحي وهي تواصلُ روايتها على هذا النسق:)

لم تكن نسرين في مرسمها عندما وصلتُ لأُصافحها. لم أتأثّر كعادتي عندما أنتظرُ إنسانًا عزيزًا لم يأت في موعده. رغم قلّةِ وقتي في عدن، لم يُعذِّبني عدمُ رؤيتها، لم أُلمْها في قرارة نفسي من قريب أو بعيد. تعلَّمتُ معها طقوس الانتظار وحلاوةَ عذابه. كنتُ أعذرُها كلّيةً، أحترقُ كالجمرة كلّ ثانية كعادتي، لكنّي أعذرُها تمامًا. كنتُ أشعرُ أنَّني سأعذرُها حتى لو نسيت موعدنا. صرتُ أعيش لحظات الانتظار بصوفيّة، على غير عادتي بتاتًا.

جلستُ في «صرحة» باب مرسمِها، قرفصتُ، تمعّنتُ في تفاصيل المنظر الذي يحيطُ بمرسمِها كي أتخيَّلها تعوم فيه، عندما أتخيّلها من عالم بعيد. وجدتُ سعادةً ما في أن أمتزج بهذه «الصرحة» التي تطأُها قدماها كلّ يوم، أن أترك قليلاً من غُبار ذلك الشارع على جسدي، أن أُحدِّق بأطلال البحر والميناء وعمارات التواهي التي تبدو من مرسمها أقرب للخرائب منها إلى عمارات تواهي طفولتي... تنفَّستُ بعمقٍ شاعرًا بتاريخيَّة اللحظة وقدسيَّتها: ألن

أرى نسرين هنا بعد قليل تُقبِلُ نحو هذا المكان، خطوةً خطوة، بخطواتها الميّادة التي أتذكّرُ كبرياءها وسلاسة انسيابها منذ تلك الدقائق العشر التي مرّ عليها عقدٌ ونصف تقريباً؟

وصلت! أخفيتُ رعشتي الداخليَّة وأنا أُصَوِّرُ في إحدى غُرف دماغي السرّية فيلم وصولها «بيكسلا بيكسلا»[1]. اعتذرت عن تأخُّرها لأنّها كانت تُعطي محاضرةً عن تاريخ الفن، في كليّة آداب جامعة عدن. صافحتها. كانت مبتسمة المحيا دون قيود أو جدٍّ اصطناعي، كما هي عادة كثيراتٍ من بنات هذه الديار اللواتي تجبرهنّ الأعراف والتقاليد على التلويحِ الدائم بالبرطمة أمام الرَّجل. عيناها ناعستان واسعتان، ثاقبتا الجمال، لم أتجرأ النظر إليهما وقتاً طويلاً.

لم أكن قادراً على لقاء طويل وحديث متشعّب معها من هذه الدقائق الأولى. ربما لأنَّ السنين زادتها جمالاً ونضجاً وعمقًا لم أكن قادراً على مواجهتها دفعةً واحدة. أو لأني كنتُ أخطِّطُ لشيء واحد هو هدفي الأكبر من هذا اللقاء: دعوتها لتناول العشاء في المطعم الصيني ذلك المساء.

بدأت أولاً بإخراج كيس مطار شارل ديجول الذي يحمل علبة هديّتي، قدَّمتهُ لها قائلاً في الآن نفسه: «سأذهب لمنزل أختي الصغيرة في الشيخ عثمان، سأمكثُ هناك حتى نهاية العصر...» قبل أن أصل

١ ـ البيكسل: Pixel «نقطةٌ» صغيرةٌ جداً على صورة الكمبيوتر، تُشكِّلُ «العنصرَ الذريّ» أو «الوحدةَ الأساسية» في كلِّ صورة.

إلى بيت القصيد: توجيه الدعوة لها لتناول العشاء في المطعم الصيني في المساء. قبِلَت الدعوة دون تردُّد، كانت شخصيّةً معروفةً يحترمُها الجميع في هذه المدينة إن لم ينحنوا قليلاً عند رؤيتها أحيانًا.

انتظرتُ خمس دقائق تقريبًا قبل رؤيتها تطلُّ بمشيها الملائكي من منتصف شارع المعلاّ الرئيس. كنتُ واقفًا قرب باب المطعم الذي لم أدخلْهُ منذ سفري لفرنسا، أُحدِّقُ في أحد معالمه الخالدة: وصيف بابه الهزيلِ الجسد الذي يستقيمُ أمام الباب كتمثال منذ عشرات السنين. يُقال إنَّه هنديٌّ - يمنيٌّ الأصل، وإن كان صينيَّ الشكلِ إلى حدٍّ كبير مع ذلك.

وصلت. صافحتُها من جديد. لا أدري لماذا أحبُّ مصافحتها ولمس راحة يدها وأصابعها ولو ثانيةً واحدة. فتحتُ لها الباب، دخلت المطعم بعدها مرتجفًا وكأنِّي لم أتناول وجبةً قبل ذلك «رأسًا برأس» مع فتاة، أنا الذي قضَّيتُ حياتي أتناول أجمل المآدب رأسًا برأس، في أروع مدن هذه المعمورة، مع فتيات يمسحن بجمالهنّ وطيبتهنّ وألمعيتهنّ كلّ آلام الدنيا والآخرة.

أغدقتُ النظر في نسرين دون أن تُلاحظ ذلك، محاوِلاً قدر ما أستطيع الهروب من النظر لعينيها الخضراوين الواسعتين، لأنِّي لا أستطيعُ أن أُطيل النظر إليهما طويلاً دون أن أفضح رعشتي الداخليَّة جليًّا.

نسرين وُلدت في عدن من أب من كوكبان وأمٍّ من وادي دوعن، كما عرفتُ من رسائلنا السابقة. كم تعكس بشرتها ذلك

بأنقى وجه، كما لاحظت من الثواني الأولى في المطعم: مزيجٌ متقنٌ من ورديّة بنات كوكبان وعسليّة بنات وادي دوعن! نسرين بدويّةُ الجذور، مدنيّةُ السلوك والطلعة. عاشت في أعالي كوكبان وبين ينابيع وادي دوعن سنين من حياتها وإن كانت لصوتها العذب لهجةٌ عدنيّةٌ نقيّةٌ، وكأنّها لم تعش إلا في شوارع هذه المدينة. ومع ذلك، لغةُ البروق والرعود والينابيع والأعالي الجبليّة هي لغتُها قبل كلِّ لغة. في عينيها وفي حركات جسدها، في اختيار كلماتها وفي ألوان لوحاتها التشكيليَّة ينضحُ عبق النباتات والمروج الوحشية، خريرُ الينابيع والشلاّلات الكاسرة، نسيم الفجر الجبلي...

تحدَّثنا طوال الوجبة عن يوميّات حياتينا، عن لحظاتِها الأكثرِ أهمية. حدّثتُها عن تيماء كثيراً. حدّثتني عن أعمالِها الفنيّة، عن الحياة الاجتماعيَّة اليمنيّة التي صارت قاتلةً مدمِّرة. تحدَّثنا وقتاً طويلاً عن تلك الدقائق العشر التي عبرنا بها «الخَبت»، عن بداية السبعينيات: مهد مداركنا وقفزات أحاسيسنا الأولى.

أذهلني، وأنا أدسُّ نظراتي بين الفينة والفينة في جدران وأثاث وديكور المطعم الصيني، شيءٌ غريبٌ جداً: احتفظ المطعم بطابعهِ الأصيل، بكلِّ جوِّه القديم، بديكوره الأوّل، بجودة شروخه وقواقعه وحسائه وشُربته ورُزِّه الصيني، بلوني جدرانه، الأحمر في النصف الأسفل و«البصلي» في الأعلى، دون شروخ أو رتوش... وكأن عواصف وزوابع وحروباً أهلية لم تُدمِّر هذه المدينة منذ تأسيسه في ٢ أبريل ١٩٦٣ وحتى الآن. مازال سيِّده وطبّاخُه الرئيس ذو الملامح

الصينيّة القويّة مختفيًا كالعادة في المطبخ أو وراء الكواليس. مازالت شقيقتُه الصينيّة ـ اليمنيّة كما أظن، وإن كانت ذات ملامح أميركيَّة جنوبية مع ذلك، وذات لهجة عدنيّة صافية خالصة، مازالت، بملابسها العمليّة (التي قد تبدو في أعين البعض ذُكوريّةً قليلاً في زمن العبايات والشراشف) مازالت، كما كانت دومًا، جذوة المطعم وأحد أبرز معالمه. مازال مونس، نادلُ المطعم، العدني حتى مخّ العظم، مصنع لطف وهدوء وذوق وراحة بال، وموسوعةً من أفضل موسوعات الكلمات الشعبيّة العدنيّة القديمة...

ثمة شيءٌ في هذا المطعم غير طبيعيّ، يخترقُ الزمن. لا أعرفُ قطعةً واحدةً، صغيرة أو كبيرة، من مدينة عدن لا تتخربُ يومًا بعد يوم. لماذا ظلّ هذا المطعمُ أنيقًا، صامداً، قطعةً نقيّةً من عدن الماضي؟ أيُّ سرٍّ في الأمر؟ بأي حقٍّ لم يتلف قليلاً هذا المطعم؟...

بدأتُ أتجرأُ على التحديق الأطول في نسرين. أردتُ في الحقيقة أن أملأ نظري بها قبل أن تبلغ الأمسية أجلها. لم أكن أودُّ أن تنتهي تلك الليلة، ولا نسرين أيضًا. كم كانت دافقةً عذبةً، لا تُنسى... بعد خروجنا، مشيتُ بجوارِ نسرين، أو في ظلِّها بالأحرى، جزءاً من الشارع الرئيس حتى أسفلِ عمارةِ شُقّتها. كانت «خطوات حالمةً سكرانةً من السعادة»، كما نعتناها في إحدى فاكساتنا اللاحقة. تواعدنا على أمل لقاء قريب آخر.

وصلتُ مطار ناريتا في طوكيو، ومنه إلى ضاحية كاوازاكي، وكُلِّي عزمٌ أن تتوسّع وتتمتّن مشاريع علاقات الأبحاث المشتركة بين

مختبرينا. عملتُ قدر ما أستطيع في أن تتضاعف الحاجة لذهابي إلى هنالك في الزمن القريب القادم. قضّيتُ أسبوعًا في طوكيو يختلفُ عن كلِّ إقاماتي فيها. لم أعد أجوبها لأذوب، مع ٣٠ مليون بشر يقطنها، في سيل عماراتها النمطيّة وناطحات سحابها أو في تشعُّبات المترو ومنملة أنفاقه الأرضية التجاريَّة، أو لأنصهر في مدينتها الإلكترونيَّة: اكيبارا وحيِّها التجاري الزاخر: جينزا، أو لأرتمي في غيبوبة حالمة وأنا أهيمُ في منتزهات أيونو بين النباتات الاستوائيَّة التي تحملني بعيداً نحو ذاكرة الغابات الاستوائيَّة التي تملأ طفولتي، أو لأستمتع برؤية قصورها الأمبراطورية، ومعابدها البوذيَّة المذهلة في أساكوسا... أهملتُ كلَّ ذلك تمامًا. تفانيتُ هذه المرّة في البحث العلميِّ لا غير، وفي زيارةِ المتاحفِ والمعارضِ الفنيّة: متحف ناجوي للفنون، متحف إيدو - طوكيو... لأبحث فيها عن كتب متخصِّصة في تاريخ الفنِّ أو عن مجلدات صور لوحات فنيّة يابانية تثيرُ إعجاب نسرين.

صارت فاكساتنا أكثر تواترًا وازدهاراً بعد لقائنا الأخير. صرنا أكثر رغبةً بأن تزداد حميميّتُها، تجدُّدها، عمقُها، عطاؤها...

بعد أشهر، وصلتُ ثانيةً إلى عدن على الطريق إلى طوكيو. انتظرتُ عصرًا هذه المرة أمام المرسم في التواهي. أهديتُها حال رؤيتها كتابًا عن تاريخ الفنون الجرافيكيَّة اليابانيَّة، ومجلّداً فخمًا يحوي لوحات من الفنِّ التشكيلي الياباني المعاصر، عدت بهما من اليابان المرّة الماضية. أثارا إعجابًا صادقًا عارمًا تلألأ في بريق عينيها الباسمتين،

الواسعتين، القاتلتين... صرتُ بعد ذلك أحملُ لها في كلِّ لقاء مجلدات فخمةً لصور لوحات كبار الفنانين التشكيليين العالميين الذين تُحبُّهم: دالي، بيكاسو، تشاجال... سمح لي ذلك بزيارة كل المتاحف والمعارض التي أصادفُها على طريقي في أي مدينةٍ كانت، وبلاني أيضًا بالولع بفنٍّ لم أكن ممحونًا فيه قبل ذلك.

كرَّرتُ الدعوة لها إلى المطعم الصيني نفسه، قَبلت بكلِّ سرور. كم هو غريبٌ جدًّا أن يكون صينيًّا ذلك المعلمُ الوحيدُ في عدن الذي يذكِّرُك حقًّا بعدن! كان أمامنا وقتٌ كافٍ اقترحتُ أن نقضِّيه في جولد مور لمشاهدة غروب الشمس خلف «الأكمة المجاورة للنادي اليمنيّ». لم أقل بدل ذلك بالحرف الواحد: «ساحل العُشّاق»، حتى لا أستخدم كلمة: «العُشّاق» تحديداً. عمومًا، ما إن تجاوزنا تلك الأكمة ووصلناه حتى لاحظتُ سريعًا أنَّه لم يَعُد يحملُ من العُشَّاق إلا الاسم. أضحى يحملُ ذلك الاسم انتحالاً وبهتانًا. صار «ساحل العنزات والـمُخزِّنين». لم أر عاشقًا فيه. امتلأت كلّ صخوره وأجرافه المجاورة ببشر متكئين لتناول القات، وعنزات كثيرة تتنقَّلُ بينهم لتناولِ ما تبقّى من الأعشاب المرميّة حولهم.

سرنا على الشاطئ وحيدين يحيطنا موكب من النظرات التلصُّصية التي ضايقها كثيراً عبورنا الحالم. لم ننتظر غروب الشمس في ساحل العُشّاق حتى لا نُكدِّرَ مزاج مخزني القات أكثر من ذلك. تساءلتُ إن لم يكن يلزمنا أن نعتذر لهم واحداً واحداً على إزعاجهم بالمشي الثنائي بخطواتٍ خفيفة على الساحل. توجَّهنا إلى «منتجع

خليج الفيل» المجاور، لتناول عصير ليمون بارد فيه، ومشاهدة الغروب من هنالك قبل الذهاب للمطعم الصيني.

انتهت ليلتُنا بمزيد من الودِّ والانسجامِ والتعلُّق. ودَّعتُها أمام شُقّتها مثل المرّة الماضية، وشعرتُ بأنَّني بدأتُ أنتظرُ لقاءنا الثالث منذ أن فارقتها مباشرةً.

عدت ثالث مرّة لمدينة ترانزيتي الجديدة، بعد عدّة أشهر. واصلْنا كلّ طقوس المرّة السابقة، مضيفين لها تقليداً جديداً: فسحةً ليليةً رقيقةً في ساحل أبين، بعد تناولِ العشاءِ في المطعم الصيني، وقبل أن أرافقها لِشقَّتها... أتذكَّر كلَّ كلمة ردّدناها في ساحل أبين. أتذكّرُ كلَّ أشباح السيّارات الليليَّة، كُلَّ مخزني قات آخر الليل، كلَّ نهايات أمواج البحر التي داهمت أرجُلنا على حين غرّة أكثر من مرّة. أتذكَّرُ كم كان القمرُ في أروع هيئته، وكم كان حديثنا ينضحُ شجوناً وسعادة.

صارت للقاءاتنا بعد ذلك تقاليد ثابتة وطقوس حميميَّة. صرنا نجترُّ تفاصيل ذكرياتها في فاكساتنا اليوميَّة بكلِّ لذّة وسرور، نداعبها خصلةً خصلة. لم ننطق، نسرين أو أنا، مع كلِّ ذلك «الإسم الأعظم»: الحبّ، وإن كانت كلُّ كلمة نتبادلُها، كلُّ حرف، كلُّ نظرة معجونةً بأقوى أنواع الحب: الحبّ الحقيقي. ذلك الذي لا يفكِّرُ إلا بإسعاد الآخر، بعدم «جعثه» أو «تعليقه»، بمشاركته السراء والضراء، بإذكاء مزيدٍ من اللوعة والعشق الصامتين... لأستدرك نفسي حالاً: ماذا قلتُ قبل قليل: «بعدم جعث الآخر»؟ أووووه، كان ذلك

صحيحًا نظريًّا فقط. لأنَّ عواطفنا صارت، دون وعي، «مجعوثةً» رأسًا على عقب. صرنا، وإن تحاشى كلٌّ منّا الرغبة في تعليق الآخر، مُتعلِّقين معلَّقين من الرأس حتى القدم. كان فخًّا وقعنا فيه ونحن نظن أنَّنا نتحاشاه بكلِّ وعي. هكذا أصبحتُ يومًا بعد يوم ضائعًا في معادلة بلا حلّ: ثمة عشقٌ أحياهُ منذ الأزل، كلّ يوم فيه «بحجم الكرة الأرضيَّة» اسمه تيماء. وثمَّة نسرين التي تكتسحني أكثر فأكثر يوميًّا... إزدواجيّةٌ كارثيّةٌ مرعبة! عشقٌ ثنائي! إلهي، ما أتعس العشق الثنائي!

لعلّ تيماء كانت تقرأُ باطني. تسألُني أسئلةً كثيرةً عمّا يدور في محطّات ترانزيتي الغريبة. تيماءُ لا تقبل أن تتشاطرني مع أحد، تغِيرُ كالمجنونة من أدنى شيء أتعلّقُ فيه. أحسّت أنَّ أشياء جديدةً تعتملُ في مشاعري. أرادت أن تقُصّ جذورها تمامًا: منعتني من ارتياد محطّات ترانزيتي الجديدة التي لاحظت أنَّني تغيَّرتُ منذ ارتيادها. أيقنت أنَّها جذر الداء. لا أتذكّرُ مع ذلك أنَّها منعتني من شيء صغير أو كبيرٍ قبل ذلك مرّةً واحدة. كانت تباركُ عادةً كلّ اختياراتي، لمُجرّد أنَّها اختياراتي.

رضختُ لتيماء. قبلتُ قرارها مُرغمًا. كان عزائي عبارةً سمعتها من نسرين في آخر لقاء لنا ونحن نعبر ساحل أبين. قالت ليلتها: «ثمة بشرٌ قُطرُ صدق مشاعرهم دهرٌ كامل، وآخرون قُطرُ صدق مشاعرهم خمسة أيام، وآخرون خمس دقائق. أنا، كما سترى، من الفصيلة الأولى!».

قبلتُ أمر تيماء، غير أنِّي لم أعد أعرفُ نفسي: لم أعد أمتلك أدنى رغبة بمواصلة رحلاتي ومشاريعي مع الفريق الياباني، ولا حتى استقباله. لم أعد أجدُ رغبة في العملِ والبحثِ العلميّ. أشعرُ بالضجر سريعًا من كلّ شيء. قليلةٌ جدًّا هي الأشياء أو المواضيع التي لا تثيرُ مللي المفاجئ. فقدتُ الولع بكلّ شيء...

(حدثَ شيءٌ غريبٌ لي وأنا أُصغي لرواية شهرزاد، في هذه اللحظة بالذات: صـرختُ ملء فيّ: ! STOP أوقـفتُ رواية الكمبيوتر، أغلقتُ الشاشة. صرختْ ألومُ شهرزاد: لماذا قبلتِ قرار تيماء؟ لماذا فضَّلتِ تيماء على نسرين؟... أجابت مُذكِّرةً إياي بمواثيق عشقي بتيماء، بوفائي الغريزيّ للعشق، وبأسباب كثيرة منطقيّةٍ جدًّا.

زأرت ملء الغرفة بصوتٍ لا يقبلُ تعليلها:

فكّري قليلاً! تيماءُ ابنة الخيال ليس إلاّ. تيماء لم توجد يومًا! نسرين من لحمٍ ودم! نسرينُ حقيقة. تيماء أشبه بفرضيّة رياضية وُجِدَت لإملاءِ نقص انتهى الآن. لم يعد لها مبرّرٌ بعد نسرين!

ردَّت شهرزاد: آسفةٌ جدًّا! تيماءُ بالنسبة لي مثل نسرين تمامًا، شخصيات روائيَّة بالمقام نفسه. لا أستطيعُ أن أُلغي إحداهنّ الآن دون أن تتحوَّل الرواية إلى مهزلة.

كدتُ أكسر الشاشة وأنا أحاولُ أن أشرح لها أن تيماء أشبه بلعبة «التاماجوشي» اليابانيَّة: شخصيّةٌ افتراضية ليس إلاّ، مردِّدًا المرّة

تلو الأخرى، بأعلى صوتي: تيماء فتاةٌ افتراضيةٌ لم توجد يومًا. هل تفهمين ذلك؟ نسرين حقيقة. غيِّري اختيارك فوراً قبل أن . . . .

لعلِّي سمعتُها تنعتني بالجبان، الغادر، الخائن . . . أو ربما تهيأ لي ذلك. لستُ أدري. كلُّ ما أجزمهُ هو أنِّي كفرتُ بكلِّ شيء عندما أخذت روايتُها ذلك المنحنى. تصبّب جبيني عرقًا ظلّ يتساقطُ كنزيف وأنا أحاولُ إقناعها مرةً بعد مرّة. ثم صرختُ متوسِّلاً: ارحميني شهرزاد! ساعديني. كفاني غرقًا في الخيال. كفاني اللهث وراء السراب. دعيني أحيَ بقيّة عمري في الرواية على الأقلِ مع بنتِ الواقع. يكفيني الخيال، يُمتعُني، أحبُّهُ كثيراً، بل أعشقهُ من كلِّ قلبي . . . لكن للواقع مذاقًا من نوع آخر: للواقعِ رائحةُ أفران الخبز الساخن، طعمُ العسل الدوعنيّ، لذّةُ السباحة بين الأمواج، سكرةُ القبلة . . .

هدأت أعصابي قرب الفجر عندما أدركتُ أنَّ لمشكلتي حلاًّ يكمنُ في برمجة شهرزاد «على مستوى ماوراء النموذج». أعدت برمجتها قليلاً لأُغيّر من سلوكها تجاهي، لتفهمني أكثر من قبل، لتذعن لي قليلاً . . .

تفاوضتُ معها بعد ذلك من موقعٍ أفضل. ثمّ شغَّلتُ من جديد ماكينتها الأدبية لتبدأ خلطها وتركيبها وإعادة استلهامها لموادي الخامة من منظور آخر، من استراتيجية أخرى.

واصلت شهرزاد روايتها منذُ لحظة رضوخي لقرار تيماء وابتعادي عن محطّة ترانزيتي الجديدة، ساردة أحداثًا جديدةً كثيرةً لا تستحقُّ الذِّكر هُنا، قبل أن تصلَ إلى اللحظة التراجيديّة التالية:

. . .أصيبت تيماءُ بسرطانِ الثدي! صرتُ أشبه بالمجنون وأنا أشعرُ أنَّها تضمحلُّ أمامي، تتلاشى. . .

صرتُ كالمجنون أنا أيضًا خارج الشاشة. لم أتحمَّل رؤية تيماء تتألمُ، تفقدُ جسدها رويدًا رويدًا تحت وطأة دبيب السرطان. . . تقاسمتُ آلام صِنْويَ الإلكتروني وهو يرى تيماءه تنطفئُ يومًا بعد يومٍ، هي التي أضاءت حياته ووجدانه منذ الأزل. شعرتُ بالذنب أيضًا: ألستُ أنا القاتل؟ حتّى وإن لم أكن أُفكِّرُ أبدًا، عندما تحدَّثتُ لشهرزاد عن صديقة سوسن، أنَّ شهرزاد ستُقصي تيماء من الرواية باستخدام الداء نفسه الذي التهم صديقة سوسن. . .

عندما انخسفت تيماءُ وغادرت وجدان إلى الأبد امتلأت غرفتي بنحيب ثنائيٍّ انبعثَ من داخل وخارج الشاشة، وكأنَّ تشنُّج كلٍّ منّا صدًى لتشنُّج الآخر!

سردت شهرزادُ نصًّا طويلاً حزينًا عن عذابات وجدان وجراحاته التي لن تتبلسم يومًا، لن تندمل أبدًا. . . فقد جناحيه، قلبه النابض. ظلّ مسجونًا في ذكريات عشق غائب حاضر. لم يقبل غيابها. ترك معاطفها، ملابسها، أدواتها الشخصيّة في مكانها في المنزل كما لو كانت أمامه. لعلّها كانت في غيابها أكثر حضوراً عمّا قبل. لم ينفكّ لحظة من تخيُّلها بجانبه. . .

شعر أنَّه مع مرور الزمن وزيادة المكابدات يوشك أن يرحل هو الآخر. لم يسقط في ثنائية جديدة هذه المرّة مع كلِّ ذلك: بين السجن

في ذكرياتِ عشق غائب اسمُه تيماء، وتحريرِ عشقٍ مسجون اسمُه نسرين، اختار الطريق الأول. لكنّهُ عندما شعرَ بالضعف وبالرغبة بالاستقالةِ من الحياة نفسها، أيقن أنَّه جنى على حياة نسرين ببدء تلك العلاقة، بإذكائها، وبإنهائها بشكلٍ مفاجئ، وأنَّ عليه توديع نسرين على الأقل!

أرسل بعد سنة من ذلك فاكسًا طويلاً لنسرين قال لها فيه إنَّه سيمرُّ هذه المرّة إلى عدن وسيبقى فيها فترةً أطول.

استرسلت روايةُ شهرزاد شارحةً مُعاناته قبل الفاكس، بعده، حتّى وصوله فندق عدن، قبل التوجّه نحو المرسم... ثمَّ واصلت شهرزاد روايتها بالشكل التالي:

عندما وصلتُ مرسمها، في الثالثة عصراً، كانت نسرين ترتدي لباس العمل، غارقةً في تصميم لوحة جديدة. كانت تنتظرني كما لو أجيئُها كعادتي وكأنّني لم أغب أبدًا، بل وكأنّنا نواصلُ علاقتنا بالإيقاعِ الأليف المتصاعد نفسه. امتلكني الشعور نفسه أنا أيضًا، كما لو لم أغبْ عن هذا المرسم. هل غبتُ عنهُ يومًا في الواقع؟!

اقترحت لها أن نتوجّه إلى «ساحل العُشّاق» (استعملتُ اسمه هذه المرّة دون تردّد!). وافقت على التوّ. دخلت غرفة صغيرة لتخلع بذلةَ العمل، ولترتدي عباءتها التقليدية السوداء. ثمّ وضعت على ظهرها حقيبةً صغيرةً سوداء بدت ممتلئةً بشيءٍ ما.

توجَّهنا نحو ساحل العُشّاق. تحدَّثنا كثيرًا عن هذه السنين التي انقطعتْ فيها أخبارُنا عن بعضنا لأسباب نعرِفُها تمامًا. سرنا هذه المرّة على ساحل العُشّاق بخطوات هادئة واثقة، غير مكترثين إطلاقًا بأسراب أعين مخزِّني القات التي تحملقُ فينا من أقصى الرأس إلى أخمص القدمين. لم نُعرها اهتمامًا، كما لم نُعر اهتمامًا عنزات الشاطئ أيضًا، أوراق البلاستيك المتناثرة، وأعقاب السجائر المرميّة على التراب.

عندما غادرنا ساحل العُشّاق، وصعدنا أكمةً التي تُطلُّ على بقية سواحل جولد مور، خلعت نسرين عباءتها السوداء. عطفتها على شكل كومة صغيرة دلفتها في حقيبة ظهرها. بدت نسرين مذهلة الجمال تأسرُ النظر بفستان أنيق، بديع التصميم، طليق الساعدين.

ثم حدث شيءٌ لأوّل مرّة: التقت أصابعُ يدينا بلاوعي في أعلى الأكمة. كم كانت رقيقةً رطبةً راحةُ وأصابع نسرين وهي تشتبكُ في أصابعي! كنتُ فخوراً مرتبكًا وأنا أحتضنُ أصابعها في راحتي، أصابعَها التي تتفجَّرُ كينبوع عندما تلمسُ الريشة، أصابعها التي ترقصُ على لوحاتها رقصًا. كم هي شديدةُ الرقّة والتعبيريَّة أصابعُها! كنتُ أسمعُها تنطقُ في يدي. كان الجوُّ لا يخلو بين الآونة والأخرى من رذاذ مطر خفيف ناعم. رذاذُ المطر المتساقط على عينيّ امتزج بأدمع فرح سرِّية. ظلَّت يدانا مشتبكتين حتى وصلنا فندق عدن، قرب الخامسة عصراً. صعدنا إلى غرفتي رقم ٤٠٤ في الدور الرابع، بانتظار موعد العشاء في المطعم الصيني الذي سنتوجَّهُ نحوه معًا هذه المرّة.

توجّهتُ للشرفةِ مباشرةً فيما ذهبت نسرين تستحمُّ استعداداً لأُمسيتِنا في المطعم. حدَّقتُ مليًّا في المدينة التي لم أكن أراها هذه المرّة بالعينين نفسهما.

أمامي، من شرفة الغرفة، حديقةٌ دائريةٌ صغيرةٌ نسمِّيها «جولة خورمكسر» تؤدِّي إلى كلِّ أحياء عدن. وراء «الجولة» قطعةٌ من البحر تقعُ خلفها أحياء المعلا، التواهي، الميناء، جزيرة العمّال، رتلٌ من الجبال الصغيرة المفروشةِ على طولِ وسطِ المشهدِ والتي تبدو، من شرفة الغرفة، أشبه بزواحف ما قبل التاريخ، يتوسَّطُها شامخًا: جبلُ شمسان، كصنمٍ كبيرٍ بين أقزام من الأصنام المطأطئة الرأس.

أمامي، على زاوية عشر درجات باتجاه اليسار، على حافة حديقة «الجولة» تماماً، سينما شيناز وهي تواصلُ انكماشها واندثارها. خلفها يقع «جبل حديد»، بقلعته الصغيرة الـمُتميّزة.

على يساري مباشرةً أطرافُ خورمكسر المؤدِّية إلى حيّ كريتر. نخيلٌ هنا وهناك، منازلُ صغيرة. مثلُ كلِّ المنازل التي مررنا بها منذ عودتنا من التواهي إلى فندق عدن، لا يوجدُ منزلٌ غير مخرومٍ أو منقوف، غير مُدخِّن أو مشروخ. آثارُ رصاص على الجدران، ثغراتٌ في الزجاج، أسلاكٌ كهربائيَّةٌ مهترئةٌ على الجدران، طوباتُ بناء (بردين) فاغرةُ الفاه، شرفاتٌ غير مكتملة، مُخرَّبة، صدأٌ على كلِّ حديد، أعمدةٌ بلا جدران، ملابس غسيل على الشرفات، غبارٌ في كلِّ مكان... المدينةُ تتنفَّسُ الخراب، تعانقُ الخراب، تحتفلُ بالخراب، ترفعُ رايته عاليًا.

على يميني الطريقُ البحريّ الذي يتوجّهُ نحو الشيخ عثمان متوسّطًا لسانين بحريين هما رئتا عدن ومصدرُ نسماتها. ما أحلاهما عندما تسكنُهما أسراب البجع المهاجرة! على يساري في البعيد جبلُ صيرة وميناؤه الميثولوجي الصغير.

هي، نسرين، تخرجُ من حوضِ المغسل. عليها منشفةٌ بيضاءُ كبيرة. استدرتُ باتجاهها قليلاً. نسرين تفتحُ حقيبة ظهرها. تُخرجُ كيسًا يحوي علبةً ورديّة. تذكّرتُها هذه العلبةَ الورديّة. كدتُ أنساها تمامًا لولا اسم معرضِ مطار شارل ديجول المكتوب على كيسها، هديّة اللقاء الأوّل!

فتحت غلاف الهديّة التي ظلّت مُغلقة منذ أن أهديتها إياها قبل سنوات. إلهي! لم تفتح العلبة منذ كلّ هذه السنين! أكادُ لا أُصدِّقُ عينيّ. أهديتُها لها، لسعادتها الشخصيّة فقط، لأعراسها، لأفراحها، لعشقها، لحفلاتها... ثمّ نسيتها تماما. لم تفتحها مع ذلك إلاّ الآن! لا أصدِّقُ ذلك. لعلّها تنتظرُ منذ أمد هذه اللحظة التي لم تكن مبرمجةً حينها إطلاقًا...

في وسط العلبة قنّيناتٌ تنفتحُ لأوّل مرّة: ماكياج إيف سانت لوران، عطر شانيل ٥. نسرين تُضمِّخ جسدها بالعطر، لا تتوقّفُ عن بثّه في كلّ جسدِها. ترشُّهُ على ساعديها، على كَتِفيها، على جيدها، قرب أذنيها، على جوانب نهديها، على خاصرتها... تبلّل به جسدها الرشيق الممشوق دون توقّف وكأنّها ستُفرغُ القنينة عليه. كأنّها تستعيدُ قرنًا من الليالي العطريّة الضائعة.

إلهي، ماذا حصل لي في هذه اللحظة بالذات؟ غرتُ من صِنويَ الإلكتروني، بدأتُ أرتعش غيظًا. صرتُ كقابيل وهو ينوي أن يلتهم هابيل. لم أقبل أن يَحظى صِنويَ الإلكتروني بهذه اللحظة العبقرية، بهذا الوفاء الميثولوجي، بهذا العشق الذي لم يُفتِّتهُ الفراق ومرور السنين. بأيٍّ حقٍّ ينال هو هذه اللحظات الأسطورية التي أستحقُّها أنا أكثر منه، أنا الذي أتعذّب وأُعطي وأُحبُّ وأصبرُ وأُضحِّي منذ ولادتي؟... لتكن هذه اللحظة لي وحدي أو لا تكن!

لا أدري ماذا حصل في دماغي في هذه اللحظة بالذات! لم أعد أسيطرُ على نظراتي الشريرة. هل بدأت أُهلوس؟ هل تفجَّرت بعض الأسلاك الكهربائيَّة في دماغي؟ هل «قرح أحد الفيوزات» فيه؟... رميتُ بلا وعي فنجانًا مملوءًا بالشاي وسط الشاشة الجداريّة، لئلا يتواصل الفيلم بعد هذه اللحظة أبدًا. كسرتُ الشاشة بعنف. شعرتُ بلذَّة في ذلك. نزعتُ سلك الكهرباء عن شاشة الكمبيوتر ووحدته المركزية ليتوقّف العرضُ تمامًا. رميتهُما من نافذة غرفتي في الدور الخامس باتجاه الغابة الملتصقة بعمارتنا. بووووووووم! شعرتُ بلذّة وأنا أراهما يهويان من الأعالي، يتفرقعان وهما يتفجّران على أرض الغابة، تتناثرُ شظاياهما في كلِّ الاتجاهات. رميتُ أيضًا كلّ الكؤوس والصحونِ والأواني الوسخة، المتراكمةِ في حوضِ غسيل مطبخي، على أشجار الغابة. أصغيتُ بمزيد من الابتهاج لأصواتِها تتكسَّرُ على الأرض. شعرتُ براحة حقيقيَّة بسماعِ دوِيٍّ سقوطِ الكتب، صرير أثاث الغرفة، رنين المرايا... وبرؤية كوماتٍ من أشلاء غرفتي تمتلئُ أسفل العمارة، بين أشجار الصنوبر في قاع الغابة...).

شعرتُ بنوع من السكون والانفراج عند سماع أصداء انفجارات السقوط. داهمتني راحةُ بال وصفاءُ سريرة لم أكن أتصوَّرهما. ضحكتُ كما لم أضحك منذ زمن. شعرتُ بالتجلّي. قلتُ لنفسي في أصفى لحظة تجلٍّ أضاء بصيرتي: عرفتُ موطن دائي الآن. لا حظَّ لي مع بنات الإنس! حظّي مع حوريّات بنات الجنّ لا غير. لم أفهم ذلك رغم أنَّ القدر يلوّحُ لي به منذ البداية. لم أفهم كلَّ إشارات الزمان وهي تشرحُ لي كلَّ يوم أن حظّي هو حظٌّ تيمور المغربي نفسه: خلقتُ لأناكح بنات الجنّ ولم أستوعب ذلك إلاّ الآن.

ويحي! ألم يتدخَّلِ القدرُ ألف مرّة ومرّة ليُعلّمني ذلك: استخدم جعفر الدملاني ليُوقِف علاقتي بسوسن، استخدم دمبا السنغالي ليوقف علاقتي بإيزابل، أنهى عشقي الافتراضي وحياتي الإلكترونيَّة وحوّلهما إلى هشيم متراكم أسفل العمارة!... حمل لي القدر تيمور المغربيّ على صحن من ذهب ليقول لي ذلك بأوضح العبارات. لكنّني بليدٌ حقًّا. بليدٌ دومًا. اللعنة! تأخّرتُ مرّةً أخرى عن موعدي القدريّ، أنا رجلُ المواعيد الضائعة.

إلهي، لماذا لم أُفكّر بذلك من قبل؟ لماذا لم أفهم سريعًا أنّهُ لا حظَّ لي مع بنات الإنس. لا أمل لي الآن إلاّ بجنّية صغيرة مُتجنِّسة ببني الإنس. هذا هو قضائي وقدري. سأذهبُ إليها ولن أضيع ثانيةً واحدةً هذه المرّة. سأستعيدُ الزمن المفقود معها، سأسترجعهُ بكلِّ جُموح نسرين في الفيلم وهي تغتسلُ بقنينة العطر لتحيا بأثرٍ رجعِيٍّ دهرًا من العشق الضائع...

لكن كيف لي أن أقابل معبودتي من بنات الجنّ؟ أين هُنّ؟... وجدتُ الجواب سريعًا. لم أتأخَّر هذه المرّة باستعمال عقلي، وكأنَّ رجلاً ألمعيًّا آخر وُلِد من جديد مُنتفضًا كالعنقاء من رماد الكؤوس والشاشات المطحونة أسفل العمارة.

أعرفُ أين سأجِدُهُنّ بنات الجن! لم يعُدن يسكُنَّ هذه الأيام في ديارهنّ التقليدية: «خَبْتُ الرُّجاع»، «خَبْتُ الوهط»، «مقبرةُ المجنَّة»... غادرْنَها بالتأكيد، هُنَّ أيضًا، نحو العاصمةِ الجديدة: صنعاء، في هذا الزمن الجديد الذي صار فيه «كُلُّ شيءٍ من صنعاء» كما يقولون. سأتوجَّه نحو عاصمة الجنّ دون تأخير هذه المرّة. نحو بؤرتهنّ الخالدة: باب اليمن!

لم أتأخَّر ثانية. اتصلتُ بالخطوط الجوّية اليمنيَّة. حجزتُ على أوّل رحلةٍ قادمة بعد يومين. لم أدرِ كيف أُقضّي آخر يوم لي في هذه المدينة التي سأغادرها إلى الأبد، في هذا البلد الذي سأودِّعه إلى الأبد. تذكَّرت أنَّ هناك «متحف الزواحف» في ضواحي سانت مالو، سمعتُ أنّهُ مملوءٌ بزواحف من جميع أنحاء الدنيا، لكنّي لم أزرهُ إلى اليوم. قلتُ: سأقضّي ساعات سانت مالو الأخيرة فيه حتى لا أؤنب ضميري طوال عمري بعدمِ زيارته.

زرته فعلاً. كنت أعبر أقسامه وأروقته وأقفاصه وشاشاته مهرولاً، دون اهتمام أو تركيز، كما لو كنتُ أؤدِّي تكليفًا إلزاميًّا ليس إلاّ. لم أُركِّز على تنوُّعات فصائل الزواحف، ولم أقرأ إلا قليلاً جدًّا من الشروحات المكتوبة على مدخل بعض الأقسام. أنظر بأعين مستعجلة

في اتجاه السحليّات، السلاحف العملاقة، الثعابين والحيّات المتنوِّعة. أجوبُ بنظرات غير مكترثة باتجاه الكيمانات أو التماسيح الهائلة...

لا شيء يثيرُ انتباهي اليوم. صرتُ أحيا بعيداً عن سانت مالو. صرت أرفرفُ قرب صنعاء، قلبي يخفق مشتاقًا لـ «باب اليمن».

شيءٌ واحدٌ لفت نظري فجأة: ثمَّة حيوانٌ زاحفٌ يمثّلُ اليمن في أمميّة الزواحف «هذه: الحرباء».

رأيتها تلك الحرباء اليمنيّة المسكينة داخل قفص صُمِّم بيئتها الطبيعيَّة نفسها، تنتقلُ بين الأشجار، تتلوّن بلون وسطها الذي تحطُّ فيه... تساءلتُ باستغراب شديد: لماذا اختيرت الحرباءُ من اليمن؟

لم أكن أعرفُ أنَّني سأجدُ الإجابةَ عندما أصلُ صنعاء وأرى بأُمِّ عينيّ كلّ أولئك الذين كنّا نُلقِّبهم: «سوسلوف»، «بلوخين»، «لينين»... من فرط «نقائهم الإيديولوجي» وهم يتحوَّلون في السنين القادمة إلى أكثر المُطبّلين للنظام الحاكم.

عدت من المتحف نحو غُرفتي لأنظِّفها قبل تسليمها ومغادرتها. لم أُشعر أحداً بمغادرتي النهائية لسانت مالو. لم أُودِّع أحداً. لم أتّصلْ تلفونيًّا بصاحبي ح.ع.س. الذي لم أره منذُ لقائنا الأخير في مطعم النجمة الذهبية في روان. سمعت أنَّه صار بروفيسوراً بعد ذلك اللقاء بأشهر. سأستغربُ عندما أستلمُ رسالةً منه وأنا أسكنُ في شارع دغبوس، قريبًا من منزل عائلته في شارع يافا في الشيخ عثمان، ثمّ رسائل ورسائل...

أخذتُ كلَّ ما أملك من مبلغ محترم في البنك، وبعض ملابسي الصيفية فقط. وصلتُ مطار شارل ديجول. كان يومًا باردًا رغم أنَّه كان في أواخرِ يونيو ١٩٩٣. وداعًا مدن البرد! وداعًا فرنسا!: بلدةٌ طيِّبةٌ ساحرةٌ حقًّا، وإن لم يكتب ربّي لي فيها إلا الإخفاقات والانكسارات...

في الطائرةِ بدأتُ أعيش مقدّمًا في «باب اليمن»، ثمّة حيثُ ستنتهي كلُّ إخفاقاتي وانكساراتي. صرت متيَّمًا به قبل رؤيته. لم أزر قبل اليوم عاصمة اليمن الجديد، اليمن المُوحَّد. سأزورُ عاصمتي الآن، «في آخر العمر»! سأجد فيها فتاة أحلامي من بنات الجنّ. لعلّها تصطلي في سعيرِ انتظاري منذُ أمد. سأمنحها كلَّ ما تحلمُ به من وَجد وعشق ولوعة وغرام وتتيُّم وصبابات وهيام وتدلُّه وشغف وتفان ووفاء وعبادة. سأمنحها قصّة عشق فريد أوحد، تحسدُها عليه كلُّ بنات حواء. سنستعيدُ الزمن المفقود سريعًا، سريعًا جدًّا...

إلهي، زادت لوعتي بشكل لا يخطرُ على بال لصنعاء، لباب اليمن! بدأتُ أحلم بمعشوقتي التي تنتظرني هناك، أحاولُ أن أخترق بنظرات حالمة محيط السحب الكثيفة اللامتناهية التي تنغمسُ فيها الطائرة، علِّي أقتربُ من مدينة معشوقتي، من ثراها، منها...

لم يُكبِّل نظراتي الحالمة هذه إلاّ مقالٌ كبيرٌ فوجئتُ به، يملأُ صفحةً ضخمةً في إحدى الصحف الرسميّة، بعنوان: حوار فكريّ مع فخامة الأستاذ جعفر الدملاني.

فرنسا، ١ فبراير ٢٠٠٣ ـ ١٥ مايو ٢٠٠٣

الجزء الثالث

عُلْبَة الصَّاردين

لِجَار الله عُمَر...

الفصل الأول
عاصمةُ الدخان

اليمنُ تبدأ قبل مطارِ صنعاء: هكذا كان عليّ أن أستنتج وأنا أقرأُ العنوان التالي: «حوار فكري مع فخامة الأستاذ جعفر الدملاني» في صحيفة رسميَّة وزَّعتها المضيِّفة في اللحظات الأولى من إقلاع طائرة «اليمنية» المغادرة باريس نحو عاصمة اليمن الموحّد، في صباح الإثنين ٢١ يونيو ١٩٩٣. كان صباحًا باريسيًّا مكتظًّا بسحب رماديّة ثخينة قاتمة تُشعل رغبة البشر بالهروب إلى إجازة الصيف والشواطئ الزرقاء البعيدة، وتشعل رغبتي بالهروب نحو الهاوية.

لم أخرّ صريعًا وأنا أقرأُ عنوان المقابلة، لم يقصفني شيءٌ ما يُشبه العاصفة، لم أزعق، لم أصرخ، بل حتى لم «أفز»... لسبب بسيط: كان لديَّ هدفٌ لا أنبل منه: ذلك العشقُ الصنعاني الذي ينتظرني قرب باب اليمن، في قلب مدينة الأحلام، صنعاء القديمة!

هدفٌ احتكر كلَّ خلايا دماغي ولم يترك كروموزومًا واحداً للسخريةِ أو الاستهبال أو العجب أو الاستنكار. هدفٌ ملأ رأسي بأسراب من عصافيرَ متعدّدة الأشكال والألوان، تُحلِّقُ فوق سماء ناصعة الزرقة، تعلو بحراً فيروزيَّ اللون، شواطئهُ من الرَّمل الأبيض الناعم...

عبرتُ صفحة المقابلة بسرعة إذن، لكن باندهال مكتوم. نزعتُها من الصحيفة، ثم عطَّفتُها بعناية كبيرة، ووضعتُها في جيب بنطلوني، دون أن أفترض حينها أنَّني سأعيدُ قراءتها مسطولاً، بعد ثلاثة أشهر فقط، عندما أعودُ من مكتب ومجلس قات (وما أدراك ما مكتب ومجلسُ قات) فخامة صديقي القديم، «الأستاذ» جعفر، الذي لهثتُ بحثًا عنه، أنا نفسي هذه المرّة، لإنقاذي من ورطة كبيرة حلَّت بي.

لم أكن قادراً بشكلٍ أو بآخر أن أستوعب كيف صار «الأستاذ» جعفر نجمًا ثاقبًا في سماء السياسة خلال السنوات التي فرَّقتنا بعد آخر لقاء لي معهُ بصُحبة روسيَّته الشقراء، المسكينة تاتيانا، حفصة. تدرَّج كما يبدو في تبوُّؤ أعلى المناصب: تحمَّل ملفات التعليم والثقافة، شؤون القبائل، الأمن القومي... وها هو الآن في وقت واحد: عسكريًّا كبيراً، شيخًا كبيراً، وزيراً كبيراً... سيشرحُ لي هو نفسه، بعد أشهر قليلة فقط، بلُغتهِ الأدبية الأرستقراطية الراقية التي تعوَّدتُم عليها الآن، خفايا أسرار فتوحاته ونجاحاته. وسيبوحُ لي بـ«وصاياه العشر» التي تفتحُ للمرء أبواب المجد في اليمن، وتسمح له، كما يقول، بالنوم باطمئنان بين أشداق التماسيح.

بعد سيرة ذاتيّة «مقتضبة» للأستاذ جعفر، تركّزت المقابلة حول تفانيه في محاربة «وباء الفساد»، «وباء الأُميّة»، «وباء القات»، بناء «دولة المؤسسات والديموقراطيَّة»، ولمّ أواصر الأُمة الإسلاميَّة... تحدَّثت أيضًا عن ملكاته الأدبية القديمة لا سيّما الشعريّة، «شغفه منذ الطفولة» على حدٍّ تعبير الصحفيٍّ الذي أجرى المقابلة. (لحسن حظّ ذلك الصحفي العزيز أنَّ «القول المضحك لا يقتلُ قائلَهُ» وإلا لخَرَّ ذلك الصحفيُ صريعًا على التو بعد هذه العبارة.) انتهت المقابلة بنشر آخر إبداعات الأستاذ جعفر الشعريَّة: قصيدة «إرهاصات»، التي لم ينقص الصحفي الأغر إلا أن يُلَقِّبها «المعلّقة الثامنة».

سؤال عويص كان يستحوذُ بالي أكثر من أسئلة وإجابات ذلك الحوار الفكري بكثير: كيف ستتجلّى أمامي معشوقتي المنتظرة؟ كيف سأراها؟... طبعًا، لم أوجه لنفسي السؤال التالي: أين سأراها؟ (لأنّني كنتُ أمتلكُ الردَّ النهائي القاطع: في صنعاء القديمة، قرب باب اليمن بكل تأكيد!). لكن السؤال الأخرس: «كيف سأراها؟» كان أصعب بكثير. ندمتُ أنّني لم أوجّه السؤال التالي: «كيف يصلُ المرء إلى بنات الجنّ اللواتي يعشن بأجساد بنات حواء؟» لتيمور المغربي، الذي تعرّفتُ عليه في آخر أيامي في فرنسا فقط، والذي كان دومًا بصحبة «كتكوتات» من خارقات الجمال، آتيات دومًا من مدن بعيدة، غريبات الأصل والمولد، لا يعرف أحدٌ شيئًا عن أُصولهن وتاريخ حياتهن. «جنيّاتٌ بأجساد بنات حواء»، كما يجزم تيمور!

كانت تجربته ستفيدُني كثيراً بعد أن أثبتت لي الحياة مليون مرة أنَّه لا حظّ لي إطلاقًا مع بنات البشر: منذ سوسن، مروراً بتلك التي انكسر نابي لمجرّد الرغبة في تهنئتها في ليلة رأس السنة، وحتى ضحية «الدُّرة ميزان»: إيزا، وبنات السنين العجاف... نعم، هكذا قُدِّر لي فلأكن بمستوى إشارات القدر! لأحترم اختياراته إذا أردت أن يحترمني.

بدأ رأسي يمتلأُ بمطبّات هوائية مع تقدُّم الطائرة نحو الجنوب. كانت ذكرياتي تترنّح بين فرنسا التي أعود منها فاشلاً وأفقدُها بكلِّ حسرة إلى الأبد، واليمن التي ذبلت ذكرياتُها في دماغي بعد أن فارقتُها قبل ١٥ سنة، وهاأنذا أستعدُّ للارتماء في أحضانها الوعرة وبدء حياة جديدة فيها بعد ساعات قلائل فقط.

في لحظة تجلٍّ وإلهام مفاجئ داخل الطائرة، لاحت في دماغي بدايات ترسيمات وإجابات لذلك السؤال العويص الغامض: «كيف سأراها؟». صعدت جميعها من أسفل السافلين، من أقبية قاع ثقافتي المنسيّة، من قصص أُمي التي رضعتُها في الطفولة. وجدتُ في تلك القصص مرجعي الجديد، العصا التي أتوكأُ عليها، بعد أن تهشّمت كلُّ نماذج ومراجع وأحلام سني مراهقتي وبدء شبابي منذ نموذج فيلم «... المفقودة»، وحتّى تيماء ونسرين... فعلاً، لم يخطئ أبداً من قال يومًا: عندما تطحنُنا الهزائم و«تُدَقدقُنا» الانكسارات، تنهار كلُّ مراجعنا وقناعاتنا المكتسبة، وتبقى لنا تلك التي رضعناها في المهد وارتسمت إلى الأبد في الصفحات الأولى من لاوعينا الغائر.

إليكم أوَّلاً إحدى تلك القصص التي ملأت طفولتي في قرية أكاتيبو قرب بحيرة مانيارا التنزانيَّة، مسقط رأسي، ثمّ في شارع دغبوس بعد ذلك، قبل أن تنام طويلاً في ظلمات الذاكرة. هاهي الآن، في لحظات السكون والتجلّي على متن طائرة «اليمنيَّة»، تداهمني فجأةً كضوء آت من فنار بعيد. أتذكّرُ كم تعلّقتُ في طفولتي طويلاً بهذه القصّة، وكم كنتُ أتوسَّل أمّي آنذاك أن تعيدها على مسمعي مرارًا وتكرارًا من فرط ما كنتُ أسكرُ من سحر سماعها بصوتها الحنون. دعوني أتلوها لكم الآن:

كان يا ما كان، في قديم الزمان، في مدينة بعيدة من مدن الشرق المطمورة، عازفُ ناي يجلسُ كلّ ليلة مقمرة مُطرّزة بالنجوم، تحت نخلة وحيدة نائية، يعزفُ على نايه أنغامًا مملوءةً بالشجن والحنين، يناجي بها معشوقةً يحلمُ بها منذ أمد ولم يجدها أبدًا. كان أنينُ نايه يصعد من أحشاء وجدانه هائمًا صافيًا عميقًا. يزداد جمال عزفه مع مرور الليالي، ومع ازدياد لوعته ومكابداته وتأجُّج أشواقه.

في ليلة ما، توقّف فجأةً وهو يعزفُ أكثر ألحانه لوعةً وإتقانًا. ذُهِلَ، كما لم يُذهل ولن يُذهل بعد ذلك في حياته قط، وهو يرى حوريّةً يفوق جمالها جمال البشر، تتجلّى أمامه... تتوسّلُه أن يواصل عزفه، ثمّ تختفي بعد ذلك مباشرة!

تفجَّر عشقهُ لها على التو. كان عشقًا ضاريًا لا يضاهيه إلا عشقها له كما كشفته نظراتها الغارقة في الولع والتدلّه. ازدادت أنغام

نايه شاعريّةً وروعةً وكمالاً بعد ذلك. صار له في العزف مشروعٌ حقيقيّ، هدفٌ مقدَّس. ثمّ تعلّم كيف يتوقّفُ عن العزف عمداً في لحظات محدَّدة يختارها بذكاء، ليجبر حوريّته على الظهور أمامه، راجيةً منه أن يواصل نغمه...

عرف منها بعد أن تكرّر تجلّيها ومناجاتهما الخاطفة أنَّها جنيّةٌ مسلمة تحيا بجسد الإنس. طلب يدها للزواج. وافقت دون تردُّد. تزوَّجا بعد ذلك على سُنّة اللّه ورسوله. غير أنَّه بعد زواجهما وبدء حياتهما المشتركة، توقّف كلية عن العزف بالناي حتى آخر يومٍ من عمره!

هكذا، وجدت ملاذي في أتون الحكايات الآتية من عصور طفولتي السحيقة، من عصور هود وعاد ونوح، من عصور ما قبل التاريخ. وجدتُ ملاذي بالتحديد في ذلك العالم اللامرئي الشديد الخصوبة، المترعِ بكائنات ترانا ولا نراها، بحوريات ساحرات تناجينا بأصوات غير مسموعة، لا يفصلنا عنها غير جدارٍ رقيق لا تخترقهُ إلا الأنغام والكلمات والآهات ذات الذبذبات فوق الغرامية، فوق الورديّة، فوق الشاعريّة، فوق...

العوالمُ اللامرئيَّة، كما تعرفون، لم أنفك من التعلُّقِ والتتيّم بها. كنتُ ومازلتُ أعتقد أنَّ ثمة «سماء ثامنة» تسكنها كل مخلوقات الخيال البشري: شهرزاد، هاملت، كوزيت، إيما بوفاري، آنا كارانينا، دكتور جيفاكو، دافيد كوبرفيلد، طانيوس، وردة... لذلك لم أتوان

أبداً بخلق أميرات أحلامي: تيماء، نسرين... ليعاشرن مخلوقات السماء الثامنة. لكن مشكلتي الكبرى كانت دومًا أنّي أجهلُ كيف أحضرهنَّ لحياتي. تعلَّمت في فرنسا كيف أُجسِّدهنَّ على شاشة الكمبيوتر فقط، كيف أجعلهن يَسلنَ نهرين خالدين على أديمها الكريستالي الرقراق. كانت لحظات مفعمةً بالعنفوان والبهجة والحميميّة عندما كنتُ أراهنَّ أمامي على شاشة الكمبيوتر، لحظات لا تُنسى. لكنّها غير مجدية إطلاقًا على الصعيد العمليِّ لسوء الحظ. لأنّي لم أراهن على شاشة حياتي قطّ، لم أملأ خياشيمي الجائعة بروائحهن الزَّكية أبداً. غير أنَّ قصة أمي علَّمتني اليوم أنَّ ثمة ثقباً أو نفقًا يمكن شفط حوريَّات الخيال منه ليعشن في أرض الواقع. ثقبٌ اسمهُ: الناي، الأصابع! نعم، الأصابع! في هذا الثقب تحديداً وجدت القطعة المفقودة في لغز حياتي منذ أمد.

بدأت أتنفّس الصعداء قبل الوصول إلى مطار صنعاء. نفقي إليهنَّ سيكونُ حتمًا في صنعاء القديمة، القديمة جدًّا، المسكونة بكل أنواع الجنِّ والمخلوقات اللامرئية منذ أبد الآبدين. يكفي أن تنظر لِمعمار المدينة، لأسواقها، لتاريخها، لقصصها وحكاياتها، لأشكال وألقاب شيوخها وأئمتها السابقين للإمام «أحمد ياجنَّاه!» أو اللاحقين له، لكثير من بشرها... ليغمرك اليقين من أوَّل وهلة أنَّك في مدينة خرافيَّة نادرة، في عالم التاريخ الذي لا يندثر، في عالم آخر تملؤه الجنُّ والأشباح والمخلوقات النادرة.

أكثـر مـا أثارني وأنا أنتظر الحـقـائب في مطار صنعـاء هو ذلك الصـراخ المتمـيّز الكثـيف المتواصل، في فـضـاء مـتـجـمّـد بطيء فـاتر. أنعشني ذلك الضجيج في الدقـائق الأولى لأنَّني شعرتُ بفـضله أنَّني كنتُ في سبات شتويّ دام ١٥ سنة في سانت مالو. بعد خروجي من المطار مباشرة، سأجدُ ذبذبات نفس تلك الغوغاء المنعشة الدائمة في كلِّ مكان: في المطاعم الشعبيَّة، المخابز، الشوارع، الأسـواق، باب اليمن، ميكروفونات بعض المنابر... ستصيرُ مع مرور الأيام خانقةً لا تُطاق، قبل أن تتحوَّل كابوسًا يلاحقني ويرتبط في لاوعيي باسم صنعاء أبداً.

ما إن خرجتُ من المطار إلا وقد هاج بي الشوق لرؤية عاصمتي الجديدة التي لم أرها قبل هذا اليوم الذي أتجاوز فيه ال٣٥ سنة من العمر. سمعتُ كثيراً عن جمال صنعاء القديمة قبل ذلك. لذلك اخترتها لتكون مدينة عشقي بحوريَّة أحلامي التي أبحث عنها من فجر التاريخ، مدينة قصّة حُبّي الأكبر. شعرتُ بعظمة هذه اللحظة: سوف أشاهدها بعد لحظات، صنعائي القديمة، بعد طلوع هذا التاكسي الخصوصي الذي أخذته عند باب المطار، والذي كان، يلزمني القول، ميكروباصًا مخلوع الباب.

وجدتُ، منذ الثواني الأولى لتوجُّهي نحو التاكسي، تلك الغوغاءِ اللذيذةِ نفسها تحيطُ بي من كلّ جهة لسبب أجهلُهُ تمامًا. صعدتُ التاكسي في جوٍّ يخلو من اللطف والكياسة والجنتلمانيَّة

والرقّة. كنتُ سعيداً مع ذلك لأنّني بدأتُ حياتي الجديدة فعلاً. انطلق التاكسي الذي كان لخرير موتوره وتشقُّق زجاجه و«تنقُّف» صفائحه منظر غريب ومثير في عينيّ. مرّ، بعد أن تجاوز المطار بقليل، بطريق تتوسّطُ خلاءً تملؤه نفايات قادمة من المدينة. لم يساعدني بابُ التاكسي المخلوع على تجنُّب تلك الرائحة.

اقتربنا من العاصمة. شعرتُ بالاشمئزاز من عاصمتي الجديدة وأنا أرى كثيراً من السيّارات تنفثُ دخانًا كثيفًا لأنَّ موتوراتها عُدِّلت لتشتغل بنوع رخيص قذر من الديزل الممنوع دوليًّا. دخانٌ ثخينٌ نتنٌ أسودُ بلون سمك «الحبّار»، لا يوجد مثله إلا في الصومال فقط. أرعبني أن تمتلئ الطرقات بمصانع ثاني أكسيد الكربون، بِمطاحنِ فحمٍ متنقّلة تحوِّلُ الفضاء إلى مستنقعِ دخان. شعرتُ بالخجل أمام السائق لأنّني لم أكن متعوِّدًا مثلهُ أن أستنشق كميّات هائلة من ذلك الدخان، لا سيَّما عندما كانت تتقدَّمُنا لدقائق طويلة شاحنة أو حافلة أو قاطرة، أو سيّارة قديمة عُدِّلت ماكنتها ككثير من سيَّارات صنعاء.

السوادُ يحتلُّ كلَّ عاصمتي الجديدة. النساء مكوَّرات داخل عبايات سوداء قاتمة. لم أر مثل هذا السواد الكامل الشامل في أي مكان. فاجأني حقًا أنا الذي توقّفت معرفتي بنساء اليمن في نهاية السبعينيات التي كانت المرأةُ العدنيَّةُ خلالها سافرةً غالبًا. لم أر سوادًا يطمُّ النساء في أي مكان آخر في هذه الدنيا بهذه الدرجة المرعبة. شعرتُ بالهلعِ حقًّا وأنا أراهُنّ في كلِّ مكان مكفَّنات بأغطية من

دخـان. بدأتُ أخـشى هذه المدينة المحنّطة بالسـواد، وأنا أدركُ أنَّني سـأَطلي رئتيّ يوميًّـا بهوائِهـا الملوَّثِ الخـانق، وسـأُكحِّلُ عـينيّ بسـواد نسائها المدلهمِّ المريع...

ما إن ولجنا صنعاء وشوارعها الشعبيَّة حتى توقّف التاكسي فجأة إِثر «تَبَنشُر»، تفرقُع، إحدى عجلاته. أخبرني السائق الطيّب أنَّ ذلك عاديٌّ جداً في شوارع مُهشّمة كشوارع صنعاء، وبعجلات قديمة متآكلة كعجلات معظم سيّاراتها، وأنَّه يحتاجُ لدقائق فقط لتضميد وتعبئة العجلة عند أوَّل مهندس سيّارات. لتنشيط أنسجة أقدامي قليلاً، خرجتُ من التاكسي عندما بدأ السائقُ والمهندسُ ينكبَّان على إِصلاح عجلته. مشيتُ خطوتينِ في كلِّ الاتجاهات، نظرتُ بلهفة للمطاعم الشعبيَّة أمامي، لطبّاخي خبز «الطاوة»، للعصائر والروائح التي فقدتها منذ دهر وهاأنذا أعود إليها... ما أجمل أن ترى، بعد حوالى ١٥ عاماً من الانقطاع الكامل، مطاعم وحوانيت طفولتك! ما ألذَّ أن تستعيد خياشيمك تلك الروائح التي فقدتها منذ أكثر من دهر!

توقَّف أمامي في تلك اللحظات الحالمة رجل نحيف لطيف القسمات تجاوز الثلاثين من العمر، متناثر الشعر كثيف اللحية، بمعطف صدئ يصلُ حتى عرقوب الرجل، وبأسمال متداخلة متعدِّدة، تخرجُ من كلِّ مكان، مُدخَّنة جداً كأنَّها لم تُغسل من عهد عاد. ابتسم بوجهي ابتسامةً واسعة أخذت مساحةً واسعة في خارطة وجهه

الضامر ذي الأوداج المُقعَّرة. أخرج معظم لسانه، على غرار صورة آينشتاين الشهيرة التي يُخرج فيها لسانه «مُلاوقًا». ثمّ طواها لتصير ملفوفةً كنفقٍ أو أنبوبة. لعلّ أعصاب وجهِه كانت دائخة، مُفكّكة، غير مترابطة، إذ لم يكن سهلاً، كما ستلاحظون لو جرَّبتم ذلك بأنفسكم، أن يُخرجَ المرءُ لسانهُ من فمه عموديًّا مضمومًا مطويًّا كأنبوبة، ويحافظ على ابتسامة عريضة كاسحة في الوقت نفسه.

كان وجهه ثابتًا على بعد سنتمترات قليلة من وجهي. حاولتُ الابتعاد قليلاً. اقترب وجهه من وجهِي مُحافظًا على المسافة نفسها. استدرتُ يمينًا. استدار يمينًا محافظًا على المسافة نفسها التي تبعد وجهه عن وجهي، على الابتسامة المطبوعة نفسها، على النظرات الضائعة نفسها في عالم آخر، على الابتسامة العريضة نفسها واللسان الملفوف كنفق. استدرتُ يسارًا، استدار يسارًا بالطريقة نفسها. هبطت قليلاً، تبعني بالمنوال نفسه...

ما العمل؟ يصعبُ الاشتباك مع مخبول باسم شديد البراءة كامل الجُنان لا سيَّما إذا كان بهذه الطيبة والسلميّة. يصعبُ دفعه أو الصراخ بوجهه. استدرتُ للخلف لأعطيه ظهري. هاهو من جديد أمامي يرفض أن يتزحزح. لم أرد الهروب أو الجري حتى لا أثير تدخُّل المارة والمقرفصين على أرض الشارع، وأجد نفسي وسط حشد مشدود يصفِّقُ إعجابًا بكوميديّين يتحرّكان بالطريقة نفسها وكأن أحدهما ظلٌّ للآخر. نظرتُ للمهندس والسائق مستجديًا أن يعيدا عجلة السيّارة لموضعها بأسرع ما يمكن.

تذكّرتُ ما كنتُ قد سمعته أكثر من مرّة حول نسبة عدد المجانين في صنعاء التي تفوق أي مدينة يمنية أخرى وأي مدينة في العالم. اقتنعتُ حينها أنَّ ثمّة علاقة لحميّة بين صنعاء والجن: بسبب نسبة عدد المجانين فيها أوّلاً، ثمّ بسبب هذا الدخان ثانيًا، لأنّي أتذكّرُ، من قصص أمي في المهد ومن قراءاتي القديمة لبعض كتب التراث والتاريخ، أنَّ الدّخان يُستخدم كثيرًا في سجون الجنّ كوسيلة تقليديَّة للتعذيب اليوميّ... أيقنت فعلاً أن عاصمتي سجن كبير للجنّ، مدينة مسكونة بكلِّ أنواع الجنّ، ناهيك أنَّه يردَّد فيها: «جُنان يُخارجك ولا عقل يُحنْبَك»[1] و«خذوا الحكمة من أفواه المجانين»... ولأنَّ «الحكمة يمانية» كما يقال، فقد اكتملت في عاصمتي دائرةُ الحكمة وانغلق محيطها تمامًا.

شعرتُ بثقة مطلقة بعد ذلك أنَّ صنعاء لا تفصِلُها إلا خطوةٌ صغيرة عن عوالم الجن والمخلوقات اللامرئيَّة: مدينة تستقبلك بهذا الكائن المذهل الآتي من كوكبٍ آخر، يمكنها أن تفاجئُك بحوريّةٍ لا يخطرُ جمالُها على بال! رثيتُ مع ذلك الجنَّ الذين يحيون في سِجنِها الكبير وأنا أستنشقُ هواءها الخانق، الفقير بالأوكسجين، الغنيَّ بالدّخان والغبار الدائم. تعاطفتُ كثيرًا معهم، هذا وأنا لم أُصاهرهم بعد.

رثيتهم أكثر عندما علمتُ أن صنعاء مدينة ذات مياه شرب ملوَّثة، مهدّدةٌ بانعدام مياهها الجوفيّة قريبًا. وأنها، بسبب خُلوِّها من

---

١ ـ جُنان يُنقِذك ولا عقل يُورِّطك.

المجاري الحديثة وبسببِ تكديسِ مخلّفاتِها في حُفرٍ أسفل البيوت، تسبحُ فوق بحيرة ضخمة من البالوعات منذ «عهد ما بعد الطوفان». خفتُ عليهم من طوفان جديد يأتي هذه المرّة من أسفل المدينة. طوفان يُنذر بوجوده كلَّ يومٍ عندما تتسرَّبُ منه، بين الفينة والفينة، روائح تصل أحيانًا إلى المطابخ وغرف الاستقبال... يضطرُّ حينها سكانُ صنعاء الطيّبون جدًّا، المساكين جدًّا، إلى إشعال البخور لتمويه ما يستطيعون تمويههُ من تلك الرائحة.

رثيتُ الجنَّ حقًّا وهم يسكنون مدينة تطفو بين الدخان والبالوعات. لكنِّي كنتُ في غاية السرور في الوقت نفسه لأنّي شعرتُ أنَّ موعدي مع أجمل حوريات الجنّ سيكون فعلًا في هذه المدينة المسكونة بكلِّ أنواع الكائنات اللامرئيّة. في هذه المدينة الساحرة.

الساحرة حقًّا! كما بدت لي بعد عودة السيّارة للحركة من جديد وانتهائها من عبور شارع تعز، وانعطافها يسارا قرب «باب اليمن» باتجاه «ميدان التحرير» الذي ساسكنُ في فندق فيه لأكون قرب صنعاء القديمة، كما طلبتُ من السائق حال مغادرة المطار.

ملأني الإعجاب الآسر بفنِّ بناء عمارات صنعاء القديمة، بلونها الترابيِّ الأمغر، بالخطوط البيضاء التي تزخرف واجهاتها ومحيطات نوافذها، بـ«قمريّاتها» البديعة، بسقوفها العالية التي تبزغ منها في هذا الركن أو ذاك غرف مفاجئة للعين، بسُورها وبابها المهيبين، بتداخل عماراتها بعشوائية جميلة... كنتُ فخورًا حقًّا بهذه

العمارات وتصميمِها المتناغم. كم هي تحفةٌ نادرةٌ صنعاء القديمة في هذا الزمن الذي صارت معظم عواصم الشرق، من اسطنبول ودمشق إلى الدار البيضاء، ومن الإسكندرية إلى دار السلام... مساحات كئيبةً تجثمُ عليها كتلٌ إسمنتية صمّاء شبيهةٌ بعلب كبريت متراصّة تُكرِّرُ بعضها بقبح يثير التقززُ!

تحفةٌ حقًّا هي صنعاء القديمة! كم ندمتُ أنَّها لا تلامس البحر! يلزمُ لهذه المدينة بحرٌ عارمٌ تنتهي أمواجه عند موقع سورها الحالي، بحر هائج يبتلع كلَّ هذه الجبال الجَلِفَة، يلغي كل هذه الطلفسات التي تتناثر قربها: شوارع تعز، الزبيري، حدّة، التحرير، هائل.... يلزمها بحر بلون زمرُّديٍّ أو فيروزيٍّ يتناغم مع لونيها الأبيض والترابي الأمغر...

عندما وصلنا شارع التحرير طلبتُ من السائق أن يتركني في فندق نظيف بنمط صنعانيٍّ قديم، أستطيعُ أن أرى من نافذته صنعاء القديمة ليل نهار. تركني أمام عمارة تقليديَّة جميلة في نهاية شارع المحافظة المحاذي للمتحف الوطني.

توجَّهت نحو مكتب استقبال الفندق. قابلتني موظّفة ملثّمة بالعباءة السوداء من أقصى الرأس إلى أخمص القدمين. حتى عيناها كانتا مخفيَّتين تمامًا وراء نقاب سميك أسود. ثمّة فقط ثقبان ميكروسكوبيان أمام بؤبؤي عينيها ينحشرُ عبرهما كلُّ العالم الخارجيّ، كلُّ جهات الكون الأربع.

شعرت بالقلق، لم أواجه طوال حياتي جسداً بهذه الظلمة. لستُ أدري إن كنتُ أمام شبح أو رجل أو امرأة أو ضبع أو عفريت... طلبتُ منها غرفةً في دور عال أستطيعُ من نافذتها رؤية صنعاء القديمة. هزّت رأسها دون أن تلفظ حرفًا. كتبت فوق ورقة رقمًا استنتجتُ أنَّه رقم الغرفة. تركت أمامي مفتاحًا استنتجتُ أنَّه مفتاح الغرفة. كانت أصابعها محاطة بقفاز سميك أسود. شعرت بالشكّ من هويّتها، وبنوع من الارتباك والامتعاض والتكدُّر. ترحّمتُ لها إن كانت فتاةً حقًّا، رثيتُها كثيراً.

لم أفهم إن كانت خرساء، أو رجلاً مُلثّما هاربا من العدالة، أو سلفيّةً تعتبرُ صوتها، بياض عينيها، نخاعها الشوكيّ، غدّتها الدرقية، أنزيماتها المعديَّة، أصبعها الزائدة... عورةً أمام الرجل. صرتُ معقّداً منها ومن الفندق. لم يكن مشجِّعًا جدًّا أن يستهلّ حياته، من جاء يبحثُ عن معشوقةِ عمرِه في صنعاء، بهذا الحديث غير الغنيّ جدًّا مع أوَّل ممثلة يقابلها من الجنس «الرقيق». بالطبع، أقصدُ «الرقيق» بالمدلول الرومانسي المتداول لهذه الكلمة، وليس بمدلول «المُستعبد» كما هو الحال عمليًّا في عاصمتي الحبيبة.

صعدت إلى غرفتي. توجّهت إلى نافذتها لأطمئن أنَّها مواجهةٌ لصنعاء القديمة. ملأتُ عينيّ برؤية أعالي عماراتها قبل أن أسترخي قليلاً على السرير لتبديد شيء من إنهاك السفر.

استعدتُ منظر موظفة الفندق التي أعطتني مفتاح الغرفة. لماذا هي مكسوَّةٌ تمامًا بهذا الشكل المرعب؟ من هي حقًّا؟ هل بناتُ الجنِّ

المؤنسنات يلبسن مثل هذه العباءات المنغلقة تمامًا؟ لماذا لم أسمع حتى صوتها؟... قلتُ لنفسي: لعلّ بنات العالم اللامرئي، بنات «السماء الثامنة»، حوريّات «ألف ليلة وليلة» اللواتي أبحث عنهن، لعلّهنّ يعشن في هذه المدينة مُلَثّمات بتلك العباءة نفسها والنقاب الأسودين اللذين رأيتهما على صاحبة الفندق.

لم أعُد أتصوَّرُ منذ أوَّل يومٍ لي في صنعاء حوريَّة أحلامي إلا بمثلِ تلك العباءة وذلك النقاب. لم أكن مخطئًا لأنَّها ستكون فعلاً كذلك تلكَ الآتية من مملكة الظلال الجميلة الواقعة وراء دروب النهايات: أريج مرجان!

الفصل الثاني
أريج مرجان

بعد وصولي إلى الفندق بقليل شعرت بالجوع. كانت الساعة تقترب من الثامنة مساءً. اغتسلتُ بماء بارد لأنَّ سخَّان الماء في الفندق كان عاطلاً أو لا يشتغل إلا بشحَّة وصعوبة. لبستُ أفضل بنطلوناتي (بنطلونًا من ماركة بيير كاردان، فاتح اللون، اشتريتُه قبل مغادرة فرنسا بيوم واحد، وقرّرتُ أن ألبسهُ أوَّل ليلة في صنعاء، ثمّ أحفظهُ جانبًا لأوَّل لقاءٍ لي بمعبودة العمر...) لبستُ أيضًا أجمل قمصاني: قميصًا من الحرير بلونٍ برتقالي وبموتيفات شرق آسيويَّة جميلة جدًّا يمتزج فيه اللون الأرجواني بالأسود والورديّ الغامق.

غادرتُ غرفتي. رمقتُ مكتب الاستقبال. لم تكن الموظّفةُ في مكتبها. كان هناك شاب لطيف مبتسم في موقعها. استنتجتُ أنّها غادرت الفندق بعد أن أنهت نوبتها.

عبرتُ شارع المحافظة باتجاه وسط ميدان التحرير. درّاجات ناريّة، تُستخدَمُ كتاكسيات، ترتصُّ كقطيع ذئاب على طول ذلك الشارع الضيِّق، يقودُها جياع، لحمل ركّاب جياع، للتوجُّه لمنازل جائعة، في مدينة جائعة تنهبها حيتان لا تشبعُ أبداً. معاطف وقمصان رثّةٌ منهكةٌ جدًّا على سائقي تلك التاكسيات، مضمّخةٌ بروائح دُخان درّاجاتهم النارية ذات الديزل النتن نفسه الذي بدأ يخنقني من أوّل ليلة لي في مدينة أحلامي. رثيتُ كثيراً زوجات سائقي تلك الدرّاجات النارية.

وصلتُ «الجولة» التي ينتهي عندها شارع المحافظة الذي صرتُ أعبره يوميًّا عدّة مرّات، أحاذي في كلِّ مرّة زبالات «كُدّافته» الفاغرة الفاه، حانوت سمك ومجزرة قويّي الرائحة، وأشلاء كلب ميّت منذ أيام في وسط الطريق.

توجّهتُ نحو مطاعم وسط «التحرير»، المسمّاة «مطاعم العدنيّين». وجدتُ فيها وجبات طفولتي التي اشتقتُ لها بشكل لا يوصف: خبز «الطاوة»، خمير «المقصقص»، صحن «المخ» بطريقة طباخته العدنيّة العريقة نفسها، وبكتلته الكرويّة الهلاميّة الرخوة المقليّة بالتوابل والكزبرة نفسها...

جلستُ سعيداً جدًّا في أحد تلك المطاعم. أمامي كأسُ شاي مُركَّز: «دبل نُص»، بالحليب والجوز والهيل شربتهُ متغزِّلاً. بانتظار مجيء الصحون المتنوِّعة التي طلبتُها من نادل المطعم، مكثتُ أحدِّق بالمارة علِّي أتعرّف على وجه صديق قديم. تُهتُ بالحملقة في ملامح أوجه شعب افتقده ناظري منذ ١٥ سنة.

للجدران لون شاحب يميلُ للسواد غالبًا. لعلّ البشر يشيخون هنا بسرعة تتجاوزُ سرعة الزمن البيولوجي، إن لم يولدوا شيوخًا في بعض الأحيان. لمعظم المارّة في هذه الشوارع أسمال مهلهلة، نظرات ميّتة، أو نظراتٌ انتظار شيء ما يشبه الكارثة. تمتلئُ حواشي المطعم وأركان الشوارع المجاورة بالمدوِّخين، بالشحّاتين، بالمجانين، بالجياع... تشعرُ أنَّ كلّ شارعٍ هنا يجاور نهاية العالم، يفضي إلى مملكة الموتى.

جاء النادلُ بالوجبات الصغيرة الكثيرة التي طلبتُها دفعةً واحدة. لعلّهُ افترض أنَّني أخرج على التو من إضراب عن الطعام دام ١٥ سنة. وَثبتُ لافتراسها كضبع جائع. أثارت انتباهي، وأنا أتوغّلُ في كومة المخ، قطرةٌ ديزليّة سوداء داكنة سقطت قرب صحن «خبز الطاوة» من أنبوبة صدئة طويلة تمتدُّ على سقف المطعم وتنتهي عند المطبخ. قطرةٌ أخرى لحقتها بعد لحظات من ذلك. ثمّة ثقب صغير في أنبوبة السقف يُنطِّفُ على المنضدة.

اللعنة! لاحظتُ قطرتين داكنتين، من ذلك اللون الديزليِّ الأبديِّ الالتصاق نفسه، على الفخذ الأيمن من بنطلوني الأبيض الفاتح، سقطتا دون أن أشعر، عندما كنتُ أحدّقُ في أوجه المارَّة. شعرتُ بقرف وسخط وكآبة شرخت كلّ سعادتي. نظرتُ بحزن لهاتين القطرتين القذرتين الداكنتين على أثمن وأجمل بنطلون خصّصتهُ لأقدس موعد... آه، إنه القضاء والقدر! لو جلستُ سنتمترات فقط على يسار موقعي الحالي في المطعم أو على يمينه لما قضى نحبهُ

بنطلوني الأثير. عليّ أن أحترم القضاء والقدر كثيراً في هذا البلد. كثيراً جداً. توقّفت رغبتي في الأكل تماماً.

عدتُ أهرعُ نحو الفندق آملاً أن يساعدني موظّفهُ الطيّب على اقتلاع قطرتي الدم الأسود الملتصقتين ببنطلوني. عندما رأى الموَظّف العزيز لون القطرتين قال لي، وهو يمطمطُ شفتيه في كلّ الاتجاهات، إن عليّ أن أقرأ الفاتحة على بنطلوني. نعيتهُ، بنطلوني الجريح، وأنا أصعد نحو غرفتي. تمتمتُ في رأسي عبارات كثيرة، أتذكّرُ منها: ١) رحمهُ الله، سقط صريعاً، وافتْهُ المنيّة! ٢) يجبُ القبولُ بالقضاء والقدر دون امتعاض في هذا البلد. ٣) ومن لم يمُت بالسيف مات بغيره، تعدّدت الأسباب والموت واحد...

خلعته متحسّراً مع ذلك. حاولتُ الاسترخاء لنسيان كلّ مُنغّصات يوم لقائي هذا بعاصمتي الجديدة. استعدتُ شريط الرحلة في الطائرة. حكاية الناي. شعرتُ برغبة حادّة وإرادة مفاجئة في أن أتعلّم العزف بالناي. قلتُ بصوت من حديد: سأتعلّمُ كيف أعزفُ أشواقي وآهاتي أنغاماً أذيب بها القلوب. ستخرجُ لسماعها معشوقتي من غياهب العدم!

شعرتُ أنّ حكاية الناي تُلخّص كلّ إشكالية «ألف ليلة وليلة»: أليس الفن وحده (النغم في حكاية الناي، الكلمةُ في «ألف ليلة وليلة») أقوى الوسائل لإخضاع ما لا يخضع، لإركاعِ المارد، لجذبِ الهارب، لكسر الحدود؟ ألم يستطع عازفُ الناي الولهان أن يجذب

رويداً رويداً، بعبقرية ترنيماته، معبودتهُ الساكنة في كوكب آخر، مثلما استطاعت شهرزاد أن تُحوِّل ليلةً بعد ليلة، بعبقرية الكلمة، شهريار لمخلوق آخر؟...

لم يزعجني في حكاية الناي إلا توقُّف عازفه عن لمسه بعد الزواج، وكأنَّ الزواج، كما يقول الكثيرون، نهاية للإبداع، نقيض له. رفضتُ ذلك تمامًا. في حالتي، سيكون الزواج أعلى مراحل الإبداع إطلاقًا! تحوّلَ رأسي حينها مرقصًا للآمال. بدأتُ أشعر أنّني أقتربُ من النفَق! أيقنتُ أنَّني تغيّرتُ كثيرًا في صنعاء: صرتُ باطنيًّا ألتقطُ إشارات القدر سريعًا بعد أن كنتُ واقعيًّا شديد البطء في فرنسا، بعد أن كنتُ فيها «رجل المواعيد الضائعة»...

بدأتُ أرسمها في مخيّلتي، معبودتي المنتظرة. كان عليّ أن أُطْلِقَ لها اسمًا قبل كلِّ شيء. بعد تفكير طويل وجدتُ مرامي: أريج مرجان! أريج: إسم طازج عبق عطر الرائحة، يرجُّ فيه حرف الجيم الكثير الرواج في أوساط أسماء الجنّ. مرجان: اسمٌ من أنبل أسماء عائلات الجنّ، حسب نظريات والدتي المتضلّعة في معرفة عادات وتقاليد الجان. ناهيك أنَّ ثمة تناغمًا عميقًا بين اسمها: أريج مرجان، واسمي: وجدان قحطان! إلهي لا ينقصني الآن إلا أن تحمل معشوقتي المنتظرة هذا الاسم لا غير.

تذكّرتُ أمي وأبي اللذين قطعتُ أخباري عنهما، لا سيَّما في السنين الأخيرة من انعزالي في سانت مالو، واللذين لا يعرفان بعد أنَّني وصلتُ صنعاء! أتذكَّرُ كم كنتُ في تلك السنين الأخيرة لا أطيق

قضاء ثانية في التلفون أسمعُ فيها أُمِّي تستجديني بالعودة سريعًا من فرنسا، وتُبشِّرني بأنَّها وجدت لي خطيبةً من بنات الحلال، وأنَّها رتّبت كل ما يلزم لِزواجنا وعيشنا معها في المنزل نفسه... لم أَعد أستطيعُ مع مرور الزمن تحمّل سماع أُمِّي تتحدَّثُ في مواضيع كهذه. آه، لو عرفت ذلك أُمِّي الغالية!

كان انقطاعي عنهما كارثةً مع ذلك، ليس لكوني طفلهما الوحيد الذي أنجباهُ بصعوبة، بل لأنَّهما، لا سيَّما والدتي، لا يتحمّلان عدم الجثمان على حياتي في كلِّ ثانية، كما حكيتُ لكم كلّ ذلك في بداية سردي لأيّام طفولتي الأولى في تنزانيا وشارع دغبوس. والدتي تعزو عدم عودتي إليها إلى مؤامرة حاكتها ضدّها كلُّ شياطين الأرض والسماء. أما والدي فقد صار كهلاً متعبًا غير قادر حتى على الذهاب لمسجد دغبوس في ركن الشارع...

صرتُ حائرًا محرجًا لا أدري كيف سيستقبلان الخبر إذا عرفا أنَّني موجود في صنعاء ولم أبشِّرهما بذلك قبل أشهر من وصولي. لا أستوعبُ أنا نفسي أنَّني لم أرهما بعد، ولا أتصوَّرُ أنَّني لم أخبرهما بعد بوجودي هنا في صنعاء، على بعد مئات قليلة من الكيلومترات من شارع دغبوس! قرّرتُ مع ذلك أن لا أتَّصل بهما قبل رؤية أريج، لأبشِّرهما بمفاجأتين: أريج، وعودتي من فرنسا!

حاولتُ كعادتي تناسي معاناتهما بضخِّهما بأرتال كثيفة من الدعوات المباركات الصالحات بالصحة والعافية وطول العمر... كان يريحُ ضميري دومًا أن أغمرهما بدعوات كريمة دسمة جدًّا، أهربُ

بفضلها من متاهات التفكير بأزمة علاقتي بهما. احتلّت أريجُ كلَّ مخيلتي. هي، لم أُصمِّمها في مخيلتي مثل معشوقاتي الافتراضيات منذ مطاعم فيشي، وحتى تيماء. هي، كما قرَّر القدر، ستنبثقُ من أديم الواقع، في ركن ما في صنعاء القديمة! ستتجلّى أمامي في خمارٍ حضرميٍّ بدويٍّ أسود! يكفي أن أرى عينيها السوداوين القاتلتين تُطلان من شرفتي ذلك الخمار وهما تتوّجان السلك الذهبي، «العواشة»، الذي تضعهُ البدويّات فوق النقاب على الأنف مباشرة، لأشعر برجفة في القلب ورعشة في الشرايين.

أريج آتية لصنعاء من أطراف حضرموت. ستكون داخل ثوبها البدويّ الأسود رشيقةً بمقاييس ملكة جمال. لثغرها حلاوةُ تمر النخيلِ الحضرمي في موسم «البلدة»، موسم خريف التّمر. للعابها طعمُ شَهد «البُغية» الدوعنيِّ الفاخر. لوجهها صفاءُ ضياء سماء وادي حضرموت في نهاية العصر...

وُلِدت أريج في إحدى أقدم مدن اليمن وأكثرها إثارةً وغرائبيّة: مدينة هود! قطعة حيّة نادرة من عصور ما قبل التاريخ! تلوح لك تلك المدينة فجأة بعد رحلة طويلة في طرق صخريّة وعرة في غاية العذريّة والجمال. تبدأُ تلك الرحلة بعد مدينتي شبام وسيئون الميثولوجيتين اللتين تهامسك طوباتُ «مدرٍ» بيوتهما الطينية المذهلة الجمال والاتسّاق بأنك تبدأُ السفر في عالمٍ آخر. ثمّ تليهما مدينة تريم، ذات القصور الساحرة التي يكفي أن ترى كيف أمست اليوم أنقاضًا وخرائب لتعرف أنّك في بلد يُعشِّشُ في رأسه الخراب، في بلد يصنعُ

الخراب، يعبدُ الخراب، يُقدِّس الخراب... تتقدّمُ الرحلة بعد ذلك مُحاذيةً لمدينة عينات: مدينة «القبور السبعة»، ثمّ تَلجُ في عمق بادية عذريّة تنام تحت الشمس كما خلقها الله في الزمن الأول... لعلَّ لهذه البادية عينها ذلك الاسمُ الميثولوجي الذي يملأ الفم: الأحقاف، إسمٌ بأحرف هجاء فاقعة همجيّة، أشعرُ حين سماعها بريح صرصر عاتية من التساؤلات والرهبة. إسمٌ برائحة مخاضِ الأرضِ وساعات ولادتها الأولى. اسمٌ ينتصُّ على هودجٍ من أساطير، له نبراتٌ بروائح جبل قاف، بحر الظلمات، ياجوج وماجوج، حرب طالوت وجالوت...

بعد ساعات من تلك الرحلة الوعرة، تفاجئُك مدينة مملوءة بمنازل جميلة متينة لا يسكنها أحد! مئات من المنازل الواسعة الخالية المهجورة تمامًا. لا إنسان هنالك قط، غير حارس واحد لكل تلك المدينة الجميلة! أليست المدن والمنازل المهجورة أكثرَ أماكن تواجد الجن؟

على أكمة جبل، يسمُّونه «جبل عاد وثمود»، تتكئُ عليه هذه المدينة الصاعدة من قاع الأساطير، يقعُ مسجد وضريح يسمُّونهُ «مسجد وضريح النبي هود»! ترمي بك مناظر هذه الأفياء الجبليّة العذراء في بيئة ومناخات حياة رعاة ماقبل التاريخ، حُكماء أزمنة طفولة الأرض، أنبياء العصور البائدة... لا يمكنك إلا أن تراهم يفترشون هذه القفار، يعبرون هذه الديار، يلتحفون هذا التراب. لا يمكنك إلا أن تراهم أمامك في كلِّ مكان.

تتحوَّلُ هذه المدينة المهجورة، خلال بداية شهر شعبان من كلِّ سنة، إلى مدينة مملوءة بعشرات الآلاف من البشر، يأتي بعضهم إليها من بلدان بعيدة أحيانًا، لزيارة «قبر النبي هود»، كما يقولون، لزيارةِ حفرة واسعة عليها شكلٌ يشبه خمسة أصابع بحجم خياليٍّ يسمّونها «موضع رجل النبي هود»، لزيارة موضع انبثاق «ناقة النبي صالح» من صخرةٍ على مدخل ذلك المسجد، أسفل الجبل... ثم تظلُّ هذه المدينة الخياليَّة ـ الحقيقيَّة فارغةً من السكان طوال السنة، إلا من حارس وحيد!

لا يهمُّني إذا لم يكن هناك إجماعٌ على هويّةِ ذلك القبر، أو إذا كان هناك قبر آخر للنبي هود، كما يُقال، في مدينة النجف العراقيَّة مثلاً، وربما قبور أخرى في مدن أخرى، منها دمشق، كما يقول البعض أيضًا، أو إن لم يكن هناك قبر معروف لأحد، شأن غالبية الأسماء الآتية من عصور سحيقة. لا يهمني هنا التاريخ بمعناه العلمي إطلاقًا. أُفضِّل الخيال والأساطير على العلم والتاريخ. أُفضِّل أجدادنا الأُول كما تُقدِّمهم الخرافات: عمالقةٌ إذا قاموا حجبوا الشمس عن الأرض، على أجدادنا الأُوَل كما يقدِّمهُم العلم والتاريخ: قصار، منكوبون، ضعافٌ، منهكون، يتقاذفهمُ الرعب بين ضباع الأرض وكوارث الطبيعة... أكرهُ موضوعية العلم وصدقه، أشعرُ دومًا بالقرف والإحباط أمام عزوفه عن المبالغة والتعظيم والعنتريات التي تُدغدغُنا وتُخدِّرنا تمامًا نحن أبناء هذه الديار الذين رضعنا الأوهام والخرافات مع حليب الأم، مع أولى القصص والحكايات. أُفضِّل مدن الخيال التي تصنع

الشعراء والأنبياء والخواتم السحريّة وعشّاق النجوم، على مدن العلم التي تصنعُ مهندسي الجينات والإلكترونيَّات، صُنّاع الطاقة الذرّية، الكمبيوترات، وروَّاد الفضاء. . .

اخترت هذه المدينة الأسطوريَّة النادرة لتكون مسقط رأس أريج إذا شاء القضاء والقدر. هكذا، سأعرفُ عبر أريج تاريخ العصور الغابرة والعوالم المندثرة، تاريخ ما قبل التاريخ! لأن ذاكرة الجنّ، كما يقولون، لا تذبل! مقارنةً بذاكرتهم. ذاكرتُنا نحن معشر الإنس (هذا إذا لم أكن أنا أيضًا جِنِّيًّا بِجسدِ ابن آدم!)، أشبهُ بذاكرة السمكة التي لا تتجاوز الثواني الثلاث فقط، كما يقول العلم الذي لا يميل كثيراً للمبالغة والإطناب. أيُّ شيء أعظم من معرفة ذاكرةِ البدءِ والتكوين! ذاكرة ما قبل نشأة الخليقة!. . . يا للروعة، لكن كلُّ حرماني من معشوقة العمر، طوال كلّ هذه السنوات التي ضاعت من عمري هباءً منثوراً، أضحيةً من أجل عيني أريج، من أجل معرفة أسرار البدء والتكوين، أسرارِ الأجداد الأول، أعظم الأسرار!

شبَّت أريج بعد ذلك في وادي دوعن، في مدينة ريبون الأثريَّة التي أينعت فيها حضارات عريقة. كانت راعيةً في تلك المدينة. راعية ظباء وحمل وماعز. تجوبُ مع قطيعِ أطلائها بين أشجار الإثل والدوم ونخيل التمر. تهيمُ معهم في شعاب الوادي قرب ينابيعه وشلاَّلاته. ما أعذبها، بجوار سرب أطلائها ذات البياض النقيِّ الناعم، في خمارها الأسود، وثوبها الذي يخفي جسداً رقيقًا رشيقًا بمقاييس جماليَّة ساحرة!. . . آه، بدأتُ أشعر بالراحة في صنعاء وأنا أعاشر في مخيّلتي

أبو عبدو البغل

الظبـاء والحـمل والماعـز بدلاً من شـاشـات الكـمـبـيـوتر و« مـاوراء النمذجة »! . . . كم كنتُ صائبًا عندما طلّقتُ بالثلاث تلك الشاشات التي رميتها من الدور الخامس في العمارة الجامعيّة في سانت مالو نحو أقدام سنديان الغابة، قربانًا لهذه السعادة الحقيقية التي « تنهضُ أطلاؤها » في مُخيِّلتي « من كلِّ مِجثمِ »، كما يقول الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى!

أريج، كما تخيَّلتها، رومانسيةٌ مثلي. تنتظرّ معشوقها القدريَّ منذ أمد، تنتظر نغمًا موسيقيًّا سرّيًّا يبعثه لها من عالم البشر. ستعرفُه به، وبه وحده. سيتعانقان عناقًا طويلاً ليلة لقائهما الأول، عناقًا بطُول قرون حرمانهما من بعضهما . . . سيتزوجان على سنّة الله ورسوله، سيُقضِّيان شهر عسلهما في أودية حضرموت، في باديتها، في واحاتها الوارفة الظلِّ ذات العيون و« الغيول » والشلالات المتفجّرة . . . سيعبران فوق صهوتي حصانين عربيين، وكأنهما في أحَد أفلام رعاة البقر الأمريكية، جبال حضرموت التي خلقها الله بقمم مُسطَّحة أفقية مستوية، وكأنَّها قُصَّت من الوسط بسيف كونيٍّ لتكون فراشًا لعاشقين يهيمان فوقها بحصانين يتمخطران بحريّة وكبرياء.

شعرتُ فجأة، وأنا أسرحُ مع أريج في جبال حضرموت، بما يشبه الصدمة! قلتُ لنفسي: كيف لي أن أعزف على الناي أنا الذي كنتُ دومًا أرعن اليدين، خشبيَّ الأصابع، ضيّق الرئتين، لا أعرفُ حتى ضمَّ شفتيّ للتصفير مثل أطفال الشارع؟ ألم أكره بسبب رعونتي وعدم ميلي لأي عملٍ يدويٍّ كان، دراسة علوم الفيزياء والكيمياء التي

تتطلب القياس والتجريب العملي والخضوع لقوانين الطبيعة؟ ثمة مواهبُ، كالعزف الموسيقي، لا تورقُ، إن كان لها أن تورق، إلا إذا اعتجنت منذ المهد بإنزيمات خلايا الأصابع واعشوشبت في «صندوق طبلة الأذن»: قانون بيولوجيّ خالص. أليس من المستحيل لطفل عاش السنوات الأولى من حياته في غابة لم ير فيها إنسانًا أن يتعلّم بعد ذلك لغة وكلام البشر؟

تساءلت إن لم أكن مثل جحا عندما أهداهُ أحدهم قنينة عسل. سرَّ بها كثيراً، علَّقها على الجدار، وجلس تحتها يبني لنفسه قصوراً من الأحلام: يبيع القنينة ليشتري شيئًا أثمن منها، يبيعه أيضًا ليشتري شيئًا أثمن منه... لينتهي في نهاية المطاف بثروة هائلة وقصور شامخة وزوجات جميلات وبنين مهذَّبين... يكفي أن لا يطيعهُ أحدُ بنيه مرّةً واحدة فقط ليضربهُ بالعصا... حينها، قام جحا، رفع عصاه ليحاكي كيف سيضرب طفلاً افتراضيًّا يتجرأُ على عصيانه! كسر إثر ذلك قنِّينتهُ المعلّقة أعلى ظهره!

قلتُ لنفسي: لعلِّي مثل جحا تمامًا، أَبني قصوراً في الرملِ وأنا لم أضمن بعد أنَّني سوف أستطيع العزف على الناي! بل لن أضمن ذلك أبداً، لأنَّني لو قضّيتُ «الليالي البيضاء»، كما يقولون في فرنسا، أتعلَّمُ العزف، فسأنتهي، من فرط رعونتي، بعزف مقطوعة مزعجة ستهرب عند سماعها أثوار صنعاء القديمة نحو جبال نقم وعيبان، أو سأنتهي، في أفضل الأحوال، بعزف مقطوعة ثقيلة ركيكة فظّة، تجذبُ لي امرأة شمطاء قبيحةً ثخينةً «مُكرضحة» من ذرِّية الشياطين!

ثم أضاءت في رأسي فكرةٌ عبقرية في هذا اليوم الصنعاني المُلهم: لماذا لا أستخدم الكمبيوتر، الموسيقى الإلكترونيَّة؟! أيُّ فكرة أكثرُ وحيًا وعبقرية، أكثر مقدرةً على شفطِ الجنّ من بطون العدم، أي فكرة أكثر فرادةً وابتكارًا وإغراء من تصميمِ قطعة موسيقيَّة إلكترونيَّة حميمة مدهشة في جوانحِ استوديوهات أحدث برامج الكمبيوتر «المتعددة الوسائط»، قبل بثِّها من ثغرِ الكمبيوتر الذي لا تشوبهُ اللعثمةُ أو وجعُ الرأس أو السهو أو اللحن أو الخجل، لا يحتاجُ للشهيق والزفير وضبط الأنفاس والنحنحة... لتتوجَّه مقطوعتي بعد ذلك سهمًا ناصلاً يثقبُ قلب أريج حيثما كانت وأينما ولّت؟

لا حلّ لي غير الكمبيوتر. هو عصاي الوحيدة التي أهشُّ بها على غنمي. هو خليلي الذي أعرفُ كيف أبرمجه، كيف أُنطقه! ثمة برامج كمبيوتر عديدة تُنغِّمُ وتعزفُ اللحن حسب النوتةِ الموسيقيَّة التي تَكتبُها لها، بالأداة الموسيقية التي تُريدها، نايًا كانت أو كمانًا أو بيانو أو قانونًا أو فيولونسيلاً أو ساكسوفونًا أو كلارينيت.... ثمة برامج كمبيوتر تكتبُ النوتة الموسيقيَّة للحن أية قطعة موسيقيَّة مسجّلة على شريط أو س.د.روم، لخلط النوتات، لتنغيمها الأمثل، لصقلها، لتنظيفها، للتلاعب بالخطوط البيانيَّة لأصواتها، لإضافة «مؤثرات خاصة» عليها... سأسرحُ وأمرحُ في هذه المراتع والأفياء التي أعشقُها، سأبرمِجها بنفسي بعشق وتفان ودقَّة، لإخراج نغم نادر مذهل يصلُ عموديًّا لمركز قلب أريج!

قرّرتُ على التو أن أكتب فاكسًا أبعثُه لصديقي في فرنسا: ح.ع.س، ليرسل لي كمبيوترا نقّالاً من أحدث الكمبيوترات المتعدِّدة الوسائط، بمبلغٍ شرحتُ له كيف سأدفعُه له، مع أوَّل مسافر يصلُ صنعاء وبأسرع وقتٍ ممكن. هاأنذا لم أرمِ الكمبيوتر من نافذة غرفتي في سانت مالو قبل أقل من أسبوع إلا وأعيدهُ من الباب من جديد! لم أمكث إذن طويلاً أسامر الظباء والماعز كما بدأتُهُ قبيل لحظات، ولم يدم طويلاً جدًّا مفعولُ طلاقي بالثلاث لشاشات الكمبيوتر...

شرحتُ لصاحبي في فرنسا مواصفات ما أبحث عنه، البرامج و«الأستوديوهات الافتراضية» التي أودُّ أن تكون فيه، س.د.رومات الألحان الموسيقيَّة التي أبحث عنها، برامج تعليم لغة النوتات التي أريدها، بعض الملحقات الإلكترونيَّة الموسيقيَّة التقليديَّة، عنواني في صنعاء، وأخباراً أخرى عابرة. لا أدري كيف سيستقبلُ صاحبي هذا الفاكس الذي أرسله له من صنعاء، أنا الذي لم أُشعِره بعد بمغادرتي النهائية لفرنسا! لا أتصوّرُ أيضًا كيف سيؤوِّل طلبي لشراء كمبيوتر، غداة مغادرتي لفرنسا، في حين كان بإمكاني شراؤه بنفسي هنالك قبل يومين فقط! لعلَّهُ لن يستغرب لأنَّه يعرف تمامًا أنَّني منجم من المطالب غير المألوفة. غير أنَّه لا يعرفُ أن ما ينتظره منِّي في الأيام القادمة هو أدهى وأغرب وأمرّ!

غفوتُ تلك الليلة، بعد كتابة نص الفاكس، على إيقاع شهر العسل في دفء أحضان أريج، في سندس جسدها المتوقِّد الناعم. غرقت في نوم عميق، في حوالى الثانية عشرة مساء، وأنا أصمِّمُ

ترسيمات رحلاتي معها على حصانين يهيمان فوق بساطِ القممِ الحضرمية. أسفلُنا الفضاء الحضرمي المغتسل بالسناء الأزلي المبارك، الوادي، النخيل، الينابيع، القصور الطينية الساحرة...

صحوتُ بعنف بعد ساعتين أو ثلاث على أصوات ميكروفونات قويَّة متزاحمة، كما لو كانت تعلنُ بدء يوم البعث والنشور. أصواتٌ آتية من مكبّرات صوت مُدويّة متناثرة في أماكن شتّى في المدينة، ثلاثة منها مثبّتة فوق عمود خشبيٍّ عالٍ وسط سقف مجاور تمامًا لغرفتي، يربطها سلك هوائي طويل بمسجد في نهاية الشارع... رمقتُ ساعتي. الفجرُ هنا لا يبدأ في الخامسة، بل في منتصف الليل. صحوتُ تمامًا.

كم كنتُ أعشق أذان صلاة الفجر في طفولتي في عدن. كان يأتيني بصوت شجيٍّ رخيم من مسجد دغبوس، صوت والدي. ثم بصوت لا يقلُّ جمالاً عنه: صوتُ الحاج راوح، بعد استيلاء والدي على منبر الإمام بفضل اشتراكاته النقابيَّة كما حدَّثتكم في البدء. غير أنَّ هذه الأصوات التي شعرتُ وكأنّها تخرجُ من أسفل مخدَّتي، لم تُختر بعناية، أو اختيرت أحيانًا بأصوات نشازيَّة، غير متقنة الأداء، إن لم تكن أحيانًا من أنكر الأصوات... تمنَّيتُ لو رتَّلتُ الأذان بدلاً من بعضها! لم توقف تلك الأصواتُ بثَّ أدعيتها وأذانها، وإذا توقَّفت قليلاً فلكي تعود بعد ذلك أشدّ وطأة. لماذا لا يختارون أصواتًا ترتفع إلى مستوى قدسيّة الأذان وخشوعه؟ لماذا يمدُّون مكبِّرات صوتهم بأسلاك كهربائيَّة إلى وسط الشارع؟ لماذا استبدلوا الصوت الهادئَ الشجيَّ الذي يأسرُ القلب بزلزال يشرخ طبلة الأذن؟ لماذا يبدأون الفجر في منتصف الليل؟...

ما إن اقتربتِ الساعة من موعد الأذان الحقيقي، بعد ساعات من بدء هديرِ ميكروفونات الأدعية التحضيريَّة، إلا وهاجت كل مكبرات الصوت معًا في وقت واحد. نهضت كلُّ حيوانات ميدان التحرير مذعورةً حينها من شدَّة عنف مكبرات الصوت، ليمتلأ الفضاء بـ « سلتةٍ »(١) من الأصوات المتضاربة التي يختلط فيها الأذان، ببكاء الأطفال، بالنباح... ما أبعد ذلك المشهد عن حميميّة الابتهال للربّ بصوت هادئ خاشع يفطر القلب من جمال ابتهاله وصفائه!

صلَّيتُ الفجر في غرفتي لِوحدي، قبل أن أنام بعمق حتى العصر الذي سأزور فيه صنعائي القديمة، مسرح عشقي الأكبر. لم يوقظني أذان الظهر أو العصر هذه المرّة لأنَّه كان فاترًا بصوت مؤذِّنِين دائخين غارقين في سكرة القات، كما يبدو.

امتلأت أحلامي طوال منامي بجبال مسطَّحة القمم، يعبرها حصانان أنيقان، عليهما عاشقان يستعيدان بأثرٍ رجعيٍّ قرونًا من العشقِ الضائع. أسفلُ الجبال التي يعبرونها بحر هائج فاقع الزرقة، نخيلٌ على شواطئ ذات رمل أبيض ناعم، وأسراب من الطيورِ الملوَّنة التي لم أنفك من تصميمها بأشكال فريدة متنوِّعة تحلِّق في كل الاتجاهات.

على الحصان المجاور لي حوريّةٌ عسليةُ البشرة، سوداءُ العينين، لها ثغر بحلاوةِ طعمِ التمرِ الحضرميِّ في موسم « البلدة »، لعاب بطعم شَهد « البُغية » الدوعني، وجسد ناعم بمقاييس ملكة جمال.

---

١ ـ الشفوت، الكبسة، بنت الصحن: وجبات يمنية. الـ« سَلْتَة »: وجبة صنعانية (مزيجٌ حرٌّ من مأكولات متنوعة).

الفصل الثالث

عنانيص

كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة والنصف عصراً عندما كنتُ على بعد عشرة أمتار فقط من «باب اليمن». توقّفت لأخلّد منظر الباب أمامي، لألتقط عناصر محيطه المكتظّ المحموم، لأحتضن في ذاكرتي ضوضاء المكان ورائحته، نكهة تلك اللحظة الخالدة بكلّ حذافير وجزيئات وتضاريس تفاصيلها الصغيرة...

على يساري مقهىً شعبيٌّ في الدور الأرضي من عمارة مجاورة لسور صنعاء القديمة. في دورها الأول «لوكندة» مشحونة بعابري سبيل يلتحفون الأرض، متراصون بأكتاف متكئة على مخدّات واطئة، متلاصقون تماماً، يتناولون قاتاً رخيصاً من النوع الذي لا تحبُّه الأغنام. على بلكونة مقهىً مجاور للّوكندة خمسة سوّاح أجانب، معظمهم

في سن التقاعد، يتناولون الشاي. بأيديهم كتب سياحيّة، وفي أعينهم متعة وذهول من غرائبيَّة المشهد الذي يواجههم...

أمامي الباب، نعم «باب اليمن»، هو نفسه، وبعض قمم العمارات التي تطلُّ من السور. حولي جمهرة وحشد يزدحم فيه: صرّافو دولارات، بائعو ساعات، فانيلات، تين شوكيّ، نظّارات شمسيّة، كاستات موسيقى، كاميرات مسروقة، ملابس داخليّة قديمة، قنّينات عطور مزيّفة قذرة الرائحة بشكل يثير التقيؤ، أعشاب لعلاج كلِّ الأمراض المستعصية... حولي لعلعة شديدةُ التنوُّع، صخب لا يختلفُ عن صخب المطار إلا في كثافته وشدَّة تكهربُه.

- أكبر المنافقين هو الذي لا يلبس القميص حتى منتصف الساق! إذا رأيتهُ بالقميص حتى عرقوب الرِّجل فعليك بقتله! دمهُ حلالٌ لك.

سمعتُ هذه العبارة من صوت يانع مجاور لي تمامًا. رفعتُ عينيّ ببطء وحذر لأرمق وجه المتحدِّث. رمقتهُ بسرعة، ثم أدرتُ وجهي سريعًا للجهة المعاكسة تمامًا.

كانا شابّين لم يبلغا بعد الثلاثين من العمر، كأنَّهما وصلا على التو من قلعة «ألموت» في شمال إيران، التي كان حسن الصباح (أحد أدهى وأرهب وأخطر الأدمغة البشريَّة التي عرفها التاريخ) يرسلُ منها، في القرن الثاني عشر، إنتحاريّيه الذين كانت ترتعد أمامهم فرائص الإمبراطورية السلجوقيَّة.

كانا واقفين بقامتين ممشوقتين، برشّاشين لامعين، بلحيتين كثيفتين، بقميصين يصلان إلى منتصف الساق، بهيئة طاليبانيَّة مكتملة. المتحدِّث شاب طويل، نحيف، بوجه جميل، كبير الأنف، لا يخلو من هيئة جليلة. رفيقهُ لا يقلُّ جلالاً عنه، وإن كان أقلَّ طولاً، أقلَّ نحفًا، بنظرات أقلّ إرهابًا في الظاهر، ربما لأنَّها مغلّفة بنظّارات طبيّة تضفي عليه ملامح مثقّف هادئ... كانا مستقيمين دون عمل، دون هدف، دون مشروع، ينظران حولهما بتأفّف وجهامة ملحوظين.

خفتُ حقًّا! شعرتُ بالغربة في هذه المدينة التي اخترتُها طوعًا عاصمةً لحُبّي الكبير. شعرتُ بغُربة لا توصف في يوم لقائي بها. كنتُ مع ذلك لا أشعرُ بالغربة في أي مكان في هذا العالم. اعتبرت الكرة الأرضيَّة دومًا قريتي الصغيرة. سخرتُ دومًا من الحدود الجغرافيَّة، من الترسيمات القبليَّة أو القوميَّة أو الوطنيّة الضيّقة. كنت أثقُ دومًا أنَّه يكفي أن أعيش أسبوعًا في أستراليا، في السنغال، في جزر رأس القمر، في الأرجواي، أو المريخ، لأترندع بعد ذلك، لأشعر أنَّني الوريث الشرعي للحركة الوطنيَّة في أستراليا، في السنغال، في جزر رأس القمر، في الأرجواي، أو المريخ. كنت أثق أبدًا أنَّني مستعدٌّ أن أقبل أن تكون عاصمتي في أي دولة شقيقة أو صديقة. غير أنَّني هنا، في عاصمتي الرسميَّة، أمام هذين الوجهين الجميلين مع ذلك، السينمائيَّين يجدر أن أقول، أشعرُ بغربة حادّة. من أين جاءت هذه العبارات العدائيَّة الشريرة المتطرِّفة؟ من أين جاء هذان الشابّان الوسيمان جدًّا، الخطيران جدًّا؟ لماذا يتجرآن، في عزِّ النهار، على

التلويح بهذه العبارات التي لا تمتلئ بالرقّةِ والتفتُّحِ والتسامحِ وحبٍّ الآخر؟ بأي حقٍّ يُحوِّلون الدين إلى ماكنة فتاوي للسحق والمنع والحظر والإرهاب؟ بأي تخويل رسميٍّ يعتبرون أنفسهم مندوبين لتوزيع قطع أرض في جهنّم؟ لماذا لا يُجرجرون من آذانهم للمحاكم لمجرَّد الجرأة الوقحة بتكفيرِالآخر وتهديده بالقتل؟ من يرعاهما ويسمحُ لهما بالتكفير والتهديد بالقتل؟ من هو الشيطان الذي يفرك أصابعه في الظلام «ملجِّجًا» من الفرح، متلذِّذًا بوجودهما، لشيء ما في نفس يعقوب؟...

حاولتُ إخفاء دهشتي وخبولي أمام ما سمعته بمغالطة نفسي بالنظر لساعتي «السيكو» التي أضعتُ بسببها إحدى أسناني في فيشي. لم تُثر انتباهي عقارب الساعة حينها، بل تاريخ ذلك اليوم: ٢٢ يونيو! «الخطوة التصحيحية!»، عيد وصول «اليسار» إلى السلطة، الذي كان، كما أعرف دائمًا، أهمَّ الأعياد الثوريّة الذي ترجُّ الجدران يومه من لعلعةِ مكبِّرات أصوات الأغاني الثوريّة، «يوم من الدهر لم تصنع أشعتُه، شمس الضحى بل صنعناهُ بأيدينا!»، ولم يَعد يحتفلُ به أحد! لم أعُد أفهم قوانين حركة هذه البلاد، لم أعُد أفهم شيئًا! تساءلت وأنا أسمع ما أسمعهُ، في هذا اليوم بالذات، من هذين الشابّين المتوقِّدين كراهيةً وحقدًا على كلِّ سكّان الكرة الأرضيَّة الذين لا يفصِّلون ملابسهم بالطول نفسه الذي يحلو لهما، إن لم أكن قد توجَّهت بالطائرة لقرن آخر، أو لعاصمة بلد آخر...

ولجتُ باب اليمن وفي جسدي قشعريرةٌ مما سمعتُه. كنتُ بحاجة ماسّة لصرف مائة دولار من الستة عشر ألف دولار التي عدت بها من فرنسا، والتي كسبتُها من عرق ليالي تصحيح أوراق امتحانات المنتسبين بالمراسلة للمدارس المهنيّة المتوسِّطة، طوال حياتي الطلابيَّة داخل غرفتي الجامعيَّة. توجّهت لأحد المصارف الصغيرة في أول شارع مواجه للباب.

كان صاحب المصرف رجلاً بدينًا يملأُ نصف حجم المصرف تقريبًا، يتكئ على مجلس خشبيّ في مدخل الباب. أمامه كومات ريالات في صندوق خشبيّ. شدقه تجاوز حدود الامتلاء بالقات لدرجة أنَّه لم يعد قادراً على إغلاقه. كنتُ قد رأيت في حياتي الغابرة، أمام عينيّ أو في بعض الصور الصحفيّة، أشداقًا امتطَّ جلدُ خدِّها إلى أقصى حدود التكوُّر. إلا أنَّ خدّ هذا السيد العزيز تجاوز كل ذلك. فمهُ لا ينغلق. جزءٌ من القات الذي يُغلِّفُ فكَّهُ، أو المغروز بين أضراسه ولِثَّته، كان يواجه عينيّ قسراً بشكل مثير للغثيان. كنتُ أرى بعضه يفيض كصديد أو غائط من زاوية فمه المفتوح أمامي. كانت عيناه خاملتين، ثقيلتين، دائختين تمامًا. كان يشبه فيلاً تسيل دواخله من شدقه وهو يموت ببطء. شعرتُ حقًّا برغبة هائلة في التقيؤ إثر رؤيته. يكفي أن أتذكّر صورته الآن، وأنا في «علبة الصاردين» بعد حوالى عشر سنين من ذلك، لأشعر برغبة حادّة في التقيؤ. سألته، قبل أن أعطيه المائة دولار: أين يقع «سوق الملح»؟

أجاب بأصابع يده اليمنى مشيراً لموقع السوق. لم يكن قادراً على لفظ كلمة لامتلاء شدقه بالقات، كما استنتجت بسهولة. لست أدري إن كنتُ ساديًا قليلاً وأنا أوجِّه له سؤالاً آخر بغية إرغامه على الرَّد، وتوريطه في الحديث معي: على بعد كم من هنا بالضبط يقع ذلك السوق؟

نظر إليَّ بعينين بطيئتين ممتعضتين قاسيتين، لا تخلوان من الرغبة في توجيه لكمة في أمعاء هذا الدخيل الذي يصرُّ على تعكير مزاجه وإخراجه من تخديره الديزليّ السعيد. أشار لي بسبَّابة يده مرةً أخرى في اتجاه السوق، بحركة سريعة تشبه حركة هشِّ الذباب، بما يوحي أنَّ السوق ليس بعيداً من هنا. خلت عيناه من الطيبة والرقّة، أو ربما كان طيّبًا رؤوفًا جداًّ لأنَّه لو نبس حرفًا واحداً لقذفني بوابل من شظايا قات طائش. لاحظتُ أنَّه، هو أيضًا، لم يكن أكثر ثرثرة من موظّفة مكتب الاستقبال في الفندق.

اكتشف بالطبع أنَّني غريب في هذه المدينة التي لا تميل لإغراق زوّارِها بعباراتِ استقبال عسليَّة. لعلّهُ استغلَّ اغترابي، أو لعلَّهُ انتقم من إزعاجي له، عندما أعطاني مقابل المائة دولار كومات من أوراق العشرة والعشرين ريالاً فقط ملأت سريعًا حقيبة ظهري الصفراء. شكرتهُ مع ذلك، قبل أن أبدأ عبور أوّل شارع في صنعاء القديمة حاملاً فوق ظهري أرطالاً من كومات الريالات تعادلُ ورقة المائة دولار.

بدأت أستفسر عن محلٍّ لإرسال الفاكسات، كيما أبعث الفاكس الذي كتبتُه البارحة لصديقي في فرنسا: ح.ع.س. قادتني

إجابات المارة الذين استفسرتهم إلى عمارةِ مكتبِ بريد بجوارِ محطةِ التاكسيات التي تسافر لعدن، في نهاية شارع تعز، قرب باب اليمن. دخلتُ باب المكتب بعد أن نططتُ على مستنقع صغير سبَّبتهُ الأمطار قبل أيام أمام العمارة. شرحتُ لمسؤول المكتب أنَّني أريد إرسال فاكس لفرنسا. تعقَّد الموضوع بشكل لا يخطر على بال. تجمَّد الزمن. شعرتُ حينها أنَّه يلزمني في هذه المدينة أن أستعدّ في كلٍّ ثانية إلى ما صرتُ أسمّيه «هجوم الأشياء الصغيرة»: تفرقُع عجلة تاكسي البارحة، المجنون الذي استقبلني قرب التاكسي بلسانه الأنبوبي وابتسامته الإعجازيَّة، قطراتُ الديزل التي أطاحت ببنطلوني الراحل، روائحُ الطوفان المردوم أسفل الأرض التي تتسلَّلُ عنوةً هنا وهناك إلى وسطِ المطابخ والغرفِ الصنعانية، أرطالُ الريالات الجاثمة فوق كاهلي، هذا الفاكس الذي تحوَّل إلى قضيّة...

فهمتُ، كما نصحني موظّف آخر، أن عليَّ لتسهيل الإسراع بإرسال الفاكس (أو بكلمات أكثر كابوسيّة: لـ«متابعة القضية» و«تحريك» الموضوع، كما قال ذلك الموظّف وهو يغمزُ لي بغمزة ودّية متواطئة)، عليَّ أن أدفع مبلغًا إضافيًّا خارج السعر الرسمي! كانت تلك أول مرّة في حياتي أتعلَّمُ فيها ماذا تعني كلمة: الرشوة! تغيَّرت اليمنُ كثيراً منذ أن تركتها في نهاية السبعينيات! تمَّ إرسال الفاكس سريعًا بعد أن نفّذت نصيحة الموظف الذي أخذ رئيسه نصيب الأسد من الرشوة، وترك له فتاتًا لا تستحقُّ الذكر، أثارت امتعاضه كما بدا لي وأنا أتابعُ ذلك بنظرات تلصُّصيّة. تركتهما وقد طار الفاكس على

أجنحةِ كومة صغيرة من أوراق العشرين ريالاً. كنتُ مستعجلاً جدًّا بالعودة من جديد لصنعائي القديمة. عبرتُ طريقًا ملتويًا أبعدني قليلاً عن موضع الشابين ذوي الوجهين السينمائيين الآتيين من قلعة حسن الصباح مباشرة.

توغَّلت في مدينة الأحلام. كانت بالفعل ساحرةً كما توقَّعت. وجدتُ نفسي، بعد دقائق من التسكُّع اللذيذ أمام «سمسرة النحاس»، في أحد أول الشوارع القريبة من الباب. السمسرةُ خان قوافل قديم صار اليوم مجمّع معارض منتجات شعبيَّة جميلة. زرتُه غرفةً غرفةً، معرضًا معرضًا، لأُشاهد من الداخل التصميم الجميل لإحدى عمارات مدينة أحلامي. وصلتُ إلى نهاية السلَّم الحجري الأبيض، الذي يؤدِّي إلى الدور الأعلى المكشوف على سطح السقف، كيما أشاهد صنعاء القديمة من الأعالي. كان الباب الذي ينتهي عنده السلَّم مغلقًا. طفلٌ في التاسعة من العمر تقريبًا، إسمه شهاب، يسند ظهره على الباب مقرفصًا. كان نحيفًا، بارز العظام. لجلده لون قمحيّ طريٌّ طازج. لعينيه بريق متوقِّدٌ، وفي معدته خواءٌ يبدو ساطعًا للعين المُجرّدة.

كان يقرأُ «سورة الحديد»، يحاول، بعيدًا عن الناس والضوضاء، حفظَها عن ظهر قلب استعدادًا لاختبارٍ مدرسيٍّ ينتظره في الغد. لاحظ عضّي لشفتيّ أسفًا على عدم تمكُّني صعود الدور الأعلى. أخبرني، بهدوء وأدب جم، أنَّني إذا أردت الدخول فإنَّه يعرفُ كيف

يطرق الباب بطريقة خاصة، ليفتحه عمُّهُ حارسُ السمسرة، عبدالجليل الوارثي، الساكن في غرفة صغيرة في ركنِ السقف. سيسمح لي عمُّه بأن أتمتّع بمشاهدة صنعاء القديمة من الدور العلوي، كما أضاف، شريطة إعطائه خمسين ريالاً. فرحت بذلك.

طرق الباب كما قال. فتحه رجل لم يتجاوز الأربعين من العمر، بقميص ومعطف نظيفين إلى حدٍّ ما. نظر إليّ نظرةً فاحصةً مركّزة وهو يدلك أسنانه السمراء بقضيب «مسواكٍ» نحيف. لم أعطه الخمسين ريالاً كما اقترح شهاب الذي مكث أمام الباب يثابر على حفظ سورة الحديد، بل جزءاً أكثر سخاءً سحبته من إحدى كومات العشرين ريالاً التي تملأ حقيبة ظهري. رحَّب بي إثر ذلك أفضل ترحيب، قال لي: «البيت بيتك!»، وكرّر لي أنَّه يمكنني أن أعود متى أردت. شرح لي كيف أطرق الباب ليعرفني في المرّات القادمة. لم يُقصِّر بتعريفي بالعمارات والمعالم المحيطة: سمسرة محمد حسن، الجامع الكبير، جامع الإمام علي بن أبي طالب، الأسواق المجاورة...

بدأ حبِّي العميق لصنعاء القديمة منذ تلك اللحظة التي شاهدتُها فيها أمامي من هذا السقف ـ البلكونة في علياء السمسرة.

اخترتُ منذ أوَّلِ نظرة لصنعاء مكانين جميلين تمنَّيتُ، من كلِّ جوارحي، أن يكون أحدهما موضعَ لقائي الليلي الأول بأريج: ١) سمسرة محمد حسن المواجهة لي، باتجاه جامع الإمام علي، والتي بدت لي إحدى أجمل وأروع عمارات صنعاء القديمة قاطبة، أو ٢)

نخلة وحيدة نائية في فناء منزلٍ صنعاني قريب، يبدو رائعًا من أعلى سمسرة النحاس. لعلَّهُ منزل إحدى العائلات الصنعانيَّة العريقة التي يُضربُ المثلُ هنا بثقافتها ومدنيَّتها ورقّة طبعها وحسن ذوقها.

قلتُ لنفسي: ربما سأرى قريبًا جدًّا أريجَ في أحد هذين المكانين! ستتجلّى أمامي ذات غسق صنعانيٍّ جميل أفتحُ في هزيعهِ الأخير كمبيوتري ليُخرج من أضلاعه نغمًا عبقريًّا عاشقًا يسري من علياء السمسرة، نحو نافذة أريج في «السماء الثامنة»، يقرع أبواب قلبها، يكتسحهُ عشقًا ومناجاة، يغمره أشواقًا وقبلات...

توجَّه عبد الجليل ليُعدَّ لي فنجانًا من الشاي ارتضبته وأنا أحدِّقُ في بداية الغروب فوق مدينة أحلامي. قطرات مطر خفيفة تغسلُ جبين «مدينة ما بعد الطوفان». ها هو المطر، الذي صرتُ أمقته مثل أبناء شمال غرب فرنسا، يلاحقني. السيّارات والناقلات الصغيرة المكتظَّةُ في هذه الأزقَّة الضيِّقة تشبه حصىً تغلق الشرايين. الشفق ظلالورديّة برتقالية تتسرَّب في ضياء الشمس، تكتسحه سريعًا، تلتهمُ السماء والسحب البنفسجيَّة في لحظات، تسقط عليها لكمةً قاضية.

ثمَّة اتساق عبقريٌّ بين كلِّ أشكال وألوان هذه العمارات المحيطة بي، المترامية أمامي نحو الأفق... لم يقلق رأسي إلا منظرُ فندق «الشيراتون» الذي يبدو محشوراً قسرًا خلف هذه العمارات الساحرة. كان منظره، في مزاجي، متنافرًا لا ينسجم من قريب أو بعيد مع نمط

عمارات هذه المدينة العريقة. كنتُ كلّما شاهدته شامخًا أمامي في العمق الخلفيّ، تعكَّر نسقُ المنظرِ الجميل، وكأنّي أسمعُ مقطع أغنية لفيصل علوي وسط أغنية لفيروز، أو كأنّي أشاهد مبنى «ماكدونالد» بجانب الحرم المكّيّ الشريف! لو لم أكن مع ذلك متسامحًا، كما أنا عليه دومًا لحسن الحظ، لو لم أكن غير قادرٍ على التمرُّد والرفض، كما أنا عليه دومًا لسوء الحظ، لقلت على الأقل: لا سامح الله من صمَّمه!

كان لطيفًا طيّبًا عبد الجليل الوارثي، لا سيَّما عندما كنت أكرمه في معظم زياراتي شبه اليوميَّة للسمسرة. وجدت أخيرًا أنيسًا أتحدّث معه بعد فقر أحاديثي مع البشر منذ وصولي. استطاع أن يجعلني ألخِّص له حياتي وسيرتي ولماذا أنا في صنعاء، في أقل من نصف ساعة. كان يسمعني خلالها باهتمام، يشجِّعني على الحديث وأنا أنتقل من أكاتيبو، إلى شارع دغبوس، إلى سانت مالو. من سوسن، إلى إيزا إلى أريج مرجان... كنتُ أيضًا سعيدًا بالإفضاء إلى إنسان يصغي لي، في لحظات العشاء الاسترخائية اللطيفة. كان «حَبُّوبًا» جدًّا عبد الجليل لولا أنَّه كان ثرثارًا «يبقبقُ» كثيرًا، لأنّ سيرة حياتي صارت معروفة بتفاصيلها في أكثر من حانوت في السمسرة، وفي حوانيت مجاورة أحيانًا.

كان عبد الجليل الوارثي لا يعارضني في شيء طالما أكرمته. عندما حدّثته عن روعة وفرادة هذه المدينة التي تشبه متحفًا كبيرًا، قال لي إنَّه، بحكم عمله حارسًا فيها، يعرف كلَّ أسرارها: يعرفُ أين كان يتوضأ فيها الإمام علي كرّم الله وجهه، أين كان سام بن نوح «يُخزِّنُ»

القات، أين كان يمرّ الملك سليمان بحرسه من الجنّ... عندما حدَّثتهُ عن أريج، قال لي إِنَّه خبير جداًّ بالجنّ، يعرفُهم تماماً ويعاشرهم كثيراً في صنعاء القديمة. لكنَّه عندما بدأ بالحديث عن أشكالهم وألوانهم أوقفته على التو.

قلت له إِنَّني أسخر من كلّ ما تتحدَّث عنه الكتب الصفراء عن فيزيولوجيا وجغرافيا عوالم الجنّ، عن المليارات المملية من الجنّ التي لبعضها أرجل حيوانات، أو تلك التي يمكن رؤيتها بعد التكحل بـ«الحلتيت»، أو تلك التي لها بؤبؤان مستطيلان... كلّ ما قرأته في الكتب الصفراء عن أنواع الجنّ، عن وجباتهم المفضّلة وميولهم الفنيّة، عن المراحل الاقتصاديَّة ـ الاجتماعيَّة التاريخيَّة الكبرى والحركة الوطنيّة والصراع الطبقي في إمارات الجنّ... يثيرُ ضحكي دوماً. حوريَّات الجنِّ اللواتي أبحثُ عنهنّ أنا، هنَّ بنات «السماء الثامنة»، حوريات ألف ليلة وليلة، كائنات تأتي إِلينا من كوكبِ الغرباء، من عوالم بعيدة، من أزمنة بعيدة... يكفي أن نعرف فقط كيف نجذبها من تلك العوالم!

لم يكن يعارضني في شيء عبد الجليل الوارثي شريطة أن أكرمه. ردّ عليّ أنَّه يعرف كثيرين ممن اصطلوا مثلي بحب حوريّات من بنات الجان:

أحدهم كان يقابل معشوقته ليلاً في أكمة عالية من جبل نقم المواجه لي وأنا أرتشفُ فنجان شايي الأخير في سقف السمسرة. إلا

أنّه ذات ليلة فُوجِئ بمخلوق هائل الطول واسع الكتفين على طريقه وهو يتوجّهُ إليها. هدّدهُ بقتلها وقتله إذا عاد لها من جديد. ثمّ اختفى مباشرة! جُنّ ذلك الشاب منذ ذلك اليوم. هاهو الآن يتسكّعُ من «لوكندة» قات إلى «لوكندة» قات، يتحدّثُ مع جليسيه في اللوكندات بشكل طبيعي، ثمّ يتوقّف فجأة بين الحين والآخر. يُحرّك يديهِ كما لو كان في مسرحيّة صامتة. يتمتم حينها لوحده وكأنّه يناجي معشوقته الغائبة. تتحرّكُ شفتاه بصوت غير مسموع، يدخل في حوار حميمٍ خفيٍّ معها وهي تحدّثه فعلاً من عالمٍ آخر.

آخرُ كان يتوجّهُ نحو معشوقته ليُلاقيها قرب «مقبرة الصينيين» في آخر الليل. كانا عاشقين ولهانين سعيدين بشكلٍ لا يُصدّق، تزوّجا بعد ذلك وذهبا للعيش في قريةٍ قُرب جبل صبر الرابض في واجهة مدينة تعز. إلا أنّ زوجتهُ اختفت ذات يوم بشكل مفاجئ جدًّا. وجدوه ميّتًا بعد أيام من ذلك، في ذلك المكان نفسه الذي كان يقابلها فيه قرب مقبرة الصينيين في صنعاء.

آخرُ كان يلتقي بمعشوقته قريبًا من «باب شعوب»، أحد أبواب صنعاء القديمة. تزوّجا بعد عشق وشغف عنيفين. صارا مضربًا للأمثال. هاهما الآن يعيشان عيشةً سعيدة في قرية نائية في محافظة إب، وإن أضحيا بعد زواجهما شديدي الانطواء وعدم الاختلاط بالآخرين. لهما بناتٌ وأولادٌ مدح عبد الجليل طويلاً ذكاءهم وجمالهم وأدبهم وحسن خلقهم.

وجدتُ في عبد الجليل الوارثي أنيسًا لطيفًا شجيَّ الحديث على الدوام. تركته في أوَّل لقاء لنا، بعد أكثر من ثلاث ساعات من الدردشة الممتعة في سقف السمسرة. ما كان يحيرني فيه هو ابتسامتهُ الثابتة، غير واضحة المعالم، عندما أتحدَّثُ معه. كانت ملتصقةً على فمه، لا تكبر أو تصغر، لا تتغيَّرُ بتغيُّرِ مواضيع الحديث. لم أعرف طوال كل لقاءاتنا إن كانت ابتسامة سخرية، أو ابتسامة تعاطف وإعجاب، أو ابتسامة فرح برزق يصله يوميًّا من السماء. لم أدر أبدًا كيف أقرأُ ابتسامته الغامضة تلك. لعلّها كانت كلَّ ذلك في الوقت نفسه، أو لاشيء من كلِّ ذلك إطلاقًا.

ودَّعتهُ قبل التاسعة مساءً. كان للقمر يومها شكل نصف دائريٍّ ناصع البياض، شديد الانتظام، وكأنّ القمر قُسِمَ في قُطره بمسطرة شديدة الدقّة، ثم شُقّ إلى نصفين متساويين متطابقين تمامًا، رمي أحدُهما في بحر الظلمات.

تجوَّلتُ قليلاً في غسقِ صنعاء الساحر، قرب جوامعها القديمة، منازلها ذات «القمريّات» البديعة، أسواقِ الفضة، الملح، البقر، الحَبّ (حبوب القمح)، المعطارة... لاحظتُ، وأنا أستعدُّ لمغادرة سورها الخارجي بعد نزهة طويلة لذيذة جدًّا، أن صنعاء القديمة في الليل تختلفُ كثيرًا عنها في النهار. يسكنُها بشر آخر غير بشر النهار. سأحدِّثكم بعد قليل عن لياليها الغريبة، وعن أواخر لياليها الغريبة جدًّا أيضًا.

عدتُ أدراجي للفندق. كنت سعيداً بما أنجزتُه هذا اليوم: اكتشاف مدينة أحلامي، الفاكس، السمسرتين، النخلة، التجوُّل الليلي الذي أراح أعصابي وشرح صدري... كنت متألمًا أيضًا مع ذلك. لعلّي لم أشعر في حياتي بألم شاسع كذلك الذي شعرتُ به وأنا أرى في أوّلِ يومٍ أحيا به في عاصمتي الحبيبة كم هو حزينٌ جداً أن يولد المرءُ في بلد معظم سكّانه أميّون، جياع، مسحوقون، يعيشون أسفل خطّ الفقر، لا أمل لهم في بلدٍ بلا أدنى أمل!

بعد ثلاثة أيام فقط استلمتُ فاكسًا من صاحبي في فرنسا يقول لي إنَّ الكمبيوتر النقَّال وتوابعهُ الإلكترونيَّة سيصلني بعد أقل من أسبوع! كان ذلك مفتاح أملي حقًّا. سيكلفني ٤٠٠٠ دولار: ربعُ المبلغ الذي عدتُ به من فرنسا! بانتظارهِ على أحرٍّ من الجمر، قضيتُ أيامي أتسكَّعُ في صنعاء القديمة والحديثة، أتعرَّفُ على معالمها، أغوص في أعماقها... لأفهم سريعًا ماذا يعني أن تكون مدينة ما في هذه الكرة الأرضيّة عاصمة بلد يحتلُّ المركز الأوَّل في نسبة عدد الأميِّين في العالم العربي الشديد التخلُّف بحدِّ ذاته، ويقعُ في صفوة دول العالم قاطبة في نسبة وفاة الأطفال بعد الولادة! أو، بمعنى آخر، لأدرك سريعًا أنّه يصعب أن يحيا المرء في الحضيض أكثر من ذلك في مكان آخر. غير أنَّ صنعاء، مع كلِّ ذلك، تظلُّ في عينيّ نعشًا جميلاً جدًّا، ساحرًا جدًّا، لمدينة مات اليوم في أحشائها العشق والطرب رحمهما اللّه وأسكنهما أفسح جنانه. نعشًا أُعجب به وأحبُّه إلى أقصى حدود الإعجاب والحب.

ألغيتُ منذ أوَّلِ أيامِ جولاتي في صنعاء القديمة ترشيح «سمسرة محمد حسن» موضعًا أتوخاهُ للقاء أريج. ليس لأنَّ إعجابي بتلك السمسرة هبط قليلاً. بالعكس! ستظلُّ هذه السمسرة بِلونِها المائلِ للاحمرار، بنوافذها المحاطة بأشكال ونقوش هندسيّة لطيفة، بسقفها المنتهي بمتتالية من الانحناءات المُقبّبة، بجُدرانها الخارجيَّة السميكة ذات الانحراف الهندسيٍّ المفاجئ الجميل، بواجهاتها التي تعكِّرُ إحداها حفرة كبيرة تشبه أثر قذيفة... ستظلُّ هذه السمسرة تأسر النظر على الدوام من الخارج. ناهيكَ أنَّها تحفة نادرة من الداخل أيضًا. قصر متخن بالأسرار والجمال. ألغيتُ اختيار ترشيحها لموعد لقاء أريج لأنَّه يصعبُ بكلِّ بساطة تنظيمُ موعد غراميٍّ في ثكنة عسكرية! فالسمسرة، التي هي مخرَّبةٌ تمامًا في الداخل، يقبع فيها بشر طيّبون جدًّا ليل نهار، يسهرون للدفاع عنها، كأنَّهم في خندق!

طرق شهاب بابها الصغير، قائلاً إنَّ هناك «أجنبيًا» يريد زيارة السمسرة. فتح الباب بعد ذلك سيِّد جليل، لأنَّه عرف صوت شهاب بالتأكيد، ولأنَّ كلمة «أجنبي» سهَّلت ذلك كما يبدو. صحَّح شهاب عبارته بعد ذلك على النحو التالي: «الأفندم آتٍ على التو من فرنسا!». لم يكن بحاجة للتصحيح، لأنَّ السيد الجليل عرف من نبراتي ومن سيماء وجهي أنِّي أحملُ خاتم هذه البلاد على جبيني، مثله على أقلِّ تقدير.

أحببتُ تلك السمسرة كثيرًا جدًّا. كانت قصرًا نادرًا مخرَّبًا من الداخل تمامًا. غرف كثيرة لم يتبقّ منها إلا أنقاض وأطلال. جدران

داخلية مهدَّمة كانت مطرّزةً بخطوط وفسيفساء منحوتة، لم تتبقّ منها اليوم إلا نهايات منحنيات وأنصاف عبارات منحوتة هنا وهناك. سقوف وأبواب مقبّبةٌ يقف ما تبقّى منها على رجليه بصعوبة. عرفتُ من السيّد الجليل أنَّ السمسرة، التي كانت خانًا للقاء التجّار ورجال الأعمال قديمًا، ثمَّ خرِّبت تمامًا في ١٩٤٨ عندما فتح الإمام أبواب صنعاء للقبائل غنيمةً للاجتياح والنهب والسلب والتخريب.

إلهي، كم تشبه اليوم هذه السمسرة، بشكل دقيق مذهل، بلاد اليمن جملة وتفصيلاً!

أما عن سبب بقاء هذا السيّد الجليل مع أقربائه وعائلته في وضع استنفاريٍّ بين هذه الأنقاض، فذلك كما عرفتُ منه، للدفاع عن السمسرة من اللصوص والناهبين الذين لم يتوقّفوا عن محاولة اجتياحها وتملُّكها على الدوام! لم أكن إذن مصيبًا جدًّا وأنا أعرِّف قليل أيّام الحياة في صنعاء بأنّها «مقاومة دائمة لهجوم الأشياء الصغيرة». لأنَّها لم تكن، والحقُّ يقال، صغيرةً جدًّا كما يبدو من شجون وآهات ذلك السيّد الرائع الجليل.

سمعت طرقًا على الباب. قال لي السيّدُ الجليل إنَّها امرأةٌ جاءت البارحة وقالت إنَّها ستعود اليوم لتصوير السمسرة بالفيديو من الداخل.

كان منظرًا مذهلاً تمامًا: امرأة جميلةٌ جدًّا، سافرة تمامًا لا تضع حتّى منديلاً خلف الشعر كأنصاف السافرات! بدت لي سائحة في

اللحظة الأولى، لولا أنَّ اللهجة اليمنيّة التي سمعتها منها بعد دخولها كانت ذات نقاء وعذوبة لا أتذكَّرُ أنَّني وجدتهما يومًا في ثغرٍ آخر. قال لي السيّدُ الجليل إنَّها أستاذة يمنية في جامعة أجنبيَّة!

شُدِهت برؤيتها. كانت تكبرني حوالى عشر سنوات. جميلةُ الوجه بشكل مُرْبك، ممتلئةٌ قليلاً وإن كان ذلك الامتلاءُ متناسقًا، لذيذ الانتظام على جسدها الوثير. كانت منهمكةً بتصوير كلِّ تفاصيل السمسرة. غير أنَّها عندما سمعتني أرثي حياة السيِّد الجليل الذي يرابض مع أقاربِهِ في هذا المتحف ـ الخندق، يقضِّي حياته يقاومُ نهب القبائل في هذا البلد ـ الغاب، قالت موجِّهةً حديثها لي، وهي تصوِّر في الوقت نفسه:

ـ هذا البلدُ، يا عزيزي، مسكون «بلعنة علي عبد المغني!».

تذكَّرت عبارة علي عبد المغني، أو أحمد الثلايا: «لعن اللّه شعبًا أردتُ له الحياة وأراد لي الموت!» التي قالها، والله أعلم، يومَ صرخت الناس مطالبةً بقتله بعد محاولته الإطاحة بالإمام «أحمد ياجنّاه»!، أو لا أعرفُ بالأحرى هل قالها أحدٌ فعلاً أو هل قيلت حقًّا! استغلَّيتُ توجيهها الحديث لي، لأسألها مباشرة هذا السؤال التقليدي الساذج:

ـ والحلُّ؟ أين يكمن الحل؟

لم تُجبني، وكأنَّها لم تسمعني. كانت تتفحَّصُ أطلال السمسرة شبرًا شبرًا، تتحرَّكُ من أنقاض وخرائب إلى أنقاض وخرائب.

تصعدُ، بجسد متوقّد حرٍّ وبثقة هائلة، سلالم خشبيّةً ركيكة، وُضعت محلَّ السلالم المنهارة في السمسرة، يمكنُ عبرها الوصولُ بصعوبة ومجازفة لخرائب الأدوار العليا. كانت الأستاذة الحسناء تُصوِّر بالكاميرا كلَّ صغيرة وكبيرة في السمسرة وكأنَّها تُعد فيلمًا ميكروسكوبيًّا عن الخراب، أو كأنّها تريد إعادة بناء السمسرة في مكان آخر، في عالم آخر. في مملكة أخرى بعيدة جدًّا عن اليمن، قريبة جدًّا من اليمن اسمها: مملكة دملان. في عاصمة أخرى بعيدة جدًّا عن صنعاء، قريبة جدًّا من صنعاء، اسمها: تنكاء!

كرَّرتُ سؤالي لها، بعد أكثر من ربع ساعةٍ قضتها في التصوير، كي يصل صوتُها لمسمعي من جديد، ولأحظى، من يدري؟ بـ «يا عزيزي» أخرى، أنامُ بعدها تلك الليلة مسترخيًا هانئًا مرتاح البال سعيدًا جدًّا... أجابت بصوتٍ جليٍّ لذيذ السيولة مهنيِّ النبرات:

ـ لا أدري! ربما الأمل، إن كان هناك أملٌ في هذا البلد، يكمنُ في المرأة، في ثورة النساء!

زاد استغرابي. كانت متشائمةً كثيرًا هذه السيّدة البديعةُ كما يبدو. ثمَّ إنِّي لم أكن أتصوّرُ لماذا المرأة وحدَها تمتلكُ إمكانيات خلاص هذا البلد من لعنته الخالدة. كان بودّي نقاشها طويلاً في هذه الأطروحة التي خشيتُ أن تكون ذات حوافز وتعليلات بيولوجيّة، لولا أنَّها كانت مستغرقةً بالتصوير. غادرت بعد ذلك السمسرة مباشرة. كانت مستعجلةً جدًّا كما يبدو. ندمتُ لخسوفها السريع، وطفقتُ عدّة أيام آملُ أن أراها بالصدفة في أحد شوارع صنعاء.

لا أدري لماذا ذكَّرتني سريعًا بإنسان لم أرهُ منذ أن ودّعني في مطار عدن قبل ١٥ سنة: الأستاذ نجيب. بدت لي في هيئتها الرائعة تلك صنوهُ الأنثويّ بامتياز، قرينتهُ الآتية من «السماء الثامنة». لا أعرفُ اسمها. لا أعرفُ أين تعيش. سمَّيتُها في قرارتي لسبب أجهله تمامًا: عنانيص! قلتُ لنفسي: من يدري، ربما تكون أريج أختها الصغيرة؟ ما أروعها حقًّا! لعلي أقتربُ، أقتربُ أخيرًا من اللحظة القدريّة الحاسمة، لعلّي أقتربُ من أريج!

لن أرى عنانيص بعد ذلك إلا بعد ما يقارب عشر سنوات، في تلكَ الرحلةِ المذهلة لمملكةِ دملان، لِعاصمتها تنكاء، برفقة الأستاذ نجيب نفسه! هل تتذكّرون الأيام الأولى من تلك الرحلة التي استهلَّيتُ بها حديثي معكم؟ لن أتأخَّر بإفضاء أحداث ما تبقّى منها، لا سيّما أيامها الحاسمة وأسرارها الكبرى!

مازلت بعيداً قليلاً عن كلِّ ذلك. لكنِّي قريب جداً من الكمبيوتر الذي سيصلُني بعد يومين. قريب جداً من تلك التي لم أَعد أقوى على انتظارها: أريج مرجان!

الفصل الرابع

سِرُّ حُبِّي فيك غامض!

بعد خمس دقائق من وصول الكمبيوتر النقّال إلى الفندق مع ذلك المسافر العزيز (الذي أشكرُهُ جداً على احتضانه إيَّاهُ طوال الرحلة، وأسأله أن يعذرني كثيراً لاستعجالي بالصعود إلى غرفتي دون إطالة الحديث معه)، كنتُ جالسًا أمام المنضدة، مبهوراً بهذه التحفة الإلكترونيَّة الجديدة: خاتمي السحريّ الذي سيحمل لي الحلم على طبقٍ من ذهب! كان ماكينتوشًا حديثًا جدًّا، رشيقًا جدًّا، أنيقًا جدًّا، شاشته الكريستاليَّة السائلة تريح وتأسر العين تماماً، ولوحةُ مفاتيحه تجذب الأصابع للمسها ومداعبتها ودغدغتها على الدوام.

أسميته على التو: أريج، لتكون أريج دائي ودوائي، سجني وملاذي، لأشفى منها بها، لأصل بها إليها...

كان يحوي آخر المعدّات البرمجيّة المتعدّدة الوسائط. بدأتُ على التوّ بتصفُّح «استوديوهاته الصوتيّة الافتراضيّة» التي تصنعُ الموسيقى الإلكترونيَّة. ماذا أحدِّثكم أوّلاً عن الموسيقى الإلكترونيَّة؟ ألم تسمعوا مثلي أنَّها المستقبل، هذا إذا لم تعد اليوم أقرب للحاضر منها إلى المستقبل؟...

انطلقت بدايات الموسيقى الإلكترونيَّة، كما تعرفون، من المصانع المهجورة في مدينة ديترويت في أميركا في ١٩٨٩، لترجَّ أصداؤها في أوروبا التي كانت ميدان انطلاقتها الكبرى. ترعرعت في المناطقِ الصناعيَّة المنكوبة، في المصانع المغلقة، في صمت معامل العاطلين عن العمل، في خواء حياة المحرومين، اللامنتمين، أبناء الضواحي المسحوقة. اشتهرت بحفلاتها المسماة «ريف بارتي» التي تنظَّم غالبًا في المصانع المغلقة، في الضواحي البائسة، في الخرائب. يلتقي خلالها حشد من البشر أغلبهم شباب، ضائعون، مقهورون، محرومون، منبوذون... يتكاتفون ساعات طوالاً في رقصات «زار» و«نعش»[١] إلكترونيَّة هادئة خفيفة تدومُ عدَّة ساعات، على إيقاعات موسيقيّة إلكترونيَّة دائرية...

الموسيقى الإلكترونيَّة وُلِدت في أزمات، تطوَّرت في خرائب. وُلدت لتكون رثاء للعالم، وسيلة للهروب منه. لذلك هي موسيقاي المفضّلة بامتياز.

---

١ ـ «زار» و«نَعْش»: رقصات في بعض المحافل والطقوس الدينية الخاصّة.

لا أُعلمكم جديداً إذا قلت إن الموسيقى الإلكترونيَّة ابنةُ الكمبيوتر: تخرجُ من صلبه وترائبه دون حاجة إلى آلات موسيقيَّة. لو سُمِح لي أن أضيف بعض التفاصيل التقنيّة لقلتُ إنَّها من ناحية: «أصواتٌ تحاكي الآلات الأوركستراليَّة المتعارف عليها من بيانو وكمان وكلارينيت وناي وقانون»... يُحصل عليها عن طريق «بصمة صوتيَّة من تلك الآلات وقد وصلت درجةً كبيرةً من الإتقان والتقنية». وهي، من ناحية ثانية، أصوات إلكترونيَّة اصطناعيَّة، تخترعُها برامجُ الكمبيوتر من العدم، ليس لها وجود فعليّ في الحياة.

في هذه الحالة الثانية التي تُحرِّر الصوت من سجن الآلات الموسيقيَّة التقليديَّة، من حدودِ الفضاء الفيزيائي، من ترسيماته وجماركه، لتُحلِّق به في الفضاء الرياضيِّ اللامحدود... وجدتُ مرامي، ذاتي المفقودة، سعادتي الضائعة. لعنتُ نفسي لأنِّي لم أتجرأ أن «أتمرّد» وأُغيِّر دراستي في فرنسا من الفيزياء إلى الرياضيات والكمبيوتر، لم أبن يوماً عالمي الخاص على إيقاع رغباتي الخاصة. ألا أستحقُّ بسبب ذلك أن أعود اليوم لصنعاء مثقوب الجبين، لأحيا بجدارة في سجنها الديزليّ الكبير، لـ «أُرَدِّع» رأسي ندماً وتوبيخاً على حائط مبكاها، «لأُراقب فيها هاويتي بهدوء» وثقة وانتظار؟...

عندما بدأت أفكِّر بالمقطوعة الموسيقيَّة التي عليّ أن أبتكرها لأُسمعها معشوقتي اللامرئيَّة شعرت بالرعب الحقيقيِّ والعجز الكامل. لا أدري كيف أبدأ أو من أين أبدأ. اجتاحني الشعور بالضياع لأنِّي لا

أعرف شيئًا في التأليف والتلحين الموسيقي. قلتُ لنفسي: ربما أعرفُ كيف أستخدم الأستوديو الافتراضي، كيف أقرأُ برامجه الداخليَّة، لكن ذلك لا يعني إطلاقًا أنِّي سأعرفُ كيف أبتكر مقطوعةً موسيقيَّة ما.

أصابني إحباط مفاجئ قوي ماحق.

انقطع التيّار الكهربائي في الفندق في تلك اللحظة. وجدتُ نفسي في وحدة وعتمة كاملتين. طال انقطاع التيّار الكهربائي. تحوَّل الكمبيوتر إلى قطعة معدنيّة خامدة وسط ظلمات الغرفة، لا حول له ولا قوّة، كأنَّه خاتمٌ سحرِيٌّ انقطعت اتصالاته السلكيّة واللاسلكيَّة بجنّيّ القمقم. شعرتُ بأحاسيس غريبة وسط الرعب والوحدة والظلام، لا أدري ما العمل. لا أدري كيف أبدأ. ردَّدتُ، كعادتي عندما يعتريني الخوف والهلع، كثيراً من الآيات القرآنيَّة والسور الصغيرة والأدعية التقليديَّة التي تهرعُ نحو لساني كسيّارات إسعاف آتيةٍ من أقصى زوايا الذاكرة.

في طيّات الوحدة والظلام تفجَّر في دماغي ألفُ سؤال وسؤال: ماذا أفعلُ هنا؟ عماذا أبحثُ حقًّا؟ لماذا وصلت حياتي إلى هذه النهاية القاتمة؟ لماذا فارقتُ أرض ميعادي: فرنسا، وطردتُ نفسي منها فاشلاً كشيطان يُطردُ من الجنّة؟ لماذا صرتُ أسير العُزلة والانطواء والهروب الدائم منذ سنواتي الأخيرة في سانت مالو؟ لماذا تسيلُ حياتي بين أصابعي عبثًا؟ ألستُ أطاردُ خيط دخان؟ أليست أريجُ حلمًا مجنونًا؟ ألستُ هنا، في هذا الفندق القابع في أحد أركان منفى «ميدان

التحرير»، أُحاولُ أن أُنظِّم حفلة «ريف بارتي» يحضرها مسحوق واحد اسمه وجدان قحطان؟... ألستُ ضحية نفسي أنا الذي لم أحُلّ يومًا تناقضاتي العميقة القديمة: ازدواج ثقافة الجنّ بثقافة العلم، ثقافة تربيتي القديمة بثقافة العالم المعاصر؟ ماذا عملتُ لتحقيق نماذجي في الحياة: بطلا فيلم «... المفقودة»؟ هل تمرَّدتُ يومًا مثلهما؟ هل واجهتُ نفسي، هل واجهتُ الواقع؟ هل حسمتُ شيئًا ما؟ هل اخترتُ؟ هل رفضتُ؟ هل طلَّقتُ شيئًا ما؟ هل مارستُ قطيعةً مع فكرةٍ ما، مع غيب ما، مع إيديولوجية ما، مع إنسان ما، مع سلوك ما؟ هل كنَّستُ أمام بابي؟ لماذا راكمتُ وأراكم كلَّ شيء في حياتي دون ترتيب وتنظيف ونبذ ورمي في سلاّت المهملات؟ لماذا لم أتقدَّم خطوةً واحدةً عمّا كنتهُ في الرابعة عشرة من العمر؟

أنا باختصار شديد رجلٌ لم ي.ت.م.رَّ.د!

لم يتمرَّد!

لم يقطع حبل السُّرة بوالدِهِ في سن المراهقة عندما فضّل لبس عمامة الإمام بالنيابة عنه! لم يقطع حبل السُّرة بأُمِّه التي جثمت على حياته وعلاقته بالمرأة! لم يطرد جعفر الدملاني الذي احتلّ سريرهُ في فيشي وجعله ينام فوق نتوء سرير المطبخ في شُقَّة هو الذي يدفعُ أُجرتها مع ذلك! لم يُغيِّر دراسته في فرنسا كما كان يتوق له! لم يرفض حتى أرطال أوراق الريال العشرة التي استلمها من صرّاف «باب اليمن» قبل أيام؟...

علاقتي بالعلم والتكنولوجيا علاقةُ هروب ليس إلا. أستخدمُ الكمبيوتر للهروبِ من مأساتي. يكفي أن أُحدّق في شاشتِه لأغيب ساعات وساعات عن كلِّ شيء، لأهرب عبرها إلى عالمٍ بعيد. أستخدمُ الشاشةَ كقارئة فنجان، أبحثُ عبرها عن ثمرة سحرِيَّة من حدائق الغيب تجلبُ لي الأحلام المستحيلة، السعادة الأبديّة، بدل أن أستخدمها كفلاّح يزرع يومًا بعد يوم نبتة جديدة في حديقته الصغيرة، في حديقة الكرة الأرضية الكبرى...

لم أعش التقدُّم العلميَّ اختيارًا جذريًّا لحياتي، قطيعةً مع شيء ما، بل وسيلةً للهروب من مواجهة الواقع. لذلك تحجَّرت حياتي وراوحت كما كانت في أيّامها الأولى. لم أتقدّم قيد أنملة عن وجدان شارع دغبوس في بداية السبعينيات. ألستُ حتى اليوم أرنو لتطلُّعاته الطفوليَّة نفسها التي لم يُحقِّق منها مثقال ذرَّة من الحلم وقد تجاوز الخامسة والثلاثين من العمر...

علاقتي بالمرأة مأساةٌ لا حدود لها. أعيشُ تناقضًا عميقًا مرعبًا. أُعجب بها إلى أقصى حدود الإعجاب، أعشقُها عشقًا مقدَّسًا، أعتبرها جنسًا أرقى من الرجل... في واقع يمتهنُها، ينظرُ إليها ككسر عشريٍّ ضئيل، كمخلوق من الدرجة السادسة عشرة، كغنيمة، كمخلوق خطير يلزمه أن يقبع إلى الأبد في قضبان سوداء خانقة... كيف لي في ظلِّ هذا الواقع أن أحقِّق نموذج عشق فيلم «...المفقودة»؟ ألا يجدرُ بدل ذلك أن أقبل أوّل «بنت حلال»

تختارها أمي و«أسْكَةَ» من ضجيج أحلامي المستحيلة في واقع يمارسُ وأد المرأة فوق التراب بعد أن حرَّم عليه الدين وأدها تحت التراب؟...

ذرفتُ في ظلام الفندق نزيفًا من الدموع الجريحة الحرّى! لم أبكِ طوال حياتي بذلك العنفوان، بتلك التعاسة. لا أذكرُ أيضًا أنَّني صارحتُ نفسي أو واجهتها طوال حياتي بتلك الجرأة والشفافية أبداً.

عاد الضوءُ للغرفة. تفقَّدتُ كمبيوتري الذي لم يُصب بأذى من جراء انقطاع التيّار ولله الحمد. لجأتُ إليه، سألته المدد والنجاة لأهرب في أجنحته من تلك المواجهة القاسية مع نفس رقيقة رهيفة لا تتحمَّلُ القرع أو اللكمات. ساعدتني على الهروب الساذج الجميل أسئلةٌ مشجِّعةٌ معاكسةٌ تمامًا للأسئلة السابقة: لماذا لم يحالفني الحظُّ مرّةً واحدةً في حياتي؟ لماذا لم يلقِّنّي القدرُ غير النكسات والانكسارات؟ أليس لأنّه يعدٌّ لي وليمةً وهديَّةً قدريَّةً تُعوِّضُني كلَّ ذلك: أريج، أعظم الولائم، أعظم الهدايا؟ ألا أستحقُّ أريج بعد كلِّ ذلك العذاب أكثر من أي إنسان في هذا الوجود؟...

بعد عشر دقائق فقط من عودةِ التيّار الكهربائي كانت شاشةُ أريج، المنتصبةُ على منضدة الفندق، قد امتلأت بواجهة «الأستوديو الافتراضي» الذي سأشتغلُ عليه: أمامي في إحدى أركان الشاشة رسوماتٌ بيانية لذبذبات أصوات. في ركنٍ آخر صورُ أجهزة موسيقيَّة تقليديَّةٍ يكفي نقرُها بفأرة الكمبيوتر لسماع الأصوات الموسيقيَّة الحقيقية نفسها التي تبعثُها تلك الأجهزة. في أركان أخرى من

الشاشة سربٌ من البرامج واللغات لكتابة النوتات الموسيقيَّة، لخلط وتنقية وتركيب وتعديل وصقل الأصوات الاصطناعيَّة...

ثم هناك في وسط الشاشة أيقونةٌ تؤدِّي إلى بنك من الطوبات الصوتية: مكتبةٌ هائلةٌ من آلاف الأصوات الاصطناعيَّة الصغيرة التي يمكنُ لُها واستخدامها وتعديلها في كل الاتجاهات. تحتوي هذه المكتبة على النبرات الصوتيَّة لكلِّ الآلات الموسيقيَّة المعروفة، على أنماط موسيقيَّةٍ مستوحاةٍ من الذاكرة الموسيقيَّة الجمعيّة: جاز، بلوز، روك... وعلى آلاتٍ غير معروفةٍ أبداً، خياليةٍ تماماً. أصوات جديدة!

كان فضاءً متعدِّداً مذهلاً إلى أقصى حدود الإذهال ذلك الذي تختلطُ فيه أصوات موسيقيَّة إلكترونيَّة لأجهزةٍ تقليديَّة، بأخرى مبتكرة من العدم، بأخرى تقعُ بمثابة «المنزلة بين المنزلتين»: إيقاعات ودقّات وترنيمات إلكترونيَّة غريبة تشبهُ في بعض الأحيان، قليلاً أو كثيراً، شيئًا ما: سيل مياه، زقزقة عصافير تطيرُ في الفضاء، أنيناً ولوعة، دقات أوتار إلكترونيَّة تذيبُ القلب، أخرى تُجنِّنُ بالعقل، أخرى تُدوِّخُ الرأس: اضطرابات معديَّة، أزيزُ ذباب، قرقرة، «مَعيْط»، «عِرَاب صَرُور»... أو مقاطع إيقاعية متنوِّعة مجهولة المصدر وكأنَّها مستخلصةٌ بشكلٍ أو بآخر من أزيز محرّكات وآلات مصانع، رنين أجراس ونواقيس، نقير أبواق وقرعِ طبول، منع التجوُّل، طنين حشرات، هدير أمواج، أشيش خافت، غمغمات جمهور، ناي إلكتروني، دندنات فريدة، نغمات شوق من نوع موسيقيٍّ جديد، ولع وتوشيح

صوفي، رجفة، هلع، شهقة موت، زغردة عصافير في غابة استوائيَّة، رعد، هبوب رياح، صرير، زخّات حركات حميمية غامضةٍ جذّابة، مقاطع تشبه ولا تشبه موسيقى الجاز، إيقاعات دفوف، أو أخرى تشبه إيقاعات رقصة الصيادين في عدن: «الليْوَة»، ذات الأصولِ الشرق أفريقية، التي أتذكّرُ إيقاعاتها نفسها في بعض الرقصات الشعبيَّة التنزانية في قرى طفولتي قرب بحيرة مانيارا...

ربما تستشفُّون الآن لماذا دخلت الموسيقى الإلكترونيَّة الحاضر من أوسعِ أبوابه، وكيف أضحى الكمبيوترُ، الذي يكفي دلكهُ أو برمجته بالأحرى ليقول لك بعدها: «شبّيك لبيك عبدك بين يديك!»، كيف أضحى خاتم سليمان العصر دون منازع!

بدأتُ بالإصغاء لمقطوعات إلكترونيَّة تقليديَّة كنتُ أستمعُ لبعضها خلال أيّام وحدتي وانعزالي في سانت مالو. هربتُ من جديد خلالها. رميتُ بفضلها كلَّ الأسئلة الصريحة التي أرهقتني قبل قليل، رميتُها بين متاهات كيلوهرتزات الذبذبات الصوتيّة وكيلوميجات الملفّات الكمبيوتريَّة التي كنتُ أراقبها مثنى وثلاث... عاد لي الحلمُ قويًّا من جديد. تفجَّر في رأسي بركان من الأمل. هربتُ تمامًا من كلِّ آلامي العتيدة وأنا أتقاذفُ نفسي بين قراءة برامج الأستوديو والإصغاء لبعض المقطوعات، هربتُ دون رجعة.

قضّيتُ الساعات الأخيرة من ليلتي الأولى أتوهُ في كلِّ نواحي الاستوديو، أُقلِّبهُ في كلِّ الاتجاهات. أعيدُ الإصغاء لمقاطع شهيرة من

موسيقى مدينة ديترويت، مانشستر، شيكاجو... أحاولُ أن أستوحي من الخطوط البيانيَّة لذبذباتها شيئًا ما يساعدني في تصميم مقطوعتي، أصغي لنماذج مختلفة من بنك طوبات الأستوديو الافتراضي. أصغي لأغانٍ غربية حديثة لكبار الفنانين العالميين الذين صاروا يُعطِّرُونَ موسيقى أغانيهم بشذرات من الموسيقى الإلكترونيَّة. كنتُ مستعجلاً جداً، بريئًا جداً، حالمًا جداً، متفجِّرَ الطاقات والآمال بشكلٍ مذهل.

لتوليف مقطوعتي التي أحلمُ بها، قرّرتُ ليلتها أن لا أكتب أيَّ قطعةٍ موسيقيَّة لأني لا أعرفُ استخدام لغةِ النوتاتِ والسلالمِ الموسيقيَّة. قرّرتُ أن أُلصق بعض الطوبات، أُغيِّر رتوشها، أُعدِّلها، أُراكبَها، «أُشقْلبها»، أضيف لها أنغامًا أخرى. تذكَّرتُ العبارة الرائعة الشهيرة: «الأعمالُ بالنيّات!». قلتُ لنفسي: لعلَّ كلمتين صغيرتين مثل «أنا أفدي قلبك» من فم عذب يُخرجهما من أحشاء الفؤاد هما أفضل مليون مرّة من كتاب متحذلق عن الحب. نعم، «الأعمالُ بالنيّات!» لأنِّي لا أبحثُ بالطبعِ عن كتابة سيمفونيَّة بكلِّ تأكيد! أنا أبحثُ عن كتابة نداءٍ يُدوِّي من الأعماق، يسقطُ على مسمعِ غائبتي البعيدة جبالاً من اللوعة والعشق والأشواق.

وجدتُ فكرةً لمقطوعتي سيخرُّ قلبُ أريج من عرشِه عند سماعها: رحلة شهر العسل. قرّرتُ أن تكون مقطوعتي فيلمًا موسيقيًّا يرسم رحلة شهر عسلي معها في الجبال الحضرميَّة. غفوتُ تلك الليلة

سعيداً جدًّا وفي ذهني مشروعٌ نابضٌ اختمرت وتبلورت فكرتهُ طوال منامي: سأكتبُ مناظر الرحلة منظرًا منظرًا بأحرفٍ من الأنغام الإلكترونيَّة العاشقة!

لم أنم تلك الليلة إلا بعد الرابعة فجراً. لم أنم الليالي اللاحقة أيضًا إلا آخر الليل. قضّيتُ معظم ليالي صيف ١٩٩٣ على هذه الوتيرة. لم يكن لي همٌّ يكتسحني، يحتلُّني تمامًا، أتعلَّقُ به كما يتعلَّقُ البعض بمدد الأولياء وذوي الكرامات، غير تعلُّم خلق مقاطع موسيقيَّة إلكترونيَّة أترجمُ فيها بركان اللوعة السجين في أعماقي، أصبُّ ذلك البركان سيلاً دافقًا من الألحان الولهانة، قبل أن أطلق سراح تلك المقاطع من داخل كمبيوتري، ذات ليلة مقمرة ناصعة النجوم، فوق سقف سمسرة النحاس، ليخفق قلبُ أريج عند التقاطها، لتسري حينها نحو هذه المقاطع التي تنتظرُها منذ أمد، لتتجلّى أمامي بكلِّ سنائها...

في الغد، عندما بدأتُ مقطوعةَ «الرحلة»، لم يكن لديَّ منهجٌ ما. كنتُ، والحقّ يقال: «أُهاطش» لا غير. أضخُّ من مقطوعات شهيرة دلواً وراء دلو من النغمات المبتورة التي أشعر أنّني سأستفيدُ منها، «أُواسق» طوبات من بنك الأستوديو، أُعدّلُها قليلاً أو كثيرًا. أوازنُ بين شذرات من إيقاع الآلات الوتريّة، مع شذرات من إيقاع آلات الدفِّ والقرع، مع شذرات من إيقاعات الآلات النافخة. أجمعُ بين الإيقاعات الجهيرة الغليظة من ناحية والرخيمة الرقيقة من ناحية أخرى، أحاول مزج الآلات التقليديَّة بالافتراضيَّة...

ثمّ وجدتُ أنَّ ذلك لا يسمنُ أو يغني من جوع لأنَّني كنتُ بحاجة بادئ ذي بدء لخلقِ جوٍّ عام لمقطوعتي، لبناء بُعدها الاستراتيجي وديكورها الخلفي، لخلق مداميك موسيقيَّة تُوحي بفكرتها الرئيسة: الرحلة.

بدأتُ كلَّ شيءٍ من جديد. بحثتُ في بنك الأستوديو عن دندنات شرقيّة حرّى، عن «أمان أمان...» تخرجُ من عمقِ القلب، عن أنغام عاشقة تتقطَّرُ من صميمه، عن أصداء توشيحات صوفيَّة تُوحي بالرحلة، باللوعة، بالعشق والأشواق... خلطتُها جميعًا في خلاطات الأستوديو الافتراضي لتكون مُحصّلتُها مناخ المقطوعة، متنها، وشكلها العام.

ثمّ صمَّمتُ فوق طبقة الأساس هذه طبقةً أخرى، وضعتُ فيها تلميحًا موسيقيًّا لكلِّ صورة تخطرُ في خيالي وأنا أسيرُ على حصاني في ظلِّ أريج فوق جبال حضرموت. طرَّزتُ المقطوعة بصهيل أحصنة، بتفجُّر ينابيع، بأشيش لذيذ خافت. أضفتُ هنا وهناك رفرفة الفراشات البيضاء التي تمرُّ أمامنا، هبوب النسمات الرقيقة، خفقان أجنحة أسراب الطيور وهي ترسم في سماء الوادي أشكالاً ما... حاولتُ أن أحاكي ضياء الوادي، عذريّةَ الطبيعة، الغسق القمريَّ السنيَّ كما كنَّا نراهُ، ونحن نواصل التقدُّم فوق صفائح القمم المستوية لجبال الوادي. رسمتُ بالأنغام الإلكترونيَّة نزولَنا عن الحصانين، توقُّد النار التي أولعناها قرب نخلة نائية في ركن جبليٍّ معشوشب جميل، هدوء

الضوء في الخيمة التي نصبناها قُرب النار، تألُّقَ النجومِ السابحةِ في غسقٍ ربّانيٍّ بديع، شعر أريج الذي استنشقتُه ورأيتُه لأول مرّة متمرّدًا هائجًا دافقًا عبقًا كشعر أجمل حوريّات الجنّ في كتب الأساطير، جسدها الإلاستيكي الرشيق الذي امتلأت بشرته الورديّة النقيّة برسومات وخطوطِ فسيفساء منقوشة بخضاب الحنّاء من أعلى الصدر حتى أطراف أصابع القدم، تماوج تلك النقوش البديعة على إيقاعِ امتداد جسدها السلسبيلِ وتكوّراته العبقريّة، وجهها الفاتن بعينيه العسليَّتين وثغره الشبقيِّ الشهي، عبق جسدِها الذي تكحّلت كلُّ خلية من خلاياه برائحة بخور حضرميٍّ همجِيٍّ شهيّ، وعطر زكيٍّ يمتزجُ فيه نفحٌ من العنبر الأصيل، برائحة فلِّ لَحَج في عزِّ قيظ الصيف، بعصارة ورود البراري النادرة...

أضفتُ طبقةً موسيقيَّةً ثالثة، ناثرتُ فيها أنغامًا موسيقيَّةً من فلكلور قبائل البربر الجزائريَّة، وأصداءً إيقاعيَّة من شرق أفريقيا...

ثمّ ختمتُ المقطوعة بطبقة حميميّة تكسوها كقشطة خفيفة: يكفي أن تُحرِّك أريجُ يدها، أن ترفع خصلةً من شعرها، أن تكشف باقةً من جسدِها... لأترجم ذلك بشكل أو بآخر عبر قطعة موسيقيَّة إلكترونيَّة تقاربُ تلك الحركة، تُجسِّدُ ذلك الجمال، تترجمُ خفقان قلبي...

عندما اكتملت الطبقات الأربع، بدأتُ أتوتَّرُ من جديد وأدورُ حول نفسي في حلقة مفرغة. قلتُ لنفسي: كثُرت زخرفتي هنا أو

هناك، ضاع الجوّ العام هنا أو هناك، عليّ أن لا أغوص في التفاصيل في هذه الزاوية، أن لا أغرق في التنميق في ذلك الممر... ثمّ بدأتُ أُنظّفُ وأُنقّي كثيراً مما أضفتُه خلال الأيام الماضية، أختزلُ أو أمحو تماماً مقاطع ما هنا وهناك، كي تحافظ المقطوعة على نخاعِها الشوكي، هيكلها العظمي، شكلها العام... دخلتُ دوّامةً حقيقيّةً من الإضافات والإلغاء، أمسحُ أشياء أضفتُها، دون توقُّف، ثمّ أعيدها من جديد أحياناً. كنتُ، عندما أغرق في تلك الدوّامة، ألجأُ للتبسيط لأخرج في النهاية بشيءٍ ما يخلو من الغلو والنزق المترف، يريحني إلى حدٍّ ما.

تعلَّمتُ في الأيام والأسابيع اللاحقة عادةً جديدة: كنتُ أغمضُ جفنيَّ عند سماعِ ما كتبتُه في الكمبيوتر. أشعرُ بالسرور طالما أعاد لي ما أسمعهُ تفاصيل المناظرِ التي تخيّلتُها عند كتابة النص. وأشعرُ بالكآبة والأسى كلّما أكتشفُ أنَّ «لوحة مفاتيح» الكمبيوتر أو أذني خانتاني ولم أَجِد الفكرة التي كنتُ أبحث عن ترجمتها موسيقيًّا. أدقُّ رأسي حينها في جدار الظلمات، أفتح عينيّ بائساً يائساً من كلِّ شيء. تصرخُ في أعماقي عقدة أنَّني لست موسيقيًّا وأنَّني «أُهاطش» قبل وبعد كلِّ شيء، وأنني لن أصل لنتيجة جيّدة أبداً.

أدورُ على الفراشِ من جديد لياليَ ولياليَ. أمتنعُ عن الأكلِ أحياناً. أتذكَّرُ حكمة: «ومن طلب العلى سهر الليالي!» التي توسَّلت أن توصلني لقصدي مرّة واحدة في حياتي، هذه المرّة. أعودُ من جديد

لأُغيِّرَ المقاطع التي لا أرتاحُ لها. تسعفني لحظات إلهام تسترنُي بين ليلة وأخرى. لا يسترني قبل وبعد كلِّ شيء إلا مزيدٌ من العمل والمعاناة والسهر. تتحسَّنُ النتيجة بعد ذلك يومًا بعد يوم وإن كان ذلك ببطء ثقيلٍ قاتل.

ساعدني على تحسُّن مقطوعتي قراري باتّخاذ البساطة منهجًا أستجيرُ به عندما أسقطُ في دوَّامة حيرة وعجز لا أعرفُ الخروج منها. أبعدتُ من المقطوعة بفضل ذلك كلَّ تلك اللحظات العبثيّة التي حاولتُ فيها الرسم الموسيقي المتكلِّف لغيوم عبرت سماء الوادي، وكأنِّي كنت أريد أن أرسم في أشكال تلبُّدها آلهة الإغريق وهي تدخلُ في حروب على جبال الأولمب. ألغيتُ حركات الرياح الكثيرة التي أرهقت المقطوعة، محوتُ معظم توابل الأصوات والإيقاعات الغريبة التي أفرطتُ في إدخالها...

حافظتُ بالمقابل على أنغام الشوق واللوعة لتسيل جليَّة طوال المقطوعة، وسَّعتُ من حجم موسيقى الليل وهي تحتضنني مع أريج داخل الخيمة، قرب النار المتوقِّدة، أطلتُ من الموسيقى التي تحاكي في مشاعري هالة عطرها الكثيفة، منحنيات جسدها بتقعُّراتها وتحدُّباتها الفاتنة، وشم خطوط ورسومات الحنَّاء المسطورة على مخمل جسدها الدافئ، سطرًا تحت سطر، من أعلى الصدر إلى أطراف الأصابع...

وصلت مقطوعةُ «الرحلة» أخيراً إلى نهاية أرضتني. حاولتُ أن أستثمر أيضًا منهج البساطة الذي آمنتُ بجدواه، لعمل مقطوعات

أخرى أقلّ جهداً من مقطوعة «الرحلة» وإن لم تكن أقلَّ إثارة ودهشة في تقديري. من أجل ذلك، بدأتُ بالتسجيل على الكمبيوتر لبعضِ الأغاني التي أحبُّها والتي أشعرُ أنَّها تخاطبُ أريج تحديداً، تناديها، تحدِّثها عن تتيُّمي بها. بدأت بأغنية محمد صالح حمدون: «يا باهي الجبين»، بأغنية المرشدي: «يا نجم يا سامر!»، بأغنية أيوب طارش: «طاب البَلَسْ طاب»، بأغنية علي الآنسي: «خطر غصن القنا»، بأغنية أبوبكر سالم بلفقيه: «سِرُّ حُبِّي فيك غامض!»، بأغنية فيروز: «يا ليلُ، الصبُّ متى غدهُ؟»... سجَّلتُ أيضًا أغانيَ فرنسيّة فولكلوريّة طفوليَّة: «كانت هناك راعية!»، وأغانيَ شاعريَّة أذوبُ إعجابًا بها: «مثل زهرة كوكليكو» التي يُغنِّيها ميلودجي، «المرأةُ مستقبلُ الرَّجُل» لأراجون التي يغنيها جون فيرا...

حذفتُ من كلِّ تلك الأغاني أصوات الفنّانين عبر مسحِ خطوطها البيانيَّة بفضل بعض برامج الأستوديو. حافظتُ على إيقاعاتها ونوتاتها. ثم نغَّمتُ بفضل الأستوديو الافتراضي وعصواته السحريّة بعض مقاطعها بآلات موسيقيَّة مختلفة عن آلاتها المستعملة، بآلات موسيقيَّة جديدة أحيانًا. لعلّ أجمل ما عملتهُ في هذا المضمار كان دون شك عزف موسيقى أغنية «سرُّ حبِّي فيك غامض!» بالناي فقط. كنتُ أذوبُ إعجابًا عند سماعه يخرجُ نظيفًا صافيًا من ثغر الكمبيوتر دون انقطاع نفس، أو خلل طارئ، أو سعال مفاجئ:

سِرُّ حُبِّي فيك غامض   سرُّ حبِّي ما انكشف!

إِيش ذي خلاَّني أعشق فيك والعشقة كَلَف؟

إيش أوقعني بأشباكك وأنا عيني تشوف؟

لا تُعذِّبْني وإلاّ

سِرْت وتركت المُكَّلاَ، لَكْ، إذا ما فيك معروف...

قلتُ لنفسي: حتى لو كانت أريجُ في السماء العاشرة فستأتي «مُهرِّيةً» عند سماع أصداء هذا النداء الباطنيِّ العميق لفائية الشاعر المحضار العبقرية، منحوتًا بالناي، مهديًّا لها، لأحلى «إسم في قلبي رباعي الحروف» كما تقول كلمات الأغنية...

هكذا اعتكفتُ في دهاليز أستوديو أريج الافتراضي طوال الصيف، حتى نهاية سبتمبر. توحدتُ معها مثلما كنتُ أتوحَّدُ مع شهرزاد في سانت مالو، بلهفة ما بعدها لهفة، بهمّة وعزيمة غريق. الحقُّ أن التشابه بينهما كبيرٌ جدًّا. نموذجهما الروحيُّ المجرّد واحدٌ تقريبًا: خلقُ نصٍّ مبدع من طوبات أوليَّة. مع فرق بسيط: شهرزادُ طوبتُها الكلمة، وأستوديوهات أريج الافتراضية طوبتُها النغم.

وجدتُ نفسي أعيشُ مرَّةً أخرى مرحلةَ شغف صوفيٍّ جديدة، وكأنِّي في سانت مالو. مع فرق لا يستهان به: كلُّ الأبواب التي تحيطني في عمارة سكني في سانت مالو كانت مغلقةً تمامًا، لا صوت يأتيني منها غير دويِّ الصمت المعربد في الغابة المتاخمة للسَّكن الجامعي. أما هنا، في فندق «ساحة التحرير» فجميع الغرف المحيطة بي مفتوحةٌ على مصاريعها. «مخزنو» القات يكتظّون في كلِّ الغرف

المجاورة لي تقريبًا. يعمهون في فلك من الهلوسة والثرثرة والتخدير. في غرفة مجاورة لي تمامًا صخبٌ مكهربٌ يشتدُّ نزقه ونرفزتهُ كثيرًا بين الحين والآخر. للنقاش فيه رائحةُ عراك واختلافات على أراض وعقارات وأملاك... هاأنذا إذن أتَّجهُ للموسيقى الإلكترونيَّة، المستقبل، من داخل مقبرة! أحاولُ، في معملي الإلكتروني هذا، أن أتعلَّم كيف أختزل مسافات السنين الضوئيَّة التي تفصلُ حورية السماء الثامنة عن الدرك الأسفل من الأرض الثامنة... سأختزلهُ سريعًا ليبدأ أخيرًا: «زمنُ أريج»!

الفصل الخامس

صنعاء القديمة «باي نايت» !

غبتُ هكذا عن ليالي صنعاء القديمة، بعد أن كنتُ، قبل مجيء كمبيوتري، أتوجهُ إليها كلَّ ليلة، عندما يتوغّلُ الغسقُ بشكل خاص، لأعيش حينها ساعات الأشباحِ والأطيافِ والأخيلة، ساعات الكائنات الخفيّة، ساعات حوريات السماء الثامنة. . . ربّما يلزمني أوّلاً، قبل أن أحكي لكم أين وكيف تجلَّت أريجٌ بكلِّ سنائها أمامي هنا في قلب صنعاء القديمة، في ليلة قمريَّة جميلة في نهاية سبتمبر ١٩٩٣، يلزمني أن أُحدِّثكُم قليلاً عن «صنعاء القديمة باي نايت»، أو عن ليالي صنعاء القديمة الساهرة إذا فضَّلتُم ذلك!

صنعاءُ القديمة في الساعات المتأخِّرة من الليل عالم نادر بحدِّ ذاته، شديدُ السيريالية. تختلف كثيراً عن صنعاء النهار وبداية

المساء. تشبه من ناحية «ساحة المعجزات» في رواية «أحدب نوتردام»: يزداد امتلاؤها أكثر من النهار بالجياع، بالمحرومين، بأنواع لا حصر لها من المعاقين، بأشكال نادرة من المجانين... تضجُّ بـ «الأخدام»: أفقرِ وأكثر الشرائح الاجتماعيَّة اليمنية بؤسًا واضطهاداً ومعاناةً للعنصريّة...

وتُشبِهُ من ناحية أخرى جزيرة أسرار: أضواء خافتة هنا وهناك، أشباح تلوح وتضيع فجأة، نساء تمرُّ كأطياف في أطراف الزقاق وتختفي سريعًا، مواعيد غرامية سرِّية، تنهُّداتٌ تتسلَّلُ من خلف بعض العمارات، من أسفل الخرائب، من الأبواب المغلقة... للّيل هنا لون تكتنفهُ الأسرار، يُذكِّرُك أكثر من أي مكان آخر بليل جبران خليل جبران: «ليل الأرواح والأشباح والأخيلة! المارد الواقف بين أقزام غيوم المغرب وعرائس الفجر! الناظر بألف عين وعين لحركة الوجود والزمن، السامع بألف أذن وأذن لأنَّة الموت والعدم...».

صنعاء القديمة ساحرةٌ جداً عندما تدثِّرُها ظلمات الليل. لـ «قمريّاتها الصنعانية» ألوان ليليّة رومانسيَّة تحملك عشرة قرون إلى الخلف، إلى ليالي ألف ليلة وليلة مباشرة. تذهِلُك صنعاء القديمة كلّ مساء، بعبارة عميقة تسمعها من وجه يختفي في لمحة بصر لكنّها تظلُّ ملتصقةً بذهنك مدى العمر. تغيثُك بامرأة، كعنانيص، تظلُّ مأخوذاً بها تبحثُ عنها عبثًا في كلِّ مكان. تقهرُك بعجوز يحكي لك عمراً كلُّه عذاب منذ عهد الأئمة الملكيّين حتى عهد

الأئمة الجمهوريين الجدد. تصفعُك بعابر سبيل يسألُك وأنت غارق في غيبوبة الخمول اللذيذ: «ألا يُضايقك أنَّك لم تسأل نفسك يومًا كيف مات سلطان القرشي وصحبُه؟». تفاجئُك بكهل قادم من جبل ما، كأنَّهُ حكيمٌ من العصور السحيقة، فيلسوفٌ من العصر الهرمسيّ، نبيٌّ من العهد القديم. يمرُّ أمامك بقامة صلبة ممشوقة فخورة، بقميص أبيض نظيف، بمعطف رماديٍّ غامق أنيق، بلحية بيضاء متقنة القصّ، وبوجه ذي وقار وجمال ونورانية فريدة. ستتساءلُ بالتأكيد إن لم يكن ملاكًا بهيئة إنسان، أو صورة مماثلة لنبيٍّ من عصور بداية ميلاد الأرض...

يكفي أن ترى صنعاء القديمة ليلاً من فوق سمسرة النحاس لتثق بأنَّ «مدينة ما بعد الطوفان» ما زالت كما خلقها اللّه في اليوم الأول، لم تتغيّر أبداً. قلعةٌ تقاومُ التقدُّم والحداثة والمدنيَّة وحركة الزمن. متحف كونيٌّ دائم يشرحُ للإنسان الحديث، على الطبيعة مباشرة، حياة ما بعد الطوفان.

يكفي أن ترى مدينة الإمام «أحمد ياجنَّاه» ليلاً من فوق سمسرة النحاس لتسمع ضجيج الجنّ قرب الأفق، لتشعُر أنَّ ثمّة فوضى حادّة في عالم الجن، اضطرابات سياسيَّة، اجتماعات سرّية، مفاجآت غامضة...

كنتُ أتحاشى في منتصفِ الليل أسواق صنعاء القديمة الرئيسة، لأنَّ كلَّ أولئك الذين كانوا فيها دائخين في سكرة القات منذ منتصف

النهـار، باتوا الآن في أعلى مـقـامـات الانسطال. كلُّ أولئك الذين اكتشفوا في المساء أنَّ ساعات «الرولكس» التي اشتروها في النهار أمام «باب اليمن» أمست عاطلة، باتوا يجوسون تلك الأسواق، ملوِّحين بجنابيهم، بحثًا عن بائعي تلك الساعات...

ثمّة بشر لا تخرجُ إلا في الليل فقط، آخر الليل. يزداد عدد المجانين هنا بشكل لا يخطرُ على بال مع قروبِ الفجر. كثيرون ينامون أنصاف عراة، بفخوذ وأعضاء تناسليَّة صدئة. كلابٌ هنا وهناك. ثيران تعبر الشوارع في منتصف الليل، تمشي الخيلاء بكلِّ ثقة وهدوء ووقار وحكمة.

الليل في صنعاء القديمة ساعة الانتقامات، الطعنات، الدعاء، البكاء، اللقاءات السرّية لمحرومين يتضاجعون في أزقّة بعيدة وعمارات خربة. الليل ساعة البحث عن النوم في الأماكن المهجورة أو في «اللوكندات» التي تعرض أفلامًا إباحية من النوع الرخيص جدًّا، لإِثارة جياع ذَبِلَت فيهم عروقُ الحياة، أو لإِشباع محرومين لا يستطيعون سدَّ رمق حاجاتهم الأولية البسيطة.

الليل ساعة التهجُّد والعبادة، ساعة الأسى والأحزان. ساعةُ الإحساس بالفراغ، بضحالة الحياة، بخلل جوهريٍّ في بنيتِها وسيرورتها. الليل ساعة خروج أنواع غريبة من الفئران بأشكال بيولوجية فريدة، تُناكحُ القطط والكلاب، تغتصبُ بني آدم، تعربدُ آخر الليل، تطاردُك إذا اقتربت من أراضيها...

كنتُ أتحاشى أيضًا الأركان المظلمة، ذات الفوانيس الخافتة، التي يتواجد فيها بائعو قات آخر الليل. كنتُ أعتقد دومًا أنَّني إذا وجدتُ نفسي ذات ليلة أشتري فيها قاتًا، فعليَّ أن لا أتأخر ثانيةً عن أن أحفر قبري وأقرأ على نفسي الفاتحة، وإن كنت أظنُّ أنَّه لا حاجة لي لذلك لأنَّني صرتُ اليوم في «علبة الصاردين» أحيا ميِّتًا يتخثَّرُ بهدوء في ركن قصيٍّ مهجور في مملكة الموتى.

كنتُ أتحاشى أيضًا الأركان البعيدة والخرائب المظلمة جدًّا. أشعر أنَّ فيها نوعًا غير مألوف من المجانين. بعضهم يحرِّك يديه ورأسه، يمشي خطوتين إلى الأمام ثمَّ إلى الخلف، يرفع يديه ورأسه، ينطق كلمات غير معروفة بنمط خطابيٍّ مهنيّ وكأنَّه في مسرحية شكسبيريَّة صامتة. بعضهم يبيع أشياء غريبة: مصابيح حارقة، قوارير مكسَّرة، رموزًا انتخابيّة لأحزاب حاكمة، مأكولات غير تقليديّة: فئرانًا مقليّة، «جوالب» مشنوقة، كربونات بطاطس، سندويتشات عقارب، صوصة بالعنكبوت، حنيذ لحم كلاب... وبعضهم يمارس مناسك غريبة لا أستطيع الحديث عنها هنا.

أكثر ما كان يُثيرني عند توديع صنعاء القديمة في آخر الليل عائدًا لفندقي، هو منظر شيخ ينام على هضبة صغيرة من الأحذية القديمة جدًّا، الرثَّة جدًّا، يفرشها بعد العاشرة مساءً في ذلك الموضع نفسه الذي وجدتُ فيه الشابّين القادمين على التو من سفوح قندهار. كان بائعًا متجوِّلاً متخصِّصًا ببيع الأحذية المتربة القديمة فقط. يضعُها

كلَّ صباح على صفيحة معدنية كبيرة مُجوّفة، مثبّتة فوق ثلاث عجلات درّاجات مهترئة، يعبرُ بها كلَّ شوارع صنعاء من «صُبح الله»، طوال اليوم، قبل أن يعود بها لذلك المكان تحديداً، يُخرجها حذاءً حذاءً، يفرشها طبقةً فوق طبقة، يرفعها سريراً وثيراً يتمرّغُ فوقه طوال الليل، ينامُ عليه كطفلٍ في ربيع العمر. لا يصحو منه بصعوبة إلا بعد شروق الشمس وبدء توافد الناس نحو الباب.

في بقعة من جدار السور وراء سريره الوثير مباشرة، وجدت ذات ليلة عبارةً طريّةً كبيرةً، مكتوبةً بطلاء أحمر بِخطٍّ لا يخلو من عجلة ونرفزة وعدم إتقان. لعلَّ أحد شابّي قلعة حسن الصباح هو الذي كتبها: «أمّةٌ لا تنهضُ لأداء صلاة الفجر، لا تستحقّ النصر!».

خرجتُ من الفندق في ليلتي الليلاء بعد التاسعة مساءً حاملاً كمبيوتري داخل حقيبته السوداء المعلَّقة على كتفي. بحثتُ عن قات أُهديهِ لعبد الجليل. اشتريتُ أفضل قات يمكن شراؤه في تلك الساعات الليليَّة التي يغشى ميدان التحرير خلالها وشاحٌ مكفهرٌّ لا أستطيعُ وصفه. يبدو الميدانُ حينها مُلبَّداً بالصفار مسكوناً بقرف وقلق من شيء ما، ضيّق الصدر، كئيباً كمقبرة.

عندما وصلتُ السمسرة احتضنني عبد الجليل، قال لي إنَّه افتقدني. سررتُ بذلك لأنَّني لم أسمع هذه الكلمة منذ أن وصلتُ صنعاء. افتتحت أساريرُه عندما رأى القات الذي حملته له، رتّلَ حينها بعض قصائده الشعبيَّة التي نظَمها لي شخصيًّا، على غرار:

تِسْلَمْ وتِنْعَمْ وتِقوى وتِشِبْ

وتِتْزوَجْ من حيث ما تحِبْ

برضاء أهْلِهْ وإلا سَتَسْتَحِبْ!

لم يُقَصِّرْ أيضًا في ارتجال ما أسماهُ بالشعرِ المُقَّفى الفصيح، هو الذي يميلُ كثيرًا لِقصائد عنترة بن شدّاد ويحفظُ بعضها عن ظهر قلب:

ألا وا دانْ وا دانِ   أريجٌ بنتُ مرجانِ

خيرُ الناسِ والجانِ   لوجدانِ ابن قحطان!

لم أضحك إطلاقًا من بلاغة شعره الأقرب إلى نظم ألفيَّة من الدرجة الثانية منه إلى بلاغة أشعار المعلّقات. قلتُ في طيّاتي: «من حلقَك إلى ربَّك!». دعاني للنزول للدور الأسفل من السمسرة. بسطَ «مدكأي» قات لكلَينا وإن كنتُ حينها لا ألوك القات إطلاقًا. رصَّهُما على فراشٍ ألصقهُ بأحد جدران السراديب الداخليَّة للسمسرة.

اكتشفتُ أنَّ لديه تلفونًا نقَّالاً. أعترفُ هنا للحقيقة والتاريخ أنَّني لم أر تلفونًا نقَّالاً في كلِّ فرنسا حتى مغادرتي إياها في يونيو ١٩٩٣، فرنسا التي تميَّزت وحدها منذ الثمانينيات بأجهزة الـ «مينْيْتل» التي كانت تمنحُ مجانًا للمنازل لمدِّها بخدمات شبيهة بخدمات أنترنت اليوم، فرنسا التي تطلقُ بانتظام صواريخ «آريان» حاملةً الأقمار الصناعية تلو الأقمار الصناعيَّة، فرنسا التي تتصدّرُ

أوربا اقتصاديًّا بجانب ألمانيا، عسكريًّا بجانب بريطانيا، وتحتلُّ وحدها موقع الريادة الثقافيّة والفنيّة والسياحيّة... لم أر فيها تلفونًا نقّالاً وهاأنذا أراهُ لأوّل مرّة في حياتي بيد عبد الجليل، حارس السمسرة، يلعبُ به كطفل في مقتبل العمر. قلت لنفسي: العالم مُثخنٌ بالمفارقات حقًّا!

كان عبد الجليل ملهمًا ذلك المساء. لعلَّ طراوة أغصانِ القات فتّحت قريحته وأغدقت أفكاره، أو أنّهُ كان مشتاقًا حقًّا للحديث معي. انتقل في أحاديثه من التاريخ إلى السياسة والأدب، وهو يقلِّبُ التلفونَ النقّال في يده تارةً ويتغزّلُ بلمعة ونضارة أغصان قاته تارةً أخرى... كاد يُحرِّر فلسطين منذ الغُصن الثاني، وبدأ من الغُصن الثالث يوزِّعُ خيرات آبار البترول الجديدة، التي اكتُشفت حديثًا في حضرموت، على الشعب اليمني الذي ينتظرهُ، كما قال، موعدٌ قريبٌ جدًّا مع الرخاءِ والرفاهية، ستبدأُ بشائرُه، على حدِّ تعبيره، بعد ثلاث سنوات أو سنتين، أو ربّما من العام القادم: ١٩٩٤! كما تنبأ بعد غصنٍ أو غصنين.

وزَّع الآبار بعدل على الشعب اليمني، ولم ينس بعد غصن القات الخامس أن يمنح نفسه منها بئرًا «صغيرة» تكفلُ له الحياة كأمير «بسيط» من أمراء بترول السعودية والخليج... ثمّة تواضع نبيل في أحلام الفقراء الذين «لا يستطيعون حتى تربية أحلام باذخة في الرؤوس الصغيرة لأطفالهم» كما يقولُ الشاعرُ الرائع محمد

عبدالوهاب الشيباني... بدأ عبدالجليل يتخيَّلُ نفسه أميراً «بسيطًا» كما أصرَّ، لابسًا القميص والعقال السعوديّ، غير أنَّهُ ظلَّ محتاراً في اختيارِ جنسيّات سائقه وحارس قصره «المتواضع» وبقيّة خدمه. كان صعبًا عليه تفضيل جنسيّة على أخرى من بين أبناء الهند أو أندونوسيا أو الحبشة. تحدَّث عن ميزات هؤلاء وأولئك، عن عيوب هؤلاء وأولئك...

عندما جنَّ الليل لم أعد أصغي لمُسامري إطلاقًا. صرتُ في عالم آخر. بدأ قلبي يخفقُ حينها، كقلبِ إنسان عاش ٣٥ سنة بانتظار لقاء سيحينُ موعده بعد لحظات. ثمّ شعرتُ بالسكينة وتلاشي القلق الداخلي. إلهي، كم تغيَّرتُ تمامًا في صنعاء! هاأنذا أخيراً هادئٌ حكيمٌ لا تعتريني الربشة والتوتُّر كما كنتُ في السابق! شعرتُ بجلال اللحظة وبضرورة أن أفاوضَها بحكمة وسُموّ، وأن أقترب منها بوقار وهدوء وأمل كبير أيضًا.

اعتذرتُ لعبد الجليل قائلاً إنّي أودُّ الطلوع إلى السقف والمكوث هنالك قليلاً للتمتُّع بمشاهدة سماء هذا الليلة المقمرة. لم أعد بحاجة لأشرح لعبد الجليل كثافة الشجون التي تزدحمُ في صدري لمجرَّد رؤية سماء الغسق الصنعانيِّ المُقمر. صعدتُ مع حقيبة الكمبيوتر المُعلَّقة على كتفي الأيمن. جلستُ على أرض السقف في ركنه الأيمن، مددتُ رجليّ، أسندتُ ظهري على جدار سوره. تنفَّستُ بعمق. حاولت الاسترخاء...

كان القمرُ بهيًّا حقًّا. نسمات ليل سبتمبر الصنعاني رقيقةٌ تشرحُ الصدر. كان ليلاً نقيًّا هادئًا حالمًا، ليلاً قدريًّا نموذجيًّا هُيئَ للقاء أسطوريٍّ فريد. ردَّدت بتركيز وعجلة آيات ودعوات كثيرة ساعدتني على الشعور بالطمأنينة والأمل. نظرتُ للسماء متوسِّلاً رافِعها أن يفتح لي كلَّ أبواب التوفيق والخير والنجاح، وأن يحقّق أحلامي ويرحمني، وأن يغفر ذنوبي ما تقدّم منها وما تأخر، وأن تكون ليلتي هذه سلامًا وخيرًا حتى مطلع الفجر....

فتحتُ الكمبيوتر الذي وضعتهُ على يميني في سقف السمسرة. توجَّهتُ إلى ملفَّات مقطوعاتي الإلكترونيَّة. أو أطلاء مقطوعاتي، يجدرُ أن أقول، لأنَّها لم تتجاوز الثلاثة أشهر من العمر فقط، بعُمر أطلاء ظباء وماعز أريج عندما كانت راعيةً في شعاب الأحقاف. لم أشعر بالنّقص والتسرّع بسبب تجريبيَّة وعفوية مقطوعاتي أو بسبب عمرِها الجنيني، لأنَّ عمرَها الحقيقي كان، كما تعرفون، ثلاثة قرون من العشق المعتّق.

بدأت بفاتحتي: مقطوعة «الرحلة»، التي ذرفتُ فيها معظم طاقاتي وشحناتي العاطفيّة. فتحتها تحت شعار: «الأعمال بالنيّات» وسط بسملات وتنهُّدات تفطر القلب. تابعتُ مقاطعها شبرًا شبرًا وأنا أهيم بناظري بين نجوم سماء هذا الليل الصنعاني المبارك. امتلأ صدري بأملٍ وسعادة. بدأتُ أذوبُ في فيلم الرحلة، وأنا أصغي له ينبعثُ من ثغر الكمبيوتر وأتخايلهُ في الوقت نفسه لوحات زيتيَّةً تسيل دون

توقُّف على شاشة السماء. ما أروع أن ترحل في غابة تفانيت في تصميمِها وزرعِها يومًا بعد يوم! ما ألذّ أن تشاهد نفسك بأُمِّ عينيك تقطفُ من جنائن الخيال كلَّ ما حرمتك منهُ صحراء الواقع!

أردتُ، مثل عازف الناي في قصَّة أمي، إِيقاف المقطوعة فجأةً في لحظة حاسمة لأرغم بذلك أريج أن تكشف عن ساقيها. أوقفتُ المقطوعة. لم تتجلّ معبودتي، لم يبدُ منها رمزٌ أو إِشارة. قمتُ، حدَّقتُ في فضاء صنعاء القديمة أستقصي نجومها وسدُمها، أبحثُ عن هالة ضوء مارقة، عن قوس قزح ليليّ، عن حلزون سنيٍّ عابر... عبثًا! أوقفتُ نظري طويلاً باتجاه سقف سمسرة محمد حسن المقابلة، في أنحاء النخلة النائية، باحثًا عن أدنى تلميح صوت أو بريق خاطف. عبثًا! أصغيتُ لهمساتِ الليل، فتَّشتُ فيها عن صوت يتشرنقُ في جوانحِ العدم: لا صوت، لا نبرة. لم أسمع غير أزيز بعوضة كانت تحومُ حول وجهي. تحاولُ بهوسٍ أن تتوحَّد بي، ترفضُ أن تبتعد. ثمَّة حضور ووفاء وتشبثٌ عنود في غرام «النَّامس» اليماني. حاولتُ جاهداً طردها لِئلا تعكِّر قدسيّة هذه اللحظات الرفيعة. انتصرتُ أخيراً بالتخلُّص من أزيزها الذي أوشك أن يشرخ جمال هذه اللحظات تمامًا.

واصلتُ مقطوعة الرحلة، ثمَّ أوقفتُها في إِحدى لحظاتها الغرامية الخطيرة: عندما بدأت أنغامها تتغزَّلُ بجسد أريج العطر الرشيق الساحر، تعبرُ وشم الحنّاء المنقوش عليه وشمًا وشمًا، تستنشقُ إِكسير

العنبر والبخور والفلِّ الذي يزدحمُ على كلِّ خليَّة من خلاياه. لا حركة هنالك مع كلِّ ذلك، ولا صوت. كلا، عفواً، كان هناك صوتٌ يتسلَّلُ إلى سقف السمسرة. صوتُ لحن موسيقيٍّ يصلُ أذني صاعداً من مكان ما. لعله كان هو أيضًا نغم أغنية تقليدية حُذِف منها صوت الفنّان، على غرار الأغاني الإلكترونيَّة التي أعددتُها لأريج على الكمبيوتر!

آه، أعرفُ إيقاع هذه الأغنية، هاهي تخرجُ فجأةً من خرائب الذاكرة. لكنِّي لا أتذكَّرُ كلماتها. كلا، عاد إليَّ الشطرُ الأوَّلُ فقط: «يا سلام ثوريّ على جيش شعبيّ!»... حاولتُ تذكُّر الشطر الثاني، عبثًا. ويحي، بدأتُ أنسى كثيراً، انقطع عرقُ الذاكرة في جبيني، لعلّي شختُ الآن وأنا لم أبدأ حياتي بعد. هل أستحقُّ الحياة على هذه المعمورة إذا انقطع في جبيني عرق التذكّر؟ لماذا نسيتُ الشطر الثاني من مطلع أغنية سمعتُها مليون مرّة في السبعينيات؟ تحوَّل نسياني لذلك الشطر هوسًا أوقف حبل رحلتي الرومانسية على بساط الموسيقى الإلكترونيَّة.

أغلقتُ جفني محاولاً تذكُّر الشطر الضائع. بذلتُ مجهوداً في التركيز والتذكُّر أنهك خلايا دماغي. عاد إلى ذاكرتي أخيراً ذلك الشطرُ الهارب: «... عندهم للخصم قطع الرؤوس!» فعلاً، إنَّها موسيقى أغنية: «يا سلام ثوريّ على جيش شعبي! عندهُم للخصم قطع الرؤوس!»

لم تكن أغنيةً تطفحُ بالرومانسية والعشق تلك الآتيةُ من الدور الأسفل من السمسرة، حيث كان عبد الجليل يستمعُ إلى قائمة المقاطع

الموسيقية المسجَّلة على سيليسيوم رقائق تلفونه النقَّال، والتي يمكنُ اختيارُ أحدها بديلاً لرنين التلفون التقليدي. اللعنة، لماذا انحشرت هذه الأغنيةُ الهمجيّةُ الكئيبةُ في جدول أعمال هذه الليلة الخالدة؟ لماذا أجهدتُ نفسي في تذكُّرها، في هذه اللحظات الرومانسية؟

تلاطمت في رأسي موجات ثلجيّة بأخرى ساخنة، تياراتٌ سالبةٌ بأخرى موجبة، ضغط جويٌّ مرتفع ومنخفض... امتلأ رأسي برقًا ورعدًا وأعاصير. أغلقتُ باب سُلَّمِ السقفِ الذي تعبرُ منه هذه الأصداء النكدة، طردت ذكرياتها من دماغي سريعًا. واصلتُ فتح مقطوعة «الرحلة» إلى نهايتها لأهرب من «ذكريات عندهُم للخصم قطع الرؤوس!»، ولأغرق في عالمٍ آخر.

وصلت «الرحلة» إلى نهايتها دون حركة أو صوت قريب أو بعيد، دون إشارة تلوحُ من سمسرة محمد حسن أو من أنحاء النخلة... لم أشعر باليأس مع ذلك، ردَّدتُ: ألم يداوم عازفُ الناي، في قصّةِ أُمِّي، العزف في كلِّ ليلة مقمرة، في نفس الموعد، في نفس الموضع؟ ألم يحترق طويلاً قبل أن تصلهُ معبودته من ضواحي العدم؟ ردَّدتُ أيضًا: «صنعاء لم تُبنَ بيوم!»، كما يقولون.

فتحتُ أغنية فيروز: «ياليلُ، الصبُّ متى غدهُ؟»، التي أعدتُ إخراجَها وتنغيم نوتاتها بالموسيقى الإلكترونيَّة. عبثًا، لا حركة ثمّة ولا صوت. أطلقتُ أغنية «يا باهي الجبين» التي عدَّلتُ وغيَّرتُ كثيرًا في أدواتها الموسيقيَّة. عبثًا. ألحقتُها بأغنية «خطر غصن النقا»، «يا نجم يا

سامر»... لا حركة ثمّة ولا صوت، غير صوت الهدوء القاتل. قلتُ لنفسي: أنا وهي والزمن طويل! سأواصلُ مراراً وتكراراً حتى تستسلم معذِّبتي، حتى تَخِرَّ صريعةً تحت وابل قذائف عشقي التي لن تتوقّف...

لم يعترِني اليأس. قلتُ لعلَّ أريج تميل للرومانسية الفرنسية. فتحتُ ميلودجي، جون فيرا بعد أن أعدتُ إخراج أغنيتيهما بتوابل إلكترونية شرقيّة! نظرتُ حولي، عبثًا! خفتُ أن تتأخر أريج طويلاً، أن تُعذِّبني كثيراً، لم أعد أمتلكُ الآن المقدرة على الصبر، شختُ كما يبدو كثيراً. استجديتُ مُعذِّبتي، التي لعلّها بدأت تخترقُ الغلاف الجويَّ لكوكبنا الأزرق، أن تطلع سريعًا من ثنيَّات العدم، أن لا تُعذِّبني أكثر من ذلك. تذكّرتُ كلمات المحضار: «لا تُعذِّبني وإلا، سرتُ وتركتُ المُكَلا...» كدتُ أنسى أُغنية: «سِرُّ حبِّي فيك غامض»، فتحتُها. عبثًا، لا حركة ثمّة ولا صوت من السمسرة المقابلة أو من أسفل النخلة. ليس ثمّة إشارة كبيرة أو صغيرة. لا، لعلِّي... أرى... بصعوبة كبيرة جدًّا، من موقعي هذا في أعلى سقف سمسرة النحاس، عباءة سوداء تُطلُّ كشبح أسفل تلك النخلة النائية!

نعم، ثمَّة فتاةٌ بعباءة سوداء أسفل النخلة، لم أرها قبل هذه الأغنية. أيُّ فتاة يمكنها أن تتجرأ الوقوف وحيدة في مكان منعزل كتلك النخلة، في منتصف نهار صنعاء القديمة ما بالك بمنتصف ليلها، إن لم تكن فتاةً آتيةً من مملكة الظِّلال العجيبة الواقعة وراء

دروبِ النهايات؟ حدَّقتُ مرّة، مرّتين، عشر مرات... مازالت جالسةً أسفل النخلة تنظرُ، كما يبدو، باتجاه علياء السمسرة. لم أكن أحلم! حدَّقتُ مجدَّدًا، ما زالت تصوِّبُ نظرها باتجاهي تمامًا. أشرتُ بيدي، بلا وعي، إشارة تحيّةٍ باتجاهِ النخلة تمتمتُ فيها أنَّني قادم بسرعة البرق...

رتَّلتُ في ثوان ألف آية، حمدتُ ربّي مليون مرّة. تحقَّقت المعجزة! بدأت أتنفّس!... عطَّفتُ الكمبيوتر بعجلة. تساءلت لماذا لم تتجلَّ أريج إلا على كلمات لشاعر حضرمِيٍّ من مدينة الشِّحر، يُغنِّيها فنانٌ حضرميٌّ من مدينة تريم القريبة من مدينة هود؟ خفتُ أن تكون أريج ذات نزعة قبليّة في اختياراتها! ثم طردتُ كلَّ شكوكي قائلاً: لعلّي نجحتُ باختيار الناي أداةً وحيدةً لهذه المقطوعة! لعلَّهُ يتواءمُ بتناغم شجيٍّ وإتقان ماهر مع هذه الكلمات المبدعة، لعلّهُ استطاع أن يؤجِّج كثيرًا غمزات كلمات المحضار العذبة وغرامها الغنج الجميل، لعلِّي تمكّنتُ بفضله من إيقاعها في الفخّ...

بدأتُ أشعر بمسحة غرور: لم أحتج مثل عازفِ النايِّ في قصَّة أُمي كثيرًا من البروفات والمناورات، أصبتُ صميم قلبها بأوَّل سهم، صدق المتنبي عندما قال: «على قدر أهل العزم...»! نذرتُ على التوّ بثور أتصدَّقُ به على الفقراء، وإن لم يعد مليونُ ثور كافيًا لإشباع فقراء اليمن الذين يزداد عددهم الآن يومًا بعد يوم! نذرتُ أيضًا بعمل مولدٍ، أنا الذي أحبُّ منذ صباي أجواء الموالد الدينيَّة ببخورها وماء

وردها التقليديين، بإيقاع دفوفها وأناشيدها التي أحفظها عن ظهر قلب. قرَّرتُ أيضًا أن أُجدِّد قليلاً بإدخال الكمبيوتر في المولد، بإغنائه بإيقاعات صوفيّة إلكترونيَّة! من يدري، قلتُ لنفسي، سيكون أوّل مولد إلكترونيٍّ في التاريخ!

هرعتُ أوّلاً لأُودِّع عبد الجليل. لا أعرفُ لماذا أسرع بإخفاء تلفونه النقَّال وكأنَّه هو الذي اتَّصل بالسماء الثامنة لدعوة أريج! قبَّلتهُ على الجبين قائلاً له إنَّه طالع خير لي، وتلفونه النقّال طالع خير لي، وصنعاء القديمة طالع خير لي، واليمن أمُّ الخيرات والأحلام... كان مرتبكًا في حين كنتُ أنا الأجدر بالارتباك. لعلّه لم يفهم شيئًا مما قلته وإن ظلَّ يبتسم أمامي تلك الابتسامة الغامضة نفسها التي تكشف شدَّة سمرة أسنانه. قلت له: لن تفهم شيئًا مما حدث لي هذه الليلة! إنّها ليلة العمر! لي، أيُّها العزيزُ، موعد مع التاريخ بعد لحظات!

خرجتُ مسرعًا، نزلتُ السُّلم أربعًا أربعًا باتجاه النخلة. قلتُ لِنفسي، سأحني رأسي حال الاقتراب من أريج، سأركعُ أمام قدميها. هذه لحظة العمر الكبرى! فديتكِ أريج! أسعد اللهُ مساءك، صنعاء القديمة!

الفصل السادس
العُقْدةُ الرابعة

بدأ قلبي يقرعُ بشدَّة وأنا أتوجَّهُ نحو النخلة. كنتُ أرتجفُ لأنِّي لا أعرفُ كيف سأُواجه أريج وكيف سأبدأُ حديثي معها. كنتُ أتفجّرُ سعادةً مع ذلك لأنِّي سأولد من جديد بعد لحظات، سأبدأ ما صار يحلو لي أن أسمِّيه: «زمن أريج».

غير أنَّهُ تهيَّأ لي عندما صِرتُ على بعد خطوات قليلة من النخلة أنِّي أمام امرأة متقدِّمة في السن، قصيرة، مكوَّرة جدًّا، صلبة الجسد، تخلو من كثير من الصفات الأنثويَّة التي تميل لها قلوب سائرِ الذكور... كانت تجلس على سجَّادة حمراء أسفل النخلة، في حالة تركيز روحاني، تتلو آيات من الذكر الحكيم، تُردِّد أدعيةً وصيغًا مملوءةً بطلاسم لم أسمعها من قبل...

عـدَلْـت عن فكرة خلع نَعليّ والانـحناء أمـامهـا. اقـتـربتُ منهـا بحذر. خطرت برأسي فكرةٌ أعادت لي الأملَ من النافذة بعد أن خرج من الباب: لـعلّ هذه السيّدة ستكـونُ أداة وصلي بأريج! لعلّهـا تشبهُ الساحرة الطيِّبة التي جاءت بعربة وحصانين لمنزل سندريلاّ في منتصف الليل لتقودها إلى حفلة الأمير الجميل الذي سقط قلبه غرامًا بها في تلك الحفلة! العالم مدهش حقًّا: الواقع صورة معكوسة للأسطورة! أريج أخـذت مـوقع الأمـيـر على أرض الواقع، وأنا مـوقع سندريلاّ! لا تنقصني إلا العربة والحصانان!

ما إن اقـتربتُ فعـلاً من النخلة إلا ورأيت السـيّدة ذات العـباءة السوداء تقفُ أمامي حاملةً «مسبحةً» بيضاء قديمة كبيرة الحجم. واجهتني، حيَّتني بأدب، قائلةً:

ـ لا تقلق يا ولدي! ابشر! الخيرُ ينتظرك وستصلُ قريبًا إلى فتاة أحلامك! هدّئ من روعك أوّلاً وصلِّ على خير الأنام!

ـ صلواتُ اللّه وسلامُه عليه وعلى آله وصحبه وسلّم!، رَدَدْتُ بنبرات ترتيليَّة مهنيّة غير مرتبكة إطلاقًا.

ـ اقرأ أوّلاً سورةَ الفاتحة، المعوِّذتين، الإخلاص، وآيات الكرسي.

قرأتُ تلك الآيات المقدّسة بخشوع وإجلال وتركيز روحانيٍّ خالص. بدأت أشعر بالهدوء وصفاء السريرة. صرت أخضع تمامًا لسيطرة السيّدة الصالحة مستعدًّا للإقلاع والسفر في أيّة لحظة.

حيَّيتها بدوري بعد ذلك. حزرتُها بعينين ثابتتين رغم ضعف الإضاءة أسفل النخلة. كان يصعبُ التفرُّس في ملامحها لأنَّ وجهها يختفي خلف نقاب لا تلوح منهُ إلا عينان لامعتان مُحاطتان بهالة من الكحل. لم تكن نظراتها هادئةً في البدء. كانت عيناها ثاقبتين تزيغان وتتحرَّكان في أكثر من اتجاه. لستُ أدري لماذا تخيَّلتُ دومًا نظرات الساحرات الطيّبات في الأساطير والروايات عكس نظرات هذه السيّدةِ تمامًا: نظرات مملوءة بالابتسامةِ والرقَّةِ واللطف والأمومة. ربّما كان ذلك التباعد طبيعيًّا في آخر التحليل لأنَّ هناك دومًا فرقًا بين ما نرسمه في مخيِّلتنا وما يحمله الواقع العمليّ، بين النظريّة والممارسة، كما يقول الديالكتيكيون! عدا ذلك كانت السيّدةُ ذات العباءة السوداء طيّبةَ الرائحة مما زاد انجذابي نحوها. كان لصوتها شحبة مميَّزة لا تعكِّر كثيراً وضوح نبراته، فصاحتهُ، وتأثيرهُ السريع. أضافت:

ـ اقتربت الساعةُ من الوصولِ إلى من تأسر فؤادك ليل نهار، بإذن فاطر السماوات والأرض مُسخِّر الجبال والبحار!

أووووووووووه، فديتُ لسانك يا والدة، أين كنت منذ قرون؟ سأبدأُ أخيراً الآن زمن أريج!

هدأت نظراتُها بعد عِبارتها الأخيرة، قلَّ زيغُ عينيها، مما زاد أملي وثقتي بها. بدت على قسمات صوتها ونظراتها أيضًا لمساتُ حنان، مما ضاعف من ثقتي وأملي بها كثيراً. تنفَّست الصعداء، تمنّيتُ أن أُقبِّلها على جبينها في تلك اللحظة. واصلت:

ـ لكن لن يكون لك موعدٌ معها قبل أن تتخلَّص من أربع عُقَد!

قلتُ لنفسي بعد سماع مصطلح «العقدِ الأربع»: آي، آي، آي! هذا كلامٌ جديدٌ يحتاج إلى توضيح!

استرسلت وكأنَّها قرأت قصدي:

ـ نعم يا ولدي أنت مصابٌ بعُقدٍ أربع...

قالت ذلك وهي تُخرِجُ من جيبِ عباءتها منديلاً أبيض معطَّرًا بالمسك والبخور، بأطرافه الأربعة أربعُ عُقدٍ محكمة الربط تمامًا. حشرت مسبحتها البيضاء في جيب عباءتها. عطَّفت المنديل بأصابع يدها المحاطة بقفّازٍ أسود، ووضعتهُ وسط راحة يدي اليمنى التي طلبت منِّي إغلاقها. أغلقتُ يدي. تلت بضع آيات من قصار السور، أدعيةً لم أسمع بها من قبل، وكلمات من لغة سريانية لم أفهم منها كلمة. ثمَّ طلبت منّي أن أفتح راحة يدي وأُخرج المنديل. أخرجته لأراه وقد حُلَّت ثلاثٌ من عُقدِه، ولم تبق إلاّ الرابعة!

قلت لنفسي: هذا إعجازٌ بحدٍّ ذاته! لهذه المرأة الصالحة مقدراتٌ عجيبة دون شك! أضافت:

ـ ثلاثٌ من عُقَدك احتلّت والحمد لله منذ وصولك صنعاء! كما اكتشفته أنت نفسك قبل اليوم، أمّا الرابعة...

قلتُ لنفسي وأنا أحملق بهذه المرأة الفطينة التي تعرفُ تفاصيل سيرتي الذاتيَّة وخارطتي البسيكولوجية: صدقت هذه المرأة الصالحة!

لها في معرفة خبايا النفوس وكشف مواقع أسلاكها الشائكة صاع وباع. العقدة الأولى التي احتلّت منذ وصولي صنعاء هي البطء والتأخُّر عن مواعيد القدر! لم أَعد منذ وصولي صنعاء «رجل المواعيد الضائعة»، هاأنذا لا أضيعُ ثانية الآن! العقدة الثانية هي عدم فهمِ إشارات ورموز القدر: صرت باطنيًّا هنا في صنعاء أيضًا، أفهمُ العلامات والأسرار الخفيّة من أَوّلِ لمحة، بعد أن كنتُ في فرنسا متبلِّداً، واقعيًّا جداًّ، جامداً كجليد جبال الألب. آه، فرنسا التي أفسدتني بداء العقلانيَّة والسببيّة اللعين!

لا أدري ما هي العقدة الثالثة التي تخلَّصت منها دون أن أعلم، لكنَّ هذه السيّدة المباركة صادقةٌ بالتأكيد، تعرفُني أكثر من نفسي دون شك. أما العقدة الرابعة، أُمُّ العقد، فهي جلِيّةٌ لي كعين الشمس! هي السرطان الذي يعربد في كلِّ خلايا روحي. هي: أنا ـ رجلٌ ـ لا ـ أ. ت. م. رّ. د! ـ لا ـ أتمرَّد ـ لا ـ أرفضُ ـ شيئًا...

واصلت السيّدة المباركة:

ـ أمّا الرابعة يا ولدي فهي أخطر وأصعب العقد!

بدأت أشعر بعظمة هذه اللحظة وجوهريَّتها. صدقت الشيخةُ الجليلة! هذه العقدة الرابعة هي التي انكبَّت على حياتي، دمَّرتها تمامًا! أفهمُ الآن لماذا لم أُحقِّق هدفًا واحداً في حياتي، لماذا تحوَّلتُ إلى تمثال متحرِّك للفشل والخنوع والاستسلام، إلى «مدعسة»، ولماذا حرمت من معشوقة العمر كما أتوق لها تمامًا! أعرف الآن أنَّني لن أصل لأريج

مادامت هذه العقدة الإبليسيَّة تعثو على كاهلي، تنخرُ في عظامي. مادمت لا أعرفُ الرفض والقطيعة. بديهيٌّ جدًّا كلُّ ذلك. ما أتعسني! احتجت لخمسٍ وثلاثين سنة لأفهم ذلك! خمسة وثلاثون قرنًا من الحرمان والعذاب بسبب هذه العقدة الرابعة، جذر الآلام، الخطيئة الأولى!

كانت لحظةَ صحوٍ نورانيٍّ بعد سبات دام زمنًا بحجمِ الأبديّة. لو عرفتُ ذلك من قبل لتغيَّرت حياتي كلِّيةً، لانقلبت رأسًا على عقب. كم أصبت باختيار صنعاء القديمة موقعًا لانطلاقِ حياة جديدة! أين كان لي في مدينة أخرى غير هذه المدينة الفاضلة أن أرى امرأةً صالحةً كهذه السيّدة التي لا توجدُ مثيلاتُها إلا في الأساطير والروايات؟ ستنقذُني حفظَها اللهُ ورعاها من أُمِّ المآزق، من ألعن العقد وأكثرِها فتكًا! تساءلتُ: لماذا لم تأت هذه الشيخة الصالحة لحياتي قبل زمن؟... ثمَّ سمعتها تضيف:

- ... لكنَّ حلَّها يقع خارج نطاق مقدراتي!

هدَّأت روعي رغم شدَّة وطأة ما قالته. لم أعد أفقد تماسكي خلال ثوان كما كنتُ سابقًا! لو سمعتُ في حياتي البالية مثل هذه العبارة القاتلة لهويت صريعًا، لانفجرت يأسًا وأسىً. أدركتُ أوّلاً أنَّ العقدة الثالثة التي تخلَّصتُ منها في صنعاء ولله الحمد، والتي نسيتُها قبيل لحظات عندما تحدَّثت عنها هذه السيّدة الملهمة، هي بالتأكيد: الانفعال المتطرِّف، التوتُّر السريع. لأنِّي ما زلتُ هادئًا أمام إعلانها عدم المقدرة على حلِّ عقدتي.

كنتُ متفائلاً معَ ذلك، أشعرُ رغم ما قالته أنَّها ستعرف كيف تحرِّرني تمامًا من دائي العُضال، من أمِّ الكوارث. أجزمُ أنَّها جاءت من السماء لإنقاذي من ألعن العقد. صدقت الوالدة الحنونة في كلِّ ما تقوله! أجبتها:

ـ صدقت أيَّتها السيِّدة الصالحة فيما قُلته عن انتهاء العقد الثلاث! أعرفهنَّ عقدةً عُقدة. لكن ما العمل للتخلُّص من الرابعة، من الداء الدفين؟

ـ الرابعة، ما لها إلاَّ الشيخ يحيى عبدالقادر الدملاني، «خرَّاش العُقَد» كما يسمِّيه العارفون! مقدرتي تتوقَّفُ قبل هذه العُقدة. أما هو يا ولدي فإنَّه من أصحاب الكرامات والبركات. وليٌّ عظيم يعرف أسرار النفس، يعرف داءها ودواءها...

ـ أسألُك باللّه كيف الوصولُ إليه حالاً؟ توسلتها دون إضاعة ثانية واحدة هذه المرّة.

ـ أعرف كيف الوصول إلى حضرته! ستزور مقامه وستقبِّل يديه غدًا بإذن الله في هذه الساعة نفسها إذا وافق حفظهُ الباري! سيكونُ ملائمًا أن أحمل إليه من قبلك مبلغًا للتَّصدُّق على الفقراء والمحتاجين: «وجهةً» مباركةً يلزمك أن تُبسملَ ثلاثًا عند تقديمها وأن تنوي في اللحظة نفسها اقتلاع العقدة الرابعة من جذورها وأنت تردِّد بعدي، عقب البسملات الثلاث، «دعاء النِّيَّة» الذي علَّمني إيّاه حضرة الشيخ هو نفسُه. ستنال بذلك عطفهُ ورحمتهُ واهتمامهُ. لأنَّهُ وليٌّ عظيم

يعـرف معـادن الناس من درجـة صـدق نواياهـم، لا يعطـفُ إلا على من يعطفُ على المساكين...

لم أعُـد بطيـئًـا منذ وصلتُ صنعـاء كـمـا قلتُ لكـم. لـم أنـتظر ثانيـة. وضـعتُ الكمـبيـوتـر الجـوّال على الأرض. أخـرجتُ من جيبِ معطفي الـداخلي محـفظَتي التي تحـوي حـوالى عـشرة آلاف دولار. لـم أكـن أتـرك في الـفنـدق، لعـدم ثـقـتي بـكـلِّ فنادق الكرة الأرضـيَّة، إلا مـا يقـارب الألـف دولار فقـط. هـذا هـو صافي الحسـاب كمـا يقـولـون، لأنِّي لـم أصـرف لسكـني وحـاجـاتي اليوميّة منذ وصولي صنعـاء أكثر من ألف دولار. أمـا الأربعـة الآلاف الأخـرى، سـعر الـكـمبيـوتـر وملحـقـاته، فـقـد وصلت لصديقي ح.ع.س، في فرنسا مع المسافر نفسه الذي حمل لي الكمبيوتر...

لم أعد بطيئًا أبدًا كما قلتُ لكـم. أخرجتُ عدَّة ورقات من فئة المائة دولار من المحفظة. لـم أعرف كـم يلزمني أن أبعـث مع هـذه السـيِّدة الكريمة لألفت نـظر الشيخ يحيى وأبرهن لهُ حسـن نواياي، ولأسـترعي عطفهُ واهتمـامه. لعلّهُ يستحقُّ أكثر من كلِّ محتويات المحفظة. غير أن عليَّ أن أحـافظ على أكبر مبلغ ممكن لِصرفيَّات بيتِ القـصـيـد: رحلة شهرِ العسل في مسقط رأس أريج في حضرموت، فوق جبال الوادي، على سـواحل خلف... ذكَّـرت نفـسي: عليَّ أن لا أنسى أخـذ الكمبيوتر حينها لسماع مقطوعة «الرحلة» مساء كلِّ يوم من أيّام شهر العسل...

حسمتُ سريعًا تردُّدي بإخراج سبعةِ أوراق. هذا هو رقم الحظ: ٧. سبعمائة دولار هي فاتحةُ صدقاتي ليس إلا. لن تُقصِّر هذه السيِّدة الحنونة، التي لم تطلب منّي شيئًا لها شخصيًّا، بأن تتوسَّل من وليِّ اللّه الصالح الشيخ يحيى أن يهتمَّ بي ويرعاني ويحلَّ عُقدتي بأسرع ما يمكن...

بسملتُ ثلاث مرّات، مددتُ للشيخة الصالحة السبع الورقات مُعطَّفةً في راحة يدي المغلقة، دون تأخر أو تردُّد طويل. لُمتُ نفسي لأنَّ الشيخ يحيى يستحقُّ بالتأكيد أكثر من ذلك، لأنَّهُ سيحرِّرُني من داءٍ لا ثمن لعلاجه. لم تَمُر ثانية بعد أن مددتُ صدقتي المتواضعة باتجاه الشيخة المباركة مبسملاً ثلاث مرّات، إلا ولم أعد أشعر بالوعي. فقدته كلِّيةً. إمتلأ ليل رأسي بكوكب درِّيٍّ هائل مُضيءٍ ارتطم فجأة على جدران جمجمتي في لمحة بصر. ثمَّ سقطت في الفجوة السوداء، في بحرِ الظلمات...

بعبارات أقلِّ حلمًا وفنتازيّة: لم أشعر بشيء بعد خبطة قويِّة سريعة فنِّية محكمة خلف الرأس أسقطتني مبطوحًا في الحال.

لا أدري كم من الوقت مكثتُ مرميًّا تحت النخلة، قبل أن أصحو دون الكمبيوتر، دون المحفظة، دون ساعتي «السيكو» التي فقدت بسببها إحدى أسناني في فرنسا، ودون علبة الكلينكس التي لا تفارقُ جيبي أبدًا في العادة...

عندما بدأتُ أفيق من غيبوبتي، تحسَّستُ فكِّي دون وعي: لم أفقد سنَّةً إضافية. تحسَّست بعد ذلك ظهري وأنا ما زلتُ مرميًّا على الأرض: ليست ثمّة طعنةُ جنبية أو قطرةُ دمٍ عليه. حمدتُ اللّه كثيراً.

كنتُ أرى بغشاوة، أشعر بدوار كثيف وألم فظيع خلف الرأس. لاحظتُ ورم «عردود» عملاق التصق على الجهة الخلفيّة من رأسي، فوق رقبتي مباشرة. أعترف أن من خبطني من الخلف كان مهنيًّا جداًّ، قويًّا، حكيمًا. أما الشيخة الجليلة فلم تكن بطيبَة الساحرة التي حملت سندريلاّ لأمير أحلامها في حفلة العمر، كانت مثل حيَّة «الكوبرا» ترقصُ أمامك بفنٍّ لتلدغك بدهاء. آه، ثمّة فرق بسيط بين النظريّة والممارسة، كما يقول الدياليكتيكيون! ثمّة تباعد ملحوظ بين الحلمِ والواقع في هذه المدينة الفاضلة. في كلِّ الأحوال كانت، هي ومن ضربني من الخلف، نبيلين جداًّ لأنَّهما لم يسرقا حذائي! بدأتُ أشعرُ لهما بالعرفان والامتنان بسبب ذلك، وإن كان غدرُهما خسيسًا جداًّ كما يؤلمني أن أقول.

تذكَّرتُ صديقي «الأستاذ» جعفر الدملاني. قلتُ: سيساعدني، سينصفُني، ألم يعدني في آخر لقاء لنا في فرنسا بأنَّه لن ينساني، هو الذي صار اليوم نجمًا من نجومِ السياسة والسلطة، وعظيمًا من عظماء قادة وشيوخِ هذا البلد...

تمكَّنت من الوقوف على قدميّ بصعوبة. كنت أشعر بالدوار وبوجع متزايد في الرأس وبرغبة في التقيؤ. نظرت حولي: لا أحد. لا أحد أمامي أو خلفي. توجَّهت بخطوات مترنِّحة نحو «باب اليمن»، خرجت من صنعاء القديمة كجنديٍّ مهزوم يمشي القهقرى. لم آخذ تاكسيًا للعودة للفندق لأنَّ الشيخ يحيى والسيّدة الجليلة لم يتركا في جيبي ريالاً واحداً.

سرتُ محاذيًا سور صنعاءِ القديمة باتجاه «ميدان التحرير» تحت رذاذ مطر خفيف مزعج. لامستُ السور مرارًا، اتكأتُ عليه. بحثتُ عن كلينكس مستعمل في أحد جيوبي آملاً أن يكون ناهبايَ العزيزان قد تعاليا عن سرقته. لا فائدة. شكرتهما مجدّدًا على عدم سرقة حذائي، على نُبلهِما الذي سيظلُّ لغزًا غامضًا حتّى آخر أيام حياتي.

ازداد تصلُّبُ الورم خلف رأسي وتعدَّدت نتوءاته. بدأتُ أشعرُ وأنا ألمسُهُ بما يشبه البؤر الرخوة والفقاقيع الداخليّة. تغيَّرت تضاريس جمجمتي كما يبدو. شعرتُ أنَّ بعض قِطعِ دماغي الخلفية تبادلت مواضعها أو يمكنُ أن تتبادل مواضعها بسهولة الآن. تساءلتُ إن كنت لن أشعر من الآن فصاعداً أنَّ معدتي ستستقرُّ في رُكبتي والعكس، أو إن لم يلزمني، لتسهيل أمور بيولوجيّة كثيرة، تغيير مواقع بعض أعضاء جسدي يدويًّا، بتبادل مواقع بؤرها الدماغيّة الرخوة أسفل رأسي...

ثمَّ شعرتُ برغبة هائلة في الضحك من تفاصيل هذه الخاطرة التي راودتني وأنا في قعر الأسى والألمِ والمرارات. لعلَّ عزائي في هذه الدنيا الفانية هو أنّني أجيد السخريّة من نفسي على الدوام، لا سيّما في أكثرِ لحظاتي بؤسًا وتراجيديَّة. لذلك كنتُ دومًا سعيدًا في شقائي، إن لم أكن أسعد أشقى مخلوق على الأرض.

أشعرُ بالوجع أمَّاه، أشعرُ بالوجع! وجع بلون هذا الليل المخيِّم على هذه المدينة النائمة. وجع بحجم هذه الأرض المتجهِّمة التي لم تحمل لي السعادة المنشودة. وجعٌ بإيقاع خطوات عودتي بحلم مطعونٍ، برأسٍ متورّم، وجيبٍ فارغ.

أشعر بالوجع أمّاه، أشعر بالوجع! خاطبتُها أخيراً بعد ١٥ عاماً من الفرار منها! هكذا نحن دوماً: عندما يداهمنا الحزن والكارثة، نعود أطفالاً، نهرب نحو اللواتي أرضعننا في المهد، نرتعشُ في أحضانهنَّ من جديد كعصافير «تختضلُ» من البردِ والجوع، نستلقي قرب أقدامهنَّ التي تقعُ تحتها ـ افتحوا آذانكم جيِّداً! ـ: الجنّة! ما أضعفنا عندما ننحني فجأةً أمام هذه العبارة المقدّسة: الجَنَّةُ تحت أقدامِ الأمهات!

أُمّاه، سأعودُ إليك قريباً، مهزوماً تماماً، لكنِّي سأعود. سأستسلمُ أمامك! سأترك كلَّ أحلامي في إحدى «كدّافات» ميدان التحرير، سأرمي بالرغبة في الحُبِّ في تلك الكدّافة نفسها أيضاً، ستختارين من أردتِ زوجةً لي، سنعيشُ معكِ في شارعِ دغبوس كيفما أردتِ... ستنتهي مأساتي قريباً. لكن قبيل ذلك سأطلُب مساعدة صديقي القديم: «الأستاذ» جعفر، لأستعيد حقِّي الضائع، محفظتي المنهوبة، كمبيوتري المسلوب...

سأراهُ بعد يومين فقط صديقي القديم! سأكتشفُ بفضله أنَّني في اليمن لم أعد أعيش متأخِّراً خمس دقائق عن مواعيد القدر كما كنتهُ في فرنسا، بل زمناً كاملاً. لأنِّي أسكنُ بلداً تخفقُ في زمن جعفر، تسبحُ في فلك جعفر.

الفصل السابع
الوصايا العَشْر

صحوتُ في الفجرِ متورِّم الوجهِ، أشعث الشَّعر، في صدري نصفُ أحزان وخيبات العالم. عطَّفت كتاب حبِّ المرأة، أحرقتهُ تمامًا. أغلقتُ في رأسي أبواب «مختبرات الحلم» متأكِّداً أنَّ جينات الحلم والفانتازيا لا تتناسقُ بيولوجيًا مع جينات هذه المدينة الفاضلة.

توجَّهتُ، بكلِّ أثقال مراراتي، إلى أحد قصور الشيخ ـ الأستاذ جعفر في قلب صنعاء: «الشيخ»، كما يُسمِّيه الغالبية الساحقة من الناس. «الأستاذ»، كما يُسمِّيه صفوةُ «واجهاته المدنيَّة» الذين يروْن في «أَستذته» تعبيراً عن منهجهم في «النضال من الداخل»، ووسيلةً عصرِّية لجرِّ الشيخ إلى «مواقف تقدميّة». عجب!

طُرِدتُ كذبابة حين اقتربتُ من باب القصر المحاط بسور ضخم أشبه بأسوار السجون العتيدة. انتظرتُ بعيداً ساعةً وراء ساعة عليّ

أرى جعفر يدخلُ أو يخرجُ من قصرِه. عبثًا. لِحسنِ حظّي أنّي صِرتُ أعرف لغات شفرات هذه البلاد بعد أشهر قليلة من الحياة فيها: توجّهتُ نحو سيّارة «صالون» عسكريّة توشكُ مغادرة القصر، رأيت في مقعدها الأمامي أحد ضبّاط الحراسة الأكثر تجهُّمًا والأهمّ مرتبةً عسكريَّة كما يبدو. صافحتهُ بيد مملوءة بعدد محترم من أوراق المائتين ريال، أسميتُها «هديّةً صغيرة»، قائلاً:

ـ أنا صديق حميم للشيخ جعفر، أرجو أن تقول له إنَّ صديقه القديم: وجدان قحطان يريد رؤيته.

وضع كتلة الريالات الملفوفة بدقّة في جيب بنطلونه، ثمَّ سألني بتعالٍ واضح:

ـ الشيخُ معتكف، ألم تسمع بذلك؟

ـ لا، عفواً، لا شرَّ عليه!

ـ لا، هو معتكفٌ لأسباب سياسيّة...

بدأتُ أشعرُ بالقلق من موضة الاعتكافات لا سيَّما أنَّ مسؤولاً سياسيًّا بارزاً بدأ قبيل أيّام اعتكافهُ في عدن!

ـ لا شرَّ على اليمن!، قلتُ له...

ـ لا، هو معتكفٌ خارج صنعاء ليُعبِّر عن استنكاره من تشرذم الأُمَّة الإسلامية وعدم وحدة الصفِّ العربي...

ـ أرجو فقط إخبارهُ بوجودي في صنعاء ورغبتي في رؤيته، وسأمنحك خمسة أضعاف الهديّة الصغيرة عندما أعرف منك ردَّهُ...

سألني أين أسكن. أجبتُه. نصحني بالعودة وقال لي إنَّه سيحملُ لي ردَّ الشيخ إلى الفندق اليوم أو غداً.

عدتُ أدراجي باتجاه الفندق. مررتُ بسمسرة النحاس أوّلاً لأشرح لعبد الجليل الوارثي ما حدث لي ليلة البارحة بعد أن فارقتُه. اختفى هو الآخر. لا أدري إن بدأ يعتكفُ هو أيضًا! لم أُرِد أن أربط بين اختفائه منذ ذلك اليوم وما حصل لي ليلة البارحة: لم يكن بإمكاني أن أفترض أن يكون عبد الجليل هو الشيخ يحيى نفسه، أو أنَّ تلفونه الجوَّال كان وسيلةً للاتصّال بالسيِّدةِ المباركة والشيخ يحيى «خرَّاش العُقَد» لمجيئهم في تلك الساعة بالذات من أجل نهبي كلَّ ما أملك...

سيّارة صالون حديثة جاءت تبحث عنّي في الفندق في صباح الغد. لمحت ضابط حراسة البارحة وسط طاقمها يلوِّح لي بيده. قابلني أكثر بشاشةً وتقديراً عمّا كانه البارحة. كان لطيفًا أيضًا قبل وبعد أن أعطيتهُ الملحق المالي المُكَثَّف الذي وعدتهُ به البارحة. قال لي إن الشيخ جعفر يدعوني لوجبة غداء اليوم في مقرِّ اعتكافه، في أحد قصوره في ضواحي كوكبان.

وجدتُ نفسي فجأةً وسط سيّارة صالون من آخر وأثرى الموديلات القادمة على التوِّ من اليابان. امتلأت لوحةُ إشاراتها بأجهزة إلكترونيَّة أشكُّ أن السائق يعرف قراءتها. نمطُ تصميمها الداخلي يجعلها تشبه غرفة عمليّات سفينة فضاء. إضاءتُها الداخليَّة كانت من

النيون المتغيِّر الألوان. كنتُ بسببه أرى أفراد الطاقم أمامي بنفسجيِّين تارةً وزرقًا تارةً أخرى...

لن أنسى تصميم تلك السيّارة الثريّة حتى يومنا هذا وأنا في «علبة الصاردين» بعد حوالى عشر سنين من ذلك. كلّما أتذكَّرُها اليوم، أتذكَّرُ الدُّوار الذي شعرت به عندما وصلتني إحدى الرسائل الأخيرة لصديقي في فرنسا ح.ع.س، بعد أن زار جامعة صنعاء في ٢٠٠١ أو ٢٠٠٢ (لا أتذكَّرُ تحديداً، لأنَّني كنت حينها أغرق في قاع سنوات اعتكافي، أنا الآخر، التي عزلتُ نفسي خلالها عن الكرة الأرضية، أقصدُ سنوات «تَصردُني» التي بدأتُ رواية حياتي لكم بالحديث عنها). أرسل ح.ع.س. لي رسالةً بعد عودته إلى فرنسا يقول لي فيها إنَّه أثناء زيارته وجد في كلِّية هندسة جامعة صنعاء ١١ كمبيوترًا فقط صالحًا للاستعمال، لألف ومائة طالب، تساوي قيمتُها قيمةَ ربع سيَّارةِ صالون! وأنّه «اشترغ»(١) عندما عرف أنَّها، رغم ذلك، لم تُشتر من ميزانية الدولة بل كانت هديّةً من دولة أجنبية!

تقدَّمت سيارةُ الصالون خارج صنعاء بسرعة صاروخيَّة. لا أدري كم عددُ الكلاب والقطط التي طحنتها في طريقها، أو البشر الذين نجوا من صدماتها بقدرة قادر. تجاوزنا شبام كوكبان، ثمَّ بدأت السيَّارةُ تصعد نقيلاً جبليًّا مرتفعًا. ما أروع الرحلات السماوية! بدأت أنسى قسطًا من آلامي والسيّارةُ تمخرُ في فضاء ورديٍّ باتجاه علياء هذه

١ ـ يشترغ: يسعل مختنقًا.

الجبال الساحرة... الساحرة وإن تخلّلتها مزارع القات من الطرف إلى الطرف، كوباء طاعون أسود يضرِّجُ بشرة حوريَّةٍ فاتنة.

كوكبان مدينةٌ تسترخي عاريةً فوق أريكة من سحاب. غيمات صغيرةٌ تُقبِّلُ أصابع أقدامها ببطء ونهم. لفضائها لون ورديٌّ عبق يُنسيك ديزل العاصمة. انعطفتْ سيَّارتُنا نحو قصر شاهق فوق سفوحٍ جبليّة عالية. قلتُ لنفسي: لجعفر موهبةٌ تنضافُ إلى قوائم مواهبِه: يعرفُ أين يختارُ مواقعَ اعتكافه. يكفي أن يمكث المرءُ ساعات في هذه القمم النائية، يحدِّقُ في هذا الفضاء الخلاّب، لتأتيه الأفكار العبقرية من كل حدب وصوب، ليسكر من السعادة، وليكون اعتكافهُ مُترعًا بالتأمل والكشف وسبر أغوار أسرار الكون العويصة.

ما إن اقتربنا من باب سور القصر إلا وبدأتُ أشعرُ بالرهبة. سيّاراتُ صالون عسكريّة ومدنيّة من آخر موديلات أرقى الماركات «تطبُّ» من كلِّ مكان. يخرجُ منها عسكريُّون بالنياشين والنجوم والحقائب الديبلوماسيَّة، يحرسون شيوخًا ومسؤولين كبارًا. حولي عشراتُ الجنابي الضخمة التي ترتفعُ من أسفل السُّرَّة إلى أسفلِ الذقن، عشرات الرشاشات اللامعة، عشراتُ الأسلحة الثقيلة، عشراتُ الجلاّبيات البيضاء الفضفاضة، عشراتُ العمائم المزركشة، عشراتُ الأوجه المنغلقة، عشراتُ البذلات العسكريّة التي تخرجُ من السيارات بخطىً متوتِّرة سريعة وكأنَّها تتَّجه لاجتماع قادة عسكريين في أميركا الجنوبيَّة على وشك إعداد انقلاب سياسي...

ثمَّ دخلنا باب القصر. اكتشفتُ في تلك اللحظة تحديداً أنّني أعيشُ في عالم، وأنَّ العالم يعيشُ في عالم آخر: « طاساتُ برع » صنعاني، مزامير إيقاعات احتفاليَّة بهيجة، حلقاتُ رقص بالجنابي كحلقات رقصات الزواج الفولكلوريّة في وادي ظهر « يبترِعُ » فيها شيوخ وشباب في غاية المهنيَّة، قطيعٌ من الأثوار والأجدية المذبوحة، روائح طبخات تفتحُ النَّفس... كانت هناك حفلةُ زواج كتلك التي لا يشاهدها المرء في حياته إلا مرّةً واحدة.

ما إن اقتربنا من باب ديوان مدخلِ القصر إلا والشيخُ جعفر يجيءُ بشحمه ولحمه لاستقبالي. احتضنني طويلاً وبِقُوَّة. ارتميتُ بأحضانه بشكل أو بآخر أنا أيضًا. لعلَّهُ كان صادقًا في تأثُّره وفرحه برؤيتي، لأنَّ الجميع لاحظ ذلك وبدأ يتملّقُ لي، وكأنَّهم يتقرَّبون، منذ الآن، من إنسان سيصيرُ مسؤولاً هامًا في الأيام القادمة. شعرتُ أيضًا بالسرور برؤيته محاولاً قدر ما أستطيع أن أستعيد بشكل انتقائيٍّ أفضل ذكرياتنا المشتركة في عدن وفرنسا. شعرتُ بالأمن والاطمئنان لكوني صديق شيخ يستطيع أن يُقيم الدنيا ويُقعدها في لمحة بصر.

هاهو جعفر أمامي مجدَّدًا! مازال، كما لاحظتُه من أوَّل وهلة، يحملُ قلب طفل لعوب ضاحك. مازلتُ أيضًا ألهو برُؤيته رغم كلِّ مطبَّاته ومقالبه وكوارثه. لعينيه اللامعتين ذلك البريق المتوقِّد نفسه الذي لا يفارقهما أبداً. لم يتغيّر فيه إلا شيئان فقط: ازداد انتفاخهُ حجمًا ووزنًا، وصار يحملُ في واجهة أسنانه البيضاء اللامعة أربع أسنان ذهبيَّة!

كان سعيداً حقًّا باستقبالي. ما أذهل الحاضرين وأعلى من شأني في أنظارهم بشكل فاق كل التوقُّعات هو أنه ارتدى «الفوطة» العدنيَّة هذا اليوم لأوَّل مرّة منذ ترك عدن في نهاية السبعينيات! «لبس الفوطة تقديراً لأعزِّ أصدقائه!»، «لَبسها في يومِ زواجه!»، كما بدأ يُردِّد بعض حرسه. كان منظرُنا، نحن الاثنين، بالفوطة العدنيّة متميّزاً جدًّا بين ثلاثمائة جلاّبيّة بيضاء وثلاثمائة جنبية من النوع الإمامي الكبيرِ الحجمِ والمتميِّزة الجودة.

كان منظرُ أغلب المدعوِّين مهيباً جذّابًا بهذه الملابس الفولكلورية السلطانيّة. غير أنَّ ثمة خللاً في منظرِها على بعضِ المدعُوِّين ممن لم يتعوّدوا ارتداءها منذ الطفولة، لا سيَّما أولئك الذين كانوا في طليعة لابسي «الشارلستون» الضيّق في الأعلى والمفتوح جداًّ في الأسفل في بداية السبعينيات، ثمّ البذلات الحزبيّة الكرتونيَّة بعد ذلك. كان منظرهم بتلك الجلاّبيات البيضاء يثيرُ الضحك كثيراً.

سمعتُ أحد المهنئين لجعفر يمدحُ رابعة أسنانه الذهبيّة التي غُرست في مقدِّمة فكِّه الأعلى صباح هذا اليوم، قائلاً: «جعل الله أسنانك كُلّها من ذهب!»، مثيراً ابتسامة جعفر العريضة. عرفتُ بعد قليل من ذلك أنَّ جعفر يأمرُ أن توضع له سنٌّ ذهبيّةٌ لكلِّ زواج جديد. كان هو العريس إذن! سأعرفُ أيضًا بعد قليل، من جعفر نفسه، أن عروستهُ هذه المرَّة (الرابعة حسب التسلسل الزمني) فتاةٌ من جزيرة سُقَطْرَة... قلت لنفسي: لو قال لي إنَّ اسمها: أريج مرجان فسأصابُ

بالسكتَّة القلبيَّة دون شك. لكن لحسن حظّي أنَّ اسم الزوجة هنا عَوْرةٌ لا يجوز فضحها أبداً.

طلب جعفر مني الجلوس بجانبه في وليمة العرس. توالت، «تخارتت»، وتزاحمت أمامي بإسراف وترف وصلا حدَّ اللامعقول كميات من الأطباق العرائسيَّة لا تخطرُ على بال: أكتاف أثوار محنَّدة، خصلات رخوة منتقاة من أضلاع الظباء والماعز، قلوب وكبد وخصيات خراف مقليَّةٌ أو مطبوخة، أرقى أسماك عدن والحديدة، سيلٌ من أطباق «بنت الصحن»، صحافٌ من عسل «البُغيَة» الدوعاني، زُربيان[1] «عصام غويري» الذي جاء هو نفسه من قلب حيٍّ الشيخ عثمان بعدن لهذه المناسبة الخالدة، طبخات لبنانيّةٌ وخليجيةٌ استُدعيَ لها طبَّاخون عرب وهنود من خارج اليمن... ثمّ وصلت قوافل سيّارات الصالون إلى فناء القصر مُدجَّجةً بأفخر قات مزارعِ «ضُلاع»، وسط الرقص و«البَرَع» و«الزَّامل» الذي ازداد حبوراً واحتفالية مع إيقاعات نقير سيّارات القات الصاخبة التي ارتجَّتْ لها الجبال والوديان من «نقيل سُمارة» إلى أطراف جيزان.

بعد الوليمة، همس لي جعفر أنَّه يريد الالتقاء بي قبل جلسة القات، لنتحدَّث بعيداً عن المدعوّين الذين ملَّ رؤيتهم ونفاقهم كما قال. يريدُ أن يتذكَّر «أيّام الأُنس» على حدٍّ تعبيره ويستعيد ذكرياتنا المشتركة في عدن وفرنسا. كرَّر لي أنَّه اشتاق لي كثيراً! تأثَّرتُ بذلك، وعفوتُ عن معظم ما عانيته في حياتي من مقالبه و«حنجلاته».

---

١ ـ الزربيان: وجبة يمنيّة مُشتقّة من صيغة وصفة «البرياني» الهنديّة المعروفة.

بدأنا بزيارة مكتبه: غرفة رخاميّة مستطيلة شاسعة، نقيّةُ البياض بهيّةُ الإضاءة. في واجهتها مكتب عريض من خشب السنديان الأصيل الفاخر. خلف المكتب أعمدة وإطارات مكتبةٍ مستوردة، من نوعيّة خشب المكتب نفسه، أنيقة جدًّا، تعجُّ بكتب ومجلّدات وموسوعات فخمة، بعضها مغلّفةٌ بجُلود التماسيحِ والنعام الثمينة جدًّا، تمنّيتُ أن أمتلك عشرَها فقط. لاحظ عليَّ الذهول أمام مرأى كلِّ هذه الكتب المتزاحمة العذراء لأنَّه يعرف تمامًا أنِّي أعرفُ، أكثر من أيِّ إنسان آخر ربّما، أنَّه مازال أميًّا لا يحبُّ القراءة إطلاقًا، وإن تحرَّر اليوم مُرْغمًا من نصف أُمِّيَته في أكثر الأحوال، بسبب وظائفه الحكوميّة البارزة المتعددة.

عندما رآني مبهوراً أمام مكتبته الزاخرة بأرقى الكتب التي أحلمُ لمس بعضها لمسًا فقط، أو حتى استنشاق رائحتها، قال لي ببراءته الطفوليّة:

ـ ألم أقُل لك في فيشي يا ابن العم إنَّ الحياة «صفطة». لا تُصَدِّقْ حين ترى كلَّ هذه الكتب أنني صِرْتُ من أساطينِ الفكرِ والعلمِ والفلسفة. والله أخوك مازال «طُحِّي» بالقراءة كما تقولون يا أولاد عدن! عندما أقرأُ صفحةً واحدة، أُحَملق، «أُبَحْرِر»[1]، أُزَرْزِرُ وجهي، ترتفع حواجبي، تَكبرُ عيوني وتُحمِّر وتزَرِّق، كأنِّي أحملُ جبلاً فوق ظهري... لا يُزعجني عبء في هذه الدنيا أكثر من عبء قراءة صفحة واحدة.

---

١ ـ يبحْرِر: يفتح عينيه كثيراً.

ما أروعه جعفر! كم أُعجبُ بسخريَّته الثاقبة من كلِّ شيء، لا سيَّما من نفسه. نحنُ في ذلك توأمان حقيقيان. ما أُحبُّ فيه أيضاً هو براءته أمامي وبوحه لي بكلِّ ما يختلج في نفسه دون غطاء أو نقاب. أما ما يقولُه أمام الآخرين أو في تصريحاته الرسمية فيكفي أحياناً قراءتهُ معكوساً تماماً لترجمته بدقَّة وفهمِ مدلولاته الخفيّة.

كنّا نتحدَّثُ واقفين أمام إحدى نوافذ غرفة المكتب. تُواجهُنا سماءٌ زرقاء تتخلَّلُها غيومٌ ورديّةٌ ذات أشكال فنيّة جذَّابة للنظر. قال لي وأنا أُحدِّقُ مأخوذاً في ذلك الفضاء الكوكباني الرقيق: «والله اشتقتُ لأيّام زمان وضحكات أيَّام زمان». استقام في وسط المكتب وكأنَّهُ على حلبة مسرح يتحدَّث بحرِّية دون أن يترك لي ثانيةً للحديث، يُمثِّل، يقفز ويرقص على سجيَّته وكأنَّهُ في مسرح على الهواء الطَّلق، كما عوَّدني عليه في سبعينيات عدن أمام منزل جدّتي سلمى في شارع دغبوس.

قال لي إنَّه يشعر بانشراح الصدر وهو «يَتبَرطَعُ» هكذا بعد كلِّ هذه السنين التي تُلزِمهُ أن يكون جادًّا أمام الميكروفونات والشاشات والآخرين، تُرغِمُهُ أن يبرطم هو الذي لم يُخلَق لذلك، أن يتكلَّم بمفردات جرداء تخرجُ عن لغة سجيَّته. ثمَّ عاد نحوي قرب النافذة، بدأ يشكو لي من الحياة، من نفاق البشر، ومن الاضطرار للتمثيل الدائم في السلطة...

استطاع في لحظات أن يُزحلِقَ بي بسهولة في أجواء علاقاتنا السابقة نفسها في عدن وفرنسا. شعرتُ أنَّه يمكنني أن أتحدَّث معه

دون كلفة، أن أسبَّهُ، أن أسخرَ منه، أن «أُعَرْعرَ» له مثل أيام الصبا، رغم أنَّه صار من صار. كان يريدُ استعادة عُذريَّة تلك اللحظات تحديدًا، ليَهربَ من زيف حياته الحالية وليتنفَّسَ كما كان يتنفَّسُ دومًا.

بدأتُ حديثي بمباركته بالزواج. قال لي:

ـ هو الرابع يا ابن العم! العروسة هذه المرة من إحدى «مُزرِّقَات» سُقطرة، عمرها خمس عشرة سنة والزايد معها! لكنّي يا صاحبي قلبي لا يرتجفُ أمام أيَّة واحدةٍ من الأربع، حتى وإن كانت كلٌّ واحدةٍ منهن أجملُ من الأخرى وأصغر من الأخرى، كما حلمتُ منذ صباي!

كان ردِّي عليه تقليديًّا:

ـ . . .

ـ لا تُفجِّرُ أنسجة قلبي إلا واحدة! عشقتُها بكتمان منذ أوّلِ نظرة، أحلمُ بها دون توقُّف منذ عدّة سنين! أنت الوحيد الذي تعرفها!

ـ حفصة؟ سألته.

ضحك بقوّة قائلاً:

ـ هل أنت بعقلك؟ الشيخ جعفر، بكلِّ حشمه وخدمه ونفوذه وأمواله، يهيمُ في آخر عمره ببغيّة؟ حَفْصة قصَّتها قصَّة! توفّيت، رحمها اللّه، هنا في اليمن بعد رجوعي من فرنسا بأسبوع. كلا، من أُحدِّثُك عنها هي الوحيدة التي أُحبُّها ولا أفكِّرُ إلا بها، لكنّي سأنالها، أعدُك أنَّني سأنالها حيث ما كانت، سأفَحرِرُها يومًا ما. . . هل عرفتها؟

ـ لا، رددْتُ فاغر الفاهِ وأنا أتساءلُ مذهولاً إن كان جادًّا في حديثه عن وفاة حفصة!

ـ أنسيتَ ثغرها التعبيريَّ الذي لا يرى المرءُ مثلهُ «من يَرِيْم إلى عيْرِيم»! آه، ثغرها الورديّ الدافئ، جفنيها الناعسين، عينيها الواسعتين، نهديها الغنيّين، ضفائر شعرِها التي تُغطّي وركًا لا يسواه وركٌ من شرق الأرض إلى غربها... اللّه يسامحك يا عِزِّي، من ينسى سوسن؟ واللّه إنَّني أُفكِّر بها دون انقطاع منذ تركتُ عدن.

بدأتُ «أمرطُ» لعابي بمرارة. حاولتُ تغيير الموضوعِ حتَّى لا أُسايِرهُ على دروب شائكة كهذه. سألته سريعًا مستخدمًا قواميس أحاديثنا الطفوليَّة نفسها التي يُحبُّها كثيراً: اسمع يا شيطان! اشرح لي أوّلاً كيف وصلت لهذه المناصب الكبيرة؟ أن تكون وزيراً في هذه البلاد، فذلك غير صعب. يكفي أحيانًا الذهاب لسوق الملح وأخذ أوَّل مواطن مُطيع من هناك ليؤدِّي ذلك على أكمل وجه. لكن أن تكون شيخًا فذلك في تقديري صعبٌ جدًّا. يتطلَّبُ حسبًا ونسبًا كما أعرف... كيف استطعت الوصول والبقاء شيخًا دون أيّة إشكالات أو عثرات منذ عودتك من فرنسا في ١٩٨٠؟

ـ لا يا ابن العم! ما زلتَ بريئًا وبليداً جدًّا. كلُّ شيءٍ يُشترى في هذا الكون. ألم تسمع أن صدّام حسين اشترى قبل سنتين نسبهُ من علماء السلالات، ليصير من سلالة رسول اللّه؟ في حالتي، عندما عدتُ من فرنسا كان شيخُ قريتي في دملان «عَسِر» وأرادت عشيرتنا

التخلُّص منه. استدعوني من فرنسا لذلك. هناك سرٌّ من أسرار قريتي في دملان: السنة الثامنة تحملُ لكلِّ شيخ النحس والفناء، تأتي على زواله. لن أدخل معك بالتفاصيل هذه المرة لأنَّها قصَّة دملانيَّة معقَّدة ومحشبكةٌ أكبرُ من حجم رأسك الصغير. لم يعرف أحدٌ ما العمل لاستغلال السنة الثامنة للإطاحة بذلك الشيخ الجبِّير. كنت أنا صاحب الفكرة! اتصلت تلفونيًّا بحفصة غداة عودتي من فرنسا لأرض الوطن، قائلاً لها إنَّني اضطررتُ إلى العودة المفاجئة لأسباب عائليّة مهمَّة جداًّ، وإنَّني أنتظرها في صنعاء. جاءت المسكينة تجري جريًا. حملها من حملها من مطار صنعاء إلى حيث حملها. جاءت هكذا نهاية الشيخِ، رحمه اللّه وغفر ما تقدَّم من ذنوبه وما تأخر، بسبب اتهاماته بالعلاقة بعاهرات شيوعيّات. هااه، عصفورين بحجر! مالم، كيف كان بإمكان أخيك أن يتخلَّص من حفصة التي التصقت بي بكلِّ ما تحملهُ الكلمة من معنى؟

ثمَّ واصل سردهُ وأنا أحاول بكلِّ صعوبة ربط قطع هذه الألغاز المربكة، قبل أن تراودني رغبة في أن أخنقهُ للانتقام لي ولكلِّ ضحاياه، لكنّها رغبة عابرة، عابرة جداًّ:

ـ المشكلة هي أنَّه لم يتجرأ أحد أن «يتمشيَخ» في دملان بعد ذلك خوفًا من أن يصاب بلعنة الثماني السنين. لم يوافق إلا أبو عينها: جعفر! وهاأنذا تجاوزت ال ١٣ سنة منذ مشيختي لدملان في ١٩٨٠ بعد عودتي من فرنسا مباشرة، والدنيا معي «سمن على عسل» أكثر

من أي وقت مضى. غير أنَّ هذه قصص لا يستوعبها إلا الراسخون في «العَمبصَة»(١) أما أنت يا قرَّة عيني فـ «مسكين الله»، «لا تَجَدَمْ ولا تُسَيِّل دَمْ»(٢)... أما سبب بقائي شيخًا دون إشكال طول هذه الفترة، فهو بفضل «الوصايا العشر» للشيخ جعفر التي سأُفصِّلها لك الآن يا أبو الرجال!

جلس على أريكة فاخرة في وسط الغرفة، ودعاني للجلوس بجانبه. جلستُ وأنا لم أفق بعد من دهشة برودته في الحديث عن تساقط ضحاياه والدعاء الدائم لهم بالرحمة وحسن الخاتمة في الوقت نفسه! كنتُ واثقًا أنَّ أولى وصاياه العشر ستكون: «أقتل الميّت وامش في جنازته!». واصل:

ـ الوصيّةُ الأولى، أثبتت الحياة صحَّتها منذ آلاف السنين، هي «أسُّ الأُسس» كما تقولون، ولا تحتاج إلى شرح أو برهان: «أنا وأخي على ابن عمِّي، وأنا وابن عمِّي على الغريب!». أما الوصية الثانية فقد تعلَّمتها في طفولتي من سلوك شيخ قريتي الذي مات في سنة مشيخته الثامنة، هو أيضًا، عندما كنت صبيًّا قبل سفري لعدن. هل تذكر كم حدَّثتُكَ عنه في شارعِ دغبوس؟ كنّا نشتغلُ في حراثة مزارعِهِ وفي بناءِ قصورِهِ دون مقابل تقريبًا. عملتُ «شاقيًا» معه وأنا في السابعة من العمر. كان ينهبنا ليل نهار. لم نتعلَّم القراءة والكتابة

١ ـ العمبصة: الخلط القذر، الوساخة...

٢ ـ يجدم: يعضّ.

بسببه. لم نذُق لحظةً سعيدةً في طفولتنا بسببه. لكنّه كان يعرفُ كيف يجعلنا نحترمه ونهابه حقًّا! أذكره دائمًا، صار، لعنةُ اللّه عليه، نموذجي في الحياة الآن.

أتذكّره بشكل خاص وهو يتوسَّطُ مائدة غداء لرعيَّته في أحد أيّام الأعياد. كنَّا جياعًا منهكين أمامه، نأكلُ ما تيسَّر من «الكدر» والكراث والبقل العابر أمامنا. كنتُ أبكي من شدَّة الجوع في تلك الأيام عمومًا وفي ذلك اليوم بشكلٍ خاص. وصله صحن اللَّحم لتوزيعه على الرعيّة. قلَّب بساديَّة ولوقت طويل أوصال اللَّحم أمام أعيننا المتعبة الجائعة. أخذ من الصحن فخذًا كبيرًا يشكِّلُ حوالى نصف الصحن. أرانا ما أخذه بين يديه ليسيل لعابنا أوّلاً، ثمَّ سألنا بصوت أبويٍّ حنون: هل يناسبكم أن يكون نصيب الفرد منّا من اللحمِ بهذا الحجم؟ هززنا رؤوسنا: «نعم! أصبت أكرمك الله!»، مردِّدين أنَّه أحكمَ التقسيم وأعدل. أدار ظهره لنا حينها واضعًا ذلك الفخذ على صحن خاص أمامه، ثمّ قال لنا مشيراً إلى ما تبقى في صحن اللحم الجماعيِّ في وسط المائدة: هنيئًا مريئًا، تقاسموه بالهناء والشفاء!... تاركًا هكذا لأربعين جائعًا فتاتًا لا يُسمن ولا يُغني من جوع! تلذَّذ كثيراً برؤيتنا نتضارب على تقاسُم ما تركهُ في صحن شبه فارغ، يطالب كلٌّ واحد منّا الآخر بسهمه بالحجم نفسه الذي قرّرهُ الشيخ، يتَّهم كلٌّ منّا الآخر بسرقة نصيبه...

هربتُ لعدن لأشتغل خادمًا في بيت جدّتك سلمى بسبب ذلك الشيخ في السبعينيات. لكن أعرف الآن أنَّ دملان لا يمكن

تسيِيرُ دفَّتِها إلا على نصائحه التي كان يردِّدها دائمًا: دوِّخ بـ«الشاقي»، لا تجعله يفكِّر إلا ببطنه، فجِّر رغبات هذا، اشترِ ذاك حسب قيمته، اخلق الحسد بين الرعيّة، «قرِّح العصا»[1] في كلِّ مكان، اغرِ هذا، ابتلع ذاك، الطش هذا، أكرِمْ ذاك... أو باختصار شديد: جوِّع كلبك يتبعك! كما قال الراسخون في العِلم.

نظر لساعته قائلاً: سأواصلُ لك الوصايا العشر لاحقًا. حان وقتُ القات الآن. ستجلسُ بجانبي في ديوان القات ولنا حديث طويل ذو شجون. سـ«نَحُشُّ» على الحاضرين فردًا فردًا كما كنّا نحُشُّ على سكّان شارع دغبوس! لكنَّك لم تُحدِّثني بعد عن أخبارك، وأخبار فرنسا، ومتى وصلت أرض الوطن...

عبرت أمامه سريعًا سنواتي الأخيرة في سانت مالو، ثمّ فصَّلتُ له ما حدث لي في صنعاء ليلة البارحة أسفل النخلة، متوخيًا مساعدتَه الشخصيَّة لأستعيد حقوقي من الشيخ يحيى عبد القادر الدملاني والسيدة شريكته. ضحك في وجهي قائلاً إنَّني أكثرُ براءةً وسذاجةً مما كان يتصوَّره، وإنّه مقتنعٌ أكثر من أيِّ وقت مضى أنَّني لن أُشفى من ذلك إلى يوم الدِّين! ثمَّ أضاف أنّني عكسه تمامًا في ذلك، وأنَّه ربما لهذا السبب بالذات يحبّني كثيراً، قبل أن يؤكِّد لي أنَّه يعرف أهل دملان فرداً فردا، ولا يوجد أحدٌ اسمه الشيخ يحيى عبد القادر الدملاني.

---

١ ـ يقرح العصا: يفجر الفتنة.

ترك الأريكة، توجّه حالاً إلى مكتبه ذي المقعد المهيب. تمتم بنزعته الفكاهيَّة المتميّزة وسخريّته الرائعة: هاأنت تخترقُ المراحل يا خبير! تجرُّني للوصيَّةِ العاشرةِ مباشرة وأنا لم أصل الثالثة بعد. هاهي الوصيّة العاشرة: «من قات غيرِكَ كُل وانجع!»[1]، قالها وهو «يَشخطُ» لي على دفتر شيكاته البنكيّة بشيك بعشرة آلاف دولار لتعويضي ما سُرق مني البارحة. ترك موضع الإسم في الشيكِ فارغًا، طالبًا أن أملأهُ أنا نفسي، لسبب عرفتهُ سريعًا: ما زال يعاني من مشاكل إملائيَّة عند كتابة اسمي.

رفضتُ سريعًا أن يأتيني منه هذا المبلغ. قال لي: «عيب! لا أحد يرفض أمر الشيخ في هذه البلاد!» واصلتُ رفضي. أوقفني بكلمات ودِّية يعرف أنّها أكثر فعالية، قائلاً: حلفتُ «حرام طلاق» بالثلاث! للأربع الزوجات معًا! ألم أقل لك في فرنسا إن الصداقة التي تربطنا هي أعلى من كلّ شيء. والله إنَّك الوحيد الذي أحبُّه وأحترمه، أمَّا كلُّ هؤلاء فلا تنفع معهم إلا «الوصايا العشر»...

تململتُ، صاح أمامي: «حلفتُ، وأنت تعرفُ أبو دملة: قبيليٌّ بحقّ وحقيق، إذا حَلَفَ حلف!» لم أُرد أن أكون سببًا في اثني عشر طلاقًا وأربع ضحيّات! وضعتُ الشيك في جيب قميصي، آملاً أن أعوِّضهُ يومًا ما هذا الجميل بطريقة أو بأخرى. شعرت أيضًا، عليَّ أن أعترف بصراحة، أن هذا المبلغ سيسمحُ لي بالعودة مرفوع الرأس لشارع دغبوس، سيساعدني على ترتيب حالي وبدء حياة جديدة...

---

١ ـ انجعْ: تقيأْ ما أكلتَهُ.

توجَّهنا إلى ديوان القات. اختار مدكأي بجانب حضرته لتزداد أهميّتي أكثر من قبل في أعين الملأ. كان موضعُ ديوان القات رائعًا حقًّا: غرفة هائلة بحجم ميدان صغير لا يفصلُها عن السماءِ إلا حائطٌ زجاجيٌّ وقمريّات أنيقة. حولي عدد هائل من كبار الوجوه الاجتماعيّة المعروفة: مسؤولون مرموقون، شيوخ أجلاّء، شيوخ مشايخ، وشيوخ مشايخ شيوخ مشايخ، وشيوخ مشايخِ... شيوخِ مشايخ، أساتذة وأدباء كبار... الجميع يتنافس على مدح جعفر وتفخيمه وتهنئته بالزواج الرابع، و« أستَذَته » أكثر من الآخر، أو « نفخه » كما كان يقولُ ساخرًا من ذلك هو نفسه. سجَّلتُ في محاضر ذاكرتي كثيرًا من التعليقات الخارقة، لا سيّما تعليق أحد كبار « واجهاته الفكريّة » اللواتي رأى في اختيارهنَّ من أربعة أطراف اليمن « تجسيداً للعمق الاستراتيجيِّ الوحدويِّ الأصيل في سلوك الأستاذ جعفر ». عجب!

الديوان يرقص فوق بحر من بقايا أعشاب القات. في بؤرته التي تنتهي عندها نظراتُ المدعوِّين وتنحني رقابهم وتتنافس مدائحهم وإطراءاتهم: جعفر الذي بدأ خدُّهُ الأيمن ينتفخُ بحجم فاق كلَّ الخدود. هاهو يقرطُ، يَقرطُ، يَقْرط... أمامه « مداعة » يمنيّةٌ من النوعِ السلطانيّ « يُقرقِرُها » مُطَنطنًا بصوت مهنيٍّ صاخب. قطرات عرق لامعةٌ تنساب من وجهه الجذاب المتألق. أمام كلِّ مدعوٍّ تلٌّ من القات. أغصانُ القات تتقافزُ من مدعوٍّ لمدعوٍّ في كلِّ الاتجاهات كألعاب ناريّة. اليمن تسيرُ على بركة اللّه...

حدَّقت في الجالسين شخصًا شخصًا. منظرٌ لن يتكرَّر أمام عينيّ مرّةً أخرى. في الركن أحد الشابَّينِ العائدين من قلعة حسن الصباح. كان مدعوًّا للحفلة هو الآخر: أسرار هذه البلاد تجعلُ الولدان شِيْبًا!

كان جعفر يهامسني معلِّقًا على كل شخص مرموق يتحدَّثُ في المجلس. كان يحتقرُ أغلبية المدعوِّين كما يبدو. يضحكُني، أو يثيرُ سخطي أحيانًا، بتعليقاته عليهم فرداً فرداً. عندما تحدَّث كبير مسؤوليه الإعلاميين، قال لي:

هااه شوف هذا «الْغُلُغي»! كان مسؤولاً إعلاميًّا شيوعيًّا من الطراز رقم واحد، وهاهو الآن مسؤول إعلامي في خدمتي من الطراز رقم واحد. لكن الحقُّ يقال: يشتغلُ عندي بطاقة لا مثيل لها،«يُكحرُ» مثلَ «شُقَاةِ» الإمام وأكثر قليلاً، هو ذكيٌّ وموهوب جدًّا ولا يمتلك نصف خصومه ربع ألمعيَّته (استغربتُ كيف يعرف جعفر هذه الكلمة، لكنّي تعوَّدتُ منذ فيشي على مفاجآت لغوية من هذا القبيل)، لكنِّي أضحكُ عندما أراه، لسبب لا يعرفه أحد! أحلم في سريرتي أن يصل «المطاوعة»، الذين يقارعهم بذكاء مع ذلك كعادته، إلى السلطة! ليس حبًّا في وصولهم (قالها وهو يرمق الشاب الذي وصل طازجًا من قلعة حسن الصباح)، لكن لأراه «يُبلور الأسباب الفكريّة» التي قادته ليكون أيضًا مسؤولاً إعلاميًّا من الطراز رقم واحد للمطاوعة!

تذكَّرتُ على التو « متحف الزواحف » في سانت مالو والحرباء اليمنية المسكينة التي تسكنُه! بدأتُ أشعرُ بالرغبة في التقيؤ. ليس بسببِ القات الذي ذقتُهُ يومها لأوَّل مرّة في حياتي والذي كدتُ « أشترغُ »[١] وأنا أفاوضُ عوده الثالث، لكن لتدافُع واكتظاظ وتنافس عبارات التعظيم لجعفر، قبل « نُقطة نظام » أحد « واجهاته الأدبيّة » الذي دعا لتنظيم النقاش و« منهجة » المداخلات. ثم اقترح البدء بباب « ملكات الأستاذ جعفر الأدبيَّة ».

« إلى هنا وبَس »، قلتُ لنفسي! يمكنني أن أحتمل في حياتي أشياء كثيرة، يمكنني أن « أُفوِّت » أشياء و« أُسَلِّكَ » أخرى، يمكنني أن « أضع قليلاً من الماءِ في كأس النبيذ » كما يقول الفرنسيّون، لكنّي لا أستطيعُ أن لا أفقد مقدرتي على التنفُّس في لحظات نفاق كتلكَ اللحظات.

اعتذرتُ لجعفر قائلاً إنَّني أريدُ العودة لصنعاء على أملِ لقاء آخر بالتأكيد. شكرتُه على الوليمة السخيَّة وعلى الشيكِ أيضًا. رمقتُ الشيك في جيبي قبل المغادرة غير مصدِّق أنَّني أستعيدُ عشرة آلاف دولار مسروقة بهذه السهولة. استقام جعفرُ يودِّعُني بالحفاوة الأصيلة نفسها. أعطاني رقم تلفونه النقّال لأتَّصل به مباشرةً بعد شهر العسل. خفتُ أن يطلب منِّي أيضًا مقطوعتي الموسيقيَّة الإلكترونيَّة: « الرحلة » لتواكب لياليه الرُّومانسيَّة. أمر بعض حرسه أن يُعيدوني إلى صنعاء حالاً على إحدى سيّاراته الصالون بكلِّ تكريمٍ واهتمام.

---

١ - يشترغ: يسعل مختنقًا.

أصرَّ طاقم الحرس الذين أوصاهم بي أن يدعوني أوَّلاً لشرب كأس للتعارف قبل العودة، خاصةً وأنَّهم يشعرون بالفخر، كما قالوا، بالتعرُّف على صديق حميم لشيخهمُ الحبيب. وافقت شريطة أن لا يدومَ ذلك وقتًا طويلاً. سبحان مغيّر الأحوال: بدأتُ أفرض شروطي على العسكر في آخر العمر.

أَدخلوني غرفةً بعيدةً عن الديوان. فتحوا فيها قنينةً من النبيذ المعتَّق، أخرجوها من المستودع الخاص للشيخ. قال أحدهم: الشيخ خبير بأجود أنواع النبيذ، بفضل دراسته الأكاديميَّة في فرنسا. أضاف الآخرُ مستعيراً صورهُ الأدبيَّة من مستودعات الشيخ البلاغيّة: «واللّه لو وضعت هذه القارورة قرب قبر عمر الخيَّام لانتفض من نعشه!»... امتلأ الجوُّ أُنسًا وطربًا في ثوانٍ. ضحكٌ وهرجٌ ومرجٌ أمتعني سريعًا. سردوا أمامي حكايات صنعانيَّة تقليديَّة، شعراً شعبيًّا فلكلوريًّا، وبعضًا من نكات سخريَّة أهلِ ذمار التي كادت تسقطُني أرضًا من الضحك. تصافحت وتلاطمت أيادينا وازدوج تصفيقها أكثر من مرَّة، تعانقنا مرارًا في غمرة الضحك...

مرّ الوقت مترعًا بالفكاهة والأنسِ والمتعة. فضَّلتُ هذا المناخ الترفيهي اللذيذ على نفاق جوِّ مجلسِ القاتِ الذي خرجت منه برأس أوشكَ على الانفلاق. أردتُ المغادرة. لاحظت وأنا أستعدُّ للخروج أن الشيك الذي كان في جيبي اختفى تمامًا! أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم: كنت متأكِّدًا بشكل قاطع أنّه كان في جيبي حال دخولي

هذهِ الغرفة، وأنَّ أحداً لم يتواجد فيها غيرُ طاقمِ الحرَّاسِ الثلاثة وأنا لا غير.

أخبرتُهم بضياعِ الشيك. عمَّهمُ الذهول، بدأوا بجانبي يُقلِّبون الغرفة من سقفها إلى أسفلِ قطائفِها. لم يكن هناك مثقال ذرة من الشك: أحدُهم لطشهُ من جيبي في لحظة المرح والعناق! بعد البحث الميكروسكوبيِّ الذي قلب الغرفة رأساً على عقب، «شخطَ» كبير الحرس شيكًا لي بعشر المبلغ الضائع: ألف دولار، كهديّة شخصيَّة منه! رفضتُ أخذهُ جاداً هذه المرة. حلف هو الآخر بـ«الحرام والطلاق» وبمعزَّة الشيخ عندنا جميعًا. كان صعبًا أن أتجاوز الخطوط الحمراء بعدَ قسم من هذا العيار الثقيل. أخذتُ الشيك البديل واثقًا أنِّي سأمزِّقه وسأرميه في أوَّل سلَّة مهملات.

وصلتُ الفندق. بدأتُ أجهِّز حقيبتي للاستعداد للسفر لعدن في الغد. مزَّقتُ الشيك قبل ذلك. ثمَّ خرجت لأتَّصل بوالدتي تلفونيًا لأُشعرها بوصولي غدًا لشارعِ دغبوس. ارتعشت أليافُ أسلاك خطوط شبكة التلفونات اليمنيّة على إيقاع شهقة فرحها وغطرفتها! عدتُ لغرفتي لتجهيز وترتيب حقائبي وهزائمي ومراراتي. حاولت النوم دون فائدة. تذكَّرت جدَّتي نور، رحمها اللّه، التي كانت تقول دائمًا: «المنحوسُ منحوس، ولو سرَّجوا لهُ فانوس!».

الفصل الثامن

في قريةٍ نائيةٍ غير بعيدةٍ جدًّا من تَعِزْ

ودّعتُ عاصمتي الجديدة، قبرتُ فيها آخر أحلامي. أخذتُ تاكسيًا خصوصيًّا باتجاه عاصمتي القديمة. توقّفتُ، على طريقي، أمام سمسرة النحاس لتوديع صديقي عبدالجليل الوارثي قبل الرحيل. اختفى تمامًا، أو ما زال معتكفًا هو الآخرُ في مكان ما. شعرتُ بقشعريرة تُكنّس ظهري عندما رأيت للمرّة الأخيرة موقع النخلة النائية. استعدتُ في طريقي ذكريات وليمة زفاف البارحة التي لم تكن هي الأخرى من أنبل صفحات حياتي وأكثرها تبشيراً بأيام غرّاء زاهرة في عالمٍ نقيٍّ واعد...

عندما عبرت السيارةُ شارع تعِز وغادرت صنعاء تمامًا، بدأ يمتلكني الخوف من العودة لتلك المدينة التي تشبهني كثيراً. هاجمتني تساؤلاتٌ كثيرة: بأيّة هيئةٍ سأرى والديَّ ومنزلنا في شارع

دغبوس؟ هل خرجت سوسن من السجن؟ هل تحيا حاليًا في منزل جدَّتها سلمى في شارع دغبوس؟ (تساءلتُ: من يدري، لعلَّها هي الحبُّ الأول، هي الحبُّ الأخير؟!) هل سأرى الأستاذ نجيب هذه الليلة؟ كيف صارت عدن؟ من تبقّى من أصدقائي؟...

كان عزائي هو عودةَ ذكرياتِ سوسن وانبلاجَ أمل مفاجئ بأنَّها الحبُّ الأول، الحبُّ الأخير! تعارض ذلك الأمل مع شكٍّ مُقرف راودني بِقُوّة: سوسن لن تعيرني أدنى اهتمام لأنَّها دفعت لوحدها ثمن لقائنا الأخير، في منزل جدَّتها سلمى، الذي انتهى بكارثة! تلتها كارثةٌ أخرى أشدُّ وأقسى عندما حاولت البحث عن فيزة خروج من سفارة أجنبية، في أوجِ سنوات قانون «صيانة الوطن»... ناهيك أن حوريّةً فاتنةً ذكيّةً كسوسن، شجاعةً قويّة الشخصية، متحرِّرةً من الأمراضِ والعقد، تأسر القلب والنظر من أوّلِ وهلة، ليست بحاجة لمرورِ الزمنِ كي تجد من يموتُ في عشقها. هي، يكفي أن تمرّ في الشارع فقط، لتقتلع أكثر من فؤاد، لتُعذِّب أكثر من قلب، لتحني أكثر من هامة...

كان عزائي الآخر أنِّي سأرى هذه الليلة الأستاذ نجيب الذي لم أره منذ وداعه لي في مطار عدن قبل ١٥ سنة. بدأتُ أرتِّب أسئلتي له ليشرح لي، بإجاباته الملهمة، لماذا تتبعثر حياتي هباءً منثوراً، ولماذا سالت خمس عشرة سنة منها في فرنسا بين أصابع يديَّ عبثًا؟ لماذا أتقدَّمُ يومًا بعد يوم بثقة وثبات نحو الهاوية؟...

شعرتُ في دوّامة تلك التأمُّلات أنِّي أستحقُّ بجدارةٍ العودة لعدن: كلانا مكلَّلٌ بباقة من النكسات والانكسارات. كلانا جُبِل

على تلقِّي الضرب واللطمات. كلانا مهزومٌ منذ سنين مثل الآخر، بسبب الآخر. لذلك نستحقُّ أن نشرب معًا نخب الأسى والحسرات حتى ما بعد الثمالة... ثمَّ عادت سوسنُ لذاكرتي من جديد. تساءلتُ: ألم يمنعني القدر أن أصُبَّ نهر عشقي في بحر آخر لأنَّه قرَّر أن تكون هي وحدها مصبِّي ومنبعي، ملاذي ومعادي، حبِّيَ الأول والأخير...

وضع السائق أغانيَ شرقيّةً حديثةً حاولتُ أن أهرب عبرها قليلاً من آخر ذكرياتي الكئيبة في صنعاء. أخذنا طريق سمارة الذي سمعتُ كثيراً عن جماله ومغبّاته. هاأنذا أشاهِدُ منعطفاتِه الشاهقة التي تطلُّ على مدرّجات حقول مصمَّمة بمهارة، وعلى منحدرات و«ضياح» عالية مخيفة تتراكمُ أسفلها مقابر سيّارات تفزعُ النظر.. كان نقيلُ سمارة خلابًا جدًّا لمن يراهُ مثلي لأوّل مرّة. لم يكدِّر جمال تلك الرحلة من صنعاء إلى عدن إلا سحب الدخان الديزليِّ التي تنفثُها الحافلاتُ والشاحناتُ وسيّاراتُ الأجرة، على طول طريقٍ يتزايدُ فيه بشكل سريعٍ ومُريع عددُ أشلاء الكلاب والقطط المبعثرة التي يعاد طحنُها من جديد مع مرور كلِّ سيَّارة: يمكنُ لومُ اليمنِ بسبب بعدها عن موقع الصدارة بين دول العالم في عدد هائل من الإحصائيات الدوليّة، إلا في تلك الخاصّة بالموت والجهل والفقر: عددُ الأطفال الموتى في الخمس السنين الأولى بعد الولادة، عددُ الأميِّين والفقراء الجدد، عددُ الحيوانات التي تَرِمُّ على الطريق بين صنعاء وعدن...

قبل ساعة الأصيلِ عبرت السيّارةُ أطراف « دار سعد »، ثمَّ طريق الشيخ عثمان الرئيس الذي يمرُّ بين شرطة الشيخ عثمان ومسجد العيدروس. شعرتُ حينها بالقلق من شيءٍ أجهلُه. كنتُ حائرًا، مرتبكًا حزينًا أرثي أشياء كثيرة لا أعرف وصفها... ثمّ أحسستُ أنّي أتوجَّهُ إلى مدينة لا تشبه كثيراً مدينة طفولتي وصباي: الطرقُ والأسواق تَعِجُّ ببشر متلاصق متزاحم. الطرق المحيطة بالأسواق القديمة في وسط الشيخ عثمان تكتظُّ بسيل من البشر كأنَّهم في « مسيرة شعبيّة » مستديمة. المرأةُ العدنيّة مُكفَّنةٌ بالسواد نفسه الذي فاجأني في صنعاء. المعاقون، المرضى، الشحّاتون، الجياعُ يملأون الطرقات...

العائدون من سفوحِ قندهار رابضون كالضباع، يُكفِّرون الأخضر واليابس، يوزِّعون الضغينة والكراهية وهدر الدَّم على معظمِ سكّانِ الكرةِ الأرضيَّة. يمكنُ بامتياز الاعتماد عليهم للحفاظ على سقوط أنبل الإنجازات: التعليم المختلط، قانون الأسرة، بذور الجديد والتقدّم...

شريطٌ من المسحوقين ينام في العراء، يتكاتفُ شبرًا شبرًا، مثل قطَع سمك الصاردين، محاذيًا للسور المحيط بمدرسة « الشهيدة العبيدي »، حول مكتب البريد، في أرجاء « جولة الأحمديّة »... يحجز كلٌّ فرد منهم مترهُ المربَّع منذ نهاية العصر حتى لا يُحرمَ من موقع للنوم على قارعة الطريق. ثمَّة شيءٌ لم أكن أتوقّعهُ إطلاقًا: شبحُ الجوع والفقر والمستقبل الأسود يُخيِّمُ على هذه المدينة المسكينة

الوديعة التي أعودُ إليها أخيراً. شيطانُ الجهلِ «يبترعُ» منتصراً على آخرِ معاقل المدنيَّة المنهزمة...

حاولت السيّارةُ التقدّم بصعوبة في شوارع قسم ألف الذي يقعُ شارع دغبوس في مُؤخِّرته. لم يعُد ثمّة متنفَّسٌ في أيِّ شارع. انبثق أمام باب كلِّ منزل «حوشٌ» التهمَ جزءاً من مساحة الطريق. أكشاكٌ في كلِّ مكان، عمارات جديدة في أيِّ سنتمتر مربّع يلوحُ للعين المجرّدة. إضافات عشوائيَّة غيرُ مكتملة على معظم السقوف. عماراتُ أغنياء النهب والسلطة والفساد تعلو، هي، سريعةً في كلِّ مكان، تُطرَّزُ عليها أحياناً عباراتٌ من قبيل: «هذا من فضل ربّي!». لا أدري لماذا تكثرُ في ديار المسلمين «السَلبَطَة» على أرحم الراحمين!

لم يعد ثمةَ ملعبٌ للأطفال. انتهت كليّةً فضاءاتُ الكثبان الرملية (الأكواد) المحيطةُ بالشوارع. كانت يوماً ما رئة المدينة، خلاءَها الممتع، وواحتها اللطيفة. حلّت محلّها أسوارٌ ضخمةٌ لمشاريع وهميّة... بدأ عصرُ «دبيبِ النمل الأبيض».

تذكّرتُ صديقي ح.ع.س. في فرنسا وأنا أمرُّ في بداية قسم ألف أمام شارعِ يافا، مسقطِ رأسه، قبل أن تقترب السيارةُ من شارعي، شارع دغبوس. لم يتغيّر شيءٌ في منزلهم إلا تلك الشجرة التي غرسها والده، رحمهُ اللّه، أمام باب المنزل في بداية الستّينيات. خرّت لوحدها، كعملاق تجندل في وسط الشارع، قبل أيّام. «عبرت فيمن عبر، رحمها اللّه» أيضاً... كنتُ مذهولاً مجروحاً وأنا أعبرُ هذه

الشوارع المنكوبة. تهيأ لي حينها أنّني لا أسافرُ إلى تلك المدينةِ التي عرفتُ السعادةَ طفلاً في ربوعها، وإنما أسافرُ إلى... «عُلبة صاردين».

ارتميتُ بأحضان أمي وأبي. لم يتوقّفا عن البكاء، وأنا أيضًا. وجهُ أبي كنّستهُ التجاعيد، ضمر تمامًا. صار جسدهُ مختبراً ترتعُ فيه أمراضٌ مشعبكة: السكّري، أمراض القلب، الروماتيزم... لم يعد يغادر سريرهُ إلا بصعوبة. والدتي، مثل نساء أفريقيا، موطنِ أجدادها، مازالت شعلةً من الطاقة. لم تتوقَّف عن لومي لغيابي عنها ١٥ سنة هي التي حَلِمَت، يوم ولادتي الذي انتظرتهُ طويلاً في قرية أكاتيبو التنزانيَّة، أن لا أفارقها دقيقةً واحدة!

وضعت حقائب السفر في زاوية في غرفتي القديمة نفسها، أمام سرير طفولتي نفسه. امتلأ منزلنا، منذ أولى لحظات وصولي، بخمسين طفلاً ينتظرون أن تُفجِّر أمِّي أكياس «الفُولَة»(١) لتُمطِر نعنعًا وشوكلاتة يتعاركون على التنقيب عليها أسفل السرر والكراسي وفوق الدواليب... لم تتوقّف أفواج متعاقبة من صديقات والدتي على المجيء لتَحيَّتي. أغدقنَني عتابًا لِغيابي الطويل. لم أستطع الرد أو الحديث وإياهنّ أنا الذي كنتُ أتلذَّذُ في أيام الصبا لِكوني صديقهنَّ ومرجعنَّ الفقهي الدائم. لم يتغيّر شيءٌ في المنزل إلا الشروخ التي انتشرت في كلِّ جدرانه. كان المنزلُ خَرِبًا بما فيه الكفاية. للشروخ

١ـ الفولة: مزيج من الشوكولاتة واللوز المكسر (النعنع) تصبّهُ عائلة المسافر على رؤوس أطفال الشارع ترحيبًا بعودته من السفر.

على الجدران منظرٌ يدمي القلب. لأصداء ضجيج الفئران في المطبخ وخلف الحمَّام ذبذباتٌ ترعبني...

تناولتُ كأسًا من شاي أُمِّي الذي لم يعد له الطعم نفسه. اضطجعتُ قليلاً لأبدِّد قليلاً من عناء الرحلة وصدماتها، لأستعيد ذكريات سرير صباي، رائحته القديمة، لأفاوض فراشهُ العجوز الذي تحوّلَ أرخبيلاً من كومات الألياف المهترئة، لأستغرب كم صار هيكلُه مترنِّحًا صدئًا... مازلتُ منقبضًا، أشعرُ بنرفزة مكتومة، بجرح ينزفُ في الداخل...

تناولتُ العشاء مع أبي وأمي التي لم تفارقها دموع الفرح. هاأنذا أعودُ أمامهما طفلاً، وإن صرتُ كهلاً في أعماقي. كان ضوءُ المنزلِ شاحبًا، بلاطُ أرضه محفَّرًا، زواياه مملوءةً بخيوط العنكبوت، وسعادةُ اللقاء فيه عامرةً وإن تخلَّلتها عبارات جارحة، وجدت صعوبة في مواجهتها، من قبيل: «كنّا نظنُّ أنَّنا لن نراك قبل يوم الحشر!»، أو «حان الوقت الآن للتفكير بالزواج!»، «يا ولدي أنت تهربُ من مواجهة الحياة، لا تعرفُ إلا الهرب!»...

خرجتُ من المنزل. الشارعُ تبتلعه الظلمة. نظرتُ بلهفة وحبِّ استطلاع لمنزل جدّتي سلمى القريب من منزلنا: مغلق منذ أمد بقفل صدئ، يكنِّس جدرانه الغبار. رمقت البقعة الصغيرة التي وجدت فيها دفتر يوميات سوسن، في إحدى إجازات الخدمة العسكريّة. احتلَّت موقعها كومة من طوبات «البردين» لا أعرف من يمتلكها. توجَّهت نحو ركن الشارع. اقتربتُ من منزل الأستاذ نجيب وكلِّي

شوقٌ لرؤيتهِ والحديثِ معه. كان لديَّ ألفُ سؤال يعتمل في رحى أعماقي الحائرة، بانتظار رؤيته. كان منزله مغلقًا بالقفل هو الآخر!

بحثتُ عن مكان منزوٍ في أحد أطراف ركن الشارع اعتدت في طفولتي الجلوس فيه والهيام طويلاً. قرفصتُ فيه كما لو لم أغادرهُ منذ ١٥ سنة. شعرت بشيء من الهدوء وإن كنتُ محاطًا برجُلَينِ نائمين لأحدهما نخيرٌ متميّز. شعرتُ بسعادة العودة إلى المهد، وبإعصارٍ من الحسرةِ أيضًا وأنا أكتشفُ أنِّي على بُعد سنين ضوئيّة من سانت مالو! فقدتُها إلى الأبد، فقدتُ ديار الهدوء والثقافة والحريّة، ديار النقاهة والاستجمام، ديار التنوير التي خسرت فيها الكنيسة أمام العلم والتقدُّم، خلال قرون، كلَّ معاركها معركةً معركة. فقدتُ المطاعم الفاخرة والمقاهي الرقيقة، الأكتاف الطليقة، «عيد اللومانيتيه»، الكمبيوتر والعوالم الافتراضيّة... لعلّي كنتُ قاسيًا جدًّا مع سانت مالو عندما ودَّعتُها راميًا كلَّ أمتعتي في إحدى غاباتها قبل أشهر! لأنِّي الآن في هذا الشارع القديم ـ الجديد أبدأُ حياةً لا تُضيء في أفقها بارقة أمل!

أوقف تأملاتي منظرُ قطط الشارع. صارت هزيلةً ضامرةً جدًّا كما لو كانت مصابةً بمرض السلّ. كان واضحًا أنّها تعاني من مجاعة. تتسكّعُ بصعوبة، تلفظُ مواءات مغلوبةً على أمرها تشكو فيها من «قراصنة» البشر الذين يتناثرون أمام المطاعم الشعبيَّة، أمام «الكداديف»، يبحثون بين مخلفات الصحون وقمامات الزبالات عن لقمةٍ تسدُّ رمق أطفالهم. ما أصعب أن يحيا المرءُ قطًّا هذه الأيام!

لم أعد أعرف أحداً من ساكني هذا الشارع تقريباً. خلال ١٥ سنة خلت، غاب فيها من غاب، ولّى من ولّى، عبر من عبر، قُتلَ من قُتِل... ثمة علاقةٌ حميميةٌ بين الحياة في هذا البلد وسرعة الموت فيه. لم أعرف إلا الحاج الرديني الذي ما زال يقاومُ الموت كما يبدو. رأيتهُ يخرجُ من باب منزله كعادته بعد صلاة العشاء، يضطجعُ أمام الباب على سريره التقليدي نفسه ذي الهيكل الخشبي البسيط وذي المتنِ الشَّبكيِّ المحبوك من حبال «العزف». هرعتُ نحوه لأحيِّيه، ولأعرف منهُ أخبار هذا الشارع، وأخبار من أحبِّهم في هذا الشارع!

كان مضطجعًا كعادته، يواجه هلالاً شاحبًا في سماء غائرة النجوم، يلبسُ فانيلةً ناصعة البياض من ماركة «أبو عسكري»، كوفيّةً زنجبارية أنيقة، وفوطةً تهاميّة (معوز) بلون برتقاليٍّ فاتح تتخلّلهُ فسيفساء بيضاء. شاخ كثيراً هو الآخر. سلّمتُ عليه، عانقني بحرارة. جلستُ في طرف السرير كما كنتُ أجلسُ بين الفينة والفينة في سنوات حياتي القديمة. سألتهُ عن أخبار الشارع. سرد لي، بصوت لم يفقد رخامة نبراته وإن صار أكثر بطئًا وإرهاقًا، ١٥ سنة من السيرة الذاتية لشارع أضحى اليوم أكثر من أي وقت مضى أشبه بمقبرة.

ـ والأستاذ نجيب؟ أين الأستاذ نجيب؟...

ـ «يتابع وضعهُ» في صنعاء! سيبقى هناك عدّة أشهر للعمل في مدرسة خاصّة، لأنَّ راتبه الحالي لا يكفيه للحياة لا سيَّما بعد أن تضاعف عدد الأنفس التي يرعاها منذ أن تزوّج اثنان من أبنائه وصار له حفيدان... حالته الصحّيَّةُ ليست جيّدة جداً هي الأخرى، يعاني من

أمــراض في القـلب، لـكنَّه لـيس من أهـل السـلطة والمال الذين يطيــرون للعلاج للخارج لتبديل سنٍّ في الفم أو للشكاء من وجع في الخنصر...

قلتُ لنفسي: بلدٌ تمتهنُ إنسانًا بوجه وطلعةِ نبيّ، كالأستاذ نجيب، لن يُصيبَها خيرٌ أبدًا... تذكَّرتهُ أستاذي الأبدي، «المايسترو»، بشعره الفضّي، بقامته السامقة، بكلِّ بهاء طلعته، بأناقته ووسامته الملحوظتين، بألمعيّته المتوقّدة النادرة... ثمَّ أردتُ، بلهفةٍ أخفيتها بإتقانٍ كما أظن، أن أعرف من الحاج الرديني أطال اللهُ عمره، أخبار سوسن منذ أن سُجِنَت مساء ذهابها لإحدى السفارات الأجنبيَّة بغية السفر والحياة في الخارج:

- وسوسن؟ هل خرجت من السجنِ سوسن؟ هل عادت لمنزل جدّتي سلمى؟...

- سوسن خرجت من السجن في بداية الثمانينيات، بعد سفرك بخمس أو ستّ سنين. جدَّتها سلمى ماتت، رحمها اللّه، في نهاية السبعينيات وسوسنُ في سنوات السجن الأولى. أما أمُّ سوسن، رجاء، فقد ذهبت مع زوجها إلى تَعِز بعد «هروبهما» من عدن في نهاية السبعينيات، ولا أعرف شيئًا عنهما بعد ذلك... عندما خرجت سوسنُ من السجن جاءت لرؤيتي لتُحدِّثني بكلِّ ما عانته من آلام لا تخطرُ على بال. صُدمتُ يا ولدي يومذاك وأنا أراها نحيفةً مقهورة، تتكلَّمُ بصعوبة هي التي كانت سيلاً دافقًا من الكلمات كما تتذكّرُ ذلك بالتأكيد، تجدُ كلماتها بتعبٍ شديد هي التي لم تخُنها الكلمات يومًا! كان في قلبها بركانٌ من الحقد والكراهية، وفي عينيها مرارةٌ وحيرةٌ لا أستطيع وصفهما.

نهض الحاج الرديني من السرير ببطء ليجلس بجانبي بجسد ضعيف متهالك، قبل أن يسترسل:

ـ بعد نهاية لقائكما، وبعد محاولتها السفر للخارج، اتُّهِمت المسكينة بأنَّها «بلا شرف» و«جاسوسة» في الوقت نفسه! نعم، لم تعد سوسن في أعين الناس «بلا شرف» فقط، فلقد صارت أيضًا «جاسوسة» خائنة للوطن لأنَّها حاولت اللجوء لسفارة أجنبية لطلب فيزة للرحيل في تلك الأيام التي مُنِعَ فيها الحديث مع الأجانب!

لم تستحسن سوسن بعد الخروج من السجن السكن في منزل جدَّتها الذي ما زال مهجوراً إلى اليوم. يعيدُ لها ذلك المنزلُ، وبشرُ هذا الشارع، ذكريات عفِنةً كريهةً بعد اتهامات البغاء التي توالت عليها من ذلك الحشد الذي فاجأكما وهي تقرأُ لك مقاطع من دفتر يوميّاتها ليس إلا!... مازلتُ أتذكَّرُ كلَّ ذلك كما لو مرّ اليوم! لا أدري يا ولدي من سيحفظُ ذاكرة هذا الشارع بعد مماتي؟...

ما أدقَّهُ الحاج الرديني! ذاكرةٌ مذهلةٌ لهذا الشارع ـ المقبرة! أعادني، حفظه اللّه ورعاه، عندما حدَّثني بكلِّ ذلك، إلى نقطة البدء حيث توقَّفت حياتي. استعدتُ في لمحة بصر كلَّ تلك الذكريات التي سردتُها لكم سابقًا: أجمل قطعة شوكولاتة ذُقتُها في حياتي، دفتر يوميّات سوسن الذي رأيتهُ أمام منزلها أثناء سنة الخدمة العسكريّة، لقاءنا الرقيق في منزل جدّتها، صورتها الخالدة التي حدَّقتُ وشُدهتُ بها طويلاً، كأس الفيمتو الذي حملتهُ لي في ذلك اللقاء الرقيق قبيل الكارثة، صانع النهايات المشينة: الشيخ جعفر... كلُّ تلك الذكريات

عادت لي بكلِّ تفاصيلها الحيّة دفعةً واحدة، كما لو مرَّت البارحة ليس إلا. تذكّرتُ بداية سلسلة مآسي سوسن، عندما جاءتْ للاحتماءِ في منزل جدَّتها سلمى. كانت حينها في أوجِ الاكتئاب، لا تبحثُ إلا عن نسيان ذلك الزوج الغادر التي طلبت الطلاق منه بعد أن سمعتهُ يحكي لأصدقائه قصصهُ الليليَّة وهو يغتصبُ صبيّات «الأخدام» في الأكواد المجاورة! كانت تريدُ أن تمحُوَه من ذاكرتها، أن تنسى اسمهُ إلى الأبد، أن تبدأ حياةً جديدة. وإذا بها تبدأُ بدل ذلك «درب الصليب» أو «درب القيامة» كما يقولون، تضيفُ لويلها ويلات أخرى جديدة لم تكن في الحسبان...

واصل الحاج الرديني:

ـ بعد خروجها من السجن لجأت سوسن لمنزل إحدى صديقاتها في حيِّ المنصورة. لا أدري كيف كانت تُقضّي أيّامها هنالك. لم تكن سهلةً الحياة بعد كلِّ ما عَانتهُ في السجن! ثمة ذكرياتٌ يلزمُ لفظُها من الجسد، بَترُها من الذاكرة قبل مواصلة الحياة... لعلَّها حاولت أن تتقيَّأها بطريقتِها الخاصّة: انعزلت، هربت من العالم، ولجأت للعلاج بالكتابة. كانت تُضمِّدُ بعض جراحها وهي تتقيَّأُ صديد ذكريات السجن، كانت تتنفَّسُ بين الأسطر التي تسكبُ فيها آهاتها وصرخاتها... لذلك لم تتوقّف سوسن، عندما لم تكن في غيبوبة الاكتئاب والحيرة، عن كتابةِ ما حدث لها في السجن، وكأنَّها تواصلُ دفتر يوميّات سيرتها الذاتية الذي قرأتهُ أنت سرًّا، وسمعتَ من ثغرها جهرًا بعضًا من شذراته!

سألتُ الحاج الرديني :

ـ هل حكت لك كيف مرَّت أيامُها في السجن؟

ـ حكت لي كلّ شيء : ما حدثَ لها، وما نوت أن تعملهُ بعد ذلك . . .

ـ هل عُذّبت خلال تلك السنين الطويلة؟

صمت لحظةً طويلة، نظر إلى الأرض مُخفيًا تعبير تقاسيمِ وجهه في تلك اللحظة، ثم قال :

ـ أكثرُ من العذاب، أهولُ من الصلب : اغتُصِبَت سوسنُ في السجن!

تحجَّرتُ، تجمَّدتُ تمامًا . . . واصل بعد أن حكَّ شعر رأسه وأخفى نهدةً سمعتُ أصداءها تَئِنُّ في جوانحي :

ـ ماذا تنتظرُ من هذا المشهد : فتاةٌ بذلك الحسن النادر، اتُّهِمت بالتَّجسس، مطلَّقةٌ (ناهيك أنّها هي التي تجرأت على الطلاق)، ليس لها قريبٌ في هذه المدينة إلا جدَّةٌ لا تغادرُ الفراش . . . فتاةٌ مثلها بذلك الجمالِ السماويِّ، أمام مرضى كبعض عساكر تلك الفترة الذين لم يكونوا أكثر قُدسيَّةً من عساكر كلِّ الأنظمة القمعيّة، ناهيك أن كثيراً منهم حُرِمَ من التربيّة المدنيّة التي تساعدُ على امتلاك نظرة أفضل للمرأة؟ ماذا ينتظرُ فتاةً مثلها أمام وحوشٍ مقيّدة وجدت نفسها بين عشيّة وضحاها متخمةً بالجبروت والسلطة التي تفتحُ شهيّة أكثر النزوات طيشًا وهمجيّة؟

صمت لحظات طويلة وكأنَّهُ يتردَّدُ فيما سيقوله، تنفَّس نفسًا عميقًا مُكتظًّا بالآهات، ثمّ قال وهو ينظرُ صوب قمر شارعنا بأعين مبلَّلةٍ لم يستطع إخفاء حسراتها:

- كانوا يأتون إليها سكارى في آخر الليل ليغتصبوها. نعم يا ولدي، اغتصبها من اغتصبها. ضربها من ضربها. عشقها من عشقها. بكى بجانبها من بكى. شكا أمامها من شكا. وأفضى لها البعضُ كأطفال بما يختلجُ في نفوسهم، برغباتهم في الحياة، بآرائهم بالآخرين، بكراهيّتهم لهذه المهنة، بمؤامراتهم ودسائسهم. كانوا يهربون إليها ليتقيأوا عفن حياتهم أيضًا! أرادوا في قمَّة سُكرهم أن تكون سوسن عاهرتهم، زوجتهم، أختهم، بنتهم، أمَّهم، محلَّ ثقتهم وأمينة أسرارهم... حاول بعضهم أيضًا مساعدتها للخروج من السجن!

كرهَتْ سوسنُ الرجل إلى الأبد من أوَّل ليلة لها في ذلك السجن. امتلأَ قلبُها حقداً ورغبةً في الانتقام لا حدَّ لهما. قالت لي يوم خروجِها من السجن إنها لتطهيرِ جسدِها من أدرانِهم تحلمُ أن تملأهُ بالديناميت والقنابل لتفجِّرهُ، مثل انتحاريّة، في اجتماع يحضرهُ مسؤولو أمن هذه البلاد، ليذهبوا جميعًا إلى الجحيم.

توقّف الحاج الرديني قليلاً، بعثر نظراته على سطح سماء كثيفة الظلمة، باهتة الأنجم. ثمّ أضاف: لكنَّها انتقمت بطريقة أخرى!

سألتهُ أن يشرح لي كيف تمَّ ذلك. رفض قائلاً: بأي حقٍّ تريدُ معرفةَ ذلك؟ أجبتُ:

ـ عليَّ دينٌ لهـا! لم أتوقّف عن عـشـقـهـا أبداً والحقُّ يـقـال! سأذهبُ لرؤيتها حيثما كانت لأطلب منها، إذا قبلت، أن تواصل قراءة دفتر يومياتها لي من حيث توقَّفت!... يبدو لي أن كلَّ حياتي فشلٌ ونكسات منذ أن تركتُها تدفعُ وحدها ثمن لقائنا الأخير في منزل جدَّتها، وإن لم أعرف حتى يومنا هذا ماذا كان عليَّ عمله لإخراجها من السجن في تلك السنوات المجنونة!

استحسن ذلك، ابتهج وهو يلاحظ أن الحياة علَّمتني أخيراً أن أقومَ بإجراء ما، أن لا أنتظر الفرج يسقطُ لي من السماء في علبة ورديّة! لكنّه أشعرني بشكّه من أنَّها ستقبلُ مقابلتي. قال لي:

ـ لا أدري هل ستوافقُ على مقابلتك، لأنَّها صارت تكرهُ الرجل تمامًا. ثمَّ لا أعرفُ أخبارها منذ مغادرتها كليّةً لعدن في بداية ١٩٨٧ للانعزال في قرية أجداد والدها الذي توفّي بصدمة سيّارة في عدن عندما كنتَ صغيراً. تقع قرية جذور والدها في منطقة «الْبِيرَين» القريبة من «يَفرُس» حيث ضريحُ ومقام الشيخ الصوفيُّ أحمد بن علوان، القريبة من تَعِزْ. لهم هنالك دار وحقول وقطيع من الأغنام أظنُّ أنَّ سوسن تقضي يومها حاليًّا في التجوّل معها من مرعىً لمرعى ومن جبل لجبل... أتخايلها دائمًا جالسةً على صخرة نائية تراقب أطلاء قطيعها، تتحدَّثُ معها، تغمرُها بعطفها وعنايتها، تحاولُ قبل وبعد كلِّ شيء أن تمحو من ذاكرتها كلَّ ما ينتمي للعالم الواقع شرق جبل «جُبَح» على يمينها، وغرب جبل «حبشي» على يسارها...

واصل سرد يوميّاتها بعد سنوات خروجها من السجن وقبل مغادرتها عدن نهائيًّا في بداية ٨٧:

ـ عندما قرَّرت سوسن الانتقام، منذ أوّل أيامها في السجن، بدأت تُسجِّل في ذاكرتها كلَّ ما تسمعهُ من مغتصبيها: مخاوفهم، عداواتهم القبليِّة، ما يقولونه سرًّا حول الآخرين، تعقيدات وتداخلات ولاءاتهم وانتماءاتهم الطائفيَّة والسياسيَّة... كانت تسجّل في ذاكرتها كلَّ تفاصيل ما كانوا يتقيأونه في سُكرهم: أمراضهم ودسائسهم وأحلامهم وغيرتهم من بعضهم، وفضائح جرائم خصومهم... ولأنَّهم، بكلِّ انتماءاتهم السياسيَّة والقبليَّة، مرّوا جميعًا في حجرتها في السجن، فقد عرفت أسرار كلِّ الأطراف في الوقت نفسه: عرفت السرَّ والسرَّ الآخر، نوايا الغدر والغدر الآخر... عندما خرجت من السجن أَفْرغت ذاكرتها على الأوراق. كان صعبًا جدًّا أن تُرغم نفسها على إعادة تذكُّر تلك اللحظات الشنيعة، لكن كان عليها أوّلاً فتح أبواب سجون الذاكرة، تحرير غياهبها. يستحيلُ الشفاء من عذابات النفس دون تنظيف وترتيب الذاكرة، دون نزيف الكلمات.

لم تُسجِّل يوميّات سجنِها فحسب، بل سجَّلت أحاديث ساجنيها كُلاً على حِدة. كتبت، بغية الانتقام، رسائل بدون توقيع، أوصلتها بطريقة أو بأخرى لكبار جلاّديها ومغتصبيها، لتُحدِّثهُم بما قالَهُ خصومُهم عنهم، لتفضح أسرارهم وما يكنُّونَهُ لهم، لتستشهد بكلِّ التفاصيل التي لا يعرفها إلا قليلون فقط. أمعنت في سرد تفاصيل يومياتهم الحميمة التي لا يعرفها أحيانًا إلا المعنيُّ بالأمر وهو

يستلم الرسالة، وخصمهُ الذي حكى ذلك لسوسن. كتبت ذلك دون إضافة شيء، دون تأليف، ليكون أثر الرسالة ناصلاً لا يقبل شكٌ القارئ ثانيةً واحدة. كان أملُها وعزاؤُها الوحيد هو فناءَهم، لذلك كانت دقيقةً في كلِّ كلمةٍ كتبتها...

والت إرسال تلك الرسائل المجهولة المصدر رغبةً في تدميرهم تمامًا، ليبتلعوا بعضهم بعضًا، «ليذهبوا إلى الجحيم»، كما قالت. ولعلّها نجحت كثيرًا في خطَّتها. زادت مخاوفُهم وشكوكُهم من بعضهم، كره بعضُهم بعضًا بشكلٍ نهائي. لا أذهبُ للقول إنَّ سوسن كانت سبب حرب ١٩٨٦، لكنَّها نجحت إلى هذا الحدِّ أو ذاك في مصرعِ كثيرين من جلاّديها وتوريطهم في التهام بعضهم بعضًا، دون أي كذب أو تلفيق. قبل أن تغادر عدن جاءت لزيارتي. كانت آخر عباراتها: ليذهبوا جميعًا للجحيم!

ها هي الآن، كما أظن، راعيةٌ في قرية أجدادها النائية في منطقة «البيرَين»، القريبة من «وادي الضباب»، والقريبة أيضًا من منطقة «النَّشمة» المحاذية لـ«بني السرور» مسقط رأس والد صديقك في فرنسا: ح.ع.س. والده الذي توفّي رحمهُ اللّه في نهاية ١٩٨٤، وقُبِر هنالك. قُبِرت بجانبه أيضًا زوجته، صفيّة، أم صديقك في فرنسا التي توفّيت، ذات صباح ورديٍّ حزين، في ٢ أبريل ١٩٩١ في فرنسا أمام عينيْ صديقك مباشرةً في مستشفى «فندق الرب» في مدينة روان المجاورة لباريس. أعرفُ أن صديقك يسافرُ بانتظام مع زوجتهِ ن.ف. وطفلتيه ع. و ك. للانحناءِ أمام أكمة صغيرة أسفل قرية «مُعينات» في

بني السرور، يعلوها قبرُهما. أعرف أيضًا أنَّه يدين لهما، ولمرافقاته الثلاث، بكلِّ ما هو جميل ومجد وممتع وأخّاذ في حياته.

ما أدقَّه الحاج الرديني! من سيتذكَّرُ كلَّ تفاصيل تاريخ شارعنا بعده؟... أضاف:

ـ لو كنت محلَّك لسرتُ نحو سوسن في أي حقلٍ تكون، لأَحني هامتي أمامها، لأنَّها أروعُ قلب، أجملُ فتاة، أنعمُ فتاة، أشجعُ فتاة. لأنها أضحيةُ هذا الواقع المؤلم، أضحيةُ الطيش والعبث والوحشيّة! ربما تستطيعُ أن تمحو شيئًا من آلامها، أن تُقلِّل من كراهيتها للرجل. قبِّل جبينها بالنيابة عنِّي، واعشقها من كلِّ قلبك. اعشقها بغزارة لِتمسح كلَّ آلامها وأدران ماضيها. هذه وصيَّةُ عجوز شارعك الذي تقترب حياته من أجلها، هذا إذا جاز لعجوز شارعك أن يترك لك وصيّةً ما... سوسنُ يا ولدي قدرُك الذي ينتظرك، ولعلَّك تأخَّرت عنه كثيرًا!

بعد كلِّ ما سمعته، قرّرتُ على التوّ أن يكون لحياتي مشروع وهدف: التوجّه للبِيْرين بحثًا عن راعيتي المغدورة. عن حبّي الأول، عن حبّي الأخير! غير أنِّي استحسنتُ، لسبب لم يتناغم مع الظروف الجيوسياسية كما يبدو، أن أسارع أوّلاً بترتيب وضعي الوظيفي والحصول على عمل في جامعة عدن بفضل الماجستير وتجربة السنوات الأولى من الدكتوراه في فرنسا، قبل أن أتوجَّه لأُحني هامتي طويلاً أمام راعيتي الخالدة!

الفصل التاسع

كأسٌ صغيرة من الماء الـمُكْفهرِّ اللون، تمرُّ أمام ٢٤ شفةً تتقاسمُها قطرةً قطرة

للحصولِ على عملٍ في الجامعة كان عليَّ أن أعاني سلسلةً لا نهاية لها من أوجاع القلب، أن أفتح ملفات تتطلّب كيلومترات من التوقيعات، زمنًا من الانتظار. لا توجد مهمة، في هذه الديار، أعجلُ من الانتظار! كان عليَّ في البدء ترجمة الشهادات. يلزم لأجل ذلك التوجُّه لصنعاء التي لم تعد تربطني بها ذكريات تؤجِّج أشواقي الفيّاضة. لم أفهم حتى الآن لماذا يلزم المواطن، في أيِّ مدينة كانت، السفر للعاصمة لمتابعة الراتب أو لترجمة شهادة، لا سيَّما إذا كانت لتلك المدينة، كعدن، تقاليد إداريّة وتاريخ مدنيٌّ أعرق وأكثر تطوُّراً من العاصمة... كنت أفهم تمامًا أن يمارس هذا الامتهان للمواطن في عصر الإمام «أحمد ياجنّاه»، أمّا الآن؟... ثمة أشياءُ لا أستطيع

فهمها في هذه البلاد التي غبتُ عنها كثيراً، أو ربّما كان يلزمُني أن أصغي بتمعّن لجميع «الوصايا العشر» للشيخ جعفر كيما أفهم كلَّ أسرار الكون الغامضة!

لم يتقدَّم لذلك ملف توظيفي سريعًا. ثمَّ كان هناك سبب أتعسُ وألعن: بدأ الجوُّ السياسيُّ يتلبَّدُ كثيراً مع نهاية ١٩٩٣. ثمة حرب جديدة على الأبواب! وكأنَّ هذه البلاد لا تنقصها الحروب والكوارث... عشرات من كبار الاشتراكيين والواجهات التقدميّة المتميّزة تساقطت أو كادت تحت رصاصات القادمين من قلعة حسن الصباح ومن يرعاهم في السلطة. بدأ الحديثُ عن اسم فضفاض كبير: «وثيقة العهد والاتفاق». آه، نسيتها كليّةً تلك الوثيقة، لم أقرأ يومًا كلمةً واحدةً فيها. غير أنَّ ما لن أنساه في حياتي أبدًا هو حفلةُ توقيعها! كانت مهزلةً بمعنى الكلمة: الملك حسين بكلِّ ثقافته ومعرفته الجيّدة لقواعد اللغة العربية يقرأُ خطابًا مكتوبًا. يلفظ عبارةً تبدأُ بـ «واللّه أسالُ...»، يتقدَّمُ ثلاث أو أربع عبارات، يستدركُ أنَّه سكَّن هاء اسمِ الجلالة في عبارة «والله أسالُ...»، في حين أن عليه نصبهُ كونهُ «مفعولاً مقدَّمًا». مسَّ كبرياء الملك حسين، وقد تقدّم في خطابه عدّة عبارات، أن يُتَّهم بأنَّه «سكَّن ليسلم!» عاد القهقرى ثلاث أو أربع عبارات لينصب ما سكَّنهُ: «واللّهَ أسالُ...» وليواصل خطابهُ من هذه العبارة... في حين أنَّ المتحدِّثين الآخرين جميعًا ألقوا خطابات شفهيّةً تثيرُ الشفقة اللغوية. ذلك كلُّ ما أتذكَّرهُ من «وثيقة العهد والاتفاق!».

سأختزلُ كثيرًا الحديثَ عن حرب ١٩٩٤ لأنَّها أبشعُ أيام حياتي قاطبة. ستعرفون سريعًا لماذا أمقتُ سرد يوميّات تلك الحرب الطاحنة التي دمَّرت كلَّ ما تبقّى لي في الحياة من آمال. بها انقسمت حياتي إلى قسمين: ما قبلها صرتُم تعرفونه بما فيه الكفاية منذ مولدي قرب بحيرة مانيارا وحتى لقائي بالحاج الرديني. ما بعدها يتلخَّصُ في كلمتين: علبة الصاردين.

بعد اندلاع الحرب بقليل، انتقلت عائلتي وثلاث من عائلات الأقرباء إلى منزل بعيد عن الجبهات العسكرية، في «شعب العيدروس» بحيٍّ كِرَيتر، يمتلكهُ أحدُ أقربائنا العائشين في تنزانيا. كُنّا نعيش متلاصقين في غرفتين صغيرتين: ٢٤ نفسًا، لم نفقد منها إلا واحدةً خلال الحرب! كنّا نرتعشُ، نبكي، نصلّي، نختبئُ، نرتعدُ، نضحكُ، نتضامن، نطمئن بعضنا بعضًا، نسبُّ هذا الواقع الذي لم يحمل لنا إلا الفجائع والحسرات، نتقاسمُ كل شيء بمودَّة وحب. لم تكن عائلة سوسن، هذه المرّة، تختبئ مع عائلتنا مثل الحرب الأهليّة الأولى في ١٩٦٧ التي حدَّثتُكم عنها سابقًا.

بدأت الكارثةُ عندما ضُربت آبارُ مياه عدن وأنابيب مياهها لحرمان أهلها من الماء! كنتُ أقلَّ الجميع تعوُّدًا على هذا النمط من الكوارث لأنّي لم أحي هنا خلال حرب ١٩٨٦ التي ضُربت فيها آبارُ المياه بكلٍّ وحشيّة أيضًا. لم أعش مثلهم بشاعة حرب «ترموست الشاي» التي يُسمُّونها «أُمَّ الكوارث» بكلٍّ ما في ذلك من معنى، وإن

أصبتُ منذ أوّل أيّامها بعُقدة ذلك الترموست اللعين كما حدَّثتُكم سابقًا!

يلزمُ قسطٌ هائلٌ من الساديَّة والشرِّ واحتقار المواطن ليفكِّر الإنسانُ بتركيع الآخر عبر حرمانه وأطفاله من الماء، لا سيَّما في مدينة جمريّة القيظ كعدن، تغتسل فيها بالعرق كما لو كنت في «حمّام تركيٍّ» هائل، يلزمُك للحياة فيها أن تشرب أطنانًا من الماء دون توقُّف. لست متأكّدًا جدًّا أنَّ أيَّ عدوٍّ خارجي كان سيفكِّرُ بهذه الطريقة الشيطانيّة!... قادةُ هذا البلد كانوا دومًا عباقرةً في القتل والغدر والخراب والإظماء والتجويع، وغير ملهمين كثيرًا في البناء ومحاربة الأمِّية والفقر والأمراض.

كان الظمأُ هاجسي الأكبر خلال تلك الحرب. كنتُ أتوجَّهُ منذ الصباح الباكر إلى «حافة حسين» في كريتر، حاملاً زيرًا صغيرًا بحثًا عن الماء. ثمة بئرٌ محنَّطةٌ انبعثت للحياة بفضل ذاكرة كهول حيِّ كريتر الذين تذكَّروا موقعها، وبفضل شباب «حافة حسين» الذين حفروها. كنّا، عندما تخفُّ أوركسترا القذائف لحظات، نقفُ طابورًا طويلاً أمام البئر، نستنزفُ ماءها المُعكَّرة التي كانت بقُدسيّة ماء زمزم في أعيننا حينذاك. نرتعدُ خوفًا من البقاء في الطابور طويلاً لأنَّ أكثر من قذيفة سقطت فجأةً في أنحاء البئر واقتلعت أكثر من أب أو طفل.
أعودُ بالزير نحو المنزل بأسرع ما أستطيعه. نُقطِّرُ منه كأسًا صغيرةً من الماء المكفهرِّ اللون، يمرُّ أمام ٢٤ شفة تتقاسمه قطرةً قطرة. سجِّلُوا، لو

سمحتم، هذه العبارة في أحد أركان ذاكرتكم إلى الأبد: نُقطِّرُ منه كأسًا صغيرةً من الماء المُكفهرِّ اللون، تمرُّ أمام ٢٤ شفة تتقاسمها قطرةً قطرة.

أتذكَّرُ أيضًا كيف كنّا نلتقي أمام أبواب المنازل أو فوق سقوفِها عندما تخلو السماء من دويِّ القذائف والصواريخ لحظات قلائل. نتبادلُ أخبارنا، نقبرُ موتانا، نسخرُ من عبث حياتنا، نضحك قدر ما نستطيع، نواصلُ الحياة، نتذكَّرُ أشياء حميمة من حياتنا كِدنا ننساها تمامًا، نتَّخذُ قرارات حاسمة لحياتنا اللاحقة إن كانت لنا حياة لاحقة بعد هذه الطامّة الكبرى...

في الأسابيع الأخيرة اشتدَّ معمعانُ الحرب ونرفزةُ البشر، اشتدَّ قيظُ الحرِّ القاتل أيضًا، زاد تواتر المدافعِ والصواريخِ ودويُّها الدائم، كانت تأتي من كلِّ مكان، تقترب من كلِّ منزل. خسرنا أحد الأربع والعشرين نسمة التي تقطنُ منزلنا الصغير. كان كهلاً متعبًا جدًّا، أصيب بالصدمة القلبيَّة إثر دويِّ صاروخ هائل سقط قريبًا من المنزل. خرَّ صريعًا بعد ذلك الصوت المريع مباشرة! لم يعد قلبه المرهق قادرًا على تحمُّل تواتر الفجائع. كان ذلك الكهل العزيز جدًّا: أبي. دَفَنّاهُ على عجلةٍ في مقبرة كريتر. ودَّعناهُ جميعًا بألم شديد وأعين سكبت حسراتها بغزارة. غير أنِّي واصلت البكاء تلك الليلة، بكلِّ كتمان، حتّى مطلع الفجر...

ربما يلزم أن يصل المرءُ إلى مواجهة مباشرة مع الموت ليستيقظ. استيقظت فعلاً بعد موت والدي. أقسمت بالثلاث أن لا أتأخَّر ثانيةً

عن التوجُّه إلى الْبِيرين بحثًا عن سوسن، لأبدأ حياةً جديدةً معها. سأقبر أخيراً هذه الحياة التي طال ليلُها وتأبَّدت ضحالتها. ثمَّ سأواصل بعد ذلك البحث عن العمل في الجامعة، وليس قبل ذلك.

ازداد التصاق أُمِّي بي بعد وفاة والدي. كانت ترفضُ أن أصعد للسقفِ وحدي أو حتى مع الآخرين عند توقُّف دويِّ القذائف لحظات قلائل. كنتُ أدخلُ في جدلٍ شديدٍ معها. أصرخُ: «أمَّاه، تجاوزتُ الخمس سنوات من العمر، أتركيني قليلاً لوحدي!» أو «أرجوك أتركيني أتحرَّكُ كما أشتهي! عشتُ خمس عشرة سنة بعيداً عنك دون مشكلة...» الحقُّ أنِّي كنت محتاجًا جدًّا للخلوة فوق السقف لأهرب من اكتظاظ المنزل، لأشتاق لسوسن، لأتذكَّر السيِّدة عنانيص وهي تتحدَّثُ عن هذا البلد المصاب بِـ «لعنة علي عبد المغني»، لأتذكَّر هدوء حياتي القديمة في فرنسا، لأرثي حياتنا الكالحة التي لا حدود لعبثها ومآسيها...

في إحدى المعارك الصاروخيَّة الليليَّة العنيفة، كنتُ في السقف أراقبُ الألعاب الناريَّة في السماء بذهولٍ وخوف. سقط صاروخٌ قريبًا جدًّا من منزلنا اهتزَّ له السقف تحت أقدامي. كان انفجاره بركانيًّا مرعبًا أكثر من كلِّ سابقيه. شعرتُ بيدين قويَّتين تجُرَّانني من الخلف بعجلة وشدَّة نحو السُّلَّمِ الذي لا يبعدُ عنّي أكثر من خطوتين، في حين كنتُ إثر الخوف من الدويِّ الهائل قد استدرتُ بدون وعي قافزًا نحو السلّم. فقدتُ توازني تمامًا بين هول الخوف والربشة وتداخل أرجلي بأرجل

أُمي التي دفعتني بكلِّ ما تمتلكُ من قوّة. سقطتُ من أعلى السُّلمِ إلى الأرض. هرولت بلمحة بصر. كلّفني ذلك كسرًا في الساق منعني شهرين من الحركة، قبل أن تختفي آثاره تمامًا من جسدي، وشرخًا في عظم الكتف الأيمن سيلاحقني، هو، بآلامه الطفيفة المستديمة، حتى القبر. سيظلُّ إلى الأبد توقيعًا رسميًّا أمضتهُ حرب ١٩٩٤ بأمواس أظافرِها الحادّة على عظم كتفي. ما ألعن شرخ عظم الكتف الأيمن! جرحٌ لا يترمَّمُ أبدًا بسبب حركته اليوميّة المتواصلة. يُذكِّرك بوجوده في كلِّ لحظة، وأنت تشربُ الماء، تقرأُ وتكتب، تتناولُ الطعام، تفتحُ المذياع، تُمشِّطُ الشعر، تصافحُ الآخر، تمارسُ العادة السرِّية... لذلك يعتبرون في شوارعنا أن من أُصيب بشرخٍ في الكتف فقد «ركبتهُ الجنِّيةُ» حتى آخر أيّامه! أصابني شرخ خالد في الكتف، أمّا الجنيّةُ التي انتظرتُها قرب النخلة النائية فلن تأتيني أبدًا...

انتهت الحرب في الأسبوع الأوّل من يوليو ١٩٩٤ وأنا على الفراش بحيِّ العيدروس، معاقٌ، أعرجُ، غيرُ قادر على تحقيقِ رغبتي في الهروع بحثًا عن راعيتي الخالدة، حبِّي الأوّل، حبِّي الأخير. انتهت تلك الحرب بمحصِّلة وطنيَّة غنيَّة: عشرون ألف قتيل (بينهم ضحيّةٌ خارج السرب: والدي)، وعشرات آلاف الجرحى (بينهم جريح خارج السرب: إبنه الوحيد)... لا أعرف حتّى الآن إن كان كلُّ الموتى في تلك الحرب (أو نصفهم فقط، أو لا أحد منهم إطلاقًا) شهداءَ سيدخلون الجنَّة! يهمُّني ذلك كثيراً لمعرفة موقع والدي من الشهادة! لا أعرف أيَّ موقع سينالهُ في دار الخلد من ذاق وصبر على عذاب

الإظمـاء، وأي مـوقعٍ سـيناله في الدَّركِ الأسـفلِ من النار من عـذّب الآخرين إظماءً وامتهانًا... أسئلةٌ كثيرةٌ وجّهتُها لنفسي قبلاً في حرب «ترموست الشاي» وأعيد توجيهها اليوم وكأنَّ حربًا لم تكن...

انتـهـت الحـرب وأنـا على الفـراش! لم أشـاهد لحظات النـهب والغنائم التي تلتها... كنت ممدَّدًا بجانب النافذة، أشاهدُ ما تيسَّر من خرائب وانكسارات الشـوارع المقـهورة. لعلَّ آخر مناظر نهاية الحرب التي أحتفظ بها في ذاكرتي هو مشهدُ عودة عدنيِّين صغار ببذلات ورشاشات عسكريّة، معظمهم لم يكمل العشرين من العمر، وعدنيّات يضعن الرشاشات على الكتف... كان هؤلاء «العيال الصغار» أوَّل وآخر من صمد على أبواب عدن! أما أبرز القادة السياسيين فقد هربوا منها قبل الحرب! كانوا في كلِّ مكان إلا في عدن. حفروا للدفاع عنها خنادق في المريخ. كانت نهايتهم على مقاسهم تمامًا: بائسة ركيكة!

القدرُ لا يمهلُ المتأخِّرين كثيرًا! لم يمهلني هذه المرّة رغم أنِّي استيقظت من سباتي بعد وفاة والدي، ناهيك أنِّي بسبب كسر ساقي لم أكن مسؤولاً هذه المرّة عن مكوثي مبطوحًا على الفراش في شعب العيدروس في كريتر، حتّى أواخر أغسطس ١٩٩٤، بعيداً عن شارع دغبوس الذي مرَّت فيه أشياءُ كثيرة غداة ٧ يوليو ١٩٩٤، نهاية الحرب.

بعد الحرب بأيّام قلائل، كما سيحكي لي الحاج الرديني هو نفسه، عادت الحياةُ إلى مجاريها في أحيائنا المنكسرة. وصل على

سيّارةِ صالون فخمة، مُحاطًا بسيّارات حرسٍ عسكريّة، ساكن قديم في هذا الشارع: الشيخ جعفر الدملاني! وصل بِطاقمٍ مهيب وهيئةٍ جليلة. لم تُقرع في شوارعنا طبولُ الأعياد والأعراس السلطانيَّة. ليس ذلك مراده إطلاقًا. مأربُه الوحيد، غايتُه الكبرى، مقصده ومرامه: الغنيمة! أليست «الحرب غنيمة!» كما علَّمتهُ ثقافة الطفولة التي رضِعَها من أثداء القبليَّة؟

المشكلةُ الوحيدة هي أنَّها لم تكن في عدن، غنيمته الأثيرة! لا يعرفُ أين هي وكيف سيصلُ إليها. احتلَّ منزلها الذي اشتغل فيهِ خادمًا! كان المنزل مهجوراً، صالحًا للنَّهب، وكان هو المنتصرَ، الأولى بالغنيمة، سيِّدَ الغنائم. لم يكن لهذا المنزل من وريث إلا هي: سوسن! أمّا هو فلم يكن في الواقع بحاجة لهذا المنزل الصغير المهجور، هو الذي يمتلكُ قصوراً في كلِّ مدينة. ما يحتاجه فقط هو أن تأتي الغائبة التي طال انتظارها لاستعادة حقِّها المنهوب! يعرفُ أنّها ستأتي حتى لو كانت في أطراف الكرة الأرضيَّة. يعرف أنَّه حينذاك، سيحطُّ عليها، سيحطُّ عليها بكلِّ ما أوتي من شحم ولحم، سيجثمُ على جسدها، على أنفاسها، «سيُفَحرِرُها» كما قال، وكما يحلمُ به منذ ١٧ سنة!

جاءت فعلاً بعد حوالى أسبوعين. وصلها الخبرُ إلى قريتها في الْبيرَين. طلب من حرسه مغادرة المنزل عند وصولها مباشرة.

لم تتغيّر كثيراً سوسن. مازالت تأسرُ القلب والنظر. أضفت عليها حياة الريف والجبال النقيَّة رشاقةً في الجسد ونضارةً في الطلعة.

يكفي مصافحتُها أو لمسُ بشرتِها بأطراف الأصابع للشعورِ باللذَّةِ والسعادة التامَّة. ثمة بشرٌ تُضفي عليهم السنوات سناءً آسرًا وحسنًا لا يذبل...

رآهَا ورأتهُ! لعلَّها لحظة نادرة جدًّا، مكثَّفة جدًّا، تكتظمُ فيها قرونٌ من العواطف والمشاعر والأحاسيس المعقّدة...

هي: تكرهُ الرجل بكلٍّ بساطة. هو: يموتُ رغبةً فيها بالذات، لجمالها، لرقَّتها... للتخلُّص أيضًا من عقدة الخادم. يشتهيها منذ رآها قبل ١٧ سنة، يشتهيها بطريقته، لا يُفكِّرُ إلا بها... لأنَّها، أوّلاً وأخيراً، قطعةٌ من الجنّة.

هي: تكرهُ السلطة، تكرهُ المغتصب. هو: يعتبرُها غنيمته الطبيعية، حقَّهُ الشرعيّ، مكسبه الأثير، خلاص شهوته المجنونة من جوعها وشيخوختها وانتظاراتها السحيقة...

اقترب لمصافحتها. رفضت مصافحته. لم يستطع لمسها عندما اقترب منها. نظر لـ «درمها»[١]، تهيَّج! هاهي لحظةُ العمر التي ينتظرُها منذ أمد! هاهي ماجما الشهوة المكبوتة تصعدُ من قاعِ الرغبات الدفينة! تصعد عنفوانيّةً جمريّةً بشكل آخر لم يعرفهُ من قبل. يمكنه الآن أن يُرغي شدقه، أن يزأر، أن يدقَّ طبول المعركة، أن «يُقرِّح» رقبتها، أن «يُفحررها»...

---

١ ـ الدَّرم: عرقوب أو كوعُ الرِّجْل.

هو: لا يحبُّ الدوران طويلاً حول الضحيّة. يفضِّلُ أن ينقضَّ عليها كثور جامح في رمقة بصر. يسخر من «نساسيع الحبِّ والمحبابة» ويُفضِّلُ علاقة «قطف خبر» كما كان يقولُ في فيشي. لم يراودها عن نفسها بأيَّة كلمة غنِجة، بأيَّة نظرةٍ رقيقة، بأيَّة ابتسامة غَزَل... دخل لصلب الموضوع: وعدها بإعادةِ المنزلِ لها على التو شريطة أن «تُقَمِّل له»!... كانت تلك التورية الرومانسية الرفيعة جداً أقصى ما تسمح به موهبته البلاغيّة من تدلّه وغزل.

ارتفعَ الدمُّ إلى قمَّة رأسها. ذاكرةُ كلِّ المغتصبين عادت إلى ذهنها دفعةً واحدة. لو كان لها أن تقتلع كبده بأظافرها لاقتلعتها، لرمتها للكلاب. ألم تحلم طويلاً بتفجير جسدها وسط كلِّ مغتصبيها السابقين لتطهيره من أدرانهم؟ أهانته بعبارات تُؤلمُ في الصميم، تَنَرْفز. سوسن يمكن النيل منها عندما تكون مغلولة اليدين في حجرة السجن، لكنَّها مستحيلة المنال عدا ذلك. هدَّدها. لم يكن بحاجة لتذكُّر أنّه المنتصر وأنَّها ليست أكثر من امرأة، ليست أكثر من «حُرمَة». أهانته أيضًا بمزيد من الاحتقار. فقد أعصابه، تفوّه بعبارات غير سامية. أهانته أكثر من ذلك مرَّةً أخرى. لكزها بطرف سلاحه، فقدت الوعي...

لم يواصل الحاج الرديني ما حصل بعد ذلك. عاد لمنزله مغرورقًا بالدموع بعد أن قال لي: «القدر لا يمهلُ كثيراً...».

سمعتُ عدَّة روايات مختلفةً حول مصير سوسن بعد مغادرة الشيخ جعفر للمنزل. ثمَّة من قال: وجدوا، في ذلك المساء الحزين،

قدِّيسةً مصلوبةً فاقدةَ الوعي على السريرِ (الذي كانت تنامُ فيه جدَّتي سلمى والذي اعتدتُ أن أذهب نحوهُ لأُسلِّم عليها، أو لـ «أبوس يدها»، كما كنتُ أقول). نقلت إلى المستشفى في ذلك المساء، ومنه إلى الدار الآخرة. ثمَّة من قال أيضًا إنّها سلَّمت روحها لباريها في ذلك المساء نفسه بين المنزل والمستشفى. وثمَّة من يُصِرُّ حتى الآن أن سوسن مازالت في قريتها في البِيرين، وأنَّ التي جاءت ذلك اليوم لم تكن هي إطلاقًا، بل كانت مومسةً، «غنيمةً طوعيَّةً». فتاةً مجهولةً من شريحة اجتماعيّة تكاثرت بأرقام خياليّة في هذا الزمن الجديد، زمن الجوع و«الجُرعات الاقتصاديّة» والقحط والنهب والفقر المدقع...

بدأتُ منذ عودتي لشارع دغبوس أعيشُ «عصرَ الصاردين» الذي عزلتُ فيه نفسي عن الكرة الأرضيَّة، كما حدَّثتكم بذلك باديءَ ذي بدء. لم أتوقَّف خلاله عن إحراق نفسي ببطء، من لومها بالتأخرِ خمس دقائق عن أعظم المواعيد... لم أغادر خلال كلِّ تلك السنوات غرفتي التي تخثَّرت ورمَّت مثلي. لم أر إنسانًا غير أُمِّي التي كنت أشاهدُها معظم الوقت تصنعُ البخور العدنيَّ حسب صِيَغٍ تعلَّمتها أمًّا عن أمّ. يضمن لنا ذلك الماء والغذاء، ويضمن لي قاتًا يوميًّا ألوكه وحدي كالمجنون. يضمن لأمِّي بقائي بجانبها كما أرادت، وإن كان قلبها يتقطَّعُ يوميًّا وهي تراني غائبًا، معلولاً، أشعث الشعر، «مُبلطحًا»، محدِّقًا بعينين جاحظتين نحو ضوءٍ يبرق في آفاق العدم.

كنتُ أرغمها أن تجيب: «وجدان مش موجود!» لكلِّ من جاء يبحثُ عني وإن نسيني البشرُ تمامًا بعد أشهر قليلة من وصولي. لم

تربطني بالكرة الأرضيّة خارج منزلنا إلا رسائل صديقي ح.ع.س، التي كانت تصلُني من فرنسا بين الحين والآخر، والتي كنت أعرف بواسطتها أخبار الدُّنيا بما فيها أخبار شارع دغبوس!

القدرُ لا ينتظرُ كثيرًا. تأخَّرتُ هذه المرة عن آخر المواعيد. تساءلت بين الحين والآخر إن لم تظل سوسن في قريتها فعلاً! كنت كعادتي أحتاج لأن أتعلّق بأملٍ ما، مهما كانت هلاميَّته. اتَّهمت نفسي ليل نهار بأنّي لم أعمل شيئًا لإنقاذ من دفعت حياتها ثمنًا للقاء بريء كنتُ أنا أحد طرفيه. اتَّهمتُ نفسي دون توقّف بأنّي لم أذهب لقريتها سريعًا. أدنت نفسي بهذه الجريمة في كلِّ لحظات اليقظة. أمّا في النوم فكنت أُعوِّض عجزِي ببطولات مجيدة: كانت معظمُ أحلام وكوابيس ليالي عصر الصاردين تدور حول إنقاذِ فتاة من الموت. كنت أرى نفسي أصلُ في اللحظة المناسبة، أُصارعُ بشجاعة لإنقاذ فتاة من الاغتصاب، من الموت.

كان أكثرُ أحلامي تواترًا هو إنقاذَ فتاة جميلة من طاغية يحاول إطلاق النارِ عليها! كان حلمًا غريبًا شديد التكرُّر، يمرُّ بالمراحل نفسها وينتهي غالبًا على الشاكلة نفسها: ١) كنتُ أثب كالأسد، أرمي بنفسي حينها نحو زناد بندقيّته، ٢) أدفعه بكلِّ ما أملكُ من قوّة، ٣) أتمتم بعدها عبارات بلا معنى تصيب أمِّي بالهلع، ٤) أستيقظُ بعد ذلك مذعورًا، ٥) أسمعُ أمي تدعو وهي ترتجف: «حبسٌ حابسٌ، حجرٌ يابسٌ، ليلٌ دامسٌ، وشهابٌ قابسٌ...».

بدأت من فرط تكرُّرِ هذا الحلم أتساءلُ إن لم أكن ذلك البطل الذي أنقذ الفتاة من الطاغية، في حياة قديمة سكنت فيها روحي جسداً آخر حسب نظريّات البوذيين، أو إن لن أكن ذلك البطل في حياة مستقبليَّة تسكنُ فيها روحي جسداً آخراً...

كان أملي الوحيد، إن كنتُ أُسمِّيه أملاً، هو مجيءُ الأستاذ نجيب لإحياء عظامي الرميمة، لإخراجي من تراجيديا انعزالي عن العالم ومن دوّامة توبيخ وتدمير الذات الدائم. ولتبشيري، من يدري؟ بأنَّ سوسن ما زالت عائشةً في مكانٍ ما...

سيأتي بعد ٨ سنين من اعتزالي. لا أدري لماذا هذا الرقم بالذات، رقم «القطيعة الزمنيّة» كما يقولُ مُفْتُو الأعداد، أو رقم «نهاية الأشياء» كما كان يُقال في اليونان القديمة!.... سيأتي فعلاً بعد ثماني سنين، لتبدأ تلك الرحلةُ إلى مملكة دملان التي استهلَّيتُ بها حديثي لكم، والتي سأواصلُها الآن من حيث توقَّفتُ سابقًا...

سأُواصلُها من حيث توقَّفت: بعد تلك الرحلة الخالدة إلى جبال الهملايا، ثمَّ إلى العاصمة الميثولوجية لمملكة دملان الشهيرة، تنكاء، الواقعة في دمل العليا. تلك الرحلة التي أنستني بسرعة أنِّي كنتُ متخثِّراً لمدَّة ٨ سنين في علبة صاردين ضاقت خلالها الكرة الأرضية من تنهُّدي وأنفاسي الكئيبة.

سأُواصِلها بعد أن حطَطْنا الرحال مساء الاثنين في تنكاء، في منزل السيّدة عنانيص. تلك السيّدة الرائعة نفسها، الأستاذة في جامعة

أجنبية، التي رأيتُها في لقاء خاطف في سمسرة محمد حسن بعد مغادرتي سانت مالو لصنعاء بأيّام. كانت مشغولةً بتصوير دهاليزِ وخرائب السمسرة عندما التقطتُ منها هاتين الكلمتين السحريَّتين: ثورة النساء...

ظلَّت الأستاذة عنانيص (أو عنانيص كما أحبُّ أن أسمِّيها بِكلِّ وُدّ) في بهوِ ذاكرتي، حمامةً وسط غربان، شجرةً تنمو فوق مقبرة، قدِّيسة ميثولوجية أتذكَّرها بإعجاب لا يأفل... لا أدري لماذا ذكَّرتني على التوّ بالأستاذ نجيب، رأيتُ فيها صِنوهُ النسائي النموذجيّ، مثيلَهُ الفكريَّ الصارخ.

سأواصلُ سرد تلك الرحلة بعد أن نمنا حتى فجر الغد في منزلِها. قبل أن نتوجَّه في الصباحِ الباكر نحو ذلك الاجتماع البالغ السرِّية في «مؤسسة ناتارين الثقافيّة» التي دخلناها من باب منزل صغير يُفضي، كما قلتُ سابقًا، إلى سُلَّم حلزونيٍّ يُؤدِّي إلى عمارة ضخمة تحت أرضيّةٍ (بتصميمِ «سمسرةِ محمد حسن» نفسه التي رأيتُ عنانيص نفسها تُصوِّرها بكاميرا الفيديو في الأيام الأولى من وصولي إلى صنعاء، كما أستطيع أن أضيف الآن!).

في ذلك الاجتماع السرِّي الذي حكيتُهُ لكم سابقًا عُرض سيناريو فيلم يخطِّطُ لحدث تاريخيٍّ لم أستوعبه حينها، لكنَّه سيحدث يوم الخميس القادم، يوم تتويج الملك تشومولونجا، الذي يصادفُ «يوم النامس»: أهمّ الأعياد الوطنيّة في مملكة دملان!

حان الوقتُ الآن، بعد أن توقّفتُ عن ذلك قبل بضع مئات من الصفحات، أن أواصل سردي لتلك الرحلة، رحلة العمر، من آخر سلالمِها الذي توقّفتُ عنده: عندما سقطتُ في «مؤسسة ناتارين الثقافيّة» فاقداً للوعي في منتصف ذلك الفيلم وأنا أشاهدُ ملء الشاشة وَجْهًا قادمًا من ذكرياتي البكر، حدّثتكُم عنه كثيراً: مانيارا...

الفصل العاشر

رحلة في جوف دملان

عندما استيقظتُ من غيبوبتي، التي يبدو أنَّها أخذت وقتًا طويلاً، لم أكن في «مؤسسة ناتارين الثقافيَّة»، بل كنتُ في منزل السيدة عنانيص. تزاحم في طرف لساني ألف سؤال، لم يمنع من خروجها دفعة واحدة إلا العهد الذي قطعته مع الأستاذ نجيب بعدم توجيهي أيَّ سؤال له قبل حفلة تتويج تشومولونجا بعد يومين من الآن. بانتظار ذلك الموعد القدري انضافت أسئلة جديدة خانقة: ١) ما هدف ذلك الاجتماع النسائي السرّي في «مؤسسة ناتارين الثقافيَّة» الذي عرض فيلمًا يشبه سيناريو حدث اجتماعيّ أو سياسيّ أو عسكريّ في غاية الأهميّة والخطورة؟ ٢) من هي تلك الفتاة التي انتصَّت على الشاشة ردحًا من الوقت؟ لماذا حاصرتها الأضواءُ وتركَّزت عليها كاميرات ذلك الفيلم في لحظة محدَّدة مفاجئة... قبل أن أفقد

الوعيَ عندما أدركتُ أنَّها هي مانيارا طفولتي وأحلامي؟ ٣) أين هي الآن؟... ناهيك عن كلّ الأسئلة المتراكمة الأخرى منذ بداية هذه الرحلة، لا سيَّما: ١) أسرار هذه المملكة الغريبة المطمورة التي يعرفُها الأستاذ نجيب تمامًا مع ذلك، وكأنَّه قضّى كلَّ حياته فيها، ٢) عنانيص وناتارين، ٣) نساء هذه المملكة اللواتي يَفُقن نساء أفريقيا طفولتي في العمل والإنتاج والحضور والتوهُّج، ٤) رجالها الذين يفوقون رجال اليمن في الخمول وهم يمتصُّون يوميًّا أعلاف الأقتموم على الجبال، لا مشروع لهم في الحياة إلا العثور على الكنز الذي سرقتهُ عصابة من الجنّ من الموكب الذي حمل هدايا الملكة بلقيس للملك سليمان، والمخبوء، حسب قولهم، في مكان ما من جبال دملان. لا أملَ لهم في الحياة، حسب أساطيرهم الأكثر رواجًا وحميميّة، إلا بمجيء «الملكة المُنتظرة»: حفيدة حفيدة... حفيدة الملكة بلقيس، التي ستُخرجُ حياتهم من بؤسها وستفتحُ لهم عصرًا ذهبيًّا جديدًا يعيدهم إلى أمجادهم السحيقة.

أحضرت لي عنانيص كوب ماء عذب مُخمَّر بالهيل. لاحظتُ أنَّها ازدادت تألّقًا وطراوةً وحيويّةً هذه الأيّام، كما لو كانت تعيشُ أسعدَ أيَّام حياتها، أو كما لو كانت على موعد قريب مع حلم تنتظرهُ بفارغ الصبر منذ سنين. شعرتُ بعودة جسدي إلى حالته الطبيعية بعد فنجان مائها ذي النكهة العطريّة الرائقة، وبشكل خاص بعد أن لمست جبيني لمسةً دافئةً عذبةً براحة يدها الناعمة التي أنعمَ اللّه بها على أستاذي الغالي. تناولنا وجبة غذاء خفيفة. لم أكن مفتوح الشهيَّة بعد

الإغـمـاء وبعـد فطور هذا الصـبـاح الذي احـتـفلتُ فـيـه بخـمـيـر «الـمُقَصـقص» التنجنيقي، كي لا أقول: غمرتُه بشراهة في صَحْنَي العسل وزيت الزيتون شديدي التكامل والانسجام. ناهيك أن عشاء البارحة، الذي استبحتُ فيه أكثر من «صحن شَفُوت» وتغزَّلتُ بجميع «بنات صحونه»، مازال نابضًا في شراييني...

بعـد أن اطمـأنَّت عنانيصُ والأستاذُ نجيب من تحسُّن حـالتي وانتهاء آثار الإغماء المفاجئ، طلبا منِّي أن أستحمَّ وأستعدَّ لرحلة فسحة ستدوم من الآن، ظُهْر الثلثاء، حتى صباح الخميس، يومَ المهرجان الدملانيّ الكبير. شعرت من نظراتهم ومن بعض العبارات التلميحية التي سرَّبوها أن هذه الرحلةَ لن تسمح لي فقط باكتشاف مملكة دملان، بل ستغيِّر حياتي تمامًا رأسًا على عقب، أنا الذي لا أنتظرُ لحياتي البائسة غير ذلك!

هيأتُ نفسي بشوق لاكتشاف مملكة دملان التي عبرتُ بعض شوارعها عند وصولنا يوم الاثنين، ثمَّ هذا الصباح الباكر وأنا أرافق الأستاذ نجيب لـ «مؤسسة ناتارين الثقافيَّة». صُعقتُ، كما شرحتُ لكم، وأنا أرى تلك الشوارع تزخرُ بنساء سافرات جميلات يملأنها إشعاعًا ونشاطًا وعذوبةً وابتسامات، يَعشن فيها ببراءة أيّام خليقة الأرض الأولى، بعيدًا عن العُقد والـمُحرَّمات والإثارات والإغراءات الحسّيَّة المبتذلة التي راكمتها حضارات الشرق والغرب وقيَّدت بها حياة المرأة وعلاقتها بالرجل.

خرجنا من منزل السيّدة عنانيص بعد أن ترك الأستاذ نجيب على ثغرها قبلةً رقيقةً دوَّخت بي، وبعد أن حدَّدا موعداً للالتقاء في مكان ما. توجَّهنا نحو مركز تنكاء بسيارة تاكسيّ خصوصيّ تقودُها تنكاويَّة تفيض لطفًا وحيَويّة. عبرنا معها شوارع ملتوية في مرتفعات العاصمة، قبل أن تصل بنا السيّارة إلى «حيّ يأجوج ومأجوج» في قمّة جبل عال جداًّ تنتصُّ عليه شوارع مكتظَّة بالمطاعم والمعارض والساحات الاحتفاليَّة...

طبول الاستعداد للاحتفال بمهرجان «عيد النامس» بدأت تقرعُ في كلّ أنحاء العاصمة. بائعو الوجبات الفولكلوريَّة الخاصة بالعيد يبسطون مفارشهم في الأركان وحواشي الطرق. تعرَّفتُ على أهمّ وجبات العيد التقليديَّة: ساندويتش نامس (يزدادُ غلاؤه هذه الأيام الاحتفالية ليصير بسعر بيض الكافيار)، يُرافقه كأس من عصير النامس الدملانيّ المثلَّج. شوارع المدينة في غمرة الاستعداد للاحتفال بتتويج الملك الجديد: لوحات صور الملك تشومولونجا تضيءُ في كلّ مكان، كيلومترات من مقولاته تملأُ الشوارعَ والعمارات الرسميّة، يافطاتُ تمجيده ترفرفُ فوق السقوف...

في «ساحة ظلال الفردوس» القريبة منّا، حفلةُ موسيقى وأغاني «رُوك» صاخبة! الراقصون هنا نساء في الغالب، لأنَّ الرجال في هذه الساعة لم يصحوا من نومهم بعد، أو هم ينهضون حاليًّا للتوجُّه إلى «منتديات امتصاص أعلاف الأقتموم» على جبال تنكاء الشاهقة.

التنكاويّات يملأن الساحة جمالاً وتناغماً، يرقُصنَ بمهنيّة، بانتعاش، بطلاقة، بتألق مُتجدّد. موهبةُ الرقص تسيلُ في دمائهن بلا أدنى شكّ. مكثتُ فاغر الفاه أمام حيويّة رقصهنّ وبهجة إيقاعاته وسحر تناغُمه. لعلّي منذ أن شاهدتهنّ في شوارع تنكاء، وبعد هذا المشهد تحديداً، قرّرتُ أن أعيش بقيّة عمري، لحظةً لحظة، في هذه الجبال ذات الفضاء الورديّ الجميل. وجدتُ فيها مرامي، مدينتي الفاضلة، وعالمي النموذجي بامتياز.

لاحظتُ أن ساحات الرقص التنكاوية تختلفُ كثيراً عن ساحات الرقص في «النوادي العائليَّة» في يمن هذه الأيام التي لا يرقصُ فيها إلا الذكور. وحدها الرجال تتناطحُ في تلك الساحات، أمام زوجات وبنات جالسات في قاعة مظلمة يُراقبن ذلك المشهد من ثُقبين صغيرين في نقاب عباءاتهن السوداء الثقيلة. منظر سرياليّ لو فكَّر بتصويره أحد لبيعه لمحطة تلفزيون أجنبيَّة فسيجني مقابل ذلك ما يكفيه للحياة حتى نهاية عمره.

كنتُ مأخوذاً بشكل خاص بـ «ملكة الروك» الدملانيَّة التي تتألقُ وسط المنصّة، بين شلالات أضواء مُتعدّدة الألوان تتقاطعُ وتتداخلُ حول جسدها الرشيق الراقص. حدَّثتكم عنها أكثر من مرَّة بشكل عابر. كانت تثبُ حيناً كنَمرة، وتتمخطرُ أحياناً يساراً ويميناً ناعمةً كقطعة «أورج» موسيقيّة، ترفعُ الميكرفون وتديرهُ بمهارة في كلّ الاتجاهات، وهي تُغنّي:

١٨ مليون نامس! هيييييييييييييي

كل نامس ينطح نامس، حيّا!

كلّ نامس يدعس نامس، هيّا!

كل نامس يركب نامس، حيّا!

كلّ نامس يلهف نامس، هيّا!...

كان بوُدّي أن أتفجَّرَ رقصًا في الساحة، أن أُقبّلَ جبين تلك الفنانة الشابّة التي أعجبتُ بها كما قلتُ لكم ألف مرّة، أن أذوب في هذا الزخم النسائي الذي كان يُدوّي عند نهاية كلّ شَطر: «حيّا!»، «هيّا!» بتفاعل عارم وإيقاع شجيّ... لولا أن الأستاذ نجيب قال لي إنَّه سيستأجرُ طرَّادةً ناريَّةً من مكتب مقابل، لنذهب لزيارة «دمل السُّفلى»!

لم تمرّ لحظات قليلة إلا وأنا أتشبَّثُ بظهر الأستاذ نجيب وهو يمخرُ عباب الطريق على هذه الطرَّادة النارية الخارقة السرعة. كان فرحًا بقيادة هذا الموديل الحديث وكأنَّه مراهق يتفاخرُ به أمام أعين مراهقات، تُثملهُ السرعة، تنتفشُ وترفرفُ خصلاتُ شعره الفضيّة في كلّ الاتجاهات، فيما كنت أُزرزرُ نفسي خلفهُ بانقباض وتوتُّر متزايد.

توجَّه بنا إلى مدخل فوهة رأس الجبل في وسط «حيّ يأجوج ومأجوج». المشهدُ البانوراميُّ الآسرُ لتنكاء من قمّة هذا الجبل يُبرّرُ وحده وعثاء آلاف الكيلومترات التي قادتنا من اليمن إلى مملكة

دملان. من مدخل الفوهة يبدأُ نفق مُسَقفَلت ذو جدران زجاجيَّة مضيئة ينحدرُ كشريط حلزونيّ غائر في أعماق الجبل، يربطُ قمَّتهُ بقاعدته. صُمِّم النَّفقُ كأنبوبة أنبيق ليسمح بالتجوُّل في جوف الجبل الذي حُفر من الداخل ليتَّسع لعدَّة صالات وأجنحة تتوزَّعُ على متحفَين: على يسار النفق «متحفُ تاريخ دملان»، وعلى يمينه «متحفُ دملان المعاصرة».

بدأت طرَّادتُنا تخترقُ أحشاء الجبل عموديًّا، تهوي فيه نحو الأسفل بسرعة متزايدة لم أعد أطيقها. رغم تجلُّطي كنتُ أُحدِّقُ هنا وهناك في تشكيل وتنظيم أجنحة المتحفين المنحوتين بشكل عبقريّ لا شبيه له في أيّ مكان آخر.

«متحفُ تاريخ دملان» يتكوَّن من خمسة أجنحة ـ طوابق ضخمة، كلُّ طابق منها كُرِّس لإحدى المراحل التاريخيَّة الخمس التي مرَّت بها مملكة دملان. يمكن دخول كلّ جناح من باب زجاجيّ يقع على جدار النفق، يؤدِّي إلى رواق زجاجيّ صغير يقودُ إلى بهو ذلك الجناح.

أوَّل الأجنحة التي واجهتنا بعد هبوطنا من فوهة رأس الجَبَل بقليل هو جناح المرحلة التاريخيَّة الأولى للمملكة: «مرحلةُ السُّدود». يوضّحُ ذلك الجناحُ تقنيات بناء السدود الدملانيَّة في العصور الأولى من نشوء وتطوُّر المملكة قبل آلاف السنين. مع هبوط النفق من طابق إلى طابق، يمكن بسهولة مشاهدة العصور الدملانيَّة تتقدَّمُ بانتظام

ثابت نحو الانحسار الحضاريّ ثمّ الانحطاط الكامل: الطابقُ الثاني مُكرَّس للمرحلة الثانية من تاريخ دملان: «مرحلة البخور» الذي اعتمد فيه اقتصادُ دملان على بيع البخور بعد انهيار كلّ سدودها التي نخرَتْها الفئران والسحليّات والصراصير. تلته «مرحلة البُن»، ثم «مرحلةُ الحُلْبَة»، وأخيراً «مرحلة الأقتموم».

«متحف دملان المعاصرة»، على يمين النَّفق، يتكوَّن من طوابق عشرة يمكن دخولُها أيضًا عبر أبواب زجاجيّة في جدار النَّفق، تؤدّي إلى أروقة زجاجيّة صغيرة تقودُ إلى بهوات تلك الأجنحة. في واجهة كلّ رواق شيخ كبير، يشبه غالبًا أحد الشيوخ الذين رأيتهم بأُمّ عينيّ في حفلة زواج الشيخ جعفر الدملاني في كوكبان، يعتمرُ عمامةً مزركشةً، يلبسُ جلاَّبيةً بيضاء، ويضع جنبيةً ضخمةً تمتدُّ من أسفل السُّرَّة إلى أعلى البلعوم. على كلّ باب في النَّفق نُقش بخطّ جميل اسم الجناح المجاور له، وحكمة دملانيَّة تاريخيَّة تُلخّص محتواه.

الطابق الأوَّلُ كُرّس لـ «التخطيط الاستراتيجي في دملان المعاصرة». اللوحة التي تعلو بابَه مكتوب عليها: «خَلّيها تَحبل بربح![1] (من الوصايا العشر للشيخ جعفر)». الطابقُ الثاني كُرّس لـ «السياسة الاقتصاديَّة في دملان المعاصرة». اللوحة التي تعلو بابه مكتوب عليها: «من قات غيرك كل وانجع![2] (من الوصايا العشر للشيخ جعفر)». الطابق الثالث كُرّس لـ «التربية والتعليم في دملان

١ ـ الرّبْح: القِرد.

٢ ـ أنجعْ: تقيأ ما أكلتَهُ.

المعاصرة». اللوحة التي تعلو بابَه مكتوب عليها: «جُنان يخارجك ولا عَقْل يحنبَك![1] (من الوصايا العشر للشيخ جعفر)»...

رغم حبّي الجارف لمملكة دملان التي قرَّرتُ أن أُسيل حياتي في أحضانها، لم أُعْط اهتمامًا كبيرًا لكلا المتحفين اللذين يشرحان مع ذلك تاريخ وحاضر هذه المملكة: كنتُ، عليَّ أن أعترف، أخشى سكتةً قلبيّة والأستاذ نجيب يُهرول بنا نحو القاع بسرعة صاروخيَّة.

عندما اقتربنا من فوهة الخروج أسفل الجبل، لاحت يافطة كبيرة تُرحِّب بالزائرين لـ«دمْل السفلى». خرجنا على هُداها لنجد أنفسنا أمام صحراء ناصعة تعلوها سماء زرقاء تفقعُ النظر، وشمس تذيبُ الشحوم و«تُكَلسنُ» العظام بسرعة نموذجيّة. في الأفق بحر تركوازيّ شفّاف! آه البحر، أيُّ وطن أقدس من البحر وأنجع منه في تطهير كُلّ أدران النفس والجسد! أعادَ الأستاذُ نجيب الطرّادة الناريّة إلى مكتب في عمارة صغيرة قرب مخرج الجبل، لعلّه فرع للمكتب الذي استأجرَها منه. بدأنا المشي باتجاه البحر، في طريق مُعبَّد، على هدى لوحة كُتب عليها: «مدينةُ عدم: ٣ كيلومترات على اليسار».

كان أمامنا، على بعد بضع مئات من الأمتار في الطريق الصحراويّ نفسه المؤدّي إلى الساحل، كائن هائل غريب يشبه صخرةً عريضةً سوداء تتقدَّمُ ببطء، يعلوها طبق طائر أسود، أو ربّما مظلَّة سوداء، تتحرَّك معها على الوتيرة نفسها. أسرعنا الخطى لنقترب من

١ ـ جُنان يُنقذك ولا عقل يُورِّطك.

تلك الصخرة العجيبة التي بدت كلّما اقتربنا منها أشبه بموكب بشريّ أسود يتّجه مثلنا نحو الشاطئ. كان الموكب كتلةً صماءَ متزاحمةً ناصعة السواد تتكوّن ممّا يقرب من خمسين امرأة تضعُ كلٌّ واحدة منهنّ، في أوج تلك الشمس الصحراويّة، عباءة سوداء ثقيلة تَتَكيَّسُ بها من أعلى الرأس حتى أخمص القدمين. على كلّ منهنّ نقاب سميك أسود مغلق تمامًا لا يتخلّله إلا ثقبان ميكروسكوبيّان يتّسعان لبؤبؤي حدقتي العينين بالكاد! قفّازات سوداء على كلّ يد. ذروةُ المشهد: على كلّ رأس قبّعة أنيقة سوداء من طراز قُبّعات رعاة البقر الأميركيين!

لم تكن المظلّةُ السوداء التي رأيناها من بعيد غير سرب من حوالى خمسين غرابًا تُحلّقُ فوق رؤوس الموكب، تتقدّم بسرعته نفسها، وكأنّها تُحملق هي الأخرى بهذا المنظر الفريد. تقدّم الفوج النسائي وسربُ الغربان ونحن خلفهما مخبولون مذهولون، حتى اقتربنا من الشاطئ الذي كان مُسجّلاً عليه: «شاطئ خليج الثور».

كان أمامنا شاطئ جميل تبدأُ منه مدينة «عدم» التي لُسعتُ بعشْقها من أوّل نظرة. «عدم» مدينة خُلقت للثرثرة، للعشق، للضحك، للأسماك اللذيذة، للسباحة، للكسل و«التوسيح» الدائمين. الحياة فيها «توسيحَة» بعرض الكرة الأرضيّة. عَشقتُها كُلاً وتفصيلاً من أوّل وهلة: عشقتُ أركان شوارعها، شواطئها وأمواجها الدافئة طوال السَّنة، حرَّها ورطوبتها، «غَوبْتها»، بطء حركتها، تسكُّعات ليلها البوهيميّ الرقيق، سكرات ضحكها، المشي طويلاً في

حاراتها وكثبانها وشواطئها... عشقتُ عصير ليمونها، كثافة وشغب غُربانها، أشجار السيسبان و«البهش»[1] الحرَّة في خلاءاتها الرمليَّة، جمالها المُغبّرة، قططها الجريحة، سيّاراتها المُدخّنة، «عُشَّار»ها، «تُمْبُلَ»ها، «قصبَ»ها، «دَيْمَن»ها، «بَيْدَن»ها...

«عدم» مدينة يحنُّ لها، في لحظة اليأس والعدم، كلُّ من عاش فيها قليلاً أو كثيرًا. تأتي في الذاكرة كسيَّارة إسعاف عندما تَغيم الحياةُ وتنغلقُ كلُّ الأبواب. ربما لأنَّها مدينةُ الطفولة الدائمة: تُولدُ فيها، تحيا، تكبرُ وترحلُ طفلاً. أبناؤها يشيخونَ أطفالاً. يعيشون حياةً مستلبةً شقيَّةً مؤلمةً دونَ بصيص أمل، لكنَّهم يعيشونها بأناقة: يعيشونها أطفالاً مخلَّدين.

لبعض الصخور الساحليَّة بجانبنا شكل فيل هائل نحتته الطبيعة بدقَّة هندسيَّة وإتقان مذهل وكأنَّهُ رُسم وسوّي بأيدي مئة نحَّات عبقريّ ماهر! بجانب صخرة الفيل سيّارات مملوءة بعسكر ومهندسين وبنائين، بأيديهم مجارف وفؤوس ومطارق. كانوا يشتغلون في مشروع لطمس ذلك التمثال الطبيعي، أو بالأحرى لتحويله إلى تمثال ثور بدلاً من الفيل. كانوا «يُنَقّفُون» جسدَ الفيل، يقتلعون بعض أجزائه، يُشرّحون ويُعيدون صياغة بعض أعضائه... يعملون بعجلة ونرفزة لإنهاء مشروعهم قبل صباح الخميس، يوم الاحتفال الكبير بتتويج الملك تشومولونجا التي دخلت «دملُ السفلى» بفضله «عصرَ

١ ـ البهش، الدَيْمَن، البيدن: ثمار أشجار تنمو كثيرًا في عدن والمناطق المجاورة.

الثور الأسود» بعد أن خرجت من «عصر الثورة الحمراء»...

شعر الأستاذُ نجيب بامتعاضي من هذا المشهد الذي خربط مجرى رحلتنا وكدَّر أجواءها المثيرة الخلاّبة. فهم رغبتي بالهروب من هذه الديار ومواصلة الرحلة بعيداً عنها! استأجر أوَّل زورق كهربائي سريع، قاده بنفسه عبر البحر باتجاه نهر يصبُّ على شاطئ قريب، على بعد عشرة كيلومترات تقريباً من شاطئ خليج الثور...

الفصل الحادي عشر
بين الكهف والجبل

استعدتُ هدوء أعصابي عندما تقدَّم الزورق بعيداً عن الشاطئ. النهر الذي دخلناه يتوغَّل وسط مناظر سريعة التجدُّد قويَّة الإدهاش، في عمق أدغال غابة عتيقة جدًّا تبدو بعُمر الكرة الأرضيَّة. ثمَّة أشجار باسقة يصل طول بعضها أكثر من ٢٥٠ متراً! صور هلاميّة مطمورة استيقظت في قاع ذاكرتي ونحن نخترق غابة استوائية تشبه الغابات العذراء التي عشت قربها في أفريقيا سنوات طفولتي الأولى.

بعد أن قطعنا عدَّة كيلومترات في أفياء لم يصلها ابن آدم، كما تهيأَ لي، اقتربنا من مقصورة معزولة مجاورة للنهر! ترك الأستاذ نجيب الزورقَ على ضفاف الشاطئ، لنتَّجه معًا نحو المقصورة. كانت عنانيص تنتظرُنا فيها! إلهي، كيف وصلت عنانيص هنا؟ أحسست وأنا أراها بمعيَّتنا في قلب هذه الغابة أنَّ هذه الرحلة لن تخلو من المباغتة والإدهاش حتى آخر لحظة.

رأيتُ بجوار المقصورة باب نفق تحت أرضيٍّ عرفتُ أنّه يصلُ المقصورة بمنزل السيِّدة عنانيص والأستاذ نجيب في تنكاء! من صنع هذا النفق الهائل ولماذا؟... أسئلة أخرى جديدة تنضاف للأسئلة التي تثورُ في أحشائي، والتي أخشى أن أقذفها دُفعةً واحدة في وجه الأستاذ نجيب بعد غد، الخميس القادم! كنتُ أظنُّ قبل هذه اللحظة أنَّ مثل هذه الأنفاق التحت أرضية الهائلة لا توجد إلا في الأساطير الشرقية المُغبّرة (كذلك النفق الذي كان ينقلُ الجنَّ بين سقطرة والهند) أو في الحياة الغربية المعاصرة (كذلك النفق الذي ينقل الإنس بين باريس ولندن أسفل بحر المانش والذي يمرُّ عبره قطار الأوروستار).

زُرتُ مقصورتنا بصحبة الثنائيّ الرائع. ذكَّرتني جدرانها الزجاجية المُطلَّة على الغابة بجدران مقصورة السيد النيبالي يواني بالادور، التي مكثنا فيها للاستراحة ليلةً كاملة عشيّةَ وصولنا لمملكة دملان. ستظلُّ حيّةً في ذاكرتي تلك المقصورة التي تعلو تلاً نائيًا في أدغال الغابة. لم أتوقَّف ليلتها عن الترجمة الملموسة لإعجابي بشرائح غنم المروج المشويَّة وتثمين مدى انسجامها مع شراب شعير الهضاب (التشينكغة) قرب الوهج الأرجواني للمدفأة، قبل أن أشاهدَ بأُمّ عينيّ فهدَ الليوبار الذي التهم فهد الجيبار النائم على شجرة الصفصافة الضخمة، ثم ال ١٦ أسداً التي كانت تحيط بنا فاغرة الأشداق لا تفصلنا عنها إلا جدرانٌ زجاجيَّة وبضعةُ أمتار...

كانت مقصورة السيدة عنانيص والأستاذ نجيب المطمورة هنا في هذه الغابة العتيقة أنيقة التصميم أناقةَ ذلك الثنائي الملائكي. ينفتح

بابُها على صالون تتوسَّطه أرائك مريحة تحيط بمنضدة عليها إبريقُ شاي وكؤوس صينية جميلة، وسلَّة فواكه مثيرة الشَّكل والألوان إن لم أقل غرائبيّة أحيانًا. في ركنه كرسيَّان خشبيَّان هزَّازان، ومنضدة بيانو من الطراز الفاخر... تملئُ الجدران بمكتبة زجاجيَّة تتوسّطُ كتبها آلاتٌ موسيقيّةٌ بدائيّة وتُحَف ثمينة أتت من ثلَّةٍ متباعدة من أقطار الدنيا. في الغرفتين المجاورتين رفوف حائطيّة بيضاء كثيرة، تحوي أدوات رحلات، كتبًا أنسكلوبيديَّة حول الغابات الاستوائية والحيوانات والأسماك والطيور، وموسوعات عامةً تعرَّفتُ بينها على «الموسوعة اليمنيّة» التي أصدرتها مؤسسة العفيف الثقافيَّة، وعلى مؤلفات شعريّة وروائية وفلسفية كثيرة رمقت بين مؤلّفيها: أحلام مستغانمي، أدونيس، صنع اللّه إبراهيم، عبد الرحمن منيف، علي المقري، محمد شكري، غادة السمَّان، صادق جلال العظم، توفيق الحكيم... ومجلّداً فخمًا عن علوم «الكاماسوترا» الهنديّة.

تناولتُ بعضًا من فواكه الغابة التي رأيتها على المنضدة. إحداها كانت حمراء فاقعة بلون الدم، ذات مذاق حلو مُسكرٍ ندمت أنّي لم أُسجّل اسمها الدملاني في ذاكرتي. أقسمُ أنَّه لو طُلب منّي أن أختار شيئًا ما أذوقهُ قبل أن أغادر الحياة لاخترتُ تلك الفاكهة. ثمَّ أعطت عنانيص لكلٍّ منّا حقيبةً علّقناها على الظهر فيها بعض من تلك الفواكه النادرة، مناديل قطنيّة، قنينة ماء، ومصباحٌ يدويٌّ في حالة عودتنا المتأخرة. أعطت كُلاًّ منا أيضًا منظارًا إلكترونيًّا علّقَهُ على العنق. خرجنا بعد ذلك لنواصل هذه الرحلة التي لم تتوقّف مفاجآتها بعد!

خلف بعض الأشجار الضخمة المجاورة للمقصورة يبدأُ جسر خشبيٌّ نحيف، يشبه سلَّمًا يرتفعُ في الفضاء بزاوية ميل معتدلة، يقود رويدًا رويدًا إلى قمّة جبل عالٍ في وسط الغابة. الجسرُ عبارةٌ عن حبلين متينين متوازيين بينهما مسافةُ مترٍ وبضعة سنتمترات تقريبًا، تتعامد عليهما أفقيًّا ألواح سميكة قويَّة، بمثابة درج، بطول أخمص القدم لا غير. في طرفي كلّ درجة يرتكز عمودان خشبيّان يرتفعان حتى الخاصرة، يمكن الاتكاء عليهما باليدين أثناء الصعود.

يرتفعُ هذا الجسر البدائيُّ الضيّق محاذيًا جذوع أشجار الغابة الباسقة، ثم يعلوها رويدًا رويدًا، يتوغَّل في الفضاء لتبدو رؤوس الأشجار أسفله تمامًا، قبل أن يتقدَّم في الغلاف الجوّي باتجاه قمَّة الجبل المواجه حيث ينغرس الطرف الآخر للجسر في فجوة عميقة.

بدأت الصعود متكئًا بقبضتي يديَّ على الأعمدة القريبة من خاصرتي، ومصوبًّا قدميَّ على ألواح الدرج التي كانت تتأرجح مع كلّ خطوة. كنت محاطًا بالثنائي القدري: أمامي السيدة عنانيص، خلفي الأستاذ نجيب.

لم أشعر في حياتي بانقباضٍ أكثر من الانقباض الذي شعرت به بعد أولى خطواتي على هذا الجسر المترنّح في الفضاء. أكرهُ الارتفاع عادةً، أخافُ منظر الهاوية بشكل لا يخطرُ على بال، أشعرُ بالدوار دائمًا عندما أعلو قليلاً. زاد هلعي بشكلٍ لا يُطاق وأنا أشعرُ أنَّ الجسر يهتزُّ تحت رجلي مع كلّ خطوة، لا سيَّما عندما بدأت أقترب من أعالي الأشجار وأرى كلَّ ما تبقّى من الجسر.

لم أعد أتجرأُ على النظر أمامي لعنانيص التي كانت تسير في الهواء كأنها تمشي على الأرض، تُلصقُ المنظارَ على عينيها بكلّ بساطة، تديرُه على يمينها ويسارها باتجاه الغابة، وعلى أسفلها باتجاه النهر. تذكَّرتُها وهي تصعدُ بكلّ ثقة وليونة السُلَّمَ الخشبيَّ المهترئَ في سمسرة محمد حسن... هاهي تمشي على هذا الجسر الهوائي بخفَّة وكأنَّها تتمخطر على منصة مسرح، دون الحاجة للتمسُّك بالأعمدة المجاورة للخاصرة. فيما كنت أنا أتمسَّكُ بتلك الأعمدة مرتجفًا، شاتمًا في سريرتي الأستاذ نجيب الذي أوقعني في فخّ هذه الرحلة المجنونة التي تقودني الآن لا محالة إلى المهلكة.

كيف تخلَّص هذان الآدميّان من الخوف؟ كيف يتخلَّص المرء من الخوف؟ لماذا أزرزر كلَّ خلايا جسدي، أشعر بقرحةٍ في المعدة، بتفجُّرٍ في الشرايين؟ لماذا أشعرُ أن قلبي سينخلعُ بعد دقائق فقط، لماذا أتمتمُ كلَّ الآيات القرآنيَّة التي أحفظُها عن ظهر قلب وكأنِّي شريطُ مسجّلة تدورُ بأضعاف سرعتها الطبيعية؟ لماذا أرتجفُ وألعن القدر الذي حملني هنا، في حين كان صديقاي العزيزان في قمّة انشراحهما وتلذُّذهما؟

فكَّرتُ بالتوقُّف والعودة إلى الخلف. يستحيلُ ذلك! ليس ثمَّة متَّسعٌ على هذا الجسر يسمح بالعودة إلى الخلف. لا أستطيع مجرَّد الاستدارة لرؤية الأستاذ نجيب خلفي خوفًا من أن ينهار الجسر أثناء حركتي، أو أن أفقد توازني ثمَّ أهوي كيلومترًا أو كيلومترين في الفراغ الجويّ، تتفجَّرُ بعدهما جمجمتي وتتناثرُ إربًا إربًا على إحدى صخور الكرة الأرضية... شعرتُ أنَّ كلَّ خلايا دماغي النائمة أو الميّتة منذ

زمنٍ طويل بدأت تستيقظ من جديد تحت تأثير صدمات كهربائيَّة تُولّدها رهبةُ السقوط ورعشةُ الموت...

يلزم مواصلة السير بانتظام وهدوء. يلزم الحفاظ على مسافة عشرة أمتار تقريبًا مع الآخر. يلزمني أن أسير بإيقاع حركة السيّدة عنانيص نفسه. يلزم أن نسير سربًا واحدًا بإيقاعٍ متناغم... رمقتُ أسفلي أشجارًا عالية وأمامي معظمَ الجسر الذي لم نطو منه إلا قليلاً: شعرت أن أحشائي تتمزَّقُ في الداخل من فرط قلقي وأنا أُدرك أنَّني في ورطة العمر! لعنت صديقيَّ اللذين لم يَفترضا أنهُ يمكنني أن أصاب بسكتة قلبيّة! ماذا لو سقطت بعد ثوان، أو الآن؟ ماذا لو حملنا الجسر مباشرةً إلى شدق فهد أو أسد أو قطيع من الضباع؟...

ثمَّ بدأ شيء لم أكن أتوقَّعه. تحوَّلت خطواتي شيئًا فشيئًا إلى خطوات غير واعية. صرتُ أتحرَّكُ بشكل لا إرادي، أتنفَّس بشكل أعمق. استرخت أعصابي كثيرًا إثر ذلك. لا أدّعي أنِّي بدأتُ أتجرأُ النظر إلى يساري أو يميني، أو أُفكّرُ باستعمال المنظار، لكنِّي بدأت فعلاً أسيرُ بخطوات أكثر خفَّة. واصلنا العلو. كان العرقُ يسيل مدرارًا من جبيني، يملأُ ثيابي، يغسلُني تمامًا. لم أتجرأ أن أمسح هامتي بيدي حتى لا أبعدها عن العمود الخشبي الذي أتمسّكُ به. لكنّ خطواتي صارت فعلاً أكثر أتوماتيكيَّة، أكثر انتظامًا وسيولة.

صرتُ أرفع عينيّ فترة أطول لمشاهدة بعض المناظر أمامي. كانت خارقة السحر والجمال بشكل لا أستطيعُ تصويره. كلُّ خلايا دماغي النائمة أو الميّتة التي استيقظت قبل قليل بدأت تتنفَّسُ الآن من جديد

وأنا أتماوج هنا في طيّات الفضاء، أستحمُّ في هذا الملكوت السماويّ الفريد... بدأتُ أتحرَّرُ من الخوف والشعور بالدوار. صرتُ فعلاً أقلَّ تصدُّؤًا، أكثرَ مطاطيّة كلَّما زاد اقترابنا من القمّة!

وصلناها تلك القمّة! شعرتُ أنَّني أعود للحياة، أُولدُ من جديد. شعرتُ بالغبطة التي نسيت طعمها منذ دهر. توقّفنا للراحة بضع دقائق بعد تعب وجدته لذيذًا، مباركًا، شافيًا لا يخلو من النشوة. استرخيتُ تمامًا، كان بوُدّي أن أغفو دقائق فقط لولا أنَّ «القيادة العامة»، السيدة عنانيص والأستاذ نجيب، أرادت لركبنا أن «يواصل المسيرة».

بدأنا السير بعد ذلك على جسرٍ آخر من النوع نفسه، باتجاه الهبوط هذه المرة نحو قاع جبل آخر يواجه جبلنا. كنت أقلَّ انقباضًا منذ البدء هذه المرّة. لعلَّ خلايا دماغي التي عادت للحياة قبل قليل كانت هي عينها «خلايا البصيرة» أو «خلايا الثّقة بالنفس» لأنّي شعرتُ أنَّ بصيرتي لم تعد عمياء الآن، وثقتي بنفسي التي تناثرت أشلاؤها بين سانت مالو وصنعاء وعدن عادت الآن للحياة! لكنّي مع ذلك ما زلت محتاجًا لتثبيت عينيّ بانتظام نحو موقع أقدامي على ألواح الجسر، وللتشبُّث بقوَّةٍ بالأعمدة المحيطة بخاصرتي.

وصلنا أسفل الجبل بجهدٍ كان أقلَّ وطأةً من قبل. قالت لي السيدة عنانيص إنَّنا سنقوم الآن برحلة تكميليَّة ضرورية في كهف يقعُ قريبًا منّا. أبديتُ، صدّقوا أو لا تصدّقوا، رغبةً قويَّةً صادقة في اكتشاف ذلك! لم أشعر بكثير من الرهبة رغم أنّي لم أزر كهفًا في حياتي.

كان الكهف في البدء عبارةً عن دهاليز وأغوار واسعة. ثمّ تحوَّل بعد قليل إلى فجوات مُشعبكة تتخلَّلُها ممرات ضيّقة يلزمُ لدخولها في الغالب الانحناء وعطْوَرةُ الجسد أو حشرهُ فيها بالكاد. يلزم في كلّ حركة التفاوض بين الجسد والحُفَر الصخريَّة، بين المصباح اليدويّ والفكّ، بين الفكّ والمعدة... يلزم ترويض الجسد أمام النتوءات الصخريَّة وتداخلاتها. يلزم أن يخفَّ الجسدُ تماماً للزحف على الحجار والأجراف والمياه الجوفيّة...

الكهف مملكة خفافيش وكائنات ظلاميّة مجهولة متنوّعة تقبعُ في الجُحُور والأوكار، تلتصقُ بجدران الأقبية الغائرة، تحوم ببطء في تلابيب أمعاء الكرة الأرضية... أغرب ما رأيت: فصائل مسالمة من ثعابين وحيّات بيضاء، لعلَّها مصابة بمرض المهق (البهق)، لم أر مثيلها في حياتي من قبل. لم أشعر بالخوف منها أنا الذي أفزُّ عادةً من منظر الفئران والصراصير والسحليّات والضفادع الصغيرة.

بفضل رحلة الصعود إلى الجبل شعرتُ أنَّني أتلاين عند الهبوط والالتواء في تضاريس الكهف. فقدتُ انقباضي بفضل هاتين الرحلتين المتكاملتين معًا. اكتشفتُ أيضًا أنَّ للكهوف جمالاً آخر لا يقلُّ أحيانًا عن جمال الأعالي. لم أكن أعرف أن رحلة الأعماق مُكمّلٌ ضروريٌّ عبقريٌّ لرحلة الأعالي. فهمتُ الآن تماماً لماذا نزلت يومًا رسالة سامية من السماء إلى كهف حراء، ولماذا استطاعت أن تُحوّلَ في سنوات قليلة بدواً يأكلون العقارب ويَئدون بناتهم بعد الولادة إلى مُشيّدي حضارة رفعت بيارق العلم في أظلم أيّام القرون الوسطى. أيقنتُ عندما وصلتُ قعر الكهف أن رحلة الأعماق تسمح للمرء أن يُحلّقَ

عاليًا، أن ينظر للحياة بسموٍّ وشمولية، في حين تجرُّه رحلة الأعالي للغوص في أعماق الذات واكتشاف أغوارها القصيّة.

ما إن وصلنا نهاية الكهف حتى شعرت بفرح هائل. شعرت أنَّ كلَّ خلايا جسدي تخلّصت الآن من أغلالها، وأنّني أصبحتُ حرًّا طليقًا. صرتُ مطاطيًّا، هوائيًا، رجلاً شنجميًّا بجسدٍ غضروفيٍّ ليّن. أكادُ لا أُصدّق: هاأنذا بدون سلاسل الخوف والخضوع، أسير وأفكّر بلا قضبان!

عندما خرجنا من الكهف، كنّا على بعد ساعةٍ من الأصيل تقريبًا. بدأنا العودة بالاتجاه المعاكس نحو المقصورة. صعدتُ الجسرَ لأسير من جديد في وسط هذا الثنائي الملائكي الذي حرّرني من خوفي وانقباضي. بدأتُ أتوحَّدُ مع إيقاع خطواتنا، أنسجمُ مع محيطي. أصغيتُ بتركيز كبير لهدير أوركسترا الأصوات التي تطلقها حشرات وزواحف الغابة، والتي تعلو وتتداخل مع اقتراب الغسق وحلوله. كانت تصعد من أحشاء الأرض كثيفة متنوّعة متداخلة، أشبه بقطعة موسيقى إلكترونيَّة تطلقها ملايين كمبيوترات معلّقة على أشجار الغابة.

اقتربنا من قمّة الجبل الذي يقود مباشرةً إلى المقصورة. كانت الشمس توشك على الغروب. شعرت فجأة أنّي لا أحتاج للاتكاء على أعمدة الجسر. لمست منظاري!

لم أعد أخافُ شيئًا. لم أعد أرى في الأستاذ نجيب والسيّدة عنانيص بشرًا خارقين. كنت أشعرُ أنّي أضحيتُ أنا أيضًا... مثلهما تقريبًا. لم أعد أخاف شيئًا. هاأنذا لا أخاف! لعلي أستطيعُ الآن أن أحُلَّ «عقدتي الرابعة»: أن أ.ت.م.رّ.د، أن أتمرَّد! أن أصير حُ.رًّا، حُرًّا!

بحركة طبيعيَّة هادئة وضعتُ المنظار أمام عينيّ وأنا أتقدَّمُ باتجاه القمة. صعقتُ من رهابة هذه المناظر المحيطة التي كنتُ سأحرمُ منها نفسي إلى الأبد لو لم أضع المنظار أمام عينيّ. أيقنتُ أنِّي تحرَّرتُ من الخوف تمامًا وأنا أُسرح ناظريَّ في كلّ الاتجاهات عبر هذا المنظار الإلكترونيّ الشديد الدّقة والبعد. كنتُ مشدودًا مشدوهًا فاغر الفاه من الذهول أمام ما أراه، أتساءلُ إن لم أكن أعيشُ حلمًا لا غير.

بدأت أُحدّقُ في هذه الطبيعة الشديدة التنوُّع التي فاق جمالها كلَّ ما رأيتهُ إطلاقًا. لفتت نظري من بعيد تلك المغارة المثيرة والمخيفة في الآن نفسه، التي رأيناها عند مفترق الطرق المؤدّية إلى «باب دملان» قبيل دخولنا إلى المملكة، بصحبة مرافقنا النيبالي الرائع جدًّا، لُودُو، ذي الأسنان البيضاء الناصعة والابتسامة الوديعة. تذكَّرتُ عندما سألت لُودُو حينذاك عن أسرار تلك المغارة (التي كانت تشيرُ لها لوحة مكتوب عليها كلمة: «خطر»). أجابني، كما قلت سابقًا، أنَّ تلك المغارة تؤدّي حسب بعض أساطير ومعتقدات هذه الديار إلى «مقبرة الفيلة»، أو إلى «برزخ يأجوج ومأجوج»... تذكَّرتُ كيف نظر الأستاذ نجيب حينها نظرة مملوءة بالغموض في اتجاه تلك المغارة دون أن يقول عنها كلمة. شعرتُ كأنَّه يعرفها تمامًا ويتعمَّدُ إخفاء ذلك، أو كأنَّ له موعدًا معها يومًا ما...

لفت نظري في شعب جبليٍّ بعيد جدًّا منظر راعية تعودُ مع قطيعها قبل الغروب! رفعتُ مقدار دقَّة المنظار الإلكتروني إلى أقصاه، لمشاهدتها بأوضح ما يمكن! لم أُصدّق! أين أنا؟ أين هي؟ لم أُصدّق! إنَّها هي! هي نفسها!...

لم تَمُت إذن!

لم تَمُت إذن!

لم أُصدّق أيضًا، نظرتُ من جديد. أعدتُ النظر ألف مرّة. كانت هي نفسها بلا غشاوة أو عراجين، كما أوضحتهُ شاشة المنظار الإلكتروني بدقَّة ميكروسكوبيَّة مذهلة، هي نفسها بوجهها الباسم، بأهدابها الناعسة الطويلة، ببشرتها الورديَّة التي أعادت لي تفاصيل صورة حائطيّة حدَّثتُكم عنها كثيراً...

صدمة تيّار كهربائيٍّ مفاجئ، أشبه بضربة برق، كادت تُمزّقُ شراييني في لمحة بصر. كدتُ أُهرول من أعلى الجسر، كدتُ «أعبُرُ فيمن عبر» من صعقة المفاجأة!...

وصلنا القمَّة الجبليَّة التي يُؤدّي جسرها إلى المقصورة مباشرة. لاحظتُ كم صارت خلايا جسدي في جذوة توهُّجها وسلاستها بعد رؤية الراعية التي أعادت لي النبض والأمل والشغف والسعادة الحقيقيَّة، وبعد هذه الرحلة التي سكبت شمسًا في زوايا روحي المظلمة المتخثّرة منذ قرون...

قلتُ لنفسي: ربّما يحتاجُ هذا الثنائي الذي يرافقني للاختلاء قليلاً، للاحتفال بتوهُّج الجسد وميوله للعطاء والتوحُّد بعد رحلة كهذه. أو لعلَّهما يحتاجان دون شك للبقاء في المقصورة وحيدين تمامًا للعشق والراحة قبل مفاجآت يوم الخميس. أما أنا فأعرفُ في كلّ الأحوال أنّي أحتاج أن آخذ طريقًا آخر غير طريقهما.

أعرفُ أنّي سأتّجه نحو الراعية! سأركعُ أمام أقدامها، سأطلبُ منها أن تصفح عنّي تأخري عن أقدس المواعيد. أعرف أنّي سأطلب منها أن تقرأ لي ما تبقّى من دفتر يوميّاتها لتبدأ حياتنا من حيث توقّفت، لنستعيدَ معًا زمننا الضائع...

سأعانقُها عناقًا لا نهاية له، سأُنهي في أحضانها الدافئة عذريّةَ جسدي الذي لم يفقد بكارتهُ بعد. سأبدأُ في أحضانها الدافئة حياتي الحقيقيَّة. سأعشقُها عشقًا لا نهاية له لأُعوّضَ عُمري الضائع، لأُعوّضَ أعماركم الضائعة، لأُعوّض الأعمار الضائعة لكلّ المحرومين من العشق على هذه المعمورة...

قلتُ للسيِّدة عنانيص والأستاذ نجيب:

ـ سأقومُ برحلة خاصة! لا تقلقا من غيابي، أعرفُ موقع المقصورة، سأعود لها فجر الخميس لوَحْدي!...

لم يكن عليهما أيّة لمحة قلق، بل العكس. كانا كمن ينتظران أن أتفوّه بهذه الكلمات منذ دهر. كانت نظراتُهما تُخبئان بشكل مكشوفٍ ثلاث كلمات: «وأخيراً نطق أبو الهول!»...

ابتسما لي بكلّ حُبٍّ وصفاء! ثمّ قال لي الأستاذ نجيب:

ـ رحلة سعيدة! سننتظرك هنا فجر الخميس. يلزمُ أن نتوجَّه معًا لتنكاء قبل الشروق...

ابتسمت عنانيصُه الرائعة ذات الوجه الجميل المشرق، قائلةً:

ـ إلى فجر الخميس!

الفصل الثاني عشر
عيد النَّامس

عدتُ للمقصورة فجر الخميس بخطوات خفيفة. عدتُ على أجنحة ملائكة. عدتُ هائماً مخدَّراً بعد ليلتين سماويَّتين في أحضان راعيتي الخالدة. صرتُ إنساناً آخر. وجدتُ معنىً للحياة. لم أعُد أعطي للآخرين اعتباراً هامًّا. صار الكونُ في ناظريَّ نسبيًّا، افتراضيًّا، هلاميًّا جدًّا. وهي الحق، هي المطلق، هي الجذرُ والمركز، هي البداية والنهاية. صرت جرماً ضئيلاً يدور في فلكها: أَنفي مُضمَّخٌ برائحة أحضانها الدافئة، أُذني تمتلئ بكلماتها وهي تقرأُ ما تبقَّى من دفاتر يوميّاتها، أراها أمامي في كلّ لحظة منقوشةً تملأُ السماء...

لم أكن أنوي الغياب عنها حتى مساء هذا الخميس لولا أنَّ عليَّ أن أُودِّع الأستاذ نجيب الذي ربَّما سيعود بعد ذلك لشارع دغبوس. لن أنسى أن أُوجِّه له حول أسرار هذه الرحلة عدداً من الأسئلة وإن لم تَعد

في تقديري شديدة الأهميّة الآن. سأشكرُ كثيرًا السيدة عنانيص على حفاوتها وروعتها، وسأُعبِّر لها عن بهجتي بمعرفتها وعرفاني الخالص لها. سأُنهي، بأسرع وقت ممكن، هذه الواجبات البروتوكوليَّة التي لم أعُد أطيقها الآن، لأعود لراعيتي بعد حفل التتويج مباشرة. سأُواصلُ بعدها حياتي، كلَّ حياتي، في أحضانها الدافئة. حياتي التي انقضى منها ما يراوحُ الخمسة والأربعين عامًا والتي لم تبدأ في الواقع إلا قبل أقلّ من يومين...

غادرنا بعد وصولي بقليل مقصورة الثنائي الملائكي عبر النَّفق الذي يربطها بمنزلهما بتنكاء، على السيَّارة التي جاءت بها عنانيص. كانت سيّارةً أرستقراطيَّة مكشوفة السقف، من طراز «فورد موستانج ١٩٦٤» التي أُعيد خلقها مؤخَّرًا تحت رغبة الأثرياء والفنّانين من هواة تجميع السيارات الـ«ريترو» النادرة. قادها الأستاذ نجيب كعادته بسرعة جنونيّة وإن لم أعُد أخشى السرعة كثيرًا الآن كما كنته قبل يومين.

وصلنا منزل الثنائي الملائكي، تناولنا الفطور. لم أكن حاضرًا بجانبهما في كلّ تلك اللحظات إلا جسدًا فقط. ليس لأنَّ الفطور لم يكن شهيًّا هذه المرّة، كلاّ، كان مختلفًا تمامًا عن المرَّة السابقة وإن لم يكن أقلَّ لذّةً وإغراءً وجودة. تكوَّن من طبق من شرائح العصافير المقليَّة، موضوعة على قطيفة من مُربَّى التين الذي تتخلَّله خيوطٌ من زيت الزيتون. تُبّل الطبقُ بـ«كُشْمُبُر» خاص: نُتَف من «السيبوليت»

(نوع لذيذ راق من «الكراث» الرفيع) أضفى عليه مذاقًا همجيًّا لذيذًا. تناولناهُ مع شرائح مشويَّة من الخبز المُرصَّع بلُبّ الجوز (القعقع). رافق ذلك طبق ساخن شهيٌّ من نفس ذلك الخبز المشويّ المفروش بقطائف من جبن «أزرق مدينة باريس» (بلو دو باريس) الفرنسي... رافق الأطباق كأس مثلَّج من عصائر المشمش الثخين الطازج، وكأس شاي عدنيّ مُلبَّن فنّيّ الإعداد يفتحُ النفس من الصباح الباكر.

لم أكن إذن غائب الذهن وقت الفطور بسبب خلل أو نقص في الإبداع المطبخيّ. كنتُ أستعيدُ حينها في سريرتي ذكريات فطور البارحة في المنزل الجبليّ المنعزل لراعيتي. تناولناه على بلكونة تطلُّ على غيوم تتناثرُ كبحيرات زمرديّة. حولنا عصافير الصباح تزقزقُ أصواتًا تشرح الصدر. شلاّلاتُ جبال دملان المواجهة للبلكونة تجذبُ النظر للتحديق بها على الدوام، تغمرُ الروح بالسكينة والصفاء والبهجة. أتذكّرُ راعيتي صباح ذلك الأربعاء، بعد أوَّل ليلة لنا لم ننم فيها إلا في الهزيع الأخير، وهي تقول لي إنَّها لم تنم مثل هذه الليلة منذ أمد! لعلَّها هي أيضًا خُلقت من جديد، لأنَّ كلَّ خلايا جسدها كانت تتأجَّج رغبةً في الحياة. كانت بعد ذلك الفطور مسترخيةً في البلكونة، على أريكة خشبيّة هزّازة، تتأرجح كطفلة، تضحك، تتحدَّثُ، تتفجَّر رغبةً في الحياة والعشق، تعانقني دون توقُّف... كانت رقيقةً عذبةً حالمةً كما لا يمكن تصويره بقلم.

بعد الفطور والاستحمام، خرجت مع الثنائيّ الملائكي، في حدود التاسعة والنصف، باتجاه «ساحة العروض» في أحد أطراف تنكاء. بفضل الدعوة الملكيَّة التي كانت لدينا. ترك الأستاذ نجيب سيّارته في محطة سيَّارات كبار المدعوّين القريبة من «المنصّة الملكيّة». ثمَّ بدأنا نتجوَّلُ في تخوم المنصّة بين حشود الدملانيين الذين يتزاحمون للحصول على مقاعد قريبة منها، في قلب ساحة العروض. بعد التسكُّع والاندماج الكامل في الحشود البشريَّة المكتظَّة، بدأنا التوجه نحو مقاعد كبار المدعوّين على تلك المنصَّة التي سيأتي إليها بعد أقلّ من ساعة من الآن فخامة الملك تشومولونجا بشحمه ولحمه!

كنتُ، في طريقي، أستعيدُ يومَي لقائي بالراعية ثانيةً ثانية. لذلك لم تأسرني هذه المرّة إطلاقًا المناظر الاحتفاليَّة الزاهية. لم أُحدّق طويلاً بـ«طريق العروض» الواسع الذي يمرُّ أمام المنصَّة قاطعًا ساحة العروض من طرفها إلى طرفها على طول عدَّة كيلومترات، ترتكز على حاشيَتَيه مئات الأعمدة الكبيرة التي تنتصب عليها شاشات ضخمة، رُكّبت مؤخرًا، ليشاهد عليها الجميع وقائع الحفل المنقول مباشرة. تمتلئُ الشاشات حاليًّا بصور متنوّعة ولقاءات تلفزيونيَّة مسجَّلة مع الملك تشومولونجا، تتعاقبُ دائريًّا بانتظار بدء فعاليات الحفل.

كنتُ أحيا مع راعيتي في عالم آخر بعيد عن شجون واستعراضات هذا المهرجان. لم تستحوذ نظري أيضًا، من باب العجب والتفكُّه على الأقل، كلُّ الصور المتنوّعة للملك وهو يحمل سيفين

حينًا، بندقيَّةً تركيَّةً مزخرفةً يُوجِّهها للفضاء حينًا آخر، يمتطي حصانًا، يقودُ دبَّابة، يبتسم بجانب علم يرتسم عليه الرمز الوطنيُّ لمملكة دملان: عشب أقتموم يميل دائريًا بشكل هلاليّ تتوسَّطه حشرة نامس.

لم أعد أُحدّق بدهشة بصور الملك تشومولونجا مرتديًا معطفه الحريري الأخضر الغليظ المرصَّع باللؤلؤ والمرجان والممتدّ حتى أسفل القدم، حاملاً الصولجان الذي تتلألأُ مجوهراته ببريق صارخ، واضعًا سيجارًا ضخمًا على فمه وقبَّعة كاوبوي على رأسه بانتظار بدء التتويج... الشاشات العملاقة تنقل بين الآونة والأخرى منظرَ التاج الذي يبدو مثقلاً بالجواهر، مصمَّمًا بزخرفة دقيقة حينًا، مبالغ بها أحيانًا. لاحظت في ناصية التاج الرمزَ الوطنيَّ للمملكة: هلال الأقتموم الذي تتوسَّطه حشرة نامس، منحوتًا بشكل بارز على مجوهرة ضخمة.

ما أثارني حقًّا بالمقابل، ونحن نتسكَّعُ بين حشود الدملانيين في جوار المنصّة، هو ما لاحظته على جميع الأوجه من علامات ترقُّب حدث غير اعتياديّ إطلاقًا. كانت جحافلُ البشر هذه المرَّة تفوق سعة الساحة رغم أنَّ أغلب الناس ملَّت حفلات التتويج الدملانية التي تتكرَّرُ كلَّ ثماني سنوات. يكتفون عادةً بمشاهدتها على التلفزيون إذا اشتاقوا فعلاً لرؤيتها مرَّةً واحدة في حياتهم. جموع تجاوزت هذه المرّة كلَّ الأرقام القياسيّة تتزاحم في حاشيتي «طريق العروض» وتطفح أحيانًا في متنه. كانت الربشة والقلق والترقُّب جليَّةً على كلّ الأوجه.

الشفاه تتمتم مهامسةً بعضها: «ستأتي! ستأتي!...» كما سمعتُ في كلّ مكان. عندما حاولت أن أصغي للبعض على طريقي، و«أكشح» نفسي في همسات الجموع وهي تتمتم ذلك الخبر الذي ينتشر بسرّية كالنار في الهشيم، أدركت أنَّ المعنيَّة بالأمر، تلك التي: «ستأتي! ستأتي!...» ليست ابنة آدم عاديَّة، بل هي: «الملكة الموعودة»! تلك التي تتحدَّث عنها كلُّ أساطير دملان وينتظرها أبناؤه منذ ثلاثة آلاف سنة: حفيدة حفيدة... حفيدة الملكة بلقيس التي ستخرج شعب دملان من ويل ولعنات آلاف سنين من التدهور والانحطاط!

بدأت أدرك أنَّني أعيش لحظات تاريخيَّة نادرة. سأشاهدُ بأمّ عينيّ وعلى الطبيعة مباشرة إحدى تلك اللحظات التي تصنع التاريخ البشري. طنَّت في رأسي عبارات السيدة ناتارين التي لم أفهمها إطلاقًا عندما تحدَّثت، في اجتماع صباح الثلثاء في المؤسسة، عن «إحداث تغيير اجتماعيّ جذري على إيقاع أُسطورة تُحرّكُ الجماهير؟!» مبرّرةً ذلك بأنَّ «كلَّ الحركات الاجتماعيَّة والثورات الدينية أطلقت عباراتها الأولى على إيقاع حلم أو أسطورة، وبدأت تغييراتها الاجتماعيَّة رويداً رويداً في أطر تنسجم مع ثقافة الناس عشيَّة التغيير، ومع ما يتوقون إليه».

بدأت أتذكَّر بعض تفاصيل النقاش في ذلك الاجتماع البالغ السرّية، وبعض الفتيات اللواتي قلن إنَّ «كلَّ المعتقدات الكبرى في

المجتمعات ذات الثقافات التي تسودها الخرافات والأساطير، تأسَّست على كذبة بيضاء، (خرافة بيضاء، على حدّ تعبير إحداهن) يمكنُها أن تحرّك الناس وتُذكي حماسهم»، مستنتجات أنَّه لا يمكن إيقاظ الدملانيين المحقونين بمخدّرات أقتمومهم اليوميّ الذي جعلهم غالبًا سذَّجًا مدوّخين، الغارقين حتى مخّ العظم في ثقافة الأساطير والخرافات، ينتظرون أبداً منقذاً آتيًا من خلف الأفق، ينتظرون، ينتظرون، ينتظرون... لا يمكن إيقاظهم إلا بـ« رمز بدائي »، بـ« سهم الأسطورة »، بـ« قنبلة الحُلم »، كما قالت بعضهنَّ خلال ذلك الاجتماع.

كان واضحًا لي من رؤية جموع الساحة صواب ما سمعته في ذلك الاجتماع: على كلّ العيون رجفةُ الانتظار والخوف من شيء ما. انتظروها كثيراً ملكتهم الموعودة، حلموا بها كثيراً، سكنت منذ قرون أحلام نومهم ويقظتهم، منتديات أقتمومهم و« توسيحاتهم » اللانهائيَّة. يستحيل اليوم شدُّهم وتفجير طاقاتهم دون اللجوء إلى « منقذتهم المنتظرة »، سيّدة أحلامهم الأولى. أيُّ خبر يمكنه أن يهُزَّهم كتيار كهربائي أكثر من خبر قدوم من ينتظرونها منذ ٣٠ قرنًا...

بفضل دعواتنا الرسميّة وجدت نفسي قرب شخصيّات مرموقة على المنصّة الملكيّة. كنت في الصفّ الأول بجانب الأستاذ نجيب الذي تجاورهُ عنانيص. بجانبها مقعدُ السيدة ناتارين التي لم تصل بعد. على منضدة مطرَّزة فاخرة في واجهة المنصَّة ينتصب التاج الضخم

وسطَ علبة كريستاليَّة مغلقة. لا يبعدني عن عرش الملك تشومولونجا إلا أربعة أمتار تقريبًا. حدَّقتُ فيه عن قرب: عرش جسيم يرتفعُ أكثر من ثلاثة أمتار، مغلَّفٌ بجلود التماسيح والثعابين، مرصَّعٌ بأحجار كريستالية برَّاقة، تنهمر عليه كاميرات الشاشات العملاقة بين الفينة والفينة، بانتظار وصول فخامة الملك تشومولونجا لينتصَّ عليه قبل افتتاح فعاليات العيد.

نظرتُ يمينًا ويسارًا في كواليس الصالات الداخليَّة للمنصَّة الملَكيَّة لينكشفَ لي طرفُ الخيط الذي يؤدّي إلى مركز الأسرار والمفاجآت المنتظرة: مهندسات الكمبيوتر والتصوير والإضاءة اللواتي يملأن الكواليس هنَّ أنفسهنَّ تلك الفتيات اللواتي شاهدتهنَّ في «مؤسسة ناتارين الثقافيَّة» في اجتماع صباح الثلثاء! هاهنَّ ينقلن بشكل مباشر صُور المنصّة والعرش والتاج على الشاشات، ينقُلن وقائع الحفل الذي سيُستهلُّ، كما فهمتُ، بعرض عسكريّ على «طريق العروض»، قبل بدء مراسيم التتويج وفعاليّات الفرح الدملانيّ الكبير. أراهنَّ في صالاتهنَّ وعلى المنصّة الملكيّة يُحرّكن الكاميرات من مكان لمكان، يُراقبن ويُوجّهن أجهزة الإضاءة، يفتعلن المؤثرات الصنعيّة الإلكترونيَّة في سماء الساحة...

معظمُ كبار المدعوّين نساء، كلُّ العساكر رجال: هذه هي مملكة دملان التي حدَّثتكم عنها منذ البداية! العساكر المحيطون بنا في المنصَّة، ككلّ عساكر الكرة الأرضية، يبرزون النياشين والنجوم. ما

كان غير اعتيادي على سيماهم هو الريشة وترقُّب حدث تاريخيّ نادر ينتظرونه منذ الأزل، مثل بقيَّة شعب دملان، ويؤمنون به إيمانًا مقدَّسًا كما عرفت.

من هو الداهية الذي استطاع تسريب إشاعة مجيء «الملكة الموعودة»، وكيف تمكَّن من شدّ الناس وتفجير إيمانهم بمجيئها في هذا اليوم بالذات، كما لو كانت حقيقةً أكيدة؟

سأبدأُ حشد أسئلتي للأستاذ نجيب، بهذا السؤال بالذات، بعد هذه الحفلة مباشرة، وإن لم أعد أفكّر منذ يومين بأن أنفش كلَّ تلك الأسئلة، كسرب من النحل الجائع، فوق وجه أستاذي العزيز. غير أني كنت أتوقَّعُ إلى هذا الحدّ أو ذاك أنَّ الردَّ على هذا السؤال بالذات سيكون سهلاً نسبيًّا: ناشرات الإشاعة هنَّ بلا شك ناتارين وحورياتها من فتيات المؤسسة اللواتي رأيتهن في ذلك الاجتماع السرّي!

لم تصل بعد ناتارين! هي بالتأكيد جذوةُ مملكة دملان، دماغها، أهمُّ شخصيَّاتها وأحبُّها لجميع قلوب الدملانيين. هي رئيسة المؤسسة الثقافيَّة التي تعمل بدأب وحماس وإخلاص وسط أبناء دملان لنشر المعرفة والثقافة والعلمانيَّة... تعملُ سرًّا في الأساس لأنَّ كهنة دملان وشيوخ مشايخ قبائلها، وكلَّ أولئك الذين يلطشونها لطشًا ويديرون كلَّ أمورها في الخفاء، لا يُكنُّون لناتارين حبًّا عارمًا. لكنَّ شعبيَّتها الهائلة، لا سيَّما بين نساء المملكة، تحميها من «أكبر كبير» كما يقولون هنا. ولاءُ بني دملان لناتارين وإعجابهم بها يجعل الجميع

يحسَبُ لها ألف حساب ولا يتجرأُ على لمسها بمكروه، إن لم أقل يحاول التقرُّب لها كثيرًا لنيل الاعتراف الشعبيّ اللازم له. لعلَّها لهذا السبب وحده اختارَها الملكُ الجديد تشومولونجا لتتويجه هذا اليوم. لا أشكُّ أيضًا أنَّ الدعوة الرسميّة التي أمتلكها شخصيًّا والتي تسمح لي أن أترندع الآن في هذه المنصَّة الملكيَّة جاءت بفضلها أوَّلاً، وبفضل أعزّ وأوثق أصدقائها: الثنائي الملائكي الذي حرَّرني من أغلال حياتي السابقة وفتح لي أبواب الجنّة...

ليست ناتارين عبقريّة المملكة فحسب، وإنما أجمل نسائها قاطبة. وإن كنت الآن، بعد بدء حياتي الحقيقيَّة في أحضان راعيتي، لا أعيرُ جمال الأخريات اهتمامًا كبيرًا. لا أستطيع إغفال ذلك فيما يخصُّ ناتارين، سأكون غير صادق مع نفسي في هذه الحالة. هاهي تصلُ المنصَّة بفستان بنفسجيّ تتخلَّلهُ تقاطيع حمراء، عاري الساعدين، من حرير الدانتيل الخالص، يجلي كم هي رقراقة الجسد رشيقةٌ كتمثال أضحية النيل في مصر القديمة، ويضفي على جمالها الطبيعيّ الشامل الكامل روعةً وتألُّقًا إضافيَّين. إلهي، كم خلقتها مذهلة الجمال والسّحر بشكل قاتل! لعينيها الخضراوين، لأَنفها الدقيق، لجَسدها الحريريّ النموذجيّ التقاسيم، لشفتيها الورديَّتين الآسرَتين للنظر، لبشرتها الورديَّة النقيَّة الفاتحة، لخصلات شعرها الدائريَّة السلسة، لذكاء نظراتها، لعذوبة صوتها وابتسامتها الرقيقة التي تكشف أسنانًا بيضاء ناصعة... ما يجعلني كلّما أراها أشهق شهقة عميقة مكتومة تصعد من قاع جوارحي وأحاسيسي الجوفيَّة.

جلست في مقعدها الذي يفصله عن العرش الملكيّ منضدة التاج فقط. لا يبعدني عنها إلا مقعدا الأستاذ نجيب والسيدة عنانيص. حاولت أن أملأ نظري بها لأنَّ ذلك يحدث في حياة المرء مرّةً واحدةً في أكثر تقدير. ملأته، ملأته دون توقُّف، وإن اكتشفت أنَّه يزدادُ ظمأً في الواقع كلَّما نظرت إليها. لست وحيداً في ذلك دون شك. ناتارين بؤرة أنظار الجميع، لا سيَّما العساكر الذين اختلط في نظراتهم لها مزيج من الإعجاب والاحترام والتخوُّف والحذر...

بدأت الموسيقى تصدح في الساحة وفي سماء تنكاء معلنةً قرب وصول الملك. انفتح باب خلفيٌّ في المنصّة، اسمه «الباب الملكيّ»، مخصَّصٌ لدخول فخامته فقط ومغلقٌ عدا ذلك طوال العام. استدرت قليلاً لأرى فخامته على الطبيعة مباشرة محاطًا بحاشيته وكبار أقربائه ومقرَّبيه، وإن كانت سهلةً رؤيته من أقرب شاشة عملاقة تواجهني أمام المنصّة.

لولا معطفه الحريريُّ الغليظ الفخم، المزركش هذه المرّة بخرابيش وألوان طاووسيّة، المُطَرزُ بالجواهر اللامعة من الكتفين حتّى أخمص القدمين، لولا قبّعة الكاوبوي والصولجان، لولا السيجار... لَقُلتُ إنني أمام أحد «مجاذيب»(١) ابن علوان. الحقُّ أنَّه لا تشعُّ من سيماء تشومولونجا علامات الذكاء قط. ابتسامته لم تكن عبقريةً إطلاقًا. لا يوحي شكله بمفكّر عميق، بمناضل صادق، بمجاهد نزيه، بإنسان نقيّ مخلص... امتلأت نظراته بنوع من «اللخَّاج» شديد التعبيريَّة. لا

---

١ ـ مجاذيب: راقصي بعض الطقوس الدينية.

يبدو منها، ولا من كلّ لقطات أحاديثه المسجّلة المعروضة على الشاشات العملاقة، علمه بأولى أوّليّات المعارف المدرسيّة الصغيرة. لا يميّز بين الفاعل والمفعول نحويًّا، لا يكمل كثيراً من جُمَله عند الحديث، بعضها لا محلَّ له من الإعراب إطلاقًا، مواضيع أحاديثه المفضّلة بدائية ركيكة بشكل مفرط، لم يقرأ في حياته كتابًا واحداً، لم يسمع في حياته أسماءً وكلمات يعرفها أطفال المدارس الابتدائيّة، مثل: توت عنخ آمون، نيوتن، نظريّة فيثاغورس، داروين، أبي العلاء المَعرّي، بودلير، ألوان الطيف، سقوط الباستيل، سلامة موسى، المثلث القائم الزاوية... باختصار شديد، كان الملك تشومولونجا أقرب لهيئة «تنح» و«روفَل» كبير، مغطّى بالحرير اللامع والإكسسوارات البرّاقة، مسبوك بالجواهر والنياشين، منه لشيء آخر...

اقترب من عرشه على هدير أغنية: «حلا حلا يستاهل، كلُّه حلا يستاهل!» المعزوفة على إيقاعات الدُّفوف والطبول الصاخبة. جلس على العرش بعد أن وضع كفَّ يده اليمنى على قلبه (رمزاً لحُبّه لشعبه العظيم) ورفع سبّابة ووسطى يده اليسرى عاليًا على شكل إشارة النصر: V (رمزاً للنصر الدملاني العظيم). ثمَّ بدأت الميكروفونات تكتظُّ بقصائد الثناء والمدح والتعظيم التي لم تتوقّف عن تسميته بـ«ملك الملوك»، «أستاذ الأساتذة»، «دكتور الدكاترة»، «أديب الأدباء»...

بعد استوائه على العرش وبعد تلك المقبّلات الشعريَّة الجامحة، بدأ العرض العسكري. الوحداتُ النموذجيَّة للجيش

الدملاني تمرُّ على طريق العروض وحدةً وحدة. يستقيم فخامته أمام عرشه، يطلق رصاصةً من بندقيَّته التركّية المزخرفة، ليسمحَ للوحدة العسكرية التي تنتظر دورها أن تعبر أمام منصَّته. تصدحُ حينها الميكروفونات بإحدى أغاني التبجيل الدملاني الشهيرة:

يحيا الملك جعفر　　　الأسد الغضنفر

إذا قرأ بحرر [١]　　　واذا خَطب تعَنتَر

تمتلئ الشاشات بوجه الملك العظيم، بابتسامة عريضة يخفي السيجار جزءاً منها. تَليها صورةُ التاج المرصَّع بأضخم الجواهر، لا سيَّما جوهرة الواجهة التي نُحت فيها رمز المملكة: عشبُ الأقتموم الهلالي الشكل، المحيط بحشرة نامس. ما أضاف لسلسلة استغراباتي التي لن تنتهي خلال هذه الرحلة هو اكتشافي أنَّ كلمة «تشومولونجا» في هذه الديار تعني «جعفر». قلتُ لنفسي: يبدو أنَّ اسم «جعفر» سيطاردني حيث ما كنت حتى القبر ويوم الحشر ودار المعاذ.

في الجهة الأخرى من «طريق العروض» يتزاحم الشعب الدملانيُّ على الكراسي أو فوق الأشجار والصخور الجبليَّة البعيدة، يراقبُ العرض والمنصَّة الملكيَّة من الشاشات العملاقة في أغلب الأحوال لشدَّة اكتظاظ الحضور واستحالة رؤية المنصَّة هذه المرة. كان واضحًا من سيماء البشر الآن، أكثر من أيّ وقت مضى، أنَّ الجميع ينتظرُ شيئًا غير اعتياديّ إطلاقًا في اللحظات القريبة القادمة.

---

١ ـ يبحْرِر: يفتح عينيه كثيراً.

بعد عبور رموز وحدات الجيش الملكيّ بأسلحتها الثقيلة والخفيفة في جوّ كرنفاليّ مهيب، اقتربت لحظة التتويج. دعا المسؤول الإعلاميُّ للملك، مقدّمُ الحفل، السيدةَ ناتارين لإلقاء كلمة التتويج لفخامة الملك العظيم المُبجَّل، ولنيل شرف تقليده التاج باسم شعب مملكة دملان العظمى الذي اصطفاه الله على شعوب العالم، كما قال المقدّم، بمنحه مَلكًا لا يضاهيه ملك: «ملك الملوك، من القوقاز إلى اليرموك، من الألاسكا إلى تَبُوك، ومن هافانا إلى بنكوك...».

توجَّهت ناتارين نحو منبر المنصَّة بخطوات خفيفة. على وجهها الورديّ الفاتح ظلالُ ابتسامة رقيقة: أمعنت النظر فيها: جمال وذكاء ونورانية بلا حدود، يحيطها ثلاثة من كبار العسكريين تزدحمُ في نظراتهم لها مشاعر التقدير والإعجاب والريبة والقلق.

بعد أن شكرت الملك لاختيارها هذا العام مُتوّجةً له، وبعد أن حيَّتهُ ومدعوّيه وجميع الحضور بكلمات لطيفة تخلو من الزركشة ومن اكليشات وصيغات التحيات التقليدية، بدأ شيء ذكَّرني بسيناريو الفيلم الذي رأيته في مؤسستها:

الأصوات نفسها التي سمعتها تردّدُ: «ستأتي الآن! ستأتي الآن!...» في ذلك الفيلم ـ السيناريو، تنبعث الآن، بالمنوال نفسه، من أماكن عدَّة في كلّ أنحاء الساحة، وكأنَّها آتيةٌ من أفواه الحضور. لو لم أكن قد رأيت ذلك الفيلم لأيقنت أن هناك همسات بشريّة حقيقيَّة تنطلق من كلّ أرجاء الساحة تُردّدُ فعلاً: «ستأتي الآن! ستأتي الآن!...» ما أذهلني حقًّا هو أن مهندسات الصوت والإضاءة كنَّ

تقنيَّات ملهمات مبدعات بشكل دقيق. استطعن بحرفيَّة فائقة أن يوهمن الآذان بأن مصادرَ الأصوات تأتي من نقاط جغرافيَّة عديدة وسط مقاعد الجمهور وليست من أشرطة مسجَّلة ومُخرجة بدهاء.

راقبت وجه الملك والعسكر. كان هناك استغراب وعدم فهم وتخوُّف من هذه الأصوات الجماعية الهادئة التي انطلقَت في لحظة مفاجئة رغم امتلاء كلّ صفوف الساحة بالعسكر والمخبرين الملكيّين وبكلّ أنواع المطاوعة واللصوص وقطّاع الطرق الذين تمَّ دسُّهم في كلّ مكان...

لم تعد مهندسات الصوت بحاجة عمليّة لمواصلة بثّ تلكَ الأصوات الافتراضية بعد لحظات قليلة من إطلاقها: انطلقت، كما أحسست الآن، أصوات حقيقيَّة من أوساط الجمهور تُردّدُ العبارة نفسها بتناغم وتطابق كامل مع الأصوات الافتراضية.

بكلّ ثقة طلبت ناتارين الهدوء من حشود المشاهدين. أوقفت المهندسات الإلكترونيات بتُّهُنَّ لتلك الصرخات الافتراضية كما لاحظت، وتوقَّفت الصرخات الشعبية المنبعثة من أفواه الجمهور إثر ذلك مباشرة! قلَّ الهلع الذي أُصيب به الملك وكبار عسكره. شعر بنوع من العرفان للسيّدة ناتارين التي ازداد تركيز كلّ الحاضرين حول ما ستقوله. ساد الساحة صمت جماعيّ أعطى لتلك الثواني توتُّرًا وتشويقًا ورهبة وأهميَّة استثنائية.

أضافت ناتارين بصوت هادئ، واثق من نفسه، كلمات ذكَّرتني بسيناريو فيلم المؤسسة: المعذرة أيُّها السادة الأعزاء! ليس هذا وقت

الحديث عن المملكة الموعودة التي نحلم بها عبثًا منذ ثلاثين قرنًا! إن كان لهذه المملكة التي ننتظرها منذ ثلاثة آلاف سنة أن تأتي، فلتأتِ الآن دون تردُّد! مالم، لنواصل برنامج الحفل بتتويج الملك تشومولونجا ولننتظرها ثلاثة ألف سنة أخرى!...

لاحظتُ أنَّ الأستاذ نجيب قام من مقعده عندما بدأت ناتارين تهدئةَ الحضور، توجَّه إلى مكان ما ولم يعد بعد. لعلَّه توجَّه حينها إلى دورة المياه في أحد كواليس المنصَّة الملكيّة.

كان حديثُ ناتارين هادئًا، يبدو مرتجلاً بريئًا مخلصًا وجذّابًا للجميع، بما فيهم إلى هذا الحدّ أو ذاك فخامة الملك. أما أنا فكنت أراه مسرحيًّا إلى حدّ كبير، ماهرًا جدًّا، لأني شاهدتُهُ في فيلم السيناريو في مؤسستها... أيقنت أنَّني أعيش لحظةً تاريخيَّةً لا مثيل لها. كانت لحظةً متعدّدة الأبعاد: طبخة إلكترونيَّة قروسطيَّة ذكيّة في مجتمع ملكيّ متخلّف. مؤامرة إلكترونيَّة على إيقاع أسطوري، ذات أهداف نبيلة كما يبدو: شعرتُ أنَّه إذا كان للمقولة الشهيرة: «الغاية تبرِّر الوسيلة» ما يُبرّرُها أخلاقيًّا مرَّةً واحدة فقط، فلعلَّها هذه المرَّة...

ثمَّ بدأت أرهب اللحظات بعد أن قالت ناتارين: «إن كان لهذه المملكة التي ننتظرها منذ ثلاثة آلاف سنة أن تأتي، فلتأتِ الآن دون تردُّد!...». انطفأت حينها كلُّ الأضواء في اللحظة نفسها. غرقت ساحة العروض من أقصاها إلى أقصاها في ظلام مدلَهِمّ كثيف دام حوالى عشرين ثانية. ثمَّ تجلَّت الساحة من جديد مغلَّفةً بضوء آخر جذَّاب للنظر. لم يكن نيونيًّا ساطعًا كما كان قبل الانطفاء، أصبح

نوراً طبيعيًّا رقيقًا دافقًا يريح العين والقلب سريعا. اغتسلت الجبال التنكاوية الخلفيّة للساحة بنور فضيّ رقيق يأسرُ البصر. امتلأت كلُّ الشاشات العملاقة في الوقت نفسه بوجه آخر يختلفُ كثيراً عن وجه تشومولونجا. وجه فتاة تبدو كأنَّها تتقدَّم من أحد الجبال المواجهة للساحة. التفت الجمهور للخلف باتجاه الجبل ليروها بلحمها ودمها. هالةُ ضوء تحيطها وتضفي على تلك اللحظة قدسيَّةً استثنائيَّة. كانت متجلّيةً أمامهم، تسير على الفضاء كحوريَّة أو كعروس الجنّ، تتقدَّمُ نحوهم بخطىً ملائكيَّة، بجسد مسبوك من الموسيقى، جسد رشيق سائل ممتد، كما رأيتها تماماً في فيلم المؤسسة قبل أن أفقد الوعي في تلك اللحظة بالذات.

امتلأت أعينُ الدملانيين بالدموع. كانت «ملكتُهم الموعودة» مفصَّلةً كما ينتظرونها تمامًا. بدأوا يتأهَّبون للركوع أمام وجهها النورانيّ البديع. لم أفقد الوعي هذه المرة، مثلما حدث لي في المؤسسة قبل يومين، وأنا أشاهد ملامح مانيارا طفولتي بأُمّ عينيي، لأنِّي الآن إنسان طبيعيٌّ مستقرٌّ عاطفيًّا، يحيا في الأحضان الدافئة لراعيته الخالدة.

ثمّة إعجاز خارق في إخراج المهندسات الدملانيَّات: لولا الفيلم الذي شاهدته صباح الثلثاء في المؤسسة، لأيقنت بشكل دينيّ أن هذه «الملكة الموعودة» التي تملأُ الشاشات أمامي والتي أراها الآن بأمّ عينيّ قادمةً من خلف الجبل نحو الساحة، هي إنسان حقيقيّ يأتي فعلاً من

«السماء الثامنة» إلى حياة الدنيا. كانت درجة الإتقان ودقَّة الخلق الإلكترونيّ وجودة تداخل وتلاعب الأضواء التي نقشتها وبرمجتها المهندسات العبقريات، كانت من الإتقان والمهارة لينسى المرء مباشرةً أنَّه أمام جسد من «الفوتونات الضوئيَّة» الملوَّنة لا أكثر ولا أقل! كان التصميم الإلكترونيُّ للمشهد لا يدع مجالاً للشك. حتى أنا الذي قضّيت سنواتي الأخيرة في سانت مالو أستخدم استيديوهات «برنامج شهرزاد» في تفصيل وتصميم وخلق معبودتي الافتراضية آنذاك: تيماء و«طبينتها»[1] الافتراضية: نسرين، حتى أنا بدأت أشعرُ بالرغبة بالانحناء والسجود أمام تجلّي هذه الملكة الموعودة القادمة من وراء الجبل. بدأت أتساءل إن لم أكن أمام معجزة إلهية خارقة، كدت أسجد...

تقدَّم الجسدُ النورانيُّ المسبوكُ من الحسن والموسيقى نحو الساحة قليلاً، ثمَّ دار للخلف معطيًا ظهره للجمهور وكأنَّه ينوي الابتعادَ عن الساحة. امتلأت أعين الدملانيين والدملانيات، بعسكريّيهم ومدنيّيهم، برجالهم ونسائهم، بعلامات الحسرة وهم يرونه يبتعد أكثر فأكثر. كان الجمهور يحدِّق في ذلك الجسد السماويّ المهيب، يعضُّ الأصابع قلقًا، يتوسَّله بنظرات صامتة أن لا يبتعد كثيراً... رمقت، بالصدفة وبدون وعي، الملك تشومولونجما الذي لم يعد ينظر إليه أحدٌ في تلك اللحظات. لاحظت أنَّه يحمل بندقيَّته، يوجّهها نحو ظهر مانيارا وهي تدير ظهرها لتنكاء مبتعدةً خلف جبالها الشاهقة...

---

١ ـ الطَّبِيْنَة: الزوجة الأخرى للرَّجُل المتزوج من اثنتين.

الفصل الثالث عشر
مقبرةُ الفيَلة

كمثل كلّ كوابيسي الليليَّة في سنوات «عصر الصاردين» التي تنتهي، كما حدَّثتكم سابقًا، بطاغية يصوّب بندقيَّتهُ نحو ظهر فتاة: ١) وثبتُ كالأسد، رميتُ نفسي نحو زناد بندقيَّته، ٢) دفعته بكلّ ما أملك من قوّة لئلا يمسَّ جسدَها وإن كنت أعرف أنَّه جسد من نور خالص، ٣) تمتمت بعد ذلك عبارات بلا معنى أصابت أمّي بالهلع. غير أنِّي لم أستيقظ حينها مذعوراً كعادتي. استمرَّ الحلمُ قليلاً هذه المرّة.

اختفى الجسدُ النورانيُّ وراء جبال تنكاء وكأنَّه يغادرها تمامًا. امتلأت الآفاق بنبرات صوت حزين مخلص مجهول المصدر، ردَّدت أصداءه كلُّ الجبال التنكاوية الشامخة. فسَّرهُ الكثيرون بأنَّه صوت جدَّة جدَّة.... جدَّة هذه الملكة الموعودة! جلالة ملكة سبأ هي نفسها!

قال الصوتُ السبأيُّ الرخيم: لن تأتيكم الملكة الموعودة وأنتم في جهلكم تعمهون! لن تأتي حفيدتي شعبًا «مُوسّحًا» يقضي يومه يمتصُّ الأقتموم، يحكمه أئمةٌ وسلاطين وملوك ينتمون إلى عصور ظلمات الأرض، لا يسعى لنيل العلم والمعرفة من مناهلهما الحديثة...

مرّت الأحداث، بعد ذلك، بشكل سريع جدًّا. ناتارين تأخذ مفتاحًا ذهبيًّا كبيرًا قابعًا على المنضدة، تفتح الصندوق الزجاجيّ المتلألئ، تأخذ التاج بكلّ بساطة وثقة، وترميه بابتسامة هادئة نحو «طريق العروض» لتتناثر أسلاكه و«سكاريبُه» وجواهره إربًا إربًا. امتلأت الشاشات طويلاً بمنظر التاج وهو يتحوّل إلى قطع خردةٍ على إيقاع رنين تهشّمه على الأرض. ضخّمت مكبّرات الأصوات، التي توجّهُها المهندسات الدملانيّات بحدَّة بصر وسرعة فذَّة، ذلك الرنين على الهواء مباشرة، لتملأ أصداؤه الفضاء، ثمَّ أعادته بشكل دائريٍّ مرّاتٍ عديدة ليظلَّ خالدًا في الآذان...

تشومولونجا يجري مذعورًا نحو الباب الخلفي للمنصَّة، يهرب عاريًا، بعيدًا عن الساحة، بعيدًا عن تنكاء.

لاحظت أنَّ الأستاذ نجيب لم يعد لمقعده منذ وقت طويل، كان غائبًا تمامًا عن كلّ ما حدث. شعرتُ بالقلق. غادرت المنصَّة، أسرعت المشي نحو محطَّة السيّارات بحثًا عنه. لم تكن السيّارة في محلّها. بدأت أرتبك وأقلق كثيرًا من أسباب غيابه، ناهيك أنَّها ساعة الأسئلة وكشف الأسرار حسب الوعد والاتفاق. ساعة انتظرتها ثانيةً ثانيةً منذ أن غادرنا مطار عدن.

لم يكن هناك أثر يدلّ على وجوده إطلاقًا. تحرّكت يمينًا، يسارًا، لا أدري في أيّ اتجاه يلزمني البحث عنه. اعتراني خوف أزرق. جريتُ نحو «طريق العروض»، أنظر يسارًا ويمينًا قرب المنصّة. اختلط حينها الحابل بالنابل وعمّت الفوضى بعد أن رمت ناتارين التاج على الأرض. فكّرت بالعودة للمنصّة الملكيّة بحثًا عن السيدة عنانيص لأعرف منها أخبار الأستاذ نجيب. جريت نحو المنصّة. كانت ناتارين في تلك اللحظات قد أخذت الميكرفون لتهدئة الناس ولبدء خطاب طويلٍ يشبه فاتحة مرحلةٍ تاريخيّةٍ جديدة من حياة أُمّة...

كانت ناتارين وحدها في ناظريَّ «ملكةً موعودةً» حقيقيّةً من لحمٍ ودم!

في طريقي للمنصّة فوجئتُ بدولولاجيري، دولو، النيبالي الرائع الذي رافق رحلتنا من عاصمة النيبال إلى تنكاء. هدّأني بابتسامته الدائمة ووجهه المشرق. دولو إنسان يجهلُ أبجديّة الربشة، لا يستوعب سيرورتها وميكانيكها من قريب أو بعيد. بينهما برزخ لا يبغيان. ينظر إليك إن كنت مربوشًا كما لو كنت آتيًا من كوكب خارج مجرّة «درب اللبّانة».

يبدو لي أنّه لو عاش دولو ساعات بدء «يوم القيامة» وشاهد بأُمّ عينيه «العاديات ضبحًا والموريات قدحًا...» فلن تَمَسَّ ملامحه أدنى علامات الربشة. سألني بابتسامة هادئة عن سبب ربشتي ولماذا أهرع هكذا بعجلة. أجبت: الأستاذ نجيب! قال لي، وكأنّه يعرف إجابتي

مسبقًا، إنه عندما كان يقودُ آخر فوج سياحيٍّ قادم للملكة قبل قليل لمشاهدة استعراضات حفلة التتويج والألعاب الناريّة الملكيّة التي ستتبعها، فوجئ بالأستاذ نجيب يتّجهُ بسيّارته نحو... المغارة!

ثمَّ أضاف بابتسامة حائرة هادئة وبنظرة شفقة واستغراب تخلو من الانفعال والتوتُّر: لم يتجرأ إنسان يومًا على الذهاب إلى تلك المغارة! لا أدري لماذا جازف الأستاذ نجيب هكذا!

في هذه اللحظة بالذات استيقظتُ من حلمي مذعوراً. رأيت أُمّي ترتجف أكثر من أيّ وقت مضى متمتمةً: «حبسٌ حابسٌ، حجرٌ يابسٌ، ليلٌ دامسٌ، وشهابٌ قابسٌ...» قفزتُ من السرير، هرعتُ باتجاه ركن شارع دغبوس لأتأكّد أنَّ الأستاذ نجيب مازال حيًّا في شقّته في تلك العمارة الصغيرة الواقعة بين «مكتبة المعري» و«صيدلية سقراط»، وأنّه لم يتوجّه فعلاً إلى أخطر مغارة على وجه الأرض. كنت بحاجةٍ لرؤيته أمام عينيّ لأنسى هذا الحلم التراجيديّ سريعًا...

اعترضتني أمي وأنا أتوجّه مرتعشًا هائجًا أشعثَ أغبرَ نحو باب منزلنا الذي لم أتجاوزه خطوةً واحدةً منذ أكثر من ثماني سنين! أزحتها عن طريقي تحت وطأة القلق من مكروه حلَّ بأستاذي الذي لم أره منذ أن ودّعني في مطار عدن عندما سافرت إلى فرنسا في ١٩٧٨. والذي لم أره بعد ذلك عندما عدت إلى هذا الشارع في نهاية ١٩٩٣. كان، كما حدّثني الحاج الرديني آنذاك، يدَرّس في مدرسة خصوصية في صنعاء بعد أن تعدَّدت مسؤوليّاته العائلية وكثُرت مشاكله الماديّة.

لم أره في الواقع منذ ١٩٧٨ إلا في هذا الحلم الذي جاء خلاله يبحثُ عنِّي لأسافر معه إلى مملكةٍ لم أسمع عنها في حياتي من قبل: مملكة دملان!

كانت الساعة تقتربُ من الرابعة والنصف عصرًا تقريبًا.

رأيتُ شارع دغبوس بعد أكثر من ثماني سنين! يصعبُ أن يرى المرءُ مكانًا آخر يشكّلُ نقيضًا مثاليًّا وعكسًا نموذجيًّا لكلّ ما رأيته خلال تلك الرحلة من عوالم جماليّة: المحميّات الطبيعيَّة التي أعادت لي ذكريات نجورو نجورو، سرينجيتي... ارتفاعات الهملايا، الشلاَّلات الدملانيَّة المواجهة لبلكونة راعيتي الخالدة، رقصات الدملانيّات في «ساحة ظلال الفردوس»، المقصورات الزجاجية التي سكنتُ فيها، عنانيص، ناتارين...

انتهى الحلم فعلاً! هاهو كابوس اليقظة الدائم: شارع دغبوس. مازال مقفرًا كئيبًا أكثر عُبوسًا وجوعًا وفقرًا وتدهورًا من أيّ وقت مضى. بشره أشباح تتقدَّمُ ببطء نحو الهاوية. رأيت أحدهم: الحاج الرديني أمام باب شقّته المواجهة لشقَّة الأستاذ نجيب، يجرجر نفسه عائدًا من صلاة العصر في مسجد دغبوس. كدتُ لا أعرفه وكأنَّ ثمانية عقود فرَّقتنا وليست ثماني سنين فقط. ترك التربية والتعليم وصار متقاعدًا كما يبدو. صار هيكلاً عظميًّا تقريبًا، مملوءًا بالتجاعيد، أشعث الشعر، عشوائي اللحية، محفور الأوداج، غير نظيف الملابس كما كان سابقًا عندما كان مدرّسًا. فقد معظم أسنانه

واسودَّت كثيراً من تبقَّت منهنّ. كان باب منزله مفتوحًا عندما حيَّاني متسائلاً أين غبتُ كلَّ هذه السنين، هذه المرة.

لم أتجرّأ على الردّ: في علبة الصَّاردين.

دعاني لشرب كأس شايٍ في منزله الذي ضايقني وآلمني كثيراً ما اعتورهُ من تدهورٍ خلال هذه السنين الأخيرة. لاحظت أنَّ الحاج الرديني باع كثيراً من أثاثه القديم. نقف أيضًا بعض الأبواب الداخليَّة ومصابيح بعض الغرف، وباعها من شدَّة الحاجة. قال لي باستسلام كبير: إنَّها غير ذات أهميّةٍ كبيرة في آخر التحليل!

يعيش في المنزل نفسه ستّة أبناءٍ وبنات أصغرهم مريض جدًّا، وأكبرهم أكمل كليّة الاقتصاد بجامعة عدن قبل ٣ سنين ولم يجد عملاً. رأيت أيضًا زوجته، الحجَّة فطُّوم، التي كانت شديدة الإرهاق والضعف، في حالة صحيَّة ونفسيّة يرثى لها هي الأخرى. عرفت أنَّهم يعيشون على ٨٠٠٠ ريال يستلمُها الحاج الرديني بعد تقاعده، يضيعُ ثلثاها في تسديد فاتورة الكهرباء فقط!

طلب منّي أن «أُعطيه حقَّ القات»!... هو الذي كان دومًا أنيقًا ذا كبرياء وأحاديث جذّابة أتذكَّرها وأُردّدُ بعضها كمقولات خالدة، كما تشهدون بذلك أنفسكم. سألته عن الأستاذ نجيب الذي يسكن أمام شقَّته. أجابني (هو الذي كان يومًا ثاقب الذاكرة) إنَّه لا يتذكَّرُ متى رآه آخر مرة، هذا الصباح أم البارحة أم قبل أسبوع!

قلتُ له: سأذهبُ لمنزلنا وسأعود بـ «حقّ القات» بعد دقائق.

عند خروجي من المنزل، رأيتُ شقَّة الأستاذ نجيب مفتوحةً قليلاً. لا أحبُّ أن أشرح لكم في أيَّة حالة رأيتُ أستاذي العزيز، لئلا أُعكّر صورتهُ السابقة التي أصبحتُم تعرفونها مثلي تقريبًا. لكم أن تتصوَّروه اليوم كما تُحبُّون. لو توسَّلتُموني أن أُسرّب كلمتين عمّا آل إليه أستاذي الرائع، إذا ألحَحتُم كثيراً على ذلك، إذا «كعَّفتموني» فعلاً أن «أُطَحّسَ» تينكما الكلمتين بشكل أو بآخر، فسأقول بتكثيف شديد إنَّه صار اليوم مثلي تمامًا: صاردينًا في علبة صاردين.

فرنسا، ١١ أكتوبر ٢٠٠٣ ـ ٢٨ فبراير ٢٠٠٤

كلمة شكر

«لمؤسسة العفيف الثقافية» بكلِّ طاقمها الرائع كلُّ الشكر على الاهتمام الكامل بإعداد وإخراج ونشر وتوزيع كل أجزاء الرواية.

لصحيفتي «الثقافيّة» و«الثوري» خالص الشكر على اهتمامهم بنشر الأجزاء الثلاثة من هذه الثلاثية. وبشكل خاص للأساتذة: سمير اليوسفي وعزّت مصطفى كلَّ امتنان شخصيٍّ وتقدير.

ليتقبَّل الأصدقاء الأعزاء:

أحمد جابر عفيف، أحمد فرج باشميلة، أروى عبده عثمان، الطاف عبد الرب سروري، حميد عبد المجيد قباطي، عبد الباري طاهر، عبدالرحمن عبد الخالق، علي المقري، علي محمد زيد، علي ناجي نصاري، فريال الجابر، محمد الصيّادي، محمد عبدالرب

سروري، محمد راوح الشيباني، محمد عبدالوهاب الشيباني، نايف محمد شمسان، هدى العطاس...

كلَّ عرفاني وإِعجابي وشكري على ملاحظاتهم وتصحيحاتهم وصبرهم على تحمُّلي في فترات إِعداد أجزاء هذه الرواية. لولا تفاعلهم وتشجيعهم لما كان لهذه الرواية أن تولد وتكتمل...

المحتويات

الجزء الأول ـ شارع دَغْبوس ٧

الفصل الأول ـ الأستاذ نجيب ٩

الفصل الثاني ـ تَنْكاء ٣٧

الفصل الثالث ـ شارع دَغْبُوس ٦١

الفصل الرابع ـ سَوْسَن ٩١

الفصل الخامس ـ أبيض، أبيض، حالي كما العسل! ١٢١

الجزء الثاني ـ سانت مالو ١٥٥

الفصل الأول ـ فيشي ١٥٧

الفصل الثاني ـ غسيلُ رأس السنة ١٦٩

الفصل الثالث ـ قُبْلةُ رأس السنة ١٧٩

الفصل الرابع ـ كوعُ المرأة ١٩١

الفصل الخامس ـ شيطانُ النهايات المشينة ٢٠٥
الفصل السادس ـ شارع المخا ٢١٧
الفصل السابع ـ إيـزا ٢٣١
الفصل الثامن ـ دُرَّة، ميزان ٢٤٥
الفصل التاسع ـ أبو عَيْنَها ٢٦١
الفصل العاشر ـ كان عِشقًا طفيفًا جدًّا ٢٧٥
الفصل الحادي عشر ـ تيماء ٢٨٩
الفصل الثاني عشر ـ ترموست الشاي ٣٠١
الفصل الثالث عشر ـ شهرزاد ٣١٧
الفصل الرابع عشر ـ نسرين ٣٣٣
الفصل الخامس عشر ـ ساحلُ العُشّاق ٣٤٩

الجزء الثالث ـ عُلْبَة الصَّاردين ٣٧٣

الفصل الأول ـ عاصمةُ الدخان ٣٧٥
الفصل الثاني ـ أريج مرجان ٣٩١
الفصل الثالث ـ عنانيص ٤٠٧
الفصل الرابع ـ سِرُّ حُبِّي فيك غامض! ٤٢٧
الفصل الخامس ـ صنعاء القديمة «باي نايت»! ٤٤٥

الفصل السادس ـ العُقْدةُ الرابعة ٤٦١

الفصل السابع ـ الوصايا العَشْر ٤٧٢

الفصل الثامن ـ في قريةٍ نائيةٍ غير بعيدةٍ جدًّا من تعز ... ٤٩٥

الفصل التاسع ـ كأسٌ صغيرة من الماء المُكْفهرِّ اللون، تمرُّ أمام
٢٤ شفةً تتقاسمُها قطرةً قطرة ٥١٣

الفصل العاشر ـ رحلة في جوف دملان ٥٢٩

الفصل الحادي عشر ـ بين الكهف والجبل ٥٤١

الفصل الثاني عشر ـ عيد النَّامس ٥٥٣

الفصل الثالث عشر ـ مقبرةُ الفيَلة ٥٧١

كلمة شكر ٥٧٩

رواية عن سيرة وجدان، الذي وُلد في تنزانيا وعاد مع أهله للعيش في عدن، عن حكاية فشله منذ طفولته وحتى بلوغه سنّ الأربعين، عن علاقته بسوسن المرأة المطلّقة التي اتُّهمتْ بالعهر بمجرّد وجودها مع وجدان منفردَيْن، عن صديقه ونقيضه المتهوّر الجاهل جعفر: إنّها رواية عن وطن يعاني وضعًا اجتماعيًّا يَحْكمه التخلُّفُ وعاداتٌ تقمع حريةَ الإنسان بما يصيب جسدَه وعقلَه ونفسيّته.

حبيب عبد الرب سروري، وُلد في عدن. حاصل على شهادة الدكتوراه في الرياضيات التطبيقية، ويعمل بروفسورًا في المعهد القومي للعلوم التطبيقية في روان في فرنسا.

نُشر له العديدُ من الأبحاث، فضلاً عن روايات «عرق الآلهة» و«طائر الخراب» و«الملكة المغدورة»، ومجموعة قصصية، وديوان شعر.

* «دملان» رواية شاملة، كليّة، تزاوج بين المتخيل والافتراضي.

محمد برادة

* دملان أرقى ما وصلت إليه الروايةُ العربية في مجال الرواية الإلكترونيّة.

نبيل سليمان

* بعد أن فرغتُ من قراءة «دملان» تكوّن لديّ انطباعٌ خشيتُ أن أبوح به، وهو أنّ العلماء لا الشعراء هم الأقدر على كتابة الروايات.

عبد العزيز المقالح

أبو عبدو البغل

دار الآداب
هاتف ٨٦١٦٣٣-٨٠٣٧٧٨
تصميم الغلاف

13€00